

# قَصَصُ الْقُرَّانِ الْكَرِيمِ

صِدْقُ حَدَثٍ      وَسَمُوهُدَفٍ  
إِزْهَافُ حِسِّ      وَتَهْذِيبُ نَفْسٍ

الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس



دار النفائس  
لنشر وتوزيع الأردن

قَصَصُ  
الْقُرَّانِ  
الْكَرِيمِ

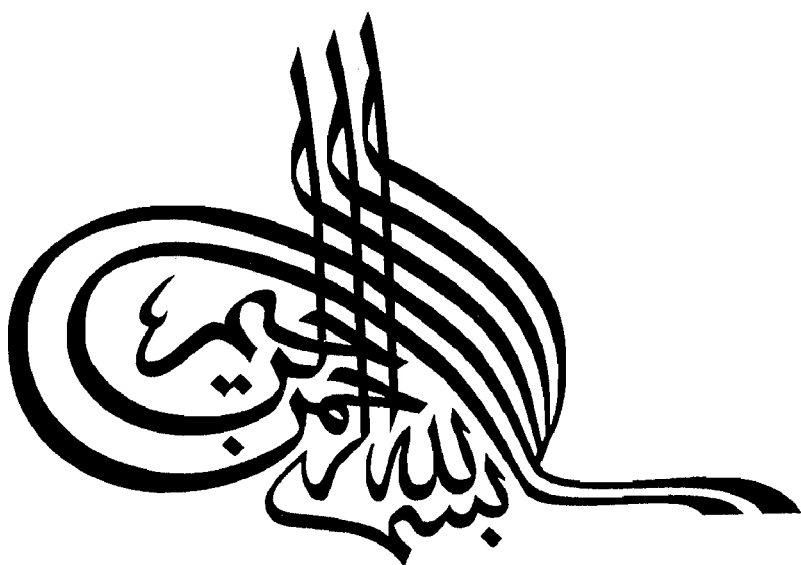
رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

قَصْرُ  
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ





# قصص القرآن الكريم

صِدْقُ حَدَثٍ      وَسُمُوهَدَفٍ  
إِرْهَافُ حِسٍّ      وَتَهْذِيبُ نَفْسٍ

الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس



دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

# حقوق الطب مع محفوظات

١٤٣٠هـ - ٢٠١٠م

الطبعة الثالثة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

٢٠٠٩/٤/١٢٧١



دار النفائس

للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس

ص.ب ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن

هاتف: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤٠

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٥٦٩٣٩٤١

Email: ALNAFAES@HOTMAIL.COM

www.al-nafaes.com

## مقدمة الطبعة الأولى

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ  
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ  
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١-٧].

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، ملء  
السموات وملء الأرض وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، وأفضل الصلاة،  
وأتم التسليم على صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده سيدنا محمد النبي الأمي وإخوانه  
الأنبياء المرسلين وآلهم وصحبهم. اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد،  
كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى  
آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين انك  
حميد مجيد، عدد خلقك ورضا نفسك وزنة عرشك، ومداد كلماتك، كلما ذكرك  
الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون...

أما بعد: فإن أولى ما تنفق فيه الأوقات العلم، الذي فضل الله به الإنسان، وفضل  
الناس بعضهم على بعض، وبخاصة ما اتصل منه بكتاب الله تبارك وتعالى الذي لا  
تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد... هذا القرآن أولاً الذي لا زال يمدّ الدنيا  
بأصدق المعارف، وأكثر العلوم نفعاً منذ أن أنزله الله على قلب سيدنا رسول الله ﷺ وسنة  
رسوله ﷺ ثانياً.

ولقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم هذه الحقيقة، فعاشوا مع هذا القرآن، ولم تكن  
حياتهم معه نظرية فحسب، بل كانت عملية، لا يصدر عن شيء في حياتهم، قبل أن

يرجعوا إليه، يستفتونه فيفتيهم، ويستهدونه فيهديهم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الاسراء: ٩].

وسيطل هذا القرآن مصدر كل نور يُمدّ من تتلمذ له بجديد، يُصلح الحياة والأحياء، ولا يظنن ظانّ أن أحداً مهما عظمت منزلته في العلم باستطاعته أن يستوعب كل ما في القرآن من علوم وأسرار ومعارف، ذلك أمر لن يكون أبداً... فمهما كتب الكاتبون وأبدعوا، ومهما جدد المجددون، فسيبقى الذي فاتهم منه أكثر من الذي أخذوه.

ونحن نرى المفسرين منذ القرن الأول إلى عصرنا هذا يقفون أمام هذا القرآن واحداً تلو الآخر، وما أكثر الجديد الذي جاءوا به، ولا يزالون يجيئون، كذلك الذين يكتبون في موضوعات قرآنية كالإعجاز والقصص، والأخلاق، والبيان، لن يصل أيّ واحد منهم إلى الغاية التي ليس بعدها غاية، والدرجة التي ليس فوقها درجة، وذلك يرجع فيما أحسب -والله أعلم- إلى أن هذا القرآن الكريم أراد الله خاتم كتبه منزلاً على خاتم أنبيائه عليه وعليهم وعلى آلهم جميعاً صلوات الله وسلامه، فلو أن جماعة استطاعوا أن يحيطوا بكل ما في القرآن الكريم لاستنفد القرآن أغراضه، كيف وهو الكتاب الخاتم الذي ستظل الدنيا تقتبس من أنواره ما دامت الحياة والأحياء.

وإنني أشكر الله على ما أكرمني به من فضله، فهيأ لي أن أكون ممن تربوا على موائد أهل القرآن جزاهم الله خيراً.

منذ سنين وفقني الله لإصدار كتاب القصص القرآني إبحاؤه ونفحاته ركزت الحديث فيه على قضية التكرار، وأن لا تكرر في كتاب الله بعامة والقصص القرآني بخاصة. ولقد لاقى قبولاً ولله الحمد والمنة. وقد جاء في مقدمته:

هذه دراسة، نرجو أن تكون مفيدة مأجورة في القصص القرآني، توخينا فيها جدّة العرض، ويُسّر الأسلوب، واستيعاب الأهداف، وردّ الشبهات، كما توخينا أن نجتمع بين الطريقتين: التحليلية والموضوعية.



وسيرى القارىء الكريم الجوانب المتعددة نفسية واجتماعية وفكرية، مما لا غناء لهذا الإنسان عنه. إلى جانب جمال الأسلوب، وروعة البيان، سيرى ذلك كله وغيره في هذا القصص الكريم، الذي نرجو أن تُجَلِّي هذه الدراسة جوانبه المتعددة.

رَكَّز هذا الكتاب كثيراً على إبراز هذه الجوانب بعامة، وقضية التكرار بخاصة، ولن أطيل الحديث، وسأدع الحكم للقارىء.

وها أنا أقدم لك أخي القارىء -نفعني الله وإياك- كتاباً آخر الحاجة إليه ماسة (قصص القرآن - صدق حدث وسمو هدف إرهاف حس وتهذيب نفس).

ويمتاز هذا الكتاب فضلاً على ما تضمنه من الكتاب الأول بما يلي:

أولاً: تصحيح الأخطاء التي كنت أتمنى تصحيحها من قبل، وجُلَّ هذه الأخطاء طباعية، وبعضها كان نتيجة سهو، وجُلَّ من لا يسهو، وبعضها الآخر كان رأياً ظهر لي فيما بعد أن غيره خير منه.

ثانياً: الزيادات الكثيرة في هذا الكتاب.

وهذه الزيادات منها ما لم يكن في الأصل كقصص آل بيت أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء الذين قال الله فيهم ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. إسماعيل وإسحاق ويعقوب- صلى الله عليهم وسلم وعلى نبينا وآل بيته- ورضي الله عن أصحابه. كذلك القصص القرآنية القصيرة كقصة ابني آدم وقصص سورة الكهف وقصة الملائكة من بني إسرائيل والمتدبر لهذه القصص القصيرة يجدها ذات مسلكين اثنين: الأول: كان تحذيراً من بعض السلبيات التي تحول بين الأمة وبين معارج الرقي.

والمسلوك الآخر: حث على بعض الأخلاق الإيجابية، ففيها التحلية والتخلية لذا جعلت هذا الفصل في مبحثين.

ومن الزيادات التي لم تكن في الأصل عرض لأهداف القصة في القرآن الكريم، وآخر عرضت فيه لجماعة من الكاتبيين في القصص القرآني، وفصل عن الشبهات على القصص القرآني.

وهناك نوع آخر من الزيادات في هذا الكتاب: وهو في بعض القصص أكثر من بعضها الآخر، وتظهر هذه الزيادات في قصص آدم وإبراهيم وموسى وعيسى -عليهم الصلاة والسلام-.

أما قصة يوسف فلقد أشرت إليها في الكتاب الأول اشارات موجزة كل الإيجاز وبيّنتُ سبب ذلك؛ حيث قلت فيه بما أنني أعالج قضية التكرار، وقصة يوسف لم تذكر في كتاب الله إلا مرة واحدة. فلن أطيل الحديث فيها.

ولما كانت الغاية من هذا الكتاب تختلف كان لا بدّ من التفصيل في هذه القصة العظيمة الأهداف، الجمة الفوائد.

ثالثاً: امتاز هذا الكتاب بتحقيق كثير من القضايا التي اختلفت فيها آراء الباحثين، منها بعض أخبار آدم، وطوفان نوح، واسم أبي إبراهيم أهو آزر أم تارح؟ والشيخ الكبير في قصة موسى أهو شعيب؟ ونبوة يونس أهى قبل ابتلاع الحوت له أم بعده؟ وفتنة سليمان في قوله «ولقد فتنا سليمان»، ما حقيقتها؟.

وغيرها ممّا سيجده القارئ في هذا الكتاب.

رابعاً: التّوسّع في ردّ بعض الشّبهات، وردّ بعض الآراء، كالنظريات التي افتتن بها بعض الكاتبيين؛ ومنها تطبيق نظرية دارون على خلق آدم، التي تأرجحت فيه كلمات بعض الفضلاء، كالشيخين الفاضلين- صاحب المنار وعبد الوهاب النجار- مؤلف كتاب (قصص الأنبياء)، وغالى فيه. وأسفّ بعضهم مثل: مصطفى محمود، وعبد الكريم الخطيب.

كذلك ما أُثير حول التشكيك في أخبار القرآن عن أبينا إبراهيم وإسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - .

خامساً: التنبيه كلما سنحت فرصة على بعض قضايا الإعجاز في القصة القرآنية ليجمع القارئ بين متعة النفس والروح ومتعة الفكر، وصدق الخبر وجمال النظم، وشفافية الأسلوب ودقة التعبير، وذلك دون أن يشعر القارئُ بفجوة تنقله من استغراقه في القصة. بل جاءت هذه الإشارات منسجمة متسقة مع الحديث عن القصة من ذلك مثلاً:

حديثنا عن سرّ التعبير في قصة آدم بين قوله سبحانه «اهبطا» في سورة طه و«اهبطوا» في غيرها من السور.

وسرّ التعقيب في سورة الأعراف بعد ذكره قصة آدم بالنداءات الأربعة «يا بني آدم».

وسر حرف العطف في قوله ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤] وفي قوله سبحانه ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَذْبَرَ يَتَغَيَّبُ﴾ [النازعات: ٢٢].

وسر التعبير في قوله سبحانه في سورة يوسف ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦].

وفي قوله: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّ الْأَعْلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] و﴿إِنَّا رُسُلَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. إلى غير ذلك مما أرجو أن تهشّ له وتسرّ به.

سادساً: تفسير الكلمات والعبارات التي تحتاج إلى تفسير.

سابعاً: التنبيه على الربط بين القصة القرآنية، وواقعنا المعيش، لاستنباط الدروس العملية من القصص القرآني.

هذه بعض الميزات لهذا الكتاب، وأرجو أن تجد غيرها، على أنني أرجو إن شاء الله، أن أكون سهل الأسلوب، واضح العبارة أميناً بحيث أنسب كلّ قول أو رأي إلى صاحبه. والأمر الحريّ بالذكر، الجدير بالإشارة إليه، والإشادة به هو أن الهدف من القصص

القرآني وهو أحسن القصص العبرة والفائدة والعظة، وتثبيت أفئدة المؤمنين، ولما كان القصص القرآني لا تنفسي عجائبه. فسيظل ويبقى يُمدُّ المسلمين بمددٍ علويٍّ ليكون من أعظم العوامل التي تعينهم على أن يغيروا ما بأنفسهم.

وقد اقتضت طبيعة البحث في هذا الكتاب أن يقع في باين اثنين.

**الباب الأول:** وهو دراسات حول القصة القرآنية وينتظم خمسة فصول.

**الباب الثاني:** عرض وتحليل للقصة القرآنية ويقع في عشرين فصلاً.

وأخيراً لا آخراً فإنني لا أدعي ولا يمكنني ذلك، بأنني بلغت في هذا الكتاب مبلغاً يقرب من إصابة الغرض، والقرب من الكمال فذلك أمر لا يبلغه أساطين العلماء، ونحارير الأئمة، ومراجع الأمة فضلاً على واحدٍ مثلي، يعترف بالفضل لذويه، لكنني بذلت، ويعلم الله، ما مكنتني الله ويسر لي راجياً أن ينفع الله به ويأجر عليه. ورضي الله عن عمر حيث قال: «رحم الله أمراً اهدى إلي عيوب نفسي» وأنا أحقُّ بهذه المقولة.

والله أسأل أن ييسرنا لليسر، وأن يمنحنا الإصابة ويؤتينا الحكمة ويجنبنا الزلل، وأن يجعله ذخراً لي ولوالدي، وبركة يكرم الله بها ذريتي التي أسأل الله أن يصلحها لي، وأن يبارك الله لقارته.

ولا يسعني أخيراً إلا أن أشكر كل من أسهم في اخراج هذا الكتاب من ولد وزوج وأخ سائلاً الله أن يجزيهم خيراً، والله الحمد في الأولى والآخرة.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٦-٣٧].

السبت، الأول من شهر الله المحرم

١٤٢٠ هـ للهجرة النبوية الشريفة

فضل حسن عباس



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدوحة القرآنية الباسقة الظلال، الدانية الجنى، ذات الأفنان المختلفة الثمرات؛ هذه الدوحة العميقة الأصل، السامقة الفرع، لا ينتهي ظلها، ولا يذهب رونقها؛ فهي ذات ظل ممدود، وماء مسكوب، وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، لذلك كان القرآن كما جاء في الأثر<sup>(١)</sup> لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، وتلك طبيعة في الموضوعات القرآنية جميعها سواء أكانت قصصاً أم أحكاماً أم عقائد، لذلك كانت هذه الموضوعات لا تضمن على طلابها مهما تعددت مشاربهم، ولا تبخل عليهم مهما اختلفت رغباتهم ومطالبهم، فالأدباء يجدون فيها بغيتهم؛ رقة أسلوب، وسلاسة لفظ، وسمو معنى. وعلماء النفس يجدون فيها من الكوامن والدوافع النفسية، ومن الربط وتداعي المعاني ما يوقظ الشعور، ويجلب الانتباه وغير ذلك من القواعد التي عرفت عند أولئك العلماء.

أما علماء الأخلاق (السلوك) والتربية فإنهم يرقصون طرباً، ويهتفون عجباً؛ مما يجدونه في عرض هذه القواعد، ودقة الضوابط، وصدق الواقع، والكثير الكثير مما تحدث عنه علماء الأخلاق في القديم والحديث. وكذلك علماء العقائد والتشريع، والمفكرون جميعاً كل يجد - إن أنصف - في هذا القرآن ضالته، ومع ذلك الوضوح، والسطوع الذي يحكي الشمس في شبيبة نهارها؛ فلقد وجدنا من يتصيد في هذه الموضوعات مطاعن ومثالب، وما هم ببالغين من ذلك شيئاً إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه. ذلك عام في موضوعات القرآن جميعاً.

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن - كتاب فضائل القرآن/ باب: ما جاء في فضل القرآن - حديث رقم ١٧٢٠٦-٥/١٧٢٠٦.

والذي نود أن نقف عنده من هذه الموضوعات ونخصه بالبحث ؛ وهو حريّ بذلك :  
القصص القرآني ؛ لأن المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله كانت مساحة  
واسعة ، ما نظن أن موضوعاً آخر كان له ما كان للقصة من نصيب ؛ فالقصص القرآني لا  
يقل الحيز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلاً ، فإذا كان القرآن  
ثلاثين جزءاً ؛ فإن القصص يبلغ قرابة الثمانية أجزاء من هذا الكتاب الخالد ، وإذا كان  
المصحف الذي بيدك يبلغ ثمانمائة صفحة فإنك تجد ان القصص يشغل منه ما يزيد على  
المئتين ، ولا تعجب من ذلك ؛ لأن القصة القرآنية لم تأت لتقرر هدفاً واحداً ؛ بل إن هذا  
القصص كانت له أهدافه الكثيرة وغاياته المتعددة ؛ فعلى سبيل الإجمال يهدف القصص  
القرآني إلى تربية نوع الإنسان تربية تضمن له خير المسالك ليتبوأ أفضل المدن  
والممالك ، وتحول بينه وبين المنزلاقات والمهالك .

# الباب الأول

دراسات حول القصة القرآنية





## الفصل الأول

### الكاتبون في القصص القرآني

تناول القصة القرآنية فئات كثيرة من العلماء منهم المفسرون وعلماء التاريخ، وهناك فئة أفردت القصة القرآنية بالكتابة والتأليف.

أما المفسرون فلم يكونوا سواء، بل أوجز بعضهم وأطنب آخرون، كما اقتصر بعضهم على الخبر الصحيح الذي ذكرته الآيات على حين نقل آخرون ما صح وما لم يصح، فممن أطنب في ذكر القصة القرآنية الإمام ابن جرير في كتابه جامع البيان، والإمام ابن كثير في تفسيره، وعلاء الدين الخازن. على حين أوجز الشيخ الزمخشري ومدرسته أبو السعود والنسفي والبيضاوي، وتوسط آخرون. هذا كله مع المفسرين الأقدمين. أما المفسرون المحدثون فلقد حاول أكثرهم أن يلتزم بما صح في ذكر القصة القرآنية.

أما المؤرخون فبدهي أن يذكروا القصة في كتبهم، كما فعل ابن جرير في تاريخه، وابن الأثير في كامله، وابن كثير في البداية والنهاية. ولكن ما ذكر في كتب المفسرين والمؤرخين لا يطلع عليه كثير من الناس، إنما يطلع عليه من يقرؤون هذه الكتب، وهي كتب مطولة بالطبع، لذلك كان لا بد من إفراد القصص القرآني أو قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في مؤلفات خاصة، فأفردت كتب قديماً وحديثاً، لكن الكتاب الذي اشتهر كثيراً بين الناس قديماً (عرائس المجالس) لأبي اسحاق أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالثعلبي (٤٢٧هـ). وهذا الكتاب محشو بالإسرائيليات، وظل هذا الكتاب يقرأ حيناً من الدهر، دون أن يكون له منافس، وذلك إلى أول الثلاثينات من هذا القرن، حيث كتب العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار<sup>(١)</sup> -وهو من كبار علماء الأزهر- كتاب قصص الأنبياء.

---

(١) هو باحث ومؤرخ، من فقهاء مصر، ولد سنة ١٨٦٢م وتوفي ١٩٤١م.

## أولاً:

### «كتاب قصص الأنبياء»

#### للشيخ عبد الوهاب النجار

وكان من حق هذا الكتاب أن ينتشر بين الناس، لكن ما أحيط به من اعتراضات وشبهات، جعله يتوارى عن كثير من الناس أو يتوارى عنه كثير منهم. فبعد تأليف هذا الكتاب وطباعته في أول الثلاثينات من القرن العشرين، شكلت لجنة من علماء الأزهر بأمر من الشيخ عبد المجيد اللبان عميد كلية أصول الدين، وهي إحدى كليات ثلاث في الجامع الأزهر الشريف والكليتان الأخريان: الشريعة واللغة العربية. وقد أنشئت كلها في الثلاثينات من هذا القرن.

والعلماء الذين شكلت منهم هذه اللجنة كان منهم: الشيخ عيسى منون، والشيخ محمود أبو دقيقة وغيرهما رحم الله الجميع. ولقد كانت اعتراضات هذه اللجنة على الكتاب ومؤلفه اعتراضات كثيرة، حتى إن هذه اللجنة دعت إلى عدم تداول هذا الكتاب والحيولة بينه وبين قراءة الناس له.

أما الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- فكان كما يظهر من كتابه ومكاتباته عالماً فاضلاً، منفتحاً على عصره غير منحصر بين الطلاب والكتاب. وبعد قراءتي للكتاب واطلاعي على اعتراضات اللجنة وأجوبة الشيخ، وجدت أن هناك نوعاً من المغالاة في كثير من هذه الاعتراضات.

إن طبيعة الأحداث في ذلك العصر كانت تغري كثيراً من الناس ليتأثروا بالمدينة الوافدة من الغرب بكل ما فيها، ويظهر أن الشيخ عبد الوهاب النجار كان متأثراً بأستاذه الشيخ محمد عبده. كما يعتز هو بهذا وهو يذكر في كتابه الاستاذ محمد عبده وموقف كثير من العلماء من الإمام موقف معروف معلوم لا داعي للتحديث عنه هنا، وقد توسعت في الحديث عنه في كتابي اتجاهات التفسير ومناهج المفسرين الذي أرجو أن يصدر قريباً.

على أن كتاب الشيخ النجار سدّ فراغاً كبيراً، بل سدّ كثيراً من الثغرات في القصص القرآني، وذلك إذا وازنا بينه وبين ما كان مشتهراً بين الناس وهو عرائس المجالس.

والكتاب فيه خيرٌ كثير، فهو يعرض قصة كل نبي - كما جاءت في كتاب الله تعالى - ثم يذكر ما جاء من خبر هذا النبي في الكتب السابقة، ويرد الشبهات إن وجدت، كما ينقل آراء بعض المفسرين، وقد يتوسع أحياناً في بعض القصص كما ذكر في قصة عيسى - عليه السلام - حيث عرض للأناجيل وما بينها من اختلافات، كما عرض لقضية الصلب التي وردت عندهم، وقد يستطرد كما رأينا ذلك في قصة البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها؛ حيث كان له رأيٌ سيأتيك أيها الأخ القارئ خبره فيما بعد إن شاء الله. فلقد استطرد الشيخ كثيراً ليبرهن على ما ذهب إليه، فكتب لأكثر من واحد من طلابه الذين كانوا يشتغلون في التحقيقات الجنائية وغيرها، نعم كان للشيخ بعض آراء كنا نودّ أن لا تكون وسأعرض لها في هذا الكتاب إن شاء الله.

وكان المرجو لكتاب الشيخ عبد الوهاب النجار لولا المعارك الحامية التي كانت بينه وبين اللجنة التي شكلت لدراسة الكتاب أن ينتشر كثيراً. ولكن على الرغم من اعتراضات اللجنة المشكلة من العلماء، فلقد سدّ الكتاب فراغاً كبيراً. رحم الله الشيخ عبد الوهاب النجار رحمة واسعة.

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

اللهم إلا سيدنا محمد ﷺ واخوته الأنبياء وما أجمل كلمة امام دار الهجرة رضي الله عنه «كل يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام ﷺ».

ثم ظهر كتاب قصص القرآن لجماعة من العلماء «محمد جاد المولى وآخرين» كتب بأسلوب أدبي جيد وكان حلاًّ لألفاظ الآيات القرآنية التي تحدثت عن القصة، وهو يختلف كثيراً عن سابقه «قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار». فكتاب الشيخ النجار أوسع دائرة، يذكر القصة في القرآن الكريم وغيره من الكتب، ثم يعرض للشبهات،

كما يعرض لما تحدث عنه علماء الحفريات ، ولما ينشر في الصحف وكان كثيراً في ذلك الوقت مما يتصل بقضايا التاريخ ، لكن هذا الكتاب -لمحمد جاد المولى- لا يذكر فيه كثير من هذه القضايا، بل هو كما قلت حل لألفاظ الآيات القرآنية بأسلوب أدبي شيق، ويغلب على ظني أن الكتاب ألف في الخمسينات إن لم يكن قبل ذلك .

وفي هذه الأثناء في آخر الأربعينات ظهر كتاب الفن القصصي في القرآن، وهو الذي أثار زوبعة لم تهدأ إلا بعد سنين، لما فيه من تعدُّ على كتاب الله وتحدٍ لمشاعر المسلمين وسنخصص الحديث عنه في الفصل الأخير من هذا الكتاب إن شاء الله .

وفي الستينات بدأت تظهر كتب كثيرة تتحدث عن قصص القرآن، فقد ظهر كتاب القصص القرآني مفهومه ومنطوقه للأستاذ عبد الكريم الخطيب -رحمه الله- ثم بدأت تظهر رسالات علمية منها متشابه اللفظ في القصة القرآنية للشيخ عبد الغني الراجحي -رحمه الله- ومنها القصة القرآنية للشيخ عبد الباسط بلبول وهي رسالة دكتوراة وقد أهداها لي مشكوراً قبل أن تطبع . ومنها سيكولوجية القصة في القرآن للتهامي نقرة، وهي رسالة دكتوراة، وهناك قصص أعدت لنيل رسائل الماجستير وهي كثيرة وفي هذه الأثناء أخذت قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من كتاب البداية والنهاية لابن كثير وطبعت في كتاب مستقل، كما جردت السيرة النبوية من الكتاب نفسه وطبعت في كتاب مستقل . وقصص الأولين للدكتور صلاح الخالدي، كما أن هناك كتباً ألُفَت لتحدث عن قصة واحدة، فمن ذلك مؤتمر تفسير سورة يوسف للشيخ عبد الله العلمي، والوحدة الموضوعية في سورة يوسف للشيخ باجودة، وتفسير سورة يوسف للدكتور أحمد نوفل . وسأخص الحديث هنا تفصيلاً عن كتب: كتابي الاستاذ عبد الكريم الخطيب، وسيكولوجية القصة، ونظرات في أحسن القصص للدكتور محمد السيد الوكيل .

## ثانياً:

### كتاب القصص القرآني في منطوقه ومفهومه

#### لعبد الكريم الخطيب

يقع الكتاب في (٤٢٦) صفحة، وصدرت طبعته الأولى سنة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) وعلى الرغم مما في الكتاب من إيجابيات إلا أن فيه سلبيات كنا نود ألا تكون فيه.

يرى الكاتب أن رحلة الإنسان في الحياة هي رحلة صراع مع الطبيعة رافقها الخوف مما حوله من مظاهرها، ومن هذا الخوف نشأ الدين، فالخوف عند الكاتب «أبو الآلهة» على حدّ قوله، ويرى الكاتب أن الإنسان بدأ يكتب تاريخه ويصوغ الحكايات قديماً، وأن الدين في صورته الأولى هو القصة والحكاية والخرافة. وهذا كله كلام غير صحيح يخالفه نصّ القرآن الكريم، فأدم عليه السلام وهو أول البشر كان نبياً يوحى إليه، والكاتب -رحمه الله وسامحه- متأثر في أقواله تلك بآراء علماء الاجتماع المحدثين في مسألة نشوء الأديان وفي جعلهم الحياة صراعاً بين الإنسان وقوى الطبيعة، والصحيح أن الإنسان مستخلف في هذه الأرض وليس في حالة صراع مع ما فيها.

يعرض الكاتب للقصة في الأدب العربي فيقول إنها تمتاز بالواقعية والبعد عن الخيال المحلق والأساطير الملحمية، ويعزو ذلك إلى قسوة ظروف الحياة الصحراوية وإلى واقعية الإنسان العربي واعترازه بذاتيته.

ويعرض لبعض مزايا القصة القرآنية عرضاً مُسهباً مفصلاً مدافعاً عن تلك المزايا مفقداً ما طاف حولها من شبهات، ومن أول تلك المزايا أن القصة القرآنية وثيقة تاريخية صادقة وإن لم تقصد إلى التأريخ قصداً، ذلك لأن أحداثها وشخصياتها حقيقية لا مدخل فيها للخيال، ونقل القرآن للواقع هو تصوير وليس محاكاة صامتة، بل هو محاكاة ناطقة تُنطق الصامت وتدخل الأعماق وتُعطي الدلالات، ومن مزايا القصة القرآنية أن حبكتها الفنية

ذات تدبير مُعْجَزٍ تلتقي فيه الشخصية والحدث دون أن يطغى أحدهما على الآخر، وأن الأشخاص فيها غير مقصودين لذواتهم، فالمضمون في القصة هو بطل الموقف. وقد أحسن الكاتب في عرض هذه المزايا كما أحسن في الردّ على شبهة القائلين بأنّ القصة القرآنية هي بناءٌ فنيّ دخله عنصر الخيال، وعلى شبهة القائلين بوقوع التكرار في القصة القرآنية.

ويردّ الكاتب على الشبهة القائلة إنّ في القرآن كثيراً من الحقائق التي هي تأريخ فلماذا اختُصَّ بعضها باسم القصص؟ فيسيء الردّ حين يقول مدافعاً عن القصص القرآني إنّ لك أن تطلق عليها الوصف الذي يروك (ص ٧٧) وهذا غير صحيح، فالقصة ذات بناء فنيّ خاص يختلف عن التأريخ المجرد.

يعرض الكاتب لدور المرأة في القصة القرآنية فيناقض نفسه إذ يقول في موضع من الكتاب إنّ الحوار والمرأة عنصران رئيسان في القصة القرآنية (ص ٨٠) ويقول في موضع آخر إنّ المرأة في القصة القرآنية غير مقصودة لذاتها (ص ١١٥) وكلامه الأخير هو الصحيح، فالمعول في القصة القرآنية على الشخصية الصّانعة للأحداث بصرف النظر عن كونها ذكراً أو أنثى.

من الخصائص الفنية للقصة القرآنية امتيازها بأسلوب الراوية الذي يؤدّنك بأنّك ستسمع أخباراً ذهب أصحابها، لكنّها في العرض القرآني تبعث من جديد فتكون غائبة حاضرة، وامتياز القصة القرآنية ببيان زمان الحدث أو مكانه والصفات الجسدية والنفسية للشخصيات بالقدر الذي يخدم المضمون والهدف، فما لا يخدم المضمون منها لا يُذكر في القصة. وقد أجاد الكاتب في عرض هذه الخصائص.

يرى الكاتب أنّ القصص القرآني يشهد لمبدأ حتمية التاريخ ويشير إلى موقف القصص القرآني من القدر، وفي معرض حديثه هذا يقول إنّ «منطقة القدر تتسع وتضيق حسب ما عند الناس من علم ومعرفة» نعوذ بالله من هذه المقولة، وسامح الله الكاتب،

فالقضاء والقدر من عند الله، والتقدّم العلمي لا يردّ قضاء الله، ويرى الكاتب أنّ القصص القرآني «يقف من القدر موقفاً محايداً فيدع الأمور تجري على طبيعتها التي اعتاد الناس أن يروها عليها إلا أن تكون الحياة في مواجهة معجزة من المعجزات . . . » إلخ. وهذا الكلام ينطوي على مغالطة عجيبة في فهم معنى القدر كما هو في التصوّر الإسلاميّ الصحيح، وهو خطأ نعجب كيف وقع للكاتب رحمه الله، فالحقّ أنه ما من شيء جرى أو يجري أو سيجري إلاّ وهو مقدّر من الله ومعلوم له سبحانه قبل وقوعه هذا مع إثبات الاختيار الإنساني وإثبات مسؤولية الإنسان عن أفعاله كما فصلته كتب التوحيد.

ويقف الكاتب وقفةً مُسَهِّبةً في الردّ على آراء محمد أحمد خلف الله وأستاذه أمين الخولي راداً الشبهة القائلة بدخول الخيال والأساطير في القصص القرآني.

ويقف وقفةً مسهبةً أخرى في مواجهة أصحاب المذهب الرمزي بالمعنى المعاصر سواء أكان كلامهم على رمزية الشعر أم لغة الخطاب العربي أم قصص القرآن الكريم، لأنّ محصّلة ذلك كلّ تمسّ القرآن الكريم ولغته وتحول التراث العربي إلى طلاس وتقتوض نظام العربيّة كاملاً وتُلغِي ما في القرآن من عقيدة وشريعة في نهاية المطاف، وقد أجاد الكاتب في الردّ على أولئك، كما أشار إلى أمثلة وقعت لبعض مفسّري القرآن الكريم في التفسير الرمزي لبعض آيات كتاب الله، غير أنّ الناظر في الأمثلة التي ساقها الكاتب يجده قد خلط فيها بين التفسير الرمزي والإسرائيليات.

ويستشهد الكاتب بقصة آدم عليه السلام لنفي الرمزية والتكرار عن القصّة القرآنيّة فإذا به ينساق إلى تأييد نظرية (داروين) في أصل النوع البشري وخضوعه إلى سلسلة من التطوّرات حتى استوى كائناتاً بشرياً، وهذه مخالفةٌ منه لصريح القرآن الكريم، فأدم عليه السلام وهو أوّل البشر خُلِقَ بشراً سوياً من أوّل الأمر، كما يتّهم الكاتب الجاحظ، والمسعودي رحمهما الله بمقولة (داروين) وهذا كلام لا أصل له.

وهناك ملحوظات أخرى على الكتاب سأشير إليها في مواضعها المناسبة من الكتاب.

وهنا قضية خطيرة يجب أن أعرض لها لتجلية الحقيقة من جهة، وليكون القراء على علم بما يُدعى على أئمتنا وعلمائنا من جهة ثانية، فهل سبق الجاحظ والمسعودي دارون في القول بالنشوء والإرتقاء؟، وهل قال ابن خلدون بنظرية التطور؟ تطور المخلوقات بعضها من بعض؟.

إن مثل هذه الإدعاءات يبدو لأول وهلة غريباً على كثير من قراء العربية، وإلى القارئ الكريم أسوق ما يلي:-

ذكر بعض علمائنا مراتب المخلوقات مفضولها وفاضلها، وكيف أن هذه المخلوقات ليست سواءً من حيث الجودة والقيمة، وكيف أن المتأخر يفوق المتقدم من حيث الفضيلة والفضل وقد جاء هذا عند ابن خلدون في مقدمته، كما ذكره أبو الريحان البيروني، وابن مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق».

والذي ذكره هؤلاء الأئمة لا يمتّ بصلة ما، قريبة أو بعيدة إلى نظرية دارون، فدارون - كما نعلم - تقوم نظريته - كما سيأتي - على تولّد المخلوقات بعضها من بعض، فأولها ذات الخلية الأولى، ثم مرت بمراحل كثيرة، إلى أن وصلت إلى الحيوانات المعقدة الخلق، ثم ترقّت إلى أن وصلت إلى القرد، ثم تولد منه الإنسان، وكان دارون بعيداً عن الجو الإيماني، والحقائق الدينية. وسيأتي مزيد تفصيل لهذا في حديثنا عن قصة آدم ﷺ.

لكنّ الذي يعيننا هنا أن نناقش بعض الكاتبين من أمثال الأستاذ عبد الكريم الخطيب، الذين يفرحون لأنّ علماءنا سبقوا دارون في نظريته. وسأنقل بعض ما قاله علماءنا ليرى القارئ بُعد الشقة بينه وبين ما قاله دارون، ومن المؤسف المؤلم أن نجد اليوم من يتأثر بهذه النظرية محاولاً أن يلبسها ثوباً عربياً إسلامياً شرقياً، حتى إن بعض من حاول تفسير القرآن الكريم تفسيراً عصرياً، وهو الدكتور مصطفى محمود، يباهي معترفاً قائلاً - والقول له طبعاً - «لا ينبغي أن نتجاهل الصلة بيننا وبين أجدادنا الحمير».



ومما يؤلم ان الدكتور علي عبد الواحد وافي - رحمه الله - وقد عرض لهذه القضية عرضاً مسهباً في تعليقه على عبارة ابن خلدون، يقرر في نهاية تعليقه أن علماءنا وقد تحدثوا عن تطور المخلوقات، لم يقصد جلّهم تطور بعضها عن بعض، لكن ابن خلدون وحده هو الذي ذهب هذا المذهب، وسامح الله الأستاذ عما قال.

إن أئمتنا - رحمهم الله - إنما يصدر عن فهم لحكمة الله في خلقه، فهم إذ يتحدثون عن مراتب المخلوقات، يتحدثون والإيمان يملأ قلوبهم، ولا يتصور أحد أنهم يصدر عن صدر عنه دارون، فهم يدركون تمام الإدراك أن المخلوقات إنما أنشأها الله وأبدعها مستقلاً بعضها عن بعض من حيث طبيعته واستعداداته، بل لونه كذلك. يقول الله تبارك وتعالى في سورة النور. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْنِكَ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وهاتان الآيتان صريحتان كل الصراحة في أن المخلوقات جميعها خلقها الله خلقاً مستقلاً، دون أن يتولد بعضها من بعض، والمتدبر في الآية الكريمة يدرك هذا لأول وهلة.

وإذا كانت آية سورة النور تتحدث عن خلق الأنواع المتحركة الحساسة من الماء وصدق الله. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أقول إذا كانت آية سورة النور تتحدث عن الأحياء التي تدب على الأرض، فإن آية سورة فاطر كان حديثها في دائرة أوسع من دائرة الخلق، حيث تحدثت عن الجماد من جبال وثمر، قال تعالى: ﴿الْقُرْآنُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُمْ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

فهذه الحقائق القرآنية التي وعّاها ائمتنا، بل انطلقوا منها فيما قرروه، تبين بكل وضوح قوّي وصراحة بينة أن المخلوقات جميعها خلقها الله فألهمها ما يصلح لها وما تصلح به، وإليك أخي القارئ بعض ما قاله هؤلاء الأئمة رحمهم الله .

يقول ابن مسكويه .

أن الاجسام الطبيعية كلها تشترك في الحدّ الذي يعمها، ثم تتفاضل بقبول الآثار الشريفة والصور التي تحدث فيها، فإن الجماد منها إذا قبل صورة مقبولة عند الناس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل تلك الصورة، فاذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بزيادة هذه الصورة أفضل من الجماد، وتلك الزيادة هي الاغتذاء والنمو والامتداد في الأقطار واجتذاب ما يوافقه من الأرض والماء، وترك ما لا يوافقه، ونقض الفضلات التي تتولد فيه من غذائه عن جسمه بالصموغ وهذه هي الأشياء التي ينفصل بها النبات من الجماد، وهي حال زائدة على الجسمية التي حدّناها وكانت حاصلة في الجماد .

وهذه الحالة الزائدة في النبات التي شرف بها على الجماد تتفاضل، وذلك أن بعضه يفارق الجماد مفارقة يسيرة كالمرجان واشباهه، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء، فبعضه ينبت من غير زرع ولا بذر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبزر، ويكفيه في حدوثه امتزاج العناصر وهبوب الرياح وطلوع الشمس، فلذلك هو في افق الجمادات وقريب الحال منها .

ثم تزداد هذه الفضيلة في النبات فيفضل بعضه على بعض بنظام وترتيب، حتى تظهر فيه قوة الاثمار وحفظ النوع بالبزر الذي يخلف به مثله، فتصير هذه الحالة زائدة فيه ومميزة له عن حال ما قبله، ثم تقوى هذه الفضيلة فيه حتى يصير فضل الثالث على الثاني كفضل الثاني على الأول، ولا يزال يشرف ويفضل بعضه على بعض حتى يبلغ إلى افقه ويصير في افق الحيوان، وهي كرام الشجر كالزيتون والرمان والكرم واصناف الفواكه، إلا أنها بعد مختلطة القوى، أعني أن قوى ذكورها واناثها غير متميزة .

فهي تحمل وتلد المثل ولم تبلغ غاية افقها الذي يتصل بافق الحيوان ثم تزداد وتمعن في هذا الافق إلى أن تصير في افق الحيوان فلا تحتل زيادة، وذلك أنها ان قبلت زيادة يسيرة صارت حيوانا وخرجت عن افق النبات، فحينئذ تتميز قواها ويحصل فيها ذكورة وانوثة، وتقبل من فضائل الحيوان اموراً تتميز بها عن سائر النبات والشجر، كالنخل الذي طالع افق الحيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها ولم يبق بينه وبين الحيوان الا مرتبة واحدة، وهي الانتقال من الأرض والسعى إلى الغذاء، وقد روى في الخبر ما هو كالإشارة أو كالرمز إلى هذا المعنى، وهو قوله ﷺ «أكرموا عما تكمل النخل فانها خلقت من بقية طين آدم» فإذا تحرك النبات وانقلع من افقه، وسعى إلى غذائه ولم يتقيد في موضعه إلى أن يصير إليه غذاؤه، وكوتت له آلات اخر يتناول بها حاجاته التي تكمله فقد صار حيواناً.

وهذه الآلات تتزايد في الحيوان من أول افقه وتتفاضل فيه، فيشرف فيه بعضها على بعض كما كان ذلك في النبات، فلا يزال يقبل فضيلة بعد فضيلة حتى تظهر فيه قوة الشعور باللذة والأذى، فيلتذ بوصوله إلى منافعه ويتألم بوصول مضاره إليه، ثم يقبل الهام الله عز وجل إياه، فيهتدي إلى مصالحه فيطلبها وإلى اضراده فيهرب منها، وما كان من الحيوان في أول افق النبات فإنه لا يتزوج ولا يخلف المثل، بل يتولد كالديدان والذباب واصناف الحشرات الخسيسة.

ثم يتزايد فيه قبول الفضيلة كما كان في النبات سواء، ثم تحدث فيه قوة الغضب التي ينهض بها إلى دفع ما يؤذيه، فيعطى من السلاح بحسب قوته وما يطبق استعماله، فإن كانت قوته الغضبية شديدة كان سلاحه تاماً قوياً، وإن كانت ناقصة كان ناقصاً، وإن كانت ضعيفة جداً لم يعط سلاحاً البتة بل أعطى آلة الهرب، كشدة العدو والقدرة على الحيل التي تنجيه من مخاوفه.

وانت ترى ذلك عيانا من الحيوان الذي أُعطي القرون التي تجري له مجرى الرماح والذي أُعطي الانياب والمخالب التي تجري له مجرى السكاكين والخناجر، والذي أُعطي آلة الرمي التي تجري له مجرى النبل والنشاب والذي أُعطي الحوافر التي تجري له مجرى الدبوس والطبرزين<sup>(١)</sup> فأما ما لم يعط سلاحا لضعفه عن استعماله، ولقلة شجاعته ونقصان قوّته الغضبية ولأنه لو اعطيه لصار كلا عليه فقد أُعطي آلة الهرب والحيل بجودة العدو والخفة والختل والمراوغة<sup>(٢)</sup> كالأرانب واشباهها وإذا تصفحت أحوال الموجودات من السباع والوحش والطيور رأيت هذه الحكمة مستمرة فيها، فتبارك الله أحسن الخالقين، فأما الانسان فقد عوّض من هذه الآلات كلها بأن هُدي الى استعمالها كلها وسخرت هذه كلها له وستكلم على ذلك في موضعه.

فأما أسباب هذه الأشياء كلها، والشكوك التي تعترض في قصد بعضها بعضا بالتلف والأنواع من الأذى، فليس يليق بهذا الموضع، وسأذكرها أن أخرّ الله في الاجل عند بلوغنا إلى الموضع الخاص بها، ونعود إلى ذكر مراتب الحيوان، فنقول:

إنّ ما اهتدى منها إلى الازدواج وطلب النسل، وحفظ الولد وتربيته والاشفاق عليه بالكنّ والعشّ واللباس<sup>(٣)</sup> كما نشاهد فيما يلد ويبيض، وتغذيته أما باللبن وأما بنقل الغذاء إليه، فإنه أفضل مما لا يهتدي الى شيء منها. ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد في الحيوان حتى يقرب من افق الانسان فحينذ يقبل التأديب، ويصير بقوله للادب ذا فضيلة يتميز بها من سائر الحيوانات.

ثم تتزايد هذه الفضيلة في الحيوان حتى يشرف بها ضروب الشرف كالفرس والبارى المعلم. ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان الذي يحاكي الانسان من تلقاء نفسه

(١) الطبرزين بفتح الباء وكسر الزاي وسكون الراء بينهما: آلة من السلاح تشبه الفأس.

(٢) الختل بالسكون الخداع. والمراوغة: المصارعة والمخادعة.

(٣) الكنّ بالكسر وقاء كل شيء وستره والبيت ايضاً.

ويتشبه به من غير تعليم، كالقردة وما اشبهها، وبلغ من ذكائها ان تكتفى في التأديب بان ترى الانسان يعمل عملاً فتعمل مثله، من غير أن تحوج الانسان الى تعب بها ورياضة لها، وهذه غاية افق الحيوان التي أن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها عن افقه وصار في افق الانسان الذي يقبل العقل والتميز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها، فإذا بلغ هذه الرتبة تحرّك الى المعارف واشتاق الى العلوم، وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقى والامعان في هذه الرتبة كما كان ذلك في المراتب الأخرى التي ذكرناها<sup>(١)</sup>.

ومن قبل ابن مسكويه ذكر هذا في رسائل اخوان الصفا، ومن بعده ذكره كثيرون من مثل القرويني في عجائب المخلوقات، وابن طفيل في كتابه حي بن يقظان، ومن بعد هؤلاء جميعاً ابن خلدون.

يقول ابن خلدون في مقدمته، أعلم أرشدنا الله وإياك، أنا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان بالأكوان، واستمالة بعض الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته، وأبداً من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني وأولا عالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً من الأرض إلى الماء، ثم إلى النار متصلاً بعضها ببعض، وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل بعض الأوقات. والصاعد منها ألطف مما قبله إلى أن ينتهي إلى عالم الأفلاك وهو ألطف من الكل على طبقات اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها إلا الحركات فقط، وبها يهتدي بعضهم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار فيها، ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتداءً من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة

---

(١) تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراف، لأبي علي أحمد بن محمد بن مسكويه، ص ٨٨-٩٣.

بديعة من التدرج، آخر افق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش ومالا بذر له، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف، ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر كل افق منها مستعد بالاستعداد القريب، لأن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية، ترتفع إليه من عالم القرود الذي اجتمع فيه الحس والإدراك، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل، وكان ذلك أول أفق الأنسان بعده، وهذا غاية شهودنا<sup>(١)</sup>.

ويعلق الدكتور علي عبد الواحد وافي - رحمه الله - على قول ابن خلدون، بعد أن نقل أقوال من سبق ابن خلدون في هذه القضية. يقول. ولكن ابن خلدون يختلف عن هؤلاء جميعاً من وجهين: . . . . .

ثانيهما: أنه لم يقل أحد من هؤلاء باستحالة هذه الكائنات بعضها إلى بعض. أما ابن خلدون فقد قرر في عبارات صريحة أن الكائنات الأخيرة من كل مرتبة قابلة بطبيعتها لأن تستحيل إلى الكائنات الأولى من المرتبة التي يليها، وأنها قد تستحيل إليها بالفعل - وقد قرر ابن خلدون هذا الرأي الخطير أكثر من مرة في العبارة التي نعلق عليها: فمن ذلك قوله: «نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكوان واستحاله بعض الموجودات إلى بعض» وقوله «وكل واحد منها مستعد إلى أن يستحيل إلى ما يليه صاعداً وهابطاً، ويستحيل بعض الأوقات» وقوله «ومعنى الاتصال في هذه المكونات إلى أن آخر كل أفق منها مستعد بالاستعداد الطبيعي أن يصير أول أفق الذي بعده».

وأشار إلى هذا المعنى كذلك في عبارة أكثر وضوحاً في فصل من الفصول. . . وذلك اذ يقول: «وقد تقدم لنا الكلام في الوحي أول الكتاب في فصل المدركين للغيب، وبيناً

---

(١) مقدمة ابن خلدون (١/٤٠٤).

هنالك أن الوجود كله في عوالمه البسيطة والمركبة على ترتيب طبيعي من أعلاها وأسفلها متصلة كلها اتصالاً لا ينخرم، وأن الذوات التي في آخر كل فق من الاعوالم مستعدة لأن تنقلب إلى الذات التي تجاورها من الأسفل والأعلى استعداداً طبيعياً كما في العناصر الجسمانية البسيطة، وكما هو في النحل والكرم من آخر أفق النبات مع الحلزون والصدف من الحيوان، وكما في القردة التي استجمع فيها الكئس والإدراك مع الإنسان صاحب الفكر والروية<sup>(١)</sup>.

وإذا أردنا أن نصدر حكماً دقيقاً وجب أن نلّم بكل ما قاله ابن خلدون، وما قاله دارون، وسنجد أن البون شاسع بين الاثنين، أن الذي يرجع إلى ما قاله ابن خلدون في كتابه المبتدأ والخبر، يدرك بمالا يقبل ريباً أن الله خلق آدم خلقاً خاصاً مستقلاً، وإن ما قاله ابن خلدون لا يتفق مع الأصول الكبرى لنظرية دارون من قريب أو بعيد، ويعجبني ما قرره صاحب الرسالة الحميدية الشيخ حسين الجسر - رحمه الله - وقد أبدع وأنصف. يقول:

«الكلام على ما ورد من النصوص الدالة على أن الإنسان خلق مستقلاً لا ناشئاً عن غيره، وبيان أن المسلمين لا يلزمهم تأويل هذه النصوص ما دام أنه لم يقم دليل قاطع على خلافها:

فأقول: قد ورد من نصوص الشريعة المحمدية التي عليها مدار الاعتقاد في خلق الإنسان، أن الله تعالى بدأ خلقه من طين، وأنه خلقه من تراب ومن طين لازب، ومن سلالة من طين ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار، وورد أنه خلقه من ماء، قال بعض أتباع محمد ﷺ هو الإمام الرازي أن التراب والماء أصلان للإنسان أي أنه خلق منهما، فتارة تذكر النصوص هذا وتارة تذكر ذاك. وورد أن الله تعالى خلقه بيديه، وهذه العبارة تدل على أن خلقه كان بصورة ممتازة عن بقية العوالم، وورد أنه سبحانه خلق

---

(١) حاشية مقدمة ابن خلدون (١/٤٠٥).

البشر من نفس واحدة آدم وخلق منها زوجها حواء، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً. فهذه النصوص تفيد ظواهرها أن الله تعالى خلق الإنسان نوعاً مستقلاً لا بطريق النشوء، ولم يشتقه من نوع آخر كما تقولون لا سيما النص الذي يقول بدأ خلق الإنسان من طين، وقد جاء في بعض النصوص الأحادية ما هو بين الصراحة، جاء بأن خلق الإنسان كان مستقلاً، وليس هو مشتقاً من غيره. ولا شك أن هذه النصوص وإن لم يكن عليها مدار الاعتقاد بانفرادها فلا أقل من أنها تقوى ظواهر تلك التي عليها المدار وتعضدها، وأيضاً يبعد كل البعد أن يكون أصل الإنسان المادة البسيطة ثم ترقى إلى العناصر، ثم إلى المادة الحيوية وهي البرتوبلازم، ثم إلى أدنى حيوان، ثم ترقى حتى بلغ القرد ثم إلى القرد الإنسان ثم إلى الإنسان كما تقولون، ومع ذلك يهمل الله تعالى بيان جميع ذلك ويقتصر على قوله بدأ خلق الإنسان من طين بل كان، من حكمته أن يشرح تلك التطورات والترقيات ويفصلها حسبما جرى عليه في تفصيل خلق ذريته، فإنه فصله في نصوص الشريعة بأنه خلقهم تراب، أي لأن غذاء آبائهم الذي يستحيل منياً كان أصله التراب، كذا يؤخذ من الرازي، وفي تفسير آخر أن معنى خلقهم من تراب خلق أبيهم آدم، ثم من نطفة، ثم من علقه ثم من مضغة ثم أخرجهم طفلاً، فإن ذلك التفصيل له وقع في النفس في الدلالة على قدرة الخالق سبحانه لما فيه من نقل المادة من طور إلى طور. فسكوت النصوص المذكورة عن بيان النشوء واشتقاق الإنسان من نوع سواه، واقتصارها على ما تقدم من البيان هو ظاهر في أن الإنسان خلق نوعاً مستقلاً ليس مشتقاً لما يقولون، وإن كان كلا الأمرين من الجائز العقلي الداخل تحت تصرف قدرة الله تعالى. نعم ليس في تلك النصوص صراحة بأن الله خلق الإنسان الأول من تراب دفعة واحدة أو بتكوين متمهل، على انفراده، فسيبيل هذا التوقف وعدم الجزم بأحد الأمرين حسب النصوص التي عليها مدار الاعتقاد. وإن كان قد يظهر من بعض النصوص الأحادية أن تكون ذلك الإنسان وهو آدم كان يتمهل، ومرت عليه مدة من الزمان، والله قادر على كلا الطريقتين، وقد صرح بعض علماء اتباع محمد ﷺ - هو الإمام الرازي - في تفسير قوله



تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بِبَشَرٍ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ، بأن خلق الانسان كان مبتدا مستقلا ليس مترقيا من الأدنى حتى بلغ ما هو عليه . وهذا ما قال من أن إذا للمفاجأة، يقال: خرجت فإذا الأسد بالباب، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه، يعنى الإنسان من تراب بكن، فكان، لأنه صار معدنا ثم حيوانا، ثم إنسانا فخلق الأنواع هو المراد الأول، ثم تكون الأنواع فيها الأجناس بتلك الإرادة، فالله تعالى جعل المرتبة الأخيرة في الشيء البعيد عنها غاية من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرها . انتهى .

فهذا تصريح بأن ذلك النص يفيد أن الإنسان كان تكوينه بطريق الخلق مستقلا، ابتداء لا بطريق النشوء - كما تزعمون - وطريق الخلق هو الذي تعطيه ظواهر بقية النصوص، فاعتماد أتباع محمد ﷺ في الاعتقاد عليه لا على النشوء، ولا يجوز لهم تأويل تلك الظواهر وصرفها عن معناها الظاهر، إلا إذا قام دليل عقلي قاطع يدل على أن الله تعالى خلق الإنسان بطريق النشوء كما تزعمون هيهات هيهات، فعند ذلك يضطرون إلى تأويل ظواهر تلك النصوص كما هو القاعدة عندهم في التوفيق بين الدليل النقلي والدليل العقلي المتعارضين، وبعد ذلك لا يخفي أن النشوء عندهم لو ثبت هو غير النشوء عندهم، لأنه لو ثبت عندهم كانوا يقولون هو بخلق الله تعالى لما قام عندهم من الدليل، على أنه لا خالق ولا مؤثر سواه، والنواميس التي ترافقه ما هي إلا أسباب عادية لا تأثير لها ألبتة، وأما النشوء عندهم فهو على زعمكم بتأثير تلك النواميس فشتان ما بين المعنيين<sup>(١)</sup> .

ولقد أطلت في هذه القضية، خشية أن يحسن الظنّ بعض القراء، بما كتبه الأستاذ عبد الكريم الخطيب، فيأخذونه على أنه حقائق مسلمة، نسأل الله أن يبصرنا بالحقائق، وأن يمنحنا بفضلله ورحمته تمييز الخبيث من الطيب، والغث من السمين، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) الرسالة الحميدية ص ٢٤١ .

## ثالثاً:

### كتاب (القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور)

#### لعبد الكريم الخطيب

هذا الكتاب هو الكتاب الثامن من سلسلة (من قضايا القرآن) وقد صدرت طبعته الأولى في بيروت عن دار الأصالة ومؤسسة الرسالة عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

قدّم الكاتب لكتابه بالتأكيد على أن القصص القرآني هو الحقّ الذي لا يشوبه الوهم أو الخيال، فأحداثه تُبعث كما حدثت لحظة وقوعها فهو نقلٌ حيّ لها.

اختار الكاتب أمثلة من القصص القرآني فجعلها مادة لكتابه، وهذه الأمثلة تتصل بعالم الحيوان كالنملة والهدهد وبيعض الشخصيات كأهل الكهف ولبعض الشخصيات الخارقة كقصة ذي القرنين والعبد الصالح صاحب موسى عليه السلام، ثم عقد مبحثاً خاصاً بالعالم غير المنظور كالجن وإبليس والشيطان.

ويوازن الكاتب بين القصة القرآنية المتصلة بعالم الحيوان وقصص البشر التي دارت على ألسنة الحيوان فيرى أن القصص البشري في هذا الميدان له سمات معينة لا يتجاوزها، وأن الحيوان يظل فيها هو البطل المهيمن كما في كتاب (كليلة ودمنة) فالصورة التي يظهر عليها الحيوان هنا هي محض خيال، «كما أنها لا تعني حيواناً خاصاً من جنس هذا الحيوان أو نوعه وإنما هي حيوان شائع في الجنس أو النوع جميعه»<sup>(١)</sup> بالإضافة إلى أن الحيوان في القصص البشري قد يكون رمزاً مستعاراً لإنسان فهو خيال بعيد عن الواقع.

أما في القصة القرآنية فكلّ حيوان جاء ذكره فيها هو حيوان حقيقي يمثل ذات الحيوان الذي ورد ذكره في القصص القرآني، ومن مزايا القصص القرآني هنا أن فيه عبرة كغيره من القصص.

اشتمل الكتاب على سبعة مباحث:

١- سليمان والنملة: يبين الكاتب مناسبة هذه القصة لقصة فرعون الذي آتاه الله الملك فتجبر إذ تقابله هنا صورة داود وسليمان عليهما السلام اللذين آتاهما الله العلم والسلطان فاستقبلا النعمة بالحمد والولاء، ثم يتحدث الكاتب عن ملك سليمان وجنوده، ويعرض قصته مع النملة حين مرّ بوادي النمل، فيقول إن العبرة أن الله أراد أن يصغر في عيني سليمان عليه السلام هذا الملك فلا يدخله الزهو، وعرض الكاتب فيه شيء من الجراءة في حق سليمان عليه السلام فقد غفل عن أنه كان نبياً لا مجرد ملك كالمملوك.

٢- سليمان والهدد: يعرض الكاتب هذه القصة المعروفة عرضاً مفصلاً بأسلوب أدبي، غير أنه يجتري على سليمان عليه السلام كما لو كان يتحدث عن ملك عادي ذي غرور وصولة.

٣- سليمان وملكة سبأ: يعرض الكاتب هذه القصة المعروفة عرضاً أدبياً جميلاً ويرى أن الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان عليه السلام فهو الذي نقل عرش بلقيس في طرفه عين، وهذا القول سبقه إليه الإمام الرازي وكان حقه أن ينسبه إليه.

٤- أصحاب الكهف وكلبهم: يعرض القصة والعبرة منها ويبين أن موقف أبطالها تغلب عليه السلبية فليس في القصة صراع ظاهر أو صدام محسوس بين فريقين، كما تظهر الأشياء متعاطفة حانية على هؤلاء الفتية.

ويشير الكاتب في هذا الفصل إلى قصص أخرى في سورة الكهف هي قصة الرجلين المؤمن والكافر صاحب الجنتين وما انتهى إليه أمرهما، وقصة موسى عليه السلام والعبد الصالح، وقصة ذي القرنين وما كان من شأنه مع يأجوج ومأجوج، ويبين خلو هذه القصص كلها من عنصر المرأة وما في هذه القصص من عبر. ويشير إلى عنصر الحيوان وهو كلب أصحاب الكهف فيرى أن «الكلب انحاز بطبيعته المؤمنة إلى هذه الجماعة» ويشير في هذا السياق إلى وجود صفة الإيمان لدى الحيوانات في عهد سليمان عليه السلام.

## ٥- ذو القرنين من هو ؟ وهل هو نبي ؟

يبين الكاتب وجود مناسبة بين قصة ذي القرنين وقصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام، فكلاهما أي العبد الصالح وذو القرنين مَن اختصه الله بشيء من فضله ورحمته ويشير إلى التساؤلات والتصورات بشأن ذي القرنين ويرى أنه الإسكندر المقدوني على سبيل الترجيح لا القطع . والأمر ليس كما قال ، كما سنبينه لك إن شاء الله .

٦- بين موسى والعبد الصالح : يسوق أحداث القصة كما هي في القرآن ويرجح أن مجمع البحرين هو رأس شبه جزيرة سيناء عند طرفها الجنوبي حيث يتفرع عندها البحر الأحمر إلى فرعين يذهبان شمالاً، ويردّ قول بعض المفسرين إنها (طنجة) حيث يلتقي البحر الأبيض بالمحيط الأطلسي، ويبين أن انسراب الحوت من موسى عليه السلام وقتاه كان دليلهما إلى مكان لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح، ذلك أنهما فقدوا الحوت عند الصخرة التي أويا إليها فلما عادا إليها وجدا العبد الصالح، ثم يسوق الكاتب ما حدث بين موسى والعبد الصالح ويبين العبر المستفادة ممّا حدث، وهو يوجه هذه الأحداث الثلاثة توجيهاً خاصاً بالمشيئة، ففي خرق السفينة إرادة مطلقة للإنسان ومشية خالصة له يتصرف بها كما يشاء بقوله ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩] وفي قتل الغلام تبدو مشيئة الإنسان مختلطة مع مشيئة الله داخلية فيها لقوله ﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا﴾ [الكهف: ٨٠] وفي إقامة الجدار يتجرد العبد الصالح من كل مشيئة وإرادة فهو منفذٌ لمشيئة الله فحسب لقوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ [الكهف: ٨٢].

## ٧- الدابة التي تكلم الناس ما هي ؟ وكيف ومتى تظهر ؟

يشير الكاتب إلى دابة الأرض المذكورة في سورة النمل وهي التي ستكلم الناس . ويسوق أقوال المفسرين وبعض الأحاديث بشأنها، وحكم على هذه الأحاديث بالوضع، ثم يفسر الآية الكريمة قائلاً: إن الدابة لا يراد بها دابة واحدة بل جيشها، وهي كل ما يدب على الأرض من حيوان وأنعام وطيور وغيرها، ويرى أن الله «يُخرج لكل من لا

يؤمن بالله ولا باليوم الآخر أكثر من دابة عند موته يفهم منطقها الذي يكشف عن إيمانها بالله وكفره هو بربه»<sup>(١)</sup> ويستدل بقراءة أخرى في (تكلمهم) وهي «تَكَلَّمُهُمْ» أي تجرحهم وتؤذيهم بما ينكشف لهم من سوء حالهم.

٨- من العالم غير المنظور: الجن، إبليس، الشيطان: يشير الكاتب إلى الآيات التي ذكر فيها إبليس والشيطان، وإلى رفض إبليس السجود لآدم عليه السلام، فيرى أن إبليس كان من الملائكة حيث دخل في الأمر الموجه إليهم بالسجود فلو لم يكن منهم لما كان عليه سجود ولما كان في عدم سجوده ما يؤاخذ عليه، ويرى أن إبليس كان في درجة دنيا في العالم الروحي هي درجة الجن الذين أشبهوا عالم الملائكة في أنهم خلقوا من شعلة مقدسة إلا أن الملائكة من نورها والجن من نارها، ويرى أن إبليس لم يظل في جماعة الجن بل خرج من بينهم حين أبى السجود لآدم فلعنه الله وطرده من الجنة وجعل له اسم (إبليس) سمة يعرف بها، ثم إن إبليس منذ حلت به اللعنة تحول خلقاً آخر هو (شيطان) مريد رجيم فإذا هو «قوة شرّ منطلقة يتطاير منها شرر يصيب من يتعامل معه ويتبع خطاه وتلك الشرارات المنطلقة منه هي ذريته التي يتحدث عنها القرآن... وهي شياطين أخرى تنطلق منها شرارات شيطانية وهكذا تتوالد وتتكاثر كما تتوالد الجرائم وتتكاثر».

يرى الكاتب أن إبليس «كان من عالم الجن الذي كان من عالم الملائكة، ثم نزل إلى درجة (إبليس) ثم تحول من إبليس إلى شيطان يلد الشياطين كذلك الإنسان مؤمن ومشرّك وكافر».

ويبين أن الجن فيهم الاستعداد للخير والشر كما ورد في القرآن الكريم، ويورد الكاتب قول من ناقشه في رأيه ويعرض حجته.

## رابعاً:

### كتاب (سيكولوجية القصة في القرآن)

#### للدكتور التهامي نقرة

هذا الكتاب في الأصل رسالة دكتوراة قدّمت في جامعة الجزائر عام ١٩٧١م وقد نشرته الشركة التونسية للنشر عام ١٩٧٤م وجاء الكتاب في (٦٥٠) صفحة بما فيها من فهرس فنية شاملة.

تبدأ مقدمة الكتاب ببيان استخلاف الإنسان في الأرض الذي رافقه الصراع بين الخير والشر من بدايته كما في قصة ابني آدم عليه السلام، كما تبين بداية التفسير الديني للكون وما شاب الإنسان من مخاوف إزاء مظاهر الكون وعزو ذلك إلى قوى خارجية، ثم نشأت لديه الأساطير النابعة من شعور ديني أنشأته غريزة الخوف، وهذه المقولة قالها من قبل عبد الكريم الخطيب في كتابه القصص القرآني في منطوقه ومفهومه.

ثم بين الكاتب دور الأديان السماوية في إنقاذ الفكر الإنساني من العقائد الفاسدة وبيّن أهمية القصة التي هي من أنجح أساليب التقويم والهداية، وبيّن أهم أهداف القصة القرآنية، يبيّن الكاتب موضوع بحثه ومنهجه فيقول إن موضوع الكتاب هو دراسة القصة القرآنية وتحليلها وبيان عوامل التأثير فيها، والجديد في دراسته -كما يقول- «محاولة استخدام بعض القواعد والأصول المقررة عند علماء النفس والتربية والاجتماع، وفي استعمال المنهج التحليلي إلى جانب البحث النظري وسيلة لدراسة القصة القرآنية بشمول وعمق، وربط الجانب الفني فيها بالجانب النفسي لأنهما يلتقيان في الهدف، وهو التأثير الديني، ولأن صلة الفن بالدين عريقة وممتينة»<sup>(١)</sup>. ثم يشير إلى البحوث السابقة في القصة القرآنية وبيّن باختصار أساليبها وطرقها في دراسة القصة القرآنية.

---

(١) ص ٢٣.

وبعد هذه المقدمات تقع مادة الكتاب في باين: الأول هو قسم البحث النظري، والثاني هو قسم البحث التحليلي، والقسم النظري يتضمن ستة فصول هي:

١- مصدر القصة القرآنية: وفيه بيان أنها من عند الله تعالى ودحض شبهات المستشرقين في عزوها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

٢- المنهج القصصي للقرآن: حيث يبين أن القصة القرآنية أول قصة ملتزمة عرفها الأدب العربي، إذ هي تهدف إلى الدعوة إلى التوحيد والخلق القويم وتنتهي عن الشرك والضلال، ويبيّن فيه الأصل اللغوي لمادة (قصّ)، ويبين الفرق بين القصة والخبر والرواية، ويبين الأسلوب العام الذي تعتمده القصة القرآنية في اختيار لقطات حية من الوقائع التاريخية غير مثقلة بالجزئيات والتفصيلات غير المفيدة الصارفة عن التدبر والاعتبار، ويعقد موازنة بين التوراة والإنجيل في المنهج القصصي.

٣- التكرار في قصص القرآن: يبين الكاتب هنا أن القرآن لم يكرر من القصص أو حلقاتها إلا ما كان أشدّ تجاوباً مع بيئة الدعوة وأهدافها، ويقدم أمثلة لذلك من قصص الأنبياء عليهم السلام، وفي هذا السياق يتقد رأي محمد خلف الله القائل إن تكرار قصة موسى كان بسبب سيطرة اليهود على البيئة العربية من حيث التفكير الديني. كما يشير الكاتب إلى أغراض التكرار في القرآن وهي عوده إلى التأثير النفسي، فإن تكرار المعاني المقررة للعقيدة شائعة في القرآن كله وهي في القصص القرآني أشدّ ظهوراً، وهذا يهدف إلى تمكين أثرها في النفس، ويبين أن التكرار في القرآن لم يؤدّ إلى تعارض.

٤- أنواع القصص القرآني: يبين أن قصص القرآن مبنية على حقائق ثابتة ليس فيها خيال أو وهم أو مبالغة وينفي عن القصة القرآنية الأسطورية والرمزية، ويردّ كلام خلف الله حين عدّ قصة النملة والهدد أسطورة أو رمزاً، لأن هذا يخرج القصة عن هدفها وهو إظهار القدرة الإلهية التي تتحدّى الإنسان مهما بلغ به العلم، ويشير الكاتب هنا إلى أن الأحداث في القصة القرآنية ليست متسلسلة الحلقات لأن التأريخ فيها غير مقصود لذاته،

بل لاستخلاص العبرة منه، ويناقش أقوال المستشرقين الذين لا يعدّون قصص القرآن مصدراً تاريخياً لخلوها من التفاصيل ولعدم اتفاق بعضها مع ما جاء في الإنجيل والتوراة قائلاً إن القرآن ليس كتاباً في التاريخ بل هو كتاب هداية وموعظة، ومع ذلك فكل ما فيه حق، ويوازن الكاتب هنا بين أخبار في القرآن وأخبار في الإنجيل.

ويشير إلى نوع مخصوص من قصص القرآن يسمّيه القصص التمثيلي ويقصد به القصص التي تساق على سبيل الاستشهاد والتقريب، مثل قصة صاحب الجنتين، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ﴾ [يونس: ٢١] وما بعدها من آيات في سورة يونس، والصحيح أن هناك فرقاً بين المثلين اللذين ساقهما الكاتب، فالأولى قصة حدثت فعلاً، والثانية مثل إنساني يتكرر حدوثه.

٥- جوانب المعرفة في قصص القرآن: يشير إلى جوانب من المعرفة التي نتعلمها من قصص القرآن وهي تتمثل في الكون حيث نعرف سنن الله فيه، والنفس حيث نتمكن من سبر أغوارها، والتاريخ حيث نعرف ماضي الإنسان ونعتبر به، ويستشهد الكاتب بأمثلة من قصص القرآن.

٦- عرض ونقد لمنازع المفسرين: ينتقد الكاتب اعتماد بعض المفسرين على الإسرائيليات في التفسير، إذ ينبغي التثبت من صدق الرواية عند التفسير، ويبين منشأ اختلاف المفسرين، ويقدم أمثلة ويبين أن إقحام الخرافات والأساطير والإسرائيليات في التفسير يسيء إلى جلال وجمال النص القرآني، كما يشير إلى خطر التفسير الرمزي لبعض الفرق الباطنية.

ثم يأتي القسم الثاني من الكتاب وهو (قسم البحث التحليلي) الذي يشمل خمسة فصول هي:

١- تحليل القصّة القرآنيّة: يبيّن الكاتب أننا ربما توصلنا من القصّة التي يكتبها الناس إلى معرفة نفسيّة كاتبها، أمّا القصّة القرآنيّة فتختلف؛ لأن مصدرها من عند الله، لذا يمكن تحليلها من الوجه النفسيّ من باب معرفة عوامل التأثير فيها.



ولا بدّ في تحليل القصّة القرآنيّة من ثقافة دينية ومن نظرة عميقة تشمل ثلاثة جوانب هي أولاً: شخصية صاحب الدعوة محمد ﷺ، حيث تهدف القصّة إلى تثبيته حتى لا يتسرّب اليأس إلى نفسه ولكي يصبر على الأذى، وثانياً: البيئة التي نزل فيها القرآن، حيث خاطب الله العرب بما يفهمون، فجاءت قصص القرآن إصلاحاً وتربية، وينتقد الكاتب ناقلاً عن كتاب (التعريف بالإسلام لعبد الكريم الخطيب) قول القائلين إن القصّة القرآنيّة أدّت دورها الإصلاحي للعرب في حينها وانتهى دورها بعد ذلك، حيث يبيّن أن القصص القرآنيّة هي منهج تربية دائم، وثالثاً: الإنسان: فالقصّة بتجرّدها عن الزمان والمكان، وعدم إغراقها في التفاصيل والإسهاب، تعرض حقائق إنسانية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وهنا تكمن القوة الفنيّة في الإيحاء والتأثير.

٢- عناصر القصّة في القرآن: يبيّن أن أهم ما يشترك فيه القصص القرآني مع سائر القصص في العناصر هو الأشخاص والحدث والحوار، غير أن للقرآن منهجه الخاص حيث يكتفي بذكر بعض صفات الأشخاص، وأحياناً تكون الشخصية هي محور الأحداث لكن الهدف هو التأسّي وليس الشخصية لذاتها، والأغلب أن ينصرف إلى الأحداث أكثر من الشخصيات لكنه يختار من عناصر الحادثة ما يخدم الفكرة الرئيسة ويخلق الجو النفسي الملائم، وأحياناً يعرض شخصية الجنس الواحد مثل بني إسرائيل، وأحياناً شخصية الإنسان عموماً، فالقرآن يذكر النفس الإنسانية بكل أبعادها كالنفس السفلى الأمارة بالسوء، والواعية الملهمة، والعليا أي النفس اللوامة.

- ويشير الكاتب إلى (شخصية المرأة) في القصّة القرآنيّة حيث لم تفرق بينها وبين الرجل فعرضت أمثلة للمرأة سلبية وإيجابية.

- كما يشير إلى عنصر (الحوار) في القصّة القرآنيّة فيبيّن أننا لو نظرنا إلى قصص القرآن حسب ترتيب النزول لوجدنا أن القرآن بدأ في قصصه بإشارات خاطفة خالية من الحوار كما في سورة الفجر والفرقان، لأن الغرض آنذاك هو إثارة الوجدان وإيقاظ

الفكر، ثم تدرّج نحو التفصيل، كما أنه لا يأخذ كل الحوار ولا سطحيته بل يرسم من خلاله معالم الشخصية ويأخذ منه اللقطات الموحية.

- ويشير إلى أساليب الحوار الواردة في قصص القرآن مع التمثيل لها.

ويعرض أشد العوامل النفسية تأثيراً في القرآن وهو الحضور الإلهي بمعنى أن القرآن كلام الله لفظاً ومعنى، والقدر بمعنى شعور الإنسان بوجود قوة غيبية تحرك الأحداث، والترغيب والترهيب، ومعرفة السياق والمناسبة وهذه تعين في فهم القصة فهماً دقيقاً يقوّي تأثيرها.

٣- عوامل التأثير في قصص القرآن: يشير الكاتب إلى اختلاف المؤثرات في الناس حسب ميولهم، ويشير إلى التأثير النفسي، ويفرق بين التأثير الانفعالي العابر والتأثير العاطفي الذي ينمي اتجاهات وجدانية ثابتة، وهو الذي تهدف إليه القصة القرآنية ووسيلتها إليه التكرار، والإيحاء كما في قصة قارون، والاقتران، مثاله أن رؤية مساكن الظالمين تذكر بمن كانوا فيها وما حلّ بهم.

- ويشير إلى جانب الإقناع في القصة القرآنية الذي جاء مندمجاً مع جانب التأثير الوجداني.

- ويشير كذلك إلى الإبداع الفني في تكامل العناصر والتأثيرات السابقة في القصة القرآنية على نحو فريد.

٤- نظرات في سورة يوسف: يختار الكاتب قصة يوسف عليه السلام ليطبّق عليها دراسته تطبيقاً مفصلاً نظراً لكونها قصة مكتملة العناصر والبناء الفني ولأنها أطول قصص القرآن الكريم التي جاءت كاملة في سياق واحد، ويعقد موازنة بين سياق أحداث قصة يوسف عليه السلام في القرآن وفي التوراة.

٥- الجانب التربوي في قصص القرآن: يبين الكاتب في هذا الفصل الأخير أثر

القصص في العقيدة والسلوك، وسبل تربية الله أنبياءه لإعدادهم للرسالة، وسبل تربية الأنبياء عليهم السلام أقوامهم، ثم يشير إلى مسالك التربية في قصص القرآن مثل التربية بالأحداث، وبالحوار، وعلاج الذنب بالتوبة. والكتاب على كبر حجمه وجودته كثير الاستطراد والتداخل والعنوانات الفرعية مما يشتت الموضوع نوعاً ما.

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب فضلاً على ما فيه من استطراد وعنوانات فرعية كثيرة متداخلة إلى حدّ ما، فإن موضوعاته أوسع من عنوانه، فالعنوان يقتضي قصر الحديث على الجانب النفسي وما يتصل به في القصة القرآنية، لكن الأمر جاء على غير هذا فكثير من مباحث الكتاب يمكن أن يتضمنه أي كتاب آخر ذو عنوان آخر يتحدث عن جوانب أخرى في القصة القرآنية.

بقي أن أذكر بإيجاز مأخذين اثنين: الأول: عنوان الكتاب فالأولى أن يُستغنى عن لفظ (سيكولوجية) ليحلّ محله لفظ عربي.

الثاني: أن الكتاب وقد عرض للكاتبين في القصص أمثال محمد أحمد خلف الله وعبد الكريم الخطيب كان حقّه أن يبين ما في كتابتهما من سلبيات، لكنه لم يفعل شيئاً من هذا.

## خاصة:

### نظرات في أحسن القصص

#### للدكتور محمد السيد الوكيل

يقع هذا الكتاب في جزئين، وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤م. ولقد أثنى مَنْ أثق به على المؤلف وعرفت أن مجال اختصاصه التاريخ.

يحاول الكاتب أن يبرز بعض العبر في القصص القرآني مذكراً للمسلمين بما يجب عليهم، ولكن الطابع الذي يغلب على الكتاب طابع السرد والرواية، فهو ينقل كثيراً عن ابن جرير وابن كثير وعن بعض كتب التفسير حيث رأيت له نقولاً عن حاشية الجمل على الجلالين، وقد ينقل الخبر الطويل ويعلق عليه بعد نقله بأنه لم يثبت. لقد نقل أخباراً كثيرة في قصة آدم أرى أن لا داعي لها وكذلك ذكره لشعيب وإدريس.

الجيد في الكاتب أنه ينبّه أحياناً كثيرة على عدم ثبوت ما نقل، والكتاب فيه فوائد كثيرة، وقد يُرضي فئة خاصة من الناس.

وهناك كاتبون آخرون كتبوا مشكورين في القصّة القرآنية لم أتعمد ترك الحديث عنهم مكتفياً بما ذكرتُ خشية الإطالة. جزى الله الكاتبين الذابّين عن كتاب الله خير الجزاء.

## الفصل الثاني

### القصة القرآنية أهدافها وخصائصها

في القرآن الكريم أكثر من شكل تعبيريّ من خطاب وحوار وقصة، وكلّها في القرآن معجزةً ببيانه وبلاغته، وكلّها يلتقي على الأهداف المتوخاة ذاتها من التأثير على عقل المتلقي وقلبه ووجدانه وهدايته إلى ما فيه خيره وسعادته في الدارين.

والقصة القرآنية قصةٌ هادفة، فهي ليست حلية للنص القرآني أو ترفاً فنياً أو تاريخاً لمجرد التأريخ أو سرداً لمجرد التسلية والمتعة الفنية، وهي وإن كانت ذات خصائص فنية راقية وتأثير فذ في المتلقي - فإنها صدقٌ لا خيال فيه وحقٌ لا زيف فيه، وبما أنّ مصدر القصة القرآنية هو مصدر القرآن نفسه، وهو الوحي الإلهي - فالأهداف المتوخاة منها هي الأهداف ذاتها المتوخاة من أشكال التعبير الأخرى في القرآن الكريم، غير أنّ للقصة تأثيراً نفسياً ووجدانياً ذا طابع خاصّ لما فيها من عرضٍ حيٍّ للفكرة والغرض مجسم في أشخاص يتحركون ويتكلمون ويتحاورون، وفي أحداثٍ تُبثّ فيها الحياة، فتعرض أمام المتلقي كما لو كانت ماثلة أمامه وإن كانت لأقوام مضوا.

لم يُغفل القرآن الكريم أيّاً من أشكال التعبير البشري التي تحقق أهدافه وغاياته السامية كالقصة والخطاب والحوار، كما لم يغفل أيّاً من أنماط الكلام خبراً وإنشاءً وأيّاً من أساليب المخاطبة سواءً بالأمر والنهي والزجر والوعظ والترغيب والترهيب المباشر أم ببسط الحقائق بصورة مباشرة، أم بعرض ذلك كله في شكل صورة أو مثل أو قصة. أمّا لماذا كان هذا هو الشأن؟ فلأنّ البشر يختلفون في طبائعهم واستعداداتهم، فمنهم من يتأثر بالقصة وما فيها من تأثير وجدانيّ حيٍّ، ومنهم من تقنعه البراهين والحجج العقلية، ومنهم من يتأثر بالترغيب والترهيب، لذا يأتي الحث على فضيلة معينة أو النهي عن رذيلة معينة في أكثر من قالب تعبيريّ، وقد ترد هذه القوالب التعبيرية مستقلة بعضها عن

الآخر، وقد تجتمع، وغالباً ما تجتمع في القصة القرآنية، فتأتي القصة جامعة للأحداث والحوار والخطاب بما فيه من أمر ونهي، وربما ختمت القصة أو بُدئت بذكر الموعظة المستخلصة منها بشكل مباشر، فإذا ما اجتمع في القصة أكثر من قالب تعبيرى كانت أوسع تأثيراً لقطاع كبير من المتلقين على اختلاف ميولهم وطبائعهم.

### أهداف القصة القرآنية:

إن أهداف القصة القرآنية لا تنفصل عن أهداف القرآن الكريم عامة وعن أهداف الدعوة الإسلامية، ومما هو جدير بالإشارة إليه أن القصة القرآنية الواحدة قد ترد في مواضع متعددة من القرآن لهدف جديد أو عبرة جديدة، أو لتثبيت الفكرة الواحدة بعرضها بعدة أساليب أو من عدة زوايا، وذلك لأن تعدد ذكرها يفيد في تثبيت الأفكار وتحقيق الأهداف والغايات. ومن أهداف القصة في القرآن:

١- الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث وتثبيت أسس العقيدة الإسلامية في النفوس، وذلك من خلال ذكر قصص الأنبياء وبيان وحدة دعوتهم إلى هذا. وبيان أن ملة الكفر واحدة، وشبهاتهم واحدة على مر العصور والأزمان، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

٢- تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين من خلال عرض صور لما عاناه الأنبياء السابقون وأتباعهم من أذى وتعذيب أقوامهم وكيف صبروا على ما أودوا، وكيف كانت الغلبة للإيمان وما حلّ بأقوامهم من دمار وعذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد. فسنه الله دائما نصرة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وإهلاك المكذبين.

٣- تعليم المسلمين فضائل الأخلاق عن طريق القدوة العملية الماثلة في قصص القرآن، والزجر عن الأخلاق الذميمة والفواحش، وحماية الإنسان من الوقوع في الآثام، والحض على التوبة للمسيء، وهذا كله يكون بتقديم أمثلة لشخصيات تمثل جانب

القدوة الإيجابية كأيوب عليه السلام في صبره، ويوسف عليه السلام في صبره وعفته وتسامحه، وأمثلة أخرى لشخصيات تمثل الجانب السلبي كقارون في اغتراره بالمال والجاه، وفرعون في تعاليه وغروره وإصراره على الكفر، وقوم لوط في إصرارهم على الفواحش، والقرآن الكريم يحضّ من خلال عرض قصصهم على البعد عن مسلكهم الوخيم العاقبة دنیا وآخره.

٤- الإقناع العقلي والتأثير الوجداني لتمكين حقائق الإيمان والتوحيد والبعث في عقل وقلب المتلقي، وذلك من خلال أحداث بعض القصص وما فيها من حوار هادف مقنع، كما أنّ تكرار هذا الإقناع وذلك التأثير بهذه الحقائق في قصص متعدّدة أو في قصّة واحدة تُعرض بأكثر من قالب أو من أكثر من زاوية -هذا يسهم في تمكين هذه الحقائق في العقل والوجدان، كما يسهم في استخلاص دروس وعبر جديدة منها في كل عرض جديد.

٥- الترغيب بالتأييد في الدنيا والنعيم المقيم في الآخرة للمؤمن الطائع، والترهيب من غضب الله وعذابه في الدنيا والآخرة للجاحد العاصي، وذلك من خلال عرض أمثلة لتأييد الله عباده المؤمنين وعقوبته للجاحدين في الدنيا، كقصّة إنجاء الله تعالى موسى عليه السلام والذين آمنوا معه من بطش فرعون وجنوده، وإغراق فرعون وجنوده في اليمّ، وإنجاء الله لوطاً عليه السلام وأهله إلا امرأته وإهلاك قومه.

### الخصائص الذاتية للقصّة القرآنيّة:

١- مصدر القصّة القرآنيّة هو مصدر القرآن الكريم نفسه، فهي من وحي الله تبارك وتعالى، لذا نجدها قصّة هادفة، فهي ذات هدف ديني أخلاقي لا ينفصل عن أهداف العقيدة والشريعة، غير أنها تجمع إلى سمو الهدف رقي الشكل الفنيّ.

٢- المصدر الذي تستقى منه أحداث وشخصيات القصّة القرآنيّة هو الكون والتاريخ، غير أن القصّة القرآنيّة حقّ لا زيف فيه، ولا مدخل في أحداثها للخيال الفني ولا للخرافات والأساطير التي ادّعى بعض المستشرقين والمستغربين دخولها فيها،

ولا للرمزية التي حاول بعضهم -ظلماً وعدواناً- حمل قصص القرآن عليها.

فالحقائق التي ترد في القصة القرآنية عن الكون وعن طبائع النفس البشرية عموماً، وعن قصص أقوام وأشخاص بأعيانهم هي كلها حقائق ثابتة علمياً وتاريخياً، وإن لم تقصد القصة القرآنية إلى التأريخ المجرد بل اتخذت من حقائق التاريخ مجالاً للموعظة والاعتبار والتأسي ودروساً واقعية يتأملها المتلقي ويتعلم منها كما تبين معنا في عرض أهداف القصة القرآنية.

٣- موضوع القصة القرآنية هو الإنسان المستخلف في الأرض بما يدور حوله في الكون وما يحدث له وما ينبغي أن يكون عليه حاله وما ينبغي أن يعرفه من أمور العالم المنظور والغيب غير المنظور وحقائق الدين والإيمان والتوحيد والبعث، وما ينبغي أن يلتزمه من معتقدات وفضائل، وما ينبغي أن يجتنبه من معتقدات ورذائل، فالإنسان هو قطب الرحي في القصة القرآنية مثلما هو قطب الرحي في الكون الذي استخلف فيه.

٤- المتلقي الذي تُوجّه له القصة القرآنية هو نفسه محورها وهو الإنسان الذي تُساق له القصة القرآنية نوراً لعقله وقلبه وتهدياً لمسلكه كما تبين معنا في عرض أهداف القصة القرآنية. ومن ثم فقد سمت القصة القرآنية بالإنسان حتى يمتاز عن الحيوان الذي يشترك معه في بعض الصفات، هذا السمو الذي لا يركز على جانب واحد في هذا الإنسان، فهو سمو روحي ونفسي يشعر به الفرد، ويجد فيه حلاوته ولذته، وهو بعد ذلك سمو اجتماعي تجد الجماعة فيه بغيتها وضالتها وفضيلتها.

٥- القصة القرآنية ليست عرضاً مجرداً لحقائق التاريخ، بل هي انتقاءً لجوانب من التاريخ إيجابية أو سلبية لتحقيق أهداف القصة المرجوة، ولذا نجدها تركز على الرقي المادي، وأسباب القوة، لأن هذه المادة عنصر أساسي رئيس في مقومات هذا الإنسان، ونجدها تركز على ما هو أهم، وهو أن التدين الحق لا ينفصل عن الحياة العملية ولا ينفصم عن واقع هذا الإنسان وإنما هو مرتبط به ارتباطاً وثيقاً، بل هو جزء منه،



ولهذا نجد القصة تفصل في أسباب السعادة الروحية وأسباب الرقي المادي حتى تتم السعادة للمؤمنين بهذا القصص، العاملين بتوجيهاته وارشاداته.

٦- القصة القرآنية قصة هادفة، وأهدافها لا تفصل عن أهداف العقيدة والتشريع، وهي تمزج بين الإقناع العقلي والتأثير الوجداني لتحقيق التأثير المطلوب في نفس المتلقي وفي سلوكه.

### الخصائص الفنية للقصة القرآنية:

للقصة القرآنية خصائص فنية راقية، فهي تجمع إلى سمو الهدف وصدق المضمون رقيًا في البناء الفني، ومن الخصائص الفنية التي تمتاز بها القصة القرآنية<sup>(١)</sup>:

١- تنوع طريقة العرض: فالقرآن الكريم لا يجري في أسلوبه على نمط واحد مخصوص في قصصه كلها، بل تتنوع طرائقه تبعاً لتنوع الأغراض، وتنوع الوسائل البيانية تبعاً لتنوع الطرائق، فبعض المشاهد يقوم على استحضار الأحداث دون تدخل بالرواية. والاقتصار على التنبيه على عنوان المشهد أو موضوعه ثم تظهر الأحداث بصورة مباشرة مثل قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مشهد بناء الكعبة، وأكثر القصص القرآنية يعتمد الحكاية والرواية، وبذلك يسيطر على الموقف لينتقي من الأحداث ما يحقق الهدف وينسجها في إطار فني لا يخرجها عن الواقع، ولا يترك المجال لكل ما وقع فيخرج بها عن هدفها المسوقة لأجله، مثل قصة أصحاب الكهف وقصة سليمان عليه السلام مع الهدد وملكة سبأ، وقصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وقد يمهد مع هذا وذاك للقصة بذكر ملخص لها مشوقٍ إليها ومنبّه على ما تنطوي عليه من مقاصد القصة القرآنية، ويعالج ما لعله يثار حولها من تشكيك كقصة أصحاب الكهف وبداية قصة موسى عليه السلام في سورة القصص، وقد يمهد للقصة بمقدمة توحى

---

(١) انظر في هذا الموضوع: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب؛ والبيان القرآني لمحمد رجب البيومي، والبيان القصصي في القرآن الكريم للدكتور إبراهيم عوضين.

بخاتمته كما في قصة يوسف عليه السلام حيث تبدأ بالرؤيا التي توحى بالخاتمة قبل عرض الأحداث، وقد يذكر القصة بلا مقدمات أو تمهيد مكتفياً بالإيحاء إلى محور القصة مثل قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ، وربما قدّم أحداث القصة وفق ترتيبها الواقعي مثل قصة مريم عليها السلام في سورة مريم وقصة إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء، وربما قدّم أحداث القصة وفق ترتيب ما ليعجل لنا بالكشف عن مفاجأتها كما في قصة أصحاب الجنة في سورة القلم، وقد يمزج البيان القرآني الشخصية بالحدث مزجاً تاماً ثم يدير المشاهد في ذلك الفلك حسبما يقتضيه الغرض التوجيهي، فهو يمزج الشخصية بالحدث ليتج من هذا المزيج مركز هو البطل الجديد الذي تدور حوله المشاهد، ذلك أن الشخصية في القصة القرآنية وسيلة لا غاية، فهي مجرد شواهد إنسانية في مختلف حالاتها من خير أو شرّ أو قوة أو ضعف.

٢- إقامة العرض على التصوير: أي أن القصة القرآنية تقيم العرض القصصي على الأسلوب التصويري، فالقرآن يتخيّر من ألوان التصوير لكل قصة ما يتناسب معها في موطئها، فإن كان للأشخاص دور رئيس في تحريك الحدث القصصي رأته يبرز من صفاتهم العقلية أو النفسية أو العاطفية أو الجسمية ما تتطلبه أدوارهم في القصة.

٣- اختلاف موقع المفاجأة: القصة القرآنية لا تسير على نظام واحد في تقديم الحدث المفاجيء الذي يسهم في النهاية ويحرك القصة إلى حلّ عقدها الرئيسة، بل تراعي المكان والزمان المناسبين لإظهار المفاجأة، فالهيئة التي تقدّم بها القصة في مجال العقيدة غير تلك التي تكون في مجال التطبيق العملي، ففي قصة أصحاب الجنة في سورة القلم تأتي المفاجأة بعد بدء القصة مباشرة، فبينما هم منشغلون بالتخفي والاستتار عن المحتاجين للهرب بمحصول جنتهم تأتيهم المفاجأة بخرابها أمام سخرية النظارة، ذلك أن القصة مبنية على نزوة نفسية هي الطمع والشحّ، أمّا قصة صاحب الجنتين فالمفاجأة فيها تأتي في ختام الأحداث وبعد حوار مع صاحبه المؤمن، ذلك أن القصة مبنية على نزوة عقلية هي الاغترار والتكبر، وفي هاتين القصتين يجهل القارئ المفاجأة

قبل حدوثها، أما في قصة نقل عرش ملكة سبأ فالمتلقي هنا يعرف المفاجأة من أول الأمر، وفي مشهد إدخالها الصرح تكون هي والقارىء سواء في الجهل بالمفاجأة.

٤- تنوع وسائل ربط المشاهد: من أبرز الخصائص الفنية للقصة القرآنية عدم الاستقصاء في عرض مشاهد القصة ارتفاعاً بها عن وهدة السرد المعتاد، ففي القصة الواحدة تجد بعض المشاهد متتابعة، وبعضها فيه فجوة تُترك لخيال القارىء ليملاها، ففي قصة أصحاب الكهف يتتابع المشهد الأول والثاني، إذ هما استمرار للحوار الدائر بينهم بشأن موقف قومهم من العقيدة، لكنّ هناك فجوة بين المشهد الثاني والثالث هي الفاصل بين استقرار أمرهم على الإيواء إلى الكهف وبين وقوفنا أمام الكهف نرى الشمس تطلع عليهم وتغرب وهم في فجوة منه؛ وهذه الأحداث التي سقطت بين المشهدين لا ضرورة لها في نمو الحدث القصصي.

٥- عدم التزام السرد القصصي: لا يلتزم في القصة القرآنية السرد القصصي دائماً، لكنّه قد يلتزم للوصول إلى الغاية من القصة، ووفقاً لذلك الالتزام نرى من القصص القرآنية ما تقدّم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد كما رأينا في قصة يوسف ومنها ما تقدم في حلقات يُخصّ بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب. ولا مانع في أثناء ذلك من تكرار موقف مشترك بين حلفتين.

### القصص في العهدين القديم والجديد:

لا عجب إذن أن يكون هذا القصص بدءاً مما عرفته الانسانية من هذا اللون في القديم والحديث حتى ذلك القصص الذي جاء في الكتب السماوية نجده يختلف تماماً عن القصة القرآنية، فأنت تجد القصة في هذه الكتب فضلاً على ما فيها من مخالفة لقواعد العلم وقوانين التربية؛ فهي مع ذلك تذكر الله ورسله بما يباه العقل وتشمئز منه النفس، وماذا أكثر من أن يوصف الله بالندم والبداء<sup>(١)</sup>، والظهور بصورة البشر -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً- وأن يوصف الرسل بالكذب والسكر والزنا!!

---

(١) أي تبدو له الأمور بعد أن كان يجهلها.

## القصة الأدبية:

أما القصة الأدبية في القديم والحديث فبعضها يقوم على الخيال الذي لا حقيقة له، وبعضها يقوم على تشويه الحقائق، وثالث ينحرف به كاتبه عن القيم والمثل والمبادئ. ونظرة إلى كُتَّاب القصة الذين اشتهروا تجد أن الشذوذ والانحلال الخلقي والإلحاد والتفريغ كان الطابع لأكثرهم، هذا عن الكتاب العالميين للقصة؛ أما الكُتَّاب العرب فهم بين مترجم ترجمة حرفية، أو ناقل للفكرة؛ ليضعها في أسلوبه وقالب من الكلمات العربية، وقليل أولئك الذين ساروا بالقصة مسارها الصحيح نهجاً وموضوعاً مستوحين ذلك كله من بيتنا وقيمنا<sup>(١)</sup>.

(١) من الأدباء الأجانب صامويل بتلر (١٨٣٥-١٩٠٢) من قادة الفكر الانجليزي لكننا نرى من مبادئه التشكيك في الماضي والتحذير من المستقبل والسخرية من الأديان عامة والمسيحية خاصة أما آراؤه ففيها قلب وشذوذ وانحراف فهو يقول: «إن الجريمة مرض يجب أن لا يعاقب عليه القانون والذي يجب أن يعاقب عليه القانون فعلاً هو المرض مهما كان وراثياً».

وهناك تشارلز ديكنز (١٨١٢-١٨٧٠) الذي كان يعدُّ أعظم القصاصين في عصره باعتراف النقاد أنفسهم غير أنه كان عصبي المزاج يحقد على المجتمع لذا نراه يسهب في الحديث عن جرائمه ومع ذلك كان كثير العيوب في كتابته فقصصه مليئة بالمتناقضات، وهو يطنب حيث يمكن الإيجاز، وهو في إطنابه يصل إلى حدِّ الثرثرة التي لا تجدي، وهناك «ابتن سنكلر» في الربع الثاني من القرن العشرين: سمومه التي ييثرها في كتبه لا تخرج عن الترويج للشيوعية ويدعو في كل سطر من كتاباته إليها، وغيرهم الكثير.

ومن الأدباء العرب محمود طاهر لاشين (ت ١٩٥٤م) من ابرز أعضاء المدرسة الحديثة الذين أثروا في غيرهم تأثيراً كبيراً، وقد كان متعلقاً بالقصص الغربي الذي يصور حياة الأجانب بمتناقضاتها ومآسيها ومع اهتمامه بالإصلاح أساء شغفه بالأدب الغربي إلى الحياة العربية ففضلاً على أنه كان يكتب الحوار باللغة العامية ويستعمل في بعض الأحيان الأساليب العادية كان ييثر في الناس بين حين وآخر سموماً تدفعهم إلى الإثم من حيث لا يشعرون.

وهناك نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وغيرهم وهؤلاء بعضهم -حتى الآن- يكتب بالعامية بل يدافع عنها ولا يزالون يختلفون في قضايا مثل العامية والفصحى، والتخطيط والعشوائية، والمادية والمثالية، والفوضى والحرية، والكم والكيف، والفرد والمجتمع، ثم هم لم يتفوقوا على منهج خاص أو عام يوجه الإنسانية عن طريق القصة الأدبية إلى حل مشكلاتها المختلفة».

ستبقى القصة القرآنية إذن الشعلة التي تضيء لهذا الإنسان؛ لتصل حاضره بماضيه، وستبقى النفحة الربانية التي تشرق بها النفس وتعمر القلب، وستبقى الوثيقة الوحيدة الصادقة الخالدة التي يطمئن الإنسان لمصداقيتها، وستبقى النمط السوي، الذي إن ترسمناه حقاً فسيقينا سلبيات التشويش والتهويز والتشويه.

تلك بعض الحقائق عن القصة القرآنية؛ من شأنها أن تبعث في النفس الشوق للتفصيل، وإن تجعل النفس تشوق للوقوف مع الجزئيات والأحداث، ونرجو أن تنعم نفوسنا- ونحن نعيش مع القصة القرآنية- بمعرفة هذه الحقائق وغيرها، إلا أن الموضوع الذي نود أن نخصه بالعناية والتركيز، هو موضوع التكرار؛ التكرار في القصص القرآني، وقبل ذلك سنتحدث عن بعض الشبهات التي أثارت حول القصة القرآنية.

---

= انظر « القصص القرآن رسالة مقدمة من عبده إبراهيم محمد بلبول معيد بقسم التفسير كلية أصول الدين جامعة الأزهر لنيل درجة الدكتوراة في التفسير ص ١٣١-١٤٦ .

## الفصل الثالث

### شبهات حول القصة القرآنية

كان من المتوقع، بل من الواجب وقد اتصل الشرق بالغرب أن يفيد المسلمون من ذلك التقدم العلمي الذي كان للغرب فيه قصب السبق، وكنا نرجو أن تنقل هذه التقنية العلمية حتى يفيد منها المسلمون ولكن كان الأمر على العكس من ذلك حيث وجدنا أولئك المثقفين الذين هيات لهم ظروفهم أن يتصلوا بالغرب وقضوا فيه حقبة من أعمارهم، رجعوا حربا على هذا الدين وحضارة هذه الأمة، فوجدنا حملة مسعورة في النصف الأول من هذا القرن. وهذه الحملة المسعورة لم تكن لتقتصر على زاوية واحدة من زوايا تلك الحضارة، وإنما جاءت لتشمل التاريخ والتشريع بل اللغة كذلك. . . ثم تعدت ذلك كله فتحدت مشاعر الأمة وعواطفها لتتال من هذا القرآن الكريم والسنة المطهرة وقدسيتهما.

وكانت في ذلك كله حاكية مقلدة لا تصدر عن أساس من المنهجية والبحث العلمي اللذين تدعيهما هذه الفئة على الرغم من أنها لبست - خداعا - ثوب الوطنية ورفعت زورا شعار التحرير، إلا أنها كانت أشد فتكا وأكثر ضررا وأنكى إيذاء من المستعمر الذي أرضعهم لبان حقه وكفره وفجوره.

والذي يتصل بموضوعنا هو ما أثاروه حول القصة القرآنية، وكلهم يغرفون من مستنقع واحد، ويظهر أن القصة القرآنية إنما كانت الهدف؛ لأنها الموضوع الذي يستطيعون أن يتسربوا من خلاله إلى الموضوعات القرآنية الأخرى، هذا أولاً.

وأما ثانياً: فلأنهم ظنوا أن التمويه في قضية القصة قد يسهل عليهم أكثر من غيره من بقية الموضوعات.

وأما ثالثاً: فقد رأوا أن هناك عوامل مشتركة بين القصة القرآنية والقصة الحديثة؛ ومن هنا يمكنهم التخليط، كما يمكنهم أن يدسوا سمومهم وهم يتظاهرون بتطبيق قواعد القصة الحديثة على القصة القرآنية بحسن نية دون أن يثير عليهم ذلك أي عاصفة من قبل المسلمين المؤمنين بكتاب الله.

ونستدل لما نقول بأنهم نفثوا سمومهم وكفرهم، ومع ذلك فهم يعلنون مدعين أن هذا الذي قالوه لا يتنافى مع إعجاز القرآن، بل هو يصدقه ويؤكد، ويذكرني أولئك بقول النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام وهو يبين لنا المداخل التي يمكن أن يدخل منها أعداء هذا الدين دون أن يحدثوا ضجة أو يثيروا شبهة، وإنما يدخلون من مداخل مقبولة غير مستنكرة. يحدثنا النبي عليه وآله الصلاة والسلام محذراً «إن الشيطان يأتي أحكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا»<sup>(١)</sup> وهذه أسئلة معقولة في ظاهرها؛ لأن الإجابة عليها إجابة بديهية، فالله هو الخالق، ولكن الشيطان لن يكتفي بهذا، وهذا ليس بالطبع هو الذي يريده وإنما يسترسل في تساؤلاته بعد ذلك ليصل إلى غايته فيقول «من خلق الله»، وفي حديث النبي الكريم ﷺ أعظم الحكمة وهو درس يريدنا الرسول الكريم أن نعيه؛ فإن شياطين الإنس أقدر على التشكيك من شياطين الجن، ولهذا قدموا في الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] ويقيننا أن المسلمين حري بهم أن يقفوا عند هذا الحديث العظيم الفوائد، العميق في هدفه وغايته، وأولئك القوم يسلكون ذلك النهج، فهم يأتون باسم العلم تارة، والأدب تارة، والغيرة تارة ليقرروا ما في نفوسهم من شبهات معلنين أن ذلك دفاع عن هذا القرآن أمام هذه النهضة العلمية والأدبية العارمة، فإذا تم لهم التشكيك في قصص القرآن، وأنى لهم ذلك انتقلوا إلى موضوع آخر وليكن موضوع الصلاة أو الصيام أو أمراً يتعلق بالمعاملات، ثم يصلون إلى قضية البعث واليوم الآخر، ولقد كان أبو بكر

(١) أخرجه البخاري في باب بدء الخلق.

-رضي الله عنه- ذا حكمة وحزم حينما لم يفرق بين من امتنع عن الزكاة مع رضاه بجميع قواعد الإسلام، وبين الذين ارتدوا عن الإسلام بكل قواعده وعقائده، رأينا من أولئك من أنكر بعض ما أخبر عنه القرآن كقصة إبراهيم وإسماعيل مدعياً أن هذه القصة إنما نسجت قبل نزول القرآن لتوثيق العرى بين العرب واليهود الذين يعيشوا في الجزيرة. ذهب إلى هذا القول الدكتور طه حسين، وقد انبرى العلماء - جزاهم الله خيراً - فردوا عليه مقالته رداً علمياً مما جعله يعلن تراجعاً وتوبته. والتي نرجو أن تكون توبة صادقة.

وهذا آخر يعلن أن القصص القرآني، ومعجزات الأنبياء من المتشابه، وهو محمد فريد وجدي<sup>(١)</sup> وقد رد عليه صاحب المنار - رحمه الله وجزاه خيراً.

ثم جاء أمين الخولي، وقد تخرج الشيخ أمين الخولي في مدرسة القضاء الشرعي، وتسنى له أن يدرس اللغة الإيطالية ثم عين مدرسا في كلية الآداب، وكان له رأي يتلخص في وجوب تجديد هذه الدراسات الأدبية والذي يهمننا نظرتة إلى دراسة التفسير، فالقرآن كتاب العربية الأكبر كما يقول، ومن هنا فالواجب أن يُنظر إليه أولا وقبل كل شيء من هذه الناحية.

لذا فهو لا يرضى أن يكون المقصد الأول للقرآن بيان الهداية في العقيدة والتشريع والأخلاق، وإنما واجب العرب مسلمهم وغير مسلمهم أن يدرسوا القرآن أولا من حيث هو فن العربية الأقدس.

لم تكن القصة القرآنية بدعا من موضوعات القرآن، وهل هناك كتاب في الدنيا تحطمت على صخرته الصلبة الشوائب والشبهات والفرى والأباطيل غير هذا القرآن؟ فلقد كان نصيب القصة القرآنية لا يقل عن غيرها من موضوعات القرآن الكريم بل كان لها النصيب الأوفر من خصوم الإسلام فلقد وُجّهت السهام من كل صوب من

---

(١) وقد رجع عن هذا القول فيما بعد.



المستشرقين والمبشرين للقصة القرآنية فتارة يزعمون أنها خليط غير متجانس من القصص الشعبية وأخبار أهل الكتاب وأنباء الأمم التي كانت معروفة في عهد النبي ﷺ وحيناً يزعمون أن النبي تلقفها من اليهود والنصارى وحيناً يقولون إن النبي اختلقها ويرمونه بالجهل في التاريخ وجاء مع هؤلاء وأولئك صاحب (الفن القصصي في القرآن) وهي رسالة أعدت لنيل الدكتوراة في أواخر الأربعينيات. يزعم الكاتب أن القصص القرآني لا ينبغي أن نفهمه على أنه حقائق ثابتة قصد القرآن إلى تقريرها وإنما هي نمط من أنماط الخيال الخصب والفن المديج لما تعارف عليه الناس في عصر نزول القرآن أو جاءت تحكي ما عرفه السابقون، وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه رسالته مع وجود تفصيلات وآراء كثيرة فيها تحتاج إلى بسط ومناقشة، وسأبدأ ببسطها أولاً تمهيداً لمناقشتها.

يقول الكاتب إن القصة القرآنية هي عمل أدبي متخيل يسوق حوادث وقعت إما لبطل لا وجود له أو لبطل له وجود، ولكن الحوادث التي ألمّت به لم تقع أصلاً، أو أنها وقعت ولكنها نُظمت على أساس فني، إذ قُدِّم بعضها وأُخِّر بعضها أو حُذف بعضها وأُضيف إلى الباقي بعض آخر، أو بولغ في تصويرها إلى حد يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون حقيقة إلى ما يجعلها في عداد الأشخاص الخيالية، ويرى أن الأقدمين أخطأوا في عدّ القصص القرآني تاريخاً، فمنهج القرآن - في رأيه - هو معالجة القصة معالجة أدبية، ويعني بذلك خلق الصور والابتكار، ولذلك لا مانع من اختلاف تصوّر الشخصية الواحدة في القرآن.

ويفرّع على هذا قوله بوجود أساطير في القرآن زاعماً أن القرآن نفسه لم يُنفِ عن نفسه أن تكون فيه أساطير، وإنما الذي أنكره على العرب أنهم لم يؤمنوا أنه من عند الله، فإذا قال القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] فليس معنى هذا أنه أنكر وجود الأساطير، ولكن الذي أنكره القرآن أن يكون النبي هو الذي اكتتبها، فكأن القرآن يقول هي أساطير ولكن ليست من عند محمد،

وإنما هي أساطير من عند الله، ويستدلّ لذلك بما جاء بعد الآية الكريمة ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيقول إنّ هذا القول لا يفهم منه نفي الأساطير، بل كلّ الذي يفهم منه أنّ الله هو الذي أنزلها فهي أساطير منزلة.

إنّ الكاتب يسمّي القصّة في القرآن أسطورة، حيث يقول إنّ الأسطورة في مفهوم القرآن هي ما سطره الأقدمون من أخبارهم وأقاصيصهم مستدلاًّ ببيان بعض المفسرين لمعنى الأسطورة بأنها ما سطره الأولون وكتبوه من أخبار الأمم.

ويقّرر الكاتب أن النبي ﷺ لم يلتزم الصدق التاريخي في القصّة، وهذا ما قرره المستشرقون ولكنهم قالوا إنه كان يجهل التاريخ فأخذ مقالتهم ولكن وضعها في قالب آخر. قال بعض المستشرقين بوجود قصص في القرآن غير موافق للواقع التاريخي فاتهموا القرآن بمخالفة التاريخ، ودليل ذلك عندهم اختلاف بعض أحداث قصص القرآن عما جاء في التوراة والإنجيل، كما اتهموا القرآن بافتراء الكذب والتزوير والتدليس، وعلّلوا مخالفة القرآن للواقع التاريخي بأكثر من سبب أهمها جهل محمد بالتاريخ حيث اخذ محمد التاريخ عن الجهلة من العبيد والأرقاء ممّن كانوا يخدمون قريشا، وهؤلاء العبيد كانوا فقراء لا يستطيعون الحصول على نسخ التوراة والإنجيل، فكانت معارفهم مغيرة مبدلة، فأخذها محمد عنهم كما هي، وأوردها بخطئها في قصص القرآن، كما قالوا إن أغراض النبي الخاصة والظروف التي كانت تحيط به وبال دعوة الإسلامية كانت تدفعه إلى أن ينال بعض القصص بالتغيير والتبديل والحذف والإضافة لتساير الدعوة الإسلامية، أي إن محمدا كان يزور القصص ويزيفه، بل كان يخلّط من الحوادث ما لم يقع ويصوره على أنّه الواقع التاريخي، فهو عندهم يفترى الكذب، فأراد الكاتب ردّ دعواهم فوقع في أكثر مما وقعوا فيه حيث سلّم بأقوالهم وزاد عليها وصف النبي ﷺ بالتدليس فيما سمّاه بالواقع النفسي وهو مجازاة القرآن لما هو مشهور متداول وليس بلازم أن يكون هذا الواقع النفسي أو المشهور متفقاً مع الحق والواقع فهو يريد اجتذاب الناس إلى الإسلام ولو بالباطل.

لقد حاول الكاتب رد دعواهم فوافقهم في عدم مطابقة القصص القرآني للتاريخ غير أنه علل ذلك بأن القصة القرآنية هي عمل الفنان الذي تلزمه الحرية الفنية والذي لا يعنيه الواقع التاريخي ولا الصدق العقلي، وإنما ينتج عمله ويبرز صورته، حسب ملكته وموهبته الفنية وقدرته على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل وهذا القول يشي بأنه يوافق المستشرقين في قولهم إنَّ القرآن من صنع الرسول ﷺ بدليل قول الكاتب في موضع آخر إنَّ القصص في القرآن تدرّج كما يتدرج أدبُ كلِّ أديب، واعتقاده أنَّ للقرآن مصادر هي التوراة والإنجيل، والأفاصيص والحكايات التي كانت متداولة في جزيرة العرب، وخليط من عناصر فارسية وإسرائيلية، فهذه المصادر تمثل العقلية العربية إبان ظهور القرآن، وليس بلازم أن يكون ما يقصه القرآن عنها صدقاً وحقاً على ما تقدم من كلامه.

ومن العجيب أن يدعي الكاتب وأضرابه أنهم ذهبوا إلى مآذبها إليه حتى يخلصوا القرآن مما فيه من تناقض في قصصه، ويضربون مثلاً لذلك ما جاء في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أن البشارة كانت له تارة، وكانت لامرأته أخرى ويعدون ذلك من قبيل التناقض.

لقد طعن المبشرون في صدق قصص القرآن وادّعوا أنها مخالفة للتاريخ القديم من جهه، ولما في التوراة والإنجيل من جهة أخرى، والخطأ الذي تردى فيه خصوم القرآن أنهم وجدوا ما يوجّه إلى التوراة والإنجيل من نقد يتصل بالمتن والسند جميعاً، نقد يتبين به ما فيهما من خلط وتناقض ووضع واعتراف من أصحابهما بذلك، فأرادوا أن يسلكوا بالنسبة للقرآن المسلك ذاته خطأ وزوراً، وكان من أدلتهم وقوع التناقض في أحداث قصصه، وعدم اهتمامه بالترتيب الزمني للأحداث، وأن القرآن يسند الأحداث لأناس بأعيانهم في مواطن ثم يسند نفس الأحداث لغير هؤلاء الأشخاص في موطن آخر، من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ قَالَ أَلَمْ لَا مِنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنُ إِنَّ هَذَا سِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٩]

وفي سورة الشعراء جاء على لسان فرعون: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] وكذلك ما جاء عن البشارة لإبراهيم أو لامرأته، كما أن القرآن ينطق الشخص الواحد في الموقف الواحد بعبارات مختلفة حين يكرر القصة، ومن ذلك تصويره لموقف (الإله) من موسى حين رؤيته النار، فقد نودي في سورة النمل بقوله ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] وفي سورة القصص ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَ إِيَّيَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] وفي سورة طه ﴿فَلَمَّا أَلَّهَا نُودِيَ يَمْوِسَ إِيَّيَ أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

ومما يدعيه المعارضون بدعوى التناقض أن فرعون عابد في قوله تعالى على لسان قومه ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْمَهْلِكُ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ومعبود في قوله ﴿أَنَارَبُكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

كما يتهمون القرآن بالخلط ومن ذلك عندهم أنه يقرر أن مريم أخت هارون أخي موسى مع بُعد ما بين موسى ومريم أم المسيح.

كما يرى هؤلاء أن القرآن يفترى الكذب، ومالا أصل له من التاريخ أو من الأساطير، بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد، فمحمد كان يخطيء في الحقائق التاريخية ويختلق من الحوادث ما لم يقع ويصوره على أنه الواقع التاريخي، وكان يفعل ذلك للإجابة على ما يوجهه إليه المشركون من أسئلة، فتأتي إجاباته تصويراً نفسياً عن أحداث ماضية مغرقة في القدم سواء أكان ذلك متفقاً مع الحق أم مخالفاً له، ومن الأدلة على التناقض في القرآن عند الكاتب أن القرآن يقرر أن الجن تعلم بعض الشيء ثم لما تقدم الزمن قرر القرآن أنهم لا يعلمون شيئاً، ثم يقول الكاتب إن المفسرين يخطئون حين يأخذون الأمر مأخذ الجد.

وقد نظر الكاتب في قصص القرآن وراح يصدر عليها أحكامه في ضوء نظريته الفنية وفي ضوء اتهامات المستشرقين فعمد إلى قصة موسى عليه السلام مثلاً في سورة الكهف ونفى عنها أن تكون قد اعتمدت على أصل من واقع الحياة، ووصفها بأنها ابتدعت على غير أساس من التاريخ مُظهِراً عدم الجزم بذلك إذ صدر حكمه بحرف «لعل».

ويتجاوز الكاتب الحدّ حين يتناسي عصمة الأنبياء فيقرر أنهم أبطال ولدوا في البيئة وتادّبوا بآدابها وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم في كل ما يقال ويفعل وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا بما تدين به من رأي وعبدوا ما يُعبد من إله.

أمّا أخلاق الأمم الضالة فيدافع الكاتب عنها قائلاً: إنّ تصوير أخلاق الأمم كبني إسرائيل ليس واقعا بالضرورة، بل يصح أن يكون تصويراً فنياً يلاحظ الواقع النفسي أكثر من صدق القضايا.

ويهوّن الكاتب وأضرابه من شأن المعجزات وعلاقتها بإثبات النبوة والرسالة، وبما أن معجزة محمد ﷺ هي القرآن، فقد نسبوه إليه ليجعلوه كلاماً بشرياً قابلاً للنقد، بل راحوا يزيّفون أقوال العلماء المسلمين كالфخر الرازي ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا بالتقول والبر والتحريف وتحميلها فوق ما تحتمل ليصلوا الى ما يدعون.

تلکم خلاصة لأهم ما جاء في رسالة الفن القصصي لمحمد أحمد خلف الله التي كان مشرفاً عليها الشيخ أمين الخولي رحمه الله، وسأحاول أن أجمل في الرد؛ ذلك لأنّ كثيراً من هذه الشبهات ذكرت الردّ عليها في أثناء حديثي عن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين شرفت بالحديث عنهم في هذا الكتاب وبعضها فصّلتُ الحديث في الرد عليه في كتابي «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية عرض ونقض».

وبادي بدء أقول إنّ ما ذهب إليه صاحب الفن القصصي في القرآن كان أكثر نكارة وإيغالا مما ذهب اليه المبشرون والمستشرقون، والذي يزيد النفس ألماً أن يكون المشرف على الرسالة أحد علماء المسلمين الذي يرى أن القرآن كتاب العربية الأكبر.

إنَّ ما ذهبوا إليه - أعني الباحث والمشرف - يتعارض أولاً وقبل كل شيء مع المسلمات التي لا يختلف فيها اثنان مسلمان وأولاهما أنَّ هذا القرآن الكريم صدق كله وهذا ما أكدته آيات كثيرة، وهذه أول آية في سورة البقرة ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] ومثله في سورة يونس ﴿وَتَقْصِصَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧] كذلك آية الإسراء ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وهذه الآية الكريمة واضحة المعنى حيث ذكر فيها الحق مرتين: أما أولاً ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ فمعناه أن هذا القرآن نزل على قلب النبي ﷺ من عند الله فليس لأحد من الخلق دخل فيه فهو تنزيل من حكيم حميد. وأما ثانياً ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ فمعناه أن هذا القرآن نزل متلبساً بالحق فهو حقُّ كله لا فرق في ذلك بين قصصه وحكمه وأحكامه ووعدته ووعدته.

لقد حدثنا القرآن عما قاله الذين نزل القرآن فيهم ردّاً على القضية الأولى وهي أنَّ القرآن الكريم أنزله الله «وبالحق أنزلناه» في مثل قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَكَبْتُ مِنْهُ﴾ [النحل: ١٠٣] وقال ردّاً على القضية الثانية ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُخْبِرُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥] وقال ردّاً على القضيتين كليهما ﴿وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْنٌ عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥-٦].

ولقد بلغت الجرأة بكاتب الرسالة ومنسقها (المشرف) الادعاء بأنَّ في القرآن أساطير وبأنَّ القرآن لم يَنْفِ ذلك عن نفسه، ولما كان مثل هذه الدعاوى غريباً كلَّ الغرابة لا يليق من منصف فضلاً على أن يكون مسلماً فضلاً على أن يكون من علماء المسلمين حاولوا أن يلصقوا هذه الأقوال بأئمة هم منها براء لكنهم للأسف حرفوا الكلم عن مواضعه فزعموا أن الإمام الفخر الرازي من الأقدمين وأنَّ الإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا من المحدثين رحمهم الله جميعاً يرون هذا الرأي، ويعلم الله

أنها فرية على أئمتنا مفسري القرآن الكريم ، وهذا يذكرني بصنيع أحد المستشرقين حيث نسب إلى الإمام البيضاوي رحمه الله فرية الإمام منها براء ففي سورة النور جاء قوله سبحانه ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١] ذكر الإمام البيضاوي أقوال المفسرين ومنها أَنَّ الآية نزلت في الجهاد، وقال تعليقا على هذا القول إنه مُقْحَمٌ هنا وليس هذا محله، يعني أَنَّ تفسير الآية بأنها في الجهاد لا مناسبة له، لأنه لا ذكر للجهاد في سياق الآيات، ولكن هذا المستشرق تناسى هذا القول وتجاهله ولا أقول جهله فقال إن البيضاوي يرى أن هذه الجملة مقحمة هنا وأن محلها ليس سورة النور، بل سورة أخرى هي سورة الفتح. هكذا بكل تعمد وإصرار يفترى على البيضاوي، وكلام البيضاوي واضح كل الوضوح، فهو يرى أن تفسير الآية بالجهاد مقحمة في الآية، وليست الآية نفسها، لكن إذا صدر هذا عن المستشرقين فكيف يصدر عن أحد رجال العلم؟ أو عن عالم مسلم؟

إن الذي يتدبر آي القرآن الكريم يدرك بلا عناء أن قضية الأساطير إنما هي اختلاق من الكافرين وأن القرآن الكريم نفاها كل النفي وردّها كل الرد، ويكفي أنه ما نسبها إلا للجاحدين الكافرين، ويمكنك أيها القارئ أن ترجع إلى آي القرآن الكريم لتدبر موقع هذه الجملة.

وهناك فرية لا تقل بعداً عن الحقيقة من هذه، وهي أَنَّ القصص القرآني إنما تعنيه اللمسات الفنية فحسب أما الصدق الواقعي والتاريخي فغير مقصود، ولذا فلقد تدرج القصص القرآني كما يتدرج أدب الأديب في كل عمل فني، وأيضا إن فيه تناقضا ثم إن فيه قصصا لا أصل له ألبتة وإنه مخالف بعد هذا كله لكثير مما جاء في التوراة.

ولا ندري كيف نتعامل مع هذه الأقوال وأصحابها: أنعدهم مسلمين فنكتفي أن نقول لهم إن هذه الأقوال تتنافى مع قدسية القرآن الكريم وعصمة النبي عليه وآله الصلاة والسلام أم نرد عليهم بما نرد به على المستشرقين والمبشرين؟.

أما دعوى التناقض فعجيبة غريبة، إن من يعرف أولى مسلمات المنطق لا يصدر عنه هذا القول، فالمعلوم أن التناقض اختلاف القضيتين كمّا وكيفاً، والنقيضان كما يقولون لا يجتمعان وذلك مثل السلب والإيجاب كأن يقول أحدهم (جاء أخوك) ويقول آخر (لم يجرى أخوك) أما ما سميّه تناقضاً فهو مصطلح خاصّ بهما، فإذا كانت البشارة حيناً لإبراهيم عليه السلام وحيناً آخر لزوجته، وإذا نسب القول إلى فرعون حيناً ﴿إِنَّكَ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وإلى الملائكة حيناً ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ فالعقلاء مجمعون على أن هذا ليس من التناقض لأنه يمكن الجمع بين هذه الأقوال، وأقول: إنّ هذا هو لبّ الإعجاز، ذلك أن القصة القرآنية تتلاءم بكل اتساق مع موضوع السورة التي ذكرت فيها، فكون البشارة لإبراهيم كما جاء في سورة الحجر، وكونها لامراته كما جاء في سورة الذاريات أمر منسجم مع موضوع كل من السورتين، وقول فرعون في سورة الشعراء متلائم مع موضوعها تماماً، لأن سورة الشعراء هي أكثر السور القرآنية التي أبرزت لنا المحاور بين سيدنا موسى عليه السلام وبين فرعون.

أما التدرج المزعوم فنقول في الرد عليه إن القصص القرآني منذ أول العهد المكي إلى آخر ما نزل في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - كان نسيجاً وحده نسيجاً واحداً لا فرق بين الأقصوصة والقصة المتوسطة أو الطويلة، وإن هذا القول يذكرك أيها القارئ معي بما ادعي على الأسلوب القرآني من فرق بين مكّيّه ومدنيّه وبأن الأسلوب المكي كانت تظهر فيه القوة والجزالة أكثر من غيره، فلا فرق بين هذا القول وبين ذاك.

وأما الادعاء بأن هناك قصصاً لا أصل له كقصة موسى مع العبد الصالح فأمر يحتاج إلى بينة.

والدعوى إن لم تُقيموا عليها بيّناتٍ أبناؤها أدعياء



وكيف يجوز لأحد أن ينكر ما شاء ويثبت ما شاء دون دليل؟ ولو فتح هذا الباب على مصراعيه لفسدت الأرض واتخذ كل واحد الهوى مركباً والغواية سَلماً.

ولعل الحجة عند صاحب هذا القول أن هذه لم تذكر في التوراة، ومتى كانت التوراة هي الحكم الذي يتحاكم إليه المسلمون أو غيرهم؟

وما ذكرته لك من قبل أيها القارئ يكفي للرد على هذا القول.

لقد أحدثت قضية هذا الكتاب (الفن القصصي في القرآن) ضجة كبيرة في وقتها بين العلماء والأدباء وعلى أعمدة الصحافة اليومية والمجلات الأدبية وبخاصة مجلة الرسالة التي كان يصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات رحمه الله ومجلة الأزهر اللتين أسهم كثير من كُتّابهما في مناقشة هذه القضية والرد عليها لا من علماء وأدباء مصر فحسب، بل من العالم الإسلامي والعربي، ويحضرني من أولئك الأستاذ علي الطنطاوي وممن ردّوا ردّاً مفصّلاً مشكورين الأستاذ أحمد الشايب رحمه الله وكيل كلية الآداب في الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) والشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق، ومن الذين ردّوا هذه الرسالة الأستاذ أحمد أمين رحمه الله جميعاً.

وأختم كلمتي هذه بفتوى علماء الأزهر بشأن كاتب الرسالة والمشرّف عليها حيث أجمعوا على تكفيرهما، وبنوا حكمهم على ما يلي:

١- قوله إن الحرية الفنية تقتضي عدم القيد بالصدق العقلي ولا بتصوير الحقائق تصويراً صادقاً، بل قد يتقول القرآن ما لم يحصل ولن يحصل.

٢- قوله إن تاريخ الأنبياء الوارد في القرآن لا ينبغي أن يؤخذ على أنه حقائق.

٣- قوله إن القصص القرآني قد يكون لتصوير واقع نفسي لا لحوادث حصلت، وإنه حرب أعصاب لا أقل ولا أكثر.

٤- قوله: إن القرآن يشتمل على الأساطير وما فيها من حوادث ملفقة أو مكذوبة.

٥- قوله: إن مصادر القصص القرآني هي كتب الأديان الاخرى والحكايات الشعبية والأفراد العاديون من الناس والخلط والمزج بين عناصر القصص الشائعة في عدة أمم. إن لوثة المادية، والشعور بالضعف، وعدم رسوخ العقيدة، وضعف الإيمان، والثقة بأعداء هذا الدين، وشهوة الظهور كانت تلك الأسباب المباشرة التي دعت أولئك فحملتهم على هذا الانحراف الخطير، ولا زلنا نسمع منهم حتى اليوم ما يتنافى مع الإسلام ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

## الفصل الرابع

### القصة القرآنية وشبهة التكرار

الناظرون في كتاب الله تعالى من أجل تلاوته وتدبره، أو بهدف التشكيك والظعن فيه يجدون لأول وهلة ان هناك قضايا ذكرت أكثر من مرة، وفي أكثر من موضع كالقصص وموضوعات العقيدة وبعض الجمل والآيات، وسَمَّوا ذلك تكراراً.

ومع إجماعهم على هذه التسمية، اختلفت فيه مذاهبهم وتعددت مشاربهم، وتلك طبيعة في أحوال الناس، بل هي سنة من سنن الله في هذا المجتمع البشري؛ فالكثرة الكثيرة من المتدبرين رأوا أن هذا التكرار سحرٌ بيان، وتثبيت بنيان، فعُدَّوه بلاغة وإعجازاً ووجدوا فيه منهجاً قوياً، وهدفاً عظيماً من مناهج التربية وأهدافها، وحاولوا أن يبرهنوا على ذلك ببراهين مما عرفته العرب في كلامها شعراً ونثراً، وأن يقيموا عليه الأدلة مما قرره علماء النفس وعلماء الاجتماع واساطين التربية، وذوو الاختصاص في فن الاعلام والدعاية.

وفئة قليلة عميت أو تعامت هيمن عليها الحقد فعُدَّت هذا مثلبة ومطعنًا في كتاب الله، وهؤلاء لم يظهروا إلا بعد أن فسد الذوق البياني، وضعفت السليقة العربية؛ لذا رأينا أن هذه القضية لم تظهر مبكرة، فلم نسمع شيئاً عنها حتى من أعداء القرآن الذين كانوا ذوي سلائق سليمة في اللغة، بل على العكس من ذلك وجدنا ان هذا القرآن يملك عليهم كل شيء وان لم يؤمنوا به، ولكن هذه القضية -أعني الغمز في أسلوب القصة القرآنية- ظهرت فيما بعد حينما فسد المزاج اللغوي، واجتمع الطاعنون على دين الله من كل صوب، وتآلبوا حسداً على دين الله؛ فبدأ الحديث عن شبهة التكرار. هذا وقد شمَّر العلماء عن سواعد الجدِّ ليردوا إلى النحور الظالمة سهام الحقد؛ فبينوا ان اللفظ حينما يكرر في الحس فإنما يقرر في النفس.

## ما ذكره العلماء الأقدمون حول التكرار:

عرض المفسرون والكتابون في علوم القرآن والدراسات القرآنية لهذه القضية فلم يألوا جهداً في دراستها، وإن من أقدم الذين عرضوا لقضية التكرار عرضاً موجزاً مركزاً إمام أهل السنة اللغوي ابن قتيبة:

قال رحمه الله: «وأما تكرار الأنباء والقصص، فإن الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوماً في ثلاث وعشرين سنة بفرض بعد فرض، تيسيراً منه على العباد، وتدريباً لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ تنبيهاً لهم من سِنَةِ الْعَفْلَةِ وَشَحْذاً لِقُلُوبِهِمْ بتجدد الموعظة، وناسخ بعد منسوخ؛ استعباداً لهم، واختياراً لبصائرهم يقول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]»<sup>(١)</sup>.

ثم يقول: «وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ للإسلام فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم. وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم، وقصة لوط إلى قوم؛ فأراد الله بلفظه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كل سمع ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير.

وليست القصص كالفروض؛ لأن كتب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه الله عليهم من الصلاة، وعددها وأوقاتها، والزكاة وستتها، وصوم شهر رمضان وحج البيت، وهذا ما لا تعرف كيفيته من الكتاب، ولم تكن تنفذ بقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وكان هذا في صدر الإسلام قبل إكمال الله الدين، فلما نشره الله عز وجل في كل قطر، وبثّه في آفاق الأرض، وعلم الأكابر الأصاغر، وجمع القرآن

---

(١) تأويل مشكل القرآن أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ص ١٨٠.

بين الدفتين: زال هذا المعنى، واجتمعت الأنباء في كل مصر، وعند كل قوم»<sup>(١)</sup>.

ثم جاء إمام آخر من أئمة أهل السنة اللغوي المفسر المحدث، أبو سليمان الخطابي (٣١٩هـ-٣٨٨) في رسالته «بيان إعجاز القرآن» فبعد أن بيّن وجوه إعجاز القرآن -كما يراها- كرّ على شبهات المعارضين والمعاندين ومنها شبهة التكرار وهو ما يعيننا هنا.

فقال رحمه الله: «وأما ما عابوه من التكرار؛ فإن تكرار الكلام على ضربين: أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى لم يستفيده بالكلام الأول؛ لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول، ولغواً، وليس في القرآن شيء من هذا النوع.

والضرب الآخر ما كان بخلاف هذه الصفة؛ فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه، وتدعو الحاجة إليه فيه مثل تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها. وقد يقول الرجل لصاحبه في الحث والتحريض على العمل: عجل عجل، ارم ارم، كما يكتب في الأمور المهمة على ظهور الكتب: مهم مهم مهم ونحوها من الأمور وكقول الشاعر:

هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كُنْ — دَعَا يَوْمَ وَلَوْ أَيْنَ أَيْنَا

وقول الآخر:

يَا بَكَرِ أَنْشِرُوا لِي كُلِّيًّا — يَا بَكَرِ أَيْنَ أَيْنَ الْفَرَارُ

وقد أخبر الله عز وجل بالسبب الذي من أجله كرر الأقايص والأخبار في القرآن فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [القصص: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَوْنَ أَوْ يُحَذِّرُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]<sup>(٢)</sup>.

(١) ص ١٨١، ١٨٢.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، رسالة الخطابي بيان إعجاز القرآن ص: ٥٢، ٥٣.

مما سبق ندرك أن أبا سليمان -رحمه الله- يحدد شرطين اثنين لكي يكون التكرار مذكوماً:

أحدهما: أن لا يكون هناك حاجة إلى التكرار.

وثانيهما: أن لا يكون في التكرار زيادة، أما إذا كان في التكرار زيادة على ما ذكر أولاً، وكان في الأمور المهمة التي تعظم العناية بها؛ فإن ذلك تكرر محمود -كما يقول الخطابي رحمه الله-، ونحن إذ نوافق الشيخ من جهة، لكننا نخالفه من جهة أخرى، وسنرجى مناقشته بعد أن نستمع لعالم آخر هو الإمام الزركشي -رحمه الله- فلقد أشار في كتابه (البرهان) إلى التكرار في معاني القرآن بعامة، وإلى التكرار في القصة بخاصة، فبعد أن بيّن أن التكرار أسلوب من أساليب العرب، وأن الكلام حينما يكرر فإنه في النفوس يقرر، وعاب على الذين ينكرونه وعرفه بقوله: «وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به؛ فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١١-١٥].

فأعاد قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤] بعد قوله ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] لا لتقرير الأول، بل لغرض آخر، لأن معنى الأول: الأمر بالإخبار أنه مأمور بالعبادة لله والإخلاص له فيها، ومعنى الثاني: أنه يخص الله وحده دون غيره بالعبادة والإخلاص... واعلم أنه إنمّا يحسن سؤال الحكمة عن التكرار اذا خرج عن الأصل، اما إذا وافق الأصل فلا؛ ولهذا لا يتجه سؤالهم: لِمَ كرر «إياك» في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]<sup>(١)</sup>.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ١١، ١٠/٣.

## فوائد تكرار القصة كما يراها الزركشي:

وبعد هذا التعريف ذكر فوائد التكرار وفي مقدمتها التأكيد، ولكنه قال بعد ذلك إن التكرار أبلغ من التأكيد، وبعد أن عدّد فوائد التكرار كما يراها عرضاً للتكرار في القصص القرآني وهو ما نريده هنا. ومع أن ما ذكره قد يكون بعضه متداخلاً في بعض وقد تكون بعض الأسباب التي ذكرها أكثر وجاهة من بعضها الآخر، إلا أن فيما ذكره فوائد يجمل بالقارئ أن يقف عليها، لذا رأينا أن ننقل كلامه كما جاء.

قال رحمه الله: «ومنه تكرار القصص في القرآن، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وغيره من الأنبياء؛ قال بعضهم: ذكر الله موسى في مائة وعشرين موضعاً من كتابه وقال ابن العربي في القواصم: ذكر الله قصة نوح في خمس وعشرين آية، وقصة موسى في سبعين آية. اهـ. وانما كرر لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:

أحدها: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا ترى أنه ذكر الحية في عصا موسى عليه السلام، وذكرها في موضع آخر ثعباناً، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء أن يكرر أحدهم في آخر خطبته أو قصيدته كلمة لصفة زائدة.

الثانية: أن الرجل كان يسمع من القرآن ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به مهاجرياً، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجميع فيها، فيكون فيها إفادة القوم وزيادة تأكيد وتبصرة لآخرين، وهم الحاضرون وعبر عن هذا ابن الجوزي وغيره.

الثالثة: تسليته لقلب النبي ﷺ بما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

الرابعة: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة، لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

الخامسة: انّ الدواعي لا تتوافر على نقلها كتوافرها على نقل الأحكام، فلذا كررت القصة دون الأحكام.

السادسة: ان الله تبارك وتعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ﷺ ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلالاً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأيّ نظم جاء وبأي عبارة عبروا قال ابن فارس: وهذا هو الصحيح.

السابعة: انه لما سخر العرب بالقرآن، قال: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال في موضع آخر: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ﴾ [هود: ١٣] فلو ذكر قصة آدم مثلاً في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي بما قال الله تعالى: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، «إيتونا أنتم بسورة من مثله»؛ فأنزلها سبحانه في تعداد السور دفعاً لحجتهم من كل وجه.

الثامنة: ان القصة الواحدة من هذه القصص؛ كقصة موسى مع فرعون، - وإن ظنّ أنها لا تغاير الأخرى- فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ؛ فإن كل واحدة لا بدّ وأن تخالف نظيرتها من نوع معنى زائد منه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها؛ فكأن الله تعالى فرّق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسم تلك الأجزاء على تارات التكرار لتوجد متكررة فيها، ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة، من انفراد كل قصة منها بموضع، كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصّة، فاجتمعت في هذه الخاصية من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة:

منها: ان التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يوقع في اللفظ هجنة، ولا أحدث مللاً، فباين بذلك كلام المخلوقين.

ومنها: انه ألبسها زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً؛ ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً فترزه عن ذلك بهذه التغيرات.



ومنها : أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ - لما فيه من التغيير - ميلاً إلى سماعها ، لما جبلت عليه النفوس من حبّ التنقل في الأشياء المتجددة التي لكل منها حصّة من الالتذاذ به مستأنفة .

ومنها : ظهور الأمر العجيب في اخراج صور متباينة في النظم بمعنى واحد ، وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير النظم ، وبيان وجوه التأليف ، فعرفهم الله سبحانه ان الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية ، ولا يقع على كلامه عدد<sup>(١)</sup> .

ومما سبق نجد أن الخطابي والزركشي متفقان على أن ما ذكر في كتاب الله تعالى أكثر من مرة كان في كل مرة زيادة معنى ، ومع ذلك سمياه تكراراً ، ونعجب من الزركشي إذ عرّف التكرار ؛ بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه ، وهو في موضع آخر من كتابه ، ينكر الترادف في كتاب الله تعالى ، ولكننا نعتز له بلمحة طيبة جيّدة ، وهي ان ما ذكر أكثر من مرة لتقرير معنى واحد هو الذي يسمى تكراراً ، أما إذا كان لتقرير معنى آخر ، فليس من التكرار في شيء ، وكذلك قوله إنه يسأل عن حكمة التكرار لم يخرج عن الأصل ؛ أي إذا صعب علينا ان ندرك الحكمة من ذكر اللفظ أكثر من مرة ، أما ما لم يخرج عن الأصل فلا يسأل فيه عن حكمة التكرار كقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نحن إذن لسنا مع الخطابي في عدّه من التكرار ما كان فيه زيادة معنى ، ولسنا مع الزركشي في تعريفه التكرار بأنه إعادة اللفظ أو مرادفه .

### فما هو التكرار الذي نعنيه ؟

والتكرار - كما نراه - هو إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد ، ولمعنى واحد ، فإذا لم يتوافر هذان الشرطان ، أي إذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه ، أو اذا ذكر اللفظ أكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاص ومعناه الخاص ؛ فإنّ ذلك لا نسميه تكراراً أبداً . هذا هو التعريف الدقيق للتكرار كما يظهر لنا .

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ج ٣ ص ٢٥-٢٨ .

## المحدثون والتكرار:

ولقد عرض بعض الكاتبين المحدثين لقضية التكرار، ومن هؤلاء الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «إعجاز القرآن» و«القصص القرآني»، كما عرض لها الأستاذ محمد قطب في كتابه «دراسات قرآنية»، وكانت النتائج التي يمكن أن تُستفاد من هذه الدراسات أن التكرار قد يكون للتأكيد وما جاء منه في كتاب الله تعالى فإلماً قصد به التأثير في النفوس وبخاصة إذا كانت الموضوعات المكررة موضوعات مهمة؛ كالعقيدة التي أراد القرآن أن ترسخ في النفوس، وثبتت في أعماق القلوب، -وهذا الذي قرره الخطابي كما رأينا من قبل- ويذكر الأستاذ محمد قطب: ان ما في القرآن مما يظن أنه تكرار، إنما هو متشابه، ويمثله بثمار الجنة، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة من كتاب الله. أما الأستاذ الخطيب فلقد فصل فيما يخصُّ القصة القرآنية من التكرار مبيّناً بعض الأمور التي توهم التكرار في القصص القرآني. وهنا كلام يستحق كاتبه التقدير والإجلال والدعاء بأن يجزيه الله خيراً عما قدم، ذلكم ما كتبه الأستاذ سيد قطب -رحمه الله-.

يقول سيد قطب -رحمه الله- «يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يُساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هنالك تكراراً في القصص القرآني؛ لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها في سور شتى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه، ينفي حقيقة التكرار.

ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصد به إلى مجرد الفن -بمعنى التزييق الذي لا يتقيد بواقع- ولكن الحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة مفتوح البصيرة، هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضع كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء، والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ، وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، وبالقدر وبالطريقة التي تناسب الجو والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزييق، ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء.

وقصص الأنبياء في القرآن يمثل موكب الإيمان في طريقه الممتد الواصل الطويل، ويعرض قصة الدعوة إلى الله، واستجابة البشرية لها جيلاً بعد جيل، كما يعرض طبيعة الإيمان في نفوس هذه النخبة المختارة من البشر، وطبيعة تصورهم للعلاقة بينهم وبين ربهم الذي خصهم بهذا الفضل العظيم... وتتبع هذا الموكب الكريم في طريقه اللاحب يفيض على القلب رضى ونوراً وشفافية، ويشعره بنفاثة هذا العنصر العزيز -عنصر الإيمان- وأصالته في الوجود. كذلك يكشف عن حقيقة التصور الإيمانى ويميزه في الحسن من سائر التصورات الدخيلة... ومن ثم كان القصص شطراً كبيراً من كتاب الدعوة الكريم<sup>(١)</sup>.

### رأينا في الموضوع:

ونود هنا أن نعرض لهذه القضية من الزاوية التي تهمنا في هذا البحث مستلهمين من القرآن الكريم ما يفتح به لنا ربنا، وهو الفتح العليم.

---

(١) في ظلال القرآن (١/٦٤).

وبادىء بدء؛ إننا لا ننكر على الذين ذهبوا الى القول بوجود التكرار في القرآن معللين هذا بأنه لا يخرج عن الأساليب التي عرفتها العرب؛ وبأنه إنما يراد به التأثير على النفوس، حتى يقرر فيها ما يكرر، أقول: لا ننكر على أولئك؛ وليس معنى هذا أننا نتفق معهم فيما ذهبوا إليه، وإنما نؤثر أن نرجىء الحكم بعد أن نعرض لهذه القضية من جميع جوانبها فنقول وبالله التوفيق:

الموضوعات التي عرض لها القرآن الكريم مع كثرتها نجملها في هذه الأمور الرئيسة الثلاثة:

١- الأحكام: وتشمل ما اصطلاح عليه فيما بعد بالعبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والحدود.

٢- العقيدة: وتشمل الألوهية، والرسالة، واليوم الآخر.

٣- وأما الموضوع الثالث فقصص الأنبياء عليهم السلام، وأخبار الأمم الماضية.

وقد أجمعوا على أن لا تكرر في آيات الأحكام، وإنما الذي يمكن أن يكون فيه تكرر، هما الموضوعان الأخيران آيات العقيدة والقصص. هذا من حيث الموضوع.

أما من حيث اللفظ فقد قالوا: إن هناك جملاً أو آيات ذكرت أكثر من مرة، مما يوجب القول بأنها مكررة، فالتكرار عند هؤلاء هو أن يذكر الموضوع، أو الجملة أو الآية أكثر من مرة، ولسنا معهم في هذا التعريف. والذي يهمنا هنا موضوع القصة، أما الموضوعان الآخران، وهما: آيات العقيدة، والتكرار في الألفاظ فقد تحدثت عنهما في بحث عنوانه «قضية التكرار في القرآن» ونرجو أن يخرج مع زيادات في كتاب قريباً إن شاء الله.

## هل في القصص القرآني تكرار؟! ولماذا لم يعرض القصص مرة واحدة؟!

لا نحب أن نتعجل الإجابة عن هذا السؤال، وإنما نرجئه حتى نلم بالموضوع من جميع الجهات، ولا بد أن نقرر هنا ما يلي:

١- لم تلتزم القصة القرآنية طريقاً واحداً من حيث الطول والقصر والإجمال والتفصيل، فهناك القصة المفصلة: كما في قصة موسى -عليه السلام- في سورة الأعراف، وقصة نوح -عليه السلام- في سورة هود.

وهناك القصة المجملة: كما في قصة نوح -عليه السلام- في سورة الأعراف، وقصة موسى -عليه السلام- في سورة هود؛ فلقد أجملت كل من السورتين ما فصلته الأخرى.

كذلك سورة يونس فصلت بعض التفصيل في قصة موسى -عليه السلام-، وأجملت في قصة نوح -عليه السلام-.

٢- إن كل قصة قرآنية مجملة أم مفصلة، قصيرة أم غير قصيرة، جاءت تفي بالغرض الذي سبقت من أجله، فليس قصر القصة يشعر القارئ بشيء من النقص؛ بل ربما يذكر في القصة القصيرة ما لا يذكر في غيرها، ولعل خير مثال على ذلك ما ذكرته قصة نوح عليه السلام في سورة العنكبوت - كما ستعرف ذلك إن شاء الله -.

٣- إن بعض القصص القرآني لم يذكر إلا مرة واحدة، وبعضه الآخر ذكر أكثر من مرة؛ ولعلنا -ونحن نقرأ هذا القصص- ندرك السبب في ذلك، فالقصة التي ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله كانت ذات صلة وثيقة بقضية الدعوة والدعاة إلى الله تعالى.

أما التي ذكرت مرة واحدة فمع سمو الحقائق التي قررتها، وما فيها من مناهج تربوية، وغايات رائدة، إلا أنها لم تكن تتحدث عن مجال الدعوة، وعما كان بين الأنبياء

-عليهم السلام- وأممهم، وما لاقاه هؤلاء من أولئك، إنما كان حديثها في مجالات اجتماعية، وجوانب إنسانية، وقيم خلقية تمد الباحثين والعلماء بقبس لا يخبر على مدى الدهر.

وهذا الضرب من القصص -أعني الذي لم يذكر كثيراً في كتاب الله تعالى- يظن بعضهم لأول وهلة أنه قليل إذا قيس بغيره، مما ذكر مرات كثيرة، لكن الأمر على العكس من ذلك، قصة يوسف -عليه السلام- لم تذكر إلا مرة واحدة، كذلك قصة موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح التي جاءت في سورة الكهف، وقصة موسى -عليه السلام- مع قومه في دخول الأرض المقدسة التي جاءت في سورة المائدة، ومع قومه في ذبح البقرة. ومن هذا القبيل ما جاء في شأن ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام، حيث ذكرتا مرتين، إحداهما: في مكة في سورة مريم، والأخرى: في المدينة في سورة آل عمران، وما جاء في شأن يونس -عليه السلام-، وما كان من خبر أيوب وداود وسليمان عليهم صلاة الله وسلامه؛ فلقد ذكر خبر أولئك مفرقاً على عدة سور، حيث خصت كل سورة بجانب يتلاءم مع موضوعها وشخصيتها.

والقصة الوحيدة التي خرجت عن هذه القاعدة فذكرت أكثر من مرة وليس لها صلة مباشرة بالدعوة والدعاة؛ قصة آدم، ولكن إذا عرفنا أن قصة آدم أبي البشر جاءت تحدثنا عن النواحي الفطرية والجوانب الرئيسة في حياة الإنسان، وعن الاستعدادات والغرائز التي تتكون منها طبيعته، إذا عرفنا ذلك أدركنا السر الذي ذكرت من أجله قصة آدم في أكثر من سورة.

فالقصص الذي ذكر أكثر من مرة، قصص أولئك الأنبياء الذين تحملوا المشقة ولاقوا العنت، وهم يدعون أقوامهم كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام. وكذلك قصة آدم عليه السلام كما ذكرنا.

على أن في القرآن الكريم قصصاً لغير الأنبياء، أو لمن اختلف في نبوتهم لم تذكر الا مرة واحدة؛ كقصة ذي القرنين، وما كان من حديث لقمان لابنه، ونبأ ابني آدم وقصة أهل الكهف وخبر المائدة التي طلبها الحواريون ونبأ أصحاب الجنة الذي جاء في سورة (ن). فهذه القصص جميعها مع ما تعطيه من قيم، ومع كثرة ما فيها من عظات وفوائد، ومع ما يستنتج منها من قواعد كثيرة في الاجتماع والتربية والسياسة والحكم وغير ذلك من المجالات الحيوية المفيدة التي أراد الله تبارك وتعالى لهذه الأمة أن تفيد منها. أقول: مع ما تعطيه هذه القصص من ذلك كله إلا أنه اكتفى بذكرها مرة واحدة؛ لأنها تؤدي الغرض الذي سيقى من أجله من غير أن تذكر أكثر من مرة.

٤- إن بعض السور القرآنية ذكر فيها أكثر من قصة من هذا اللون، أعني اللون الذي لم يذكر إلا مرة واحدة، فإذا نظرنا لهذا القصص في هذه السورة وجدناه ذا ترتيب بديع، عجيب الشأن؛ إذ هو يكون منهجاً متكاملًا لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون أفراداً وجماعات، ولناخذ سورة الكهف مثلاً؛ فلقد انفردت بقصص ثلاث لم تذكر في غيرها وهي قصة أهل الكهف، وقصة موسى -عليه السلام- مع العبد الصالح، وقصة ذي القرنين، والذي يبدو لنا -والله أعلم بما ينزل- أن ذلك إحياء للمسلمين ليدركوا العناصر الرئيسة التي لا بد أن تتوافر في شخصيتهم؛ فقصة أهل الكهف تمثل عنصر العبادة والعقيدة، ولما كان أكثر ما يزلزل هذه العقيدة في النفوس ويفسد هذه العبادة، أمران اثنان هما: طغيان المال واغواء الشيطان ذكرنا بعد هذه القصة مباشرة حتى يستطيع المسلمون أن يحصنوا عقائدهم ويحافظوا على عباداتهم، فذكرت قضية المال وما يسببه من طغيان في قوله سبحانه: ﴿وَأَصْرَبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، وذكر الأمر الآخر وهو اجتيال الشيطان للناس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الكهف: ٥٠]، وبعد ذلك ذكرت القصة الثانية، وهي قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع العبد الصالح، وهذه القصة إنما تبين عنصراً آخر

لا بد أن يتوافر للمسلم وهو عنصر العلم، ذلك أن العبادة بلا علم لا يأمن صاحبها على نفسه من أن يضل ويطنى، وتزلّ قدم بعد ثبوتها، ولعل في حديث جريج الذي أخرجه الإمام مسلم<sup>(١)</sup> عن سيدنا رسول الله ﷺ ما يثبت ذلك، فلقد جاء أن جريجاً كان عبداً واتخذ صومعة له بعيداً عن الناس، وكانت أمه يهفُو إليه قلبها، فتذهب لرؤيته؛ فتجده يتنفل في صلاته وتناديه فيأبى أن يكلمها. ففعل ذلك أكثر من مرة، وفي المرة الثالثة دعت عليه أن لا يميته الله حتى يريه وجوه المومسات، واستجاب الله الدعوة، وفي هذا الحديث تقرير لفضل العلم وأن العبادة وحدها لا تفي بما يريده الإنسان من سعادة فلقد كان جريج عبداً بغير علم، ولقد كانت أمه ذات علم ومعرفة فلم تدع عليه أن يفتن.

أما القصة الثالثة في سورة الكهف فهي قصة ذي القرنين؛ وهي تمثل العنصر الثالث في حياة المسلمين، وهو عنصر الجهاد، وهكذا رأينا هذه السورة الكريمة تحدثنا عن القضايا الأساسية التي لا بد للمسلمين منها: العقيدة والعلم والجهاد. ولذلك يسرُّ قراءتها في يوم الجمعة وهو أول أيام الأسبوع عند المسلمين.

٥- ان القصص الذي ذكر أكثر من مرة في كتاب الله لا نجد منه قصة واحدة ذكرت في سورتين اثنتين بطريقة واحدة، بل نجد كل قصة جاء فيها ما لم يجيء في الأخرى، ففي كل قصة من المشاهد والجزئيات والأحداث ما تفردت به السورة التي ذكرت فيها هذه القصة.

صحيح أنّ هناك قضايا مشتركة اقتضاها السياق، ولكن هذه القضايا المشتركة لم تأت على أسلوب واحد.

ولكي نصل إلى نتيجة حاسمة في هذا الأمر؛ لا بد أن نلم به من زوايا ثلاث:

أولاً: من حيث الألفاظ والتراكيب التي ذكرت في كل قصة.

---

(١) كتاب البر والصلة والآداب باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها رقم الحديث ١٩٧٦/٤٢٥٥.



ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد والمواقف الموزعة على السور التي ذكرت فيها القصة.

ثالثاً: من حيث اختصاص كل سورة بما جاء فيها من هذه المواقف والمشاهد.

ولا بد أن ننبه هنا وقبل أن نواصل المسيرة في كتابنا على أمرٍ مهم أهمله كثيرون من الباحثين الذين عالجوا قضية القصة القرآنية. وهو أن الباحث في القصة كي تكون نتائجه مقبولة، وأحكامه صحيحة، لا بدّ له من أن يقوم بدراسته دراسة موضوعية، وهذه لا تتم له إلا حينما تكون ركيزته الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول ليعرف ما الذي نزل أولاً، وما الذي نزل بعد ذلك. هذه هي الدراسة الموضوعية التي يمكننا أن نصدر بها أحكاماً صحيحة، وأن نصل بها إلى نتائج منطقية، والحق أن هذه الركيزة ليست لدراسة القصة فحسب، بل لا بد منها إذا أردنا أن نتناول أي موضوع من موضوعات القرآن الكريم سواء أكان ذلك في الأحكام أم في العقيدة أم في القصة، وأضرب مثلاً لذلك: إذا أردنا دراسة آيات الرّبا في الكتاب الكريم، ولم نلتزم بالقاعدة التي ألمحت إليها، وهي دراسة الموضوع حسب ترتيب النزول، بل أخذناه حسب ترتيب السور الكريمة في المصحف فإننا سنأخذ أول آية تحدثت عن الرّبا في سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، ثم نأتي للآية التي بعدها وهي في سورة آل عمران: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، والذي سيتيج عن ذلك أمر خطير؛ لأنّ آية البقرة مطلقة، والآية الثانية مقيدة بالأضعاف المضاعفة، فيحمل المطلق على المقيد، ولا يحرم الربا إلا إذا كان أضغافاً مضاعفة، وهذا ما ذهب إليه بعض المنحرفين.

وكذلك آيات الجهاد حينما نأخذها حسب ترتيب السور في المصحف، كما فعل كثير من الكاتبين المحدثين، فكانت النتائج التي توصلوا إليها حسب طريقتهم أن أصدرُوا أحكامهم بأن الجهاد في الإسلام دفاعي، ولا يجوز للمسلمين أن يبدأوا في القتال مهما كان حالهم، وذلك لأنهم أخذوا بعض الآيات من حيث ترتيبها في المصحف كقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُم﴾ [البقرة: ١٩٠]، فجعلوها الأساس، وحملوا عليها كل ما نزل من الآيات بعد ذلك.

دراسة القصة إذن لا بد أن يُراعى فيها هذا الأمر، وسنرى ما يوصل إليه اتباع هذه الطريقة من نتائج سليمة وأحكام قويمة<sup>(١)</sup>.

### ماذا نقصد بنفي التكرار عن القصص القرآني؟

قد يظنّ بعض الناس أن نفي التكرار عن القصة القرآنية أن تقسم القصة إلى مشاهد وأحداث، أو موضوعات، فيذكر كل موضوع أو حدث رأو مشهد في سورة، بحيث لا يذكر في سورة ما يذكر في غيرها، بل تختص كل سورة بذكر شيء معين، فيذكر مولد موسى عليه الصلاة والسلام في سورة، وخروجه من مصر في سورة، وإرساله إلى فرعون في سورة، ودعوته لبني إسرائيل وما قاساه في سور، تختص كل سورة بحدث معين، وهكذا يقال في قصة نوح وإبراهيم وغيرهما من أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

ومثل هذا الصنيع يذكرنا بما اعترض به بعضهم على كتاب الله، حيث قالوا ينبغي أن تقتصر كل سورة على موضوع معين فتذكر العبادات في سورة، والمعاملات في سورة،

---

(١) ولقد سلك الأستاذ سيد قطب رحمه الله الطريقة الموضوعية في دراسته لقصة موسى عليه السلام، والحق أن ما كتبه في التصوير الفني في القصة على قلة صفحاته كان الأساس الذي أفاد منه الكثيرون من بعده وبحثوا في القصة جوانب متعددة إلا أن الكثيرين منهم لم يذكر المصدر الذي نقل عنه، وهذا مما يؤسف له، وقد بسطنا هذه القضية ودللنا عليها في كتاب «إعجاز القرآن».

وأمر الزواج وغيره في سورة، والأخلاق في سورة، والحديث عن البعث في سورة، كأنما يريدون أن يجعلوا القرآن مثل كتاب من الكتب التي يتحدث كل منها عن موضوع معين.

ولقد فات هؤلاء وأولئك أن القرآن كتاب الله تعالى، أنزله الله تعالى منجماً لحكم كثيرة ذكرت في كتب التفسير وعلوم القرآن. والقرآن بهذا الترتيب الذي أراده الله تعالى منذ الأزل كان له تأثيره في النفوس وهيمته على القلوب، ولو أن القصة ذكرت -كما قالوا- موزعة مشاهدتها وأحداثها على سور متعددة، لفقدت القصة رونقها وجمالها وذهب لب الإعجاز، ولكان ذلك عملاً ميسوراً لكثير من الناس.

ليس نفي التكرار -إذن- أن لا يذكر حدث من أحداث القصة في سورة أو أكثر، إن هناك أموراً كلية وأحداثاً مهمة رئيسة، لا يجوز أن تخلو منها سورة من السور، ولو خلت منها لخلت القصة من رحيقها الشذي، وسلسيلها العذب. وعلى هذا فالمنهج القصصي في القرآن الكريم هو المنهج البديع المعجز، حيث ذكرت القصة في سور كثيرة، خُصت بعض السور بذكر حدث واحد، ثم توزعت هذه المشاهد والأحداث على السور التي ذكرت فيها القصة، قلت أم كثرت، بحيث تجد في كل سورة ما لا تجده في غيرها، وبحيث يذكر في كل سورة ما يتلاءم مع موضوعها وسياقها، وبحيث تذكر القصة في السورة في الموضع الذي اختيرت له والذي اختير لها، وقد آثرت أن أنبه على هذه القضية لأنني رأيت أن بعض الناس يظنون أن نفي التكرار أن تقطع الصلات والوشائج والقربات بين السور المتعددة في كل قصة من القصص، حيث يذكر كل حدث من القصة في سورة خاصة كما بينته من قبل.

إن مجيء القصة على ما جاءت عليه في كتاب الله هو الذي يفتح للدارسين أبواباً للتأمل والاستنتاج والمقارنة ليدركوا سر العظمة في هذا الكتاب.

## الطريقة المثلى في دراسة القصة القرآنية

ولكي نصل إلى النتيجة المرجوة المرضية، لا بد أن نسلك طريقة مثلى لدراسة القصة في السور القرآنية.

حاول بعض الكاتبيين مشكورين أن يبحثوا قضية التكرار في القصة القرآنية، فبدأوا دراستهم بالسور القرآنية من حيث ترتيبها في المصحف كما فعل الدكتور القصبي زلط في كتابه «قضية التكرار في القصة القرآنية» فحاول جاهدا نفي التكرار، لكن دراسته لا تخلو من التكلف، ذلك لأن الطريقة التي سلكها هي التي كانت سبباً في ذلك لذا فإن الطريقة المثلى لتذوق تذوقاً صحيحاً مواقع النجوم للقصة القرآنية، أن ندرسها من حيث ترتيب النزول، بحيث ندرس النجوم التي نزلت واحداً تلو الآخر.

ولا يضيرنا كثيراً بأن ترتيب السور ليس أمراً مقطوعاً به، ويكفينا في هذا أن نوازن بين الأقوال التي وردت في ترتيب السور لنأخذ أرجحها كما فعل العلماء. ثم إن هناك بعض السور يمكن أن ندرك ترتيبها بلا عناء وهذا هو النهج الذي سنسير عليه في هذا الكتاب إن شاء الله. ونرجو أن يجد القارئ نظرة صائبة، ومنهجاً قوياً ومن الله وحده العون كله.

## الفصل الخامس

### ترتيب القصص القرآني في السور

هناك قصص لغير الأنبياء ذكر في العهد المكي، لم يذكر سوى مرة واحدة كخبر أصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْبَمُوا لَيعْرِضْنَهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، وما تقدم لنا من قبل كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين وسيظهر لك أيها القارئ الكريم:

١- أن بعض القصص القرآني موزع على القرآن مكّيّه ومدنيّه، وإن كانت مساحته في العهد المكي أوسع منها في العهد المدني.

٢- أن هناك سوراً قرآنية لم يذكر فيها شيء من القصص، كما أن هناك سوراً ذكرت فيها قصة واحدة، ولو أننا استقرأنا القرآن الكريم لوجدنا أن نصف السور المكية تقريباً لم تخل من ذكر هذا القصص، سواء أكان ذلك موجزاً أم مفصلاً.

وأما السور المدنية فإن بضع سور فقط هي التي ذكر فيها شيء من القصص بإيجاز، اللهم إلا إذا نظرنا إلى ما ذكر من أخبار بني إسرائيل في سورة البقرة.

٣- أن هذا القصص كان موزعاً توزيعاً موضوعياً على السور القرآنية، فسورة آل عمران مثلاً فصل فيها نبؤهم، وسورة مريم فصل فيها نبأ إبراهيم عليه السلام وبنيه، وذريته ومنهم مريم -بالطبع- وقصص الأنبياء العرب فصل أكثر ما فصل في السور المكية، هذا على سبيل الإجمال.

### أما من حيث التفصيل فنقول:

إن السبع الطوال التي تبدأ بسورة البقرة وتنتهي بسورة براءة كانت أكثر سورة فيها نالت نصيباً من القصص سورة الأعراف؛ وذلك لأنها جاءت تعالج موضوع العقيدة من حيث تاريخها البعيد، لذلك نجد أنها ابتدأت بقصة آدم عليه السلام، ثم ذكرت قصة نوح عليه

السلام بعد فصول كثيرة من الآيات، وبعد قصة نوح عليه السلام مباشرة ذكرت قصة هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام، وموسى عليه السلام مع فرعون ومع بني إسرائيل، ونلاحظ أن القصص في سورة الأعراف عدا قصة آدم كانت جميعها حديثاً عن الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، وما لقي هؤلاء من أولئك من شدة وعنت .

أما السورة المكية الثانية في السبع الطوال فهي سورة الأنعام، وهذه جاءت تتحدث عن العقيدة من حيث ردُّ الاقتراحات التي اقترحها المشركون، وعلاج الشبهات التي أثاروها، وما يتصل بذلك من أدلة الوجدانية والرسالة والبعث، ومن حيث ما حرّمه المشركون على أنفسهم دون دليل، ومن هنا لا نجد في هذه السورة سوى قصة إبراهيم عليه السلام؛ ولكنها ذكرت من حيث استدلاله عليه السلام على الإله الحق، وهو متسق تماماً مع موضوع السورة الكريمة .

وبقية السبع الطوال كلها سور مدنية، والقصص التي ذكرت في بعضها مع قلتها كانت حديثاً عن بني إسرائيل فحسب، فإذا تجاوزنا السبع الطوال وجدنا أن سورتي يونس وهود تحدثنا عن بعض القصص، وإن كان نصيب الثانية أكثر من نصيب الأولى فسورة يونس حدثتنا حديثاً موجزاً عن نوح عليه السلام، وقد بدأت به السورة ثم حديثاً فيه بعض التفصيل عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، لكن سورة هود بدأت بالحديث عن قصة نوح عليه السلام مفصلة تفصيلاً تاماً، ثم جرت على هذا الترتيب التاريخي فذكرت قصة هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام وإشارة موجزة لقصة موسى عليه السلام، ولكن قصة إبراهيم عليه السلام في سورة هود لم تكن عما جرى بينه وبين قومه، وإنما عما كان بينه وبين الرسل من الملائكة، وكأنما ذكرت مقدمة لقصة لوط التي فصلت الحديث عنه مع قومه بعض التفصيل . ثم جاءت سورة يوسف وهي كما نعلم خاصة به عليه السلام، لكن سورة الرعد خلت من ذكر هذا القصص القرآني .

ما ذكر في سورة إبراهيم من المحاوراة بين الرسل وقومهم :

وتأتي سورة إبراهيم، وفيها إشارة موجزة لقصة موسى، وشيء من نبأ إبراهيم عليهما السلام. كدت أنتقل إلى السورة الأخرى، وهي سورة الحجر ولكنني وأنا أستحضر السورة الكريمة في قلبي وإذ بي، أفجأ بما يرقص القلب، ويثلج الصدر، هل سمعت عن أولئك الذين كانوا يحدثوننا عنهم، بأنهم أو بعضهم وجدوا كنزاً ففرحوا به؟، أظن ظناً يشبه اليقين، أن الذي يكرمه الله بشيء من هذا القرآن أو بقضية من قضايا العلم أكثر فرحاً، وأعظم ابتهاجاً من هذا الذي وجد كنزاً، المهم أنني وأنا أستحضر السورة الكريمة أشرفُ بآمرارها على قلبي وفتنتي قضية حريّ بها أن تسجّل .

حدثنا القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السلام، بأنه أمة وأنه أب الأنبياء؛ لأن أكثر الأنبياء الذين أرسلهم الله من بعده من ذريته. إن لم يكونوا جميعاً وما نعرف ممن قصر الله علينا نبأهم بعده عليه السلام. أقول: ما نعرف واحداً ليس من ذريته ابتداءً بإسماعيل وإسحاق، وختماً بسيد البشر سيدنا محمد ﷺ.

وسورة إبراهيم؛ السورة التي سميت باسمه أرادها الله أن تكون أمة في السور كذلك فلها من اسمها نصيب. من أجل ذلك وجدنا هذه المحاضرة والمحاورة التي تنسب إلى الرسل، وما كان بينهم وبين أقوامهم، ولم نجد مثلها في غير هذه السورة الكريمة. إنهم تجمعوا ولكن في هذه السورة كما يتجمع الأبناء في بيت الأب- وهذا يعلم الله- حريّ بمثله أن يدرس وأن توجه إليه العناية، إنه لمن عجيب أمر هذا القرآن وعلو شأنه!! .

إن الإشارة في قصة موسى عليه السلام في سورة إبراهيم كانت لبني إسرائيل دون فرعون وجميل أن يذكر في قصة إبراهيم عليه السلام بنو إسرائيل الذين ينتسبون إليه دون فرعون وليس هذا فحسب، بل إنَّ ما يدعو للإعجاب حقاً ويطرب له كل فؤاد أن الرسل الذين جاؤوا بعد إبراهيم عليه السلام هم أبناؤه وذريته، ولنستمع إلى ما تقصه علينا سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِينَ يَأْتِيَكُمُ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحُوا وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ [إبراهيم: ٩]

وهؤلاء كانوا قبل إبراهيم -بالطبع- ولكن لنستمع بعد ذلك يُستأنف الكلام بعد ذكر الأقسام الثلاثة: قوم نوح وعاد وشمود، يستأنف الكلام فيقول الله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩] الذين من بعد قوم نوح وعاد وشمود، وهم الذين لا يعلمهم إلا الله لكثرتهم وتعدد منازلهم، واختلاف لغاتهم، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة.

ولكن ما بال أولئك ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: ٩] الآيات الظاهرة، فماذا كان منهم؟ يقول الله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩]، وهي كناية عن التقنيط والتئيس، والحسد والغيط، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩] وهكذا ردَّ أولئك الأقسام أيديهم في أفواههم، معلنين للرسل أنهم لن يؤمنوا برسالتهم، وما كان ذلك إلا حسداً وغيطاً وكرهية للحق، أو ردُّوا أيديهم في أفواه الرسل حتى لا يتكلم الرسل ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [إبراهيم: ٩] بهذه الصراحة الوقحة ﴿وَأَنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩] عجب أمر أولئك جعلوا قضية الرسل المشرقة الواضحة قضية تدعو إلى الريبة والتهمة والقلق، وكذلك شأن الباطل يتهم الحق دائماً ويعجبني قول أبي العلاء:

«وعَيَّرَ قساً بالفهامة باقلاً» باقل الذي لا يستطيع أن يتكلم كلمتين، يعيِّر الخطيب المصقع بالفهامة وعدم القدرة على الكلام. ويرد الرسل جميعاً هذا الباطل ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] لا ينبغي أن يكون في الله شك، وهو فاطر السماوات والأرض. ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. ﴿يَدْعُوكُمْ لِغُفْرِ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠]، ولكن مع هذا التحجب والتلطف لا يزيد الفريق الآخر على أن يقول للفريق الأول، وهم الرسل عليهم السلام: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وهذه هي التهمة الأولى. وأما الثانية: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].



ثم يأتي دور التمثل فعلى الرغم من الحجج الواضحة فهم مع ذلك لا يكتفون ﴿فَأَنۡتَوٰنَا بِسُلۡطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠] وترد الرسل مقالة أولئك: نحن لا ننكر أننا بشر، نحن معترفون بهذه البشرية وهل ادّعينا غيرها، ولكن أكلُ البشر سواء؟ ألستم تزعمون أنتم أنكم خير من غيركم فما دمتم ترون أنفسكم أفضل من غيركم، فلماذا تنكرون على غيركم أن يمنَّ الله عليهم بمنته وكرمه؟؟. أما ما طلبتموه من سلطان فمع أنه تمحل منكم، ولكن مع ذلك ما كان لنا أن نأتيكم بشيء مما طلبتم إلا بإذن الله، عليه نتوكل وعليه وحده يتوكل المؤمنون، ولماذا لا نتوكل عليه؛ وأي شيء يمنعنا من ذلك؟ وقد أكرمنا بالهداية. أما ما يلحقنا من إيذاء فلنصبرن عليه وعلى الله يتوكل المتوكلون.

وبعد تلك الرقة في القول والإقناع في المنطق بعد ذلكم القول الذي يمتع العواطف ويقنع العقول، ويوقظ المشاعر ويهز النفوس، يقول أولئك الكافرون لرسلمهم بعد كل هذا ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] وهنا يعرض المتكبرون عضلاتهم ويلوحون بعصا القوة ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا﴾ سمعناها من قوم شعيب عليه السلام، وقالها قوم لوط عليه السلام ولكنها هنا يقولها فريق الكفر مجتمعاً ﴿أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وليس معنى هذا أن الرسل عليهم السلام كانوا على ملة أقوامهم -فمعاذ الله أن يكونوا كذلك- ولكن معنى الآية الكريمة- والله أعلم- أو لتصيرن في ملتنا.

وهنا تدرك الرسل العناية الإلهية ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] أوحى إليهم ربهم الذي أكرمهم بعنائه ورسالته، رباهم وتعهدهم وتولاهم ﴿لَنُكَلِّمَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣] يا لفظاعة الظلم! إنه أساس الدمار والبوار والانحراف ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٤] وصدق الله وعده، فنجى رسله، وأسكنهم وأورثهم الأرض، والأرض لله. وذلك التأييد إنما يكون للرسل وللمن كان على نهجهم فمن اجتمع له هذان الأمران:

١- أن يخاف مقام الله تبارك وتعالى، أي أن يخاف ذلك الموقف في الآخرة الذي سيقفه، أو يخاف مقام الله: أي يخاف مراقبة الله تبارك وتعالى، وقيامه سبحانه وتعالى عليه بكل ما كسب ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

٢- أن يخاف وعيد: أن يخاف ما توعد الله تبارك وتعالى به. ويستفتح الرسل يطلبون من الله أن يحكم بينهم وبين أقوامهم ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وفتح الله بينهم ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] خاب أولئك الجبارون المتعالون على الحق، المعاندون في آيات الله، وهو إن خسر في دنياه، فإن هناك خسارة أعظم ﴿مَنْ وَرَّاهُ جَهَنَّمَ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي بين يديه سيلاقبها، ويعرض عليها ويدخلها ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، يتجرعه ولا يكاد يسيغه، وأنى له أن يسيغ مثل ذلك، نعوذ بالله ونستجير به سبحانه ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]. من كل مكان يأتيه الموت!! ما أبدعه من تصوير وما أشد وقعه على النفس!! أسباب الموت من كل ناحية وجانب ولكن لا موت، كما جاء في حديث النبي ﷺ عن شأن من شؤون القيامة «حينما سئل عنه أهل الجنة وأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فقالوا: نعم، وجاءهم على صورة كبش فذبح وقيل: يا أهل الجنة خلوداً لا موت، يا أهل النار خلوداً لا موت»<sup>(١)</sup>. ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧] تلك محاورة بين رسل الله؛ أهل الحق، وبين أهل الباطل.

وهذه المحاورة بين الرسل الكرام يختار لها المكان اللائق بها بيت الأب، بيت الشيخ بيت الأب العظيم، سورة إبراهيم عليه السلام، وهذا يدل على أن الأنبياء جميعاً أمة واحدة مهما اختلفت أزمته وأمكتهم، وأن أهل الباطل كذلك.

(١) أخرجه البخاري في التفسير في سورة الكهف حديث رقم ٤٧٣٠.

وجميل أن نقرأ الآيات مرة أخرى، وتلكم هي الآيات الكريمة :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْفَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطْرَقَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ يَذْعُوكُمْ لِغَيْرِكُمْ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُؤْخَرُكُمُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْ يُخِيبَ اللَّهُ عَلَى مَا أَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ وَاسْتَغْفِرُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَٰدِرٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمُعْتَدٍ مِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧-٩﴾ [إبراهيم : ٩-١٧] .

أما سورة الحجر، فبعد أن ذكرت قصة آدم انتقلت بعد فاصلٍ قصير إلى الحديث عن إبراهيم عليه السلام، لكن لا من حيث ما كان بينه وبين قومه، وإنما من حيث مجيء الرسل وتبشيرهم له، ثم تحدثت عن قصة لوط عليه السلام وأشارت إشارتين موجزتين خاطفتين إلى أصحاب الحجر الذين سميت السورة باسمهم وأصحاب الأيكة، ولكن بإيجاز كما قلت.

سورة الحجر إذن أشارت إلى هذا القصص بهذه الطريقة فلم تحدثنا عما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم، اللهم إلا ما كان بين لوط عليه السلام وبين قومه. وإذا جاز لنا أن نقسم ما حدثت عنه السورة تقسيماً جغرافياً فإن الذين تحدثنا عنهم سورة الحجر كانوا

جميعاً في منطقة واحدة، وأمكنة متقاربة فقري قوم لوط وثمود ومدين كلها في شمال الجزيرة. وكأن الحديث عنها كان تذكرة لأهل مكة؛ لأنهم يمرون بطريقهم على هؤلاء الأقوام، وعلى هذه الأمكنة.

أما سورة النحل، وهي سورة النعم، فلم نر فيها شيئاً من هذا القصص، اللهم إلا بعض الآيات ثناءً على إبراهيم عليه السلام.

وتأتي سورة الإسراء، ولا نقرأ فيها إلا لمحة عن قصة آدم، وهذا يتلاءم مع موضوع السورة، ثم إشارة متلائمة أيضاً مع موضوع السورة إلى الآية التي أعطيها ثمود، وإشارة كذلك إلى الآيات التي أعطيها موسى عليه السلام لفرعون. سورة الإسراء إذن: هي سورة الآيات فقط، وما ذكر فيها من اشارات لبعض القصص، إنما ذكر من خلال الآيات التي تتسق مع آية الإسراء.

ثم تأتي سورة الكهف، وقد تحدثنا عما فيها من قصص من قبل في أول هذا الموضوع، فلا نعيد هذا الحديث هنا.

أما سورة مريم، فلقد بدأت الحديث عن زكريا عليه السلام وبشارته ببيحي عليه السلام، ثم جاءت قصة مريم، وهذا على عكس ما جاء في سورة آل عمران حيث بدأ الحديث عن مريم؛ لأن السورة الكريمة سميت باسمهم، وبعد الحديث عن زكريا وابنه عليهما السلام ومريم وابنها عليهما السلام حدثنا السورة عن إبراهيم وأبيه وبنيه وموسى وأخيه عليهم السلام، ولكن لا من حيث ما كان بينهم وبين أقوامهم، وإنما هي إشارات ثناء على أنبياء الله عليهم السلام، ونلاحظ أن الذين حدثنا السورة عنهم كانوا من ذرية إبراهيم عليه السلام، اللهم إلا ما جاء من إشارة موجزة عن ادريس عليه السلام إذا لم نقل إنه إلياس عليه السلام.

وتأتي سورة طه، ويكون الحديث فيها عن موسى عليه السلام، وعن أكثر من جانب في حياته: رسالته وإرساله إلى فرعون وخبره مع بني إسرائيل. ثم وبعد فاصل من الآيات الكريمة تحدثنا عن قصة آدم عليه السلام.

أما سورة الأنبياء، ولها من اسمها نصيب، فلقد كان الحديث فيها عن الأنبياء -عليهم السلام- ثناءً ومثلاً وفضلاً... ولكن كان الحديث فيها موجزاً إيجازاً تاماً، بدأ الحديث فيها عن موسى -عليه السلام- بآيتين اثنتين، وهكذا كان الحديث عن لوط ونوح وداود وسليمان وأيوب عليهم جميعاً السلام وغيرهم. كان كله موجزاً مركزاً والرسول الوحيد الذي فصلت عنه السورة الكريمة سورة الأنبياء كان إبراهيم -عليه السلام-... وليس في ذلك شيء من العجب فأبراهيم -عليه السلام- هو أبو الأنبياء، وحرى أن يفصل عن الأب وأن يعطى من الحديث والإشارات ما لا يُعطى الأبناء.

وتأتي سورة الحج، فلا نقرأ فيها شيئاً من القصص، ولعل اسمها يشير إلى الحكمة في ذلك، أما ما ذكر عن إبراهيم عليه السلام فإنما كان حديثاً ذا صلة بالحج.

وتأتي سورة المؤمنون، والمؤمنون تكفيهم الإشارة فتحدثنا السورة بإيجاز يكفي المؤمنين للعبارة عن نوح وهود، ولمحة عن موسى وهارون عليهم السلام، وجعل ابن مريم عليه السلام وأمه آية. إن ذلك متلائم تماماً مع اسم السورة الكريمة وموضوعها.

أما سورة النور، فنظن أن موضوعها الذي جاءت تتحدث عنه جعلها خالية من هذا القصص، وسورة النور هي السورة المدنية بين سور مكية.

أما سورة الفرقان، فلقد جاءت علاجاً للشبهات التي أثارها المشركون حول الرسالة والرسول، وما ذكر فيها من إشارة عن السابقين لم يكن عما جرى بين الأنبياء وأقوامهم من حوار وجدال، وإنما كان بياناً لما حل بأولئك عبارات قصيرة موجزة.

وتأتي آل طس الثلاث: الشعراء والنمل والقصص.

أما سورة الشعراء: وهي أكثرها تعداداً لقصص الأنبياء، فلقد ابتدأت الحديث بعد ذكر القرآن والنبى وأهل مكة، ابتدأت الحديث عن موسى -عليه السلام- مع فرعون، وفصلت بعض التفصيل تفصيلاً لا نكاد نجده في غير سورة الأعراف أعني في شأن فرعون،

وبعدها تنتقل السورة للحديث عن إبراهيم -عليه السلام-، ولكن هذا الحديث يكون أكثر ما يكون عن تمجيد إبراهيم عليه السلام لرَّبِّه. ثم تحدثنا السورة عن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب، ثم تنتقل إلى القرآن الكريم، وتنزله بالحق: ﴿وَأَنزَلْنَا لَنَزِيلٍ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

أما سورة النمل، فبعد أن تحدثنا عن القرآن والنبي تذكر شيئاً عن قصة موسى -عليه السلام- ومبدأ رسالته، ولكن بإيجاز ثم تذكر داود وسليمان عليهما السلام وتفصل الحديث عن سليمان وما كان من ملكة سبأ. ثم تحدثنا عن ثمود وقوم لوط. . ولكن بما ليس فيه تفصيل، وإنما هو أقرب إلى الإيجاز.

أما سورة القصص: وهي آخر آل طس، فالحديث فيها إنما هو عن موسى -عليه السلام- منذ ولادته إلى أن أرسل إلى فرعون. حتى ما جاء في آخر السورة كان حديثاً عن قارون الذي هو من قوم موسى، لكن السورة تبدأ بالحديث عن القرآن، وتنتهي كذلك ونلاحظ ما يلي:

أ- آل طس وطه، كان الحديث فيها بادئ بدء عن موسى -عليه السلام-، بل إن منها ما قصر على الحديث عنه أو طال ك (طه) والشعراء والقصص، ونساءل: هذه آل طس حتى طه هذه السور التي ابتدأت بحرف (طاء) جميعاً بدأت الحديث عن موسى -عليه السلام-، ولكن كان للحديث عن القرآن الكريم فيها شأن كذلك؟ لو كنا من عُشَّاق تفسير الحروف في فواتح السور لفهمنا أن هذه السور التي ابتدأت بحرف الطاء أو السين تشير إلى طور سيناء، وإلى ما كان من شأن النبي ﷺ ولقلنا إنها تشير إلى طور سيناء ومكة، لكن- كما قلت- لسنا من عشاق التأويلات التي ربما لا يجد لها بعضهم مسوغاً. المهم أن هذه السور المبدوءة (بالتاء) أو بـ (طس) جميعاً بدأت الحديث عن موسى -عليه السلام-.

وتأتي سورة العنكبوت، والإشارات إلى الأنبياء فيها موجزة، وقد حدثتنا عن نوح وإبراهيم ولوط عليهم السلام وآية واحدة جمع فيها عاد وثمود، وآية واحدة عن قارون وفرعون وهامان، وإشارة موجزة لمدين. سورة العنكبوت - كما سنعرف - سورة الدعاة ولا أدل على ذلك من بدايتها وخاتمتها، أما بدايتها: ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الرَّخَمَ الرَّحِيمَ﴾. أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿[العنكبوت: ٢٩]﴾ أما خاتمتها، فهي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] إذن ذكر فيها ما تدعو إليه الحاجة، ولا ننسى أنها نزلت متأخرة، فكان أكثر ما فيها تلخيصاً لما مرَّ في كتاب الله من قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مع بعض الزيادات - كما سنرى - في قصة نوح مثلاً فعلى الرغم من أنهما آيتان اثنتان، إلا أنهما لا تخلوان من زيادة على ما فُصل في السور الأخرى.

أما سورة الروم، فقد اكتفت أن يشار فيها إلى الروم، وغلبتهم، ولم يذكر فيها شيء من القصص: وكذلك السورة التي بعدها سورة لقمان اكتفت أن تحدثنا عن وصية لقمان لابنه، وكذلك سورة السجدة لم تحدثنا عن شيء من هذا القصص، اللهم إلا بدء خلق الإنسان من طين.

وتأتي سورة الأحزاب المدنية ونعم ما ذكرته لنا من نصر الله المؤمنين وقد ابتلوا وزلزلوا زلزالاً شديداً فالله نصرهم على الأحزاب، والحمد لله أولاً وآخراً.

وتأتي سورة سبأ، وسبأ كما نعلم كانت لها شهرتها ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، ولكنهم أعرضوا فأرسل عليهم سيل العرم، وبُدِّلوا بجنتيهم ذواتي الشمر الزكي الشهوي، بدلوا بجنتيهم جنتين أخريين ذواتي أُكُلٍ خُمطٍ وأثل، وشيء من سدر قليل، ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

سورة سبأ هذه ذكرت فيها قصة واحدة قصة داود وسليمان عليهما السلام، ومن عجيب شأن القرآن وروعة نظمه وبديع صنعته، وجميل موضوعاته، ورائق معانيه

أن تجد هذا الترتيب المحكم. آية إعجاز ودليل صدق، وبرهان حق، ذكرت فيه قصة داود عليه السلام ثم أُتبت بقصة سبأ، ولكن هل تعلم أن قصة داود في سورة سبأ ذكرت من حيثية يهدف لها القرآن، ان الله ذكر داود عليه السلام في سورة سبأ ليبين أنه أنعم الله عليه فشكر ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]. أظنك بدأت تدرك الروعة وتتذوق الحلاوة. بعد قصة داود عليه السلام ذكر أهل سبأ الذين أنعم الله عليهم فلم يشكروه، فجازاهم الله ﴿وَهَلْ يُخْرِجُ إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] وهكذا نجد هذا التلاؤم والاتساق فسورة سبأ تذكر لنا فريقين من الناس أنعم الله عليهما، لكن منهم من شكر النعمة، ومنهم من كفرها. ولهذا يذكر عقب هاتين القصتين قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

أما سورة فاطر، فكان الحديث فيها عن آثار فاطر السماوات والأرض، ولم يأت فيها شيء من القصص.

أما سورة يس، فلم يذكر فيها إلا المثل لأصحاب القرية ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣-١٤].

لكن سورة الصافات ذكر فيها الأنبياء من حيث الثناء عليهم - كما مر معنا في سورة الأنبياء - والنبى الذي فصل خبره هو إبراهيم - عليه السلام - وقد عللنا ذلك حينما تحدثنا عن سورة الأنبياء.

وتأتي سورة (ص)، فلم يكن الحديث فيها عما جرى بين الأنبياء وبين أقوامهم، وإنما عن بعض ما ابتلي به بعض الأنبياء كداود وسليمان وأيوب عليهم السلام كل ذلك كان تسلياً للنبي ﷺ وثناءً بإيجاز على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل عليهم السلام.

أما سورة الزمر، فلم يذكر فيها شيء من قصص الأنبياء - عليهم السلام -.



وتأتي آل حم السبع فيكون الحديث في السورة الأولى وهي: سورة غافر (المؤمن) عن نبا موسى عليه السلام، وتفيض في الحديث عن مؤمن آل فرعون.

أما سورة فصلت ففيها إشارة -في معرض الحديث عن أهل مكة ووعيدهم إن أعرضوا- إلى عاد وثمود.

وأما سورة الشورى فليس فيها شيء من القصص القرآني.

وتأتي سورة الزخرف، وفيها إشارة عن ابراهيم عليه السلام تتلاءم مع موضوعها، وشيء عن خبر موسى عليه السلام مع فرعون، وما كان من اعتزاز فرعون وفخره بنفسه وبملكه، وهو متلائم مع موضوع السورة كذلك.

وتأتي سورة الدخان فتحدثنا شيئاً عن خبر فرعون متسقاً مع ما أصيب به أهل مكة حينما دعا النبي ﷺ عليهم بسنين كسني يوسف.

لكن سورة البجائية نجدتها خالية من القصص، اللهم إلا إشارة موجزة عن بني إسرائيل وما خصَّهم الله به، ولكنهم اختلفوا.

وتأتي سورة الأحقاف وهي السورة الأخيرة في آل حم، وفيها إشارة إلى ساكني الأحقاف وهم عاد.

ثم تأتي ثلاث سور مدنية: وهي سورة سيدنا محمد ﷺ وسورة الفتح المبين الذي أكرمه الله به، ثم سورة الحجرات - وبالطبع - لا يكون فيها شيء من هذا القصص.

ويبدأ المفصل فنجد إشارة موجزة في بعض سوره كما في سورة (ق) والذاريات، والقمر، وما جاء من ذكر موسى عليه السلام وقومه في سورة الصف، ومن خبر أصحاب الجنة وصاحب الحوت في سورة (ن)، ومن إشارات في سورة الحاقة.

والسورة الوحيدة في المفصل التي فصل فيها، كانت سورة نوح، حيث كانت كلها حديثاً عنه -عليه الصلاة والسلام-.

كل ما في المفصل إذن كان إشارات.

كما جاء في سورة المزمّل وسورة الفجر والشمس والبروج عن أصحاب الأخدود. وهناك سورتان كان فيهما بعض التفصيل عن بعض الأنبياء وهما: سورة الذاريات حيث فصلت في نبأ إبراهيم عليه السلام، وبعض إشارات إلى قوم لوط وفرعون وعاد وثمود وسورة النازعات التي أجملت الحديث عن خبر موسى -عليه السلام- مع فرعون.

وأكتفي بهذا التفصيل ومن أجال النظر، ونظم الفكر، وأكرمه الله بثاقب البصر، ستلوح له النجوم الزهر لوامح آخر. اللهم إنا نسألك فتحاً تكرمنا به بفهم وعلم، وأجز اللهم سيدنا محمداً ﷺ الذي أنزلت عليه هذا القرآن، خير ما تجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

## الباب الثاني

### القصص القرآني عرض وتحليل



- الفصل الأول : قصة آدم عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الثاني : قصة نوح عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الثالث : قصة هود عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الرابع : قصة صالح عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الخامس : قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام .
- الفصل السادس : قصة إسماعيل عليه الصلاة والسلام .
- الفصل السابع : قصة إسحاق عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الثامن : قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام .
- الفصل التاسع : قصة لوط عليه الصلاة والسلام .
- الفصل العاشر : قصة يوسف عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الحادي عشر : قصة شعيب عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الثاني عشر : قصة موسى عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الثالث عشر : قصة يونس عليه الصلاة والسلام .
- الفصل الرابع عشر والخامس عشر : قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام .
- الفصل السادس عشر : قصة أيوب عليه الصلاة والسلام .
- الفصل السابع عشر والثامن عشر : قصة زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام .
- الفصل التاسع عشر والعشرون : قصة عيسى ومريم عليه الصلاة والسلام .
- ورضي الله عنها .
- الفصل الحادي والعشرون : القصة القصيرة في القرآن .



## الفصل الأول

### قصة آدم عليه السلام

أولاً: من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهد

١- في سورة (ص).

٢- في سورة الأعراف.

٣- في سورة طه.

٤- في سورة الإسراء.

٥- في سورة الحجر.

٦- في سورة الكهف.

٧- في سورة البقرة.

ثانياً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها وشخصيتها.

ثالثاً: من جهة الألفاظ والتراكيب.

رابعاً: تعقيب على قصة آدم -عليه السلام-.





## قصة آدم عليه السلام

أولاً: من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهد.

إن هذه الحثيات تتطلب منا دراسة للسور التي ذكرت فيها قصة آدم -عليه السلام-، وهذه السور حسب ترتيبها في النزول<sup>(١)</sup> كما يلي:

١- ص . ٢- الأعراف . ٣- طه . ٤- بنو إسرائيل . ٥- الحجر . ٦- الكهف . ٧- البقرة .

الترتيب الذي اخترته هو الأرجح كما قال العلماء .

- أما سورة (ص) فبدأت الحديث عن قصة آدم بقوله تعالى :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرٍ مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

[ص: ٧١-٧٢]، وتحدثنا الآيات أن الملائكة سجدوا أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين، وحينما سأله الله لِمَ لم تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين، أي ما الذي منعك عن السجود أهو استكبارك الذي لا داعي له أم كونك ترى نفسك حقيقاً جديراً بالعلو والتفضيل، فإن كثيراً من المستكبرين لا يكون هناك سبب يدعو لاستكبارهم؟ أجاب بأنه خير من آدم لأنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، وقيل له اخرج مرجوماً ملعوناً إلى يوم الدين، وطلب الإنظار والإمهال إلى يوم يبعثون؛ لكنه لم يجب إلى ما طلب وإنما أُنذر إلى يوم الوقت المعلوم، وأقسم بعزة الله أن يغويهم أجمعين إلا المخلصين من عباد الله، وقال الله: الحق -والحق يقول- بأنه سيملأ جهنم منه، ومن أتباعه أجمعين. هذا ما جاء في سورة (ص) وهذه هي الآيات الكريمة:

---

(١) اعتمدنا في ترتيب النزول على ما رجَّحه كثير من العلماء وما اختاره صاحب الإتيان رحمه الله .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّیْ خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِیْنٍ فَاِذَا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیْهِ مِنْ رُّوْحِیْ فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِیْنَ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجَمُوْنَ اِلَّا اِبْلِیْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِیْنَ قَالَ یٰۤاِبْلِیْسُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدِیْ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِیْنَ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِیْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِیْنٍ قَالَ فَاَخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِیْمٌ وَّاِنَّ عَلَیْكَ لَعْنَتِیْ اِلَیَّ یَوْمِ الدِّیْنِ قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِیْ اِلَیَّ یَوْمَ یُعْثُوْنَ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِیْنَ ۝۱۰ اِلَیَّ یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا اُغْوِیَنَّهُمْ اَجْمَعِیْنَ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُحْلِصِیْنَ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوْلُ لَا مَلٰٓئَکَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ اَجْمَعِیْنَ ﴾ [ص: ۷۱-۸۵].

۲- أما قصة آدم في سورة الأعراف؛ فلقد اختلفت بداية القصة عما جاء في سورة (ص) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبْلِیْسَ لَمْ یَكُنْ مِنَ السَّٰجِدِیْنَ ﴾ [الأعراف: ۱۱] ويسأل ﴿ مَا مَنَعَكَ اَلَّا تَسْجُدَ اِذْ اَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ۱۲] ويوجب إجابته الناشئة عن استكباره وانانيته وشعوره بالعلو فيقال له اهبط منها فما ينبغي له أن يتكبر فيها وبعد الإبطا يؤمر بالخروج ويحكم عليه بالصغار ويطلب الإنظار فيجاء دون تحديد الوقت ثم يؤمر بالخروج مذموماً مدحوراً، لمن تبعه منهم جهنم وله كذلك.

وقوله مذووماً من الذم، وقوله مدحوراً أي مطروداً، وإنما استحق هذين الوصفين معاً، فهو مستحق للذم لاتصافه بالردائل السيئة، واستحق الطرد ليكون بعيداً عن الأرواح الخيرة سواء أكانوا ملائكة أم من الخيرين من البشر أنبياء كانوا أم غير ذلك.

ولكنه هنا يبالغ في الانتقام كما حدثتنا سورة الأعراف، ويأخذ على عاتقه أن لا يدع ثغرة إلا ويأتيهم منها. قال تعالى ﴿ قَالَ فِيمَا اَغْوَيْتَنِيْ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِیْمَ ثُمَّ لَا يَنصُرُهُمْ مِنْ بَيْنِ اَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ اَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ اَكْثَرَهُمْ شٰكِرِیْنَ ﴾ [الأعراف: ۱۶]، فهو أولاً أقسم أنه سيقعد لهم صراط الله المستقيم، ومعنى هذا أنه سيحاول جهده كله أن يحول بينهم وبين الخير، ويحول بينهم وبين الصراط المستقيم، الذي جعله الله طريق الأنبياء والصالحين، وليس هذا فحسب، بل إنه سيأتيهم من الجهات كلها، حتى لا يدع لهم

منفذاً من المنافذ، أو ثغرة من الثغرات؛ ولذا جاء التعبير «ثم لآتينهم»، و«ثم» هنا للتراخي الرتبي، فإن إتيانهم من هذه الجهات أشد وطأً عليهم من قعوده لهم صراط الله المستقيم. وهذا من شأنه أن يشاغلهم ليضعفهم، فهم كلما حاولوا أن يتخلصوا منه من جهة، بادروهم من جهة أخرى، فالمقصود من هذه الجهات الأربع، الإحاطة بهم من أجل إضلالهم وإغوائهم، وهنا يصل إلى ما يريد وقد حدثنا القرآن الكريم عن بغيته وغايته، فقال سبحانه، ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، أولئك حزب الشيطان﴾، وما نعرف معنى للاستحواذ إلا هذا الاستيلاء التام، بحيث لا يجد المستحوذ عليه منفذاً ما.

ولكن رحمة الله بهذا الإنسان عظيمة، وما أعظم هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، فالله تبارك وتعالى يحب لعباده أن يجتنبوا مصائب الشيطان ومصايد؛ ولذلك نجد هذا العلاج النافع الناجع، ففي هذه السورة نفسها بعد ذكر هذا التوعد، يخاطب الله تبارك وتعالى بني آدم محذراً لهم، مبيناً لهم نعمه عليهم، حتى لا يجتالهم اللعين عن الحق، ليحل لهم ما حرم الله عليهم، أو يحرم عليهم ما أحل الله لهم، نقرأ هذا كله في هذه النداءات الأربع، فكأن كل نداء فيه تبصير للإنسان، حتى يجتنب إغواء الشيطان ووسوسته، نداءات أربع تتسق تماماً مع توعد اللعين من أن يأتي الإنسان من الجهات الأربع.

كان النداء الأول قوله: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ الْفَقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] أما النداء الثاني فهو قوله ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسُهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰهُمَا إِنَّهُ يُرِيدُكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَوَّعُّهُمُ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

أما النداء الثالث فقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١-٣٢].

وكان النداء الرابع: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥].

وأنت أخي القارئ إذا تدبرت هذه الآيات وجدتها منسجمة تماماً متسقة كل الاتساق مع ما جاء في الآية الكريمة ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، فإذا قلت إن التفسير القائل ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الدنيا، ﴿وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ﴾ موضع الحسنات، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ موضع السيئات، أدركت سر الترتيب وسر البيان في هذه الآيات، وإن أبيت فيكيف أن تقارن بين هذه الجهات وبين هذه النداءات لتدرك أننا لا ينبغي أن نمكن الشيطان مما ينبغي، فهو إنما يأتينا من هذه الجهات من أجل أن يضعف إرادتنا لتخور قوانا، مع أننا نحن الذين ينبغي أن نضعفه، كما جاء في بعض الآثار الطيبة «إن أحدكم ينضي شيطانه كما ينضي إبله» أي يضعف شيطانه كما يضعف دابته التي يركبها، وقد دلّ على هذا كثير من الآيات والأحاديث الصحيحة.

وتحدثنا الآيات بعد ذلك عن مشهد آخر، فبعد أن أمر بالخروج مذهباً مدحوراً أمر آدم أن يسكن وزوجه الجنة وليأكلا من كل شيء إلا شجرة واحدة، ولكن إبليس وسوس لهما ليبي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وأكد نصحه لهما فدلاهما<sup>(١)</sup> بغرور،

(١) التذلية: إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل، كتذلية الدلو في البئر، ومعنى قوله ﴿فدلاهما﴾ أي جعلهما يقدمان على الأكل من الشجرة، ففقدوا هذه المنزلة الرفيعة التي كانا فيها، وهو تمثيل حال من يطلب شيئاً من ما يرجوه فلا يجده، بحال من يدلي دلوه أو رجله في البئر، ليستقي من =

فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فِيمَا أغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَثْ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَبَكَدُمْ أَشْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدْيِ لُحْمًا مَا يُورِي عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ بَيْتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّهُمَا بِمُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِفاً يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الأعراف: ١١-٢٣].

والناظر في سورة الأعراف يجد أنها تشتمل على جزئيات كثيرة لم تذكر في سورة (ص)، ففي سورة (ص) ذكر الماء والطين؛ ولكنه لم يذكر في سورة الأعراف، وفي سورة (ص) ذكر القول بعنوان -وما أكثر الجديد فيها- الربوبية للنبي ﷺ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ لما سنعرفه فيما بعد إن شاء الله، ولكن في سورة الأعراف ذكر شيء آخر: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ وفي سورة الأعراف ذكر الأمر: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ولم يذكر الخلق باليدين الذي ذكر في سورة (ص)، وأمر آدم أن يسكن وزوجه الجنة ذكر في سورة الأعراف ولم يذكر في (ص) وكذلك أمرهما أن يأكلا من كل شيء إلا شجرة واحدة، وكيف وسوس لهما الشيطان حتى أكلتا من الشجرة، وبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فهذه مشاهد ذكرت في سورة الأعراف ولم تذكر في سورة (ص) كما رأينا ذلك.

= مائها فلا يجد فيها ماء، فيقال دلى فلان.

٣- أما سورة طه فإن الجهة التي تحدثت عنها الآيات الكريمة كانت غير ما في السورتين الكريمتين (ص والأعراف)، حيث بدأت الآيات :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَنفَادُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ ثُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١١٥-١٢٤].

ثم يبين الله لآدم بأنه تتوافر له الراحة في الجنة فلن يجوع ولن يعرى ولن يظمأ ولن ترزعجه الضحوة حيث الشمس في شدة حرارتها<sup>(١)</sup> ولكن الشيطان وسوس له موهما إياه بأنه سيدله على شجرة الخلد وملك لا يبلى وأكل هو وزوجه من الشجرة فكان ما كان من بدو السوءات ومحاولة إخفائها من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وأمروا جميعاً بالهبوط ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

سورة طه إذن لم تحدثنا عن الماء والطين؛ والجديد في سورة طه وما أكثر الجديد فيها حديثها عن عهد الله لآدم ونسيان آدم هذا العهد، ولم تحدثنا عن المحاوراة والتبكيك الذي كان من الله لإبليس؛ ولكنها حدثتنا هنا عن قضايا جديدة لم نجدها في السورتين السابقتين :

(١) وإنما جمع بين الجوع والعري؛ لأن الجوع خلو باطن الجسم من الغذاء، والعري خلو ظاهر الجسم من الثياب، وإنما جمع الظمأ والضحوة، لأن الظمأ حرارة في باطن الجسم، والضحوة حرارة في ظاهر الجسم، من شدة حرارة الشمس؛ والمتدبر في الآية الكريمة سيجد حكماً أخرى غير هذه.

(١) عن عداوة إبليس لآدم ولزوجه .

(٢) عن محاولته اخراجهما من الجنة وسيشقى إذا كان ذلك .

(٣) عن وسائل الراحة التي هيئت له في هذه الجنة .

(٤) عن المداخل التي استطاع إبليس أن يدخل منها لآدم، وهي هذه الاستعدادات الفطرية التي منحها والتي أصبحت فطرة في بنيه جميعاً، وهي حب البقاء، وحب التملك، وهما فطريان في الإنسان ﴿ هَلْ أَذُكُّ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمُلْكُ لَا يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠] كما حدثنا عن عصيان آدم وغوايته ولكن بعد ذلك عن اجتباء ربه له وهدايته، كل هذه العناصر كانت جديدة في السورة الكريمة .

وسياتي مزيد تفصيل لقصة آدم في هذه السورة الكريمة .

٤- أما سورة الإسراء، فقد حدثنا عن هذه القصة من جانب آخر، حيث بدأت

هكذا:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا الِذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَأَسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَهُمْ مَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَنِسْ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥] .

سورة الإسراء إذن كان حديثها عن جانب يكاد يقتصر على ما سيكون من إبليس -لعنه الله- مع بني آدم «لاحتنكن ذريته إلا قليلاً» وأصل الاحتناك: الاستيلاء على الشيء أو الاستئصال له، فمن الأول قولهم: حنكت الدابة إذا وضع في حنكها الرسن لقيادتها، ومن الثاني: أي الاستئصال قولهم: احتنك الجراد الأرض إذا استأصل كل ما فيها من نبات وزرع، فمعنى الآية لأستولين على ذرية آدم، ولأقودنهم إلى ما أشاء من المعاصي والشهوات إلا عدداً قليلاً منهم .

أما قوله: ﴿وَأَسْتَفْزِرَ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤] فلا استفزاز: الاستخفاف والازعاج، يقال: استفز فلان فلاناً إذا استخف به وأوقعه فيما يريد منه، وقوله سبحانه: ﴿وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بَخِيلُكَ وَرَجْلُكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] فأصل الإجلاب الصياح، يقال: أجلب على فرسه إذا صاح به لحثه على السير، ومعنى بخيلك ورجلك أي بجنودك راجلين أو راكبين، فالمقصود من الخيل في الآية الفرسان الراكبون لها والرجل بفتح الراء وكسر الجيم، الذين يمشون على أرجلهم.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤] فالمشاركة في الأموال كونهم يجمعونها لا يتحرون الحلال في جمعها، وينفقونها في غير الوجه المشروع. ويمنعونها مستحقيها. ومشاركتهم في الأولاد تنشئتهم تنشئة فاسدة، وتسميتهم أسماء غير مقبولة، وتزيينه الزنا لهم.

قال ابن جرير - رحمه الله - في معنى الآية: «كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما يكرهه، أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده أو بغير ذلك من الأمور التي يعصى الله بفعله به أو فيه».

وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَهُمْ﴾ أي عدهم بما شئت من المواعيد الباطلة الكاذبة، وهذا تصوير دقيق لما توسوس به الشياطين، ليحذر المسلم وليستعبد بالله دائماً من الشيطان، ﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

سورة الإسراء إذن طويت فيها كثير من المشاهد التي رأيناها في غيرها وبرزت فيها عناصر جديدة تظهر في قوله:

﴿أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣] وهذه الأوامر مقصود بها التهديد، مثل قوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ولقد ركز القرآن الكريم كثيراً، وهو يحذر الإنسان من مصائده ومصائبه وحبائله، ونفته ونفحه وهمزه.



## مسالك الشيطان في الإغواء ووسائله:

ومما هو قريب مما في سورة الاسراء ما حدثنا القرآن الكريم عنه في سورة النساء قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَا ضُلَّةً لَهُمْ وَلَا يُنَبِّئُهُمْ وَلَا أَمْرًا لَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ ءَاذَانَ الْآفَكِ وَلَا تُمِرَّهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

ومعنى هذه الآيات الكريمة، أن هذا الشيطان جمع بين صفتين، فالصفة الأولى لعنة الله عليه، والصفة الثانية قوله ﴿لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ وقد بين الله في هذه الآيات الكريمة، المسالك التي يسلكها الشيطان مع هذا الإنسان، فهو أولاً عرف بما لا يقبل الريب: أنه سيجد من بني آدم فئة تأتمر بأمره، ثم ﴿لَا تَخْذَنْ مِنْ عِبَادِكْ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

أما وسائله التي يزين بها ويزينها فهي الإضلال أولاً ﴿وَلَا ضُلَّةَ لَهُمْ﴾ ثم يمينهم بالوعود الكاذبة، التي سيقبلونها منها يوم القيامة كما قال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] لن أستطيع غوثكم مهما كان صراخكم، ولن تستطيعوا غوثي كذلك.

والوسيلة الثالثة: ﴿وَلَا أَمْرَ لَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ ءَاذَانَ الْآفَكِ﴾ وهذا الذي كان يزينه للعرب في جاهليتهم، ثم ﴿وَلَا أَمْرَ لَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ وتغيير خلق الله يكون بتغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، عقائد وعبادات، وما نجده اليوم من تعدد على الجنس

البشري من استنساخ وهندسة وراثية لا تتفق مع خير هذا الانسان، تشمله الآية الكريمة، وهكذا نجد كتاب الله تبارك وتعالى في مواطن كثيرة، يحذّر الإنسان من شر الشيطان، لأن الشيطان أصل الشر كله. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْصَى السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

بقي هنا أمر لا بد من التنبيه عليه، جاء في الآية الكريمة ﴿لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ وجاء قوله: ﴿وَلَا تَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، فكيف نجمع هاتين الآيتين؟

والمتدبر للآيات يدرك الإجابة، فالشيطان يتمنى أن يغوي الناس جميعاً، ولذلك لن يترك أحداً من شره، ودليل هذا ما جاء في الحديث الصحيح: «ما من أحد إلا ووكل به قرينه من الخير وقرينه من الشر قالوا حتى أنت يا رسول الله؟ قال حتى أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم»<sup>(١)</sup>

ولهذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] فهو لن يترك أحداً من مصائده، لكنه أقر بأن فئة من عباد الله لن يستطيع إغواءها وهم الذين اخلصوا لله سرهم وجهرهم، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وهم الذين قال الله فيهم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

٥- أما سورة الحجر، فلقد أضافت عنصراً جديداً مهماً، لا بد لهذا الانسان أن يكون على علم به وهو أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، ذلك لأن لعنصري الصلصال والحمإ المسنون في خلق الإنسان وفي حياته بعد ذلك دوراً لا يمكن إغفاله، فالصلصال لا يتماسك كثيراً، بل سرعان ما يتحطم ويتفتت؛

(١) انظر مسند أحمد ١١٥/٦.

فهو هش لأنه الطين الذي جففته الشمس، فهو لا يملك خاصية المحافظة على ذاته، فسرعان ما يتفتت، فليس في شدته كالفخار الذي سوتّه النار، والحمأ المسنون: الطين الذي اشتد سواده وتغيرت رائحته تغيراً مكروهاً والمسنون المصور. هاتان خصيستان: عدم التماسك وعدم الاحتفاظ بخاصية الصلاح وطروء الفساد والتغير، وهما ملازمتان للإنسان، إلا إذا تداركه الله بعفوه ورحمته، فإنه حين ذلك يكون قوياً بعيداً عن أن يطرأ عليه فساد ولعل هذا ما يشير إليه الحديث الشريف الذي روي عن سيدنا رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت: يا رب؛ هل في خلقك شيء أشد من الجبال قال: نعم الحديد؛ قالت: يا رب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الحديد قال: نعم، النار، قالت: يا رب؛ فهل في خلقك شيء أشد من النار قال: نعم الماء قالت: يا رب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الماء قال: نعم الريح قالت: يا رب؛ فهل في خلقك شيء أشد من الريح قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه ويخفيها من شماله»<sup>(١)</sup>.

سورة الحجر إذن جاءت بهذه المعلومة الجديدة ذات الشأن والخطر في حياة الانسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

وهناك أمر جديد آخر في سورة الحجر، وهو أن الله تبارك وتعالى لما سأل إبليس عن سبب عدم سجوده، وأجاب بأنه لن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون، وأمر بالخروج، وحكم عليه بالرجم واللعنة يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لَأُظْلِمُكَ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩] فعنصر التزيين جديد في هذه السورة الكريمة؛

(١) أخرجه الترمذي / سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي / أبواب تفسير القرآن باب فضل صدقة السحر حديث رقم ٣٣٦٦ ج٩ ص ٨٩ قال ابو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً الا من هذا الوجه.

فهو سيحسن لهم ما يريد أن يحملهم عليه ويأمرهم به ، ولكنه يعترف أنه لن يقدر ، ولن يغوي بهذا التزيين عباد الله المخلصين ، وبين الله له بأن جهنم موعده وموعد من يرضى بتزيينه ، وأن لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ شَكَرًا مِّنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلَافٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَىٰ مُسْتَقِيمٍ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٢٨-٤٤].

٦- أما سورة الكهف، فقد ذكرت لنا القصة في آية واحدة، ومع كونها آية واحدة فإنها لا تخلو من جديد:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

فقد برز في هذه الآية الكريمة العناصر التالية:

- (١) إن إبليس من الجن: وهي الآية الأولى التي يصرح فيها بذلك .
- (٢) إن لإبليس ذرية .
- (٣) إنه فسق عن أمر ربه بعد أن لم يكن كذلك .
- (٤) إنه لا يجوز لبني آدم أن يتخذوا إبليس وذريته اولياء من دون الله مع عداوته لهم .

هذه الآية الكريمة وما فيها من قضايا جديدة<sup>(١)</sup> كانت آخر الحديث عن قصة آدم في العهد المكي.

٧- ويأتي العهد المدني فنجد الحديث عن قصة آدم في سورة واحدة فحسب هي سورة البقرة<sup>(٢)</sup> ولكنها تحدثنا عن القصة حديثاً فيه الجدة التي لم نَجدها من قبل ، حيث تبدأ القصة هكذا ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ويبين سبحانه أنه علّم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة لينبئوه بهذه الأسماء، ولكنهم اعترفوا بأنهم لا يعلمون ذلك ﴿ سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] ويؤمر آدم أن ينبئهم بأسمائهم .

وهذه خاصية جعلها الله لآدم دون غيره، وتلكم من آثار رحمته سبحانه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ **الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴿[الرحمن: ١-٤]﴾ وهذا يتناسب مع خلافته للأرض التي أَرادها الله له، فالعلم -إذن- هو أول ما امتاز به الإنسان كما جاء في هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، وهو أول ما تفضل به الله على الانسان، كما جاء في أول سورة نزلت على الرسول ﷺ وهي سورة القلم؛ لذلك كثرت الآيات التي تتحدث عن العلم، ولكن ما هي الأسماء التي علمها الله آدم، كثرت أقوالهم في هذه المسألة:

الأسماء التي علمها آدم:

يرى بعضهم أنه علمه أسماء الأشياء كلها التي ستعرف في هذه الحياة الدنيا، وقد يكون في هذا القول بُعد، ولعل الأقرب أن يقال: إن الأسماء التي علمها آدم تلك التي خلقها الله له، وكان وجودها أمراً لا بد منه لكونه محتاجاً إليه، والهدف من الآية الكريمة

(١) وتدل الآية على أن الجن ليسوا جميعاً كفاراً وفاسقين.

(۲) الآيات: ۳۰-۳۸.

بيان فضل الله على هذا النوع البشري وما خصه الله به وفضله على غيره، ولقد نقل كثير من المفسرين أقوالاً بعيدة غريبة.

ولقد كان الملائكة في قمة الأدب والتسليم لله وتعظيمه سبحانه، فهم لا يعلمون إلا ما علموه ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٢] بأسماء هذه المسميات التي عرضت على الملائكة، فلما أنبأهم آدم، قال الله لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] وفي هذا توجيه للملائكة وبيان، ليدركوا السبب الذي من أجله جعل آدم خليفة في الأرض، إنه وإن كان بعض ذريته سيفعلون ما لا ينبغي، لكن يبقى هذا الإنسان هو وحده الذي يصلح للخلافة في هذه الحياة، يستخرج خيراتها، ويرصد مجراتها، وصدق الله ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ<sup>(١)</sup> قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أُنْثَاهُمْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ

(١) وسؤال الملائكة هذا ليس اعتراضاً، كيف والملائكة عباد مكرمون؟! ورحم الله الأستاذ عبد الكريم الخطيب وسامحه الله، إذ يقول: «فلقد كانوا -الملائكة- يرون في أنفسهم أنهم أقرب إلى الله من هذا المخلوق الذي طرأ على الوجود، وإنهم لهذا أولى بأن يكون منهم الخليفة على الأرض» [الفصل القرآني ص ٣٨٥].

وهذا قول حري بالرد، إذ مؤداه أن الملائكة حسدوا آدم، فما الفرق بينهم وبين إبليس؟ ثم إن الملائكة يدركون أنهم خلقوا لما أَرَادَهُ اللهُ منهم، لا من أجل عمارة الأرض وخلافتها، فلم يخطر ببالهم هذا الخاطر.

وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا لِقْرَبًا هَذِهِ الشَّجَرَةُ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَلَقِيَٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ قَنَابٌ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ٣٠-٣٨﴾.

هذه قصة آدم كما جاءت في كتاب الله تعالى، ولا نجد أي قصة في هذه السور الكريمة السبع تشبه غيرها فتكون صورة مماثلة لها -كما رأينا- من حيث الجزئيات وما ذكر من بعض المشاهد في أكثر من سورة فلأنه عنصر رئيس أراد الله أن ينبه عليه هذا الإنسان.

ثانياً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها وشخصيتها، مع ذكر القصة التي جاءت فيها.

فسورة (ص) التي جاءت في عنفوان خصومة قريش للنبي ﷺ، حينما عجبوا أن جاءهم منذر منهم، وعجبوا أن جعل الآلهة إلهاً واحداً، وطلب بعضهم من بعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم، بدأت القصة فيها بهذه التسلية عليه وآله الصلاة والسلام بعد قوله:

﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧٠-٧١].

وهكذا نجد كل سورة تتناسب مع موضوعها وشخصيتها<sup>(١)</sup>.

(١) نلاحظ أن الآية جاءت هنا، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بلا حرف عطف، كما جاءت في سورتي الحجر والبقرة ﴿وَإِذْ قَالَ﴾، لأنه لم يسبق ما يستدعي العطف عليه، فكان الآية جواب عن سؤال ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ كأنه قيل: فما الذي أوحى الله إلى نبيه؟ فقال ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ﴾، أما في سورة البقرة والحجر فالتأمل يجد سبباً للعطف وليراجع القارئ تفسير هذه الآيات.

وأنقل هنا كلمة قيمة للعلامة شيخ الأزهر الأسبق الشيخ محمد الخضر حسين، يقول رحمه الله: «إنها وردت في ست سور: في البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه<sup>(١)</sup>، ففي سورة البقرة<sup>(٢)</sup> وردت القصة في سياق تذكير الناس بنعمة الله، والعجب من أنهم يكفرون به. فكانت القصة تدور على هذا التذكير من جعل آدم خليفة، وتعليمه الأسماء كلها. وفي سورة الأعراف وردت هذه القصة في سياق أن الناس قليلاً ما يشكرون الله الذي مكّنهم في الأرض وجعل لهم فيها معاش، ولهذا أسهبت القصة في موقف إبليس مع الانسان.

وفي سورة الحجر: وردت القصة في سياق خلق آدم من طين والجن من نار فليست مادة أفضل من مادة، وهذا ما ركزت عليه القصة.

أما في سورة الإسراء، فقد وردت قصة آدم في سياق فتنة الناس، ولذلك كان الإسهاب فيها في واقعة حسد إبليس وعدائه لآدم وذريته<sup>(٣)</sup>.

### ثالثاً: من جهة الألفاظ والتراكيب:

١- ما جاء في سورة (ص) ﴿قَالَ يَبْنَيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدِّي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنْ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥] وجاء في سورة الأعراف ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وفي سورة الحجر ﴿مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] فسورة (ص) هي السورة الأولى التي نزلت فيها القصة، فبين فيها فضل آدم وتكريم الله له حيث خلفه بيديه سبحانه، أما سورة الأعراف فقد كان الخطاب موجهاً فيها لتعنيف إبليس،

(١) سها الشيخ رحمه الله عن ذكر سورة (ص).

(٢) وسورة البقرة كما نعلم هي سورة التكاليف التي كلفت بها الجماعة المؤمنة وهذه التكاليف لا بد لها من علم فمن علم بها وعمل كان جديراً أن يكون خليفة في هذه الأرض، ولذلك ذكر فيها ما يتناسب مع شخصية السورة وموضوعها.

(٣) لواء الإسلام، العدد السابع، السنة الرابعة ص ٥٣٧-٥٤٠.



حيث بينت أن الله أمره بهذا السجود، فكان حرياً به أن يستجيب إلى أمر الله، وأما سورة الحجر فكان التنبيه فيها على شيء آخر، وهو خيرية أولئك الذين أجابوا داعي الله، وهكذا جاء في كل سورة ما يتلائم مع موضوعها، ففي سورة (ص) كان الهدف تكريم آدم ﴿لما خلقت بيدي﴾، وفي سورة الأعراف كان الهدف تعنيف إبليس ﴿إذ أمرتك﴾. وفي سورة الحجر الثناء على الملائكة الذين سجدوا ﴿مالك ألا تكون مع الساجدين﴾. ولقد رأينا في سورة (ص) كذلك: (لما خلقت بيدي) فذكر فيها جانب العناية بآدم؛ لأنها أول سورة يذكر فيها.

وأما سورة الأعراف فقد ذكر فيها جانب الأمر الإلهي «إذ أمرتك» وقد خلت سورة الحجر التي نزلت بعدهما من هذين الجانبين؛ لأنهما ذكرا من قبل، أعني قوله «بيدي» في سورة (ص) وقوله «إذ أمرتك» في سورة الأعراف.

٢- جاء في سورة (ص) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعَرِّكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧٩-٨٢].

وجاء في سورة الأعراف ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٤-١٦].

وفي سورة الحجر ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أُغْوِيَنِي لِأُرْسِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٩].

فلقد جاءت الفاء في سورة (ص) والحجر، في موضعين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، [ص: ٧٩] ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٣٧]، [ص: ٨٠] وخلت منهما سورة الأعراف. ﴿قال أنظرنني﴾؛ وذلك لأن الآيتين في سورة (ص) وسورة الحجر ذكر قبلهما لعنة إبليس، فجاءت الفاء كأنه قال إن حكمت علي باللعنة رب فأنظرنني. وجاء الجواب له في الآيتين كذلك بالفاء «فإنك من المنظرين».

أما سورة الأعراف فلم يتقدم فيها شيء من هذا. لذلك نراها خلت من النداء «رب» كما خلت من الفاء وقد خلا الجواب كذلك «إنك لمن المنظرين» حتى يطابق السؤال.

أما قول إبليس في سورة (ص) فبعزتك، فجاء متلائما مع تكريم آدم، وإعزازه بأن خلقه سبحانه بيديه، وأما في سورتي الأعراف والحجر، فلم يذكر فيهما هذا التكريم لآدم من خلقه سبحانه وتعالى بيديه، وإنما ذكر الإغواء، إلا أن الذي ذكر في سورة الأعراف يرجح كون (الباء) للقسم، وذكر كلمة (الرب) في سورة الحجر دون (الفاء) يرجح كون (الباء) سببية، وهكذا نجد التفنن في الأسلوب مع ورود كل كلمة في الموضع الذي يتلاءم معها.

## الغرض الديني والنسق الفني في القصة القرآنية (قصة آدم)

القصص القرآني هو صفة لكل ما عرفه الإنسان من الفن القصصي، أيًا كان نوع هذا القصص من حيث الموضوع، أو من حيث الحجم؛ ذلكم لأن الله تبارك وتعالى اختار ما يقصه على نبيه عليه وآله الصلاة والسلام، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ والذين قص الله من أنبيائهم على نبيه عليه وآله الصلاة والسلام كان قصصاً مختاراً، فالأنبياء الذين قص الله أخبارهم، لم يقصها جميعها، بل اختار منها ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِّنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ [هود: ١٢٠] أي نقص عليك بعض ما شئنا لا أنباءهم جميعها.

ولا ريب بأن الهدف الأول من هذا القصص كان دينياً، له أهدافه المتعددة كما مر معك من قبل، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِّنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِيَتْ بِهِ فَوَادَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١] ثم إننا نجد أن القرآن الكريم يعقب على كثير من القصص بأن فيه آيات وبصائر، ففي سورة الحجر يقول عقب ذكر قصة إبراهيم مع الضيف من الملائكة الكرام، وقصة لوط عليهما الصلاة والسلام ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] وفي سورة الشعراء عقب الحديث عن كل نبي مع قومه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١] وحيناً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨].

ولا شك أن القصة القرآنية قد أدت فيها الغرض الديني أداءً محكماً كان قمة في الوفاء والعبرة كما سيظهر لك ذلك وأنت تتنقل وسط العرض السخي للقصة القرآنية.

ومن عجيب أمر القصة في القرآن، أنك تقرأ القصة في السورة الواحدة، فتجدها قد بلغت الغاية وأدت الرسالة خير أداء، بحيث تكون كافية لما سيقى له من الخبر المتحدث عنه، فإذا أنت ضمنت هذه القصة إلى أخواتها اتسعت البقعة المثمرة واتسع البناء المحكم.

القصة القرآنية. - إذن - تؤدي الغرض الديني متسقاً مع موضوع السورة الذي جاء فيه، أما إذا أخذت هذه القصة في السور الكريمة جميعها، فإنك ستجد نفسك بين مروج فيها من كل فاكهة زوجان، هذا كله من حيث الغرض الديني في القصة القرآنية.

أما من حيث النسق الفني، فإنك لو تأملت مُلاقٍ ما تأنس به نفسك، ويستريح له فؤادك، وتنعم عاطفة وفكراً معاً، إن كل قصة في كتاب الله تكون جناحاً محكم التصميم، فإذا أنت ضمنت هذه القصة التي تحدثك عن نبي من الأنبياء إلى أخواتها وجدت البناء المحكم أجنحة نُسقت وهُنِدت، لتعطي الصورة الفنية التي هي قمة الإبداع، وإن شئت قلت هو حي اتسقت فيه الأبنية، بحيث يسحرك مظهره الخارجي، فإذا ما هُييء لك أن تنعم ففسير بين ردهاته وحجراته أدركت أنك إنما تسير تمتع نفسك، وتجلى نظرك في جنات حسان، كأنها ليست من جنات الأرض.

وسأضرب لك مثلاً ونحن نتحدث عن قصة آدم - ﷺ - لأختار لك نماذج ثلاثة، نقف مع كل أنموذج على حدة، ولن أبادرك القول بالنتائج التي سنجدها ونذكرها، وإنما أترك هذا فيما بعد، أتركه لك أنت، والنماذج التي أختارها لك، حسب ترتيب النزول: -

١ - سورة الأعراف.

٢ - سورة طه.

٣ - سورة البقرة.

وبدهي أن الأوليين مكيتان، والأخيرة مدنية، ولتدبر الآيات في هذه السور.

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَعَكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فِيمَا أغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَتَتَادَمُّ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿ [الأعراف: ١٠-٢٥].

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَى وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَنْتَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ إِلَّا نَجُوعٌ فِيهَا وَلَا تَعْرِى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُّ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخَالِدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَا أَبْنَاءَكُمْ مِنِّي هُدَى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذُكِّرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَأُولِي النُّهَى ﴿ [طه: ١١٥-١٢٨].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَتَّخِذُ أَسْمَاءَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَتَّخِذُ أَسْكَنَ أَنْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَلَنَقُصَّ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كُلَّ مَن قَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿[البقرة: ٣٠-٣٩].

تدبر هذه الآيات الكريمة في كل سورة من هذه السور الثلاث وهي أمامك - والقرآن الكريم إنما أنزله الله ليتدبر ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وستجد أن الغرض الديني والنسق الفني متلازمان، وهذه هي طبيعة القرآن الكريم، فكما هو كتاب هداية، فهو معجز كذلك، والهداية والإعجاز لا ينفصل بعضهما عن بعض، وهذا عام في القرآن الكريم كله، قصصه وتشريعاته وحكمه وعقائده كل أولئك سواء.

## سورة الأعراف :

البداية : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٠] بدأت الآية الكريمة بهذا القسم : «ولقد»<sup>(١)</sup>، ولقد جاءت هذه الآية تعقيماً على نعمة الله على نبيه ﷺ بهذا القرآن، الذي لا ينبغي أن يكون في صدره الشريف حرج منه، بل ينبغي أن يبلغه بكل طمأنينة ورغبة، وأن الناس أمام الهدي الرباني فريقان، شقي وسعيد، ولن يُظلم أحد شيئاً، فالوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فهو المفلح ومن خفت فهو الخائب.

في هذا المضمار يذكر الله الناس جميعاً بأنه خلق أباهم آدم بعد أن هيا لهم الأرض لتكون صالحة للحياة عليها، وهذا هو التمكين، وهذا متسق تماماً مع كثير من آي القرآن، مثل قوله : ﴿ ذَلِكَ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧]. فالتمكين في الأرض -إذن- هو أولاً تمكين آدم ﷺ، ولكن الناس لا يشكرون، ثم يقول الله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [الأعراف: ١١].

بداية القصة -إذن- هذا القسم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾، الخلق أولاً، والخلق هو الإيجاد من العدم، ثم التصوير وهو كون المخلوق على هيئة معينة أرادها الله سبحانه ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٧] ثم ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ ونلاحظ هنا أن هناك مرحلتين: الخلق، والتصوير فصل بينهما بـ (ثم) وهو حرف يدل على الترتيب والتراخي، وهذا التراخي كما يقول العلماء، قد يكون زمنياً كقولنا، «أرسل الله موسى ثم عيسى» فإن بين النبيين مسافة زمنية، وقد يكون رتبياً على معنى أنه لا تراخي زمني، وإنما هو من حيث المنزلة والرتبة كقولنا (أحباب الله الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)، فأيهما في الآية الكريمة؟ أهو تراخ زمني؟ أي أن هناك مرحلة زمنية بين

(١) فإن اللام هنا واقعة في جواب قسم.

الخلق والتصوير أم هو تراخ رتبي؟ لأن مرحلة التصوير أدق وأعظم؟ قيل بكل من الرأيين، والذي أميل إليه أنه رتبي.

وبعد هذا تأتي المرحلة الثالثة: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ولا شك أن السجود لآدم كان بعد نفخ الروح، وهذا ما بينته سورة (ص) التي سبقت سورة الأعراف ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يكن من أولئك الساجدين، ويقرّع الله إبليس، ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، وهذه الجملة ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ تقطع كل ما أثير حول هذه القضية من أن الأمر كان للملائكة وحدهم، وليس إبليس منهم، إذن لم يوجه إليه اللوم؟ وبخاصة أن الأمر لم يذكر من قبل في سورة (ص)، إذن وجه الأمر الإلهي إلى إبليس، وليس لإبليس ما يحتاج به إلا هذا الوهم القائم في نفسه الشريرة ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وهي العبارة نفسها التي ذكرت من قبل في سورة (ص) وتركيز القرآن على هذه العبارة، لما قلت من قبل من أنه ليس عنده إلا هذا الوهم في نفسه الخبيثة.

ويؤمر إبليس بالهبوط والخروج منها، ولقد تحدثت عن معنى الآيات من قبل، ويذكر القرآن طلب إبليس ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي بعض الآيات: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾، وقد تحدثت عن هذا من قبل كذلك، وينظر ولكن لا كما أراد، لا إلى يوم البعث، بل إلى ما أراده الله تبارك وهو يوم الوقت المعلوم الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، ويجدها فرصة سانحة له، ليشفي غلته من بني آدم ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ما حدثنا عنه القرآن الكريم. ويرد الله سبحانه ﴿قَالَ أَخْرِجْنَاهَا مَذْهُومًا مُّدْحُورًا لَّمَنْ يَعْلَمْ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨] وقد شرحت لك هذا كله من قبل.

ثم تأخذ الآيات في بيان مشهد آخر وقد انتهت من بيان خبر السجود وما يتصل به، وقد حكم على إبليس بالخروج مذهباً مدحوراً، فليسكن آدم الجنة، ﴿وَبَنَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩] ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ فالضمير (أنت) تأكيد للضمير المستتر الذي هو الفاعل، وجيء به ليصح العطف،



ونلاحظ أن أمر الأكل لم يكن كذلك . ﴿فَكَلَا﴾ ولم يقل «فكل أنت وزوجك»، وهذا هو النسق الذي جاء في الآيات كلها، ولا ريب أن أمر السكن للزوجين يختلف عن أمر الأكل، فأمر السكنى تكون فيه المرأة تابعة للرجل، وليس كذلك أمر الأكل، فكل واحد يأكل حين حاجته للأكل، ونُهيًا أن يقربا شجرة معينة، ولم تذكر هذه القضية من قبل في سورة (ص) ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، والظلم من أكثر الشرور وأكبر المعاصي التي ركز عليها القرآن الكريم، ﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ والوسوسة هي الفعل الخفي، ويبين القرآن الكريم علة هذه الوسوسة ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تِلْكَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، وهذه كانت العاقبة، وهذه هي الفرصة الأولى التي وجدها سانحة له لبدأ تنفيذ ما توعد به آدم وذريته، ولا شك أن اللعين كان على علم بأن مخالفتها أمر ربهما سيذهب بكثير من الثمار التي أكرمهما الله بها، وسيعرضهما لعقوبات، وهذا الذي كان، إن كل ما يتمناه أن يفقد آدم وزوجه آثار الروح التي كرمًا بها وأسجد لهما الملائكة من أجلها، وأن يكونا أرضيين بكل ما في الأرض من كدرة وحمًا.

وبذل ما يستطيع ليتم إغواؤه، وعرف مواطن الضعف التي يأتي منها، ﴿وَقَالَ مَا تَهَنَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] وإتماماً للإغواء، أكد لهما مقسماً، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢١] أنه ناصح لهما، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢] واستجابا له، وكان ما حدثنا القرآن الكريم مما شرحته لك من قبل . . . ويندما ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] ويستغيثان ليغفر الله لهما ويرحمهما.

وتختتم القصة ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، وهذه الواو والجماعة، إنما تكون لأكثر من اثنين أي آدم وزوجه وإبليس، ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ وهذا الحكم لآدم وذريته، وإبليس وجنده، فهم في هذه الأرض حياة وموتاً وخروجاً، ثم تعقب الآيات بعد ذلك بنداء بني آدم، نداءات متعددة، ولقد شرحت لك هذا من قبل .

تلكم هي قصة آدم في سورة الأعراف بداية ونهاية، وهي تشكل بناءً محكمًا متناسقًا، يتفق فيه الغرض الديني والنسق الفني.

### ثانيًا: سورة طه:

تدبر الآيات الكريمات، تجد أن قصة آدم في سورة طه كان لها نسق آخر، لا من حيث البداية فحسب، ولا من حيث النهاية وحدها، بل من حيث البداية والنهاية وما بينهما، بدأت الآيات الكريمة بقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وهذه براعة استهلال كما يقولون، تبين لنا أن هناك مسلكًا تستلكه الآيات الكريمة في سورة طه.

إن الآية الأولى في القصة تبين لنا أن التركيز في هذه السورة إنما هو على آدم عليه السلام، وأن اللوم والعقاب يوجهان إليه وحده، ومن هنا بدأت القصة بهذه الآية الكريمة لتكون خلاصة مجملتها تتشرف النفس إلى ما بعدها من تفصيل.

ثم تأخذ الآيات الكريمة بالتفصيل، كيف نسي ولم نجد له عزمًا؟ ﴿وَلِإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [طه: ١١٦] تلحظون أن البداية هنا مختلفة تمامًا عن سورة الأعراف، فليس ثمة حديث عن الخلق كما كان هناك، ثم ليس هنا حوار، وليس هنا سؤال لإبليس عما منعه من السجود، بل هنا شيء آخر ﴿فَقُلْنَا يَتَّعَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] لم يسأل إبليس هنا عما منعه من السجود، بل وجه الكلام إلى آدم ليكون حذرًا يقظًا، ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ لك أولاً، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ الآيات تدلنا -اذن- على أنهما كانا في الجنة، وليس كما حدث في سورة الأعراف، ﴿فَتَشَقَّقَ﴾ وليس «فتشقيان»؛ لأن شقائه هو الذي ركزت عليه السورة هنا ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨-١١٩]. وقد شرحت لك هذا من قبل.

السورة هنا تركز كثيراً على آدم، فزوجه تبع له، وهو الذي يتحمل مسؤوليتها، فشقاؤها شقاؤه أولاً، وكذلك جوعها وما يتصل به، . . . ثم ماذا؟! تركز السورة على آدم وحده ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَكَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، وأين هذا مما جاء في السورة السابقة؟ هناك ﴿فوسوس لهما﴾ وهنا، ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ﴾ هناك عدي فعل الوسوسة باللام، أي وسوس لأجلهما، أما هنا فقد عدي بآلى، وإلى حرف انتهاء، أي وسوس قاصداً أن ينتهي بوسوسته إلى آدم.

في سورة الأعراف كان خطابه لهما معاً «لآدم وزوجه» ﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة﴾ أما هنا فكان الخطاب «لآدم وحده»، ﴿قَالَ يَكَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ﴾، في سورة الأعراف ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا﴾، أما هنا فجاء قوله سبحانه ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. في هذه السورة -إذن- تركيز واضح على شخصية آدم؛ لأنه ربان السفينة، ومدير الشركة، حتى إن الخطاب الأخير ﴿وقلنا اهبطوا﴾ إلا في هذه السورة ﴿أَهْبِطَا﴾ ولا يعقل أن يكون الخطاب لآدم وزوجه، لقوله سبحانه: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، إذن هو لآدم وإبليس، وفي هذه السورة تأكيد السعادة لمن اتبع الهدى، والشقاء لمن أعرض، وجاء التعقيب على القصة يتناسب مع مضمونها، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٢٩-١٣٠] وهذا يتسق تماماً مع الحديث في أول القصة عن آدم عليه السلام فنسي ولم نجد له عذراً.

تلكم هي قصة آدم في سورة طه جاءت نسقاً بديعاً، نسيج وحدها، تختلف من حيث العناصر والمضامين، حتى الفاصلة.

### ثالثاً: في سورة البقرة:

لن نجد عناء بعد حديثنا عن القصة في السورتين السابقتين، أقول لن نجد عناء في الحديث عما امتازت به سورة البقرة، حيث بدأت ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] حيث طوي الحديث عن الخلق في هذه السورة، ولم تشر كذلك إلى ما عهد الله إليه به، بل ركزت على قضايا جديدة وهي الخصائص التي أكرمها الله بها، لتكون فيما بعد، الرصيد الذي امتازت به ذريته، خلافته في الأرض وهذه تكرمة من الله عظيمة، ثم اختصاصه بالعلم، وهو ما اعترف الملائكة بأنهم عاجزون عما سئلوا عنه.

أما من حيث الألفاظ فجاء في هذه السورة الكريمة ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] كما جاء فيها ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

ثم من الموضوعات التي جاءت في هذه السورة، ما أكرم الله به آدم وقد تلقى من ربه ﴿كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، الحديث هنا في هذه السورة ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾. حيث جاء العطف بحرف الواو، بينما في سورة الأعراف ﴿وَيَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا﴾ [الأعراف: ١٩]، وقد ذكرت كتب المتشابه أن السكنى في سورة البقرة تختلف عنها في سورة الأعراف، إذ قد يراد بالسكنى اتخاذ المسكن وقد يراد بها الإقامة، قالوا والسكنى التي وردت في سورة الأعراف يراد منها اتخاذ المسكن، حيث جاء قبل الآية الكريمة، قوله تعالى لا بليس ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ فليخرج إبليس منها ليتخذها آدم مسكناً له، قالوا: ولذا جاء العطف بالفاء، لأن الأكل إنما يكون بعد اتخاذ المسكن، فالواحد منا يبحث عن مسكن أولاً، ثم يأتي دور الأكل، أما السكنى في سورة البقرة فالمقصود بها الإقامة، إذ لا ترتيب بين الإقامة والأكل، ولهذا الذي كنت قد ارتضيته عند الطبعة الأولى لهذا الكتاب،

لكنني فيما بعد ارتأيت أن هذا القول لا يخلو من تكلف، فالتفريق بين السكنى في السورتين الكريمتين، أمر غير ظاهر، ولا يخلو من تكلف، ويظهر أن العطف بالواو في سورة البقرة، جاء يتسق مع ما فيها من زيادة تكريم لآدم؛ لأن العطف بالواو أعم؛ ولذا جاء فيها (رغداً) وهو ما لم يأت في سورة الأعراف، ولعل الذي يتأمل الآيتين، يدرك جمال موقع كل من الحرفين ﴿وَبَنَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا﴾، ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا﴾ فوجود قلنا في سورة البقرة، وعدم وجودها في سورة الأعراف، جعلت كلا من الحرفين في مكانه ومكانته، والله أعلم بما ينزل.

ثم كان التعقيب في سورة البقرة على قصة آدم، كان ذكر بني إسرائيل الذين أعطاهم الله من العلم ما كرم الله به آدم، ولكن اختلفوا وكان العلم سبباً في شقائهم، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [الجاثية: ١٧].

تلكم نماذج ثلاثة تأخى في كل منها الغرض الديني مع النسق الفني، فكان كل أنموذج أمة وحده، ولكنها كلها أمة واحدة.

## تعقيب على قصة آدم

تلك هي قصة آدم، وتلكم هي السور الكريمة التي جاءت فيها هذه القصة، مرتبة حسب نزولها وتتميماً للفائدة نرى أن ننبه على بعض القضايا التي يمكننا أن نستنتجها ونستخلصها مما سبق:

### أولاً مجيء قصة آدم مع غيرها من القصص:

وأول هذه القضايا: أننا رأينا السور التي ذكرت فيها قصة آدم يذكر فيها قصص غيرها من قصص الأنبياء - عليهم السلام -، يظهر ذلك جلياً في سورة (ص) والأعراف والحجر وطه والكهف والبقرة؛ والسورة الوحيدة التي ذكرت فيها قصة آدم عليه السلام، ولم يذكر فيها قصص آخر هي سورة الإسراء، ومع ذلك فلقد وجدنا إشارة لقصة موسى عليه السلام في آخر السورة، ولا ينبغي أن يفوتنا هنا أن سورة الإسراء قد أشير فيها إلى قضية مهمة، وهي معجزة الإسراء التي كانت للنبي الكريم - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم -.

السور التي فيها قصة آدم عليه السلام إذن كانت جميعها من السور التي ذكر فيها بعض قصص الأنبياء، ومعجزاتهم - عليهم السلام -، وهذا متسق - بالطبع - مع خلق آدم عليه السلام وإعداده للخلافة والرسالة التي أنيط بحملها، هو والصفوة المختارة من بنيه الذين جعلهم الله هداة ودعاة يدعون ويهدون بأمره... ولكن كان هناك ملحظ حري بنا أن ننبه عليه، ونشير إليه وهو أن هذه القصة لم تذكر مع قصص الأنبياء في سياق واحد وسرد واحد، بل وجدنا أنها يفصل بينها وبين غيرها من هذا القصص فقد تذكر قصة آدم قبل غيرها من القصص - كما في سورتي الأعراف والحجر - إلا أن الفرق بين السورتين أنه قد فصل بينها وبين غيرها من القصص كما في سورة الأعراف حيث جاءت قصة آدم من الآية ١١-٢٥ بينما بدأت قصة نوح من الآية ٥٩. بينما جاءت في سورة الحجر متصلةً مع غيرها من القصص.

وقد تذكر متأخرة كما وجدنا ذلك في سورة (طه) وسورة (ص)، وكان من الطبيعي أن لا تذكر قصة آدم عليه السلام مع غيرها في سرد واحد؛ لأن الغرض والهدف من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام مغاير للغرض والهدف الذي تذكر من أجله قصة آدم عليه السلام. ومن بديع نظم القرآن، وعجيب أسلوبه، أن نرى الفصل بينها وبين غيرها من القصص يطول ويقصر؛ نتيجة لقرب هذا الغرض أو بعده، ففي سورة الأعراف مثلاً يطول الفصل بين قصة آدم، وبين القصص الذي ذكر بعدها وأوله قصة نوح عليه السلام، وهذا - بالطبع -؛ لأن قصص الأنبياء بدءاً بنوح عليه السلام وانتهاءً بموسى عليه السلام في سورة الأعراف كان حديثاً عما كان بينهم وبين أقوامهم، ولكننا نرى هذا الفصل يقصر في سورة الحجر؛ ذلك لأن القصة التي ذكرت بعدها قصة إبراهيم، ولم تذكر قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة من حيث ما كان بينه وبين قومه، وإنما كان الحديث عما أكرمه الله به من إرسال الملائكة وبشارتهم له، وهذا ليس غريباً عما كان لآدم - عليه السلام - ولا أود أن أطيل هنا -، وإنما أردت أن أنبه القارئ وأفتح له الباب ليقرأ ويستقرئ؛ فيصل بنفسه إلى ما قررته له.

### ثانياً: الاستعدادات الفطرية التي منحها آدم:

إن الحديث عن آدم - عليه السلام - هو حديث عن الخصائص والميزات التي خص الله بها هذا الإنسان وميزه بها عن غيره، كما أنه كان حديثاً عن تلك الاستعدادات والغرائز التي هيأها الله لهذا الإنسان أرضية كانت أم علوية؛ فقد أخرج الترمذي مرفوعاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن<sup>(١)</sup> والخبيث والطيب<sup>(٢)</sup>» ليعجب إذن أن نجد آدم عليه السلام بعد أن

(١) الحزن - الصعب.

(٢) سنن الترمذي ابواب تفسير القرآن، من سورة البقرة حديث رقم ٢٩٥٨ ج ٨ ص ١٥٤ =

يعهد الله إليه أن ينسى، وأن يخور عزمه ويفتر عما عهد الله إليه، ولا عجب إذن أن نجد ربنا تبارك وتعالى يهيء لآدم عليه السلام ما يصلحه ليصلح لعمارة هذه الأرض، وإن يُزَوِّد بهذه الاستعدادات: الاستعداد الجنسي أولاً؛ وكان له بعد أن تم خلقه حيث أمره أن يسكن هو وزوجه الجنة. وحب البقاء ثانياً؛ وهو ما طبع الإنسان عليه من هذا الأمل، وحب التملك ثالثاً؛ ومن نتيجته هذا التنافس بين الأفراد والشعوب والأمم، والتدين رابعاً حتى يستطيع أن يضبط الاستعدادات السابقة؛ فلا يطغى بعضها على بعض، ولا يبغى أحد على الآخر، وفي حديث الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد»<sup>(١)</sup> ومن أجل ذلك يحرص إبليس على أن يغوي هذا الإنسان ويضله ويضعف هذا الوازع الديني في نفسه.

ثالثاً: - قضية التدين هي قضية فطرية في الإنسان منذ أن خلقه الله تبارك وتعالى، وعرفه خالقه الواحد القدير، وإنما ذكرنا هذا؛ لنرد على أولئك الذين يسمون علماء الأديان وهم الذين يدرسون الدين على أنه ظاهرة اجتماعية تاريخية، وتنتهي بهم دراستهم الخاطئة إلى أن عقيدة التوحيد لم يصل إليها الإنسان إلا بعد شوط طويل زاول خلاله الخرافة، وتعدد الآلهة وغير ذلك؛ مما هو بعيد كل البعد عن عقيدة الإله الواحد. إن الله خلق هذا الإنسان سليم الفطرة، حنيفاً بعيداً عن الشرك والباطل؛ ولكن هذا الإنسان انحرف عن الفطرة فيما بعد فقضية الخرافة وتعدد الآلهة قضية عارضة في الإنسان، وليست أصلاً كما يقول بعض علماء تاريخ الأديان. وقد قلنا إن إبليس أخذ على عاتقه أن لا يدع ثغرة إلا وهو يحاول من خلالها إغواء هذا الإنسان، وفي الحديث الصحيح وفي خطبة رسول الله ﷺ الخطبة الرائعة الموجزة الجامعة التي أخرجها الإمام مسلم «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عبداً حلالاً وإنني

= قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح.

(١) أخرجه الإمام مسلم وقال البيهقي في الجامع الصغير حديث صحيح/ فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي ج ٢ ص ٢١٧. حديث رقم ١٦٩٨.



خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان وإن الله أمرني أن أحرّق قریشاً فقلت رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال: استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نُغْرَكَ وأنفق فسنفق عليك وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال؛ قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانته، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش»<sup>(١)</sup>.

يراجع شرح هذه الخطبة القيمة شرحاً مفصلاً نافعاً في كتابنا «خماسيات مختارة».

رابعاً: - تكريم بني آدم ولقد كرم الله بني آدم بكرامة أبيهم، وخلق هذا الانسان في أحسن تقويم، وليس ذلك خاصاً بجانبى الجسم والروح، وإنما هناك جانب ثالث؛ وهو الجانب الفكري والعقلي الذي هياه الله لآدم حين علمه الأسماء كلها ففضل على الملائكة بهذا الجانب فقال لآدم: ﴿قَالَ يَتَدَمُّ أُنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣].

خامساً: - الجنة التي أُسْكِنَهَا آدم: الجنة التي أُسْكِنَهَا آدم - عليه السلام -، كانت مهياة ليجد فيها راحته؛ ذلك لأن عنصر الطين الذي خلق منه لا يقوى على مقاومة المؤثرات والعواصف والصدمات سيما وأنه صلصال سرعان ما يتفتت ويتحطم؛ لذلك ضمن الله له ما يستطيع أن يقاوم به هذه المؤثرات من شدة البرودة، وشدة الحرارة، ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى .﴾ [طه: ١١٨-١١٩] فالجوع والعري،

(١) صحيح مسلم ج ١٧ ص ١٩٦ رقم الحديث ٢٨٦٥.

ثم الظمأ وما تسببه الضحوة من شدة حرارة، كل ذلك تكفل الله به لآدم - عليه السلام - ولزوجه في الجنة .

والجنة التي أسكنها آدم عليه السلام يذهب الكثيرون إلى أنها الجنة التي وعدّها المتقون، ولكن الذي نرجحه أنها جنة خاصة كانت له، وأنها كانت في الأرض، وأن الهبوط الذي أمر آدم به منها إنما هو هبوط معنوي لا مادي .

سادساً:- خلق آدم عليه السلام والنظريات الحديثة: ان الله تبارك وتعالى خلق آدم وأسكنه الأرض، ولكن بعد أن هبأ له كل ما يصلح له حياته على هذه الأرض ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] وكل النظريات التي يتخرص بها أصحابها: وبخاصة عشاق التطور؛ إن هي إلا ظن لا يغني من الحق شيئاً، ويؤلمنا أن يذهب بعض المسلمين ممن يحسنون الظن بهذه النظريات إلى تأويل نصوص القرآن القطعية الثابتة، كما ذهب إلى ذلك العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله تعالى في كتابه «قصص الأنبياء» لتتفق مع النظريات الهشة .

فآدم عليه السلام - كما حدثنا القرآن - أبو البشر جميعاً، ورحم الله الإمام الشيخ محمد عبده وعفا عنه: حيث ذهب إلى غير هذا، وإلى أن آباء البشر متعددون، كل ذلك خوفاً من أن يثبت العلم غير ما قرره القرآن . ولقد كان يحسن الظن بالنظريات وكان إيمانه بالقرآن وحرصه على أن تكون حقائقه ثابتة هو الذي حمله على مثل هذا؛ وكنا نرجو للشيخ - ونحن على يقين من قوة دينه - أن لا يقع في مثل هذه الترهات والأوهام، كما آلمنا كثيراً تأويله لقصة آدم عليه السلام في سورة البقرة تأويلاً يخرج الآيات عن ظواهرها، وسيكون لنا عودة لهذا الموضوع لنعرض إلى ما قاله كل من الإمام محمد عبده والشيخ عبد الوهاب النجار رحمهم الله تعالى .

سابعاً:- زوج آدم عليه السلام: لم يحدثنا القرآن الكريم عن زوج آدم أمنا الحانية الحنون، وهي التي عرفت بـ «حواء» لم يحدثنا القرآن الكريم عن اسمها وعن كيفية خلقها، كل الذي أشار إليه القرآن الكريم في هذا المضمار، وفي سياق غير سياق قصة آدم إشارات موجزة من مثل قول الله ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ انْقِفَازِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] وأكثر المفسرين يذهبون إلى أن الله خلقها من ضلع آدم وهذا ما أشارت إليه التوراة صراحة وربما يستأنسون لذلك بحديث عن الرسول عليه وآله الصلاة والسلام «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه»<sup>(١)</sup>.

وذهب بعضهم إلى أن معنى قول الله تعالى ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] أي خلقها من جنسه حتى لا يكون بينهما تنافر.

### القرآن لم يحمل المرأة مسؤولية الأكل من الشجرة:

ونحن لا نرى ما يلزمنا بأخذ أي الرأيين، وإن كنت أميلُ لهذا القول الثاني؛ ولا مانع من أن يكون الحديث الشريف تمثيلاً لنفسية المرأة وشخصيتها؛ ولكن القضية التي يجب التنبيه عليها هنا أن القرآن الكريم، لم يحلّل المرأة مسؤولية الإغواء، كما جاء ذلك في التوراة، حيث قالوا: إنها هي التي زينت لآدم أن يأكل من الشجرة، حيث بدأ إبليس بإغوائها أولاً.

إن القرآن الكريم لم يحمل المرأة هذه المسؤولية، ولم يخصّها بالذكر، وهذا جانب من الجوانب التي يحق للمرأة أن تفخر به؛ إذ لم تكن هي السبب في الارتقاء بمصايد الشيطان الذي أدى إلى الإخراج من الجنة، وإنما آدم هو المسؤول أولاً وآخراً، وهذا ما أرشدت إليه أي الكتاب الحكيم، كما جاء في سورة طه، حيث كان اللوم أولاً لآدم وحده

(١) أخرجه البخاري كتاب الأنبياء وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة باب رقم (٢) حديث رقم ٣١٥٣، وفي كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء باب (٨٠) حديث ٤٨٩٠.

﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَيَ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه: ١١٥]، كما كان التحذير له ثانياً ﴿ فَقُلْنَا يَتَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْقِكَ ﴾ [طه: ١١٧]. وحمله المسؤولية ثالثاً ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ ولم يقل «فتشقيان» ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ [طه: ١١٨] ذلك لأن المسؤولية تقع أول ما تقع على عاتق الرجل، وأما رابعاً فقد كان هو المقصود بوسوسة الشيطان، ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠].

### ثامناً: ما المقصود بالشقاء:

بقيت قضية لا بد من الإشارة إليها، وهي أن الشقاء الذي ذكر في هذه السورة أكثر من مرة جاء متسقاً مع موضوع السورة إيقاع جرس وإحياء نفس، فلقد بدئت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿ طه مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه: ٢]، ونقيض الشقاوة السعادة، ثم ذكر قوله سبحانه: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧] ومرة ثالثة: ﴿ فَمَنْ أَتْبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣].

ومن إحياءات الآيات الكريمة ندرك أن الشقاء قد يكون مادياً جسمانياً، وهذا الذي أشير إليه بقول سبحانه ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ وحجة هذا قوله في الآيات التي تليها ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴾ وقد يكون شقاء عاماً لا يعاني منه الجسم وحده، بل الكيان الإنساني كله روحاً ونفساً وفكراً، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾، وقوله: ﴿ فَمَنْ أَتْبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣].

بقي أن نذكر أن قوله تعالى: ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف: ٢٠] جاء بألف التثنية، لأن اللام ليست للانتهاء هنا، وقد تكون للتعليل، أي أن وسوسته كانت لأجلهما معاً، لكن غاية كانت آدم، فتحميل المرأة المسؤولية مما كان له أثر سلبي على المرأة في كثير من الديانات والقوانين الوضعية، حتى إنهم جردوها من إنسانيتها وطهارتها،

وهذا أمرٌ لا يقرّه القرآن الكريم والسنة النبوية، بل ينفيه الإسلام نفيّاً قاطعاً باتّاً، فهل تدرك المرأة هذا التشريف والتكريم الذي خصّها به القرآن الكريم وحده والسنة المطهرة؟ والخلاصة أن قصة آدم جاءت تقرر الركيزة الأولى في حياة الإنسان، وهي العقيدة الصحيحة؛ عقيدة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة شرك، وقضية التدين التي يحاول بعض الناس أن ينازع في فطريتها وفي كونها من الأصول الأولى التي زود بها هذا الإنسان.

وعجيب أمر القرآن الكريم؛ فإننا نجد أن قصة كل نبي ذكرت فيه، وبخاصة أولي العزم كانت تشير إلى ركيزة جديدة، بني عليها هذا البناء الشامخ الذي نعمت فيه الإنسانية فيما بعد، لولا أنها انحرفت عن الجادة.

### تاسعاً: ما هي الروح:

بقي هنا أمر كان ينبغي أن نشير إليه من قبل؛ فلقد علمنا الله أنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون، وقد قلت من قبل أن الصلصالية تشير إلى عدم التماسك، وسرعة التفتت، أما الحمأ المسنون؛ فإنما يشير إلى سرعة التغير، وفساد العنصر، وهكذا نجد الإنسان هشاً ضعيفاً وما أكثر أن تجد منه ما يركم الأنوف، وتنكره الطباع السليمة، ولكن الله تبارك وتعالى نفخ فيه من روحه فاستحق لذلك هذا التكريم من إسجاد الملائكة له، ولكن ما هذه الروح التي نفخها الله فيه؟! لعل المتبادر أن هذه الروح ذلك الأثر الذي تكون به الحياة، فلا بد أن تكون شيئاً آخر غير الذي في الحشرات والطيور والأسماك، إنه شيء آخر علوي النفحة، رباني الجدوة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فالروح التي نفخها الله في آدم عليه السلام وذريته من بعده كانت شيئاً فوق ذلك الذي تشترك فيه الأحياء صغيرها وكبيرها، والله تبارك وتعالى يقول في كتابه المحكم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ [النور: ٤٥] ويقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فالحياة أمر لا يخص آدم عليه السلام وحده. الروح التي كرم بها آدم عليه السلام إذن والتي أضافها الله لنفسه

سبحانه وتعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] ذلكم السر الالهي الذي استحق به الإنسان هذا التكريم؛ إنها تلك الجذوة التي تنتشر في أرجاء نفسه، فتشع منها جوانب الخير.

من أجل ذلك امتن الله على هذا الانسان بالتكريم وعنفه على انحرافه عن الجادة؛ ذلكم العنصر العلوي الذي خص به آدم - عليه السلام -، فاستحق الخلافة في الأرض. فأين هذا مما يهذي به أصحاب مذهب الوجودية، أو الذين يدعون تمرغ الإنسان بأحوال الجنس، ان الانسانية لن تجد هديها، ولن تكتشف عناصر الخير، ولن تنتشل من وهديتها إلا بهذا القرآن، وصدق الله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

### عاشراً: أين جنة آدم؟؟ وما هي الشجرة التي نهى أن يقربها؟

ذكرت في مقدمات الكتاب خصائص القصة القرآنية وأهدافها والعبر التي تتوخى منها، وقد تبين لنا أن هناك قضايا كثيرة تتصل بالقصص عامة، لا يجد القارئ فيها عبرة ما، ولذلك فقد طويت أحداث وجزئيات لم يجز الحديث عنها. وقد نجد أن هناك قضايا سكت القرآن الكريم عنها، ولكن لما كان حب الاستطلاع من طبيعة الانسان، تشوف نفسه دائماً، ويتشوق إلى كشف كثير من الأمور المجهولة، فإن من البدهي أن يبحث عن بعض هذه الجزئيات، ولما كان كثير من هذا القصص قد ذكر في كتب الديانات قبل الإسلام، وجدنا كثيرين قد توجهوا إلى هذا القصص، علهم يجدون فيه ما تشوفت إليه نفوسهم، حتى إن كان ذلك قد تشوهت به الحقائق. وهذا ما سمي عند علمائنا «الإسرائيليات»، فبعضهم نقل بغير ضوابط، وآخرون تحرزوا في النقل<sup>(١)</sup>. وقد يحاول بعضهم أن يبحث عن بعض ما في الكتاب الكريم والسنة المطهرة يرجح به رأيه الذي يذهب إليه.

---

(١) راجع كتابنا: «التفسير تطوره واتجاهاته، والمفسرون مناهجهم واتجاهاتهم» وهو غير مطبوع وسيظهر قريباً.

ومن هذه الموضوعات «جنة آدم» التي جاء ذكرها في كتاب الله ، وهي قضية كنت أود أن لا أتحدث عن الخلاف فيها في كتابي هذا، لولا ذكر الأئمة رحمهم الله لها والسؤال عنها من كثير من الناس . وملخص الأقوال التي جاءت فيها جنة آدم هي جنة المأوى التي وعد المتقون ، أم جنة خلقها الله له ، كانت خاصة به وبزوجه ؟ وهناك خلاف آخر : أهى في الأرض أم في السماء . ؟!

لم يجزم العلماء برأي من هذه الآراء ، لكن أكثرهم ذهبوا إلى أنها جنة الخلد التي وعد المتقون (جنة المأوى) وإلى أنها في السماء . وقال آخرون : هي جنة خاصة في الأرض . وأقام كل الأدلة على ما ذهب إليه .

أولاً : فمن أدلة الفريق الأول : أن الجنة إن أطلقت فالمتبادر من هذا اللفظ أنها الجنة المعهودة للمتقين . فقوله سبحانه : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] فالذي يسبق إليه الفكر هذه الجنة التي ذكرت كثيراً في كتاب الله مثل قوله : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ [الأعراف: ٤٤] .

ثانياً : قوله سبحانه : ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا ﴾ [البقرة: ٣٨] فإن الهبوط إنما يكون من أعلى إلى أسفل ، كما استدلوا ببعض الآثار ، وقال الآخرون إنها جنة خاصة في الأرض : إن جنة المأوى ليس فيها تكليف . والتكليف إما أن يكون أمراً أو نهياً ، والجنة التي كان فيها آدم . كان فيها تكليف . حيث نهى هو وزوجه أن يقربا الشجرة . وقالوا أيضاً : إن جنة المأوى لا يمكن أن يدخلها إبليس وقالوا رداً على الأولين : إن قوله تعالى : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ لا يدل على أنها جنة المأوى ، بل هي جنة عرفها آدم - ﷺ - وقد ذكر لفظ الجنة في القرآن الكريم معرّفاً ومنكراً لغير جنة المأوى . أما منكره كقوله سبحانه : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٢٦٦] وقوله سبحانه : ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ [الكهف: ٣٢] ، وذكر لفظ الجنة معرّفاً في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ [القلم: ١٧]

وقالوا أيضاً: لا يدل لفظ الهبوط صراحةً أنه كان من السماء إلى الأرض، قال تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] وقال تعالى: ﴿قِيلَ يَنْتُحِ أَهْبِطْ يَسْلِمِ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُومٍ مِّن مَّعْلَكُ﴾ [هود: ٤٨] وأنت خيرٌ أيها القاريء الكريم، بأن ما ذكر من الأدلة على أنها جنة المأوى ليس مقنعاً ولا ملزماً، لذا فإن الذي يترجح عندي أنها جنة خاصة بآدم ﷺ. وسواء أكانت جنة المأوى أم غيرها، فذلك ليس من الأمور العقديّة، وقد ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى- في كتابه «البداية والنهاية» هذه القضية مفصلاً فيها أقوال العلماء، فليرجع إليها من شاء.

بقي أن يقال: فما الشجرة؟

ونقول إنّ هذا من المبهمات التي سكت عنها القرآن، ونحن أولى بالسكوت وعدم البحث.

### حادي عشر: هل هناك آدمون قبل آدم؟

يسأل كثيرٌ من الناس عن وجود آدميين أو أوادم قبل أبينا آدم ﷺ، ذلك أنه قد اشتهر عند كثيرين أنّ الأرض كانت معمورة قبل خلق آدم، واختلفوا في أسماء الجنس الذي كان يعمرها، ولكنّ هذا القول ليس له ما يؤيده أو يستند من مصادر صحيحة ولعل الذي حمل أولئك على مثل هذا الاعتقاد أمورٌ ثلاثة:

أولاً: ما أشارت إليه بعض الكتب من وجود أجناسٍ من البشر كانت تسكن الأرض قبل آدم، يسمّون «الحن» قال المعري:

جائز أن يكون آدم هذا      قبله آدم على إثر آدم

وقوله:

وما آدم في مذهب العقل واحداً      ولكنه عند القياس أوادم

وهي أخبارٌ كثيرة كان للخيال فيها أثرٌ بعيد.



ثانياً: ما أثبتته علماء الآثار والحفريات من وجود هياكل بشرية تختلف اختلافاً كلياً عن هذا الجنس البشري الذي هو الآن على هذه الأرض.

ثالثاً: قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

قالوا إنما قالت الملائكة هذا القول لوجود أجناسٍ من البشر كان هذا عملهم وهذه صفاتهم، وإلا من أين عرفت الملائكة هذا الأمر، والحق أن ما استندوا إليه لا يسعفهم فيه دليل، ولا تنهض لهم به حجة، فإن ما جاء في بعض الكتب كان فيه للخيال والخرافة نصيب كبير. أما الحفريات فما هي إلا حدسٌ وظن، بقيت الآية الكريمة ولا دليل لهم فيها كذلك، أما من أين عرف الملائكة؟ فيرى شيخ المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، أن الملائكة إنما علموا ذلك من الله -تبارك وتعالى- فتأويل الآية كما يرى -رحمه الله-، أن الله تبارك وتعالى قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ سيكون من شأنهم الإفساد وسفك الدماء، فقالوا ما قالوا، ولما كان القرآن الكريم حجة في البلاغة لأنه عربي الأسلوب، ومن شأن العربية الإيجاز، فاكتمى بما قاله الملائكة، لأن الآية لو ذكرت إني جاعل في الأرض بشراً يفسدون ويسفكون، قالوا كيف تجعل في الأرض من يفسد ويسفك كان في الآية تكرار لا حاجة له، ويستدل ابن جرير لما ذهب إليه بكثير من أقوال العرب، وذهب بعض العلماء، إلى أن الملائكة إنما عرفوا ذلك بشفافيتهم، وقال آخرون: عرفوا ذلك من اللوح المحفوظ. قال العلامة الألوسي صاحب «روح المعاني» -رحمه الله-: «وحكم الملائكة على بعض هاتيك الوجوه ليس من ادعاء علم الغيب أو الحكم بالظن والتخمين، ولكن بإخبار من الله تعالى ولم يقص علينا فيما حكى عنهم اكتفاء بدلالة الجواب عليه بالإيجاز كما هو عادة القرآن الكريم، ويؤيد ذلك ما روي في بعض الآثار أنه لما قال الله تعالى ذلك قالوا: ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وقيل: عرفوا ذلك من اللوح ويبعده عدم علم الجواب، ويحتاج الجواب إلى

تكلف، وقيل: عرفوه استنباطاً عما ركز في عقولهم من عدم عصمة غيرهم المفضي إلى العلم بصدور المعصية عمن عداهم المفضي إلى التنازع والتشاجر إذ من لا يرحم نفسه لا يرحم غيره، وذلك يفضي إلى الفساد وسفك الدماء، وقيل: قياساً لأحد الثقلين على الآخر بجامع اشتراكهما في عدم العصمة ولا يخفى ما في القولين، ويحتمل أنهم علموا ذلك من تسميته خليفة لأن الخلافة تقتضي الإصلاح وقهر المستخلف عليه.

### ثاني عشر: هل البشر جميعاً من أب واحد..؟!

مما استقر في أذهان الناس (وهو بدهي وهذا ما ترشد إليه الآيات والسنة النبوية مثل «كلكم لآدم وآدم من تراب»<sup>(١)</sup> «إن أباكم واحد»<sup>(٢)</sup>)، أن البشر جميعاً إخوة ينتسبون إلى أب واحد هو آدم -عليه السلام-، ومع هذه البدهية، فبعض الناس كثير الشطحات وقد تقدّم قول المعري:

وما آدم في مذهب العقل واحدٌ ولكنّه عند القياس أودامٌ

وإذا كان مثل هذا القول مستغرباً حينما يصدر عن شاعرٍ أو فيلسوف، فإن الغرابة تكون أشدّ حينما يصدر عن أحد علماء الإسلام الذين كان لهم بصمات في التجديد والدعوة الصالحة إلى الله سبحانه وتعالى، ورد الشبهات عن الدين، وأعني به العلامة الإمام «الشيخ محمد عبده» رحمه الله رحمة واسعة، فعند تفسير الآية الأولى من سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّوْا خَلْقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١] يعرض إلى هذه القضية، فيطيل القول فيها وخلاصة ما ذهب إليه: أن الآية لا تدل على أن النفس الواحدة المقصود بها آدم، ويحاول أن يستدل إلى ما ذهب إليه بأوجه كثيرة لا تسلم كلها من مناقشة واعتراض بل لا يسلم له واحدٌ منها: فمنها على سبيل المثال أنه قد يقصد بالناس أهل مكة أو العرب كما يستدل بتشكيك كلمة «نفس» وبقوله سبحانه ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، ويستدل كذلك باختلاف الناس جنساً ولوناً.

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» ٣٣١/٤ حديث رقم ٥١١٦ - موسوعة الحاسوب.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤١١/٥.

ويعقب صاحب المنار الشيخ رشيد بما يفهم منه القارىء موافقته لما قاله الشيخ محمد عبده، وسأنقل هنا تعقيب الشيخ رشيد رضا مكتفياً به عن ما ذكره الشيخ محمد عبده لطوله، فقول الشيخ رشيد على إيجازه يكتفى به عن نقل أقوال الشيخ محمد عبده، والمسألة في أول سورة النساء كما قلت يراجعها من شاء. قال صاحب المنار:

«ثم إن ما ذهب إليه الأستاذ الإمام يرد الشبهات التي ترد في هذا المقام ولكنه لا يمنع المعتقدين أن آدم هو أبو البشر كلهم من اعتقادهم هذا لأنه لا يقول إن القرآن ينفي هذا الاعتقاد وإنما يقول إنه لا يثبت إثباتاً قطعياً لا يحتمل التأويل، وقد صرحنا بهذا لأن بعض الناس كان فهم من درسه أنه يقول: إن القرآن ينفي هذا الاعتقاد أي الاعتقاد أن آدم أبو البشر كلهم، وهو لم يقل هذا تصريحاً ولا تلميحاً. وإنما بين أن ثبوت ما يقوله الباحثون في العلوم وآثار البشر وعادياتهم والحيوانات من أن للبشر عدة أصول ومن كون آدم ليس أباً لهم كلهم في جميع الأرض قديماً وحديثاً - كل هذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه ويمكن لمن ثبت عنده أن يكون مسلماً مؤمناً بالقرآن، بل له حينئذ أن يقول لو كان القرآن من عند محمد ﷺ لما خلا من نص قاطع يؤيد الاعتقاد الشائع عن أهل الكتاب في ذلك ولكنه وهو من عند الله جاء في ذلك بما لا تستطيع اليهود أن تعارضه من قبل بدعوى مخالفته لكتبهم ولم يستطع الباحثون أن يعارضوه من بعد لمخالفته ما ثبت عندهم وليت شعري ماذا يقول الذين يذهبون إلى أن المسألة قطعية بنص القرآن فيمن يوقن بدلائل قامت عنده بأن البشر من عدة أصول؟ هل يقولون إذا أراد أن يكون مسلماً وتعذر عليه ترك يقينه في المسألة: أنه لا يصح إيمانه ولا يقبل إسلامه وإن أيقن بأن القرآن كلام الله وأنه لا نص فيه يعارض يقينه؟»

هذا وأن المتبادر من لفظ النفس بصرف النظر عن الروايات والتقاليد المسلمات أنها هي الماهية أو الحقيقة التي كان بها الإنسان هو هذا الكائن الممتاز على غيره من الكائنات أي خلقكم من جنس واحد وحقيقة واحدة ولا فرق في هذا بين أن تكون هذه الحقيقة بُدِئَتْ بآدم كما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين أو بُدِئَتْ بغيره وانقرضوا كما قاله

أهل الشيعة والصوفية أو بدئت بعدة أصول انبث منها عدة أصناف كما عليه بعض الباحثين ولا بين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر<sup>(١)</sup>.

وكنتم أتمنى والله أن لا تصدر هذه الأقوال عن الشيخين الجليلين العالمين الفاضلين، اللذين أحسن الظن بهما، ولا ينبغي أن ينكر أحد ما قدماه من خير للإسلام والمسلمين.

### تأويل الشيخ محمد عبده لقصة آدم عليه السلام:

على أن للشيخ في الحديث عن آدم وخبره في القرآن الكريم أموراً كنا نود أن لا تصدر عنه، فقد ذهب مذهباً عجباً في تأويل الآيات في سورة البقرة، قال رحمه الله: «وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب -مذهب الخلف- هكذا: إن أخبار الملائكة هو عبارة عن تهيئة الأرض... لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها. وسؤال الملائكة عن جعل خليفة هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك. وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه في استعمالها. وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنه، وتصلُّهم في الجواب، تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدداً لا يتعدى وظيفته، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى، ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر ويصح أن يراد بالجنة الراحة والنعيم... وبآدم نوع الإنسان... ولسكنى الجنة والهبوط منها أمر التكوين... والمعنى على هذا أن الله تبارك وتعالى كون النوع البشري على ما نشاهد في الأطوار التدريجية التي قال سبحانه ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فأولها طور الطفولة، وهذا معنى قوله ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الآدمي، للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشئون البشرية، فأمر آدم وحواء بالسكنى أمر تكوين.

أي أنه تعالى خلق البشر ذكوراً وإناثاً وأمرهما بالأكل حيث شاء، عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير. والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر. وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني، وهو طور التمييز، هما المراد بقوله تعالى ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ووسوسة الشيطان وإذلاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة، التي تلبس النفوس البشرية، فتقوي فيها داعية الشر. أي أن إلهام التقوى والخير، أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ولذلك لا يفعل الشر إلا بملازمة الشيطان له ووسوسته إليه. والخروج من الجنة، مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الاعتدال الفطري.

وأما تلقي آدم الكلمات وتوبته، فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة، من الإعتبارات بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة، ورجوعه إلى الله عند الضيق والتجاؤه إليه في الشدة. وتوبة الله تعالى عليه، عبارة عن هدايته إلى المخرج من الضيق، والتفلت من شرك بعد ذلك الاعتبار والالتجاء. . . . فحاصل القول أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة: طور الطفولة وهو طور نعيم وراحة، وطور التمييز الناقص، وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان. وطور الرشد والاستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ويلتجئ فيه عند الشدة إلى القوة الغيبية العليا، التي منها كل شيء، وإليها يرجع الأمر كله، فهكذا كان الإنسان في أفرادهِ مثلاً للإنسان في مجموعهِ. . . . وبقي طور آخر أعلى من هذه الأطوار وهو منتهى الكمال وأعني به طور الدين الإلهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الإنسانية<sup>(١)</sup>.

هذا ملخص ما ذكره الإمام في تفسير قصة آدم. ولقد شعر -رحمه الله- بأن تفسيره هذا سيثير عليه الكثيرين. فبدأ يدافع عن نفسه، كما دافع عنه صاحب المنار، ونقل مقالة كتبها الإمام بيده يبين فيها أنه لم ينكر وجود الملائكة، ولم يقل إنهم قوى غير عاقلة

---

(١) تفسير المنار ج ١/ ٢٨١-٢٨٤، الطبعة الأولى.

وإنما قصد التقريب لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالدين، ثم ينعى في آخر كلمة على هؤلاء الذين ظنوا به سوءاً، وحملوا كلامه على غير محمله وهو أعرف منهم بالله وأرسخ منهم إيماناً.

### مناقشة هذا التأويل :

هذا أسلوب في التهجم ما كنا نرضاه من الإمام -رحمه الله-، وأنا أحسن الظن به ولا أقول إنه ينكر وجود الملائكة، ولكن ليس معنى هذا أن يسلم له ما جاء به من هذا التأويل.

ولقد أراد الإمام أن يقرب البعيدين عن الدين؛ ولكنه -رحمه الله- نسي أنه بعمله هذا يقرب المتدينين من غيرهم كما قال الشيخ مصطفى صبري -رحمه الله-، ولقد قدم الإمام تنازلات كثيرة حينما فتح باب التأويل، هذه التنازلات رأينا لها أسوأ الأثر فيما بعد، وبخاصة عند هؤلاء الذين لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم بينما يعجبك قولهم في الحياة الدنيا.

كنا نود من الإمام -رحمه الله- أن يكتفي بما قاله السلف والخلف، في تفسير تلك الآيات. وألا يشتط في التأويل، وهو أعلم بسنن الله من كثير من الناس من مثل قول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَنَّا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْوَقْ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] إن هذه الآيات التي أولها الإمام لا تحتمل هذا التأويل. وكما هي قطعية في ثبوتها فهي قطعية في دلالتها كذلك. نعم إن قطعية الدلالة. وإن لم تستفد من اللفظ نفسه، لكنها هنا تستفاد من أمر آخر وهو ذكرها أكثر من مرة فلقد ذكرت هذه القصة في القرآن الكريم مرات عديدة، كما ذكر أكثر منها لفظ الملائكة. وقول الإمام بأن مجموع ما ورد في الملائكة، فيه إيماء للخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، لا نرضاه منه ولا نسلمه له، ذلك أن عبارات القرآن غاية في الوضوح، بحيث يكون الخروج عن ظاهر معناها ذهاباً إلى الرمزية والإشارات الخفية

التي يستنكرها أمثال الإمام. وإذا كانت أخبار الملائكة في القرآن يمكن أن يفهم منها ما هو أدق من عباراتها، فجائز أن يقال ذلك كذلك في آيات البعث ومعجزات الأنبياء وغير ذلك من الآيات.

وقوله بأن الذي لا يقول بالتوقيف يسميها قوى طبيعية، وبأن الحقيقة واحدة وبأنه يحظى بما يحظى به المؤمنون قول خطير عجيب، وأعجب منه أن يصدر من الأستاذ الإمام.

إن ألفاظ القرآن عربية واضحة محددة المفاهيم. وتعم الفوضى حينما تفقد الألفاظ مفاهيمها ودلالاتها، وهناك تفقد الحقيقة كل قيمة، وتعيش الإنسانية عيشة تعاسة وشقاء، كما رأينا عند السفسطائيين لذا كان أول عمل قال به سقراط هو تحديد مفاهيم الألفاظ، وعند الفرق الباطنية المخربة. ولقد رأينا أن الإسلام مع كونه لا يعتبر الشكليات إلا أنه راعى تماماً مفاهيم اللفظ ﴿كَتَبْتُ فُصِّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣] وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال لأحد الصحابة، وهو البراء بن عازب وهو يعلمه دعاء النوم، «أمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت» فقال البراء ورسولك الذي أرسلت فقال النبي الكريم ﷺ قل ونبيك الذي أرسلت»<sup>(١)</sup> وهذه ليست أخطر مما نحن بصددده. إذا أجزنا أن نسمي الملائكة قوى طبيعية فإن من الممكن أن يقول قائل «أنا لا أو من بأن الله هو الخالق كما تسمونه وإنما أسميه الطبيعة، ولا أسمى رسولكم نبياً إنما أسميه عبقرياً أو فيلسوفاً»، وهذا باب إن فتح فلن تكون منه إلا معاول الهدم لهذا الدين.

ويستحيل كذلك أن نسمي الخواطر الحسان ملائكة. والتمثيل الذي أورده الإمام في القصة، فضلاً على أنه يفتح أبواب التأويل للذين في قلوبهم مرض وعلى الرغم مما في الكثير منه من تكلف ظاهر، فإنه مخالف صراحة لكثير من النصوص وعلى سبيل المثال:

---

(١) أخرجه البخاري ٩٧/١ رقم ٢٤٤ / موسوعة الحاسوب.

تمثيله سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس، بتسخير القوى الطبيعية وتحكم الإنسان فيها، إلا الشر الذي لزم في هذا العالم لزاً. مع أن سجود الملائكة ذكر كثيراً في القرآن وفي بعض الآيات تحديد لهوية إبليس بأنه من الجن. وهذه المحاورات الكثيرة في القرآن تنفي هذا التمثيل. وكون المقصود من آدم النوع البشري ومن الجنة الراحة والنعيم ينفيه مثل قول الله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ آدَمَ لَا يَفْنَىٰكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

لقد عدّ الكتاب والسنة الإيمان بالملائكة ركناً من أركان الإيمان، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِٖ أَكْثَرُ غَافِلًا ۚ ذَٰلِكَ الَّذِي يُضَاهِي رَبَّهُ حِينَ مَنَاجَىٰ ۖ فَخَلَعَٰهُ عَنْ عِمَامَتِهِ لِيُتَكَبَّرَ ۚ فَتُجَنَّبُ يَأْمُنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْكَتَابُ وَالنَّبِيُّنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وفي مثل قول الرسول ﷺ رداً على سؤال جبريل: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»<sup>(١)</sup>. ولقد ورد في القرآن قول الله: ﴿مَلَائِكَةُ غَلاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦] ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٦]، ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِّنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وفي السنة المطهرة عن تعاقب الملائكة بالليل والنهار. والنصوص أكثر من أن تحصى وكلها لا تساعد، بل لا تسمح بأن يطلق على الملائكة معنى القوى الطبيعية.

كما لا تسمح أن يحظى منكر الملائكة ولو للتسمية فقط، بما يحظى به المسلمون فضلاً على المؤمنين، ولقد كان جبريل -عليه السلام- يتمثل أحياناً بصفة إنسان -كما مر في الحديث السابق- وكان رسول الله ﷺ يراه أحياناً في صورته الحقيقية<sup>(٢)</sup>.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان ج ١، ص ١٥٠.

(٢) وينبغي أن أؤكد هنا أن الشيخ -رحمه الله- لا ينكر وجود الملائكة، كما فهم كثير من الناس، كيف والإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان، فلقد تحدث الشيخ عن وجود الملائكة في أكثر من كتاب، ولكنه في هذه الآيات الكريمة -سامحه الله- جعل ذلك من باب التمثيل، لما في الآيات من حوار بين الله والملائكة، وبإلهيته لم يفعل!!.



ولا أود أن استرسل، فلقد كان تأويل الاستاذ بدعا من التأويل لما فيه من الخروج  
البين عن ظاهر الألفاظ، وكان من الخير أن يقف عند هذه الحدود، وأن يستخرج العبر  
الكثيرة من الآيات، بغير هذا المسلك الذي ينم عن مدى تأثير الأستاذ بالحضارة الغربية  
التي لا تؤمن إلا بما هو في دائرة الحسن.

إن المتدبر لأي القرآن الكريم في مواضع كثيرة لا يرتاب في أن النفس الواحدة إنما  
هي آدم -ﷺ- وتأکید القرآن الكريم هذه القضية وقد ذكرها في مواضع كثيرة يدلنا على  
أنها قطعية الدلالة كما أنها قطعية الثبوت؛ ففضلاً على الآيات التي ذكرت في قصة آدم  
عليه السلام في أكثر من سورة يقرر القرآن هذه القضية في سورة النساء في الآيات الأولى  
منها، وفي سورة الأعراف ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾  
[الأعراف: ١٨٩] وفي سورة الزمر ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾  
[الزمر: ٦] وفي سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾  
[الحجرات: ١٣] هذا فضلاً على ما جاء في السنة الشريفة من أحاديث كثيرة لا يرتاب  
في صحتها.

على أن هناك قضية أخرى لا تقل خطورة تفهم من كلام صاحب المنار وهي قوله:  
«... ولا بين أن تكون هذه الأصول أو الأصل مما ارتقى عن بعض الحيوانات  
أو خلق مستقلاً على ما عليه الخلاف بين الناس في هذا العصر» وكأن الشيخ يشير هنا  
إلى «نظرية داروين» التي شغلت الناس في عصره، وهذا سنتحدث عنه فيما يلي:

### ثالث عشر: نظرية دارون:

لقد كان للنظريات الوافدة من الغرب أثر لا ينكر على كثير من المسلمين وخاصة  
المثقفين منهم، ولقد بدأ هذا الأثر يتلاشى شيئاً فشيئاً، تخفّ حدته، وتخلّق جدته،  
ويفقد زخمه وبريقه في النصف الثاني من هذا القرن، لأسباب كثيرة لا مجال لشرحها  
الآن، ومن هذه النظريات الوافدة «نظرية داروين» التي دار عليها الزمن، فأمست طلالاً

دارسا، فَقَدْ نُضِرَتْهُ، وعوداً يابساً فقد رواءه وخضرته، وقد باطلها كثير من أسباطين الغرب والشرق، ولما كان لكل جديد بهرجه، وجدنا من فتن بهذه النظرية أو يقال: وجدنا من يحاول التوفيق بينها وبين الآي المحكم من كتاب الله، وشتان شتان. ونستذكر هنا ما نقلته عن صاحب المنار وهو قريب عهده.

### رأي الشيخ عبد الوهاب النجار في النظرية:

وهناك عالم آخر غير صاحب المنار له فضله ومنزلته وهو «الشيخ عبد الوهاب النجار» صاحب «قصص الأنبياء» رحمه الله تعالى، حيث يعرض في كتابه -الذي كان خير ما كتب في موضوعه في وقته- شيئاً عن هذه النظرية، وليته لم يعرض، بل ليته كان أكثر حزمًا وأقوى شكيمةً في تنفيذها والردّ عليها، مبيناً أنه لا يمكن أن يجمع بينها وبين القرآن الكريم، وأنها لن ترقى إلى حقائق العلم، كي نُؤول آي القرآن من أجلها. يقول رحمه الله: «ظهر رأي في البلاد الأوروبية وقبله كثير من علمائهم: وهو أن الإنسان أصله قرد ترقى بسبب عوامل مجهولة حتى صار هذا الإنسان. وذلك يبطل أن يكون أصل الإنسان آدم، فما الرأي؟

والجواب أن النظرية لم تزل موضع بحث، للأخذ والرد فيها مجال، ولها أنصار مؤيدون، كما أنّ لها خصوماً يبطلونها. وعندنا القرآن الكريم يدل بنصوصه الظاهرة على أن أصل الإنسان آدم، ولم يكن قرداً تحول، ولا شيئاً آخر ترقى وهو الثقة، فإذا وصل أصحاب النظرية إلى الأدلة القاطعة التي تجعل هذه القضية بديهية تساوي في بدايتها «كل عدد زوجي ينقسم إلى قسمين متساويين» كان لزاماً علينا أن نُؤول القرآن ليوافق الواقع كما هي القاعده القائلة: إن القرآن يؤخذ على ظاهره بدون تأويل إلا إذا منع من ذلك مانع فيعمد إلى تأويله.

فالدين الذي يعتمد على العقل في إقامة براهينه وبسط حججه، لا يمكن أن يجانب العقل وينافيه، فإذا أثبت العلماء نظرياتهم إثباتاً قاطعاً وجب علينا أن نُؤول ظاهر القرآن تأويلاً يتفق مع ما أثبتته العلم وقطع العقل بأنه الحق الذي لا محيص عنه».

ورحم الله الشيخ، وسامحه وعفا عنه، فالقرآن الكريم قطعي الثبوت وهذا يعرفه الشيخ أكثر منا، ولكنّه قد يكون قطعي الدلالة، ومن المواضع التي يكون فيها كذلك، ذكره القضية مراتٍ كثيرة، بحيث لا يجوز تأويلها، ثم إنّ «نظرية داروين» مخالفة مخالفة تامة، لما أقرّه القرآن من حقائق، يجعل من المحال تأويل آي القرآن ليتفق مع نظرية كانت نهايتها أنها قولٌ لا مضمون له. كنت أتمنى أن لا يتنازل الشيخ هذا التنازل، لكنها الفتنة، فتنة الضعفاء للأقوياء.

### رأي عبد الكريم الخطيب في نظرية دارون:

وإن تعجب فعجب قول كاتب آخر له مؤلفات كثيرة، هو الأستاذ عبد الكريم الخطيب -رحمه الله-، فلقد ضل الطريق وهو يتحدث في كتابه القصص القرآني، منهجاً واستنباطاً، وأنقل هنا ما قاله ليطلع عليه القارىء.

يقول: «وبلغة العلم الحديث: يكون الطين، فالصلصال، فالحمأ المسنون -وهو الطين المتعفن- ثلاثة أطوار تنقلت فيها بذرة الحياة، وإن هذا التعفن الذي أصاب الطين هو بشائر الحياة، إذ هو البكتيريا التي نضجت فيها خمائر الحياة، وظهرت بها جرثومتها»<sup>(١)</sup>.

وهذا القول لم يحالف الكاتب فيه التوفيق، فهو ضل أولاً في فهم الآية الكريمة، فقد جعل المراتب ثلاثة مُرتبةً هكذا: الطين، فالصلصال، فالحمأ المسنون، والمتدبر للآية الكريمة يجد هذا غير صحيح، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] فالذي ترشد إليه الآية الكريمة أن المراتب هكذا: الطين أولاً فالحمأ المسنون ثانياً، فالصلصال ثالثاً. إذن المرحلة الأولى هي الطين، والمرحلة الثانية الحمأ المسنون، والمرحلة الأخيرة الصلصال ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦] وعجباً للكاتب سامحه الله كيف أخطأ هذا الترتيب في فهم الآية.

---

(١) ص (٤٠٤).

وقوله: «إن هذا التعفن هو بشائر...» ليس فيه للعلم نصيب، وليس فيه للحق موضع، أي بكتيريا هذه التي يتحدث عنها؟!

ثم استمع إليه وهو يدعي أن داروين كان من كبار المؤمنين. يقول:

«على أن مقولات داروين التي أنكرها علماء الدين واضطربوا من أجلها، وهاجوا وماجوا إنما تقوم على علم وتجربة، وقد يكون فيها قليل من الخطأ في الاستنتاج، ولكن الذي ينبغي أن يكون عليه موقف العقل إزاءها هو الاحترام لها، والتقدير للجهد الذي بذل فيها، وما دامت ترجع إلى التجربة وتحتكم إلى منطق العقل، فإن كل عقل مدعو إلى الوقوف عندها والنظر فيها، وأخذ ما يطمئن إليه منها... أما صدّ العقل عنها وفراجه من بين يديها فذلك إزراء بالعقل، وامتهان له، وتعطيل لوظيفته التي خلق لها، وخروج على دعوة القرآن التي دعاه إليها.

وداروين الذي أثار هذا الإعصار العاصف في عقول رجال الدين... -من كل دين- لم يكن منكراً لله بل إنه فيما أرى من أشد الناس إيماناً به وشهدواً لله في آياته التي رآها رأي العين فيما أبدع الخالق وصور...<sup>(١)</sup>.

«... ولعل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] لعل في هذا ما يشعر بهذا المعنى الذي ذهبنا إليه، وهو أن الإنسان لم يجرى من الطين مباشرة، وإنما كان ذلك بعد سلسلة من التطورات وبعد عمليات طويلة من التصفية والانتخاب، انتهت بظهور الإنسان على تلك الصورة التي انفصل بها عن جميع الأحياء، وكان أهلاً لتلقي النفخة الإلهية يوم مولده، وكأنها التاج الذي توج به ملكاً على العالم الأرضي كله»<sup>(٢)</sup>.

لقد أسرف الكاتب كثيراً: سواء أكان هذا الإسراف في الانحراف بالآيات الكريمة عن مسارها بهذه التأويلات البعيدة، أم كان في موقفه من داروين ونظريته،

(١) ص (٤٠٨).

(٢) ص (٤١٤).

فنظرية داروين لم تكن تعتمد على التجربة وتحكيم العقل - كما يقول - وداروين لم يكن من كبار المؤمنين بالله ، وهذا أمر لا يعنينا كثيراً ، بقدر ما يعنينا هذا الكتاب الكريم الذي أنزله الله ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨] . فالقول إن البكتيريا هي أول ما خلق ، وعنهما نشأت الأميبا ، ثم تطورت إلى ذوات الخلايا المتعددة مروراً بالأجناس المختلفة ، أخذاً من كلمة سلالة في قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢] ، انحراف عن جميع قوانين التأويل ، فكلمة سلالة ، لا تُحمّل هذا الذي ذهب إليه الكاتب ، إنها قطعة من الطين - كما مر معنا من قبل - .

### ما ذهب إليه مصطفى محمود:

وما ذهب إليه الكاتب يلتقي فيه تماماً مع ما ذهب إليه مصطفى محمود ، إلا أن الثاني كان أكثر جرأة على الانحراف الباطل ، وادعاء الأستاذ عبد الكريم الخطيب بأن الجاحظ وغيره سبق إلى تقرير هذه النظرية ، لا أساس له ولا ندري من أين جاء به ؟!

على أننا إذا كنا نحسن الظن بالأستاذ الخطيب راجين الله أن يغفر له ، فما عرف للرجل حرفة باطلة أو نحلة فاسدة ، أما الدكتور مصطفى محمود فهو بهائي كما تذكر الدكتورة بنت الشاطيء -رحمها الله- ، حيث ذهب مذهباً عجباً وهو يتحدث عن آدم ﷺ لا يستند إلى أثارة من علم ، فقله ليس اجتهداً ، إن أخطأ صاحبه فله أجر ، بل هو أضغاث لا يسلكها عقل . يقول في كتابه محاولة لفهم عصري للقرآن :

«إن الله حينما خلق آدم في الجنة وأمر الملائكة أن يسجدوا فسجدوا إلا إبليس أراد إبليس أن يغوي آدم فلما أكل من الشجرة رده الله إلى مستنقعات الطين وبدأ هناك رحلة طويلة من الأميبا إلى الإسفنج إلى الحيوانات الرخوية<sup>(١)</sup> إلى الحيوانات القشرية إلى الفقريات إلى الأسماك إلى الزواحف إلى الطيور إلى الثدييات إلى أعلى رتبة آدمية

(١) يقول الدكتور مصطفى في كتابه «ولا يسعنا أن ننسى أن هنا وشائج قري بيننا وبين أجدادنا -أجداده هو- الحمير» .

بفضل الله وهديه وإرشاده، ولقد استمرت تلك الرحلة خمسة آلاف مليون سنة، وعاد آدم من جديد، على هذه الأرض كآدم الذي كان من قبل في الجنة. إذاً هناك آدمان: آدم الصورة والمثال: وهو الذي كان في الجنة فعصى ربه، وآدم الأرض: وهو الذي مر بتلك المراحل كلها».

ولم يحدثنا المؤلف عن حواء أمرت بما مر آدم كذلك. وقد حشد لهذا القول كثيراً من النصوص، جاء بها لتوافق ما قرره.

ومن هذه النصوص قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٤-٥]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] هذه بعض نصوص استشهد بها المؤلف مستدلاً على ما ذهب إليه ومعلنناً أن لنا وجوداً سابقاً على وجودنا.

أما الشجرة فيرى أنها «رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا»<sup>(١)</sup>، وأكرر هنا أن النظرية التي جعلها أصلاً ليطابق القرآن إنما هي نظرية أبي العلم أن يمنحها هويته، لتدخل في نطاقه، والآيات التي ذكرها حينما نعلم النظر فيها نجدها بعيدة عن المعنى الذي أراده وقصده.

فالآية الأولى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يرى كثير من المفسرين أن التراخي فيها تراخٍ رتبى لا زمني، والتراخي في الرتبة من الأساليب التي لا يستطيع أحد أن ينكرها، حتى إذا عد هذا التراخي زمنياً فإننا لا نملك أن نسير مع المؤلف أو أن نوافقه ونسكت عليه،

(١) كتاب «محاولة لفهم عصري للقرآن» للدكتور مصطفى محمود ص ٦٢.

حينما ذكر أن آدم مر بهذه الأزمنة الطويلة إلى أن تكامل خلقه. ولا يلزم من حرف التراخي أياماً أو ساعات. وفي القرآن شواهد كثيرة لهذا، وهذه حقائق لا يجوز أن ننحرف بها انحرافاً يخرجها عن مدارها الثابت.

وأما الآية الثانية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. فلقد تجاهل المؤلف ما جاء عقبها ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦] فالمقصود بالإنسان هنا جنسه. هذا النوع الإنساني، سواء أكان الاستثناء منقطعاً أم متصلاً، فإن الآية لا تساعد على ما أراد، وتنفر من تأويله الذي ذهب إليه، وللمفسرين في الآية أقوال وجيهة، يرى بعضهم: أن معنى ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] أي «الهرم» الذي يدرك بعض الناس مثل قول الله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠] ويكون معنى الآية. ثم رددناه إلى تلك الحالة التي تغير فيها شكله وقوامه ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن لهم من الأجر في حال هرمهم مثل الذي كان لهم في حال الشباب والقوة فيكون الاستثناء متصلاً ويكون الذين آمنوا ممن ردوا إلى أسفل سافلين، إذا أدركهم الهرم. ويرى بعضهم «أن أسفل سافلين» إنما هي الدرجات من العذاب يوم القيامة. فيكون المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ولكننا رددناه لما كفر وأعرض، ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر عظيم، فليسوا ممن ردّ إلى تلك الدرجات، ويكون الاستثناء منقطعاً. وعلى كل حال فإن تأويل أسفل سافلين بالأميّا فما بعدها تأباه الآية سياقاً ونصاً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] فإن هذا الإجمال في الآية، بينته وفصلته آية أخرى هي آية «المؤمنون» ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. وآيات كثيرة فصلت هذا الإجمال مثل آية الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ

فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ... الآية ﴿[الحج: ٥]﴾. فلا يعقل أن تكون الأطوار هذه، ما ذكره المؤلف مع وجود هذا البيان والتفصيل في كتاب الله.

بقي أن يقال: إن قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨] لا يساعد على ذلك التأويل الذي ذهب إليه، لأن المماثلة التي قال إنها وشيعة من وشائج القربى. مماثلة في غير ما ذهب إليه، فتلك مخلوقات لها طبائعها وأنظمتها والظروف الملائمة لها. فهناك صلات قوية بين هذه المخلوقات في أسس الحاجة والتنظيم، وليست إذن وشيعة قبرى.

أما وجودنا الروحي الذي تحدث عنه واستدل له بآية الأعراف، فأمر لا نسلمه له، ذلك لأن الآية تقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ولم تقل من آدم نفسه، ولهذا إشارة إلى ما زود به الإنسان من الفطرة السليمة كما ذهب إليه أكثر أئمة التفسير، ولو كان لنا وجود سابق على وجودنا هذا لتذكرناه أو تذكرنا بعضه لأن وجودنا اللاحق سوف لا ينسينا وجودنا الدنيوي، كما نص القرآن الكريم نفسه، فإننا في الآخرة سوف لا ننسى هذا الوجود الدنيوي.

أما آية آل عمران فإن قصارى ما تفيده: أن الله أخذ الميثاق على النبيين حينما أرسلهم إلى أقوامهم ليبشروا بهذا النبي الكريم ﷺ ويؤمنوا به.

وأما آية الأنعام، وهي قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] فإنه عليه الصلاة والسلام أول مسلمي هذه الأمة، ولا داعي أن نغرب في التأويل، ونغرق في البعد عن ظاهر الآيات المحكمات.

بقيت كلمة أخيرة في هذا الموضوع، وهي أن تأويله للشجرة، بأنها رمز للجنس لا أخال مفهوم الزوجية نفسه يعينه على هذا التأويل، فالله يقول: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] فما معنى أن يكون المقصود من الشجرة



«اللقاء الجنسي» بعد أن كانت زوجا له بنص القرآن ؟!

ومن أعجب ما استنتجه المؤلف هنا أن القرآن خاطب آدم وحواء بألف التثنية قبل الأكل من الشجرة فقال «فكلا» وخاطبهما بواو الجماعة بعد الأكل -يعني به اهبطوا-<sup>(١)</sup> «لأن اللقاء الجنسي -وهو الأكل من الشجرة- أدى إلى التكاثر» فهم عجيب والله !!، وأعجب منه أن يقبله من عرف لغة القرآن وتذوق أساليب العربية !! .

ولقد كنا نود من المؤلف أن يقتصر على كلمته الأخيرة في الشجرة، وهي أنها من أمور الغيب ومن المبهمات التي لو علم الله في بيانها خيراً لنا لبينها، ونقول للمؤلف: إن ألف التثنية كانت لآدم وحواء، وأما واو الجماعة فلهما ولإبليس، بدليل قوله تعالى في الآية نفسها ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] وليت المؤلف كان يقف عند كل آية ليصل نهايتها ببدايتها وآخرها بأولها، وليته كذلك كان يسترشد بهذا القرآن، وعقله ونفسه خاليان من كل نظرية تؤثر عليه في مسيرة فهمه للآيات الكريمة، لكنه لم يفعل !!

إن قصة آدم عليه وعلى نبيينا ومن بينهما من الأنبياء صلوات الله وسلامه -كما بينها القرآن دون تمحل أو تكلف- بينة الأهداف، واضحة المقصد والغاية، إنها قصة آدم واحد لا آدمين، إنه هو الذي أسكنه الله الجنة، وأهبطه إلى الأرض يستأنف حياة الإنسان بما فيها من جهد وكدح وراحة ونصب، فليس هناك آدم المثال وآدم الأرض. وحينما نستعرض آيات القرآن متدبرين، فإنه لا يسعنا إلا أن نقرر هذا.

لقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام -كما تقول الآيات- من عنصرين أحدهما: أرضي: وهو ذلك الطين الذي صار حمأً مسنوناً: فصلصاً كالصفار، وأما العنصر الآخر فهو الروح. وإذن فمن اللحظة الأولى التي تكامل فيه خلقه هيء بما يستلزمه هذان العنصران، وأعني هذه الاستعدادات الفطرية التي هي نتيجة لا بد منها، تستلزمها طبيعة هذين العنصرين.

---

(١) وقد بينت هذا من قبل وقلنا أن الأمر بالهبوط جاء تارة بصيغة الجمع، وجاء تارة بالتثنية وذكرنا سبب ذلك.

وها هو القرآن يحدثنا عن آدم في الجنة، وقد طمأنه الله بأن لا يخشى غائلة الجوع وحياة العري ومشقة الظمأ، وحرارة الضحوة، أفليست هذه كلها تستلزمها طبيعة الجسم الترابي والعنصر الأرضي!!، ثم هذا هو القرآن يحدثنا كذلك، عن هذه الاستعدادات الفطرية، والتي يطلق عليها بعض العلماء الغرائز، وهي: الجنس، وحب التملك، وحب البقاء، والتدين، ونقرأ قول الله تعالى: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، كل هذا يدلنا على الاستعداد الجنسي. أما الحرص على البقاء وحب التملك فيشير إليهما قول الله: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعَادُمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] وقال: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ نَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ نَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، أما التدين فيظهر في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

هذه هي الأمور الفطرية التي زود بها آدم في الجنة بعضها يستلزمه الجسم، وبعضها تستلزمه الروح. أفبعد هذا كله، يمكننا القول بأن هناك آدمين، آدم المثال، وآدم الأرض؟ وهل آدم هذا الذي تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، هو الذي أهبطه الله إلى الأرض سواء أكان هذا الإهباط مادياً أم رتبياً في أول ما تتطلبه الأرض وليس يتلاءم ويتناسب مع كرم الله، ولطف الله وحكمة الله أن يحوله بعد أن أعلن توبته من هذا الخلق السوي الذي سجد له الملائكة إلى الأميبا مروراً بالمراحل المختلفة التي تتنافى مع الإنسانية كل التنافي ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

هذا هو آدم في القرآن فإذا جاء بعد ذلك من يدعي، وقد بهرته النظريات، وأسرت عقله -أنه ينبغي أن تقول الآيات حتى لا تتنافى مع تلك المقررات فإننا نرفض قوله أياً كان.

ولشيخنا محمد محمد السماحي -رحمه الله- كلامٌ جيدٌ في تلخيص هذه النظرية والرد عليها . يقول رحمه الله .

١- يقول الداروينيون: إن علم التشريح المقارن للحيوانات وعلم الأجنة وعلم الحفريات -كلها تتوافق على أن الكائنات متدرجة في نموها من أصغر ذرة إلى الإنسان تدرجاً طبيعياً على حسب قانون الترقى وبقاء الأصلح وهذا دليل على أنها لا تحتاج لقدرة خالقه . فمثلاً ساقوا أدلة على أن الإنسان متطور عن جده القرد من الرئيسيات التي هي حلقة من حلقات التطور في الثدييات ، وقالوا لا يمكننا أن نفسر وجود تراكيب أثرية في الإنسان إلا إذا آمنا بنظرية التطور فمثلاً عضلات الأذن في الإنسان لا فائدة منها ولا وظيفة لها ولكنها تماثل العضلات الموجودة في الحيوانات التي تحرك آذانها كالكلاب والخيول لتلتقط الأصوات في الاتجاهات المختلفة ، وكذا الزائدة الدودية فهي عضو أثري في الإنسان لا فائدة له بل يجر عليه أضراراً بليغة ، ولكن هذه الزائدة توجد تامة لتكوين الحيوانات آكلة العشب ، بينما تكاد تختفي الزائدة الدودية من الحيوانات آكلة اللحم كالقط ، وكذلك توجد في الإنسان فقار عصبية في مؤخرة عموده الفقري ، وتشير إلى ذيل اختفى في الإنسان وإن كان المشاهد وجود أطفال يولدون ولهم ذيل يستأصله الأطباء بعملية جراحية .

٢- ويقولون إن الجنين في بطن أمه يأخذ الأطوار التي كانت عليها الأسلاف في الأزمنة الغابرة . فإذا كان الإنسان قد خلق خلقاً مستقلاً خاصاً فلماذا إذن نجد في جنينه خياشيم وفتحات خيشومية يندفع فيها الدم من قلب يشبه قلب الأسماك إلا إذا كان يحكي لنا علاقة أسلافه ويعيد لنا تاريخ نفسه وإلا إذا آمنا بأن التطور هو السبيل الذي سلكته هذه الحيوانات في ظهورها وانها والأسماك انحدرت من أصل واحد .

٣- ويقولون إنهم بدراسة الحفريات وجدوا أن أقدم الطبقات تحتوي على حفريات الكائنات البسيطة التركيب وكلما كانت الطبقة أحدث كانت الحفريات التي تحتويها

الكائنات أرقى وأقرب إلى الكائنات التي لا تزال حية حتى ظهرت أرقى الكائنات في العصر الحالي .

وجاء في تلخيص نظرياتهم ما يلي :

الحقيقة الأولى : تتولد الأحياء ببنية هندسية بالتكاثر .

الحقيقة الثانية : ومع ذلك يميل عدد الأفراد في نوع إلى أن يظل الزمن البعيد ثابتاً إلى حد ما .

استنتاج من الحقيقتين : التنافر بين الأفراد وبين الأنواع يقلل عددها .

هذا هو التنارع في سبيل البقاء .

الحقيقة الثالثة : جميع الأحياء تميل إلى أن تصبح مختلفة اختلافاً يذكر وليس ثمة حيان متشابهان كل التشابه ، وبعضها مختلف اختلافاً بينا حتى لو كانا من نوع واحد ومع أن هذه الاختلافات ليست جميعاً مما يورث فإن تجارب التربة تدل على أن بعضها يورث .

استنتاج من هذه الحقائق :

لما كان هناك تنارع في سبيل البقاء ، ولما كانت الأفراد ليست جميعها متشابهة ، فإن بعض وجوه الاختلاف تدوم لأنها تمنح صاحبها شيئاً من التفوق ، أما الضروب الضعيفة فتبيد وهذا هو الانتخاب الطبيعي .

النتيجة :

يستمر الانتخاب الطبيعي ماضياً من جيل إلى جيل فتجتمع فروق قليلة حتى تصبح في مجموعها فرقاً كبيراً ولهذا هو التطور .

هذه هي النظرية المادية في تكوين الأشياء وتدرجها من طور إلى طور، واشتقاقها إلى أنواع متفرقة مختلفة في النبات والحيوان لا تخضع إلا لقانون التطور القائم على تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي.

ثم يقول في رد هذه الشبهة :

«إن التشابه الذي اعتمدوا عليه والتطور في الجنين وعلم الحفريات والتشريح كل ذلك يؤيد القرآن وأنه لا يناقضه، فإذا كان المدبر هو الله تعالى وحده، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣]. ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ آلَهُنَّ أَتَدْرِي﴾ [الفتح: ٢٣]. إذا لقد خلق الله بطريقته الخاصة على وفق سنته التي أودعها في أرضه وسمائه في طريقة التكوين التي لا تتخلف إلا إذا أراد الله لها هذا التخلف ووجود هذه السنن مخالفة التأثيرات الطبيعية التي يقولون بها دليل أي دليل على إبطال دعواهم، وإلا فكيف تنتقل الحشرة من دودة إلى شرنقة إلى فراشة طائرة، وكيف يتكون الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث لا ينفذ منها النور ولا الصوت ولا الإحساس بما في الوجود يتكون في صورة خاصة صالحة له في الحياة بطباع خاصة وغرائر خاصة ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦] ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

انظر ما قاله العلماء في طبائع الحيوان في هجرته وغرائره يكون ذلك في الطيور والأسماك وغيرها. ألا يدل ذلك على مدبر عليم حكيم قدير؟

ولقد نظر العلماء أنفسهم إلى نظرية النشوء والارتقاء نظر المستريب لنتيجتها وعارضوها بأمثلة من واقع الحياة، نعرض عليك منها ما يأتي :

١ - «باستور» صاحب التجارب في الاختمار : سأله سائل كيف يا دكتور نستطيع أن نوفق بين استكشافاتك العلمية والتعاليم الدينية ؟

فأجابه قائلاً: اعلم بأن دروسي بدلاً من أن ترزعزع اعتقادي جعلتني في إيماني كالفلّاح البريطاني (مثل فرنسي يضرب لشدة الاستمساك).

٢- «هارفي» مستكشف دوران الدم في البدن قال: ما شرحت حيواناً إلا رأيت فيه شيئاً جديداً وأدلة جديدة على العناية الإلهية.

٣- الاستاذ «جولين» يقول: إن مذهب «لامارك» ومذهب داروين يستويان في القصور فإنهما لا يقران التحول من الحياة المائية إلى الحياة الأرضية ولا التحول من الحياة الأرضية إلى الحياة الهوائية. قال فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التي ليست له أولاً يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحول من صورة حيوان زاحف إلى عصفور؟ وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة؟ أما مسألة الحشرة فإنها أشد استحالة من ذلك. فهل هناك أية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة وبين الحشرة الكاملة التي تنقلب إليها؟ لأنّ الحشرة اعتادت الحياة الدودية تحت الأرض وفي المياه، فكيف تصل شيئاً فشيئاً إلى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية عنها بل مجهولة لها؟

وأما شبهة تكوين الإنسان وأنه متدرج من فصيلة الحيوانات الفقرية بدليل ما فيه من أعضاء أثرية وبالأخص من القرد الراقي بدليل تشابه كبير بينه وبين القردة حتى قال بعض العلماء: إن الدم الذي يجري في عروق الإنسان رغماً عن كونه مخالفاً للدم الذي يجري في عروق النوع المنحط من القردة، فإنه يشابه الدم الذي نجده في الراقي من نوع القردة. ولذلك حكموا بأنه متسلسل من النوع الراقي من القردة. فالرد على هذه الشبهة أنك أنت ذا ترى أن كل ما قالوه ليس فيه دليل واحد يحتم النتائج التي وصلوا إليها وإنما هي ظنون واحتمالات.

لكن إذا جاء خالق الكون وقال إنني خلقت الإنسان على وضع كذا وثبت قوله بالدليل القطعي الذي لا مرية فيه، وجب قبول قوله، لأن المسألة مسألة سماعية وليست عقلية،

والتشابه في الأعضاء أو الخلايا أو الشعر أو الدم متى ثبت أنها من خالق واحد مبدع، فإنها لا تدل على شيء أكثر من أن خالقها عملها على طريقته الخاصة به، وأنت تجد لدم الانسان أربع فصائل وهو جنس واحد إذا اتحدت الفصيلتان كان التوافق وإذا اختلفت الفصيلتان كان الاضطراب والقلق، وهذه القردة من جنس واحد وأرقاها مشتق من أذاها على ما يقولون وليست دماؤهما من فصيلة واحدة. إذا لا بد من اختلاف الفصائل على أنها من أنواع متفرقة كما لا يدل اتحادهما على أنها من نوع واحد متى ثبت أنها لصانع واحد. وقل مثل ذلك في عدد الأعضاء وتشابهها ونوع الشعر واتحاده وهكذا.

يقولون إن الأعضاء الصوتية في القردة الراقية تشابه التي في الإنسان لولا أن كيسيين غشائيين قائمين إلى جانب حنجرة القرد يعترضانه إذا هم بالكلام.

لكن إذا كان الأمر كذلك وقد تقدم الطب والجراحة فلم لا يعملون عملية جراحية للقردة تزيل هذين الكيسين حتى تصبح القردة إنساناً يتكلم.

إن ملكة الكلام قائمة بالنفس الإنسانية أولاً ثم بالتعبير عنها بحركة اللسان ثانياً، ومهما كانت قدرة الحيوان من الذكاء فهو ذكاء محدود بطبيعة غدده المخية لا يتجاوزها ألبتة إلى ما أعطيه الانسان من الذكاء وحسن التصرف.

وأخيراً نقول لهم ما قاله الله تعالى في محكم كتابه ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ [الكهف: ٥١] صدق الله العظيم.

ونختتم هذه الرسالة بما قاله: «أ. كريس موريسون» في مقدمة كتابه (العلم يدعو للإيمان) قال: لما ظهر «داروين» طرقت فكر الإنسان نظرية جديدة هي بقاء الأصح وتطور الإنسان وكانت دراسة «داروين» الشاملة والحقائق الكثيرة التي استشهد بها لتأييد نظريته تحمل الإقناع في طياتها وكانت البراهين التي كدسها والحقائق التي جاء بها خلفاؤه مؤيدة نظرية التطور حتى اليوم وقد وصلت بها إلى أبعد من تطبيقاته.

والآن انقضى أكثر من ثمانين عاماً على نظرية «داروين» وقد تقدم العلم تقدماً كبيراً، وبينما تقف نظرية داروين كالصخرة الثابتة التي لا تتزعزع قد تكشف لعالم الفلسفة كثير من الحقائق التي يمكن إيضاحها والتي تعمل فيها إلى نتائج حاسمة أخرى في حيز الإمكان.

فعلم الوراثة الحديث يقيم أسئلة تصعب الإجابة عنها والاكتشافات الأخرى تجعل من عمل «داروين» مجرد خطوة عظيمة في سير الفكرة الفلسفية إلى الأمام ودون إنقاص من دقة استنتاجاته أو عظمة دراسته.

لا يقدر الآن أحد أن يقول كما قال هيجل إنه لو أعطي ماء ومواد كيميائية ووقتاً كافياً لاستطاع أن يخلق انساناً.

وقد وصل بعض أتباع «داروين» باستدلالاته إلى حد الإلحاد المادي وحيال ذلك تطرف الآخرون أولئك الذين ألهموا الإيمان بوجود الخالق وأن هناك غاية في جميع المخلوقات فأنكروا نظرية التطور في كفاحهم للإلحاد.

والآن لا محل لاتخاذ مثل هذا الموقف سواء لأنصار فكرة التطور أو لذوي العقلية الدينية لأن العلم قد أوضح الآن حقائق تصل إلى إزالة تلك الخلافات الظاهرية وتنور الفريقين.

ومن عجب أن الاكتشافات الحديثة وفرص البحث اتسعت وقد بعثت النتائج التي وصل إليها الفلاسفة الطبيعيون والتي كانت قد حجبها نظريات «داروين» والحجج السليمة التي بينت تنظيم الإنسان للطبيعة يجب أن تتابع الآن ببحث جديد في دلائل تنظيم الطبيعة للإنسان وهو ما أغفل نسبياً في خلال الثمانين سنة الماضية. وغرضي من تأليف هذا الكتاب هو أن أسترعي انتباه المفكرين إلى الحقائق التي صار ممكناً إثباتها والتي ترمي إلى تأييد الاعتقاد بذلك التنظيم وتدلل على الغاية منها.



إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه باري الكون. واني لأورد قول «أوسبورن» في هذا المجال: بين جميع الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الكون يقف الإنسان في الطليعة وبين الأشياء التي لا يمكن إدراكها في الإنسان تتركز الصعوبة الكبرى فيما له من مخ وذكاء وذاكرة وآمال وقوة كشف وبحث وقدرة على تدليل العقبات»..

وأني لأعتقد أن من يقرأ هذا الموجز من الحقائق العلمية سوف ينتهي إلى الهوة السحيقة التي بين الذهن البشري المدهش وبين جميع الكائنات الحية الأخرى التي هي أقل تمتعاً على الإدراك مما فرض «أوسبورن». حين كتب ما كتبه.

إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم غير أن تحطيم ذرة التون - التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون - إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذب والكترونات طائرة قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلاً جوهرياً ولم يعد التناقص الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة.

وهذا ضوء يُلقي على الخفاء الواسع الذي يحيط الآن بما هو غير معروف لنا ظاهرياً وقد يقودنا هذا الضوء إلى الاعتراف بوجود عقل عام اسمى أي إلى وجود الخالق<sup>(١)</sup>.

إنه من غير الممكن أن نجد صلة بين ما جاء في القرآن الكريم، وبين ما يقول الداروينيون. وما أجمل وأسد ما قاله الاستاذ سيد قطب رحمه الله عند قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] يقول رحمه الله:

---

(١) انظر ص: ٤٥ وما بعدها من كتاب مذكرات في التفسير الموضوعي.

إن الخلق قد يكون معناه الإنشاء والتصوير قد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص، وهما مرتبتان في النشأة لا مرحلتان. فإن (ثم) قد لا تكون للترتيب الزمني، ولكن للترقي المعنوي. والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود. فالوجود يكون للمادة الخامة، ولكن التصوير -بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص- يكون درجة أرقى من درجات الوجود، فكأنه قال: إنما نمنحكم مجرد الوجود ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية، وذلك كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] فإن كل شيء أُعطي خصائصه ووظائفه وهُدي إلى أدائها عند خلقه، ولم تكن هناك فترة زمنية بين الخلق وإعطاء الخصائص والوظائف والهداية إلى أدائها، والمعنى لا يختلف إذا كان معنى «هدى»: هداه إلى ربه فإنه هدي إلى ربه عند خلقه، وكذلك آدم صور وأُعطي خصائصه الإنسانية عند خلقه.. وثم «... للترقي في الرتبة، لا للتراخي في الزمن» كما نرجح.

وعلى أي حال فإن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم عليه السلام، وفي نشأة الجنس البشري، ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة، كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقى في تاريخ الإنسان، كان ترقياً في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية. ولم يكن ترقياً في «وجود» الإنسان، من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان. كما تقول الداروينية.

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً -بدلالة الحفريات التي تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء- هو مجرد نظرية «ظنية» وليست «يقينية» لأن تقدير أعمار الصخور ذاته في طبقات الأرض ليس إلا ظناً! مجرد فرض كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها. وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تعدها أو تغيرها! على أنه على فرض العلم اليقيني بأعمار الصخور- ليس هناك ما يمنع من وجود «أنواع من الحيوان في أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض؛ بفعل الظروف السائدة في الأرض، ومدى ما تسمح به

من وجود أنواع ثلاث هذه الظروف السائدة حياتها. ثم انقراض بعضها حين تتغير الظروف السائدة بحيث لا تسمح لها بالحياة. ولكن هذا لا «يحتتم» أن يكون بعضها متطوراً من بعض. . . وحفريات داروين وما بعدها لا تستطيع أن تثبت أكثر من هذا. لا تستطيع أن تثبت -في يقين مقطوع به- أن هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذي قبله من الناحية الزمنية -وفق شهادة الطبقة الصخرية التي يوجد فيها- ولكنها فقط تثبت أن هناك نوعاً أرقى من النوع الذي قبله زمنياً. . . وهذا يمكن تعليله كما قلنا، أن الظروف السائدة في الأرض كانت تسمح بوجود هذا النوع، فلما تغيرت صارت صالحة لنشأة نوع آخر فنشأ، ومساعدة على انقراض النوع الذي كان عائشاً من قبل في الظروف الأخرى فانقرض.

وعندئذ تكون نشأة النوع الإنساني نشأة مستقلة وفي الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع. وهذا ما ترجمه مجموعة النصوص القرآنية في نشأة الحياة البشرية.

وتفرد الإنسان من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية، هذا التفرد الذي اضطّر الداروينيون المحدثون -وفيه الملاحدون بالله كلية- للاعتراف به، دليل مرجح على تفرد النشأة الإنسانية، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى في تطور عضوي<sup>(١)</sup>.

وإنما أطلت في التعقيب على قصة آدم -ﷺ- بعامة، ومما يتصل بنظرية داروين بخاصة، لأنها القصة التي تحكي لنا سلوك الإنسان وطبيعته وآماله واستعداداته راجياً أن يجتنبنا الله الزلل وأن ينفعني بها والقارئ الكريم، إن ربي سميع الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) في ظلال القرآن (١٣٦/٨).

## توظيف قصة آدم عليه السلام - في الأمور الدعوية

تختلف قصة آدم عن غيرها من قصص الأنبياء -عليهم السلام- فقصة كل نبي كانت تأخذ جانباً من جوانب الحياة، لكن قصة آدم هي قصة الحياة الإنسانية كلها، وبعد تدبرنا للآيات الكريمات، لا بد أن نقف عند حقائق أرشدت إليها هذه الآيات، وأولى هذه الحقائق أن آدم أبا البشر فطره الله تبارك وتعالى على فطرته، حيث الصفاء والنقاء، والالتزام بكل ما يحفظ هذه الفطرة مما يشوبها، والابتعاد عن كل مواطن الانحراف والترف عن أحوال الحمأة، ومستنقعات الرذيلة.

ولا بد أن يستثمر الدعاة والعلماء هذه المعاني، فلقد رأينا في الآيات الكريمة أن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان، فكرمه وفضله، وأحسن من أجله كل شيء خلقه، وسخر له هذا الكون الفسيح الواسع، ليكتشفوا مجاهيله، ويستخلصوا خيراته، وزوده من كل ما يمكنه من ذلك خير تمكين، وجعل كل هذا أمانة في عنقه، ولكنه حذره من أن يضعف أمام شهواته، وأمام كيد الشيطان، حتى لا يكون ظلوماً جهولاً، وحتى لا يستحوذ عليه الشيطان كذلك، وبين له أن هدف الشيطان الأول، أن ينحرف بهذا الإنسان عن الفطرة الإلهية، وذلك حينما يغتر بعلمه وقوته، فيسخرهما بعيداً عن مواطن الخير.

لقد عرفنا في الآيات السابقة ما بينه القرآن الكريم من الأهداف التي لم يخفها إبليس ﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنَينَهُمْ وَلَا مَرَنَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّهْمَ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]. وهذه الأهداف المعلنة لإبليس هي ما تعاني منها الإنسانية اليوم، وها هو الإنسان وقد استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله، وأراد أن يبتعد به عن عنصر الخير، وإذا كان تبكيت آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، وإذا كان الإضلال والتمني، إذا كان أولئك جميعاً، قد فهم العلماء منها ما يتناسب مع ظروفهم وبيئاتهم، فإن هذا الفهم لن يقف عند حدٍّ معين. إن تغيير خلق الله رأيناه اليوم في صور كثيرة ومظاهر متعددة،

وما الهندسة الوراثية، والاستنساخ، أو أكثر ميادينهما على الأقل إلا تفسير صريح حي لهذه الآية الكريمة.

لقد بدأ الإنسان حينما فقد الهدي الرباني، وغابت عنه هذه الآيات الكريمة التي تحدثت عن آدم عليه الصلاة والسلام، لا يعنيه إلا هذا الثراء المادي. فلتشق الإنسانية كلها، وليكن هذا العالم الثالث حقلاً للتجارب الضارة، بل ليكن الإنسان كله عرضة للأمراض الفتاكة، التي تنتج عن بعض أنواع في الهندسة الوراثية، ما دام هذا كله يحقق ربحاً مادياً لبعض الشركات التجارية.

سمعنا قبل أيام أن بعض العلماء قد فصل من عمله؛ لأنه أثبت أن الهندسة الوراثية في كثير من المأكولات لها أضرارها ومخاطرها الفتاكة. ولقد سمعت حديثاً إذاعياً من الاستاذ الدكتور عبد الوهاب المسيري، أن عالماً مصرياً فصل من عمله في بعض بلاد الغرب، لأنه أثبت أن المايكروويف له مخاطره وأضراره، ولقد قرأنا في بعض الصحف قبل أيام بأن هناك محاولة من أجل أن لا يكون الحمل خاصاً بالنساء، بل لا بد أن يشترك فيه الرجال كذلك.

إن الآيات الكريمة التي تحدثت عن قصة آدم تركز كثيراً على أن هذا الإنسان، وقد سخر الله له هذه المادة في الكون كله علويه وسفليه، حري به أن يظل في هذه الحدود، فلا يتجاوزها إلى ما لا خير له فيه، ولا قبل له به، فسيظل طيني المنشأ والغاية، لكن رحمة الله هي التي ترتفع به من وهدة هذا الطين، إننا ينبغي أن نؤكد تماماً سلامة هذه الفطرة في قصة آدم. وصدق الله ﴿ قَالَ أَهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۚ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَشْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۚ ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧] وهذه الآيات تبين جزاءين اثنين: دنسوا وهي

المعيشة الضنك، وأخروياً. ولقد تحقق الجزاء الدنيوي، وسببه نسيان الإنسان ربه أولاً، والإسراف والطغيان ثانياً، وهذا ناشئ عن عدم الإيمان الحق بالحق.

إن قصة الخلق توجهنا التوجيه السليم في أخطر قضيتين: قضية الفكر والعقيدة، وقضية المسلك ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ الضلال في أمور العقيدة والفكر، والشقاء في أمر المسيرة والمسلك، والضلال والشقاء مصدرهما غرور الإنسان وانخداعه بالتزيين الذي أخذه الشيطان على عاتقه ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩] وهذه الأمنيات كذلك ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ﴾ [النساء: ١٢٠].

وأخيراً إن الإرشادات في قصة آدم، لا يتسع لها الحديث هنا، فلتدبر، ولنثبت، ولنصبر والله يتولانا، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

## الفصل الثاني

### قصة نوح عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من اشارات قرآنية .

ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد:

١- في سورة القمر .

٢- في سورة الأعراف .

٣- في سورة الشعراء .

٤- في سورة يونس .

٥- في سورة هود .

٦- في سورة الصافات .

٧- في سورة نوح .

٨- في سورة المؤمنون .

٩- في سورة العنكبوت .

ثالثاً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها .

رابعاً: تعقيب على قصة نوح عليه الصلاة والسلام .





## قصة نوح عليه الصلاة والسلام

ذكر كثيرٌ من الكتّابين نسب نوح -عليه السلام- وهو من الأمور التي لا يقطع بثبوتها كيف، ونسب سيدنا رسول الله -عليه السلام-، لم يثبت حتى لإسماعيل -عليه السلام- إنما اثبتوه إلى عدنان، لذا لن أعرض لهذا الأمر ومن أراد هذا فليراجع قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله.

### أولاً: ما ذكر فيها من إشارات قرآنية:

ونوح هو الأب الثاني للبشر، وهو أول الأنبياء الذين تحمّلوا الأذى من أقوامهم؛ فكان مما جرى بينه وبين قومه دروس نافعة هادية للدعاة إلى الله، وهذا لا ينافي ما اشتهر من أن إدريس كان قبله -عليهما وعلى أنبياء الله جميعاً صلوات الله وسلامه -<sup>(١)</sup>. ولقد ذكرت قصة نوح عليه الصلاة والسلام في مواضع من سور متعددة؛ فكانت بحق تمثل ذلك الجهاد القاسي، وتحكى لنا ذلك الصراع الهائل على مدى الزمن كله بين المبادئ الصائبة التي يدعو إليها أنصار الحق، والأناثية الخائبة التي تسيطر على أنصار الباطل.

---

(١) اختلف الناس في ذلك فذهب بعضهم إلى أن نوحاً هو أول الرسل على الإطلاق، وهؤلاء لم يعدوا آدم رسولاً وقالوا إن إدريس هو الياس وكان بعد نوح، وعلى هذا القول يكون نوح أول رسل الله تعالى، وذهب آخرون من القائلين بنبوة آدم وبأسبقية إدريس إلى أن نوحاً عليه السلام كان أول الرسل الذين لقوا من أقوامهم العنت والمشقة، ومع ترجيحنا لنبوة آدم إلا أن نوحاً عليه السلام كان أول الرسل الذين بعثوا لأهل الأرض وهذا لا يدل على عموم رسالته، إنما بعث لقومه خاصة سواء أكان على الأرض أناس غير قومه أم لم يكن لقرب العهد من آدم، والذي يرجح لي أن الأرض كان يسكنها غير قومه عليه الصلاة والسلام وذلك لارتياها في المدة التي نصت عليها التوراة بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام حيث بينت أن المدة بين خلق آدم وولادة نوح (١٠٥٦ سنة) حيث عاش آدم عليه السلام (٩٣٠ سنة) فيكون بين وفاة آدم وولادة نوح عليهما السلام (١٢٦ سنة). [القصص/ عبد الوهاب النجار ص ٥٤].

وحديث الشفاعة يؤيد أن نوحاً عليه الصلاة والسلام كان أول الرسل.

ذكرت قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - في بضع عشرة سورة جاء بعضها في أثناء الحديث عن الأقوام المكذبين، أو في أثناء الحديث عن الأنبياء المؤيدين بنصر الله مجملًا دون تفصيل، بينما جاء بعضها الآخر قصصاً مستقلاً فصلت فيه بعض الأحداث والمشاهد.

فمن القسم الأول ما جاء في سورة النجم و(ص) والفرقان والذاريات والأنبياء والحاقة، ففي سورة النجم ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٢].

أما سورة (ص): فقد جاء فيها قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ﴾ [ص: ١٢].

ثم جاءت سورة الفرقان لنقرأ فيها قول ربنا تعالى ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سِلَاسًا لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧].

ثم جاءت سورة الذاريات فيها قول الله تعالى ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وأما سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ففيها هاتان الآيتان ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وفي سورة الحاقة جاء فيها هذا الامتنان الإلهي ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْبَارَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمُ زِكْرًا وَتَعِيًّا أَدُنَّ وَعِيَةً﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

وهذه الإشارات - كما قلت - جاء أكثرها في معرض الأقوام المكذبين، وجاءت واحدة منها في سياق الحديث عن الأنبياء؛ وهي آية الأنبياء، ومع ذلك فإننا نجد كل آية في هذه السور لم تكرر نفسها؛ بل كان في كل واحدة منها إشارة، ومعلومة جديدة؛ فآية النجم مثلاً، بينت أن قوم نوح كانوا أكثر من غيرهم ظلماً وطغياناً، وآية (ص)

جاءت إثر خصومة المشركين للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، تسلياً له وتطميناً لقلبه الشريف ﴿جُنْدُمًا هَئَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ كَذَبْتَ فَلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ﴾ [ص: ١١-١٢].

وآية الفرقان جاءت بشيء جديد لم يذكر في السورتين المتقدمتين وهو أن قوم نوح حينما كذبوا نبيهم؛ فكأنما كذبوا الرسل جميعاً. وتلك إشارة إلى أن الرسل عليهم الصلاة والسلام أمة واحدة، كما بينت السورة أن ذلك كان سبباً في إغراقهم وجعلهم للناس آية.

وجاءت سورة الذاريات لتصفهم بوصف جديد «الفسق» ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

أما سورة الأنبياء؛ فقد تحدثت عن نوح - عليه الصلاة والسلام - بأنه حين نادى ربه استجاب له، ونصره من القوم الكاذبين<sup>(١)</sup>، ووصفتهم بأنهم قوم سوء فأغرقوا أجمعين، وجاءت سورة الحاقة فيها الامتنان على الناس بأنهم حملوا في الجارية، فكان في ذلك تذكرة تحتاج إلى أذن واعية لتعيها وتفيد منها.

### ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد:

أما السور التي تحدثت عن قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - حديثاً مستقلاً مجملاً تارة ومفصلاً أخرى فهي: سورة القمر والأعراف والشعراء ويونس وهود والصفافات ونوح والمؤمنون والعنكبوت، وستقف مع كل سورة - إن شاء الله - لنرى أي روعة، وأي سمو وأي منهجية، تفرد بها هذا الكتاب الكريم.

(١) من عظمة القرآن الدالة على إعجازه وسمو أسلوبه الذي أعجز الناس بعامة والعرب بخاصة الفرق في نظم الآيات الكريمة ففعل (نصر) «بعدى بعلى، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفي الآية التي معنا عَدِي بَمِنْ ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ ولعل القاريء الكريم، يدرك الفرق بين الآيتين، فالمسلمون كان بينهم وبين أعدائهم حروب ومعارك، ولهذا لم يكن بين نوح وقومه، فانظروا ارشدكم الله إلى هذا السمو في البيان، كأن النصر هنا إنما هو نجاته وإهلاك قومه بلا معركة وحرب.

## ١ - سورة القمر: جاء في هذه السورة الكريمة:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ فَنفَحْنَا نُوحًا تَابَ السَّمَاءَ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجْهِ وَدُسِرَ<sup>(١)</sup> تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ وَلَقَدْ يَسْرَنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٩-١٧].

وهذه الآيات الكريمة جاءت إثر الحديث عن تكذيب أهل مكة الذين إذا رأوا أي آية يقولون سحر مستمر، والذين كذبوا لم يحملهم على هذا التكذيب شكهم في الآيات أو عدم اقتناعهم بها، وإنما الذي حملهم شيء واحد هو: اتباع الأهواء، مع أنه جاءهم من الأنبياء ما يكفي لزجرهم عن غيِّهم؛ نعم إنها حِكْمٌ بالغة، ولكن ما تُغني النذر عن الذين حَكَّموا الهوى وأبوا الانصياع للحق.

بعد ذلك يحدثنا القرآن الكريم عن قوم نوح، وإذا كان أهل مكة وصفوا النبي عليه وآله الصلاة والسلام بالجنون ووصفوا الآيات الواضحات بالسحر فلم يكن النبي بدعاً من الرسل فهاهم قوم نوح يصفون نبيهم بهذا الوصف الظالم.

ثم تحدثنا السورة عما جرى بين نوح عليه السلام وبين قومه؛ لكنها أجملت لنا ذلك كله بعبارة موجزة ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ [القمر: ١٠]؛ ونرى في الآيات بعض التفصيل فيما كان بعد هذا الدعاء، فأبواب السماء كلها فتحت؛ ينهمر منها الماء، والأرض كلها فجرت عيونا؛ فالتقى ماء السماء وماء الأرض ولكن الله تعالى حمل نوحاً على «ذات الواح ودسر». وأخذت السفينة المصنوعة من الألواح والمسامير تجري

---

(١) دسر: جمع دسار مثل كَتَبَ وكتاب وهو المسمار فعال من دسره إذا دفعه؛ لأنه يدسر به منفذه. والألواح هي ألواح الخشب.

برعاية الله تبارك وتعالى، ولقد تركت بعد آية للمتذكرين<sup>(١)</sup>، فما أعظم العذاب! وما أشد النذر! هذا ما بينته سورة القمر، وهي السورة الأولى التي تحكي لنا شيئاً عن خبر نوح - عليه الصلاة والسلام - مع قومه.

٢- أما سورة الأعراف فلقد كان حديثها بأسلوب آخر؛ إذ حدثتنا عن بعض ما قاله نوح - عليه السلام - لقومه، وبعض ما قالوه كذلك، إذ بدأت القصة هكذا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] ولكن الملائ ذوي الوجاهة من قومه المعجبين بأنفسهم قالوا له إنك في ضلال مبين فردّ عليهم - بكل رقة ومنطق وتسامح - ﴿قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ۖ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۖ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ۚ (٣) وَأَعْلَمُ مِمَّا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١-٦٢] ولماذا تعجبون أن يأتيكم رجل منكم يحب الخير لكم لينذركم لتتقوا الله فتنالوا رحمته. ولكنهم كذبوا فأنجاه الله ومن معه في الفلك، وأغرق المكذبين؛ لأنهم كانوا قوماً عمين، عميت أبصارهم وغلفت قلوبهم.

الآيات هنا لم تذكر لنا ما وجدناه في السورة التي قبلها ولكن كان حديثها عن شيء آخر - كما رأينا - وهو ما قاله لقومه وقالوه له.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرُوكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ۖ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۖ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ ۚ وَأَعْلَمُ مِمَّا اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُم ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۖ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْحَمْنَاهُ ۖ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤].

(١) «ولقد تركناها آية» الضمير في تركناها للسفينة أو للفعلة أي جعلناها آية يعتبر بها.

(٢) أي شيء من الضلالة قل أو كثر.

(٣) هو أبلغ كثيراً من قوله «انصحكم» كأنه يقول إن نصحي كله أبذل من أجلكم.

٣- ثم جاءت سورة الشعراء، ذات موضوع مستقل، وإذا كان الشعر يحرك كوامن العواطف، ويبعث الشجون في النفوس الرواجف، وإذا كان الشعر خفقة قلب، وهمسة خاطر:

خفقة القلب وهمسُ الخاطرِ وشجي اللحن دنيا الشاعر

فإن الذي يتأمل هذه السورة الكريمة يجد لها من الخصائص التي تذكى المشاعر، وترهف الإحساس ما لا يجده لعيون الشعر، ولا عجب في ذلك.

بدأت هذه السورة الكريمة بقول الله تعالى ﴿طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَقَسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن شَأْنُنَا نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ﴾ [الشعراء: ١-٤].

وفي هذه السورة كثر قوله سبحانه يحرك النفوس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨-٩] نقرأها ثمانى مرات تذكر عقب الحديث عن كل قوم، ففي كل قوم آية كان ينبغي أن يتذكرها المتذكرون.

أما ما جاء عن نوح عليه السلام وقومه في هذه السورة، فقد بدأ بقول الله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ<sup>(١)</sup> إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفِقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا<sup>(٢)</sup> وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ<sup>(٣)</sup> إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

(١) لأن تكذيب النبي لجميع الأنبياء.

(٢) أمرهم نوح بتقوى الله وطاعته مرتين: الأولى بعد قوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧] والثانية بعد قوله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ وكل من الآيتين ذكرت في سياق فليس هناك تكرار.

(٣) هذه المقولة قالها كثير من الأنبياء لأقوامهم ابتداء من سيدنا نوح عليه السلام إلى سيدنا رسول الله ﷺ، حيث جاء في سورة الشورى ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]، ولم ترو هذه المقولة عن إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام، ويذكر صاحب درة التنزيل رحمه الله -أن سبب ذلك أن إبراهيم كان يخاطب أباه، فلا يليق به هذه المقالة، وإن موسى أرسل إلى فرعون وربى في قصره- فلا تليق به هذه المقالة كذلك. وهو توجيه حسن.

[الشعراء: ١٠٥-١١٠] ولكنهم تعجبهم أنفسهم ويغرمهم كبرياؤهم فكيف يؤمنون له  
ويصدقون وقد اتبعه الأزدلون في زعمهم، ويجيبهم - عليه الصلاة والسلام - بكل تلطف  
ورقة وإنصاف ﴿وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنِ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ  
إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٢-١١٥] ولكنهم يضيقون به ذرعا فيتوعدونه إن لم ينته  
بالرجم، وهنا يضرع إلى ربه إن قومه كذبوه؛ فليفتح بينه وبينهم فتحاً، ولينجيه هو ومن  
معه من المؤمنين الذين احتقرهم هؤلاء المكذبون، ويستجيب الله فينجيه ومن معه في  
الفلك المشحون<sup>(١)</sup> ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ  
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٢].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْتَهُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا  
أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿قَالُوا أَنْزِلْ لَنَا آيَةً وَأَتَّبِعَكَ  
الْأَزْدَلُونَ قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنِ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ إِن أَنَا  
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ قَالُوا لَنْ لَّمْ تَنْتَهُ يَنْتَهُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ قَالَ رَبِّ إِن قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحاً  
وَيُخِّجْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَجْبِئْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

فنحن نرى أن هذه السورة الكريمة أضافت إلى ما سبق جديداً سواء أكان هذا مما قاله  
نوح - عليه الصلاة والسلام - لقومه أم مما قالوه له. وليتأمل القارئ الكريم في هذه  
السورة، وفيما جاء قبلها ليجد ذلك بينا بأجلى صورة، وأسمى بيان.

٤- ثم تأتي سورة يونس<sup>(٢)</sup>، ويكفي أن نقف عند الآية الأولى التي ذكر فيها خبر  
نوح عليه السلام لنذكر ما تفردت به هذه السورة عن غيرها.

(١) المشحون: أي المملوء.

(٢) الآيات ٧١-٧٣.

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُوا إِن كَان كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا يَدَّبُّ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ<sup>(١)</sup>﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَافَةً وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَكِّرِينَ﴾ [يونس: ٧١-٧٣].

وهكذا كذبوه فأغرقوا ونجاه الله ومن معه، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين. هذا ما جاء في سورة يونس، ونستشف منه الأبعاد النفسية، كما نستشعر منه الثقة التي كانت من نوح - عليه الصلاة والسلام - بخالقه ومرسله كما ندرك منه ذلك التحدي الذي جابه به نوح قومه، ولا يستطيع أحد أن يدعي أن ما جاء في هذه السورة إنما هو مكرر من حيث الأسلوب أو من حيث الأحداث.

٥- أما سورة هود<sup>(٢)</sup>؛ فهي السورة الوحيدة التي فصلت فيها قصته ﷺ تفصيلاً مطولاً يشبهها من حيث الطول ما جاء في سورة نوح التي سميت باسمه ﷺ؛ فلقد فصلت لنا السورة الكريمة الشبهات التي جابه بها قومه، كما فصلت لنا الرد على هذه الشبهات واحدة واحدة، ثم حكّت لنا هذا الحوار الذي انتهى بوحي الله لنوح من أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، ثم حكّت لنا السورة شيئاً آخر يتعلق بصناعة الفلك، وما كان من سخرية قومه منه، ثم أعطتنا وصفاً دقيقاً مؤثراً لحركة السفينة،

(١) أي عظمت عليكم دعوتي إلى الله؛ لأنكم أعجبتمكم أنفسكم، فعلى الله توكلت، فأجمعوا أمركم وشركاءكم أي أجمعوا أمركم بما عندكم من حزم، ومعكم شركاؤكم، فالواو هنا واو المعية وليست واو العطف، وشركاء مفعول معه، وليس معطوفاً على (أمركم). ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس: ٧١] تفسرها الجملة التي قبلها، أي لا تكونوا في حرج من أمركم، ولا ترددوا في محاربتني والكيد لي. ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ يجوز أن يكون من القضاء بمعنى الفصل، أو من القضاء بمعنى الحكم وهما متقاربان، أي اقضوا في شأني بما تريدون واحكموا عليّ بما تشاءون ولا تمهلوني لحظة من الزمن.

(٢) الآيات ٢٥-٤٨.



وهي تجري بهم في موج كالجبال، ثم بينت لنا من سبق عليه القول من أهله بأنهم لن يؤمنوا وما آمن معه إلا قليل، وأخيراً حدثتنا القصة عن أمرين ذوي خطر:

أولهما: - ما حدث بين نوح وابنه، وثانيهما: ما كان من سؤال نوح لربه تبارك وتعالى وما أجابه به ربه.

ثم ختمت القصة بخاتمة بديعة، اشتملت أمرين: أحدهما خطاب الله نوحاً، «قيل يا نوح» والآخر خطابه نبيه ﷺ، كما سيأتيك ذلك مفصلاً.

والحق أن في قصة نوح في هذه السورة الكريمة دروساً هادية هادفة؛ لا بد أن يقف عندها المصلحون، ورجال الدعوات، وعلماء الاجتماع، وسيدرك أولئك جميعاً أن هناك قضايا أساسية يشترك فيها الناس جميعاً مهما تباعد الزمن، وتطاوت الدهور، واختلفت العصور، فالشبه التي ألقاها قوم نوح؛ هي نفسها التي نجدها اليوم من الذين يتكبرون على الحق وأهله، وأعجبته أنفسهم، وغرّتهم أموالهم ومناصبهم، ومكانتهم الاجتماعية، والاقتصادية، يلقونها في طريق المصلحين، فقد بينت لنا السورة هذه الشبهات وهي:

أولاً: ﴿ مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ وثانياً: ﴿ وَمَا نَزَّلَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] وكيف أن نوحاً - عليه الصلاة والسلام - ردّ على هذه واحدة واحدة أما رده على الشبهة الأولى بقوله: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى يَمِينٍ مِّن رَّبِّي وَعَازَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ أَنْزَلِمُكُمْ مَّوَاهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴾ [هود: ٢٨]<sup>(١)</sup> ثم هو لا يسألهم مالا ولا أجراً، إن أجره إلا على الله، فماذا يضيرهم بعد ذلك إن كان بشراً! .

---

(١) أي أخبروني إن كنت ذا حجة وبرهان أكرمني به ربي ﴿ وَعَازَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ﴾ أي من علي بالرسالة. ﴿ فَعُمِيتَ عَلَيْكُمْ ﴾ وأبستم أن تنقادوا لها بسبب الهوى الذي يسيطر على نفوسكم، والكبر والعجب ﴿ أَنْزَلِمُكُمْ مَّوَاهَا ﴾ أي كيف نلزمكم بها مع كراهيتكم للحق.

ثم يرد الشبهة الثانية، وهي انتقاصهم من المؤمنين فيقول: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلِنَكْفِيَ أَزْكُرَ قَوْمًا يَجْهَلُونَ وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠].

أما شبهة الاتهام بالكذب التي وجهوها زوراً له فيردها بقوله ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَإِنِّ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١] فأين الكذب ومن هم الكاذبون؟!

وحينما يرون أن الحجة تلزمهم، وقد ردت شبهاتهم واحدة واحدة، لم يجدوا مهرباً إلا متن العناد والغواية، وها هم يقولون بعد ذلك كله ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] وهكذا يتجرد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم المصلحون الدعاة، فالأمر أولاً وأخيراً إلى الله وحده، فهو الذي ينصر أحبابه متى شاء ويتنقم من أعدائه وأعدائهم متى شاء، ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ [هود: ٣٣] ما أجمل هذه الجملة الطيبة وما أعظمه من درس للمخلصين من أئمة الهدى؟! وها هو يضيق بهم صدره، ويتضاءل أمامهم نهيه وأمره؛ فيقول ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤] وهنا يرد القرآن الكريم مقالة اجتمع عليها أعداء الحق ونفاة الأديان منذ نوح عليه السلام حتى اليوم وإلى ما بعد ذلك، وهي اتهامهم الأنبياء والدعاة بالافتراء على الله، ويرد الله عليهم ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٥] ويوحى الله إلى نوح -عليه السلام- ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]<sup>(١)</sup>، ويأمره الله ويوحى إليه أن يصنع الفلك برعايته -سبحانه-

(١) من لطائف القرآن الكريم التي يظهر فيها عظمته وإعجازه ودقائقه البيانية قوله سبحانه في هذه السورة، ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] وفي السورة التي تليها قول يوسف عليه السلام لأخيه ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] وأحد الفروق بين الفعل والعمل أن العمل إنما هو الذي يقصد إليه صاحبه، وإخوة يوسف كان فعلهم كله عن إصرار وقصد سابق، =

أما أولئك الذين ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الحق، واحتقارهم لغيرهم من المؤمنين؛ فلا ينبغي لنوح أن يخاطب الله في شأنهم؛ فإنهم مغرقون، ويبدأ نوح صناعة الفلك؛ ولكنهم يمرون به فيسخرّون منه فالفلك إنما تجري في الماء ولا ماء عندهم فلم هذا الفلك إذن؟! إن ذلك لا يعني إلا العبث والجنون، ولكن يقول لهم: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ (١) كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿[هود: ٣٨-٣٩] وتحين الساعة، ويجيء الأمر، ويفور التنور (٢)، ويؤمر نوح أن يحمل فيه من كل هذه المخلوقات التي كانت في زمنه زوجين اثنين -أي ذكراً وأنثى- وأن يحمل أهله المؤمنين أي إلا من سبق عليه القول وأن يحمل المؤمنين كذلك وهم قليل وهذا درس كذلك، هذه الفئة القليلة كانت نتيجة دعوة مئات من السنين قيل إنهم لم يزيدوا على بضعة عشر، وتسير السفينة ﴿بِسْمِ اللَّهِ بَحْرِيهَا وَمُرْسَهَا﴾ (٣) [هود: ٤١]، وتجري بهم في موج كالجبال، وينادي نوح ابنه ليركب معه حتى لا يكون مع الكافرين، ولكنه يأبى؛ لأنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، ويقول نوح: لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، ويحول بينه وبين ابنه الموج فيكون من المغرقين، ويتم أمر الله، ويبلغ الأمر غايته، وهنا يصدر الأمر للكون. ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسِّمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْآمُرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وينفذ الله أمره ويأمر الأرض أن تبلع ماءها فتتشف قشرتها وسطحها، ويأمر السماء أن تقلع عن المطر، ﴿وَغِيصَ الْمَاءُ﴾ أي نقص ولم يبق إلا ما يحتاجه المخلوقات واستوت على جوديتها الذي أَرَادَهُ اللهُ لها،

= أما قوم نوح فقد كانت أفعالهم في كثير من الأحيان على غير قصد سابق، ارتجالاً لا كما كان إخوة يوسف.

وهكذا يجب أن تدرس القصة القرآنية تظهر منها أسرار النظم، واختيار الكلمات.

(١) وهذا موقف تعليمي للدعاة إلى الله، أن لا ينهزموا أمام الباطل، مهما كان قوياً متنفخاً متنفساً، وأن لا يظهرها بمظهر الضعف، وما أجدرنا أن نفرق بين الحكمة والضعف، وبين الصبر والخور.

(٢) هو الذي يخبز فيه وأكثر المفسرين على أن التنور المقصود، هو تنور أهل بيته، وهذه هي العلامة، أي يفور الماء من التنور وكأنها إشارة إلى بداية الطوفان.

(٣) أي بسم الله وبركته وتوفيقه ﴿بَحْرِيهَا﴾ أي جريها و﴿وَمُرْسَهَا﴾ أي وقوفها.

وقد اختلفوا في تحديد مكانه فقيل إنه في الموصل وقيل غير ذلك، وقيل بعداً للقوم الظالمين أي هلاكاً.

وينادي نوح ربه فقد أمره أن يحمل أهله وابنه من أهله، ووعد الله حق وهو أحكم الحاكمين وكان نوحا يتساءل وقد أمره أن يحمل أهله في السفينة، والابن من خاصة الأهل، فلماذا كانت هذه النهاية لابنه؟! ، ويعلم الله نوحاً درساً هو له ولذريته ما دامت الحياة، ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُمْ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَنْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّكَ تُكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] إِنَّ الْأَهْلِيَّةَ أَهْلِيَّةُ الْعَقِيدَةِ أَوَّلًا، وقبل كل شيء، أمّا الوشائج وصلات القربى فكلها تتضاءل وتتلاشى إن لم تربطها العقيدة بروابطها المحكمة، وهذا من أول ما ينبغي أن يعلمه الناس، فضلاً على الأنبياء.

وهنا قضية كنت أود أن لا أعرض لها، ولا أطيل الكلام فيها، شغلت كثيراً من الباحثين قديماً وحديثاً، وهي: أكان هذا الولد ابناً لنوح حقيقة؟! أم كانت نسبته إليه غير صحيحة؟

والحق أن هذه القضية محسومة حسمها القرآن الكريم نفسه، حيث جاء في كلام نوح، ربّ إن ابني من أهلي، فهذه الجملة تتضمن حقيقتين اثنتين:

الحقيقة الأولى: أنه ابنه.

الحقيقة الثانية: أن الابن من الأهل.

وقد رد القرآن الكريم القضية الثانية ﴿يَنْبُوحُ إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، أما القضية الأولى وهي كون هذا الولد ابناً له فلم يردّها القرآن، وعليه فهي قضية حسمها القرآن كما قلت، ومع ذلك وجدنا الجدل فيها يحتدم بين العلماء قديماً وحديثاً، وكانت هذه المسألة إحدى مسائل لجنة علماء الأزهر التي شكلت في أول الثلاثينات من هذا القرن لمناقشة كتاب قصص الانبياء للشيخ عبد الوهاب النجار<sup>(١)</sup>.

وكان الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- يرجح أنه كان ابنه حقيقة، ولكن لا يستبعد أن تكون خيانة امرأة نوح التي ذكرت في قوله ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠] لا يستبعد أن تكون الخيانة خيانة زوجية، فأنكرت عليه اللجنة، قوله هذا، وذكرت قول الرازي -رحمه الله- يقول الامام الرازي:

اختلفوا في أنه كان ابناً له، وفيه أقوال:

القول الأول: إنه ابنه في الحقيقة، والدليل عليه أنه تعالى نص عليه فقال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [هود: ٤٢] ونوح أيضاً نص عليه فقال ﴿يَبْنُيْ﴾ وصرف هذا اللفظ إلى أنه ربه، فأطلق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف للكلام عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز، والذين خالفوا هذا الظاهر إنما خالفوه لأنهم استبعدوا أن يكون ولد الرسول المعصوم كافراً (وهذا بعيد، فإنه ثبت أن والد رسولنا -ﷺ- كان كافراً، ووالد إبراهيم -عليه السلام- كان كافراً) بنص القرآن، فكذلك ههنا، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا في أنه عليه السلام لما قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] فكيف ناداه مع كفره؟

فأجابوا عنه من وجوه، الأول: أنه كان ينافق أباه فظن نوح عليه السلام أنه مؤمن فلذلك ناداه، ولولا ذلك لما أحب نجاته. والثاني: أنه عليه السلام كان يعلم أنه كافر، لكن ظن أنه لما شاهد الغرق والأهوال العظيمة فإنه يقبل الايمان، فصار قوله ﴿يَبْنُيْ أَرْكَبْ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢] كالدلالة على أنه طلب منه الإيمان وتأكد هذا بقوله ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾، أي تابعهم في الكفر، واركب معنا، والثالث: أن شفقة الأبوة لعلها حملته على ذلك النداء. والذي تقدم من قوله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠] كان كالمجمل ففعله عليه السلام جوز أن لا يكون هو داخلاً فيه.

القول الثاني: إنه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن علي الباقر، وقول الحسن

بافتحة عن الألف، وقال قتادة سألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه، فقلت: إن الله حكى عنه أنه قال ﴿إِنَّ أَبْنَىَّ مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] وأنت تقول: ما كان ابناً له، فقال: لم يقل: إنه مني ولكنه قال من أهلي وهذا يدل على قولي.

القول الثالث: أنه ولد على فراشه لغير رشدة، والقائلون بهذا القول احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحریم: ١٠]، وهذا قول خبيث يجب صون منصب الأنبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو على خلاف نص القرآن. وأما قوله ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكره.

قيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما كانت تلك الخيانة: فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا به، ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب قوله تعالى ﴿الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِ وَالْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِ وَالْطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ﴾ [النور: ٢٦]، وأيضاً قوله ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] وبالجمله فقد دللنا على أن الحق هو مقول الأول<sup>(١)</sup>.

وأكرر القول هنا أن القضية حسمها القرآن الكريم، ولا يليق بمقام الأنبياء أن تتهم نساؤهم بالفاحشة، وشتان بينها وبين قضية عقدية.

ويرجع نوح عليه السلام إلى نفسه معتذراً إلى ربه تعالى ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْتَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧] ويطلب مغفرته ورحمته حتى لا يكون من الخاسرين ويكرم الله نوحاً فيستجيب له ﴿يَنُوحُ أَهْطَ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨]... إلى آخر ما في القصة من ثروات هائلة لكثير من كليات الإصلاح والقضايا الاجتماعية، وهذا - بالطبع - عدا ما فيها من فنون البيان، وبلاغة التراكيب،

(١) تفسير الرازي (١٨-٢٣١-٢٣٣).

وروعة الأساليب، وما على القارئ الكريم إلا أن يفتح المصحف وبالتحديد سورة هود؛ ليقراً بتدبر هذه الآيات الكريمة، وسيجد أن كل ما جاء فيها من مواقف وأحداث كان ذا صبغة جديدة، إذا قيس بما جاء من هذه القصة في السور التي سبقت سورة هود، والتي تحدثنا عنها من قبل.

وتختتم القصة بهذه الآية الكريمة خطاباً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام: ﴿يَلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيًّا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيُسْرِ فَقَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي وَءَالِنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْهُمْ كُفُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِنُونَ وَنَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ وَنَقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا يَنْتُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا بِأَيِّكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَأَيْنَا قَدْ أَفْتَرَيْنَا فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَنْجُرِيُونَ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا يَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَأَصْنَعُ الْفُلَاكُ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّسْنَا لَكَ تَخَطُّبِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ وَصْنَعُ الْفُلَاكُ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا

ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلَ الْكُفْرَ بَهَا عِزًّا لَكُمْ نَظَرْنَا عَنْهَا وَطَرَسْنَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْعَرٍ مِنْ ثَوْبٍ أَوْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَكَانَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَتَأَوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٢٧﴾ وَقِيلَ يَتَّخِذُ آبَاؤُكُمْ أَوْلِيَاءَ وَيَسْمَأُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتْلَنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتِلَّكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْطِ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ [هود: ٢٥-٤٨].

٦- أما سورة الصافات، فلقد عرضت للقصة من جانب آخر، ومن زاوية أخرى، فيها الجدة من حيث الموضوع والأسلوب فلم تحدثنا عن إرسال نوح عليه السلام لقومه وما قاله لهم، وما قالوه له - كما رأينا في سورة هود وما قبلها - وإنما كان الحديث يقتصر على إكرام الله تعالى لنوح عليه الصلاة والسلام، وما منَّ به عليه من منن كثيرة، وما أنعم به وتفضل عليه من نعم وأفضال، والناظر في سورة الصافات يجد ذلك واضحاً بيناً أيما بيان. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا فَلَئِمَّ الْمُجِيبُونَ وَخَيَّتَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هَرَبًا بَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

هذا ما جاء في سورة الصافات من خبر نوح - عليه الصلاة والسلام - فليس هناك ذكر للمحاورات بينه وبين قومه، وليست هناك حجج يدلي بها وشبهات يردُّها، كل ما فيها هذا الإكرام الذي تحدثت عنه من قبل ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩] ثم يذكر سبحانه كيف نجاه وأهله من الكرب العظيم، وجعل هذا العالم كله من ذريته وترك عليه ثناءً حسناً سيقى إلى يوم الدين وهذا الثناء الحسن هو قوله ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾... وهكذا كان ما في السورة مغايراً لما جاء في السور قبلها.



٧- ثم جاءت سورة نوح، وما أشبهها بسورة يوسف من حيث اختصاصها بالحديث. عن نوح وحده - عليه السلام -، كما اختصت سورة يوسف بالحديث عن يوسف - عليه السلام -.

بدأت السورة بالحديث عن إرسال نوح لقومه، ولكنها هذه المرة بدأت بأداة التوكيد (إِنَّ) وليس بأسلوب القسم الذي رأيناه من قبل - الذي جاء فيه (ولقد أرسلنا)؛ لأن القصص السابقة جميعاً جاءت في أثناء السور، أما هنا فقد جاءت بداية السورة وفتحتها.

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَقُولُونَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرُ لَكُمْ مِن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [نوح: ١-٤].

ونلاحظ في هذه المقدمة:

أولاً: أمر الله تعالى نوحاً بإنذار قومه، وقد كان في الآيات السابقة حديث نوح نفسه - عليه السلام - ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [نوح: ٢].

ثانياً: ولأول مرة يأمرهم نوح عليه السلام بهذه الأوامر الثلاثة: العبادة، وتقوى الله، والطاعة لنوح عليه السلام، وهو سر بديع رائع اختصت به هذه السورة؛ إذ يظن الكثيرون أن العبادة والتقوى شيء واحد، ولكن شتان بينهما، فما أبعد الفرق بين العبادة والتقوى! فكم من عابد لا تصل به عبادته ولا ترتفع به إلى مرتبة التقوى! العبادة وسيلة من وسائل التقوى يتوجه بها العبد إلى خالقه، ولكن هناك عبادات ليس فيها إلا الصورة الظاهرة للعبادة، فلا صلة بينها وبين القلب، وهذا ما نطقت به آثار كثيرة، وكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش، وكم من صلاة لا تنهى صاحبها، أما التقوى فهي غاية

الإكرام الإلهي للعبد، ولذلك كان المتقون هم أكرم الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ونلاحظ ثالثاً: وعد نوح لقومه بالمغفرة والتأخير إلى أجل مسمى.

وإذا كان هذا ما نلاحظه في مقدمة السورة؛ فإن ما بُنيت عليه السورة الكريمة كان كذلك جديداً من حيث الموضوعات والجزئيات والأسلوب، تحدثنا سورة نوح - عليه السلام - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَعَهُمْ فِي عَادَاتِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩] ويستمر الحديث عما قاله لقومه ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِيحَ لَكُمْ جُنُودًا وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢] ثم يبكتهم ويعنفهم ويؤنبهم؛ لأنهم لا يعظمون الله تبارك وتعالى ولا يرجون له وقاراً وكان من حق الله تعالى أن يعظم ومن حقهم أن يعظموه؛ لأنه خلقهم أطواراً، ثم يذكرهم - بعد أن بين لهم آيات الله تعالى في أنفسهم وكيف انتقلوا من طور إلى طور - آيات الله في هذا الكون ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ اللَّيْلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦] ثم يلفت أنظارهم إلى أن الله الذي أنبتهم من الأرض سيعيدهم فيها ويخرجهم وهو الذي ذلل لهم هذه الأرض وجعلها بساطاً ذات سبل واسعة متعددة.

وبعد هذا يخاطب نوح عليه السلام ربه تعالى معلناً عصيان قومه له، واتباعهم الذي لا يزيده ماله وولده إلا خساراً، ويتحدث عن مكرهم، وعن أقوالهم في شأن أصنامهم، ونتيجة ذلك كله: إن هذه الخطيئات جميعاً كانت السبب في إغراقهم ودخولهم النار، وتختتم السورة بدعاء نوح ربه على قومه ويطلب المغفرة له ولوالديه ولمن دخل بيته مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ﴿وَلَا تُزِدْ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

هذه السورة كانت نمطاً جديداً - كما رأينا -؛ وفيها من دقائق الكون، ومن حقائق العلم الكثير الكثير مثل: ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، والتعبير عن القمر بأنه نور وعن الشمس بأنها سراج<sup>(١)</sup> وقوله ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾<sup>(٢)</sup> ولم يقل إنباتاً مع أنه هو المصدر. كما قال إخراجاً، وإنما قال نباتاً ليدل على أن جسم الإنسان كله وأن غذاءه ودواءه كل أولئك من الأرض، فانظروا أرشدكم الله إلى هذه الدقائق القرآنية، وهذه الحقائق من العلم، التي تذكر في قصة نوح عليه السلام، وهو أول من أرسل إلى قوم، ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] ولم يقل إنباتاً. كما قرأنا فيها لأول مرة معلومات عن عبادتهم، وأسماء أصنامهم، ولا يرتاب أحد في أن سورة نوح كانت طرازاً جديداً لم يسبق له مثيل من قبل.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كَلِمًا مَدْعُونُهُمْ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغِيَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْصَفُوا لِيُأْتِيَهِمْ وَاسْتَصْرَبُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتَكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَغْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ يَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَتَبَّكُمْ مَنْ أَلْأَرْضِ بَنَاتُهُمْ يُعْبَدُ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْني وَاتَّبَعُوا مِنْ لَدُنِّي ذُرِّيَّةً مَالَهُ وَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا وَقَالُوا لَا تَنْدُرُنَا بِالْهَيْكَلِ وَلَا تَنْدُرُنَا وَدَا وَلَا سَوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا مِمَّا خَطِيئَتُهُمْ أُعْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مَن

(١) لأن القمر يستمد نوره من الشمس .

(٢) لأن الإنسان ليس الا من عناصر الأرض وهذا ما تعطيه كلمة (نيات).

الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا ﴿١﴾ .

٨- بقي من السور التي تتحدث عن نوح - عليه الصلاة والسلام - سورتان اثنتان؛ سورة المؤمنون<sup>(١)</sup>، وقد بدأت هكذا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣] ويجيبه الملأ الذين كفروا من قومه قائلاً بعضهم لبعض ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضِّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٤-٢٥] ويناجي نوح ربه معلناً تكذيب قومه له، ويوحى الله إليه بصناعة الفلك برعايته سبحانه، فإذا جاء الوقت المعين فليسلك فيه من كل زوجين اثنين وأهله إلا من سبق عليه القول، فإذا استوى على الفلك هو ومن معه فليدع بهذا الدعاء ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّسَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] وليقل كذلك ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] ولأول وهلة ربما يظن بعض الناس أن هذا تكرار لما جاء في سورة هود في بعض مقاطعها وأحداثها، ولكنك حينما تنعم النظر أيها القارئ الكريم؛ فإنك ستجد ما ينافي ذلك دون شك.

بدأت سورة المؤمنون بقوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ وهذه نفسها البداية في سورة هود، أما الأعراف فلقد ابتدأت بقوله «لقد أرسلنا»، فخلت سورة الأعراف من واو العطف، حيث لا مسوغ للعطف، فقد طال الفصل بين القصة وبين ما جاء في أول السورة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠-١١] وعلى هذا جاءت سورة الأعراف خالية من حرف العطف.

أما في سورة هود فلقد جاءت الآية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [هود: ٢٥]؛ لأن ما قبل هذه الآية كان حديثاً عما جرى بين النبي عليه وآله الصلاة والسلام وبين أهل مكة، فجاءت الآية بحرف العطف تعطف خبراً على خبر.

وأما سورة المؤمنون فلقد جاءت الآية «ولقد» عطفاً على ما جاء في أول السورة ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْفَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

هذا الذي يظهر لنا في أمر حرف العطف، وليس كما ذهب إليه صاحب قضايا التكرار في القصص القرآني الاستاذ القصبي محمود زلط من أن العطف جاء من أجل قوله سبحانه قبل هذه الآية ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢] حيث قال: إنه لما ذكر الفلك ذكر قصة نوح الذي صنع الفلك، وإذا كان الأمر كما قال الشيخ القصبي، فإن هذه الآية الكريمة يجب أن تأتي خالية من العطف وهذا ما يقرره علماء البلاغة في مبحث الفصل والوصل، فإنه لما ذكر الفلك بقوله ﴿وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ﴾، كأنه قيل فمن أول من حمل في الفلك ولم؟! قيل: لقد أرسلنا.

الأمر اذن ليس كما قال الشيخ، بل لما ذكرته لك، جاءت عطفاً على ما سبق من الآيات، والفصل لم يكن بين هذه الآيات والتي قبلها.

كان الخطاب في سورة هود من الملاء الذين كفروا في قومه لنوح - عليه الصلاة والسلام - ﴿مَا نُرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، أما هذه السورة الكريمة فتبين لنا أن الخطاب كان من بعضهم لبعض، كان من أولئك السادة المتنفذين لغيرهم ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣] وتلك قضية اجتماعية مهمة نجدها في مختلف العصور والأزمنة كما نجدها في مختلف الأمصار والأمكنة؛ فكم من عات مستكبر كان سبباً في إهلاك غيره من أولئك المستضعفين، ولهذا نجد القرآن الكريم قد أعطى هذه القضية عناية خاصة، وذلك حتى لا يكون كثير من الأفراد من الإمعات، ويكفي أن نقرأ مثلاً قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وفي سورة سبأ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]، وفي سورة إبراهيم ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا

لَكُمْ تَبَعًا فَمَا كُنْتُمْ مُعْتَبِرِينَ ۚ عَنَّا مِنَّ عَذَابٍ ۖ اللَّهُ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ [إبراهيم: ٢١]، إلى غير ذلك من المحاورات بين المستكبرين والمستضعفين.

ومن دقائق ولطائف البيان في القصة القرآنية ما ذكره صاحب درة التنزيل -رحمه الله- وهو أنه قد جاء في سورة هود ﴿قُلْنَا اٰخِمْ فِيْهَا﴾ [هود: ٤٠] وجاء في سورة المؤمنون ﴿فَاَسْلَفَ فِيْهَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] فقد ذكر فعل السلك هنا ، لأنه لم يذكر غيره ، فهو يشمل الحمل والركوب والدخول ، أما في سورة هود فإنه ذكر مع الحمل الركوب ، وهي ملحوظة قيمة تدلنا على عظمة هذا الكتاب وخصائص القصة القرآنية من حيثاتها المتعددة .

وتأتي قصة نوح عليه السلام في سورة المؤمنون لتبين لنا تلك القضية المهمة: كما قرأنا في القصة كذلك الأثر السيء لتقليد الآباء في الباطل وكون الرسل لا يكونون إلا ملائكة كما تفردت السورة بهذا الدعاء الذي جاء في آخرها.

مشاهد القصة في سورة المؤمنون إذن ليست مشاهد مكررة أبداً؛ بل الأمر على العكس من ذلك تماماً.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوِّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلَأُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا  
سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَوُّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا  
كَذَّبْتُ فَأَوْحِنَا إِلَيْهِ أَنْ أَصْبَحَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا  
إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلْ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ  
أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣٠] .

٩- أما سورة العنكبوت، فلقد جاءت القصة في هذه اللقطة القصيرة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

وإذا كانت هذه آخر سورة تُحَدَّثُ فيها عن نوح - عليه الصلاة والسلام -؛ فلقد جاءت القصة فيها تلخيصاً لما مر؛ ولكنه تلخيص اشتمل على كثير من الفوائد كذلك، ويكفي بيان المدة التي مكثها نوح - عليه الصلاة والسلام - في قومه ولم يسبق لها بيان من قبل: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] ما أجمل هذه اللفظة البانية، وهي التعبير بالسنة عن المدة التي قضاها نوح عليه السلام في قومه؛ لأن السنة تشير إلى الشدة والصعوبة، والتعبير بالعام عن المدة التي لم يكن مع قومه فيها والعام فيه معنى اليسر، كما أن السنة تطلق على التقويم الشمسي، والعام على القمري وهو أقل بأحد عشر يوماً، ففي السنة إشارة إلى الطول والشدة.

### الأطوار التي تمر بها القصة:

ولا بد أن نشير هنا إلى ملحظين مهمين:

أما أولاً: فهو هذا الاتساق بين القصص القرآني، حيث تبدأ القصة بإشارات موجزة ثم يأتي دور التفصيل، ثم يأتي الدور الثالث وهو دور الإيجاز خلاصة موجزة للقصة، لكنها فيها أمور جوهرية كذلك، وهذه سنة القرآن الكريم في ذكر قصصه العظيم؛ أطوار ثلاثة تمر بها القصة. إنه ترتيب بديع حقاً؛ فقصة آدم - عليه الصلاة والسلام - في العهد المكي رأينا أن آخر سورة تحدثت عنها سورة الكهف بلقطة قصيرة موجزة مجملة؛ لكنها لم تخل من فائدة، وكذلك قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - كانت آخر سورة تحدثت عنها سورة العنكبوت كما رأينا، ويشهد الله أن في ذلك غاية الإبداع، ونهاية الروعة، وروح الإيجاز وسر الإعجاز.

وأما ثانياً: فنجد أن قصة نوح عليه السلام لم تذكر إلا في السور المكية على العكس من قصة آدم عليه السلام، فقد ذكرت في سورة مدنية، وهي سورة البقرة وذلك لأن الحديث عن آدم عليه السلام إنما هو حديث عن خصائص الإنسان، فإن آدم عليه السلام هو الأصل وهذا لا يختص بمكان دون مكان هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فلأن قصة نوح عليه السلام كانت شبيهة بما كان في العهد المكي، من حيث الدعوة إلى الله ومن حيث الشبهات والافتراءات.

وبعد، فهذه قصة نوح عليه الصلاة والسلام كانت في سور القرآن المتعددة ذات صور متعددة، كل واحدة تأخذ بحُجَزٍ الأخرى؛ لتكملها، وهي والله كاملة . . .

### ثالثاً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها:

وهكذا اختصت كل سورة بجانب من جوانب هذه القصة، وما بقي علينا الآن إلا أن نبذل المحاولة مستعينين بالله لنبحث عن السرِّ علناً ندرك السبب الذي اختصت كل سورة بما ذكر فيها، فأقول وبالله التوفيق وهو الفتح العليم.

أما سورة القمر ذات الآيات القصار، والنبرة القوية، فإنها جاءت تحدث عن المكذبين الذين لا يؤمنون بالآيات - رغم سطوعها وظهورها - ويكفي هذه البداية: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْمَرٌ ﴾ [القمر: ١-٢] . . . الآيات إذن جاءت رداً حاسماً على أولئك المعرضين، وتطميناً قوياً، وتثبيتاً مكيناً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام وللمؤمنين كذلك. وما جاء في قصة نوح عليه السلام جاء متناسباً مع موضوع السورة وشخصيتها، بل مع بدايتها كذلك «اقترب الساعة»، والدليل على ما نقوله: هذه الفاءات المتعاقبة التي نجدها في القصة ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ ﴿ فَأَنْصَرَفَ ﴾ ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ ﴿ فَأَلْفَيْ الْمَاءَ ﴾، ونلاحظ أن النتيجة هنا جاءت سريعة؛ لم يكن بينها وبين مقدماتها مراحل طويلة، وهذا ما يقتضيه موضوع السورة - كما قلت -، بل السورة مبنية كلها على هذه الحقيقة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾



وهكذا نجد الاتساق والتناسب التامين في السورة كلها من حيث موضوعها والقصص الذي ذكر فيها، والله أعلم.

أما سورة الأعراف، وهي السورة التي حدثتنا عن العقيدة من حيث تاريخها السحيق البعيد فقد بدئت بهذه الآية ﴿الْمَصَّ كَتَبْتُ أُزْلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِئُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١-٢] فأصحاب العقيدة لا ينبغي أن يجدوا حرجاً مما خصهم الله به على الرغم مما يجدونه من العقبات والمعوقات ثم امتنت السورة على الناس بأن الله مكنهم في الأرض، وجعل لهم فيها معاش فلا بد من أن يشكروه على نعمه، وذكرت قصة آدم عليه السلام ووجهت بعدها نداءات متعددة لبني آدم، ثم جاءت قصة نوح فوجدناها تتناسب مع موضوع السورة وما يتضمنه من نعم على بني الإنسان ليشكروه، ولا أدل على ذلك من هذا الخطاب الذي يخاطب به نوح عليه السلام قومه من أنه بلغهم رسالات ربه، ونصح لهم، ومن أنه رجل منهم جاء لينذرهم حتى تنالهم رحمة الله تبارك وتعالى، وهكذا نجد السورة في بنيتها كلها تقوم على هذا الأساس، وهو التذكير بآلاء الله ونعمه.

أما سورة الشعراء، فلقد جاءت القصة تتناسب مع موضوعها وشخصيتها - كما تحدثنا من قبل - فهي التي جمعت أعظم ما للشعر من خصائص تهيج الوجدانات، وتثير المشاعر مع سموها، وعلو شأنها على الشعر، - والله المثل الأعلى -، والتالي لقصة نوح عليه السلام ولغيرها في هذه السورة الكريمة يجد ذلك الأسلوب الأخاذ، ونكتفي بما ذكرناه من الآيات الكريمة من قبل، راجين أن يكون مصداق ما أشرنا إليه هنا.

أما سورة يونس فإن موضوعها تعنت الكافرين، وعجبهم من أن يرسل الله رجلاً منهم يوحي إليهم. والمتأمل في آيات السورة يجدها كلها بنيت على هذا الموضوع، ولقد جاءت قصة نوح عليه السلام تتناسب مع ذلك الموضوع تناسباً تاماً ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ إِنْ كَانُ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

ولكن سورة هود، وهي التي يقول فيها النبي ﷺ وعلى آله «شيبتي هود»<sup>(١)</sup> نجدتها اشتملت على ما لم تشتمل عليه سورة مثلها، وما أكثر المواقف التي اشتدت على نوح - عليه الصلاة والسلام - !! الشبهات أولاً، ثم تئيس الله له من عدم إيمانهم به، ثم سخرتهم منه، ثم ما كان من شأنه مع ابنه، ثم عتاب الله تبارك وتعالى له حينما خاطب ربه في هذا الشأن ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] كل ذلك يتناسب مع ما بنيت عليه السورة من أهوال وشدائد.

أما سورة الصافات، - وهم العباد المكرمون ملائكة وبشراً - فهي تتحدث عن طاعة أولئك العباد المكرمين لله من ملائكة ورسل ومؤمنين، وما خص الله به أولئك العباد من نعم، فنتجاهم من الأهوال. وقصة نوح عليه السلام في السورة - كما رأينا من قبل - لا تخرج عن هذا الموضوع ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ إنها سورة المنن والألطف. والمنعم في السورة يجدها كلها على هذه البنية، وربما سيمر بنا طرف من ذلك إن شاء الله تعالى.

ونظن أن الأمر في سورة نوح بيّن؛ فليس في السورة كلها إلا الحديث عن نوح، بل نلاحظ أمراً آخر في السورة الكريمة، وهي أنها كلها كما كانت حديثاً عنه فهي حديث له كذلك، فكل ما في السورة ليس إلا قولاً له عليه الصلاة والسلام، حتى الآيات التي نسب فيها القول لقومه ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح: ٢٣] جاءت محكية على لسان نوح - عليه الصلاة والسلام -، فلم تأت مجردة عن قوله وهذه هي الآيات نتأملها ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَأَتَّبَعُوا مَن لَّا يَزِدُّهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١-٢٣] السورة كلها إذن محكية

(١) أخرجه الترمذي/ سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن/ من سورة الواقعة حديث رقم ٣٢٩٣ ج ٩ ص ٣٦ الحديث «شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»، قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه.

على لسانه عليه الصلاة والسلام ابتداء من أولها ﴿قَالَ يَقُومُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ شَيْنٌ﴾ ثم ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾، فهي من أولها إلى آخرها - كما رأينا - مقولة له ﷺ وعلى نبينا وعلى أنبياء الله جميعاً وسلم تسليماً كثيراً.

أما سورة المؤمنون، فلقد جاءت تتحدث عن الصفات التي تميز المؤمنين عن غيرهم، وقصة نوح في هذه السورة - كما قلنا من قبل - جاءت تتحدث عما يحول بين الإنسان، وبين الإيمان، وهو هذا الاستضعاف والاتباع والرضا بالذل والمهانة.

بقيت سورة العنكبوت، وهي سورة الدعاة؛ لأنها جاءت تبين ركائز الدعوة ومعوقاتهما، كل ذلك بإشارات موجزة كافية ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١-٢] كل ما في السورة مواقف قصيرة موجزة معبرة تبين ما يكتنف الدعوة والدعاة من شدة، وقصة نوح عليه السلام جاءت تتناسب مع موضوع السورة من هذه الحثيات جميعها، وما على القارئ إلا أن يرجع إلى ما ذكرناه في هذه الآيات من قبل. فأنعم النظر أيها القارئ فلعل الله يفتح لك ويلهمك خيراً مما ذكرته لك وفضل الله كبير وعظيم.

## رابعاً: تعقيب على قصة نوح عليه الصلاة والسلام

هذه قصة نوح، ومن خلال روضات الجنّات في محكم الآيات التي شرفنا بها، ندرك أن نوحاً - عليه الصلاة والسلام - كان يعاني من قضيتين اثنتين يجهد نفسه من أجل أن يرشد قومه ليصلحوا خطأهم فيهما:

**القضية الأولى:** قضية التوحيد: عبادة الله الواحد، وقد قلنا من قبل إن الله تعالى هدى الإنسانية منذ خلق آدم عليه السلام للحق المبين، ولكن اجتالهم الشياطين ليشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وهذا ما ترشد إليه الآية الكريمة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ نَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

كان الناس أمة واحدة في عقيدة التوحيد؛ ولكنهم اختلفوا - كما قلنا من قبل -؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. وإذا كان نوح - عليه الصلاة والسلام - قد عانى كثيراً من هذا الأمر؛ فإن هناك قضية أخرى نجدها ظاهرة المعالم، بينة الأثر فيما يجد من قومه - عليه الصلاة والسلام -، تلك هي قضية التفاضل بين الناس، وهو ما عرف بعد بالنظام الطبقي، ولا عجب أن نجد القرآن يعالج هذه القضية ويسجلها عند الحديث عن أول رسول أرسل إلى قومه، وسندرك الغرض من ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

يظهر ذلك جلياً في تلك الشبهات التي وجهها قومه وقد ذاقوا طعم أنفسهم - اللهم لا تذقنا طعم أنفسنا - فسولت لهم بأن هناك فوارق بين الناس؛ فمنهم الوضيع، ومنهم الحقير، ومنهم الأشرف، ومنهم الأرذل، وقد وزعت هذه الشبهة - كما رأينا من قبل - على مساحة واسعة من آيات القرآن مما كان بينه وبين قومه - عليه السلام - ﴿وَمَا نَرْكَكُ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: ٢٧]

ومرة أخرى ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وثالثة ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤] ونوح - عليه الصلاة و السلام - يحاول جاهداً، ويصبر مجاهداً أن يبدد هذه النعرة من نفوسهم، ولكن كمن ينفخ في رماد، ويصرخ في واد.

وهناك قضية أخرى ليست بعيدة عن هذه، وإنما تتصل بها اتصالاً مباشراً وثيقاً؛ فنظرة الاستعلاء تقوم أول ما تقوم على دعامة من العنصرية العرقية، وشيجة القربى وصلة الدم؛ لذلك نجد نوحاً - عليه الصلاة والسلام - يهياً له المثل العملي من أجل أن تُجَتَّتْ جذور هذه العنصرية، وهذا ما نعينه بتلك القضية الأخرى ذات الصلة المباشرة بقضيتنا الأولى: نوح - عليه الصلاة والسلام - ينادي ابنه ليكون معه في السفينة، ولكن الله تبارك وتعالى يبين له أنه ليس من أهله - كما أشرنا لذلك من قبل - وأن ذلك إنما هو أثر قريب الشبه بهذه العرقية التي كانت سبباً في تعالي قومه وفخرهم ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] كما جهل قومك ونوح - عليه الصلاة و السلام - يعيب قومه بقوله ﴿وَلَيْكِنِّي - أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩] وحرى بك أن تترفع عن ذلك الذي ألفوه وعرفوه.

ونلاحظ في قصة نوح عليه السلام أنه لم يرد ذكر لامراته، كما ورد ذكر امرأة لوط، مع أن القرآن ذكر المرأتين معاً في سورة التحريم، ونظن هذا - والله أعلم -، لأن امرأة نوح لم يكن لها ذلك الدور الذي كانت تقوم به امرأة لوط، فقوم لوط كانت جرائمهم كثيرة متعددة من قطع السبيل، وفعل المنكرات الكثيرة، لكن قوم نوح كانت عقدتهم الشرك والتعالي، وفي هذا الجو لن يكون للمرأة دورها في مثل هذا الجو الطبقي، ولهذا كان القرآن يطوي ذكر المرأة في قصة نوح، ويكتفي بالقول ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠].

كانت اللبنة الأولى التي ركزت عليها قصة آدم قضية العقيدة، ولا بد من اللبنة الثانية، وهي التي جاءت تركز عليها قصة نوح - عليه الصلاة والسلام -، وهي أن هذه العقيدة ينبغي أن تكون الأساس الذي يتفاضل به الناس وهي بعد الأمر الذي يجب أن يقرب أو يبعد فيما بينهم، وما سوى ذلك من روابط وصلات ووشائج فليس حرياً أن يكون له وزن أو أن يكون له اعتباره إذا كان يتعارض مع هذا الأساس، وإذا لم تحكم العقيدة جوانبه وتسلط عليه أنوارها، وتلك قضية جدير أن يحسب لها حسابها؛ لذلك نجد نوحاً -عليه الصلاة والسلام- يستغفر ربه من هذه الرواسب التي وجدها في نفسه من غير قصد، والتي جلبتها ودفعت إليها العواطف، عواطف الأبوة الرحيمة.

قصة نوح إذن تضع اللبنة الثانية في بناء الإنسانية المحكم الذي أراد الله للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أن يكونوا بناته ومشيديه.

أمّا شخصية نوح -عليه الصلاة والسلام- كما نستشفها من خلال الآيات الكريمة؛ فهي شخصية النبي الصابر الحريص على جلب الخير لقومه مهما كلفه ذلك، ومهما لقي في سبيله، فها هو يدعو قومه، لا في النهار وحده، بل في الليل كذلك، وقد جعل الله الليل سكناً. ومن جهة أخرى فهو يستعمل وسيلة الإعلان تارة، والإسرار تارة أخرى وذلك درس حري بالتأمل.

ومن جهة ثالثة فهو لا يقتصر على التخويف فحسب، وإنما على الإطماع والتبشير ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْصُرْكُمْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١١-١٢] وهو بعد ذلك كله يناقش كل ما يأتون به من شبهات إثارات؛ ليزيلها من نفوسهم، ولكنه مع ذلك يدافع بقوة عن مبدئه، وعن المؤمنين معه وهو كذلك لا ينسى أن يستثمر الكون وما فيه من آيات، وهذا شأن الداعية الفذ، فهو يذكرهم بما في هذا الكون من أرض وسماء وبأصل نشأته، وهذه وسائل ما أجدر الدعاة أن يتبعوها

ويسلكوها ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنَاءٍ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ سَاطِعًا لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ . وعلى الرغم من المدة التي قضوها بينهم ؛ إلا أنهم لم يروعوا ، وكان من الممكن أن يستمر في دعوته لولا أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه بأنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن وما آمن معه إلا قليل ، وهنا - وقد أدرك أن لا خير يرجى منهم - يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا ﴾ [نوح: ٢٥-٢٨] حتى دعاؤه على الكافرين لم يكن تشفيا ، وإنما من أجل العقيدة ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ [نوح: ٢٧] ، وهو درس لو تعلمون عظيم . وهنا لا بد أن نتذكر ما كان من سيدنا رسول الله ﷺ وقد جاءه ملك الجبال من أجل أن ينزل بأهل مكة العذاب فيقول كلمته العظيمة ، التي لا زالت يسري عبقتها في هذا الكون هداية وتربية وحكمة نافذة ، وحكمة وبصيرة (لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده الله ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)<sup>(١)</sup> لقد دعا نوح ألف سنة إلا خمسين عاما وأدرك بالوحي الإلهي أن قومه لا يؤمنون ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ [هود: ٣٦] فكان دعاؤه -إذن- نتيجة لهذا العناء الذي انتهى بهذا الوحي الإلهي . أما موقف النبي عليه وآله الصلاة والسلام ، فكان أمراً آخر ، فلقد كانت هذه المقولة في مكة قبل الهجرة ، فكانت الهجرة بعد ذلك ، وكانت الحرب سجالا .

وأخيرا كان ما توقعه النبي عليه الصلاة والسلام ، فأخرج الله من أصلاب أولئك من عبده ووحدته ونافح عن دينه وعن نبيه عليه الصلاة والسلام ، فصلى الله على نوح ، أول رسول دعا ولم يأل جهدا في دعوته وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه آخر رسول دعا ، واستجاب الله له ، وكانت الآخرة خيرا له من الأولى وسلم تسليما كثيرا .

(١) أخرجه البخاري ج ٣ حديث رقم ٣٠٥٩ - موسوعة الحاسوب .

## المدة التي قضاها نوح عليه الصلاة والسلام:

وأخيراً يجمل أن نشير إلى أن المدة التي قضاها نوح في قومه، وهي ألف سنة الا خمسين عاماً؛ ربما يجول في بعض النفوس أنها مدة طويلة لم يعهدوا بمثلها لأحد ممن يعاصرون أو يعرفون، ونجيب:

أولاً: بأن ذلك أخبر عنه القرآن الكريم، وأخبره صدق لا مرية فيها، ونجيب.

(ثانياً): لمن يعشقون تعليل الأشياء: بأن نوحاً كان قريب العهد بآدم، وفي ذلك العهد كانت الحياة بعيدة عما طرأ عليها من تعقيد فيما بعد فلم تكن تلك المؤثرات التي تنال من الأبدان والأجسام والقوى الإنسانية. ولقد قرأت حديثاً عن بعض المناطق النائية في الاتحاد السوفييتي أن هناك أناساً متوسط أعمارهم مئة وعشرون أو مئة وثلاثون أو أربعون سنة بعيدون عن تعقيد المدنية الحديثة حتى إن الكثير منهم يظن أنهم لا زالوا في عهد الدولة القيصرية. لا يظن أحد أنني أذكر هذا ليكون دليلاً على صدق القرآن - فمعاذ الله وأستغفر الله أن أكون من الجاهلين -، لكن الذي أردت قوله: إن الإنسان في العهد الأول كان له من حيث الجسم ما ليس لمن جاؤوا بعد، وكلمة الفصل إنه خبر القرآن الصادق الذي تطمئن إليه النفوس كاطمئناننا إلى أن واحداً وواحداً يساوي اثنين، بل أكثر من هذا. وخطأ الكثيرين وانحرافهم إنما جاء من مثل هذه القضايا التي أرادوا أن يقيسوا بها الغائب على الشاهد وتلك لوثة المادية التي أعجب بها أولئك المرتابون وصدق الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿[الروم: ٦-٧] وهذا الجانب ليس هو كل شيء، وما أكثر الجوانب التي يجهلها كثير من الناس، بل أكثرهم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].



## الفصل الثالث

### قصة هود عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات .

١- سورة الفجر .

٢- سورة القمر .

٣- سورة الأعراف .

٤- سورة الشعراء .

٥- سورة هود .

٦- سورة فصلت .

٧- سورة الأحقاف .

٨- سورة الذاريات .

٩- سورة المؤمنون .

١٠- سورة الحاقة .

ثانياً: لم تفصل قصة هود كقصة نوح .

ثالثاً: تعقيب على قصة هود عليه السلام .



## قصة هود عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من آيات:

نحب أن نقرر بادي بدء أن عاداً و ثمود من القبائل العربية التي كان أمرها معلوماً حين نزول القرآن الكريم ، فالمؤرخون يقسمون العرب أقساماً ثلاثة :

١- العرب العاربة: وهم القحطانيون من أهل اليمن .

٢- العرب المستعربة: وهم العدنانيون من أهل الحجاز، وهم نسل اسماعيل بن ابراهيم - صلى الله عليهما وعلى نبينا وسلم - ومنهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٣- العرب البائدة: كعاد و ثمود وطسم وجديس .

لذلك لا نعجب إذا وجدنا القرآن الكريم يشير في كثير من آياته إلى عاد و ثمود، وقد تكون هذه الإشارات مبكرة في بعض السور الأولى، كما سنرى ذلك إن شاء الله تعالى .

وقصة هود لا تخرج عن سنن القصص في القرآن الكريم كما قلت -من قبل- من حيث ذكر الإشارات أولاً ثم التفصيل ثم النتائج السريعة .

وقد وردت الإشارة إلى عاد كما نرى ذلك في سورة النجم و (ق) والفرقان والعنكبوت، ففي سورة النجم ﴿وَأَنذَرْتُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾<sup>(١)</sup> [النجم: ٥٠-٥١]

---

(١) اختلف المفسرون في قوله سبحانه «عاداً الأولى». فذهب بعضهم إلى أن قوله سبحانه «الأولى» صفة جاءت للفصل والفرقة بين قبيلتين إحداهما: عاد الأولى، والأخرى عاد الآخرة، وقد تبني هذا الرأي ابن كثير وأبو السعود، في تفسيريهما، ومن المحدثين الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الانبياء -رحمهم الله تعالى- .

وذهب آخرون إلى أن الأولى ليست صفة كما قال الأولون، إنما هي صفة بيان فحسب، الهدف منها بيان قدم قبيلة عاد في جذور التاريخ ومن هؤلاء الشيخ ابن عاشور في تفسير التحرير والتنوير . =

وفي سورة (ق) ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣]، وفي سورة الفرقان ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، وفي سورة العنكبوت ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْتُكَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهذه الإشارات نجد في كل منها فائدة غير التي ذكرت في الأخرى، ولا نخال الأمر يحتاج إلى بيان، والذي يعيننا الآن أن ننظر نظرة في السور التي تحدثت عن قصة هود عليه السلام إجمالاً أو تفصيلاً، وسنجدها كلها مكية، كما قرناه من قبل في قصة نوح.

#### السور التي تحدثت عن قصة هود عليه السلام:

١- وأول سورة أشارت إلى هذه القصة سورة الفجر حيث جاء فيها قول الله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ<sup>(١)</sup> أَلَّتِي كُنَّ يُخْلَقُ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨] وسورة الفجر - كما نعلم - جاءت تطمئن المؤمنين بأن الليل المدلهم الذي يحيونه، وظلمته التي يعانون منها، وقسوتها التي تشتد عليهم، كل ذلك إلى زوال، فلا بد للظلمة من أن تتلاشى، ولا بد لليل أن ينجلي بالفجر الذي يشق ظلمته.

وفي تسمية السورة طمأنينة للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، وبشارة للمؤمنين بأن

= وأصحاب الرأي الأول اختلفوا في عاد الثانية، فبعضهم رأى أنها ثمود وبعضهم رأى غير ذلك.

والذي يظهر لي، وأرجحه بل أؤكد هو الرأي الثاني، فإن قبيلة عاد واحدة، ولكنها كانت الأولى لسبقها في التاريخ، ولم يبق دليل قاطع على غير هذا، والله أعلم بما ينزل.

(١) نود أن نحذر من الاسرائيليات في تفسير هذه الآيات فعاد إرم وإرم هو الأب الذي ينتسبون إليه وصفها الله بأنها ذات العماد وبأنه لم يخلق مثلها في البلاد، وهذا وصف للقبيلة نفسها، وليس لمدينة كما توهم المتوهمون وأطالوا الكلام في وصفها وبأنها لبنة ذهب ولبنة فضة ولبنة نحاس إلى غير ذلك مما لا يصح.

الفجر آت لا ريب فيه، والتعبير بالفجر بدل الصبح، جاء متسقا تماما مع موضوع السورة ومع هذه البشارة، إذ الفجر هو الذي يشق ظلمة الليل ويؤيد هذا قوله ﴿وَلَيْلٍ عَشْرٍ﴾، حيث جاءت منكرا غير معرفة، فهي الليالي التي يكون القمر فيها أسطع نورا وأشد ظهورا، وهي العشر الوسط في الشهر القمري، وعلى هذا فلا أرجح ما قيل في تفسير «ليال عشر» مما ذكره المفسرون من أنها عشر ذي الحجة أو العشر الأخيرة من رمضان أو المحرم؛ لأن ذلك كله لم يكن معلوما عند نزول السورة الكريمة، وإنما تحدث عن هذه في المدينة، ثم لو كان المقصود أحد هذه الأقوال لقبل «الليالي العشر».

والآيات التي ذكرت في السورة الكريمة تتناسب مع موضوعها من حيث تظمين المؤمنين، ومن حيث وعيد الكافرين الذين كانوا يظنون أن الأمر مستقر لهم. ولم يرد في الآيات ذكر لهود عليه الصلاة والسلام، وإنما هي إشارة لعاد إرم ذات العماد والقوة التي لم يخلق مثلها في البلاد، والقوم - كما قلت من قبل - كانوا يعرفون الكثير عن عاد وثمود؛ لأنهم عرب؛ ولأن مساكنهم كانت معلومة لهم، فكانت هذه الإشارة في سورة الفجر مؤدية للغرض موصلة للغاية المنشودة منها.

٢- ثم جاءت سورة القمر تتحدث عن عاد في هذه الآيات الكريمة: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرَ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ<sup>(١)</sup> نَزِجُ النَّاسِ - كَانَهُمْ أَعْيَارُ نَخْلِ مُنْفَعِرٍ<sup>(٢)</sup> فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذِرَ﴾ [القمر: ١٨-٢١]. وقد ذكر في هذه الآيات ما أهلك الله به عادا من الريح الصرصر في يوم نحس مستمر، وكيف كان شأن هذه الريح، وهي تنزع الناس. وكيف تصيرهم.

(١) نحس: أي مشؤوم، ومستمر: أي قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم، وهو الشديد المرارة والبشاعة.

(٢) أعجاز نخل منقعر: يعني أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً وهم جثث طوال عظام كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع، ومنقعر: منقلع عن مغارسه وقيل شبهوا بأعجاز النخل؛ لأن الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجساداً بلا رؤوس.

وهذه السورة لم يذكر فيها هود - عليه الصلاة والسلام - كذلك ، لكن الذي ذكر فيها لم يذكر كذلك في السورة السابقة ، فاختصت كل واحدة من السورتين بذكر شأن من شؤون عاد حيث ذكر في السورة الأولى ما يختص بهم من النعم التي منحهم الله إياها ، وذكر في هذه كيفية إهلاكهم فكل قصة تتناسب مع موضوع السورة التي ذكرت فيها ولا نود هنا أن نعيد ما ذكرناه عن موضوع سورة القمر حيث تقدم لنا في قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - .

٣- إن أول سورة ذكر فيها هود - عليه الصلاة و السلام - هي سورة الأعراف .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفَوِرْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِيَّةِ قَالَ يَنْفَوِرْ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُتِلُّكُمْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَادْكُرُوا ۖ آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أَاجْتَنَّا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُمُ وَنَذَرُ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رَجْسٌ وَعَصَبْتُمْ أَن تُجِيبُوا لَوْنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْظَرِينَ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢] .

وأمام هذه الكلمات القوية الرحيمة ، وأمام هذا السمت الهادي إلى الخير نجد القوم يصرون على الإعراض ، ويمعنون في التكذيب والوقاحة ، ونذكر من الآيات الكريمة أن قوم نوح يختلفون عن قوم هود ، فالملأ من قوم نوح كانوا جميعا كافرين ، أما الملأ من قوم هود فلم يكونوا جميعا كافرين ، بل كان منهم مؤمنون ، وقد يكونون قلة ، وهذا الذي تشير إليه الآية ، ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأعراف: ٦٦] فهذا يدل على أن من الملأ من لم يكونوا كافرين ، ومع أن شخصية هود عليه السلام ، كما يدرك المتدبر للآيات

القرآنية كانت شخصية تتصف بالرزانة وحسن السمات، والوقار، والهيبة، إلا أن الملائكة الكافرين تناسوا ذلك كله ووصفوه بالطيش والخفة (السفاهة) وبالكذب وقد يكون الظن على حقيقته، وهو عدم اليقين، وقد يكون مراداً به اليقين، وهذا الذي أرجحه، وذلك لقولهم ﴿إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ودليلاً على رزاقته ووقاره ﷺ هذا الهدوء الهادف ﴿يَقْوَمُ﴾ بهذا التلطف، ﴿لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ وقد يقال: لِمَ لَمْ يرد شبهة الكذب عن نفسه؟!، والجواب: إن قوله ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ﴾ فيه بيان لصدقه ﷺ، ثم يزيل الشبهات من نفوسهم ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ﴾ أي: أكان منكم الاستغراب والإنكار والعجب، ان يأتيكم رجل من جنسكم وقبيلتكم لينذركم لتستقيموا على الجادة، ثم يذكرهم بنعم الله عليه ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾، وهذا ما قرأناه من قبل ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ﴾ وهذا يدل على أن القوم كانت لديهم معرفة عن قوم نوح وما حل بهم من الطوفان، فحري بهم أن يذكروا آلاء الله ليفلحوا ويفوزوا، ولتدوم نعم الله عليهم، ولكن القوم يعرضون فلن يتركوا ما كان عليه أبائهم، وليأتهم العذاب الذي توعدهم به، وهنا وقد أدرك عليه الصلاة والسلام أن العناد والكفر بلغا منهم مبلغاً عظيماً فيقول، بأنه قد وقع عليهم من ربهم رجس وغضب إذ يجادلون في أسماء سموها هم وآبائهم ما نزل الله بها من سلطان فليستظروا العذاب، وتكون النتيجة أن ينجي الله هوداً ومن معه، ويقطع دابر القوم المكذبين، وغني عن القول أن القصة تتلاءم مع موضوع السورة حيث ينبغي أن يذكر القوم آلاء الله لعلمهم يفلحون، وغني عن القول كذلك أن ما ذكر هنا ليس فيه ما ذكر في السورتين السابقتين سورة الفجر وسورة القمر.

٤- ثم جاءت سورة الشعراء، وقد تحدثنا عن موضوعها من قبل فجاءت الآيات بهذه القوة التي تخترق أعماق القلوب القاسية وتملك المشاعر والأحاسيس، وتنفذ إلى داخل الوجدان وتتحكم في العواطف، أي والله، إن الأمر كذلك ولتدبر الآيات بليغهم:

﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْتَبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ مَائَةٍ تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ وَحْنَتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣٥].

ها هو ﷺ يذكرهم بنعم الله عليهم التي كانت حرية أن تبعثهم على شكر الله، والريح شرف، أي المكان المرتفع، وكانوا يبنون في طرقهم، حيث الرمال المتحركة أبنية مرتفعة، حتى لا تضل المارة، ويتخذون مصانع قيل هي الجوابي التي يخزن فيها الماء وهي الصهاريج، وقيل هي القصور الشامخة، ولو أن عملهم هذا كان هدفه نبيلًا، لكان في ذلك خير، ولكن لم يكن كذلك، فبناؤه كان الهدف منه العبث، واتخاذ المصانع كان الباعث عليه الكبر والتسلط، والإقبال على الدنيا إقبالا تاما ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾. ثم هم جبارون، والجبار هو الشديد في غير الحق.

قال ابن عاشور رحمه الله:

رأى من قومه تمحضاً للشغل بأمور دنياهم، وإعراضاً عن الفكر في الآخرة والعمل لها، والنظر في العاقبة، وإشراكاً مع الله في إلهيته، وانصرافاً عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأعمرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم، فانصرفت هماتهم إلى التعاطف والتفاخر واللهو...

وكانت عاد قد بلغوا مبلغاً عظيماً من البأس وعظم السلطان، والتغلب على البلاد مما أثار قولهم. ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةً﴾ فقد كانت قبائل العرب تصف الشيء العظيم في نوعه بأنه «عادي» وكانوا أهل رأي شديد ورجاحة أحلام قال وذالك بن ثميل المازني:

وأحلام عاد لا يخاف جليسه  
ولو نطق العوار غرّب لسان



وقال النابغة يمدح غسان :

أحلام عاد وأجساد مطهرة      من المَعَقَّة والآفات والأثَم

فطال عليهم الأمد، وتفتنوا في إرضاء الهوى وأقبلوا على الملذات واشتد الغرور بأنفسهم، فأضاعوا الجانب الأهم للإنسان وهو جانب الدين وزكاء النفس، وأهملوا أن يقصدوا من أعمالهم المقاصد النافعة ونية إرضاء الله على أعمالهم لحب الرئاسة والسمعة، فعبدوا الأصنام، واستخفوا بجانب الله تعالى، واستحمقوا الناصحين وأرسل الله إليهم هودا ففاتحهم بالتوبيخ على ما فتنوا بالإعجاب به، وبذمه إذ ألهاهم التنافس فيه عن معرفة الله فنبذوا اتباع الشرائع وكذبوا الرسول. فمن سابق أعمال عاد أنهم كانوا بنوا في طرق أسفارهم أعلاما ومنارات تدل على الطريق كيلا يضل المسافرون في تلك الرمال المتحركة التي لا تبقى فيها آثار السائرين واحتفروا وشيدوا مصانع للمياه وهي الصهاريج تجمع ماء المطر في الشتاء ليشرب منها المسافرون ويتنفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصورا على أشرف من الأرض، وهذا من الأعمال النافعة في ذاتها لأن فيها حفظ الناس من الهلاك في الفيافي بضلال الطرق، ومن الهلكة عطشا إذا فقدوا الماء وقت الحاجة إليه، فمتى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده، كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب أجلا.

فأما إذا أهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور بالعظمة وكانوا معرضين عن التوحيد وعن عبادة الله انقلبت عظمة دنيوية محضة لا ينظر فيها إلى جانب النفع، ولا تحت الناس على الاقتداء في تأسيس أمثالها وقصارها التمدح بما وجدوه منها فصار وجودها شبيها بالعبث لأنها خلعت عن روح المقاصد الحسنة فلا عبرة عند الله بها؛ لأن الله خلق هذا العالم ليكون مظهر عبادته وطاعته، وكانوا أيضا في الإعراض عن الآخرة والاقتصار على التزود للحياة الدنيا بمنزلة من يحسبون أنفسهم خالدين في الدنيا<sup>(١)</sup>.

(١) التحرير (١٦٥/١٩).

ولكن ماذا كان أمام هذه الكلمات التي تنشق لها الأرض وتخر الجبال هدا وتنفطر القلوب، ومن القلوب ما يكون أشد قسوة من الحجارة؛ لنستمع ما الذي أجابوا به هوداً -عليه الصلاة والسلام-:

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ<sup>(١)</sup> إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ<sup>(٢)</sup> وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ<sup>(٣)</sup> إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾  
[الشعراء: ١٣٦-١٤٠].

أرأيت إلى ما جاء في سورة الشعراء عن هود - عليه الصلاة والسلام - مع قومه، أأست معي أنه نمط جديد، ونهج جديد؟! ثم أأست ترى أن هذا النمط، وهذا النهج يتسق مع موضوع السورة وشخصيتها؟ اللهم: بلى، ولا إخالك تقول غير هذا!.

٥- ثم جاءت سورة هود - عليه الصلاة والسلام -، وقد تحدثنا عن موضوع السورة من قبل، وسنجد أن الآيات التي تحدثت عن قصة هود عليه السلام تتلاءم مع شخصية هود عليه السلام<sup>(٣)</sup> ومع موضوع السورة نفسها ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ<sup>(١)</sup> إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَنْقُومِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَنْقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا

(١) أي وعظك وعدمه سواء فلن نستجيب لك.

(٢) «إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ» أي الذي نحن عليه، إنما هو ما عليه الناس من قبلنا، وهذا مثل قوله «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ»، ويجوز أن يكون المعنى: «ما الذي تدعوننا إليه إِلَّا أساطير الأولين» وهذا كله على القراءة التي هي رواية حفص بضم الخاء واللام، وهناك قراءة أخرى، بفتح الخاء وسكون اللام، والمعنى ما الذي تقوله لنا إِلَّا كذب وافتراء، أو ما نحن إِلَّا كما مر قبلنا من الناس، موت ولا حياة فيما بعد، ويؤيد هذا «وما نحن بمُعَذِّبِينَ».

(٣) إن قصة نوح في سورة هود كانت أوسع من قصة هود، وإنما سميت هذه السورة «هود»؛ لأن نوحاً ذكرت له سورة خاصة به أولاً، ولأنه ليست هناك سورة ذكر فيها هود، كما ذكر في هذه السورة، حيث ذكر عدة مرات، «وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا» «قَالُوا يَا هُودُ... نجينا هوداً» «ألا بعدا لعاد قوم هود».

وَرَبِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٠﴾ [هود: ٥٠-٥٢] هذا قول هود عليه الصلاة والسلام في سورة هود، ولا يستطيع أحد أن يدعي أن هذا القول نفسه هو ما جاء في سورة الشعراء أو سورة الأعراف، اللهم إلا الدعوة إلى التوحيد: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] وهذا - بالطبع - الأساس الذي لا بد منه أما غير ذلك فلا، ويكفي أن نقف عند هذه السورة حيث بين لهم أنه لا يسألهم أجراً، وإنما أجره على الذي فطره، ثم يبيّتهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثم يأمرهم بالاستغفار والتوبة حتى تتوافر لهم عناصر الحياة الكريمة من إرسال السماء مدرارا كي تنمو مواشيهم وزروعهم، ومن زيادة القوة إلى قوتهم ولكن بم يجيئون؟! .

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٣-٥٤] .

هذا ما قالوه هنا وهو يختلف عما جاء في سورة الأعراف وسورة الشعراء، بل هو أقسى واشد وأنكى، ففي سورة الأعراف ما زادوا على قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠] وفي سورة الشعراء ما زادوا على قولهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦] .

أما هنا فقد أكدوا ذلك وزادوا عليه، فأولاً: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وثانياً: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ وثالثاً: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ - بهذا الأسلوب القاطع -، ولم يفهم هذا الذي قالوه، ولئن قالوا في سورة الأعراف: ﴿إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦] ولئن فهم هذا من الجمل الثلاث التي جاءت هنا في قولهم ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ لكن الذي زادوه هو أنهم اتهموه بأن آلهتهم قد مسته بسوء: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ﴾<sup>(١)</sup> وأمام هذا الاصرار على الكفر والعناد

(١) أي خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء .

والتكذيب يقول هود - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ [هود: ٥٥] وهو يقول هذا واثقا من نصر ربه : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِءِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴾ [هود: ٥٦].

وهو مثل يدل على الفهر والتمكن، وذلك لأن هناك دواب ليس لها نواصي، فالله سبحانه بيده كل شيء وهو القاهر فوق عباده إن ربي على صراط مستقيم، فهو الحكيم العادل في كل شؤونه سبحانه وتعالى . . . وأخيرا يعلن أنه قد بلغ رسالته، ويتوعدهم أن الله سيستخلف قوما غيرهم، ولن يضرروا إلا أنفسهم.

ويأتي أمر الله فينجي هودا والذين آمنوا معه برحمة منه سبحانه وينجيهم من عذاب غليظ، ويعقب القرآن على ذلك تعقيبا يدركه أولو الأبواب ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود: ٦٠] ذلك ما جاء من نبأ عاد في سورة هود - عليه الصلاة والسلام - : جديداً في مضمونه وسياقه وأسلوبه، ملتماً مع بنية السورة الكريمة، وأهدافها وأغراضها.

٦- أما سورة فصلت<sup>(١)</sup> وهي التي قرأ النبي عليه وآله الصلاة والسلام آياتها الأولى على عتبة بن ربيعة، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣] وضع يده على فيه وقال كفى كفى يا ابن أخي، فقد ارتجف قلبه وخشي أن تنزل به الصاعقة.

(١) الآيات: ١٣-١٤.

موضوع السورة يتحدث عن القوة، قوة الله وقدرته رادا على كفار مكة<sup>(١)</sup> ما يجدونه في أنفسهم حينما قالوا ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ [فصلت: ١٤] وقصة عاد جاءت تلائم مع هذا الموضوع الذي تتحدث عنه آيات السورة الكريمة، فبعد أن تحدث القرآن عن عاد وثمود وما اصابهم من صاعقة حينما أمرتهم رسلهم ألا يعبدوا إلا الله ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤] يحدثنا القرآن عن عاد واستكبارهم في الأرض، واغترارهم بقوتهم ولنستمع:

﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَابٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦] هذا هو حديث هذه السورة عن عاد الذين غرتهم قوتهم، والقوة قد تغر كثيرا من الناس فتعميهم وتضمهم عن الحق، ونحن نرى كيف تتغطرس الدول القوية في أيامنا فتكون هذه القوة من أهم أسباب الطغيان، وكذلك كانت عاد من قبل، وهذه الإشارات في السورة الكريمة لم نجد لها من قبل فيما مر معنا من السور السابقة.

٧- ثم جاءت سورة الأحقاف وهي من آل حم<sup>(٢)</sup> كذلك، وسورة الأحقاف تتحدث عن قضية الحق الذي هو أصل في هذا الكون فبه أنزل الله الكتاب ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلُهُ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وبه خلق الله السماوات والأرض ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الرِّجْزَ الرَّجِيمَ حَمَّ تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ١-٣] وسنة الله التي جرت

(١) لا أدل على ذلك من قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩].

(٢) آل حم: السور التي بدأت بقول الله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾ وهي سبعة.

واول ما يلفت النظر ان هذه السورة سميت الاحقاف، وهي مساكن عاد كما بينت السورة الكريمة. والاحقاف في جنوب الجزيرة العربية، بين عمان واليمن، وهي قرية من منطقة عُفار.

واستقرت في هذه الحياة أن يقسم كل أولئك الخارجين عن الحق أيا كانت قوتهم وهويتهم، وهذا ما جاء متسقاً متناسقاً منسجماً مع قصة هود عليه السلام في السورة الكريمة، أضف إلى ذلك ما جاءت به السورة من أمور جديدة لم نجدها من قبل وإليك البيان: جاء في سورة الأحقاف هذه الآيات الكريمة:

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِكَ عَنْ<sup>(١)</sup> الْهَيْمَتِ فَأَنْتَا يَمَّا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا<sup>(٢)</sup> مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٦].

فقد وجدنا أموراً كثيرة اختصت بها هذه القصة في السورة الكريمة ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] وهي اللفتة الأولى التي تحدثنا عن مساكن عاد، كما تحدثنا عن هذا السحاب المستقبل أوديتهم ففرحوا به ظانين أنه يحمل لهم المطر الذي يفرحون به، ولكن أنى لهم ذلك، وإنها ريح ليس فيها مطر خير، وإنما فيها عذاب؛ فهي تدمر كل شيء ولكن بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم لتكون عبرة لمن بعدهم، وذلك الجزاء الذي يستحقه كل مجرم ثم تبين الآيات أنه على الرغم من تمكينهم في الأرض أكثر مما مكن به أهل مكة، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً؛ لأنهم أعرضوا عن الحق، وجحدوا بآيات الله، واستهزأوا وهذا يتلاءم مع موضوع السورة الذي أشرت إليه من قبل.

(١) الإفك: يقال أفكه عن رأيه إذا حوله عنه.

(٢) العارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء.

٨- أما سورة الذاريات ولها من اسمها نصيب فقد جاءت تشير إلى تبديد الباطل مهما بدا منتفخاً، وظهر منتفشاً، وطغى زبده وطال أمده. وفي موضوع السورة ومقاطعها ما يشير إلى ذلك: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوْعُوا وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَعِنِّي مُتَكَلِّفُونَ قَوْلَ تَحْلِفُونَ بِأَنَّهُ لَافِكٌ مِّنْ أَفْكٍ قِيلَ لِلْخَرَّصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات: ٥-١١].

وما جاء من خبر عاد يتناسب مع هذا الموضوع، موضوع الذاريات حيث تبديد الباطل. فماذا جاء في السورة الكريمة عن أولئك القوم؟! هاتان الآيتان ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا<sup>(١)</sup> نَذَّرَ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢] وهذا الوصف للريح وما تفعله بكل ما تأتي عليه فتجعله كالريم إنما اختصت به هذه السورة الكريمة دون غيرها.

٩- أما سورة المؤمنون فلم يذكر فيها هود - عليه الصلاة والسلام -، كما لم يذكر فيها اسم عاد، وإنما ذكرت عقب قصة نوح عليه الصلاة والسلام، ونحن نعلم أن القرآن يذكر عقب قصة نوح قصة هود عليهما وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه، والآيات تحدثت عن أولئك القوم بصيغة التنكير:

﴿ تَرَىٰ أَشْيَاءَ مِّنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ وَلَٰكِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرْتُمْ يَوْمًا إِذَا أَنْكُرْتُمْ إِذَا كُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴾ هَيَّاهُ هَيَّاهُ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَمْ بِمُؤْمِنِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبْتُ قَالَ قَلِيلٌ لِّیَصْبِحَنَّ ثَلَاثِينَ فَاخَذَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا<sup>(٢)</sup> لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١].

(١) العقيم: التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر وهي ريح الهلاك.

(٢) الغثاء: حميل السيل مما بلى واسود من العيدان والورق.

فآليات تدور كلها حول قضية البعث وهو ما يعتقده المؤمنون دون غيرهم وهذا ما جعل القصة تتلاءم مع موضوع السورة الذي أشرنا إليه من قبل، وفيها كذلك بعض الحثيات التي منعته من الإيمان وهي:

أولاً: الترف الذي يعيشون فيه، والترف: سوء كله ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَوْا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦] كيف لا وهو الذي يصل بأصحابه إلى البطر ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨].

وثانياً: أن الرسول الذي دعاهم يأكل ويشرب مما يأكلون منه ويشربون؛ فلا ينبغي أن يطاع.

وثالثاً: رأوا أن الدنيا هي الغاية، إلى غير ذلك من الإشارات التي انفردت بها السورة الكريمة.

١٠ - وأخيراً جاءت سورة الحاقة فيها هذه اللقطة القصيرة عن أولئك القوم، وهذا يتسق مع نظم القرآن حيث يأتي في آخر سورة تذكر فيها القصة ذكر مجمل موجز؛ هو إجمال لكل ما سبق، ولكن لا يخلو من فائدة كذلك، واللقطة الموجزة في سورة الحاقة جاءت كذلك متلائمة مع موضوعها منسجمة مع شخصيتها، فهي سورة الأهوال والمشاهد المؤثرة في الموضوع والفخامة في الأسلوب والجزالة في اللفظ<sup>(١)</sup> وهذه الآيات خير دليل على ما ذهبنا إليه:

---

(١) الجزالة: القوة، يقال حطب جزل وهو ما لا تأكله النار بسهولة.



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِعَادٍ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاعِنَةِ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ<sup>(١)</sup> عَاتِيَةٍ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَفُتِنَتْهُنَّ أَيَّامٍ خُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة : ١-٨].

فلقد انفردت السورة الكريمة ببيان المدة التي سخرت فيها ريح على عاد وما أروع النسق القرآني فإن آخر سورة تحدثت عن نوح - عليه الصلاة والسلام - وهي سورة العنكبوت بينت المدة التي قضاها مع قومه فانظر كيف اتفقت السورتان وأنعم ثم أنعم بهذا الإيجاز المجمل في السورة الكريمة انتهى الحديث عن عاد قوم هود - عليه الصلاة والسلام - .

### ثانياً: لم تفصل قصة هود كقصة نوح :-

نلاحظ أننا لم نجد التفصيل الذي وجدناه في قصة نوح ، وهذا لا شك يرجع إلى أسباب : نحسب - والله أعلم - أن منها :-

- ١- طول المدة التي قضاها نوح - عليه الصلاة والسلام - مع قومه .
- ٢- ما كان لقوم نوح من معرفة في بعض قضايا الكون يدلنا على ذلك مثل قول الله تعالى ﴿الَّذِينَ تَرَوُا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح : ١٥] .
- ٣- التفاوت الذي كان بينهم ، يدلنا على ذلك قول الله ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذِلُونَ﴾ [الشعراء : ١١١] .

(١) الصرصر: الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق لشدة بردها .

(٢) خسوماً: نحسات حسمات حسمت كل خير واستأصلت كل بركة .

والخلاصة أننا بعد هذا التطواف الذي شرفنا به في السور الكريمة ونحن نتحدث عن قصة هود - عليه الصلاة والسلام -، لم نجد أي أثر لما يمكن أن يسمى تكراراً، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والله ولي التوفيق .

### ثالثاً: تعقيب على قصة هود عليه الصلاة والسلام

هذه قصة هود عليه السلام مع قومه، والذي نلاحظه من خلال ما مر بنا من آيات كريمة أن هوداً - عليه الصلاة والسلام - إضافة إلى دعوة قومه للتوحيد، والإيمان بالله وعبادته كان هناك أمر آخر جدير بأن ينبه قومه عليه؛ ذلك ما كان يجده أولئك من أنفسهم من هذه الغطرسة والشدة والقوة والبطش، نجد ذلك مبثوثاً في أكثر السور التي عرضت للحديث عن عاد، والقوة حين تكون بعيدة عن الحق وحين تنبعث من النفوس المعرضة المستعلية تصير سبباً من أسباب الطغيان بل من أخطر أسبابه؛ إنها تحمل أصحابها فتنسبهم أول بدهية من البدهيات، وهي أنهم خلقوا ليموتوا فبقدر ما تجدهم يبنون في الدنيا مشيدين متفاخرين، إنهم يهدمون من جانب آخر بنيانهم الإنساني فيصبح البطش طبيعتهم، والتجبر ديدنهم فلا ترداد لقلوبهم إلا قسوة... ومن هنا فهم أبعد ما يكونون عن أن يتأثروا بنصح ناصح، أو برقة واعظ، لقد أعمتهم القوة عن كل شيء، ولقد كان هود - عليه الصلاة والسلام - يبذل كل ما في وسعه ليستأصل من قلوبهم تلك القسوة، ويزيل بينهم وبين الحق هذه الجفوة: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الآيات: ١٢٨-١٣١] من سورة الشعراء .

ولكن القوم مع ذلك يعلنون - وقد استكبروا في الأرض بغير الحق - أن لا أحد أشد منهم قوة. أما هود عليه السلام فما جاء ببينة - كما ادعوا - ولن يؤمنوا له وسواء عليه وعظ أم لم يكن من الواعظين، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - وقد أئذّر وبشر يسلك مع قومه سبيلاً رشداً وهو أمر مهم - لا بد من التنصيص عليه والإشارة إليه - وهو يعلم الله -

درس لا بد أن يعيه كل من يدعو إلى الله فما أكثر من يخطئ فيه . ذلكم الأمر هو أن هوداً - عليه الصلاة والسلام - أراد أن لا يحارب مشاعر قومه وينال من عواطفهم بادي بدء، بل جارا هم وتلطف معهم، قد نجد قوماً ما طغت عليهم عاطفة حب المال فإذا جئنا لنسفه هذه العواطف في نفوسهم، وننال منها؛ فإن ذلك سيحدث ردة فعل لا تنتج إلا عكس ما نريده ونقيض ما نبتغيه، ولكن الطريقة المثلى إذا أردنا أن نستأصل هذه العاطفة ونبعدها أن نقوي فيهم عاطفة أخرى من العواطف الخيرة كالإنفاق في سبيل الله وبذل الخير فإن أراد الله بهم خيراً فإن ما يحدث هو أن تتصارع العاطفتان فتقوى إحدهما على الأخرى، وهذا النهج الذي كان من هود - عليه الصلاة والسلام -؛ فلقد أراد أن يشذب هذا الذي في نفوسهم، ويهذب تلك العواطف بها هو يقول لهم: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢] فهو كما نرى لم يحارب مبدأ القوة فيهم ولكن القوم استعصوا على كل مصلح، لذلك نجده يعلن عليه السلام بأنه توكل على الله ربه وربهم الذي لا يخرج أي شيء عن قبضته، فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها. وهكذا نجد أن هوداً - عليه الصلاة والسلام - قد أكرمه الله فوضع لبنة في بناء الإنسانية المحكم إضافة للبنتين السابقتين وهما ما تحدثنا عنهما من قبل عقيدة التوحيد وعدم التعصب لوشائج القربى وصلات الدم، اللبنة التي أضافها هود - عليه الصلاة والسلام - كانت لبنة مهمة وقد تقدمت الإنسانية زمناً (بعد نوح) عليه السلام هذه اللبنة الثالثة هي عدم الركون إلى القوة المادية والتعويل عليها وحدها والاغترار بها حتى لا تدفع صاحبها إلى الاستبداد والتجبر .

وقبل أن نتجاوز الحديث عن هود عليه السلام، يجدر بنا أن نشير إلى ما للاستغفار والتوبة من شأن عظيم، والاستغفار إنما هو طلب المغفرة وهو السر، ومنه المغفر الذي يلبس في الجهاد ليستر به المحاربون أجسامهم، والتوبة هي الرجوع .

ويظن كثير من الناس أن فائدة الاستغفار والتوبة، الغاية منهما قضية أخروية فحسب، وهذا ظن لا بد من تصحيحه، فإن للاستغفار والتوبة هدفاً آخر وفائدة أخرى، وهو أنهما يورثان أصحابهما المنعة والقوة والسعة والرخاء، فالاستغفار والتوبة فيهما خير الدنيا والآخرة، ولقد أكدت آي الكتاب العزيز والأحاديث النبوية الشريفة هذه القضية، ولا نكاد نجد نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إلا ويأمر قومه بالاستغفار والتوبة.

وإذا تأملنا سورة هود نجدها قد أكدت فيها هذه القضية تأكيداً تاماً، فنقرأ في أول السورة الكريمة ﴿الرَّ كُنْتُ أَهْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرُّ مَنَّهُ نَذِيرٌ وَنَسِيرٌ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: ١-٤].

وقد مر معنا قول هود ﷺ ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَرِيْدَكُمْ قُوَّةً إِلَى قُؤْنِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَحْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

وفي السورة نفسها نقرأ قول صالح ﷺ ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] ولقد مر معنا من قبل قول نوح ﷺ ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

إن الاستغفار والتوبة هما خير علاج للنفوس التي اشرأبت، وكادت تعصف بها الأهواء، ويستحوذ عليها الشيطان، ويعبث بها عدوها. اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، ولقد كان سيدنا محمد ﷺ يكثر من الاستغفار والتوبة كما جاء في السنة المطهرة.

## الفصل الرابع

### قصة صالح عليه السلام

ما ذكر فيها من آيات:

١ - سورة الشمس .

٢ - سورة القمر .

٣ - سورة الأعراف .

٤ - سورة الشعراء .

٥ - سورة النمل .

٦ - سورة هود .

٧ - سورة الحجر .

٨ - سورة العنكبوت .

اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصص نوح وهود وصالح عليهم السلام .

أولاً: اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة نوح .

ثانياً: اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة هود .

ثالثاً: اختلاف الألفاظ والتراكيب في قصة صالح .

تعقيب على قصة صالح عليه السلام .



## قصة صالح عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلوات الله وسلامه:

### ما ذكر فيها من آيات:

أشارت الآيات مبكرة إلى ثمود؛ قوم صالح - عليه الصلاة والسلام -، وذلك لما ذكرناه في قصة هود من قبل، لذلك نجد أكثر السور التي حدثتنا عن عاد تحدثنا عن ثمود كذلك، وإنما قلنا: أكثر السور؛ لأن هناك سوراً ذكر فيها أحد الفريقين فحسب. ومن هنا نجد أن أول سورة ذكرت فيها ثمود هي سورة الفجر التي ذكرت فيها عاد - كما قلنا من قبل - وهذه الإشارة جاءت متسقة مع موضوع السورة الذي تحدثنا عنه هناك، وهو ذلك الفجر الذي وعد المسلمون به لإنهاء الليل الدامس.

ومن هنا كانت الإشارة إلى ثمود كالإشارة إلى عاد تتحدث عن جوانب القوة ومواطن الشدة وشدة البأس ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِذْ مَاتَ الْوَعْدِ أَلَنِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَكْدِ﴾ [الفجر: ٦-٩] وهذه لا شك صفة من صفات القوة وهي أن يقطعوا الصخر في واديهم، ويتحكموا فيه؛ ليجعلوه كما يريدون؛ وليتخذوا منه بيوتاً فارهين آمنين، فهي ترف من جهة وحسن من جهة أخرى.

ثم وجدنا إشارات في بعض الآيات كما جاء في سورة النجم و (ص) والفرقان، وقد تحدثنا عن هذه الإشارات من قبل عند حديثنا عن عاد فآية النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودًا ثَمَانِي﴾ [النجم: ٥٠-٥١] وآية (ص): ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْدَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢-١٤] وآية الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٨]. ولقد مرَّ معنا ما جاء في سورة السجدة<sup>(١)</sup> والذاريات والحاقة من إشارات كذلك إلى عاد، وقد أشارت جميعها كذلك إلى ثمود.

(١) السجدة: أي سورة فصلت.

أما سورة فصلت فبعد أن حدثنا عن عاد واستكبارهم في الأرض وتغترسهم وتساؤلهم من أشدُّ منَّا قوة؟! وما حل بهم بعد ذلك حدثنا عن ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا<sup>(١)</sup> كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

وأما سورة الذاريات - وقد عرفنا ما جاء في آياتها الزهر عن عاد من قبل -، فقد حدثنا عن ثمود بهذه الآيات: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ حِينٍ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٥].

وأما سورة الحاقة فلقد جاء فيها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِوَاعْدِ الْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٤-٥].

وهذه الإشارات على تعددها نجد كل واحدة انفردت فيها بما لم يجيء في غيرها. فآية فصلت - كما رأينا - بينت لنا أن الله منَّ على ثمود بالهداية ولكنهم أبوا واستحبوا العمى عليها فأخذتهم صاعقة العذاب الهون.

وأما آية الذاريات، فقد بينت لنا أن الله تبارك وتعالى متعمهم وأمهلهم إلى حين ولكنهم عتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون إلى ما يحل بهم، فلم يستطيعوا أي حركة وهكذا حلت بهم الهزيمة.

والناظر في هذه الإشارات يجد أن كل واحدة فيها عبّرت عن هذا العذاب تعبيراً جديداً؛ فهي صاعقة العذاب الهون في سورة فصلت، أو الصاعقة وحدها في سورة الذاريات، والطاغية في سورة الحاقة؛ والطاغية مبالغة في العذاب، وبعضهم يفسر الطاغية بالرجل الذي عقر الناقة، فإن قبل هذا التفسير كانت إشارة مغايرة لكل ما مر.

(١) صاعقة العذاب: داهية العذاب وقارعة العذاب (والهون): الهوان، وصف به العذاب مبالغة.



والسورة الوحيدة التي انفردت فيها الإشارة إلى ثمود دون عاد هي سورة الإسراء؛ ذلك لأن سورة الإسراء جاءت تتحدث حسب موضوعها وهو أن الآيات التي يؤيد الله بها الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا تجدي الذين جاءت من أجلهم؛ لأنهم يكذبون بها فيحل عليهم العذاب، وما هم أهل مكة ما زادتهم آية الإسراء إلا إعراضاً، ولا عجب فمن قبلهم ثمود كذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ<sup>٥٩</sup> وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا<sup>(١)</sup>﴾ [الإسراء: ٥٩] كانت الإشارة إلى ثمود هنا إذن متسقة مع سياق السورة، لذا نجد أن ثمود انفردت عن عاد، والله أعلم.

أما السور التي حدثنا بشيء من التفصيل عن قصة صالح - عليه الصلاة والسلام - فهي: - الشمس والقمر والأعراف والشعراء والنمل وهود والحجر وكثير من السور التي قرعت قلوبنا آياتها حينما كان الحديث عن هود - عليه السلام -، ولكننا نجد هنا أن أكثر من سورة انفردت بالحديث عن ثمود، ولعل ذلك يتصل بموضوع السورة نفسها من جهة، وبما خصت به ثمود من جهة أخرى، ولقد كان الحديث مبكراً - كما قلت من قبل - عن ثمود، أو عن عاد وثمود، فوجدنا كلاً من الفجر والقمر تشير إليهما وقد تقدم لنا بعض إشارات الفجر.

١ - أما الشمس: فلقد خُصَّت بالحديث عن ثمود دون عاد، ولعل ذلك يتناسب تماماً مع موضوع السورة الكريمة؛ فهي تتحدث عن وضوح الحق كالشمس وضحاها أي حينما تكون شهاباً في رابعة النهار، والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها وفي أثناء ذلك كله يأتي الليل ثم يأتي الحديث عن النفس وتسويتها خلقاً وإبداعاً وعن فلاح مَنْ يركيها:

(١) مبصرة: بيئة واضحة.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ<sup>(١)</sup> بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عَقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

هذه أول سورة أشارت إلى ثمود وحدها وبشيء من التفصيل، فقد كذبوا لا لعدم كفاية الآيات ولأنها ليست مقنعة وإنما كذبت ثمود بسبب طغيانها ولقد بلغ هذا الطغيان مبلغه حينما انبعث أشقاها واسمه قدار بن سالف - كما تقول الروايات - من أجل أن يعقر الناقة التي هي آية مبصرة كالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، وحذرهم رسول الله صالح - عليه الصلاة والسلام - وإن كانت الآيات هنا لم تحدثنا عن اسمه؛ حذرهم بأن تلك ناقة الله لا ينبغي لهم أن يعرضوا لها بسوء ولا أن يمنعوا سقياها، ولكنهم كذبوه واتبعوا قدارا، ولم ينكروا عليه، وسكتوا عن فعلته الشنيعة، وربما اشترك بعضهم معه في عقر هذه الناقة، فكانت النتيجة هذه الدمدمة من ربهم الذي شملهم برعايته ولكن أبوا إلا أن يحاربوه، وكانت الدمدمة بسبب ذنبهم الشنيع فسواها ولا يخاف عقباها.

٢- ثم جاءت سورة القمر وبعد أن حدثنا عن عاد حدثنا عن ثمود بهذه الآيات:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنَّدْرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَهْلَى الذِّكْرِ عَلَيْهِ مِنْ يَتِينَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرُّ سَيَّعَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةَ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخَضَّرٌ فَنَادَوْا صَاحِبُهُمْ فَنَعَاطَى فَعَقَرَ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذِرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحَخِيطِ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

ونحن نجد تفصيلاً في هذه الآيات عما سبق، لكن الذي نلاحظه هنا أن صالحاً - عليه الصلاة والسلام - لم يذكر اسمه في هذه السورة التي مرت، بل لا نجد له أي حديث

(١) فدمدم عليهم: فأطلق عليهم العذاب وهو من تكرير قولهم: ناقة مدمومة: إذا ألبسها الشجم (بذنبهم) بسبب ذنبهم وفيه إنذار عظيم بعاقبة الذنب فعلى كل مذب أن يعتبر ويحذر (فسواها) الضمير للدمدمة فسواها بينهم لم يقلتها صغيرهم ولا كبيرهم، (الكشاف ج٤، ص ٧٦١).

هنا، والمتأمل في الآيات الكريمة يجد أن الحديث كله عن الله تبارك وتعالى، وهو متسق تماماً مع الحديث عن قوم هود إذ لم نجد له في السورة أي كلمة، وهذا بالطبع متناسب مع موضوع السورة التي جاءت تبين أن المعرضين يكذبون بآيات الله الواضحات أياً كان الرسل الذين جاءوا بها ولهذا نجد الحديث فيها كلها عن الله تبارك وتعالى دون أن يأتي على لسان الرسل - عليهم الصلاة والسلام - شيء من ذلك .

بينت لنا السورة الكريمة أن ثمود كذبوا بالنذر وأنهم يربأون بأنفسهم من أن يهديهم بشر منهم، إنهم إذن في ضلال وهلاك، ولماذا خص من بينهم بالرسالة، بل هو كذاب أشر<sup>(١)</sup>، وهنا يتولى الله الدفاع بنفسه ﴿سَيَعْلَمُونَ عَدَاوَةَ الْكَذَّابِ الْأَشْرِّ﴾ [القمر: ٢٦] ثم يبين أنه سيرسل الناقة فتنة لهم ليختبرهم فارتقبهم يا صالح واصطبر ولا تعجل ونبتهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة فلا ينبغي أن يطغى بعض على بعض - كل شرب محتضر - أي محذور لهم أو للناقة، وقيل يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها - وتحدثنا الآيات أنهم نادوا صاحبهم فكان منه ما كان حينما تعاطى الفعلة الشنيعة وعقر الناقة، فلينظروا فما أهون العذاب وما أشد النذر؛ ويخبر الله بأنه أرسل عليهم صيحة واحدة فكانوا كلا هشيم المحتظر<sup>(٢)</sup> .

كل ما في السورة هنا جديد والناظر المتأمل يجد ذلك بينا لا يحتاج إلى تفصيل .

٣- ثم جاءت سورة الأعراف، وهي أول سورة يذكر فيها اسم صالح - عليه الصلاة والسلام - ونجد ونحن ننظر في الآيات عناصر جديدة على غاية من الأهمية انفردت بها السورة الكريمة:

فأولاً: ذكر اسم صالح - عليه الصلاة والسلام - .

---

(١) أشر: بطر متكبر .

(٢) المحتظر: الذي يعمل الحظيرة للدواب وبعد أمد تصير الحظيرة هشيماً متحطماً تطؤه الدواب بحوافرها .

وثانياً: الدعوة إلى التوحيد بصراحة ووضوح.

وثالثاً: تذكيره لهم بما جاءهم من ربهم من البينات فهذه الناقة جيء بها معجزة لهم<sup>(١)</sup>، وهي ناقة الله فليمكنوها من أن تأكل من أرض الله ولا ينبغي أن يمسوها بسوء حتى لا يمسه العذاب كذلك.

ورابعاً: يذكرهم بما من الله به عليهم، وقد جعلهم خلفاء من بعد عاد، وبوأهم في هذه الأرض يتخذون من سهولها قصوراً، وينحتون الجبال بيوتاً، فما أجدرهم أن يذكروا آلاء الله فيشكروه! وما أحراهم أن يبتعدوا عن كل ما لا يليق؛ فلا يعتوا في الأرض مفسدين!.

كما تحدثنا السورة الكريمة عن أن قومه كانوا فريقين اثنين: المستكبرين، وهم الذين تأخذهم العزة بالإثم، وهم الذين تتوجه لهم العيون والنفوس، ثم المستضعفين، وهم الذين لم يعطوا من الوجاهة والزعامة وأسباب الظهور والانتفاش ما أعطيه غيرهم، وهؤلاء نجد بعضهم يأبى إلا أن يسير في ركاب المستكبرين، وأن يعطوا الذلة من أنفسهم، ولكن بعضهم الآخر رأى أن يتخلص من هذا الذل والاستضعاف، وذلك حينما لا يفرطون في جنب الله، ويأوون إليه، ويستجيون له.

تحدثنا السورة الكريمة عن هذه المحاورة بين الفريق الأول وهم المستكبرون والفئة الثانية من الفريق الثاني وهم المؤمنون من المستضعفين، ثم تحدثنا السورة عن عقربهم للناقة دون أن تخص واحداً - كما مر معنا من قبل في السور السابقة - ؛ لأنهم أجمعوا

---

(١) يرى الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- أن معجزة صالح قد تكون الناقة، وقد تكون شيئاً آخر لم يذكره القرآن، ومع علمنا بأن كل نبي لا بد له من معجزة، وبأنه لم تذكر جميع معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لكن الذي نعتقده أن الناقة هي المعجزة، وهذا ما ترشد إليه الآيات الكثيرة، مثل قوله: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [الاعراف: ٧٣] وقوله: ﴿وَنَقَّوْرَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [هود: ٦٤] ولا ينافي هذا قوله سبحانه ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القمر: ٢٧].

عليه ورضوا به ؛ فليأتهم صالح بالعذاب إن كان مرسلًا ، وتأخذهم الرجفة وينتهي كل شيء  
هذا ما أشارت إليه سورة الأعراف ، وهي تحدثنا عن صالح عليه الصلاة والسلام ،  
وهو حديث متسق منسجم مع موضوع السورة التي جاءت تحدثنا عن العقيدة في بعد  
التاريخ وعمقه وجهاته المتعددة ، ولتدبر الآيات الكريمة قال تعالى :-

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ  
جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا  
تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي  
الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي  
الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ  
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ  
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا<sup>(١)</sup> عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا  
يَصْلِحُ أَتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ<sup>(٢)</sup> فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ  
جَاثِمِينَ فَنُوحِيَ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ<sup>(٣)</sup> رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ  
الْتَّصِيحَ ﴾ [الأعراف : ٧٣-٧٩] .

وهكذا أضافت سورة الأعراف إلى موضوع القصة جديداً يكمل موضوعها من جهة ،  
ويبرز قضايا عقدية واجتماعية ، لا بد أن يعيها المسلمون بعامة ، ومن يعملون في مجال  
الدعوة بخاصة من جهة ثانية .

(١) عتوا عن أمر ربهم : تولوا عنه ، واستكبروا عن امتثاله عاتين ، من ذلك هذه المحاوراة بين  
المستكبرين والمستضعفين ومحاربة الحق رغم وضوحه .

(٢) الرجفة : الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (جاثمين) هامدين ، لا يتحركون موتى .

(٣) وقد أفردت الرسالة هنا ولم تجمع كما جاء على لسان نوح وهود عليهما الصلاة والسلام  
﴿ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي ﴾ [الأعراف : ٦٢] ؛ لأن الشيء الوحيد الذي دعا إليه قومه هو التوحيد .

٤- ثم جاءت سورة الشعراء: سورة المشاعر والأحاسيس تأسر اللب وتملك شغاف القلب، ولكن لذوي الأبواب، ولمن كان له قلب، ولنستمع إلى ما يقوله صالح - عليه الصلاة والسلام - لقومه بذلك الأسلوب المؤثر ويزيد في تأثيره قصر هذه الآيات؛ فكل آية حري بها أن تكون درساً ترهف حساً أو تصدّع نفساً:-

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّتِ وَعْيُونِ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعُهَا هُضِيمٌ وَتَبَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ<sup>(١)</sup> فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ<sup>(٢)</sup> مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُزْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٩].

ونلمح في هذه الآيات الكريمة هذا الإقبال من صالح على قومه، فهو أخوهم، وهو لهم رسول أمين، كل ما يريده منهم: تقوى الله، وطاعته، فلا يريد أجراً ولا ينغي جزاء؛ لأن أجره من ربه وربهم رب العالمين، ثم يصل إلى أعماق نفوسهم، وهو يخاطبهم فيذكرهم بنعمة الله عليهم ولعل أهمها وأعظمها نعمة الأمن ثم هذه الطبيعة الخلابة وهذه البيئة الطبيعية الجذابة، حيث توفرت لهم أسباب الحياة جميعها من جنات وعيون،

(١) (الطلع) اسم من الطلوع وهو الظهور وأصله ثمر النخل في أول ما يطلع (والهضيم) البانح النضيج، أو الرطب اللين اللذيذ الذي تداخل بعضه في بعض، والمعنى أتنظنون أنكم متركون بدون حساب أو سؤال من خالقكم وأنتم تتقلبون في نعمه التي منها ما أنتم فيه من بساتين وأنهار وزروع كثيرة متنوعة. إن كنتم تظنون ذلك فأقلعوا عن هذا الظن واعتقدوا بأنكم أنتم وما بين أيديكم من نعم إلى زوال.

(فارهي) ماهرين حاذقين في نحتها، والمعنى أنهاكم عن انهماككم في نحت الحجارة من الجبال بمهارة وبراعة، لكي تبثوا بها بيوتاً وقصوراً بقصد الأشر والبطر لا بقصد الإصلاح والشكر.

(٢) (المسحرون) أي الذين لهم رئة يأكلون ويشربون، وسنوضح هذا المعنى فيما بعد إن شاء الله.

يجد كل واحد فيها بهجته، ويقيم الله بها عليه حجته، ثم هذه الزروع والنخل التي يجدون فيها أقواتهم ويشغلون فيها أوقاتهم، ثم هذه الأمكنة الحصينة التي خصوا بها تجعلهم ذوي بأس وتمنعهم من عدوهم، فما أحرهم إذن أن يتقوا الله على هذه النعم ويطيعوه، ويطيعوا صالحاً حتى يحفظ الله عليهم هذه النعم، ولا ينبغي أن يلتفتوا إلى الذين تأخذهم العزة بالإثم، والذين يغرم ما هم فيه من نعم هؤلاء المسرفون الطاغون دأبهم الإفساد في الأرض شأنهم في كل زمان، ولكن مع هذا التحجب والتقرب، ومع وضوح الآيات، ومع التذكير بالنعم بأبلغ نظم وأعذب نغم مع هذا كله، رأوا بشريته مانعة من أن يكون نبياً ورسولاً؛ فليأتهم بآية حتى يصدقوه وتأتي الآية إرخاءً للعنان، وهي معجزة حري أن تكون كافية لمن له مسحة من عقل؛ لأنها أمر غير مألوف، وحدث غير معروف؛ ناقة وما أكثر النياق عندهم! ولكن لها شرب ولهم شرب يوم معلوم دون أن يؤثر ذلك على حاجتهم للماء؛ فلا ينبغي أن يقربوها بشر ولا يمسهن بسوء، ولكن كان الأمر على العكس من ذلك فأخذهم العذاب.

هذا ما جاء في سورة الشعراء، وهو بحق يحدثنا عن جانب جديد، ومن زاوية جديدة كذلك، ونلاحظ أن سورة الشعراء هي أكثر السور التي رأينا فيها حديثاً لصالح - عليه الصلاة والسلام -، وهي كذلك بالنسبة للأنبياء جميعاً الذين ذكروا في هذه السورة عليهم صلوات الله وسلامه وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً. وإذا كان الشعراء يطربون الناس بشعرهم، ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥-٢٧٧]؛ فإن الأنبياء - عليهم السلام - جاءوا بما يجلُّ عن الشعر وإن كان له أعلى ما للشعر من خصائص وتأثير مع تميزه بالصدق والحق، ولئن كان أعذب الشعر أكذبه - كما يقولون -؛ فإن في كلام الأنبياء ما هو أكثر عذوبة فيما هو صدق كله.

## ٥- وجاءت بعد ذلك سورة النمل ونلاحظ هنا :

أن قصة صالح- عليه الصلاة والسلام - أفردت عن قصة هود حيث ذكرت في سورة النمل وحدها، وقد ذكرت عقب قصة سليمان - عليه الصلاة والسلام - مع ملكة سبأ، ويلوح لي أن قرب المكان ووحددة الجنسية ووحددة الموضوع، جاء كل ذلك بقصة صالح بعد ذكر ملكة سبأ، أما قرب المكان فبين سليمان - عليه الصلاة والسلام - وبين قوم صالح. فهما في مكانين متقاربين وهما الحجر وفلسطين وكلاهما من بلاد الشام وأما وحدة الجنسية فبين ملكة سبأ وبين ثمود، وأما وحدة الموضوع؛ فلأن السورة كلها مبنية على حكمة الله وعلمه؛ فكثير مما يبدو غريباً على الناس بعيداً من أن تتصوره عقولهم؛ ويحيطوا به علماً اقتضته حكمة الله تبارك وتعالى، وأحاط به علمه فهو هيّن عليه سبحانه - والله المثل الأعلى -، كما رأينا في قصة موسى وقصة داود وسليمان عليهم السلام وخبر النمل والهدهد وعرش ملكة سبأ.

تحدثت السورة إذن عما يخص بني إسرائيل، وما كان بين موسى - عليه الصلاة والسلام - وفرعون أولاً، وما كان بين بني إسرائيل وبين بعض العرب كما جرى مع سليمان عليه السلام وملكة سبأ ثانياً ثم تحدثت عما يخص العرب وحدهم ثالثاً وهي قصة صالح - عليه الصلاة والسلام -، وسنرى فيها من عجائب الحكمة الإلهية ما يجعلنا ندرك السر الذي من أجله أفردت قصة صالح وسبب ذكرها مع القصص التي ذكرت معه في السورة من جهة أخرى، ومن جهة ثالثة سنلاحظ القضايا الجديدة التي عرضت لها القصة في هذه السورة الكريمة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِمَ شَتَعَجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا أَطِئْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَئِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْسِدُونَ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا نَفَاسِمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا



لَصِدْقُوتٍ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ  
مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿النمل: ٤٥-٥٣﴾.

فالأيات الكريمة تشير إلى الفريقين المختصمين، وسواء أكان هذان الفريقان صالحاً وقومه - كما يرى بعض المفسرين - أم قومه فحسب، - كما يرى بعضهم الآخر - وهو ما نرجحه؛ فإننا نرى أن صالحاً - عليه الصلاة والسلام - ينكر عليهم استعجالهم بالسيئة قبل الحسنة، ويحثهم ويحضهم على استغفار الله؛ لينالوا رحمته، ويجيبونه بأنهم يتشاءمون منه، وممن آمن معه، ويردُّ عليهم بأن ما يصيبهم من خير أو شر لم يكن بسببه هو ومن آمن معه، وإنما طائرهم عند الله، ثم يخبرنا القرآن الكريم أنه كان في مدينة صالح؛ وهي الحجر تسعة رجال طبعوا على الفساد، وقد تقاسموا فيما بينهم أن يبيتوه وأهله أي حلفوا أن يغيروا عليه وعلى أهله ليلاً فيستأصلوهم ويبيدوهم جميعاً، ثم ليقولن لوليه الذي يطالب بدمه ليس لنا دَخْلٌ في هلاكه ولا هلاك أهله وأنهم بُرَاء من دمه ودم أهله، ويؤكدون ذلك بأنهم صادقون فيما يقولون، ولكن مكر الله كان أسرع من مكرهم حيث دمرهم وقومهم قبل أن يلحقوا بصالح عليه السلام أذى وهذه بيوتهم خاوية خالية منهم، وكل ذلك إنما هو نتيجة ظلمهم، وفي ذلك آية لقوم يعلمون. أما من آمن بصالح عليه السلام فلقد نجاه الله تبارك وتعالى.

هذه هي قصة صالح - عليه الصلاة والسلام - في سورة النمل لا نجد فيها ذكراً للناقة؛ ولكنها تقص علينا شيئاً جديداً - كما قلنا من قبل - فتحدثنا عن تشاؤمهم بصالح عليه السلام ومن معه، وعن عزم الرهط منهم أن يهلكوه ليلاً ثم يتبرءوا من دمه، ولكنهم جوبهوا بالعقاب قبل أن ينفذوا ما يبيتوه.

٦- ثم جاءت سورة هود تحدثنا عن القضايا الجديدة التالية: فبعد أمر صالح لهم بتوحيد الله، يبين لهم نعمه سبحانه عليهم بأنه أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها

فليستغفروه ثم يتوبوا إليه فربه قريب مجيب، وهذا فيه وعد ووعد؛ لأنهم إن فعلوا ذلك فذلك من قبيل الوعد، وإن أعرضوا فهو من قبيل الوعيد، فهو قريب من صالح عليه السلام مجيب دعوته، ولكنهم ردّوا على صالح عليه السلام بقولهم: قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا، كنا نظنك ذا حصافة في العقل وأصالة في الرأي لقد خاب ظننا فيك، كيف تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا إننا لفي شك مريب مما تدعوننا إليه، ويجيبهم - عليه الصلاة والسلام - متلطفاً يا قوم أخبروني إن كنت على بينة من ربي ومنّ علي برحمة من عنده وأمرني أن أبلغ رسالته، كيف أخالف أمره، من ينصروني من الله إن عصيته؛ إنني إن خالفت ربي وأرضيتكم فما يزيدني ذلك إلا خساراً وبواراً -أي وبالاً-، ولكنكم إن كنتم في شك فهذه آية على صدق رسالتي، ناقة الله، ذلكم ما قاله القوم لنبيهم وما قاله لهم، وما أجدرنا أن نقف عنده لنفيد مما فيه من عبر ولننعم بما فيه من ثمر، إنهم يحترمون صالحاً عليه السلام ما دام بعيداً عن أن يمسّ واقعهم السيِّء ولا ينال من عقيدتهم، ولقد رأينا هذا الأمر عند قريش وقد كانوا يصفون النبي عليه وآله الصلاة والسلام بكل أوصاف الخير وهكذا أهل الباطل دائماً يزينون لكثير من الناس أوصافهم وأعمالهم حتى يشنّوهم عن الحق ويردوهم عن مبادئهم، وربما تأثر أصحاب النفوس الضعيفة بهذا الشاء كأن يقال: هذا هو الفكر المستنير، هذا ما يتفق مع روح العصر، هذا الذي ليس فيه تشنُّج، وشخصية صالح عليه السلام؛ الشخصية الفذة القوية الحكيمة، نلمس هذا مما رد به على قومه وما أكثر الدروس في قصص القرآن، وما أحوجنا إلى الإفادة منها.

وبيّن - عليه الصلاة والسلام - لقومه أمر الناقة، وما ينبغي أن يكون موقفهم منها حتى لا يأخذهم العذاب القريب ولكنهم مع ذلك يعقرونها فيقول لهم: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام فذلك وعد صادق غير مكذوب وتنتهي الأيام الثلاثة ويجيء أمر الله تبارك وتعالى فينجي صالحاً عليه السلام والذين آمنوا معه أما الظالمون فتأخذهم الصيحة فيصيبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها. كل هذا بسبب ظلمهم وكفرهم.

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]. وهذه هي الآيات الكريمة :

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِمَّا عَصَيْتُمْ فَأَنْتُمْ أَتُوبُونَ غَيْرَ تَحْسِيرٍ وَيَنْقُورِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بِجَعِنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيٍ يُومِيئُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جَثِيصِينَ كَانُوا يَغْنَوْنَ فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: ٦١-٦٨].

٧- ثم جاءت سورة الحجر لتحدثنا عن قصة صالح عليه السلام، ولم تخرج عن السنن الذي ألفناه من قبل، وعن النهج الذي عرفناه، وهي أن آخر سورة تحدثنا عن قصة أي نبي من الأنبياء يأتي الحديث فيها مجملًا كالمأثور هو تلخيص لكل ما سبق، ولكنه - كما رأينا من قبل - فيه كثير من الفوائد التي لم نجدتها فيما فصل من قبل، وكذلك الآيات التي حدثتنا عن ثمود في سورة الحجر وهذه الآيات هي :

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِعِينَ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤].

والجديد في هذه الآيات - على الرغم من إيجازها وإجمالها - أنها بينت لنا مكان ثمود لأول مرة، وهو أن مدينتهم كانت الحجر، وأنهم ينحتون من الجبال بيوتًا آمنة، وهذا يختلف عن الأمن الذي ذكر في سورة الشعراء ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَنُونا ءَامِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦] ويختلف عن النحت كذلك، إذ ذكر قوله ﴿وَتَنحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

فَرِهَيْنَ ﴿١﴾ [الشعراء: ١٤٩].

٨- ثم جاءت سورة العنكبوت تشير إلى عاد وثمود معاً بآية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ بَيَّنَّا لَكُم مِّن مَّسْكِنِهِمْ وَزَيَّنَّا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] والله يذكر الناس هنا بعامية والعرب بخاصة بأنه قد أهلك عاداً وثمود، وقد تبين لكم أيها العرب ويا أهل مكة هذا الإهلاك؛ لانكم تمرون بمساكنهم دائماً؛ لأنها الحجر من شمال بلادهم، والأحقاف من جنوبها، ولكن الشيطان زين لهم أعمالهم فصدهم عن سبيل الخير مع أنهم كانوا مستبصرين، منحوا من العقول ما يكفيهم ليميزوا الخير من الشر، وكذلك كانوا مستبصرين يدركون أن العذاب نازل بهم ولكنهم لجوا وأعرضوا.

هذه قصة صالح - عليه الصلاة والسلام - من حيث الموضوعات التي اشتملت عليها كل سورة، ومن حيث اختصاص كل سورة بما يلائمها. وهذه القصص الثلاث - أعني قصة نوح وهود وصالح - عليهم الصلاة والسلام - هي أكثر القصص ذكراً بعد قصة موسى - عليه الصلاة والسلام -، وقد وعدنا - من قبل - أن نتكلم عن هذه القصص من جهات ثلاث:

أولاً: من حيث الموضوعات والجزئيات والمشاهد والمواقف التي ذكرت موزعة على السور.

ثانياً: من حيث اختصاص كل سورة بما يلائم موضوعها.

ثالثاً: من حيث الألفاظ والتراكيب التي ذكرت في القصة الواحدة في أكثر من سورة.

---

(١) وإذا رأينا السورتين الآخرين اللتين تحدثتا عن نوح وهما سورة العنكبوت وسورة الحاقة قد بينت كل منهما الزمان الذي أهلك فيه عاد فإن هذه السورة قد بينت لنا مكان ثمود.

وكان حديثنا فيما مضى عن الناحية الأولى والثانية، وبقيت الثالثة، وهي التي تخص الألفاظ والتراكيب، وهو ما سنتحدث عنه إن شاء الله تعالى.

### من حيث الألفاظ والتراكيب:

أولاً- ما جاء في قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - أنه جاء في سورة المؤمنون وسورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [هود: ٢٥] وجاء في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٥٩] وجاء في سورة نوح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١] أما سورة نوح فالأمر فيها ظاهر؛ لأنها فاتحة السورة وبدايتها فجاءت بالحرف الدال على التوكيد وهناك سور ابتدأت كذلك بهذا الحرف كسورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] وسورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] وسورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ولحرف التوكيد محسناته في كل سورة من هذه السور<sup>(١)</sup>.

أما سورة المؤمنون، فلقد جاء فيها قبل الحديث عن نوح - عليه الصلاة والسلام - هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] ثم قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ﴾ [المؤمنون: ١٧] ثم قال بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٣] فكان قصة نوح عليه السلام جاءت معطوفة على قصة خلق الإنسان ولما كان العطف يقتضي التغاير والاشتراك وهما متوافران هنا حسن العطف. ولهذا ما أشرت إليه من قبل، وبينت أننا لسنا مع الدكتور القصبي فيما ذهب إليه.

---

(١) فهو في سورة نوح جاء تسلياً للنبي الكريم ﷺ وبشارة للمؤمنين وإنذاراً للكافرين ومن محسنات هذا الأسلوب في السورة الكريمة أنها لم يذكر فيها قصص آخر بل كانت خاصة بقصة نوح عليه الصلاة والسلام.

وأما سورة هود فلأن سياق الآيات التي قبلها يتحدث عن رسالة النبي ﷺ بدليل قوله في أول السورة: ﴿ كَتَبْنَا نُوحًا مِّنْ قَبْلِهِ ﴾ [هود: ١] وقوله بعد ذلك: ﴿ فَلَمَّا تَرَىٰ تَارِكًا بَعْضَ مَا تُوحَىٰ إِلَيْكَ ﴾ [هود: ١٢] وقوله بعد ذلك: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُوحٌ قَوْلُ فَاتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ﴾ [هود: ١٣] ثم قوله سبحانه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ يَنْتَهٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود: ١٧] لا عجب إذن أن تأتي قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - معطوفة على ذلك كله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [هود: ٢٥].

وأما سورة الأعراف فإنها تختلف عن السورتين السابقتين إذ لم يذكر فيها كلام يمكن أن تعطف عليه قصة نوح، كل الذي ذكر يختص بخلق الله سبحانه وتعالى وإبداعه وقدرته، صحيح أنه ذكر في أول السورة قصة آدم، ولكنها لم تعطف عليها قصة نوح لتغاير الموضوعين تغaire تاماً ولما بينهما من بعد كذلك؛ لذا جاءت القصة بدون الواو، كأنما هي كلام جديد لم يتقدم عليه ما يمكن أن يشرك معه في الحكم؛ فجاء التعبير القرآني هكذا: ﴿ ولقد أرسلنا ﴾.

٢- ومن تغاير الألفاظ في قصة نوح - عليه الصلاة والسلام - ما جاء في سورة المؤمنون وسورة هود ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ [هود: ٢٧] وما جاء في سورة الأعراف ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف: ٦٠] وسبب ذلك أن سورتي المؤمنون وهود جاء قول الكافرين فيهما مرتباً على دعوته لهم بالتوحيد، ففي سورة هود ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِلِيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ [هود: ٢٧] أما سورة المؤمنون، فلقد جاءت هكذا ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ [المؤمنون: ٢٤] أما سورة الأعراف فقد جاءت كما يلي ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِلِيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٠] فالذي جاء في سورة الأعراف جاء على طريق

الاستئناف وهذا كثير في كتاب الله تعالى كأنه قيل : فماذا قالوا له حينما دعاهم إلى توحيد الله؟؟ فقيل : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . اما ما جاء في سورة هود والمؤمنون ، فقد جاء على سبيل التعقيب ، أي بعد أن دعاهم إلى توحيد الله لم يترثوا ، فكان جوابهم كذا وكذا . وقد يتساءل المتسائلون هنا لم جاء قولهم في سورة الأعراف على سبيل الاستئناف ، وفي غيرها على سبيل التعقيب؟! ويجب أن نذكر : بأن ما قالوه في سورة هود والمؤمنون ليس أمرا يستنكره النبي أما ما قالوه في سورة الأعراف فهو أمر مستنكر فالذي قالوه في سورة هود : ﴿ مَا نُرِيدُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ وكذلك الذي في سورة المؤمنون ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ ولهذا ناسب أن يعقب به على كلام نوح - عليه الصلاة والسلام - بالفاء العاطفة لأنه في الحقيقة كذلك أي بشر مثلهم أما ما قالوه في سورة الأعراف فكان ناشئا عن حمق وسماجة وهو قولهم : ﴿ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فلم يلتق أن يعقب به على كلامه عليه السلام ، وإنما ناسب أن يكون كلاما مستأنفاً ، ونستأنس لهذا بما جاء مما كان بين موسى عليه السلام وفرعون - عليه اللعنة - فقال فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣-٢٦] .

٣- وفي قصة نوح كذلك ﴿ فَقَالَ يَفْقَهُمْ أَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ كما سنرى في سورة الأعراف وسورة المؤمنون أما في سورة نوح ﴿ قَالَ يَفْقَهُمْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ففي السورتين السابقتين عطف القول على الإرسال بالفاء التعقيبية أما في سورة نوح فقد جاء بدون الفاء لأنه جاء في الآية الكريمة ﴿ أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح : ١] فكان الاستئناف أولى ؛ كأنه قيل : فماذا فعل نوح؟؟ فقيل : ﴿ قَالَ يَفْقَهُمْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

### ثانياً : ما جاء في قصة هود :

جاء في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴾ [الأعراف : ٦٦] وجاء في سورة المؤمنون : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ

مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿[المؤمنون: ٣٣].

والجواب عن هذا هو الجواب عما قبله، وهو أن سورة الأعراف جاءت على سبيل الاستئناف؛ لأن الكلام الذي قالوه ناتج عن سفه وغيظ وانتفاء ذوق وعدم لياقة، بينما الذي قالوه في سورة المؤمنون لا ينكره نبهم - عليه الصلاة والسلام - .

ثالثاً: ما جاء في قصة صالح - عليه الصلاة والسلام - :

١- فمن ذلك قوله ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي﴾ بالإفراد دون الجمع؛ وذلك لأن دعوته كانت إلى التوحيد فحسب، وكان للأنبياء السابقين أمور أخرى يدعون إليها.

٢- ومن ذلك أنه عبر عن عذاب قومه تارة بالصيحة وتارة بالرجفة ولا تنافي بينهما فقد تكون الرجفة أولاً ثم الصيحة بعد ذلك.

وأخيراً في سورة الأعراف عند الحديث عن نوح ﴿فَقَالَ يَفْقَوْمَ﴾ وعند الحديث عن هود وصالح ﴿قَالَ﴾ وذلك لأن نوحاً كان أول الأنبياء فجاء القول معطوفاً على رسالته بالفاء أما فيما بعد جاء القول مستأنفاً لأنهم قد عرفوا خبر نوح مع قومه وهناك عبارات آثرنا أن لا نعرض لها؛ لأنها أقوال في أوقات متعددة كقول نوح - عليه السلام -: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] ومرة ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وكقول هود - عليه السلام - لقومه تارة ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ وأخرى ﴿أَفَلَا تَنْفَقُونَ﴾ وثالثة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وكقول صالح عليه السلام: ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ وأخرى ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وثالثة ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كل هذا يمكن أن يتعدد بتعدد المواقف؛ لذا رأينا أن لا نعرض له، وقد يتكلف له المتكلفون مع أننا لا نرى ضرورة لذلك ويبقى للكتاب الخالد أسرارها، وتبقى عجائبه التي لا تنقضي، وتبقى جدة ألفاظه ومعانيه ييسر الله فهمها لمن شاء من عباده ويفتح بها لمن أراد من خلقه، نسأله سبحانه أن لا يحرمنا حلاوة هذا الفتح، وأن لا يحول بيننا وبين هذا التيسير وهو بالإجابة جدير.



## تعقيب على قصة صالح عليه الصلاة والسلام

ويح ثمود! لقد قربت من الهداية والجنة حتى لم يبق بينهما إلا باع أو ذراع ولكن سبق عليها القول؛ لأنها استجبت العمى على الهدى.

من خلال الآيات الكريمة التي شرفنا بها، ونحن نتدبر قصة صالح تدبراً موضوعياً، أقول من خلال تلك الآيات - نستنتج بعض الجوانب التي هدتنا إليها الآيات الكريمة: فصالح - عليه السلام - كان عند ثمود ذا العقل الراجح، والخلق الكريم ينال احترامهم، وينعم بإجلالهم وتقديرهم له، وكان من الممكن أن يستمر ذلك التقدير ويزداد ذلك الإجلال؛ ولكنها النفوس التي خلقها الله تبارك وتعالى فأودع فيها الاستعداد لأحد الأمرين: التزكية أو التدسية وصالح - عليه السلام - أكرمه الله بالرسالة؛ ليرشد أولئك المنحرفين عن الفطرة، والذين وجدوا من جمال البيئة الطبيعية ومن سعة العيش ورغد الحياة ونعمة الأمن وزهر الروض وخرير الماء وجدوا في ذلك كله وغيره من علو الأماكن وسعة المساكن مما به يتحصنون ما يحملهم على الترف فبطروا في معيشتهم، وكرهوا، بل مقتوا كل من ينغص عليهم لذاتهم لذا فليس عجباً أن تتغير نظرتهم لصالح - عليه الصلاة والسلام - وأن يقفوا منه موقفاً آخر، وهم يعلنون هذا بصراحة ﴿يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢] وهكذا بين عشية وضحاها، وبين لحظة وأختها تتغير المواقف، وما أكثر أولئك الذين كان بوسعهم أن يحافظوا على مودة الآخرين لولا حق يصدعون به؛ فيوغر عليهم الصدور، ويملأ القلوب حقداً والنفوس اشمئزازاً ولكن أصحاب الدعوات لا يكثرثون بذلك:

فليتك تحلو والحياة مريرةً      وليتك ترضى والأنام غضابُ  
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ      وبينى وبين العالمين خرابُ

إذا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكَلُّ هَيِّنٌ      وكل الذي فوق التراب ترابٌ

أبى صالح إلا أن يصدع بالحق، وهو إذ يذكر قومه بهذه النعم التي من شأنها أن تكون باعثاً للشكر ﴿ أَتَذْكُرُونَ فِي مَا هَنَاهَا أَمِينٌ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٥٠] يذكرهم كيف جعلهم الله خلفاء في الأرض فسخر لهم سهولها وجبلها يتخذون من السهول قصوراً، وينحتون الجبال بيوتاً. . . ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً ما دام البطر قد تملك النفوس، ومادام اللهو قد بلغ منها مبلغاً. والابتلاء بالسراء قد يكون أشد عاقبة وأنكى من الضراء، وهذا ما وجدناه من ثمود الذين استحبوا العمى على الهدى، والذين بطرت معيشتهم. والأمر الذي يدعو إلى العجب والاستغراب أن صالحاً الذي كان مرجوياً في قومه وإذ به يصبح بين عشية وضحاها الكذاب الأشر. . . ما أضيع النعم وما أفسد الجده!!

إن الشباب والفراغ والجده      مفسدة للمرء أي مفسده

ولكننا نجد صالحاً - عليه السلام - يتلطف مع قومه، فما ذنبه وقد كان مهيب الجانب فيهم! ماذنبه أن اختاره الله للرسالة ومن ينصره من الله إن عصاه! إنهم لا يزيذونه إلا خسراناً؛ إن استجاب لهم. ويطلب القوم آية، وتأتيهم الناقة آية مبصرة، ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون. وهذا عنصر جديد في الحديث عن القوم، وهو تكذيب الآيات الواضحات، وهناك عنصر جديد آخر في قصة صالح - عليه الصلاة والسلام -، وهو أن قومه ينحون باللائمة عليه، وعلى من آمن معه من بعض المستضعفين؛ فهم المستغرقون في اللهو واللذائذ؛ فما يمكن أن يلحق بهم من سوء وشر إنما هو بسبب صالح ومن معه، وقد رأينا وسمعنا من يعلل الهزائم التي أصابت أمتنا بوجود المتدينين؛ وتلك فرية ساقطة - بالطبع - ولكن أصحاب الباطل حينما لا يجدون منطقاً يهرعون لاختراع أي باطل - حتى لو كان هشا - لا يقوى على الوقوف وحده، وهناك عنصر ثالث في قصة صالح - عليه الصلاة والسلام - يظهر في طغمة من

أهل الشر كانوا الحائل بين قومهم وبين الهداية، هذه الطغمة تأخذ على عاتقها أن تخلص الناس من صالح وأهله؛ وذلك بالتصفية الجسدية ﴿لَنَبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] وعنصر رابع: وهو أن هذه الطغمة لا يجدون من يعكر عليهم؛ فيتقدم بعضهم لعقر الناقة؛ الآية المبصرة.

أما صالح المرجو فيهم من قبل، والذي وصفوه بشر الصفات فيما بعد - وإذا لم يرفع من قدره ما قالوه أولاً فلن يغض منه ما قالوه فيما بعد - . . . أقول أما صالح - عليه السلام - فشخصيته من خلال الآيات هي هي؛ المترفق بهم الحاني عليهم حتى في آخر لحظة من لحظات الغي، وهم يقدمون على عقر الناقة نجده لا يزيد على أن يقول لهم ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣] وهو خلق رفيع نقبسه من هذا الرسول الكريم، ولكنهم يمعنون في غيهم ويقدمون على جريمتهم؛ فلا يزيد على أن يقول لهم ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] . . . وهكذا نجد أن صالحاً - عليه السلام - قد أحكم لبنة صالحة في هذا البناء المحكم، إضافة إلى اللبنة السابقة؛ هذه اللبنة كانت تحذير الإنسانية من مغبة البطر، ونتيجة الترف، وعدم شكران النعمة، وهذه - بالطبع - تختلف عن الشعور بالقوة التي كانت تتصف بها عاد من قبل.



## الفصل الخامس

### قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

مقدمات حول سيدنا إبراهيم عليه السلام

أولاً: ما ذكر فيها من آيات مكية.

- ١- سورة مريم.
- ٢- سورة الشعراء.
- ٣- سورة هود.
- ٤- سورة الحجر.
- ٥- سورة الأنعام.
- ٦- سورة الصافات.
- ٧- سورة الزخرف.
- ٨- سورة الذاريات.
- ٩- سورة النحل.
- ١٠- سورة إبراهيم.
- ١١- سورة الأنبياء.
- ١٢- سورة العنكبوت.

ثانياً: حديث السور المدنية عن إبراهيم عليه السلام.

- ١- بناء إبراهيم للبيت العتيق وما يتصل بذلك من دعواته لهذه الأمة.
- أ- سورة الحج.

ب- سورة البقرة .

ج- سورة آل عمران .

٢- تبرئته - عليه السلام - من أن يكون يهودياً، في سورة البقرة .

٣- براءته - عليه السلام - من المشركين .

أ- سورة الممتحنة .

ب- سورة براءة .

ثالثاً: تعقيب على قصة إبراهيم عليه السلام .

## قصة نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

ليس بدعا أن يكون لأبي الأنبياء وشيخ الحنفاء، أيينا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن يكون له في هذا القرآن الحظ الأوفى، والنصيب الأوفر، ونبي هذه الأمة ﷺ دعوة من دعواته، كما جاء في السنة الصحيحة، بل هذه الأمة مدينة له بهذه التسمية الطيبة الكريمة. ﴿وَمَلَأَ آيَاتِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨] (١) ويقول النبي ﷺ إني عبد الله. وخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم (٢).

وقبل أن نواصل الحديث مع القرآن الكريم، نود أن نقف مع القارئ الكريم بعض الوقفات أرى لزماً علينا أن نتبين فيها وجه الحق.

### الوقفة الأولى: اسم أبي إبراهيم ﷺ:

على الرغم من أن القرآن الكريم لم يعن كثيراً بذكر الأسماء؛ أسماء الآباء والأمهات، لكننا وجدنا أنه قد يذكر بعض هذه الأسماء، كما ذكر اسم مريم أم عيسى - ﷺ - وذكر اسم آزر ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] ومع ذلك فلقد وجدنا كثيرين يرون أن آزر ليس اسماً لأبي إبراهيم، وذكروا أن اسمه. تارح، جريا على ما ذكرته التوراة وبعض المؤرخين، وحاولوا تأويل الآية الكريمة تأويلات كثيرة لا تخلو من تكلف كما سنرى.

(١) الناظر في السنة المطهرة يجد إجلال النبي عليه الصلاة والسلام لأبينا إبراهيم في غاية من الوضوح والظهور كقوله. نحن أولى بالشك من إبراهيم.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٢٧، ١٢٨، ٥/٢٦٢).

ولم يكن هذا ما ذهب إليه خصوم الإسلام وأعداؤه، بل هو ما ذهب إليه كذلك فضلاء من علماء الأمة وأنقل ما كتبه الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه «القصص القرآني ص ١٠٦-١١٠» قال:

«هو ابراهيم خليل الله بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاذ بن سام بن نوح عليه السلام.

هذا هو نسبه الموجود في التوراة والتواريخ.

وقد جاء في الكتاب الكريم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمًا ؕ إِلَٰهًا ۖ﴾ [الأنعام: ٧٤] اختلف المفسرون في اسم أبي ابراهيم - قال بعضهم إن لفظ آزر في الآية بدلٌ من لفظ «أب» في أبيه، ويكون مقول القول ﴿أَسْنَمًا ؕ إِلَٰهًا ۖ﴾ [الأنعام: ٧٤] إلخ وقال آخرون اسمه «تارح» وإن لفظ آزر كلمة ذم في لغته ومعناه أعرج قاله السهيلي في التكملة.

وقال آخرون إن معناه: الخاطيء والخرف. وفي التكملة «يا مخطيء يا خرف» وقيل معناه يا شيخ أو هي كلمة زجر عن الباطل (راجع ص ١٢ ج ٣ تاج العروس).

أقول: بعيد في نظري أن يكون ابراهيم عليه السلام قد واجه أباه بكلمات فيها تحقير أو عيب أو زجر كأعرج وخرف؛ لأن والد ابراهيم عليه السلام لما هدده بقوله ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَٰهَتِي يَتَّبِعُهُمُ الْغَيْبُ ۚ إِنَّهُمْ كَانَتْ فِي حَقِّكَ﴾ [مريم: ٤٦] لم يكن له جواب على هذه الجفوة القاسية وهذا التهديد العنيف إلا أن قال لأبيه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۚ إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّكَ﴾ [مريم: ٤٧]. وقال آخرون: إن تارح اسمه العلم، وإن آزر وصف له كما قال البيضاوي.

أقول: إذا صح أن والد إبراهيم كان له اسم علمي واسم وصفي، يكون معناه القوي أو الناصر أو المعين، لأن لفظ آزر من الأزر أي القوة والنصر والعون ومنه الوزير



أي المعين. وهي كذلك في اللغات السامية التي منها لغة إبراهيم ومن ذلك عازر وعزير وعازر في العبرية. فإن هذه المادة تفيد التقوية والنصر والإعانة في تلك اللغة كما هي اللغة العربية. قال تعالى ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومعلوم أن العين والهمزة يتعاوران على موضع واحد.

وفي أسماء ملوك الآشوريين «أسرحدون» ولفظا «اسر» و«آزر» في غاية القرب. وفيهم أيضاً «توخلات ابال ازار» وعلى ذلك فلا يبعد عن علماء الفيلولوجيا وعلماء اللغات السامية على الخصوص أن يثبتوا النسب بين هذه الألفاظ في اللغات السامية. وقد وجد في دائرة المعارف الإسلامية ما نصه: «آزر» اسم أبي إبراهيم في القرآن [الأنعام: ٧٤] ويظهر أن في هذا بعض الخلط لأن اسم آزر لم يرد مطلقاً على أنه أبو إبراهيم في غير هذا الموضع كما أن تارخ أو تارخ قد ورد في روايات بعض المؤرخين والمفسرين من المسلمين على أنه أبو إبراهيم أيضاً. ولذلك لجئوا إلى التحايل للتوفيق بين هاتين الروايتين ولكن هذا التحايل لا قيمة له.

ويقول مراتشي Prodrani Maracci (ج٤-ص ٩٠) إن صيغة آزر نشأت عن قراءة خاطئة لكلمة Agac التي وردت في تاريخ الكنيسة ليوز بيوس، إلا أنه لم يعين لا هو ولا من نقلوا عنه الفقرة التي ورد فيها هذا الاسم. أضف إلى ذلك أن هذا المؤرخ قد ذكر في مواضع متعددة ومهما يكن في شيء فإن ما ذهب إليه مراتشي بعيد الاحتمال.

ولمعرفة حياة آزر وابنه إبراهيم نحيل القارئ إلى مقال: «إبراهيم» (ج١ ص ٢٥) الذي ذكرنا فيه المصادر الخاصة بهذا الموضع أيضاً اه فنستك.

وقد علق على هذه النبذة صديقنا الأستاذ الفاضل الشيخ أمين الخولي مساعد أستاذ بالجامعة المصرية في دائرة المعارف الإسلامية بما يأتي.

١- إطلاق القول بأن آزر اسم أبي إبراهيم في هذه الآية غير صحيح ، لأن الآية قرئت قراءات مختلفة اختلفت بها معاني كلمة «آزر» باختلاف إعرابها.

وفي بعض هذه القراءات يتعين ألا يكون آزر اسماً لأبي إبراهيم وفي بعضها يحتمل ذلك وإليك طرفاً من بيان هذه القراءات والأعاريب .

كتبت الكلمة في المصحف بعد (هكذا): آزر أتخذ أصناماً . . . وقرئت «أزرا» بالنصب مع التنوين و«أزر» بالنصب بلا تنوين و«أزر» بالضم . ففي القراءة الأولى تفسر الكلمة على أنها عربية بمعنى القوة والهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري ، والمعنى لأجل القوة تتخذ أصناماً؟ كقوله تعالى : ﴿ أَيْبَنَعُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ ﴾ [النساء : ١٣٩] وإن فسرت «أزر» في هذه القراءة باسم علم بل صفة ، فليست كذلك اسم أبي إبراهيم . وقد تعرب بَدَلٌ أو عطف بيان فيحتمل أن تكون اسماً له . وعلى قراءة الضم للنداء تحتمل كذلك أنها اسمه فهذه أربعة أوجه نقلت في تخريج قراءات الآيات - على نظر في بعضها - يتعين في اثنين منها ألا يكون آزر اسم أبي إبراهيم ويحتمل في اثنين فليس من الصنيع العلمي أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن «آزر» اسم أبي إبراهيم .

٢- التسليم بأن أكثر الأوجه التي ذكرها من تصدوا للتوفيق بين آية الأنعام ورواية المؤرخين في اسم أبي إبراهيم لا تقع عندي موقعاً . فإني ألاحظ على كاتب المادة ملاحظتين :

أ- إطلاق القول بأنهم لجؤوا إلى التحايل للتوفيق . مع أن منهم من جهر برد رواية النسابين وضعف إجماعهم ؛ لأنه إجماع ينتهي إلى خبر واحد أو اثنين منهم . فلم يتكلف التوفيق لا في تحايل ولا في غير تحايل . وقد نقل هذا الرأي في كثير من كتب التفسير المتداولة ، فالإطلاق غير صحيح وكان الحق أن يقال : منهم من وفق أو تصدى للتوفيق ومنهم من رد الرواية التاريخية .

ب- استعمال لفظ الحيلة والتحايل في وصف عمل المفسرين فإن هذه الكلمات النازلة والتي يتصدى فيها للحكم الخاطيء على النوايا الخفية ليست من عبارات العلماء الذين ينقدون بل هي من عبارات غيرهم .

٣- من الإنصاف الصادق للعمل أن يعرف القارئ أن مراتشي قسيس إيطالي عاش في القرن «السابع عشر» وأن ترجمته للقرآن لم يسمح بنشرها إلا بعد إلحاق معارضات القرآن بها وقد قدم لها بحث في القرآن والإسلام انتهى فيه إلى الحكم للمسيحية على الإسلام ثم نشرت هذه الترجمة بعنوان: «عقيدة الرسول الكاذب محمد بن عبدالله . . .» جازاهم الله بما يستحقون عن الحق والعلم .

وبعد: فإني ألاحظ - دون مجاوزة حدود النقد العلمي التزيه، أن المادة لم يكتب فيها شيء: النقول الاسلامية غير محررة، وفرض مراتشي مردود فالواجب الحق في درس الاية أن نستوفي القول في كلمة «آزر» أو «أزر» هذه واستعمالها العربي وأصلها اللغوي والتاريخي على نحو عملي عميق نرجو أن تتضافر عليه قوى نزيهة تستجيب على الأقل لقول قدمائنا إن علم التفسير لم ينضج ونحن أهل الواجب الأول في ذلك اهـ كلام الأستاذ أمين الخولي .

أقول: ذهب فريق من المفسرين إلى أن «آزر» اسم صنم كان يعبد تارح والد إبراهيم وكان سادناً له .

قال السيد المرتضى الزبيدي .

وروي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَزَرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا﴾ [الأنعام: ٧٤] قال لم يكن بأبيه ولكن آزر اسم صنم فموضعه نصب على إضمار الفعل والتلاوة كأنه قال: وإذ قال إبراهيم أتخذ آزر إلهاً أي أتخذ أصناماً آلهة .

وقال الصغاني: التقدير أأخذ آزر إلهاً، ولم يتصب «أأخذ» الذي بعده لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله ولأنه قد استوفى مفعوليه: اهـ.

وقد نقل شيخ العروبة المرحوم أحمد زكي باشا عبارة تاج العروس السابقة في أول كتابه «تكملة كتاب الأصنام لابن الكلبي».

وهذا القول الذي قاله مجاهد أولى الأقوال عندي بالقبول. وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسمه العلمي في القرآن الكريم.

ومما يستأنس له بأن «آزر» اسم إله أننا نجد في الآلهة القديمة عند المصريين الإله «أزوريس» ومعناه الإله القوي المعين. وقد كانت الأمم السالفة يقلد بعضهم بعضاً في أسماء الآلهة<sup>(١)</sup> انتهى كلام الشيخ النجار.

ولنا على ما ذهب إليه الشيخ ونقله أكثر من ملحوظة:

أولى هذه الملحوظات: أنه حين ذكر نسب إبراهيم، وهو نسب لم يثبت قال إنه إبراهيم بن تارح، وما كان لمثل الشيخ أن يذكر مثل هذا.

ثانياً: الذي يقرأ كلام الشيخ يجد أنه يرجح أن آزر ليس أبا إبراهيم، وينقل عن الشيخ أمين الخولي هذه المقولة مستدلاً بما جاء من قراءات في هذه الكلمة، وكان على الشيخ -رحمه الله-، أن لا يأخذ كلام الشيخ الخولي على علته، كان عليه أن يرجع إلى كتب القراءات، وليته رجع لأدرك أنه ليس في الآية قراءات متواترة أخرى يعول عليها إلا هذه القراءة التي اجمع عليها المسلمون ولا أدري لماذا يحرص الشيخ أمين الخولي على القول بأن آزر ليس أبا إبراهيم، ولماذا يتأثر بكلام القسيس الإيطالي (مراتشي) وبأقوال المؤرخين التي لم تثبت.

---

(١) القصص القرآني/ النجار (١٠٦-١١٠).

ثالثاً: لقد أحسن الشيخ عبدالوهاب النجار -رحمه الله- عندما رد الأقوال التي تفسر (آزر) أنها كلمة يقصد منها الدم، لأن هذا لا يتفق مع أبينا إبراهيم أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء.

رابعاً: إن من أكثر ما يعجب منه المرء أن يرجح الشيخ ما نقله عن المرتضى الزبيدي -رحمه الله- وما نقل عن مجاهد من أن آزر اسم صنم، والمعنى: وإذا قال إبراهيم لأبيه ألتخذ آزر إلهاً، ألتخذ أصناماً آلهة؟! هذا ترهل في الأسلوب لا يرضاه ذكي من الناس، فكيف نجعله قولاً معتمداً في كتاب الله.

وإننا إذ ننكر على الشيخ أمين الخولي - رحمه الله - أن يحتج لما ذهب إليه من أن آزر ليس أبا إبراهيم لوجود قراءات كثيرة في الآية، مع أن هذه القراءات لا وجود لها لا عند القراء السبعة فحسب، بل عند القراء العشرة كذلك. أقول إننا إذ ننكر ما ذهب إليه أمين الخولي، لنعجب كثيراً كل العجب مما رجحه الشيخ عبد الوهاب النجار قولاً لمجاهد رضي الله عنه. وإني لأرتاب كل الريبة في إثبات هذا القول عن مجاهد، فضلاً على ما قلته من قبل، إنه لا يتفق مع نظم القرآن البديع، ولا أدري لماذا نذهب في فهم الآية الكريمة هذه المذاهب البعيدة، مع أن الآية لا تحتمل هذه الروايات التي قيلت.

ولا نرضى ما يقوله الدكتور محمد السيد الوكيل في كتابه «نظرات في أحسن القصص» وأرى أنه خلاف لا طائل بعده، فسواء كان اسم أبيه آزر أم تاريخ فإن ذلك لا يؤثر في مدلول القصة شيئاً ولا يؤدي إلى خلاف جوهري في بحث الموضوع على إننا نرى في القرآن الكريم إطلاق اسم الأب على غير الأب كما جاء في الآية الكريمة ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَجِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. فقد ذكر إسماعيل على أنه من آباء يعقوب وهو ليس أباه على الحقيقة وإنما هو عمه<sup>(١)</sup>.

وليس الأمر كما ذهب إليه الأخ الدكتور محمد السيد الوكيل -جزاه الله خيراً-، بل إنه خلاف جوهري، فقد رأينا ما ذهب إليه خصوم الإسلام، وقد أرادوا أن يجعلوا من هذه القضية مطعناً في كتاب الله. إن حقائق القرآن الكريم هي الثابتة. . . ولقد اتفق الكتاب الكريم والسنة الصحيحة على تسمية أبي إبراهيم آزر، وبهذا قطعت جبهة قول كل خطيب، وعند جهينة الخبر اليقين.

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله :

«وأما أبو إبراهيم فقد سماه الله تعالى في الآية الأولى من هذه الآيات (الآيات: ٧٥-٨٠) (آزر). وفي سفر التكوين أن اسمه (تارح) بفتح التاء وحاء مهملة وقالوا إن معناه (متكاسل) ومن الغريب أن نرى أكثر المفسرين والمؤرخين واللغويين منا يقولون إن اسمه تارح بالخاء المعجمة: أو المهملة وإن آزر لقبه أو اسم أخيه أو أبيه أو صنمه ونقل عن الزجاج والفراء أنه ليس بين النساين والمؤرخين اختلاف في كون اسمه تارح أو تارح ولا نعرف لهذه الأقوال أصلاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ ولا منقولاً من العرب الأولين، وإنما هو منقول فيما يظهر عن دخل في الإسلام من أهل الكتاب كوهب بن منبه وكعب الأحبار اللذين أدخلنا على المسلمين كثيراً من الإسرائيليات فتلقوها بالقبول على علاتها. وعن مقاتل بن سليمان المجروح بالكذب الذي قال ابن حبان فيه كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم - ففي التفسير المأثور عن مجاهد: قال: آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم - وعن السدي: اسم أبيه تارح واسم الصنم آزر. وعن ابن عباس في إحدى الروايتين عنه قال: آزر الصنم وأبو إبراهيم اسمه يازر، وفي الأخرى أن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر وإنما اسمه تارح. رواهما عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ - عن ابن جريج أن اسمه تيرح. وجزم الضحاك بأن اسمه آزر واعتمده ابن جرير، وروي عن الحسن أيضاً.

وقال البخاري في التاريخ الكبير: إبراهيم ابن آزر وهو في التوراة تارح، والله سمّاه آزر، وإن كان عند النساين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك. اهـ. فقد اعتمد أن آزر هو اسمه عند الله أي في كتابه فإن أمكن الجمع بين القولين فيها وإلا ردنا قول المؤرخين، وسفر التكوين لأنه ليس حجة عندنا حتى نعتد بالتعارض بينه وبين ظواهر القرآن بل القرآن هو المهيمن على ما قبله نصدق ما صدقه ونكذب ما كذبه، ونلزم الوقف فيما سكت عنه حتى يدل عليه دليل صحيح.<sup>(١)</sup>

ويقول الدكتور أحمد حجازي السقا في كتابه (إعجاز القرآن) رداً على «الفن القصصي في القرآن» وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ [الأنعام: ٧٤] يشير بآزر إلى اختلاف التوراة السامرية والعبرية فإن آزر هو الأب الحقيقي لا تارح.<sup>(٢)</sup>

وأقول: ليتدبر القارئ هذه الآية، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ﴾ آزرَ اتَّخَذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً ليس في نص القرآن الكريم وتحديد لاسم أبي إبراهيم ما يغنينا عن كل هذه التمحلات؟! أفيجوز أن نترك ما جاء في كتاب الله إلى روايات لم تثبت؟!.

وبعد أن كتبت هذه الكلمات، اطلعت على ما كتبه الشيخ أحمد محمد شاكر في تحقيقه لكتاب المعرب<sup>(٣)</sup> من الكلام الأعجمي على حروف المعجم لأبي منصور الجواليقي، وما كتبه في (كلمة الحق، اصدع بما تؤمر)<sup>(٤)</sup>، فأحببت أن أنقل كلامه هنا لا أنقص منه شيئاً يقول:

(١) المنار (٧/٥٣٦).

(٢) ص ١٨.

(٣) ص ٢٩ - مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦١ هـ.

(٤) دار الكتب السلفية/ الطبعة الأولى س ١٤٠٧ ص ٣٠٢.

وعدنا في التعليق على مادة «آزر» ص ٧٦-٧٧ أن نذكر هذا البحث في آخر الكتاب<sup>(١)</sup>، ونفي الآن بما وعدنا، تحقيقاً لبحث اضطربت فيه أقوال العلماء والمفسرين والمؤرخين، من المتقدمين والمتأخرين:

ونص لسان العرب في هذه المادة: «وآزر اسم أعجمي، وهو اسم أبي إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام. وأما قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] قال أبو إسحق: يقرأ بالنصب «آزر»، فمن نصب فموضع خفض بدل من «أبيه»، ومن قرأ «آزر» بالضم فهو على النداء. قال: وليس بين التسابين اختلاف أن اسم أبيه كان تارخ. والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر. وقيل آزر عندهم ذم في لغتهم، كأنه قال: وإذا قال إبراهيم لأبيه الخاطيء.

وروي عن مجاهد في قوله: ﴿آزَرَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾ قال: لم يكن بأبيه، ولكن آزر اسم صنم. وإذا كان اسم صنم فموضعه نصب، كأنه قال: وإذا قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها أتتخذ أصناماً آلهة».

وأبو إسحق الذي قلده الجواليقي وصاحب اللسان، هو أبو إسحق الزجاج، إبراهيم بن السري، المتوفى سنة ٣١١، وقد قلده عامة العلماء فيما زعم من أنه لا خلاف في أن اسم والد إبراهيم «تارح» أو تارخ».

وقد أخطأ الزجاج في هذا خطأ شنيعاً، فإن العلماء بالنسب لم يجمعوا على ذلك بل حكى ابن جرير في التفسير (١٥٨: ٧) عن السدي وابن إسحق أنهما سمياه «آزر»، وعن سعيد بن عبد العزيز أنه قال: «هو آزر» وهو تارح، مثل: إسرائيل ويعقوب». أي لأن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم يسمى أيضاً «إسرائيل»، كما هو معروف ثابت. وقد رد الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره (٧٢: ٣) من الطبعة الأولى ببولاق) على الزجاج

---

(١) وهو كتاب «المعرب - للجواليقي»، نشر دار الكتب المصرية. الطبعة الثانية.



أحسن رد فقال: «أما قولهم أجمع النسابون على أن اسمه كان تارح. فنقول: هذا ضعيف، لأن ذلك الإجماع إنما حصل لأن بعضهم يقلد بعضا، وبالأخرة يرجع ذلك الإجماع إلى قول الواحد والاثنين، مثل قول وهب وكعب وغيرهما. وربما تعلقوا بما يجدونه من أخبار اليهود والنصارى، ولا عبرة بذلك في مقابلة صريح القرآن».

ثم هاب العلماء أقوال النسابين، وأزعجتهم دعوى الإجماع، فذهبوا بتحليلون للجمع بين الدليلين! فمنهم من تأول إعراب «آزر» أنه مفعول مقدم، وأنه اسم صنم كالقول المنسوب لمجاهد.

ومنهم من تأوله بأنه وصف، معناه المعوج، أو المخطيء، أو الشيخ الهرم، أو نحو ذلك. ومنهم من تأوله بأنه لقب لوالد إبراهيم. ومنهم من تأول قوله (لأبيه) بأن المراد «لعمه» وأن العم يطلق عليه أنه أب. ومنهم من روى قراءات غريبة شاذة للكلمة، فإنها رسمت في المصحف هكذا «آزر أتخذ»، فرويت قراءة: «أأزراً تتخذ»، «بهمزة استفهام وفتح الهمزة بعدها وسكون الزاي ونصب الراء منونة وحذف همزة الاستفهام من أتخذ». قال ابن عطية: «المعنى: أعضدا وقوة ومظاهرة على الله تتخذ». ورويت قراءة: «ءإزراً تتخذ» وهي كالسابقة في الضبط إلا أن الهمزة الثانية مكسورة. قال ابن عطية: «ومعناها أنها مبدلة من واو، كوسادة وإسادة. كأنه قال: أوزرا أو مأثما تتخذ أصناما، ونصبه على هذا بفعل مضمر».

وقد غلا صديقنا الأستاذ الشيخ أمين الخولي في الاعتماد على هذه الغرائب، حتى قال في التعليق على (دائرة المعارف الإسلامية) في مادة «آزر» رداً على المستشرق ونسبك: «فهذه أربعة أوجه نقلت في تخريج قراءات الآيات - على نظر في بعضها - يتعين في اثنين منها ألا يكون آزر اسم أبي إبراهيم، ويحتمل ذلك في اثنين. فليس من الصنيع العلمي أن يطلق ناقل عن القرآن القول بأن آزر اسم أبي إبراهيم في سورة الأنعام!! ونقل كلامه كله أستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص

الأنبياء (ص ٦٤-٦٦) ثم رجح القول المنسوب إلى مجاهد، بأن «آزر» اسم صنم، وقال: «وعلى ذلك يكون والد إبراهيم لم يذكر باسمه العلمي في القرآن الكريم!!».

وهذه كلها أقوال كما ترى!.

أما ما نسب إلى مجاهد من أن «آزر» اسم صنم - فغير صحيح، من جهة الإسناد والثبوت، ومن جهة العربية. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨: ٣٨٣): «وحكى الطبري من طريق ضعيفة عن مجاهد: أن آزر اسم الصنم، وهو شاذ». ووصفه إمام المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره (٧: ١٥٩) بأنه «قول من الصواب من جهة العربية بعيد، وذلك أن العرب لا تنصب اسما بفعل بعد حرف الاستفهام، لا تقول أخاك أكلمت؟ وهى تريد: أكلمت أخاك؟» يعني لأن الاستفهام له الصدارة دائماً.

وأما من زعم أنه وصف، فإنه إن صح ما قالوا كان وصفا لا يصدر من نبي لأبيه، وإبراهيم خليل الله يقول له أبوه: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمُ الْكُفْرُ إِنَّ تَتَّبِعْتَهُ لَا تَرْحَمَكَ ۖ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] فيقول له إبراهيم: ﴿سَلَّمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦-٤٧]. أفمن يتأدب مع أبيه هذا الأدب فى حدة الجدل والمناظرة بعد التهديد من أبيه -: يعقل منه أن يبدأ دعوة أبيه إلى دينه قبل الجدل بالشتم والسب؟! اللهم غُفراً. ومما يرد هذا القول أيضا ما قال أبو حيان في البحر المحيط (٤: ١٦٤) أنه «إذا كان صفة أشكل منع صرفه ووصف المعرفة به وهو نكرة». وإن حاول بعد ذلك توجيهه بتكلف.

وأما تأول الأب بالعم فإنه خروج باللفظ عن ظاهره وحقيقته، إلى معنى يكون به مجازاً، من غير قرينة ولا دليل على إرادة المجاز ولو ذهبنا لتأول النصوص الصريحة بمثل هذا بطلت دلالة الألفاظ على المعاني. ثم آيات القرآن متكاثرة فى جدال إبراهيم لأبيه فى الدين، ودعائه إياه إلى الهداية، وإباء أبيه، من ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة:

﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَيِّهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة: ١١٤]. وانظر أيضا سورة مريم (٤١-٥٠) والأنبياء (٥١-٥٢) والشعراء (٦٩-٨٦) والصفات (٨٣-٨٧) والزخرف (٢٦-٢٧) والممتحنة (٤). ففي هذه المواضع كلها التصريح بأن جدال إبراهيم كان مع أبيه، فكيف يمكن حملها كلها على إرادة المجاز من غير دلالة أو قرينة؟!.

وأما ما سموه قراءات في لفظ «آزر» فإنها روايات لا سند لها ولا قوام، وليس تثبت عند أهل العلم بالنقل بحال.. فهي أضعف من أن توسم بأنها قراءات شاذة، وإن حكاها أبو حيان وغيره في تفاسيرهم، والقراءات الصحيحة المعروفة، العشرة، بل الأربعة عشر، لم ينقلوا فيها إلا قراءة «آزر» بفتح الراء. وقرأ يعقوب «آزر» بضمها، وليس في كتب القراءات ولا تفسير الطبري سواهما، وانظر النشر لابن الجزري (٢: ٢٥٠) وإتحاف فضلاء البشر (ص: ٢١١) وغيرهما. وحكى الطبري قراءة الضم أيضا عن أبي يزيد المدني والحسن البصري، وحكاها أبو حيان عن أبي وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم. وهذه القراءة حجة واضحة في أنه علم، لأنه منادى، قال أبو حيان: ولا يصح أن يكون صفة، لحذف حرف النداء، وهو لا يحذف من الصفة إلا شذوذاً. ومع ذلك فإن الطبري لم يرض هذه القراءة، قال: «والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأ بفتح الراء من آزر... وإنما أجزيت قراءة ذلك لإجماع الحجة من القراء عليه».

وبعد: فإن الذي ألجأهم إلى هذا العنت شيان اثنان: قول النسابين، وما في كتب أهل الكتاب.

أما قول النسابين، فإن هذه الأنساب القديمة مختلفة مضطربة، وفيها من الخلاف العجب! وقد روى ابن سعد في الطبقات (ج ١ ق ١ ص ٢٨) بإسناده عن ابن عباس: «أن النبي عليه السلام كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معد بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: كذب النسابون، قال الله عز وجل: ﴿ وَقُرُونَا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٨].

وذكر ابن سعد بعد ذلك أقوالاً في النسب إلى إسماعيل، ثم قال: «وهذا الاختلاف في نسبته يدل على أنه لم يحفظ، وإنما أخذ ذلك من أهل الكتاب وترجموه لهم فاختلفوا فيه. ولو صح ذلك لكان رسول الله ﷺ أعلم الناس به. فالأمر عندنا على الانتهاء إلى معد بن عدنان، ثم الإمساك عما وراء ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم».

وأما كتب أهل الكتاب فإن الله سبحانه وصف هذا القرآن فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. و«المهيمن»: الرقيب فهذا القرآن رقيب على غيره من الكتب، وليس شيء منها رقيباً عليه. ولذلك قال ابن جرير الطبري في شأن الخلاف في «آزر» أهو اسم أم نعت: «أولى القولين بالصواب عندي قول من قال هو اسم أبيه، لأن الله تعالى أخبر أنه أبوه. وهو القول المحفوظ من قول أهل العلم، دون القول الآخر الذي زعم قائله أنه نعت. فإن قال قائل: فإن أهل الأنساب إنما ينسبون إبراهيم إلى تارح، فكيف يكون آزر اسماً له، والمعروف به من الاسم تارح؟ قيل له: غير محال أن يكون كان له اسمان، كالكثير من الناس في دهرنا هذا، وكان ذلك فيما مضى لكثير منهم. وجائز أن يكون لقبا. والله تعالى أعلم». وهذه الإجابة من الطبري ليست تسليماً بصحة الاسم الآخر، وإنما احتياط فأجاب على فرض صحته، كما هو واضح من كلامه.

والحجة القاطعة في نفي التأويلات التي زعموها في كلمة «آزر»، وفي إبطال ما سموه قراءات تخرج باللفظ عن أنه علم لوالد إبراهيم، الحديث الصحيح الصريح في البخاري: «عن النبي ﷺ: قال: يلقي إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك» إلى آخر الحديث، في البخاري (١٣٩: ٤) من الطبعة السلطانية) وفتح الباري (٢٧٦: ٦) من طبعة بولاق). وشرح العيني (٢٤٣: ٢٤٤) من الطبعة المنيرية). فهذا النص يدل على أنه اسمه العلم، وهو لا يحتمل التأويل ولا التحريف.

ووجه الحجة فيه: أن هذا النبي الذي جاءنا بالقرآن من عند الله، فصدقناه وآمنّا أن لا ينطق عن الهوى، هو الذى أخبر أن «آزر» أبو إبراهيم، وذكره باسمه العلم في حديثه الصحيح، وهو المبين لكتاب الله بسنته، فما خالفها من التأويل أو التفسير باطل.

وهذه الأخبار عن الأمم المطوية في دفائن الدهور، المتغلغلة في القدم، قبل تأريخ التواريخ، لا نعلم عنها خبراً صحيحاً، إلا ما حكاه النبي المعصوم، إخباراً عن الغيب، بما أوحى الله إليه فى كتابه، أو ألقى في روعه في سنته، وحيا أو إلهاما إذ لا سبيل غيره الآن لتحقيقها تحقيقاً علمياً تاريخياً.

وما ورد في كتب أهل الكتاب لم تثبت إلى من نسب إليه، بأية طريق من طرق الثبوت، فلا يصلح أن يكون حجة لأحد أو عليه.

وليس لمعارض أن يشكك في صحة الحديث الذي روينا، فإن أهل العلم بالحديث حكموا بصحته، وكفى برواية البخاري إياه في صحيحه تصحيحاً، وهم أهل الذكر في هذا الفن، وعنهم يؤخذ، وبهم يقتدى في التواتر من صحة الحديث. وأسأل الله العصمة والتوفيق<sup>(١)</sup>.

### الوقف الثانية: هل يكون آباء الأنبياء كافرين؟

أثار بعض العلماء قديماً وحديثاً كون أبي إبراهيم الذي تحدث عنه القرآن الكريم كافراً، قائلين إنه لا يعقل أن يكون أباه حقيقة، محتجين بأن آباء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز أن يكونوا كافرين، ولقد قرأنا هذا القول عند كثير من المفسرين قديماً، وهو ما نقل عن الشيخ محمد الشعراوي - رحمهم الله جميعاً - .ومما استندوا إليه أن العرب يطلقون على العم أباً، واستدلوا لهذا بما جاء في الآية الكريمة:

---

(١) كلمة الحق/اصدع بما تؤمر -أحمد محمد شاكر- دار الكتب السلفية الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ.

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] ولقد كان اسماعيل عم يعقوب، لأن أباه إسحاق وجده ابراهيم عليهم جميعا صلوات الله وسلامه.

وقد احتجوا لما ذهبوا إليه كذلك ببعض الآثار التي سيأتك خبرها بعد حين، وما كان أغنانا عن مثل هذه الخلافات، فمن المباديء المسلمة في هذا الدين وكتابه الكريم، قوله سبحانه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [لقمان: ٣٣].

وإني أتساءل أي الأمرين أكبر، أمسؤولية الأب عن ابنه، أم الابن عن أبيه؟ ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٨]. إن مسؤولية الأب عن ابنه من الأمور البديهية التي لا يرتاب فيها أحد.

ولقد حدثنا القرآن الكريم أن ابن نوح - ﷺ - كان كافرا، فإذا جاز أن يكون الابن كافرا، فلم نختلف في جواز أن يكون الأب كافرا؟ ثم إن هذه القضية ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله، والقضية حينما تذكر مرات كثيرة، فإن ذلك يدل على أنها قطعية الدلالة، فضلا على كونها قطعية الثبوت، وهذه بعض الآيات الكريمة:

﴿ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [براءة: ١١٤] ﴿ وَذَكَرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ ﴾ [مريم: ٤١-٤٢] ﴿ وَأَعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ [الشعراء: ٨٦] ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦] ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ۚ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٤-٥] مع الآية التي تحدثنا عنها ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَأَيْتَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا مِثْلَ اللَّهِ ۖ إِنَّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

إن هذه الآيات الكريمة كلها تنطق بكل صراحة، بأنه كان يخاطب أباه، فلماذا الخروج عن هذا الظاهر، والبعد عن هذه الحقيقة، إن إطلاق العم على الأب لا يكون إلا بقرينة دالة على ذلك، فإذا علمت هذه القرينة فلا إشكال، والآية التي احتجوا بها لا تقوم لهم بها حجة، لأنها ذكرت الأب الحقيقي ليعقوب وهو اسحاق، فذكر إسماعيل يدل على أنه ليس أباً له حقيقة، بل إنه قدم في الذكر على أبيه حقيقة، ويظهر هذا التقديم لكونه أكبر منه سناً «إسماعيل واسحاق»، ولقد كان هذا الأمر المشتبه في بلادهم لا فرق في ذلك بين مصر والشام، ولا زلت أذكر أننا ما كنا ننادي العم أخا الأب إلا أباً، ولكن بقرينة، ولقد وجدت هذا كذلك في مصر عندما كنت أزور بعض الأحياء والأخوة في البلاد المصرية، كان الواحد حينما ينادي أباه يقول (يا بابا) وحينما ينادي عمه يقول (يا بابا محمد) مثلاً، أو (يا بابا بكر) إذا كان بكر عمه. هذا أمر لا أنساه أبداً، وأظن هذا التقليد قد ذهب الآن، بل كان ينادي امرأة أبيه بقوله (ياما) ولكن يذكرها باسمها، أما أمه الحقيقية فيناديها (ياما) دون تعيين. ذلك أمر لا ينكره أحد.

وعلى هذا فكون العرب تطلق على العم أباً أمر صحيح ولكن بقرينة، وهذا ما نقلناه عن صاحب المنار.

ومما تقدم ندرك أن القول بأن إبراهيم كان يخاطب عمه قول غير مقبول، وإن قاله قوم من ذوي الفضل والعلم، فإن المرجع كتاب الله.

بقي أن يقال: ما الذي احتج به أولئك من الآثار، وأنقل هنا ما ذكره الشيخ رشيد رضا - رحمه الله -.

«ومن الناس من استدل على أن آزر لم يكن والد إبراهيم ﷺ بل عمه بالجزم بأن آباء الأنبياء كافة أو نبينا خاصة لم يكونوا كفاراً وبأن إبراهيم خاطب آزر بالغلظة والجفاء ولا يجوز ذلك من الأنبياء. وقد عزا الرازي هذا القول إلى الشيعة وأطال في بيانه واختصر في بيان (زعم الصحابة) - أي الأشاعرة أو أهل السنة كافة - أن آزر كان والد إبراهيم وكان

كافراً وفي ردهم قول الشيعة. وقال الألوسي: والذي عول عليه الجَم الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام، وادعوا أنه ليس في آباء النبي ﷺ كافراً أصلاً لقوله عليه الصلاة والسلام «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» والمشركون نجس، وتخصيص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دليل له يعول عليه والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب، وقد ألفوا في هذا المطلب الرسائل واستدلوا له بما استدلوا والقول بأن ذلك قول الشيعة كما ادعاه الإمام الرازي ناشئ من قلة التتبع، وأكثر هؤلاء على أن آزر اسم لعن إبراهيم عليه السلام وجاء إطلاق الأب على الجد في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣] وفيه إطلاق الأب على الجد أيضاً. وعن محمد بن كعب القرظي أنه قال: الخال والد والعم والد وتلا هذه الآية ثم ذكر السيد الألوسي أثراً استدلوا بها على ما ذكر أخذها فيما يظهر من بعض رسائل السيوطي التي ألفها في نجاة الأبوين الشريفين وجمع فيها الذرة وأذن الجرة - كما يقال - ورجح الآثار الواهية والمنكرة على الأحاديث الصحيحة، المؤيدة بالآيات الصريحة وهي التي أشار إليها الألوسي بقوله: وألفوا في هذا المطلب الرسائل. الخ واعتمد عليها فيما ادعى أنه هو الذي عول عليه أهل السنة ومن الغريب وقوع هذه الهفوة من مثل هذا النقد، وإنما أوقعه فيها هوى صادف ما في الفؤاد، وهو من آيات الإيمان بهما: أن يحب المؤمن نجاة أصولهما، ولكن إذا ثبت أن بعضهم أصر على الكفر وقضت حكمة الله أن يبينه لنا في محكم الذكر، وأن يطلع رسوله على عاقبته في النار فيخبر امته به لكمال التوحيد والاعتبار أفيكون مقتضى حب الله ورسوله هو الإيمان بذلك وبيانه كما بيناه أم يكون جبهما تحريفه وتأويله مبالغة في تعظيم نسب الرسل واستعظاما لهلاك أقرب الناس منهم نسباً مع كرامتهم عند الله؟ وتأثراً بأقوال أهل الملل الذين جعلوا نجاة الخلق وسعادتهم في الآخرة تجاه أنبيائهم وتأثيرهم الشخصي عند الله؟ لا باتباعهم والاهتداء بما جاءوا به من أصول الإيمان وفضائل الأعمال



﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وأما استدلال الألوسي تبعا لغيره بحديث «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» على إيمان آباء النبي ﷺ من عبد الله أولهم - إلى آدم عليه السلام فهو معارضة لظاهر القرآن والأحاديث الصحيحة بحديث واه رواه أبو نعيم في الدلائل من حديث ابن عباس بلفظ «لم يلتق أبوي في سفاح لم يزل الله عز وجل ينقلني من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة صافياً مهذباً لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرها» هكذا في نسخة الدلائل التي بأيدينا وذكره السيوطي عنه بلفظ «من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة» بالتعريف ولا نعرفه باللفظ الذي ذكره الألوسي عن أحد من المحدثين وإنما يذكره بهذا اللفظ من لا يتحرون نقل الأحاديث بضبط مخرجيها بل يتساهلون بنقلها حيث وجدوها ككثير من المفسرين والمتكلمين وقد سبق الفخر الرازي الألوسي إلى ذكره بهذا اللفظ من غير عزو ولا ذكر لاسم الصحابي الذي (رفعه) - كعاداته واللفظ المروي لا معنى له إلا كون ابائه ﷺ ولدوا من نكاح لا من سفاح وهو معنى صحيح وردت فيه أحاديث أخرى. ولو فرضنا أنه روي باللفظ الذي ذكرناه لاحتمل هذا المعنى أيضاً وكان حملة عليه جمعا بينه وبين القرآن والأحاديث الصحيحة أولى من جعله أصلاً وإرجاعها إليه بالتأويل والتكلف والذي خرجته إنما جعله في دلائل طهارة نسبة لا إيمان أصوله ومما ذكر السيوطي من الدلائل في معنى هذه - المسألة قوله تعالى ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩] لقول بعضهم إن معناه في أصلاب الطاهرين أي المؤمنين وروى أبو نعيم أنهم الأنبياء ويبطل ذلك ما ذكرنا من المعارضة وقوله تعالى قبل الآية ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي ويرى تقلبك في الساجدين فهو لا يحتمل الماضي وإنما معناه كما قال ابن عباس وغيره: الذي يراك حين تقوم في الصلاة ويرى تقلبك في المصلين أي معهم وبينهم وما روي عنه من أن المعنى تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً لا يصح سنداً ولا متناً ولا لغةً. وتفصيل ذلك سيأتي في محله اهـ.

وأنا أستريح لما قاله الشيخ رشيد -رحمه الله- حتى إن أردنا أن نأخذ بهذا الحديث الذي رواه أبو نعيم، فإننا نحمله على أن أولئك الأنبياء مطهرون من السفاح، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولا أدري لماذا يصر كثير من الكاتبين قديما وحديثا وهم يتحدثون عن نسب أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يذكر أنه ابن تارح، ورضي الله عن شيخ المحدثين الإمام البخاري، وشيخ المفسرين، ابن جرير الطبري، وقد التزم كل منهما بما جاء في كتاب الله.

### الوقفه الثالثة: ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية:

«كان شبرنجر «ج ٢ ص ٢٧٦ وما بعدها» أول من لاحظ أن شخصية (إبراهيم) - كما في القرآن - مرت بأطوار قبل أن تصبح في نهاية الأمر مؤسسة للكعبة.

وجاء سنوك هجرونييه «ص ٢٠ وما بعدها» بعد ذلك بزمن فتوسع في بسط هذه الدعوى فقال: إن إبراهيم في أقدم ما نزل من الوحي (الذاريات: ٧٤ وما بعدها. الحجر: ٥٠ وما بعدها، الصفات: ٨٢ وما بعدها، الأنعام: ٧٤ وما بعدها، هود: ٧٢ وما بعدها مريم ٤٢ وما بعدها الأنبياء ٥٢ وما بعدها العنكبوت ١٥ وما بعدها). هو رسول من الله أنذر قومه كما تنذر الرسل، ولم تذكر لإسماعيل صلة به وإلى هذا يشار إلى أن الله لم يرسل من قبل إلى العرب نذيراً (السجدة: ٢ سبأ اية ٤٣ يس ٦) ولم يذكر قط أن إبراهيم واطع البيت ولا أنه أول المسلمين.

أما السور المدنية فالأمر فيها على غير ذلك فإبراهيم يدعى حنيفا مسلما وهو واطع ملة إبراهيم، ورفع مع إسماعيل قواعد بيتها المحرم - الكعبة - (البقرة: ١١٨ وما بعدها آل عمران ٦٠، ٨٤... الخ).

وسر هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة . فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء ، فلم يكن له بُدٌّ من أن يلتمس غيرهم ناصراً هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم ولذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم تلك اليهودية التي كانت ممهدة للإسلام ، ولما أخذت مكة تشغل جل تفكير الرسول أصبح إبراهيم أيضاً المشيد لبيت هذه المدينة المقدس اهـ فنسبك .

١- والذي أقوله : إن هجرونييه وفنسك كغيرهما - ومن على شاكلتهما - إن يقولوا إن الإسلام في مكة غير الإسلام في المدينة بالنسبة لإبراهيم عليه السلام . فإن إبراهيم في مكة أو في القرآن المكّي لم تكن له صلة بالعرب فليس أبا لهم ولم يكن باني البيت ولا صلة له بإسماعيل ولا بالعرب<sup>(١)</sup> .

وأود أن أذكر القارئ الكريم هنا بما يجب عليه من الحيطة والحذر ، وهو يقرأ أو يستمع إلى ما كتب في هذه الموسوعات التي تسمى كل منها دائرة معارف ، فدائرة المعارف البريطانية ، التي يعدونها حصناً من حصون العلم مليئة بمثل هذه الترهات والأكاذيب ، والافتراءات ، ولقد بينت ذلك في كتاب قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية رد ونقد .

وهذه دائرة المعارف الإسلامية التي كتب بعض موادها - مع كل اسف - بعض علماء المسلمين لا تقل انصرافاً عن الحقيقة ، وبعداً عن النزاهة من دائرة المعارف البريطانية . وهكذا هذه الموسوعات كلها أيا كانت جنسيتها ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسْبًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] . ﴿ وَلَنْ رَّضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ بِلْتَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٢٠] . إن ما ذكر هنا كثير منه قريب مما ذكر في دائرة المعارف البريطانية ، وقد رددته في كتاب قضايا قرآنية ولن أطيل الرد هنا ، فإن الكذب فيه واضح ، ظاهر كل الظهور ،

---

(١) قصص الأنبياء (ص ١١١) .

گوہذا الکذب لیس ناشئاً عن جہل، بل أساسه الحقد والهوى. کیف يتجاهل أولئك أن  
 السور المکیة قد عرضت لقضية إبراهيم وإسماعیل وبناء الکعبة، وأنها لم تنف عن أبینا  
 ابراهيم - ﷺ - کونه یهودیا أو نصرانیا. إن هناك إجماعاً على أن سورة إبراهيم سورة  
 مکیة ولقد جاء فیها خبر البیت ومکة وإسماعیل وسنشرّف بدراسة هذه الآيات الکریمة  
 دراسة مفصلة لبنین افتراءات أولئك وبعدهم عن الحقیقة. ویؤلّمنا هذا الحقد الذی لا  
 زلنا نعاني منه، فی کل مجال من مجالات الحیاة، فی الفکر والسیاسة والاقتصاد  
 والحرب والعلم، والکیان الصهيونی، وقضايا البلقان، وسرقات خیرات الخلیج،  
 ومحاولة إثارة الفتن فی الدول الإسلامیة بین المسلمین و غیرهم، وإلقاء الشبه فی قضايا  
 الإسلام کتابا وسنة وفقهاً وتراثاً، وإغراء بعض السفهاء للنیل من مقدسات الإسلام؛ کتابا  
 ونبیا ولا یجهل أحد قضية سلمان رشدي. هذه کلها و غیرها کثیر لا تزال صیحات تنذر  
 المسلمین بما یجب علیهم لیلّموا شعّهم ویجمعوا شملهم، لیعتزوا بدين الله الذی لا عزة  
 إلا به، ورضی الله عن سیدنا عمر «نحن قوم أعزّهم الله بالإسلام، فإذا ابتغینا العزة بغيره  
 أذلّنا الله» ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ  
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]. وما أجدر أولئك الذین  
 یتخذون الکافرين أولیاء أن یتذكروا قول الله ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
 الْمُؤْمِنِينَ آيَبْنَغُوتَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

أما موقف النبی ﷺ من اليهود، وکون هذا الموقف اختلف بین مکة المکرمة  
 والمدينة المنورة على ساکنها أفضل الصلاة والسلام فلقد فصلت هذا القول تفصيلا فی  
 کتاب قضايا قرآنیة<sup>(١)</sup> وهو قول یحمل بطلانه فی طياته، فموقف النبی علیه وآله الصلاة  
 والسلام من اليهود کموقفه من غیرهم، دعوة بالحکمة والموعظة الحسنة، وجدال بالتي  
 هي أحسن، إلى أن ظهر القوم على حقیقتهم فنقضوا العهود، وظهر منهم الغدر،

(١) یراجع کتابنا قضايا قرآنیة.

وتواطؤوا مع غيرهم من الوثنيين على محاربة هذا الدين .

ودعوى أن إسماعيل وإبراهيم ليسا رسولين إلى العرب تحتاج إلى شيء من التفصيل ، فإبراهيم - ﷺ - أرسل أول ما أرسل إلى غير العرب ، القوم الذي هو منهم ، ولكنه حينما بنى الكعبة - ومعه إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام - بدأت دعوة التوحيد إلى العرب كما سيأتي معنا في سورة إبراهيم . وكان من البدهي أن يكون اسماعيل - ﷺ - وقد نشأ في القبائل العربية ، أرسله الله إلى العرب ، كما سيأتي معنا في سورة مريم عليها السلام .

وإليكُم السور الكريمة التي حدثتنا عن أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .



## قصة نبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات:

لم يكن ذكر إبراهيم في كتاب الله تعالى كذكر الأنبياء السابقين؛ فكان النبي يذكر من جانب واحد، وهو ما يكون بينه وبين قومه، ولكن شيخ الحنفاء ذكر في كتاب الله من جوانب متعددة؛ ولا عجب فمآثره كثيرة، ومناقبه أجل من أن تعد، ولا عجب أن ترد الإشارات مبكرة حديثاً عن أبي الأنبياء؛ فهذه إشارات نجدها في سورة الأعلى وفي سورة النجم، وفي سورة (ص) ففي سورة الأعلى ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩] ولكن سورة النجم تزيد على ذلك ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْنَا يَمَافِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى<sup>(١)</sup> أَلَّا نَزُرُ وَزِرَةً وَزِرَةً أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعْيُهُمْ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٣٦-٤١] وفي هذه السورة نقراً أول صفة من الصفات الخيرة لأبي الأنبياء ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ثم تأتي سورة (ص) وهي التي تحدثت لنا عن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فنجد فيها إشارات لإبراهيم وبنيه ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكَلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾<sup>(٢)</sup> [الآيات: ٤٥-٤٨]

- 
- (١) «وفى» مبالغة في الوفاء أو بمعنى (أتم)، وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية، من ذلك تبليغه الرسالة واستقلاله بأعباء النبوة، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمرود وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه.
- (٢) ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ أي جمعوا بين العمل الجاد، والفكر المستنير. وهما قوام الحياة الكريمة. ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ﴾ أي جعلناهم مخلصين بسبب عملهم للآخرة، فقد أثنى عليهم؛ لأنهم جمعوا بين الدنيا والآخرة وإن كانت الثانية هي الغاية ويمكن أن تكون ذكرى الدار ما جعل لهم من الشاء في الدنيا ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ الذين اصطفاهم الله فهم المصطفون الأخيار، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمَا عَمَرَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]. وهم من أهل الخير وأي خير أعظم مما تقدم.

ففي هذه الآيات نقرأ من الصفات لإبراهيم ﷺ أوسع مما رأيناه في سورة النجم، فهم أولو الأيدي والأبصار، وهم المخلصون المصطفون الأخيار.

### السور التي فصلت عن إبراهيم ﷺ:

١ - أول سورة حدثنا حديثاً فيه شيء من التفصيل عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعد هذه الإشارات الوافية، هي سورة مريم - عليها السلام - وهي سورة نزلت مبكرة بعض الشيء<sup>(١)</sup>، وفي هذه السورة التي لها من اسمها نصيب كبير، في هذه السورة الكريمة، يحدثنا ربنا عن زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام ثم يتقل الحديث عن إبراهيم عليه السلام وبعض الأنبياء من بنيهِ، ومما يأخذ باللب ويأسر القلب؛ ولكن هذا القلب يأبى إلا أن يتفلسف ليرقص إعجاباً ثم يلين خشوعاً، ذلك أن الحديث في سورة مريم عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يدور حول ذلك الحوار المؤثر بينه وبين أبيه، ولعل الناظر في السورة الكريمة وهو ينعم النظر، ويجيل الفكر، ويدقق في الموضوع، يدرك هذا السر الذي يأبى إلا أن ينتثر شذاه، ويتنثر أريجُه، أن سورة مريم التي جاءت بدايتها تحدثنا عن زكريا الوالد ويحيى الولد، وعن مريم الأم وعيسى الابن عليه السلام، وهي التي ستحدثنا في آخرها بما يهز القلوب والمشاعر، كيف لا وهي ما تكاد السماوات تتفطر له، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هذا أن دعوا للرحمن ولدا وقبل هذا حدثنا السورة الكريمة عن الذي ﴿كَفَرْنَا بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وُلْدًا﴾ [مريم: ٧٧]، لا عجب إذن أن نجد ما حدثت به السورة الكريمة عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان جله بل كله يتصل بهذا الجانب، وهو حديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه، ولنقرأ الآيات الكريمة لنرى بعد حديثنا - عن هذا السر الرائع - لنرى أي تأثير، وأي فعل يمكن أن تفعله الآيات:

---

(١) ويدل لهذا أن جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - قرأها على النجاشي ومن عنده من رجال الدين النصارى.



﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَتَّبِعِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِعُهُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْبُرِي مَلِيًّا قَالَ سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَنِّي إِلَّا أَكُونُ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿[مريم : ٤١-٤٩].

ونظن أن هذه الآيات بينة المعاني، ولكن جدير بنا أن ننظر إلى هذا التدرج الذي تدرج به إبراهيم عليه السلام مع أبيه في هذه النداءات التي تمتلئ عطفاً وحناناً: فأولها: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ وثانيها: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ وثالثها: نهيه عن عبادة الشيطان ورابعها: الخوف أن يمس أباه عذاب من الرحمن ثم يجري ذلك الحوار بينه وبين أبيه، هذا الحوار الذي تظهر فيه قسوة الأب كأنما نزعته الرحمة من قلبه ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْبُرِي مَلِيًّا﴾ وعلى العكس من هذا تظهر فيه رحمة الابن وحبّه ﴿سَلِمْتُ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾<sup>(١)</sup> ولم يجد إبراهيم عليه السلام بداً من أن يعتزلهم ومعبوداتهم ويدعو ربه فلن يكون شقياً بدعاء ربه ويكرمه الله فيهب له الأنبياء من ذريته.

٢- ثم تأتي سورة الشعراء: ولئن كان اختيار الجانب الذي تحدث عنه سورة مريم يأسر القلب ويدعو إلى الإجلال - كما قلنا من قبل - فإن الجانب الذي تحدثت عنه سورة الشعراء لا يقل عن ذلك أبداً، وقد تحدثنا من قبل عن مزايا سورة الشعراء وتأثيرها في القلوب من حيث نظمها، والحديث عن إبراهيم يحكي لنا بكل أمانة ودقة ورقة وموضوعية موضوع السورة؛ لأنه حديث الأحاسيس، حديث الأعماق - كما يقولون -،

(١) الحفي: البالغ في البر والإلطف، أي لطيف وباري.

الحديث الذي له ذلك التأثير على النفس وله تلك الحلاوة إقرأه بتدبر أو استمع إليه إن شئت بتدبر، وستجد أكثر مما وصفت لك لأن الكلمات لا تفي بالغرض ولا توفي الموضوع حقه وإذا كان الحديث في سورة مريم وجدنا فيه رقة الولد وبره بأبيه وحرصه كل الحرص على أن لا يصيب أباه سوء؛ فإننا نجد في سورة الشعراء هذا الطود الشامخ الذي يتحدى كل المؤثرات، هذه العقيدة الراسخة التي تتفاعل مع العقل والقلب وكذلك العقيدة الصادقة القوية، سنجد ذلك كله في سورة الشعراء كيف أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أعطي الحجة القوية الدامغة يرد بها أباطيل قومه، ثم هذه الصلة الوثيقة بربه التي ستبقى وستظل الأساس الذي يرجع إليه المؤمنون والقبس الذي به يستنيرون ولنعد أنفسنا لاستماع الآيات وقراءتها:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ بَنَاءَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبْنَيْهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كُفْرَيْنَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي ثُمَّ يُجِئُنِي وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ<sup>(١)</sup> وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَأَغْفِرْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٩].

(١) يمكن أن يفسر اللسان بالذكر الحسن، أي واجعل لي ذكرا حسنا في الأمم التي ستأتي بعدي، فقد عبر باللسان عن الذكر، وهو مجاز مرسل علاقته الآلية، لأن اللسان آلة الذكر، وقد يكون المعنى اجعل لي من ذريتي من يصدقني فيما دعوت إليه ويذكرني بخير، فيكون المقصود به سيدنا محمد ﷺ فيكون قد عبر باللسان وأراد الرسول الكريم وحيث يكون هذا مجازاً مرسلًا علاقته الجزئية، لأن اللسان جزء من الإنسان، وهذا موافق لقوله ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ [البقرة: ١٢٩].

بالروعة النفوس المبتهجة بآيات الله ، وبالبهجة النفوس التي اختارت نزعتها في رياض القرآن ، سندع الآن ما قاله القوم من مكابرات ولجج ؛ فلنا لمثله عودة - إن شاء الله - ولكننا نقف مع ما قاله أب الأنبياء وشيخ الحنفاء ، أبونا ونحن نتشرف بهذا النسب ، هذا الذي يدل على حصافة عقل ، وقوة عقيدة ، وإرهاق إحساس ، ورقة مشاعر ، إي والله تأمله معي !! ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٥] .

ماذا يجدي : إن العقيدة ليست مما ينبغي فيها تقليد الآباء ثم يقول - عليه الصلاة والسلام - كلمته التي تدل على بعد نظر ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٧] وإنما قلنا : تدل على بعد نظر ؛ لأنه قال ﴿ عَدُوٌّ لِّي ﴾ [الشعراء: ٧٧] ولم يقل «عدو لكم» ، كأنما يريد منهم أن يفكروا في أنفسهم ، وفي تعريض ليس مثله التصريح ، وذلك كما يسألك أحد عن شيء ؛ فتعلمه أنك قد اخترته لنفسك ، فهو تعريض منك أن يختار مثله هو ؛ لأنك مادمت أنت قد ارتضيته فمن باب أولى أن تنصح غيرك ليرتضيه .

ثم يعظم أبو الأنبياء ربه وهو يذكر نعمه فيذكر نعمتين أوليين : أولاهما نعمة الخلق ، وقد جاءت خالية من الضمير . والثانية : نعمة الهداية ، وقد جاءت مقترنة بالضمير (هو) ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ثم ذكر نعمتين أخريين وهما : الطعام والشراب ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ونلاحظ أنه قد جيء بالضمير هنا كذلك أعني (هو) وكانت النعمة الثالثة نعمة الشفاء من المرض ، وقد اقترنت كذلك بالضمير ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ .

ثم ذكر أمرين من أثر القدرة الإلهية غير مقترنين بالضمير ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ثم ذكر الغاية التي يبتغيها ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ثم توجه إلى الله يدعوه لما يصلح دينه وآخرته وأن يجنبه الفضيحة والخزي يوم يبعثون ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ ومع رقة هذه الكلمات وتأثيرها في النفس نجد القوة والرصانة . فهذا الضمير مثلاً (هو) إذا بحثنا عنه نجده قد اقترن مع الأمور الآتية : الهداية ، الطعام والشراب ، الشفاء من المرض . وإنما اقترن بهذه الأمور الأربعة ،

كأنما هو رد عليهم وعلى أمثالهم ممن يرجون الخير من غير الله، إنه رد عليهم حينما ينسبون لأصنامهم الهداية، وهو رد عليهم حينما يطلبون منها الرزق من طعام وشراب وحينما يطلبون منها أن تشفيهم من أمراضهم كذلك.

أما الأمور التي لم تقترن بالضمير وهي: الخلق، والإماتة، والإحياء؛ فإنه لا حاجة بها لهذا الضمير؛ لأن أحداً لا يزعم أن الصنم الذي صنعه بيده هو الذي خلقه، وهو الذي سيحييه ويميته ويغفر له. ثم لا ننسى هذا الأدب الرائق والذوق الراقي الرفيع وهو نسبته المرض لنفسه لا إلى الله تعالى ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ ولم يقل الذي يمرضني كما قال يطعمني، ولكنه نسب إليه سبحانه الشفاء ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ثم هذه الدعوات الجامعة التي دعا بها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ربه أن يهب له الحكم أولاً، وأن يلحقه بالصالحين، إلى آخر هذه الدعوات وهي والله جمعت بين خير الدنيا وخير الآخرة، والسلامة من شر الدنيا وشر الآخرة، وتلك هي السعادة التي أكرم الله بها خليله عليه وعلى نبينا صلاة الله وسلامه.

ولقد أعجبني ما قاله الزمخشري - رحمه الله - فأحييت أن أسجله ليفيد منه القارئ وما أظنه إلا كذلك قال رحمه الله: «وما أحسن ما رتب إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون، سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا، فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين، وابتهل إليه ابتهاج الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا»<sup>(١)</sup>.

---

(١) الكشف جـ ٣، ص ٣٢١.

٣- ثم تأتي سورة هود تحدثنا عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وكما قلت من قبل الحديث عن ابراهيم عليه السلام يختلف عن الحديث عن غيره - إذ الحديث عنه - عليه الصلاة والسلام - من جوانب كثيرة، لذلك وجدناه في مكي القرآن ومدنيته. تأتي سورة هود؛ ولكنها لن تحدثنا عما كان بينه وبين قومه، وإنما جاءت تحدثنا عن طيب الخلال، وشريف الخصال التي يتمتع بها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وكذلك عما أكرمه الله به.

ويظهر أن الحديث عن إبراهيم عليه السلام في سورة هود كان مقدمة للحديث عن قوم لوط - عليه الصلاة والسلام -، هذا ما تشير إليه الآيات، وهذا ما يتفق مع موضوع السورة الذي تحدثنا عنه من قبل؛ فالرسل الذين جاءوا ابراهيم عليه السلام بالبشرى كانوا في طريقهم إلى لوط - عليه السلام -، ولكنهم مروا به إكراما له، وهذا أمر متعارف عليه بين الناس - حتى في زماننا هذا - أن ينزل الضيفان أو أصحاب الشأن أولا عند الكبير صاحب النفوذ.

تحدثنا آيات سورة هود أن الرسل جاءوا ابراهيم عليه السلام بالبشرى ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩] والقرآن يدلنا على كرم ابراهيم عليه السلام، وجميل صفاته؛ فإن سلام الملائكة جاء منصوباً وسلام إبراهيم عليه السلام جاء مرفوعاً، كما تلحظ -أيها القارئ- سلام الملائكة جاء منصوباً فلا بد له من فعل ناصب، وهنا تكون الجملة فعلية - كما يقول علماء اللغة - «أي نسلم سلاماً»، ولكن سلام ابراهيم عليه السلام جاء مرفوعاً؛ لأنه مبتدأ، أي: سلام عليكم، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ لأن جملته اسمية وليست فعلية، والفرق بين الجملتين: أن الفعلية تدل على الحدث، بينما الاسمية تدل على الثبوت والدوام، فسلام الملائكة لإبراهيم عليه السلام حادث متجدد، ولكن رد إبراهيم عليه السلام كان يتسم بالثبوت والدوام والاستمرار فكانت تحيته أبلغ من تحيتهم، وهذا هو الأدب الذي علمنا إياه القرآن ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾ [النساء: ٨٦] ويعد هذه التحية الطيبة بادر مسرعاً لإكرامهم؛ فجاءهم بسيد الطعام

﴿يَعْبِلُ حَنِيزٌ﴾<sup>(١)</sup> [هود: ٦٩] ولكنه لما رآهم لا يتناولون الطعام أنكر ذلك منهم، ودارت في نفسه الهواجس، وهذا أمر متعارف عليه فالذي لا يتناول طعاماً قُدِّمَ له يرتاب صاحب البيت في أمره، ونحن نعرف أن هناك عادات مستمرة حتى اليوم، فقد لا تشرب القهوة إذا كان هناك داع لعدم الشرب حتى يعطى الضيف ما يريد... وقد قلنا من قبل إن مجيء الرسل كان مقدمة للذهاب إلى لوط - عليه الصلاة والسلام -، يدلنا على ذلك ما كان من الملائكة حينما رأوا إبراهيم عليه السلام أنكروا ذلك منهم ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَزْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] وامراته تسمع ما يقال فيبشرونها بإسحاق ولدًا، وبيعقوب نافلة أي حفيداً لها وتعلن ما تتعجب منه وتجهر به؛ إذ كيف تلد وهي عجوز وهذا بعلمها تقدم به الزمن، إن هذا لأمر عجيب لم تجر به العادة.

اشتهر عند بعض الناس وهو أمر عجيب جداً أن ضحكت بمعنى حاضت، وهذا قول متكلف بعيد، والضحك في الآية هو المعلوم عند الناس وقد يتساءل: كيف قيل هنا ضحكت، وفي سورة أخرى فصَّكت وجهها؟ وأقول: إن هذا يرد إذا كان الضحك بعد البشارة وهذا ما ذهب إليه بعض اللغويين من أنَّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، والأصل بشرناها فضحكت، وهذا تكلف نجل القرآن الكريم عنه ونحذر الدارسين لكتاب الله من أن يقبلوا شيئاً من هذا مما يرد في بعض كتب التفسير، فإن نظم الآية الكريمة هنا يدل على أن الضحك كان قبل البشارة بدليل الفاء التي هي للتعقيب ﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا﴾ [هود: ٧١] فالبشارة عقب الضحك إذن وقد ذكروا للضحك أسباباً كثيرة منها: أنها ضحكت لإهلاك قوم لوط، وقد كانت تكرهمهم لفعلهم الشنيع، أو حينما علمت أنهم ملائكة، وقد ذكروا أسباباً كثيرة يرجع إليها في كتب التفسير.

---

(١) (حنيز): مشوي على الرضف وقد حفرت له حفرة، وهو من الطعام الشهي، ويعرف في بلادنا «بالزرب» فيأكله الآكلون دون عناء لأن النار التي حفر لها قد هيأت له لذلك.

ولكن أولئك الرسل من الملائكة يخبرونها أن لا عجب في ذلك؛ فهو أمر الله، والله تبارك وتعالى قد منّ عليهم برحمته، ومن عليهم ببركاته، فهم أهل بيت النبوة، والله حميد مجيد، فلما عرف إبراهيم ذلك ذهب عنه الروح الذي كان يستولي على قلبه، وبعد هذه البشرية الطيبة أخذ يجادلهم في شأن قوم لوط لعلهم يرجعون عن غيهم ولعل الملائكة يرجعون عما سيقومون به من عذاب أولئك، وهذا يدل على صفات خيرة لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، فهو حليم أولاً، والحلم من الصفات التي يحبها الله، وهو أواه منيب<sup>(١)</sup> كذلك، ولكن الملائكة يخبرونه أن لا حيلة في الأمر؛ فليعرض عما يجادل فيه؛ لأن ذلك أمر الله تبارك وتعالى وقضائه، ولا راد لقضائه، ولا بد من أن يأتيهم عذاب غير مردود، وهنا ربما يرد هذا التساؤل: إن الآيات في السور السابقة حدثتنا عن شأن إبراهيم مع أبيه وقومه، وكان ذلك في بلده الذي نشأ فيه قبل أن يهاجر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، فلسطين، فكيف جاءت الآيات في سورة هود تتحدث عن إبراهيم في البلد الذي هاجر إليه دون أن يسبق له ذكر من قبل؟! ونجيب على هذا التساؤل بأن الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن ينتقل القرآن الكريم هذه النقلة التي لم يسبق لها ذكر، ولكن الذي يقف مع الآيات السابقة يجد أن القرآن الكريم أشار إلى هذه الهجرة إشارة مجملّة وذلك ما حدثتنا عنه آيات سورة مريم حينما قال: ﴿وَأَعْرَضْنَاكُمْ وَمَا نَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعَاؤِي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَفِيئًا فَلَمَّا أَغْرَضَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نِسَاءَ﴾ [مريم: ٤٨] وهذه طريقة القرآن الرائعة حيث ذكر ذلك مجملاً أولاً ثم يجيء التفصيل بعد ذلك، وهذه الآيات من سورة هود نقرأها متدبرين وسنرى أن ما جاءت به جديد من حيث الموضوع والأحداث والجزئيات:

---

(١) (أواه): كثير التأوه من خشية الله، (منيب): راجع إلى الله بما يحبه سبحانه من الإنابة وهذه الصفات تدل على الرحمة فهو حليم لا يسرع بالانتقام ممن أساء له، أواه منيب وهذه الصفات له عليه السلام ترضي الخالق والمخلوق.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تُصِلُ إِلَيْهِمْ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَتُولىءُ الْآلُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتِ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمٍ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَتَذَكَّرُ إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَنِيبٌ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٦٩-٧٦].

إن هذه الآيات الكريمة حين نتدبرها تدل على جوانب خيرة متعددة في شخصية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، فهذا الإحسان إلى الضيف لا من حيث القرى وحده وكرم الضيافة، وإنما من حيث البشاشة كذلك، وقد تغني البشاشة عن القرى، ومن أقوالهم: «البشاشة خير من القرى» ومن الكلمات الشعبية التي جرت هذا المجرى: «لاقيني ولا تغديني» ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - جمع بينهما فتحيته خير من تحيتهم، ثم إن إبراهيم عليه السلام بشر، لذا يسوؤه ما يسوء الناس حينما يرى أنهم لا يقربون زاده، ولا يتناولون منه شيئاً وربما يكون إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قد أدرك بحسه المرهف، وببصيرته أنهم ملائكة فنكرهم وأوجس منهم خيفة أي أضمر في قلبه خوفاً دون أن يشعرهم؛ لأنه ظن أنهم أتوه لأمر سيحل به. والقائلون هنا يستدلون بقول الله ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠] فكأنهم أدركوا معرفته لهم فأخبروه أنهم ما جاؤوه، وأنهم جاؤوا قوم لوط، وهذا يدل على بصيرة منه - عليه الصلاة والسلام - . والأول - ونعني ظنه بهم بشراً لا ملائكة - يدل على رجاحة عقل؛ لأنه أوجس منهم خيفة أضمرها في نفسه دون أن يظهرها لهم ويشعرهم بها، ونجد السياق هنا يسدل فيه الستار على ما كان بينهم وبينه ليحدثنا عما كان بينهم وبين امرأته بهذه القوة من الأسلوب، ولو لم يكن إلا هذه الميزة الطيبة، وهو أن الله تبارك وتعالى أكرمهم برحمته وبركاته فجعلها عليهم ينعمون بها لكفاهم ذلك .



ثم هذه الصفات التي جمعها الله لخليله - عليه السلام -، وهو ما أكرمه الله به، فارتكز في نفسه من حب للخير وعفو عن المسيء، وخشية لله؛ فإذا أضيفت هذه إلى ما سبق من الصفات نجد أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - جمع من الصفات ما لم يجمعه أحد، فلا غرو أن يكون أبا للأنبياء، ولا عجب أن نجد هذا الحب والإجلال والتقدير من سيدنا رسول الله - ﷺ - لأبيه إبراهيم يدرك ذلك كل من أجال نظره في السنة المطهرة... إنه إبراهيم وكفى - ﷺ -، اللهم إنا نشهدك أننا نحب نبيك ﷺ ونحب أبانا إبراهيم شيخ الحنفاء وأبا الأنبياء ﷺ الذي أحبه نبيك ﷺ، فأكرمنا اللهم بهذا الحب في الدنيا والآخرة.

٤- ثم جاءت سورة الحجر بعد سورة هود، والحديث فيها عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يتلاءم مع موضوعها الذي تحدثنا عنه من قبل، وسورة الحجر هي السورة التي تبين لنا خلق الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، فهو كثير التقلب سريع التغير لا يستطيع أن يقف في مهب الرياح، لولا عناية الله تبارك وتعالى.

وقصة إبراهيم في سورة الحجر تحدثنا عن صفات هذه الصفوة المختارة، وكيف أن الله تبارك وتعالى تداركهم بعنايته.

يبدأ الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الحجر بعد قصة آدم عليه السلام، ولكننا نجده مبدوءاً بهذه الجملة المسندة إلى رسول الله - ﷺ - لينبيء عباد الله من أجل أن يعيشوا بين الخوف والرجاء، ولا بد منهما في حياة العبد المخلص؛ فإن الله تبارك وتعالى لا يجمع لعبد بين أمنين، ولا بين خوفين، فمن آمنه في الدنيا لم يأمنه في الآخرة، ومن خافه في الدنيا لم يخفه في الآخرة يقول الله تبارك وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحجر: ٤٩-٥١] هكذا جاء الحديث عن إبراهيم... وإذا كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام كثير الخوف من ربه، وأوهاً كما حدثتنا سورة هود، وإذا كان عظيم الأمل في

رحمة الله؛ فإن الآيات تحدثنا عن جانب من هذه الصفات في شخصية إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الحجر لا تحدثنا عما جرى بينه وبين قومه، وإنما عن جانب مما كان بينه وبين الملائكة، فتأتي قصة إبراهيم عليه السلام في الحجر مقدمة للحديث عن لوط عليه السلام... لكن القصة هنا تطوى فيها كثير من المشاهد التي وجدناها في سورة هود... ومع ذلك ففي القصة دروس جديدة.

تطلب الآيات من النبي - عليه وآله الصلاة والسلام - أن يحدثنا عن ضيف إبراهيم عليه السلام في وقت دخولهم عليه محيين مسلمين، ولكن إبراهيم عليه الصلاة والسلام - يجد في نفسه منهم مقدمات الخوف، وهو الوجل فيؤانسونه بأن لا داعي لهذا الوجل، فتحن نبشرك بغلام عليم، ويستفهم متعجباً ما هذا الذي تقولون وقد مسني الكبر فبأي شيء تبشرون؟! ويجيبونه بأن ما سمعه حق فلا ينبغي له أن يعجب ويستغرب، وحرى به أن لا يكون من القانطين، ويسارع - عليه الصلاة والسلام - ليرد هذه الصفة عن نفسه وهي صفة القنوط؛ لأنها من الصفات التي لا يحبها الله تبارك وتعالى، ولا يليق أن يتصف بها عباده، فالقنوط ليس صفة أولئك الذين ملأ اليقين قلوبهم وأشرق نور الإيمان في جوانب نفوسهم، وإنما هو صفة أولئك الضالين الذين لم يكرموا بقبس الهداية فهم في حيرة وتردد ثم يسألهم عن شأنهم وخطبهم وبهذا تنتهي قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة لتبدأ قصة لوط عليه السلام وهذه الآيات الكريمة:

﴿وَنَبِّئَهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالَوَا لَا نُوَجِّلُ إِنَّآ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ بُشِّرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَاطِئِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥١-٥٧].

والمتدبر للآيات الكريمة يلمح الجدة فيها لأول مرة دون عناء، فأولاً: يسميهم القرآن ضيفاً، وثانياً: يطوى فيها ذكر الطعام وما يتصل به، وثالثاً: يطوى فيه ذكر المرأة، ورابعاً: يشعرهم إبراهيم هنا بوجله، وهو مقدمات الخوف ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢] وفي السورة السابقة أوجس منهم خيفة خامساً: يوصف الغلام الذي بشر به هنا بأنه عليم، سادساً: نقف عند هذه العبارة المصورة المعبرة ﴿مَسْنَى الْكِبَرِ﴾ [الحجر: ٥٤]، سابعاً: نجد هنا صفة زائدة على ما تقدم في سورة هود وهي (عدم القنوط) إنما الذين يقنطون هم الضالون فقط، وإبراهيم عليه السلام ممن أكرمهم الله بالهداية.

ألا ترى - أخي القاريء - أن ما في السورة كله جديد لا تحوم حوله شبهة تكرار، ولا تشوبه شائبة إعادة، وأن الذين يدعون التكرار إنما هم واحد من اثنين؛ إما أنهم لا ينعمون نظراً، وإما أنهم لا يفقهون خبراً.

٥- ثم جاءت سورة الأنعام، وسورة الأنعام تتحدث عن العقيدة، لا من حيث تاريخها البعيد العميق - كما رأينا في سورة الأعراف - وإنما تتحدث عن العقيدة من حيثية أخرى، وهي رد الشبهات وإقامة الحجج، وتقدير الأدلة للإلزام المشركين، بل للإلزام أولئك الذين يجحدون الحق في شأن الألوهية والرسالة في كل زمان.

ومن هنا فليس عجيباً أن لا يذكر في سورة الأنعام أي قصة من قصص الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ولكن الخبر الوحيد الذي ذكر في هذه السورة هو خبر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وقد ذكرت هذه القصة من الجهة التي يعالجها موضوع السورة وهو إقامة البراهين على وحدانية الله تبارك وتعالى، وإبطال كل ما يعبد من دونه، هكذا جاءت قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في سورة الأنعام، وهي إقامة الحجة على أولئك الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، ومع ذلك يعبدون الأصنام، ويستنهجون أمر التوحيد، وهكذا بدأت قصة إبراهيم عليه السلام، فهو ينكر على أبيه آزر أن يتخذ أصناماً آلهة إن هذا لضلal مبين يتبعه آزر وقومه . . . وتحدثنا الآيات أن الله تعالى

أكرم إبراهيم عليه السلام بأن أراه ملكوت السماوات والأرض ليحاج قومه من جهة، وليزداد يقيناً من جهة أخرى. ويظلم عليه الليل فيرى كوكباً بازغاً فيقول على سبيل الاستهزاء وإلزام قومه بالحجة «هذا ربي» بصيغة الاستفهام الإنكاري دون أن تذكر أداة الاستفهام، فلما ذهب ضوءه قال: لا أحب الآفلين، وكان قومه يعظمون الكواكب وهذا لا يتنافى مع عبادتهم الأصنام لأنها هي صورها القريبة منهم وهكذا رأى القمر فأعاد مقالته الأولى، فلما غاب بين لهم أن الهداية ليست إلا من الله. وهكذا حينما رأى الشمس تساءل منكراً على قومه هذا ربي؟، إن هذا الضوء أكثر سطوعاً من غيره؛ ولكنها حينما غابت وغربت وجد أن ذلك كان كافياً لتبكي قومه وإلزامهم بالحجة، وهنا يعلن براءته مما يعبد قومه، كما يعلن أنه لا يوجه وجهه إلا للذي خلق السماوات والأرض مبتعداً عن كل اعوجاج، وعن كل جنف خفيفاً متجهاً نحو الحق بعيداً عن لوثة الشرك، وحاجه قومه وجادلوه؛ ولكنه أنكر عليهم ذلك كله فكيف يحاجونه ويجادلونه في دين الله؟! وقد هداه الله إلى الحق، ولذلك فهو لا يخاف شيئاً من أصنامهم أو معبوداتهم أو كيدهم؛ فلن يكون إلا ما يشاؤه الله تبارك وتعالى، ويقرعهم ويعنفهم فما بالهم يعرضون عن الحق فلا يتذكرون؟!.

ثم يأتيهم بهذه الحجة الدامغة، والدليل القاطع، والبرهان الساطع، فكيف يخاف من أصنامهم ومعبوداتهم الباطلة؟ وكيف يخاف كيدهم ومكرهم؟ وهم لا يخافون الله تبارك وتعالى الملك الحق المبين؛ فيشركون دون أن يكون معهم حجة أو سلطان، لم يخاف إذن وهم لا يخافون؟؟ إنهم أولى بالخوف من إبراهيم عليه السلام بل إنهم هم الذين ينبغي أن يخافوا؛ أما هو فلينعم بالأمن؛ لأنه يأوي إلى ركن شديد، وهكذا كل من آمن بالله، ولم يخلط عبادته بشرك، هو الحريّ بالأمن الجدير بالهداية، وهذه بحق حجة عظيمة، أكرم الله بها إبراهيم - عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاة الله وسلامه - فأقامها على قومه فلم يبق لهم منفذ، وهكذا يرفع الله درجات من يشاء من عباده؛ فإنه سبحانه المرئي

لهم الحكيم العليم ، وهكذا أكرم الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فجعل كثيراً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من ذريته .

تلك هي قصة إبراهيم في سورة الأنعام كانت أحداثها جميعها متسقة مع موضوع السورة الكريمة ذلكم لأن سورة الأنعام هي سورة الحجج والأدلة على العقيدة الصحيحة ، -وكما قلت من قبل- إنها القصة الوحيدة من قصص الأنبياء التي ذكرت في هذه السورة ، وفيها الحجة الدامغة على أولئك الذين انحرفوا عن ملة إبراهيم عليه السلام فجلبوا الأصنام للبيت الذي بناه .

وهذه الآيات الكريمة كما حدثتنا عنها سورة الأنعام نجد في آخرها بعد ذكر الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بياناً شافياً كافياً تاماً كاملاً بأن أولئك هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ؛ فإن أبى العرب إلا الكفر ؛ فإن هناك من أكرمهم الله بالإيمان وأولئك هم الذين هداهم الله تبارك وتعالى ؛ فبهذا هم يقتدى ويهتدى .

ولا بد أن ننبه هنا على أنه قد وردت أقوال كثيرة في تفسير هذه الآيات يفهم منها أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان جاداً حينما قال عن كل واحد من هذه الكواكب هذا ربي قاله على سبيل الإخبار والاعتقاد ؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً غير هذا ، ولكننا نجل شيخ الحنفاء ، وأبا الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - عن مثل هذه الأقوال وهي مما حشيت بها الكتب - مع كل أسف - فينبغي أن نضرب عنها صفحاً وأن نبتعد بها عن الآيات الكريمة تفسيراً وشرحاً وإنما قال : «هذا ربي» منكرأ على قومه ساخرأ منهم :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا لِلَّهِ إِنِّيَ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكِبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ رَبِّي الْكَوْنُ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُكْفِّرُنِي إِنِّي بِرَبٍِّّ مُّؤْتَمِنٍ وَمَا أَتَى النَّفْسَ وَالْجَنَّةَ وَجْهَتُ وَجْهِي لِلدِّينِ فَطَرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ  
 يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا  
 تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ  
 تَعْلَمُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا  
 ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ  
 وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ  
 وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ  
 وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَثَمَارًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ  
 وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا  
 لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا  
 بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَفْتَدَاهُمْ قُلُوبُ لَّا أَشْتَكُم عَلَيْهِ أَجْرًا  
 إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿ [الأنعام: ٧٤-٩٠] .

وهذه الآيات الكريمة تدل على أمر آخر أكرم الله به نبيه وخليله، ففضلاً على ما أكرمه  
 به من يقين وقد أراه ملكوت السماوات والأرض، فلقد أكرمه بهذه الحجج والبراهين  
 والأدلة التي لا يوفق لها إلا ذو بصيرة نفاذة، ومن هنا فنجد أنه بدأ في الترقى وهو ينفي  
 الألوهية عن الكواكب بدءاً ببعض النجوم ثم القمر ثم الشمس، ولو أنه بدأ بالأكبر منها،  
 وهي الشمس ما أمكنه أن يتحدث عن القمر والنجوم ولكنه بدأ من الأصغر إلى الأكبر،  
 وهذا من حسن الاستدلال، ودلالة الرشد، ثم نجده بعد ذلك استدل على عدم إلهية  
 هذه الكواكب بالأفول دون السطوع ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]  
 ونجده يعلق براءته من الشرك حينما أثبت أن أكبر الكواكب وهي الشمس لا تصلح لأن  
 تعبد، ثم يعلن أنه وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً، والحنف هو الميل  
 عن الباطل والجنف هو الميل عن الحق فانظر إلى هذه اللغة المحكمة، لغة القرآن فبين

المعنيين المتضادين نقطة واحدة، وبعد أن يحاجه قومه ينكر عليهم محاجتهم فقد هداه الله؛ ولئن خوفوه أصنامهم وآلهتهم فإنه لن يخافها - كما قلنا من قبل - إذ كيف يخاف ما لا ينفع ولا يضر، وما بالهم لا يخافون الله الذي بيده ملكوت كل شيء.

نعم إن المؤمن الذي صفى إيمانه من كدورات الشرك والشك والإخلاق إلى الأرض ولوثة المادة، هو الذي يكرمه الله بأعظم منتين، وأكبر نعمتين وهما الأمن والهداية. الأمن حتى لا يروع قلبه، والهداية حتى لا يضل عقله. ويقيني: أن ما بعدهما تابع لهما. وتلك هي الحجة التي آتاها الله إبراهيم على قومه فهو سبحانه يرفع درجات من يشاء من عباده وهو الحكيم العليم بمن يستحق ذلك من أولئك.

ثم يبين ما أكرم به نبيه من أنه جعل أكثر الأنبياء من ذريته وجعله هو من ذرية نوح - عليه الصلاة والسلام - ، وهذه الآيات من سورة الأنعام جمع فيها ثمانية عشر نبياً من أنبياء الله: إبراهيم واسحق ويعقوب ونوح عليه السلام، هؤلاء أربعة ثم ذكر أربعة عشر نبياً في مجموعات ثلاث كما تجد ذلك في الآيات السابقة. وهنا لفظة نقدرها لصاحب المنار عن سر الجمع بين هذه الفئات الثلاث.

قال رحمه الله: **فالقسم الأول:** داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بين هؤلاء أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان لأنهما كانا ملكين غنيين منعمين وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان الأول أميراً غنياً عظيماً محسناً، والثاني وزيراً عظيماً حاكماً متصرفاً، ولكن كلاهما قد ابتلي بالضراء فصبر كما ابتلي بالسراء فشكر، وأما موسى وهارون فكانا حاكمين ولكنهما لم يكونا ملكين، فكل زوجين من هؤلاء الأزواج الثلاثة يمتاز بمزية، والترتيب بين الأزواج على طريق التدلي في نعم الدنيا، وقد يكون على طريق الترقى في الدين؛ فداود وسليمان كانا أكثر تمتعاً بنعم الدنيا، ودونهما أيوب ويوسف، ودونهما موسى وهارون، والظاهر أن موسى وهارون أفضل في هداية الدين

وأعباء النبوة من أيوب ويوسف ، وأن هذين أفضل من داود وسليمان بجمعهما بين الشكر في السراء والصبر في الضراء - والله أعلم - وقد قال تعالى بعد ذكر هؤلاء : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي بالجمع بين نعم الدنيا ورياستها بالحق وهداية الدين وإرشاد الخلق وهذا كما قال الله تعالى عن أحدهم وهو يوسف <sup>(١)</sup> ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٢٢] فهو جزاء خاص بعضه معجل في الدنيا ، أي ومثل هذا الجزاء في جنسه يجزي الله بعض المحسنين بحسب إحسانه في الدنيا قبل الآخرة ومنهم من يرجىء الله جزاءه إلى الآخرة .

والقسم الثاني : زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وهؤلاء قد امتازوا - عليهم الصلاة والسلام - بشدة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذاتها والرغبة عن زيتها وجاهاها وسلطانها ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين ، وهو أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً على الإطلاق .

والقسم الثالث : إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ، وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية ؛ إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا ، أو سلطانها ما كان للقسم الأول ولا من المبالغة في الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني ، وقد قفى على ذكرهم بالتفضيل على العالمين الذي جعله الله تعالى لكل نبي على عالمي زمانه <sup>(٢)</sup> .

ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشرك أولئك لحبط عملهم ولكن الله علم أنهم لم يشركوا فهو تحذير لغيرهم ، وهؤلاء هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة ، فإن أبى أهل مكة وغيرهم إلا الكفر ، فإن الله وكل بها أقواماً يذبون عنها ، وهؤلاء هم الذين هداهم الله فبهداهم اقتده ، وهذا فيه ما فيه من الذكرى للعالمين .

(١) وقد أغفل الشيخ رشيد موسى عليه الصلاة والسلام فلقد جاء في حقه كذلك ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] .

(٢) تفسير المنار ج٧ ، ص ٥٨٧ .



ذاك خبر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في سورة الأنعام؛ السورة التي نهجت أكثر من أسلوب في تقرير العقيدة؛ أسلوب التقرير تارة؛ كقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨] ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ﴾ [الأنعام: ٩٧] إلى غير ذلك.

أو الأسلوب التلقيني: وهو المبتدأ بكلمة (قل)، ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذُوا لِيَا﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٤٠] ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٤٧] ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام: ١٩] ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣].

والأسلوب الثالث هو هذا الأسلوب؛ أسلوب إبطال حجة الخصم، كما رأينا في قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لقد تمثلت الروعة والدقة فيما أعطيه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من هذا التدرج في إقامة الحجة. يقول الزمخشري رحمه الله: «وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب؛ فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً؛ لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها محدثاً أحدثها وصانعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها»<sup>(١)</sup>.

٦- ثم تأتي سورة الصافات، وهي مكية كذلك، وسورة الصافات - كما تحدثنا عن موضوعها من قبل - تحدثنا عن إكرام الله أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام - . . . وهكذا كان الحديث عن إبراهيم عليه السلام فبعد الحديث عن نوح - عليه الصلاة والسلام - وقد مر معنا من قبل - تحدثنا آيات الصافات أن إبراهيم عليه السلام كان من شيعة نوح - عليه الصلاة والسلام - لأن كلا منهما كان صلباً في دين الله لم تلن قناته، وأنه أخلص لربه بقلب سليم خال من كل صفات النقص، وقد أنكر على أبيه وقومه ما يعبدون، وكل هذه الآلهة التي يدعونها من دون الله؛ إنما هي إفك وباطل وهذا كله؛ لأنهم لا يرجون لله وقاراً؛

(١) الكشاف ج٢، ص ٤٠.

ولأنهم ما قدروا الله حق قدره، فكان ظنهم برب العالمين غير منسجم مع براهين العقل، ويقين القلب.

كما تحدثنا الآيات كذلك عن يقظة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ورجاحة عقله، وبعد تفكيره، وحسن تخلصه، وشدة حرصه على دينه، وشدة قوته في محاربة الباطل، فلقد أراد أن يشاغل قومه حتى لا يسير معهم إلى حيث يريدون فيحملهم على تركه لينفذ أمراً عزم عليه، لذلك نظر نظرة في علم النجوم وقد كانوا يعولون على هذا العلم؛ فأخبرهم أن به سقماً يمنعهم من أن يشاركونهم مسيرتهم، ولا يظن ظان أن ذلك كذب من إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، وإنما ذلك من باب التعريض والتورية؛ فهو سقيم لعدم إيمانهم وتصديقهم بالحق وعبادتهم الباطلة، وهذا شأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، بل هو شأن الدعاة إلى الله والمصلحين، وقد حدثنا القرآن الكريم عما كان يختلج في نفس النبي - ﷺ - من ألم، وما يشعر به من حسرة حتى لقد كان ربه تبارك وتعالى يهون عليه ذلك ويسليه في كثير من آياته فيقول له: ﴿ فَلَا نَذْهَبَ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ﴾ [فاطر: ٨] كما يقول له: ﴿ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] وفي آية أخرى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود: ١٢] والآيات كثيرة، تلك التي جاءت تبدد الألم الذي كان يساور النبي - عليه الصلاة والسلام - من عدم إيمان قومه به.

وكذلك إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ فهو سقيم حقاً؛ ولما سمع القوم ذلك من إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تولوا عنه؛ فأدبروا إلى حيث يريدون، وهنا رأى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ أنها فرصة سانحة لا ينبغي أن تفوت أو تضيع؛ لأنها ربما لا تعوض فأسرع فذهب في سرعة وخفاء إلى آلهتهم وقد ترك القوم عندها المآكل الطيبة حتى ينعموا بها حين رجوعهم فخطبهم متهمين مستهزئاً ألا تأكلون؟! كما يأكل الذين يعبدونكم. ثم بكتهم مستهزئاً ما لكم لا تنطقون؟! ألا تتكلمون؟! وهنا وبكل سرعة وخفاء،

وبكل قوة وشدة، يأخذ بتحطيم هذه الأصنام. ويأتي القوم ليروا ما حل بأصنامهم فيقبلون مسرعين، وقد جن جنونهم؛ يقبلون مسرعين إلى إبراهيم عليه السلام، ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يباغتهم فيلزمهم الحجة، فكيف يعبدون هذه الأصنام التي ينحتونها هم بأيديهم مع أن الله تبارك وتعالى هو الذي خلقهم وخلق كل ما يعملون، خلق عملهم وهو الذي خلق هذه المواد التي ينحتونها، ويرى القوم أنه قد سُقط في أيديهم فلا يستطيعون أن يحيروا جواباً وهذا باطلهم قد دمع بهذا الحق الذي قذفه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، فلما لزمتهم الحجة ورأوا أنهم بعيدون عن الحجة لجأوا إلى القوة والبطش، وكذلك أهل الباطل في كل زمان حينما يعجزون عن مجابهة الحجج، وحينما يدركون أنهم في عماية ولجج؛ فإنهم يعمدون إلى النكاية المادية ومحاولة التصفية الجسدية، ذلك ما حدثنا عنه التاريخ، بل ذلك ما يشهد به الواقع لا سيما حينما لا يجد الحق عنه أي مدافع، كذلك قوم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، فما وجدوا خيراً من استعراض العضلات فتواصوا ببنيان يبنونه، وكيد لإبراهيم عليه السلام يريدونه؛ فليسعروا ذلك البنيان بالنار حتى تصير جحيماً، فليلقوا فيها إبراهيم عليه السلام... ولكن كما بطلت حجتهم من قبل فلم يستطيعوا أن يقابلوا إبراهيم عليه السلام بمنطق... أبطل الله كيدهم الذي أرادوه كذلك، فلم يصب إبراهيم عليه السلام بسوء، ورأى أنه لا بد أن يهاجر من أجل الله وهو واثق من أن ربه سيهديه إلى ما فيه صلاح هذا الدين، وكذلك الأنبياء ومن بعدهم الدعاة حينما يرون الأرض التي هم فيها أمحلت من الخير، وحينما يرون الجو الذي يعيشون فيه عقيماً؛ فإنهم يبحثون عن تربة صالحة تنبت فيها الكلمة الطيبة. ويسأل إبراهيم عليه السلام ربه أن يهب له من الصالحين ذرية طيبة فيستجيب الله دعاءه ويشره بغلام حلیم هو اسماعيل عليه السلام - ولا عجب فالحلم صفة لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كذلك - والولد سر أبيه - ويولد هذا الغلام لإبراهيم ويشد عوده حينما يبلغ مبلغاً يمكنه من أن يسعى مع أبيه في قضاء حوائجه، يحدثنا القرآن عما يدل على حلم الولد من جهة، وحلم الأب من جهة أخرى، والحلم صفة يحبها الله،

ولقد وصف بها إبراهيم عليه السلام في أكثر من آية وأي حلم أعظم من أن يتلى الأب بذبح ابنه؛ فيتغلب على كل عاطفة وحنان، وأي حلم أعظم من أن تطيب نفس هذا الابن المذبوح بما يريده أبوه فيذعن لهذا الحكم بكل رضى ومحبة من غير مداورة وتردد، تحدثنا السورة الكريمة عن هذا المشهد حينما أخبر إبراهيم عليه السلام ابنه أنه رأى في المنام أنه يذبحه، فما كان من الابن إلا أن يعلن لأبيه بأن يفعل ما يؤمر به وسيجده إن شاء الله صابراً محتسباً.

ويسلم كل من الأب والابن لله بكل خضوع وطمأنينة، وتباشر عملية الذبح بكل جدية وحزم، وحقاً إنه لمشهد مؤثر، وقد أبدع القرآن تصويره البياني في هذه القصة وينادى إبراهيم عليه السلام وقد تل ولده للجبين قد صدقت الرؤيا وحقاً إنها أعلى مراتب الإحسان من الأب والابن معاً، ولا بد للمحسن أن يجازى بإحسانه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وحقاً أنه لا ابتلاء عظيم، ويكرم الله إبراهيم عليه السلام بالفداء، ويفدى الولد البار بذبح (كبش) يقوم بذبحه الأب القانت، ويكرم الله إبراهيم عليه السلام الذي جمع بين عز الإيمان وخضوع العبودية وهما مقاماً الافتقار، والافتخار.

ويبشره الله تبارك وتعالى بولد آخر هو إسحاق نبيا وبيارك عليهما<sup>(١)</sup>، أما ذريتهما ففيها المحسن الخير والظالم المسيء.

تلك هي قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في سورة الصافات، ومع ما فيها من مشاهد مؤثرة ووقفات تربى الضمائر، وتهذب النفوس فترتفع بها وهي تلقنها أروع الدروس، ومع ذلك فلا نرى في القصة أي أثر من آثار التكرار، على الرغم مما فيها من أحداث عديدة إلا أنها مع ذلك كله جديدة ثرية بالعظات، والله الحمد والمنة . . .

---

(١) ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ في هذه الواو ﴿وَبَشِّرْنَاهُ﴾ سر عظيم من أسرار الإعجاز، وهو أن الذبيح كان اسماعيل عليه السلام، ولولا هذه الواو لكان يظن أنه إسحق، إذ يصير المعنى بعد أن فدينا هذا الابن بشرناه به نبينا، ولكن هذه الواو الدالة على التناير تدل على أن إسحاق كان غير الذبيح عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه على أن الذبيح كان إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - :

١- لأن الرسول ﷺ «ابن الذبيحين» وهما إسماعيل - عليه الصلاة والسلام -، ووالده عبد الله؛ فلقد نذر عبد المطلب أن يذبح أحد أولاده فخرجت القرعة على عبد الله ثم فداه بمئة من الإبل .

٢- لأن إسماعيل كان بمكة .

أما ما نقل عن بعض الأئمة من أنه إسحاق - عليه الصلاة والسلام -، فهو مردود يستند إلى بعض الإسرائيليات، وهو ما يدعيه اليهود وإن كانت توراتهم تناقض نفسها؛ ذلك لأنه جاء فيها: «أن اذبح ولدك الوحيد» وبالطبع لم يكن إسحاق الوليد الوحيد؛ لأن إسحاق جاء بعد إسماعيل - عليهم الصلاة والسلام - جميعا، فإسماعيل هو الولد الوحيد قبل أن يولد إسحاق .

وقد أشرنا إلى أن الواو في قوله ﴿وَبَشِّرْنَاهُ﴾ دالة على هذا وثبت هنا الآيات الكريمة التي جاءت في سورة الصافات من أجل أن يتدبرها المتدبرون :

﴿وَإِذْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ <sup>(١)</sup> أَفَبِكُلِّ عِلْقٍ ذُو أَلَةٍ تَرْبُدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرِبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ قَالَ أَنْتَعِدُونَ مَا نَنجُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ فَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ بَشَّرْتُ أَفَعَلَ مَا تُوَمِّرُ سَجْدَتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ النَّصِيرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ <sup>(٢)</sup> وَنَدَبْنَاهُ أَنْ يَتَّخِذَ إِسْمَاعِيلُ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ

(١) جاء في هذه السورة ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وجاء في سورة الشعراء ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، وذلك لأن ما في هذه السورة كان التفریع فيه واللوم والأحداث أكثر مما في سورة الشعراء . فانظر إلى هذه الأسرار البديعة إيجازاً وإعجازاً لهذا الكتاب البديع .

(٢) وتله للجبين: صرعه على شقه فوقع أحد جنبيه على الأرض تواضعا على مباشرة الأمر بصبر وجلد ليرضيا الرحمن .

تَجَزَى الْمُحْسِنِينَ إِنَّكَ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَقَدَيْنَهُ بِذَنْجٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ  
كَذَلِكَ تَجَزَى الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى  
إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿[الصفات: ٨٣-١١٣].

وفي الآيات - كما رأينا - مشاهد مؤثرة؛ فضلاً على ما فيها من الأسلوب القوي  
الجزل. والعجيب الذي يحتاج إلى وقفة وتأمل أن كلمة (راغ) وهي الذهاب بسرعة  
وخفاء نجدها تستعمل كثيراً مسندة لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في هذه السورة،  
وفيما مر معنا من قبل، وما نظن ذلك إلا لحكمة وهدف كما نلمح في صفات خيرة  
لإبراهيم تضاف إلى ما سبق.

ولقد تجلت صفة الصبر هنا وهو يغالب عواطفه، ويلقي ابنه على الجبين وقد شحذ  
شفرته ليذبحه امتثالاً لأمر الله ولا ندري أيهما كان أكثر صبراً الأب أم الابن؟! . . . ذرية  
بعضها من بعض وقد أثنى الله عليه بالإيمان والعبودية والإحسان وأكرمه بالبشرى - ﷺ  
وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً -.

٧- ثم جاءت بعد ذلك سورة الزخرف، وفيها إشارة موجزة متلائمة مع موضوع  
السورة، داخلية في ثناياها. وسورة الزخرف إحدى آل حم؛ ولكن المتأمل في موضوعها  
يجد أنها من أول وهلة جاءت تضيق على أولئك المشركين كل مسرب يمكن أن يسيروا  
فيه جدلين خصمين؛ فهي ترد على شبهاتهم بحجج نيرة، وتبطل ما ادعوه من تقليد الآباء  
ذوي النفوس السيئة؛ لأنهم كان حرياً بهم أن يتبعوا ذوي النفوس الخيرة، والسورة كلها  
مبنية على العقل الذي كان حرياً بهم أن يستعملوه ﴿حَمَّ وَالْكَبَّ الْأُمِينُ إِنَّهُ جَعَلَنَّهُ قُرْآنًا  
عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١-٣].

وبعد أن تناقشهم السورة فيما ادعوه من جعل الملائكة بنات الله، وعبادتهم لها،  
مدعين أن تلك مشيئة الله، يرد القرآن عليهم من أين لهم هذا؟ هل لهم مستند عقلي؟  
وإن لم يكن، ألهم مستند نقلي؟! الحق أن لا مستند لهم، لا من العقل، ولا من النقل،

نقرأ ذلك في السورة الكريمة: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠] ثم يرد القرآن عليهم ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] وهذا نفي للحجة العقلية، فليس عندهم دليل يستندون إليه وإنما هو خرص وكذب وظن، ثم يقول ﴿أَمْ أَنَاءِنتُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١] وهذا نفي للحجة النقلية أن يكون عندهم كتاب، فالحق أن ما ادعوه ليس له برهان من عقل أو دليل من نقل، ولكن من أين جاؤوا به إذن، ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وبعد مناقشة ومحاورة تأتي الآيات تشير إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ؛ فكانها تقول لهم: إذا كنتم صادقين في اتباع آبائكم فكان حريا بكم اتباع أبيكم الأول الذي تدعون الانتساب إليه، وتزعمون أنكم على دينه، ثم إن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وأنتم تعترفون أنه أرجحكم عقلا وأبعدكم نظرا وأصدقكم خبراً - كان ييراً مما يعبد أبوه وقومه، فكيف تدعون أنكم من أتباع إبراهيم ومع ذلك تصرون على تقليد آبائكم فيما هو باطل، وإبراهيم نفسه - عليه الصلاة والسلام - كان ييراً من فعل الآباء، فهو يدعو إلى التوحيد لعبادة الله وحده فهو الذي فطره وخلقه، حري بأن يُعبد، وهو الذي يهدي، إن الذي أنعم بنعمتي الخلق والهداية، وهما أعظم النعم هو الذي ينبغي أن يتوجه إليه الناس بالعبادة وحده، وهذه الكلمة؛ كلمة التوحيد جعلها إبراهيم باقية في نسله من بعده؛ لعل المعترضين - وأنتم منهم - (أي أيها المشركون) يرجعون عن غيهم وشركهم.

ما جاء في سورة الزخرف إذن يتطلبه موضوعها - كما ألمحنا إليه - وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

٨- ثم جاءت سورة الذاريات تتوعد المكذبين بالعذاب، فهو وعد صادق، وجزاء؛ لابد أن يقع، ولهذا فهي تضرب لهم الأمثال بمن سبقهم، أمّا ما ذكر فيها من قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ فإنما هو توطئة لذكر العذاب الذي حلّ بقوم لوط - عليه الصلاة والسلام -، ومع أن الجانب الذي عالجتة سورة الذاريات من قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام تقدم في سورتي الحجر وهود إلّا أننا مع ذلك نجد أن لكل واحدة لونا خاصا بها وهدفا يبعد شبهة التكرار في القصتين، صحيح أن هناك تشابهاً في بعض الأحداث، وهذا أمر لا بد منه؛ لأن هناك قضايا أساسية رئيسة تشترك فيها كثير من الموضوعات - تماماً كما نرى ذلك في الكون والإنسان - لكن لا يستطيع أحد أن يدعي أن ذلك يعني التماثل بين هذه الأشياء، كما بينت في المقدمات.

بدأت القصة في سورة هود بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ [هود: ٦٩] وفي سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، لكن القصة هنا بدأت بداية أخرى ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] فترى هنا أن التعبير عنهم بأنهم ضيوف مكرمون، ثم إن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قد أنكرهم، وسواء أكان هذا الإنكار من حيث هيئاتهم أم من حيث تحيتهم، إلا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مع ذلك أسرع في خفية عنهم، فجاءهم بعجل سمين<sup>(١)</sup>، ولما قربهم إليهم أنكر عليهم مرة أخرى عدم أكلهم، فأوجس منهم خيفة فبشروه بغلام عليم، فأقبلت امرأته في صيحة تضرب وجهها لغرابة ما سمعت، كيف وهي عجوز عقيم! ويجيئونها بأن ذلك هو قضاء الله الحكيم العليم.

نجد هنا أشياء جديدة في هذه القصة لم تذكر في سورة هود والحجر، وكثير مما ذكر في سورة هود والحجر لم يكرر هنا وعلى سبيل المثال قد ذكر الوجل في سورة الحجر

---

(١) عجيب أمر هذا القرآن الكريم، جاء في سورة هود «عجل حنيذ» أي ما شوي على الرضف وهي قطع من الحجارة، وهنا قال «سمين» فانظروا إلى هذه الدقة - يرحمني الله وإياكم -.



وهو غير الخوف وذلك لسرٍ بديع، أما هنا فلم يذكر الوجل، وفي سورة هود كان العجب من امرأة إبراهيم ولكنها عبرت عن ذلك بما أخبرت به من قول، وتحدثت به من كلام أما في سورة الحجر فلم يرد لامرأة إبراهيم ذكر، وإنما كان العجب منه - عليه الصلاة والسلام -، ولكن هذه السورة تبين لنا طريقة أخرى عبرت بها المرأة عما في نفسها حينما أقبلت في صرة فصكت وجهها. العجب هنا كان فعلا والعجب هناك كان قولاً... هذا مع تنوع البداية لكل قصة وإيرادها بما يتسق مع شخصية السورة التي ذكرت فيها. وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَأَى إِلَهُهُ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلَيْهِمْ قَالَتْ آمَرْنَاهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ <sup>(١)</sup> ﴾ [الذاريات: ٢٤-٣٠].

٩- أما سورة النحل، وهي من أواخر ما نزل في مكة، وسورة النحل - كما نعلم - تسمى سورة النعم، ولقد جاءت الإشارات فيها عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - متفقة تماماً مع موضوع السورة، فإبراهيم الذي أكرمه الله وأنعم عليه كان شاكراً لهذه الأنعم، فمن الله عليه بأن زاده من نعمه وأدامها عليه، وهذا على عكس ما كان من اليهود الذين لم يشكروا النعم حينما كانت تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً فأبوا شكر هذه النعمة:

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا <sup>(٢)</sup> وَلَرَبُّكَ مِنَ الْمُنْشِرِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَءَاتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ

(١) وهذا يتمشى مع السنن القرآني الذي حدثك عنه، وهو أن القصة في آخر سورة تتحدث عنها يأتي موجزا مجملا، ومع ذلك لا يخلو من جديد، كما رأينا هنا في حديثها عن إبراهيم ﷺ والملائكة وكما عرفنا من قبل.

(٢) القانت: القائم بما أمره الله.

الحنيف: المائل إلى ملة الإسلام، غير الزائل عنه.

إِبْرَاهِيمَ حَافِظًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَشْرِكِينَ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٤].

١٠- ثم جاءت بعد ذلك سورة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وهي مكة كذلك، والحديث فيها عن إبراهيم جاء في سلسلة هذه الإلزامات الكثيرة التي تنعى على أهل مكة وغيرهم من العرب استمرارهم في عبادة الأصنام، وكان من حقهم أن يعبدوا الله الذي من عليهم بهذا الأمن في بلدهم، وأن يتذكروا دعوة إبراهيم عليه السلام حينما سأل ربه أن يجعل هذا بلدا آمنا، وأن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام ويصرفهم عنها؛ فإنها أضلت كثيرا من الناس، ويبين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بأن الرابطة الحقيقية التي تربط بنيه به إنما هي رابطة العقيدة ﴿فَمَنْ يَتَعَنَّى فَإِنَّهُ مَتَّى﴾ [إبراهيم: ٣٦] كما تبين الآيات الكريمة حرص إبراهيم على هذا البلد الآمن وساكنيه، كل ذلك من أجل أن يشكروا نعم الله عليهم، فلا يكفروها ولا يكفروا بالله الذي أنعم بها، ويعطي القدوة من نفسه على هذا الشكر فهو يحمد الله الذي وهب له على الكبر ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ويسأل ربه سميع الدعاء أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته كذلك وأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين.

فنحن نرى أن ما جاء في سورة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان جانباً جديداً من خبر إبراهيم عليه السلام، فهو متسق مع موضوع السورة من جهة، ومع شخصيتها واسمها من جهة أخرى، وهذه هي الآيات الكريمة التي جاءت في سورة إبراهيم عليه السلام نتلوها وتندبرها:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَعَنَّى فَإِنَّهُ مَتَّى وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ

شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿[إبراهيم: ٣٥-٤١].

وفي هذا أبلغ رد وخير دحض لما يقوله خصوم الإسلام من أعداء وأدعياء، والذي أشرنا إليه من قبل في أول الحديث عن قصة أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أينا ﷺ، من أن صلة إبراهيم عليه السلام بالبيت وصلته بإسماعيل عليه السلام، لم يعرفا إلا في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

١١- ثم جاءت سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - تحدثنا عن قصة أبي الأنبياء، ويعلم الله أن في هذه القصة من النسق الفني، وروعة البيان، ودقة التعبير، كما فيها من جدة الموضوع ما تأنس له النفس خير إيناس، ويخشع له القلب، ويأسر اللب ساطعاً بالحق على ما لهذا الكتاب الكريم من عظمة التأثير على الجنة والناس. ذكرت قصة إبراهيم عليه السلام في هذه السورة الكريمة بعد حديث موجز عن موسى - عليه السلام - . وقد تكلمنا من قبل عن ترتيب القصص في القرآن الكريم فارجع إليه .

وتبدأ القصة بما أكرم الله به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من الرشد، وهي كلمة جامعة لكل ما يصلح شؤون الحياة المادية والروحية والدنيا والآخرة. والرشد يقابل الغواية، كما أن الهدى يقابل الضلالة، ومن عظمة القرآن الكريم أنه تستعمل الكلمة فيه مع غيرها، فيكون لها معنى خاص، فإذا أفردت كان لها معنى أعم، وذلك كثير في كتاب الله تعالى. كالإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والفقير والمسكين، والكفر والشرك، والرشد والهداية، فإذا استعملت هاتان الكلمتان معاً كان لكل منهما معناها الخاص بها ألا ترى أن قول الله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] فلا يشك أحد بأن كلا من الإيمان والإسلام في الآية الكريمة له معنى خاص له، وكذلك قوله سبحانه ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢] وقوله ﴿إِنَّمَا أَصْدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]

وكذلك قوله سبحانه ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الرِّجْزَ الرَّجِيمَ﴾ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١-٢] فإن كل كلمة في هذه الآيات لها معناها اللاتق بها.

أما إذا ذكرت الكلمة وحدها فإنها تكون شاملة لمعنى الكلمتين معاً فإن ذكرت كلمة الإيمان دون كلمة الإسلام كانت شاملة للمعنيين، وكذلك إذا ذكرت كلمة الفقراء دون كلمة المساكين، أو كلمة الكفر دون كلمة الشرك. والذي يعيننا هنا أن كلمة الرشد في سورة الأنبياء ذكرت وحدها دون كلمة الهداية؛ فهي إذن كلمة عامة تدل على سلامة العقيدة والسلوك الخير، إنها تدل على التوفيق في العلم والعمل، وصدق الظاهر والباطن.

وتحدثنا الآيات عن هذه المحاوراة التي كانت بين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وبين قومه. ولا بد أن ننبه قبل كل شيء على هذه الموضوعات التي نجدها في القصة القرآنية لقد تحدثنا عن هذه المحاورات في سور قرآنية سابقة، فرأينا في إحداها قول إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وبيّن لهم أن هذا إفك، وفي بعضها الآخر يقول لهم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وما أعظم الفرق بين الأسلوبين. وكان جوابهم كما تحدثنا سورة الشعراء حينما سألهم إبراهيم ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ قالوا ﴿تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

وتأتي سورة الأنبياء التي نتحدث عنها فلا يكون التساؤل فيها عن العبادة، وإنما عما أجابوا به من قبل حينما قالوا: ﴿تَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١] فيأتي التساؤل في سورة الأنبياء بهذا الأسلوب الذي هو استكمال لما ذكر في السور السابقة ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] إنه يستنكر عكوفهم ولزومهم لهذه التماثيل. وفي هذه التسمية ما يدل على حقارة شأنها؛ لأن التماثيل ما هي إلا أشكال صنعت لتشبه صوراً مخصوصة. وهذا كاف في ضآلتها وكونها غير مستحقة لهذا العكوف، ولا يجد القوم ما يجيبون به عن أحقية هذه التماثيل بعبادتهم وعكوفهم، ولكنهم يتهربون من الإجابة مدعين أنهم إنما قلدوا في عبادتها والعكوف لها آباءهم

دون أن يكون لهم نظر مستقل في شأنها. ويجيبهم - عليه الصلاة والسلام - : أنهم هم وآباؤهم مستغرقون في الضلال، منغمسون فيه؛ وكأنه يبين لهم أن الباطل لا يمكن أن يصير حقاً مهما كثر أتباعه وتعدد أنصاره وتتابع عليه الأجيال، ويردون عليه متجاهلين الحديث عن هذه الأصنام والتماثيل، متسائلين : ترى أجتئنا بالحق أم أنت لا تزال منغمساً في لهوك ولعبك، ويجيبهم - عليه الصلاة والسلام - جواب الداعية الواثق من دعوته الذي لا يتقن لنفسه، لكن همه كله أن يبلغ عقيدته ورسالته، وهذا شأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بل هو شأن تلامذتهم من الدعاة إلى الله كذلك، إنهم يتناسون كل شيء في سبيل إيصال الرسالة والدعوة إلى الناس، وهذا يوسف - عليه الصلاة والسلام - حفيد إبراهيم عليه السلام حينما يسأل عن تأويل الرؤيا من صاحبي السجن . نجده قبل أن يؤولها يقول ﴿أَزْيَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف : ٣٩] ولقد كان له أسوة في جده - عليه الصلاة والسلام - . لذلك نراه يجيب قومه حينما اتهموه بالاستغراق في اللعب واللهو يجيبهم بأن ربهم الذي رباهم وأنعم عليهم حري به أن يعبد وهو رب السماوات والأرض، وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس . ويعلن أن هذه هي عقيدته وهذا هو دينه، فهو على ذلك كله من الشاهدين .

ثم تحدثنا السورة الكريمة عما قرره إبراهيم في نفسه، وأعلنه ليسمعه بعض أولئك، فهو يقسم أن يدبر أمراً لأصنامهم بعد أن يذهبوا للهوهم ولعبهم في عيدهم، وهذا لا يتعارض مع ما ذكر من قبل في سورة الصافات، ففي قوله تعالى ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِنَّ﴾ [الصافات : ٣٧]؛ لأن هذا القول لا ينافي أنه سيذهب لتحطيم الآلهة متخفياً مسرعاً، ويظهر أن القسم الذي أقسمه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ليعيد أصنامهم ويدبر لها أمراً يسوؤهم، إنما سمعه بعضهم كما نفهم من الآيات .

وقد بر إبراهيم عليه السلام بقسمه فحطم الأصنام وجعلها جذاذا وقطعها قطعاً . ولكنه - عليه الصلاة والسلام - كان ذا رأي وحنكة وحجة، فقد أبقي كبير هذه الأصنام

دون أن يصيبه بأذى، وذلك لأمر في نفسه؛ ليرجع إليه أولئك بعد مجيئهم من عيدهم؛ ليسألوه عن شأن الأصنام فيلزمهم الحجة ويدمغهم بالبرهان، وهكذا كان... فلقد رجع القوم ووجدوا ما امتعضت منه نفوسهم وطارت منه عقولهم، وماذا أكثر من هذا الذي حل بآلهتهم، ويتساءلون من الذي فعل بآلهتهم هذا الفعل؟؟! إن ذلك لظلم عظيم، ويقول بعضهم - الذي سمع إبراهيم حينما أقسم قسمه - إنهم قد سمعوا ذلك الفتى يذكر أصنامهم بسوء وهو ذلك الذي يقال له إبراهيم عليه السلام، ويقررون أن يأتوا بإبراهيم - عليه السلام - أمام جموعهم وعلى أعينهم، وي جاء به ويسأل ليقرروه بما فعل ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]. وهنا تظهر حنكته ومهارته في إقامة الحجج ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وهذا ليس كذبا في حقيقته، وإنما هو من باب التعريض والتورية، فليسألوهم إن كانوا يستطيعون جوابا، ويدرك القوم ما هم فيه من خطأ، وما هم عليه من انحراف ويرجعون إلى أنفسهم، يرجع بعضهم إلى بعض، إنكم أنتم الظالمون، كيف تعبدون مثل هذه الآلهة التي لا تستطيع أن تدفع عن نفسها سوءا ولا تقدر على أن ترد ما أريد بها من ضرر، فكيف ترد عنكم أنتم السوء والضرر، ولكن هذه الجذوة من الحق لا تلبث أن تنطفئ، وإذ بهم يرجعون إلى غيهم فينكسون على رؤوسهم يطرقونها خجلين مفكرين، كيف نسألهم وأنت تعلم أنهم لا يستطيعون نطقاً، ولا يحرون جواباً.

ويستغل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - هذه الكلمات في اعترافهم هذا وهذا هو شأن الدعاة فكيف بشيخ الدعاة أبي الأنبياء ليلزمهم الحجة مرة أخرى، وإذن أتجهلون فتعبدون ما لا يجلب لكم نفعاً ولا ضراً، إن ذلك يدعو إلى التضجر والتأفف منكم ومما تعبدون، كان حرياً بكم أن تستعملوا عقولكم التي منحكم الله إياها، ولما لم يجد القوم ما يدافعون به عن ضلالهم، ولما رأوا أنهم لا يملكون حجة وليس لهم منطق سليم يمكن أن يجابوها به الحق يهرعون إلى القوة، وكذلك شأن الطغاة في كل زمان ومكان،

يقول بعضهم لبعض والغيظ يملأ قلوبهم «حرقوه» بهذا الأسلوب الدال على الغيظ والشدة حرقوه وانتقموا لآلهتكم وانصروها وهذا درس ينبغي أن يعيه أهل الحق وهم يرون كيف يدافع أهل الباطل عن باطلهم.

وهنا تكون المعجزة، فهذه النار التي أضرموها وجمعوا لها كل ما يستطيعون، يوحى الله تعالى لها ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وهكذا أذهب الله من هذه النار الحرارة والإحراق واستبدل بهما الإضاءة والإشراق ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]<sup>(١)</sup> وهكذا نجى الله إبراهيم ولوطا - عليهما الصلاة والسلام - إلى الأرض التي باركها، وهي أرض فلسطين، ووهب له من وهب من ذرية صالحة.

ذكر الشهاب الألوسي<sup>(٢)</sup> رحمه الله: «ما روي عن أبي بن كعب قال: حين أوثقوه ليلقوه في النار قال - عليه الصلاة والسلام -: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك، ثم رموا به فأتاه جبريل - عليه الصلاة والسلام - فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟! قال: أما إليك فلا. قال جبريل - عليه الصلاة والسلام -: فاسأل ربك فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ويروى أن الوزغ كان ينفخ في النار وقد جاء ذلك في رواية البخاري»<sup>(٣)</sup>.

(١) من أسرار الحكمة البينانية أنه جاء هنا: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ وجاء في سورة الصافات ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ أما الفاء فجاءت تعقيباً على قولهم.

(٢) روح المعاني ١٧-٦٨.

(٣) أخرج الإمام البخاري عن ابن عباس قال «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقى في النار [كتاب التفسير/ سورة آل عمران باب ١٣ حديث ٤٥٦٣]. وأخرج البخاري عن أم شرف أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ قال كان ينفخ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام «في كتاب احاديث الانبياء» حديث ٣٣٥٩.

هذه قصة إبراهيم في سورة الأنبياء، وهي - كما قلنا من قبل - فيها من بديع البيان، وروعة الفن القصصي وجدة الموضوع، ودقة التعبير ما لا يخفى. ولقد أشير إلى هذه القصة إشارة مجملة في سورة الصفات كما مر معنا من قبل. لكن ما جاء في هذه السورة كان تفصيلاً جديداً لا من حيث الموضوع فحسب بل من حيث بعض المفردات كذلك. كما رأينا في أول القصة. وعلى سبيل المثال ذكر في سورة الصفات ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ عقب ذكر البنيان الذي أرادوا أن يجعلوه بأسفله، وذكر هنا «الأخسرين» بعد محاولتهم نصر آلهتهم. وذكر هناك ما أكرمه الله به من إسماعيل وخبر الفداء، وذكر هنا ما أكرمه الله به من إسحاق، وهكذا لكل قصة نسقها.

والخلاصة التي ينبغي أن نقررها، ومعنا كل المنصفين، هي أن أمر التكرار بعيد كل البعد، وتلك هي الآيات التي ذكرت في هذه السورة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِظُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادَةً قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُوعًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٧٣].



١٢ - ثم تأتي سورة العنكبوت بعد ذلك، وهي آخر السور المكية التي تحدثت عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وكان الحديث فيها عما كان بينه وبين قومه وبينه وبين الملائكة بإيجاز، وسورة العنكبوت سورة الدعاة - كما قلت من قبل - ولذا فإن الحديث فيها يأتي على سبيل الإيجاز والعناية بالقضايا الكلية التي تهم الدعاة إلى الله . . . وقد رأينا فيما مضى أن قصص الأنبياء تكون موجزة مجملة في السور الأخيرة التي ذكرت فيها هذه القصص، رأينا ذلك واضحا مثلا في قصة آدم عليه السلام وقد ذكرت آخر ما ذكرت في سورة الكهف، وفي قصة نوح عليه السلام التي ذكرت آخر ما ذكرت في سورة العنكبوت . . . إلا أن الذي يلفت النظر هنا أن السور السابقة كانت تحدثنا عن جانب من جوانب قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وإذا كان قصص الأنبياء الذي مرّ معنا ليس له إلا جانب واحد، وهو ما كان بينهم وبين أقوامهم فإن الحديث عن إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام تكتنفه جوانب كثيرة مهمة، فتارة يكون عما بينه وبين أبيه وقومه، وتارة عما جرى بينه وبين الملائكة حينما جاؤوا مبشرين وهم في طريقهم إلى قوم لوط عليه السلام، وتارة كان الحديث عما جرى بينه وبين ابنه في شأن الذبح - عليهما الصلاة والسلام -، وتارة كان حديثا عن صفاته وخصاله وشكره بعد أن عرفنا الكثير عن صبره، وستأتي جوانب أخرى في السور المدنية إن شاء الله . . . أقول الذي يلفت النظر ويشير الاهتمام أن سورة العنكبوت حدثتنا عن جانبين اثنين من جوانب العبرة في قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ولا عجب فهي سورة الدعاة كما قلت - كان الجانب الأول: عما كان بينه وبين قومه. وكان الجانب الثاني: عن مجيء الرسل من الملائكة<sup>(١)</sup>.

تحدثنا الآيات في الجانب الأول: أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أمر قومه أن يعبدوا الله ويتقوه، وهذه إشارة يحرص الأنبياء أن يبينوها لأقوامهم؛ ليدركوا أن التدين

---

(١) وهذا يتناسب مع شخصية السورة وموضوعها فهي إذ تبين ما تحمله الأنبياء وما ينبغي أن يتحملة الدعاة ورثتهم تبين النتائج الطيبة التي يكرم الله بها هؤلاء الأنبياء وأولئك الدعاة.

الحق لا بد له من إصلاح الظاهر والباطن، ولما كانت العبادة أمراً ظاهراً يمكن أن يدعيه كثير من الناس كان لا بد من أمر آخر يكون ثمرة لهذه العبادة، وهو التقوى فكثير من أولئك الذين يتظاهرون بالعبادة بعيدون كل البعد عن أن يكونوا متقين، ولعل في الأحاديث الكثيرة لسيدنا رسول الله - عليه وآله الصلاة والسلام - التي تبين لنا أن المفلس من هذه الأمة من يأتي بصلاة وصيام وزكاة، وأنه كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش، وأن هناك أناساً يأتون بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء يجعلها الله هباء منثوراً، مع أنهم يقومون الليل، إلا أنهم قوم إذا خلوا إلى محارم الله انتهكوها.

ثم يبين إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لقومه أن ما يعبدونه من دون الله ليس إلا أوثاناً وأنهم إنما يفترون كذباً في هذه العبادة. . . فهذه الأوثان لا تملك لهم رزقاً فحري بهم أن يطلبوا الرزق من الله، وأن يعبدوه ويشكروا له نعمه، أما إن اختاروا التكذيب فليسوا بدعا من الأمم فقد كذبت من قبلهم أُمم كثيرة وليس هو بدعا من الرسل فقد كذبت من قبله رسل كثيرة، وهو كغيره ممن سبقه من الأنبياء ليس عليه إلا البلاغ ويذكرهم بالبعث، وأنهم إلى الله وحده سيرجعون، وأن هذا البعث ليس فيه شيء من الصعوبة فالذي بدأ الخلق هو الذي سيعيده، والذي كان قادراً على البداية الأولى لا تصعب عليه النشأة الآخرة، ولا بد من هذا البعث ليأخذ كل إنسان ما يستحقه من عذاب أو ثواب، والناس ليسوا معجزين في الأرض ولا في السماء إن استطاعوا أن يصعدوا إلى الجو والذين يكفرون بآيات الله وينكرون هذا البعث أولئك هم الذين يشسوا من رحمة الله، فلهم ما لهم من العذاب والنكال.

ثم يبين إبراهيم عليه السلام لقومه قضية مهمة، وهي لا تقل أهمية عما سبقها من القضايا ذات الحيوية والحساسية التي ينبغي أن يذكرها الدعاة دائماً، هذه القضية التي بينها إبراهيم عليه السلام أخيراً لقومه هي أن هذه الأوثان التي اتخذوها من أجل أن تكون رباطاً لهم يربط بعضهم ببعض، ومن أجل أن تجعل المودة بينهم في هذه الدنيا،

وكذلك أنصار الباطل في كل زمان ومكان يجدون في باطلهم الرابط الذي يشد بعضهم إلى بعض . . . وهذا ما نجده في واقعنا الذي نحياه، ينبه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قومه إلى أن هذا الباطل الذي اجتمعوا عليه رجاء أن يجمع شملهم سوف يزول ويتبدد ويتلاشى؛ لأنه ليس له أساس ولا حقيقة وسيكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً دون أن يجدوا ناصراً ينصرهم . . .

ويحدثنا القرآن الكريم أنه على الرغم من كل هذه العظائم، على الرغم من هذه الدروس والحجج إلا أن قومه لم يزدوا على أن قال بعضهم لبعض اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار، وفي ذلك آيات عظيمة لأولئك الذين ثبتوا على الحق، فإيمانهم متجدد دائماً، وتجدد الإيمان أمر لا بد منه للدعاة إلى الله، وفي الحديث<sup>(١)</sup> عن سيدنا رسول الله ﷺ «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق فسلوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم» هذا ما تشير إليه الآية ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

وتحدثنا الآيات أنه آمن له لوط عليه السلام لم يؤمن غيره وبعد أن يؤس من قومه ولم يؤمن له إلا لوط، قال ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَيْثٍ﴾ [العنكبوت: ٢٦] وهاجر بعيداً عن قومه، وأكرمه الله بما وهب له من ولد وحفيد، وأكرمه الله بما جعل في ذريته من نبوة وكتاب، وأكرمه الله بالأجر العظيم في الدنيا وبالجزاء العظيم في الآخرة.

أما الجانب الآخر من قصة إبراهيم عليه السلام الذي حدثتنا عنه سورة العنكبوت فهو جانب موجز كذلك، وكل من الجانبين له أهميته في حياة الدعاة إلى الله، هذا الجانب هو ما كان بين إبراهيم وبين الرسل من الملائكة وتشير إليه الآيات إشارة سريعة بهذه الآية الكريمة ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنِّي فِيهَا لَأَوْطَأُ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢] هكذا بهذا الإجمال والإيجاز التام

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ٤٥/١ .

يذكر هذا الجانب في هذه السورة الكريمة فما هي البشري؟ لقد مر ذلك من قبل، ولكن هنا شيئاً آخر، وهو الدفاع عن لوط عليه السلام ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وتطمئنه الملائكة بأنهم يعلمون ذلك وسينجي لوط عليه السلام وأهله إلا امرأته.

ونجد أن ما حدثنا به سورة العنكبوت كان جديداً لا من حيث الموضوع فقط، بل من حيث الجزئيات، والقضايا التي ذكرت في هذه السورة الكريمة وهذه هي الآيات الكريمة:

﴿وَأَبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَإِن تَكَذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمُومِن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَاسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّودَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿فَنَامَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَءَاتَيْنَاهُ أُجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ١٦-٢٧].

ذلكم هو حديث السور المكية عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -.

حديث القرآن المدني عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

ثم يأتي دور السور المدنية، فنجد فيها إشارات متعددة قد تطول وقد تقصر، ولكنها في مجملها تشمل موضوعات ثلاثة :

الأول :- بناء إبراهيم للبيت العتيق ، وما يتصل بذلك من دعواته لهذه الأمة .

الثاني :- تبرئته - عليه الصلاة والسلام - من أن يكون يهودياً أو نصرانياً .

الثالث :- براءته صراحة من أبيه بعد أن تبين له ما تبين من شركه .

هذا مع بعض الأمور التي تتصل بالعقيدة والدعوة مما ستعرفه إن شاء الله .

ونجد أن هذه الموضوعات الثلاثة تقتضيها طبيعة العهد المدني ؛ لأنها ذات صلة مباشرة بما كان بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الكتاب ، كما أنها ذات صلة مباشرة بتحويل القبلة ، وهي كذلك ذات صلة مباشرة بالتأكيد على نوع العلاقة التي ينبغي أن تكون بين المؤمنين وبين أقربائهم وذويهم إذا اختار أولئك الأقرباء الكفر على الإيمان ، ومع هذا كله نجد أن شائبة التكرار منتفية انتفاء تاماً ، بعيدة كل البعد وإليك البيان :-

١ - حدثتنا سورة الحج ، وسورة الحج مختلف في مكيتها ومدنيتها حدثتنا السورة أن الله أكرم إبراهيم عليه السلام فبوأ له مكان البيت ، وأمره أن يعبد وحده وأن يطهر بيته للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأن يؤذن في الناس بالحج .

هذه الإشارة التي اكتفت بها سورة الحج ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٦-٢٧] .

وإذا أخذنا بالقول الذي يذكره الكثيرون من أن سورة الحج نزلت بعد سورة البقرة تكون هذه إشارة موجزة على عادة القرآن - كما رأينا من قبل - حينما تذكر القصة في سورتها الأخيرة ، وتكون سورة البقرة هي السورة الأولى التي حدثتنا عن هذا الجانب ؛ جانب بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق .

٢- والحديث في سورة البقرة عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يتلاءم مع موضوعها، وسورة البقرة - كما عرفنا من قبل - هي أطول السور، وأكثرها علما، وأحكاما، لذلك وردت في فضلها أحاديث كثيرة، وقد ذكر الأئمة أن ابن عمر رضي الله عنهما مكث سبع سنين في تعلم هذه السورة الكريمة؛ هي كبرى الزهراوين، وهي سورة التكليف والأوامر.

ومن هنا جاء الحديث عن إبراهيم عليه السلام يتلاءم مع موضوع السورة، فقد بينت لنا أول ما بينته أن الله تبارك وتعالى اختبر إبراهيم عليه السلام وابتلاه بأوامر ونواه فقام بحقهن وأتمهن، فاستحق أن يكون إماماً ويسأل ذلك لذريته - عليه الصلاة والسلام -، ولكن الله تبارك وتعالى يبين له أن ذلك الشرف لا يكون للظالمين الخارجين عن الحق.

وتتحدث الآيات عن البيت، وكيف أن الله جعله مثابة للناس وأمنا يرجعون إليه، ويؤمنون عنده، وخصه بآيات فليتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وأن الله عهد إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام أن يطهرا هذا البيت للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، وأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - سأل ربه أن يجعل هذا البلد آمنا، وقد مر معنا في سورة إبراهيم قوله: ﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] حيث ذكر البلد معروفا أما هنا فقد جاء النص هكذا: ﴿أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا﴾ [البقرة: ١٢٦] ولعل السبب - والله أعلم - أن ما ذكر في سورة إبراهيم كان إبراهيم عليه السلام قد دعا به بعيدا عن مكة قبل أن يصلها، ولعله حينما أمر أن يتوجه إليها مع ابنه اسماعيل - عليه الصلاة والسلام - . وذلك بدليل قوله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أما ما ذكر في سورة البقرة ﴿أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ فكان منه - عليه الصلاة والسلام - وهو في مكة نفسها، وذلك بدليل قوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] هذا الذي يبدو لي والله أعلم وهناك أكثر من قول في هذا ذكر في كتب

التفسير، فليراجعها من شاء<sup>(١)</sup> وكتب المتشابه اللفظي في القرآن ككتابي البرهان في  
متشابه القرآن للكرماني وملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير.

ويسأل ربه كما أكرم أهله بالأمن أن يمن عليهم بالرزق كذلك من الثمرات.

وفي سورة إبراهيم ذكر الزرع هناك على أن هنا قضية حرية بالمعرفة، جدرة بالتأمل،  
لا بد من التنبيه عليها والإشارة إليها، وهو أنه جاء في سورة إبراهيم ﷺ ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا  
الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وجاء في سورة البقرة ﴿رَبِّ  
اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

ما أعظم شأن هذا القرآن، وما أجدر الخلق أن يتعلموا منه، ندرك ونحن نتدبر الآيتين  
الكريمتين أنهما اشتركتا في امر، وانفردت كل منهما في أمر آخر، أما الأمر الذي اشتركتا  
فيه فهو الأمن ﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ في إبراهيم ﴿اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ في البقرة.  
وأما ما انفردت به كل آية، فآية إبراهيم جاء فيها ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فهو  
أمر العقيدة وإخلاص التوحيد لله. وأما سورة البقرة فذكر فيها ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾.

هذه أمور ثلاثة؛ الأمن ذكر في السورتين، وما ذلك إلا لأن الأمن أمر أساسي  
جوهرى في الحياة، لا بد منه حتى يستطيع الإنسان أن يحيا ليجد لذة الروح في عبادته،  
ولذة الرزق في طعامه وشرابه؛ ولذا ركز القرآن الكريم على الأمن كثيراً ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا  
قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾ [النحل: ١١٢]؛ لذا كانت دعوة الخليل ﷺ أولاً وقبل كل شيء:  
الأمن في الآيتين الكريمتين.

ثم ذكر أمر العقيدة في الآية الأولى وهو الجانب الروحي الذي لا بد منه لهذا  
الإنسان، ليدوق طعم السعادة، ولتكون زاده إلى الآخرة. أما في الآية الثانية فكان مع  
الأمن الرزق وهو الجانب المادي الذي لا بد منه للإنسان في حياته الدنيا التي هي مزرعة  
للآخرة، فانظروا إلى هذا الترتيب البديع.

---

(١) ينظر درة التنزيل ص ٢٩.

وإلى هذا العمق الصائب والحكمة في فقه أبي الأنبياء؛ الأمن أساس في الآيتين الكريمتين، ثم جوهر الروح وبعده مستلزمات المادة. وصدق الله. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١].

ثم تحدثنا الآيات عن كيفية بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام للبيت وهو حديث اختصت به وأكرمت به سورة البقرة، وهما يرفعان القواعد يدعوان الله أن يتقبل منهما فهو السميع العليم، وأن يجعلهما مسلمين له ومن ذريتهما كذلك، وأن يعلمهما مناسكهما، وأن يبعث في الأمة رسولا منهم يتلو عليهم الآيات، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، ويستجيب الله دعاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، ثم تبدأ الآيات في حجاج أهل الكتاب فهذا هو إبراهيم عليه السلام الذي أسلم الله رب العالمين، والذي وصى بنيه جميعا بكلمة التوحيد:-

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي سَاحِلِهَا الْمُصْبِرُونَ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَىٰ مَا مِنْ سَفَاهَةٍ نَفْسُهُ وَلَقَدْ أَضْطَقَّتْهُ فِي الدُّنْيَا وَآخِرَةٍ لِمَنْ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٦-١٣٣].

٣- وتحدثنا سورة آل عمران بإشارة موجزة عن أن أول بيت وضع للناس، لهو هذا البيت العتيق الذي ببكة مباركا، وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم، ومن دخله كان آمنا.



الموضوع الثاني: تبرئته من أن يكون يهوديا أو نصرانيا:

أما الموضوع الثاني فنجد في كثير من الآيات في سورة البقرة مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥] وقوله سبحانه ﴿أَمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقوله سبحانه ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوَّلِي النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

ومثل قوله في سورة النساء بعد قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣] يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] كما تحدثنا سورة الحديد عن إرسال الله نوحا وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام وجعله سبحانه في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ثم تذكر السورة بعد ذلك خبر أهل الكتاب وما ابتدعوه واستحدثوه.

أما الموضوع الثالث وهو براءته - عليه الصلاة والسلام - من المشركين بعامته وأبيه بخاصة فنجد في سورتين اثنتين من السور المدنية إحداهما:

١- سورة الممتحنة وهي التي نهي فيها المؤمنون أن يتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء، وللسورة سببها وهو ما جرى قبيل فتح مكة من أحد الصحابة<sup>(١)</sup> رضي الله عنهم ويأتي ذكر إبراهيم عليه السلام في هذا المقام متسقا مع ما جاءت السورة من أجله:

---

(١) حديث حاطب بن أبي بلتعة يراجع في كتب السنة.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُسْغِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٤-٥].

٢- وأما السورة الأخرى، فهي سورة براءة، وهي السورة التي ذكر فيها المنافقون، وما كان من استغفار المؤمنين والنبي لهم، فتذكر السورة نبأ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-:

﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤].

ونجد ما جاء في سورة براءة ليس هو ما جاء في سورة الممتحنة؛ لأن سورة الممتحنة تبين أن إبراهيم وعد أباه بالاستغفار مع أنه لا يملك له من الله شيء، ولكن سورة براءة بينت لنا أنه تبرأ منه بعد أن تبين له ما تبين.

وهناك قضيتان أشارت إليهما سورة البقرة بآيتين اثنتين؛ وهما دالتان على رشد إبراهيم -عليه السلام- دلالة بينة ظاهرة.

أما القضية الأولى فقد جاءت بهذا الأسلوب الدال على التعجيب: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهذه الجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ كثيرا ما تذكر في كتاب الله تعالى، تقريرا وتعجيبا، وهذا الذي حاج إبراهيم عليه السلام في ربه وقد آتاه الله الملك فكان حرياً به أن يشكر لا أن يكفر؛ قيل إنه نمرود، والقرآن لم يذكر اسمه؛ لأن القرآن إنما يُعنى بموطن العبرة فحسب، قال إبراهيم - عليه السلام -، وهو يصدع بالحق أمام هذا الظالم ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ولكن ذلك المتغطرس الأحمق قال أنا أحيي وأميت، ومثل هذا ليس غريبا على أولئك الذين منعوا الهداية،

وأحاطت بهم الغواية، وما أكثر ما يلاقي الدعاة إلى الله من أمثال أولئك، وهم يعذبونهم، ويقولون لهم أين الله الذي تؤمنون به؟ لم لا يأتي لينقذكم؟ وأين نبيكم؟! آدعوه ليخفف عنكم، قالها ذلك الصليبي الحاقد وهو يحكم الكرك في أيام صلاح الدين - رضي الله عنه - فأقسم صلاح الدين - رضي الله عنه - أن يقتله، وبر بقسمه وكانت معركة مشهودة من يوم الجمعة في السابع عشر من ربيع الثاني سنة ٥٨٤ .

ولا زالت تقال اليوم ولكن ممن يسمون مسلمين، قال أنا أحيي وأميت؛ لقد غره ما أعطيه من ملك وقوة، وهنا يكمل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حجته فيقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] قال صاحب المنار «فهذا إيضاح لقوله الأول وإزالة لشبهة الخصم، لا أنه جواب آخر، والمعنى أن ربي الذي يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته، هو الذي يطلع الشمس من المشرق، أي هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها، فإن كنت تفعل كما يفعل فغير لنا نظام طلوع الشمس وأنت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته تعالى لظهورها منها ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي ادركته الحيرة وأخذه الحصر من نصوع الحجة وسطوعها فلم يحر جواباً...»

من فهم الآية على الوجه الذي قررناه يعلم أن لا محل للشبهة التي يوردها بعض الناس على حجة إبراهيم عليه السلام، وهي أنه كان لنمرود أن يقول له إذا كان ربك هو الذي يأتي بالشمس من المشرق وهو قادر على ما طالبتني به من الإتيان بها من المغرب فليأت بها يوماً ما. قال بعض المقلدين ولا يمكن أن يسأل إبراهيم عليه السلام ربه ذلك؛ لأن فيه خراب العالم، وقال بعض المرتابين إنه لو قال له نمرود ذلك لألزمه. وقد فهم نمرود على طغيانه وغروره من الحجة ما لا يفهم هؤلاء القائلون، فهم أن مراد إبراهيم أن هذا النظام في سير الشمس لا بد له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله

بالمصادفة والاتفاق، وإن ربي الذي اعبدته هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قضت حكمته بأن تكون الشمس على ما نرى ومن فهم هذا لا يمكن أن يقول اطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن حكمته وبطل سنته، كذلك لا محل لقول بعضهم لم سكت إبراهيم عليه السلام عن كشف شبهته الأولى، إذ زعم أن ترك القتل إحياء، فقد علمت أن مسألة الشمس قد كشفت ذلك انكشافاً لا يخفى إلا على من تخفى عليه الشمس»<sup>(١)</sup>.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وما أروع ما ختمت به الآية الكريمة.

أما القضية الثانية؛ فهي في قول الله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُتُؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] الذي نعجب منه. بل نرده ونرفضه، أن نجد بعض الكاتبين<sup>(٢)</sup> المحدثين يفهم من هذا أن إبراهيم كان شاكاً؛ فأراد أن يذهب هذا الشك، وإنما نعجب حقاً لأن هذا الكاتب ليس غريباً على أسلوب القرآن، فلقد كتب كثيراً حول القرآن الكريم، وكان يكفيه أن ينظر في أسلوب الآيات قبل أن يقرر ما قرر، أو أن يكتفي بهذه الآية وحدها فهي كافية إن أراد، فإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يطلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى، ويقول أولم تؤمن وهو يعلم إيمانه سبحانه، ويقول إبراهيم عليه السلام (بلى)، وهذه الكلمة - كما نعلم - تدل على الإيجاب، أي: «بلى قد امنت» ولكن ليطمئن قلبي؛ ولعل هذا الذي حمل الكاتب على أن يقول ما قال؛ لكنه - رحمه الله - غفل عن أشياء كثيرة، فنحن نعلم أن الله تبارك وتعالى قد أرى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض، ليحاج قومه، وليكون من الموقنين هذا أولاً.

وأما ثانياً؛ فإن طمأنينة القلب لا تعني الشك والارتياب، ونحن إذا استعرضنا بعض الآيات التي ذكرت فيها الطمأنينة نجد أن الذين نزلت فيهم لم يكونوا شاكين أبداً،

(١) المنار (٣/ ٤٧).

(٢) هذا ما كتبه صاحب القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه.

فمثلاً قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وهذا خطاب للرسول - عليه وآله الصلاة والسلام - وللمؤمنين الصادقين، أفيمكننا أن نتهم أولئك بالشك. إن قضية الطمأنينة لاتدل من قريب ولا بعيد على شك يساور النفوس أو ينسول للقلوب.

وأما ثالثاً: فنحن نعلم أن الإيمان يمكن أن يزيد أو ينقص من جهات ثلاث والذي يهمننا إحدى هذه الجهات، وهي الأدلة؛ فكلما كانت الأدلة أكثر ظهوراً، وأقوى تأثيراً، كلما ازداد إيمان صاحبها، «ما راء كمن سمع» وشتان بين علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فكل الذي أراده إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن يرى هذا الدليل معانية؛ ليطمئن قلبه به طمأنينة معانية ومشاهدة.

رابعاً: ومما يشهد لذلك خير شهادة، شهادة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام «والله أكبر شهادة» في مثل قوله ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ [الأنبياء: ٥١] ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] ثم شهادة النبي - ﷺ - فقد جاء في الحديث: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»<sup>(١)</sup> يا للروعة! وبالله عظمة!، عظمة النبي - عليه وآله الصلاة والسلام -: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» إنه نفي بحزم وقوة للشك عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يقول النبي الكريم: «إن كان إبراهيم شاكاً فنحن أولى بالشك منه ومع ذلك فنحن لم نشك أبداً فمن الأحرى والأولى أن لا يشك إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، ولا أدري كيف يغيب كل ذلك عن أولئك الذين يسمحون لأنفسهم أن يتهموا إبراهيم عليه السلام بالشك، ولو أن الله تعالى علم شكاً من إبراهيم عليه السلام لعاقبه، أو عاتبه، ولكنه مع ذلك يكرمه ويحييه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أي ضمنهن واجمعهن، وإنما أمر بذلك حتى يعرف

(١) أخرجه الإمام مسلم/ صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢ ص ١٨٣، كتاب الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الآيات.

أشكالها وأحجامها وصفاتها، ثم أمر أن يجعل على كل جبل منهن جزءا بعد أن يذبحهن أو يقطعهن، ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَا إِبْرَاهِيمُ سَعْيًا وَاَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] والمفسرون مجمعون على أن إبراهيم فعل ذلك، ثم دعاهن فجثته يسعين، ولكن القرآن الكريم لم يشر إلى ذلك صراحة، ويلوح لي خاطر في النفس، وهو أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، قد يكون فعل ذلك، وقد تكون الثانية؛ أي أنه لم يفعله. ونحن وإن كنا لا نجزم بواحدة، إلا أننا لا نرى بأسا، ولا نرى مانعا من أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لم يفعل ذلك استحياء من الله تبارك وتعالى، ورجوعا عما طلب، لا نهدف بذلك أن نخالف المفسرين، ولكن نرى أن ذلك غير مستبعد والقرآن لم يبين ذلك ويغلب على الظن أن النبي عليه السلام لو فعل ذلك لبينه القرآن ويبقى الأمر أولا وآخر الله تبارك وتعالى.

هذه هي قصة إبراهيم في كتاب الله تعالى، شجرة مباركة ذات فروع باسقة، كل فرع له ما يخصه من الثمر، وهكذا رأينا هذه القصة لأبي الأنبياء، كأنما تفرعت عنها أخبار الأنبياء جميعا الذين كانوا من ذريته - عليهم الصلاة والسلام -، ولا عجب؛ فهو الأصل، ومع ما في هذه القصة من جوانب متعددة انتقلنا من خلالها بين هضاب عالية لا يتسلقها إلا أصحاب القوة وذوو البأس، وكذلك شأن المؤمنين، كما تنسمننا من خلالها النسيم الطيب الذي يفوح عرفه وشذاه، وتفيأنا ظللا عديدة، فمن شدة في الحق، وعنف على الباطل إلى ثبات في الأمر وعزيمة على الرشد، مع صبر وشكر، وحجة في القول وأسوة في العمل، ودفاع عن المؤمنين، مع كرامات ربانية يزين ذلك كله أسلوب قرآني أخاذ جذاب، ومع ذلك فكل آية في موضعها، وكل قصة في سورتها التي تتفق مع موضوعها ما بين إجمال وتفصيل، دون شبهة ترديد أو شائبة تكرار ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] تبارك الله رب العالمين.

## ثانياً: تعقيب على قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

هذه هي الإنسانية، وقد قاربت أن تبلغ أشدها، وتستكمل رشدها، كيف لا، وها هي رحمة الله تعم هذا الكون بأبي الأنبياء، وشيخ الحنفاء، إبراهيم - عليه الصلاة والسلام وإذا كان الحديث عن إبراهيم عليه السلام فيما مضى متعدد الجوانب؛ فإن ما يمكن أن نعقب عليه من خلال ما مضى مستلهمين مستنتجين لابد أن يكون كذلك.

والحق أن شخصية إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كانت طرازاً جديداً، فهي نبع معين لا ينضب لما تحيى به القلوب، ولذلك لا نعجب إذا سمعنا سيدنا رسول الله - عليه وآله الصلاة والسلام - يقول عن نفسه بأنه أشبه الناس بأبيه إبراهيم.

### رقته ورأفته مع أبيه:

ومن خلال ما عرفناه رأينا هذه النجوم الزهر ذات الفخامة والقدر التي تضيء جوانب الحياة المتعددة؛ رأيناها تظهر في شخصية هذا النبي الكريم نمطاً جديداً في حياة الناس. بعض الناس يكون ذا عاطفة مشبوبة متقدة عطفاً ورحمة، وبعضهم يكون ذا منطق قويم، وبرهان ساطع، وحجة واضحة؛ تبدد كل مافي طريقها من شبهات وبعض آخر يكون ذا قوة وشكيمة، ونمط رابع يمتاز بالصبر، وخامس: يكون من أبرز صفاته ما من الله به عليه من جود، وأكرمه به من سخاء وبذل. وأبونا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يجمع ذلك كله، وأكثر من ذلك مع قوة يقين، وبشاشة إيمان، وصلته بربه خير صلة وأكرمها وكذلك كان سيدنا رسول الله ﷺ فلا عجب فهو خير ابن لخير أب. ولعل مما يلفت النظر أولاً ما وجدناه من إبراهيم الابن عليه السلام وها هو لا يترك مدخلا من المداخل يمكن أن يتلطف من خلالها حتى يزحزح أباه عما هو فيه من شرك، ولعل ما قصه القرآن علينا مما ذكرناه أنفاً خير دليل على هذه العاطفة التي تتأجج في نفسه بهذا المنطق الذي يتدفق رقة، ويتفرق صفاء ويمتلئ وفاء وينضج رواء ويتفتق حياء:

﴿لَمْ تَعْبُدُوا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] ثم يترقى بعد ذلك، وفي كل مرة يبدأ بعبارة الحنو ﴿يَتَأْتِيَنِي قَدْ جَاءَ فِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣] ومما ارتكز في الطبائع أن الناس لا يرضى واحدهم أن يكون من هو خير منه - اللهم - إلا ابنه .

### موقفه مع أبيه وابنه :

ومن هنا فلقد عمد ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى هذا الأسلوب مع أبيه، ثم نجده مرة ثالثة يأتيه من جانب آخر: ﴿يَتَأْتِيَنِي لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤] ومرة رابعة: يظهر من خلالها الإشفاق ﴿يَتَأْتِيَنِي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥] ومع قسوة الأب فإننا نجد إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لا يزيد على أن يقول لأبيه ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وبمقابل هذا نجد صورة أخرى، لا تنقل روعة، إن لم تزد والآباء يجدون استمرارا لهم في الأبناء . وإبراهيم المشفق على أبيه نجده في هذا الجانب الآخر يقف من ابنه موقفا آخر . فها هو يلقيه ليضع السكين على عنقه كما تذبح الشياه، وذلك لرؤيا رآها في نومه كان يمكن أن يتأولها، وهو الذي عرفناه من قبل تتجلى الرحمة فيه وهو يجادل عن قوم لوط، ولكنه أمة من الله عليه بالرشد . ذلكم هو إبراهيم الابن والأب .

### صفاته عليه الصلاة والسلام:

أما جوده وكرمه، فلا أدل عليه مما عبر به القرآن الكريم ﴿فَرَأَى إِلَهُهُ فَجَاءَ يُعْجِلُ سَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٦] ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ يُعْجِلُ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩] وأما بشاشته ولين معاملته، فلا أدل عليها من التحية التي رد بها على أضيافه حيث كانت خيرا من تحيتهم . وإذا كانت تلك جوانب شخصيته، ومع أننا لا يمكن أن نفصل بين الجانب الشخصي وبين جوانب الدعوة إلى الله، إلا أن الذي ينبغي أن نقف عنده تلك الدروس القيمة الرائعة التي يمكن أن نفيد منها في جانب الدعوة إلى الله . ويمكن أن تكون القاعدة التي ننطلق منها، من ذلك ما وصف الله به إبراهيم خليله - عليه الصلاة والسلام -،



من أوصاف، وذلك في قوله تعالى ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] وقوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾ [الأنبياء: ٥١] وما من الله به حين أراه ملكوت السماوات والأرض . فلقد كان إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يضرب المثل، فهو يدعو إلى الله بكل ما منحه من وسائل وما أصدق قول الله ﴿أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ . لقد كان يحارب المنكر بكل الآلات والجوارح، وإذا كان المنكر ينبغي أن يغير باليد أو باللسان، فمن لم يستطع فبقلمه؛ فإن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كان يغير المنكر بهذه جميعاً مع قوة، ودون ضعف، فهاهو يعلن سقمه من عبادات قومه الباطلة وهو سقم القلب بغضاً لما يفعل أعداء الله، وهاهو ينتهز الفرصة؛ ليحطم المنكر بيده كذلك، فها هو يسرع لتحطيم الأصنام ضرباً باليمين فيجعلهم جذاذاً، ذلكم هو عمل القلب واليد عند إبراهيم عليه السلام .

ويبقى بعد ذلك ما هو حريٌّ بالتأمل، وهو ذلكم المنهج الذي انتهجه إبراهيم عليه السلام، وهو يدعو إلى الله؛ - ويعلم الله أن ذلك يحتاج إلى مؤلف على حدة - لقد وجدناه لا يضيع أيَّ فرصة تسنح له، وإنما هو ينتهزها ليقم بها الحجة على قوم كان العناد واللجج وتقليد الآباء أبرز ما لهم من صفات، ومثل أولئك بحاجة إلى لسن ورشد، وبصر ومعرفة، وثبات وحزم. ولقد منَّ الله على إبراهيم عليه السلام فأكرمه بذلك كله. ها هو ينتهز مجيء الليل ليقف مع بزوغ الكواكب والقمر، ويستغل مجيء النهار ليقف مع بزوغ الشمس. ويخلص من ذلك كله لإبطال حجج القوم بمنطق تتضاءل أمامه براهين الفلاسفة، ثم لا يكتفي بهذا، وها هو يرد على قومه كل ما حاولوا أن يقيموه عليه من حجج - وما هو إلا اللجج - يخوفونه بأصنامهم فينكر ساخراً «كيف تخوفوني بالباطل ولا تخافون الله الحق»، وها هو يلزم خصمه الحجة، حينما ادعى أنه يحيي ويميت - كما مر معنا من قبل - . . . ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

والذي يتتبع خبره - عليه الصلاة والسلام - يدرك ما منَّ الله به عليه من هذه المنن، قوة الحق، تركز على الرشد واليقين والمنطق. ولتأخذ موقفين مما كان بينه وبين قومه؛ لنرى أي رشد ذلكم الذي أكرمه الله به: ها هو يحاج قومه، وهو ينهاهم عن عبادة الأصنام؛ لأنها لا تسمبهم إذ يدعون، ولا تنفع ولا تضر. ها هو يجلي لهم هذه الحقائق التي هي غاية في فقه الدعوة، يقول لهم: إن الذي تعبدونه من دون الله إنما هي أوثان، وأنتم مفترون بهذه العبادة. هذه الأصنام لا تملك لكم رزقاً. فهو يشير لهم إلى قضية حساسة ذات شأن، وأمر الرزق يشغل الناس أكثر من غيره، ولكنه لا يكتفي بذلك؛ فهاهو يزيد هذا المعنى تفصيلاً، هو يعلن لهم أن هذه الأوثان التي اتخذتموها مودة بينكم في الحياة الدنيا هي التي جمعتكم على الباطل، ولقد رأيتم فيها رابطة لكم مع أنها لا تصلح لذلك، إن مثل هذه الإشارات بحاجة إلى درس وتأمل، ونحن نجد أن أعداء الإسلام يجتمعون من كل صوب، لا شرقاً وغرباً فحسب، يجتمعون وهم يحاولون أن يخلقوا أي أمر يجمعهم لينطلقوا منه لعداء الإسلام والمسلمين. إن ما ذكره القرآن عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أمر خطير لا ينبغي أن نتجاوزه فتمر به، لا أقول مرور الكرام؛ لأن مرور الكرام إنما هو عما لا خير فيه ولكن أقول مرور الغافلين.

أما الموقف الثاني: فنختاره من مواقف أبي الأنبياء - عليه الصلاة والسلام -، حينما حطَّم الأصنام وقد أقسم على ذلك وبر بقسمه، ولكنه انتهز الوقت الذي يُمكن فيه مما أراد، وما أكثر من يخطيء التقدير!، إذ لا يحسن تخير ما يريد أن يفعل من حيث الزمان أو المكان أو غيرهما فيسيء أكثر مما يحسن، لقد أحسن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - اختيار الوقت الذي يبر فيه بقسمه، ونذكر ونحن نقرر هذه القضية ما كان من ذلك الغلام الذي جاء خبره عن النبي ﷺ في صحيح الإمام مسلم<sup>(١)</sup>، هذا الغلام الذي حاول الملك الجبار قتله فلم يستطع؛ فدلّه الغلام على الطريقة التي تمكنه من فعل ذلك واختار الوقت

---

(١) صحيح مسلم ٢٢٩٩/٤ حديث رقم ٣٠٠٥ - موسوعة الحاسوب.

الذي رأى أن فيه خيراً لدعوته، دعوة الحق؛ ولعله اقتدى في ذلك بأبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام، والله يلهم من يشاء ما يشاء إلى الخير .

وتتجلى الحكمة في أروع صورها في هذا الموقف، ها هو إبراهيم - عليه السلام - يحطم الأصنام جميعاً؛ لكنه يبقي واحداً منها وهو كبيرها، نحن حينما نقيس الأمور بمقياسنا، وندعها لأمزجتنا فإن أول ما نقوم به تعبيراً عن السخط على الباطل وأهله، إن أول ما نقوم به أن نحطم هذا الصنم الكبير؛ لأننا نجد ذلك يشفي صدورنا ولكن صدق الله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، وقل لي - بربك - أي فطنة تلك التي أكرم بها شيخ الحنفاء!، يدع هذا الصنم الكبير وآلة التحطيم معلقة به كما يقال، ويسألون فيكون جوابه - عليه السلام - ﴿ فَعَلَّهُمْ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣] لقد كان هذا الفعل من إبراهيم جديراً به أن يحملهم على الإيمان، وقد كان، فلقد راجع القوم أنفسهم، وكادوا يرجعون عن الغي لولا عنجهية الجهل. إن الذكاء والحنكة والحكمة من الأمور الضرورية التي ينبغي أن تتوافر لأصحاب الحق حتى يكون تصرفهم صحيحاً في كل شيء، فلا يهدمون أكثر مما يبنون .

هذان الموقفان مما كان بينه وبين قومه - عليه الصلاة والسلام -، رأيناها تتجلى فيهما الحكمة مع قوة وحزم، وصدق عزيمة، ولنختار موقفين من جانب آخر، وذلك حينما جاءت الرسل بالبشرى، فماذا كان منه؟ لن نتحدث عن الجود وحسن الاستقبال، وكرم الضيافة، والمبالغة في التحية؛ فلقد تحدثنا عن هذا من قبل وإن كان التفصيل فيه يحلو ويجمل . . وإنما نستوحي موقفين ونحن نتلو الآيات الكريمة .

أما الموقف الأول فما هو إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، يقدم الطعام إلى ضيفه وقد اختار الطعام الذي يقدمه ولكنهم لا يأكلون، فيوجس منهم خيفة؛ هكذا يقول القرآن، وللقرآن كلماته المعبرة التي لا يصلح غيرها محلها. أوجس منهم خيفة؛ ولكنه كظمها في نفسه، وحاول إخفاءها عنهم، أراد أن يتجمل بالصبر وأن يكتم كل ما يتفاعل

في نفسه وهذه رباطة جأش - يعلم الله - أحوج ما يكون لها المصلحون، ونحن نرى أن بعضهم تخور قواهم، وتنهار شخصياتهم لآقل الأسباب وأبعد المقدمات، ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - الذي أكرمه الله في الدنيا والآخرة كان يستحق أن نصلي ونسلم عليه، ونحن نصلي ونسلم على نبينا ﷺ كان يستحق ذلك كله<sup>(١)</sup>، ونحن نستلهم منه هذه الدروس والعبر.

هذا هو الموقف الأول وإذا كان هذا الموقف نابعاً من الحكمة؛ فإننا نختار الموقف الثاني دالاً على الرحمة، وما أجمل الحكمة والرحمة، حينما لا تغطي إحداهما على الأخرى. يبشر الملائكة إبراهيم بسلام، وإذا رأينا امرأته تارة تصك وجهها؛ وتقول عجوز عقيم، وتقبل في صيحة وضجة، وتارة تقول يا ويلتا! تستغرب ذلك متعجبة، وهي تلقي ظلالاً على نفسية المرأة، حينما تتعرض لما هو غير مألوف، وما يمكن أن تحدثه من حركات وكلمات. ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لا يزيد على أن يقول ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ يُبَشِّرُون﴾ [الحجر: ٥٤]، وهذا يدل على الوقار والهيبة.

أقول: لما كان ذلك كله، نجده - عليه الصلاة والسلام - يجادل عن قوم لوط، يجادل عن أولئك الذين يعلم أكثر من غيره ما لقيه منهم ابن أخيه أو ابن عمه، ولكن الشيخ الوقور تتفجر الرحمة من جوانبه؛ فلعلهم يرجعون. هذه الرحمة التي كانت كرامة للأب، وطبيعة ثابتة في الابن، سيدنا رسول الله ﷺ، وهو يقول كلمته التي لا زالت وستبقى تنتشر أريجاً، وتسطع نوراً (اليوم يوم المرحمة)<sup>(٢)</sup> وما قاله من قبل: (لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحده الله)<sup>(٣)</sup>.

(١) اللهم صل على سيدنا محمد ﷺ كما صليت على إبراهيم ﷺ وبارك على سيدنا محمد ﷺ كما باركت على سيدنا إبراهيم ﷺ.

(٢) أخرجه ابن عساكر في التاريخ ٤٠٤/٦ وذكره الحافظ في الفتح ٨/٨-٩ الطبعة السلفية.

(٣) سبق تخريجه.

وبعد هذين الموقفين هناك جانب آخر نختار منه موقفين اثنين كذلك، هذا الجانب عند بناء الكعبة، وقد ابتلاه الله بكلمات فآتمهن ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] ولكنه أراد أن يكون من ذريته أئمة كذلك ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

أما الموقف الأول، فها هو إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وقد سأل الله أن يجعل مكة بلداً آمناً، وأن يعجنه وبنيه أن يعبدوا الأصنام. ها هو إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، هاهو الشيخ الكبير يأبى إلا أن يقف هو، ليني أول بيت وضع للناس، ألم يقل الله ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥] يقف هو، ويؤتى بحجر ليقف عليه بالروعة الشيخ!! حقا إنها لا تشيخ قلوب يملؤها الإيمان والحكمة والرحمة، يذكرنا هذا الموقف بما كان من أكثر الناس به شبها - ﷺ - حينما كان يبني مسجده الشريف، والبنائون كثرة؛ ولكنه يأبى - عليه وآله الصلاة والسلام - وقد نيف على الخمسين إلا أن يشارك لا مشاركة شكلية فحسب<sup>(١)</sup>، وإنما يشارك مشاركة فعلية، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وسلم تسليماً كثيراً يارب العالمين، تلکم هي القدوة الحسنة.

أما الموقف الآخر فيتمثل لنا في حرص إبراهيم على الحق، وحبه لاستمرار الخير ورغبته وبذله كل إمكاناته وجهده من أجل أن لا يطغى الباطل ومن أجل أن يبقى الحق هو المهيمن. إن تفكيره ليس لعصره الذي يعيش فيه، وإنما يتسع ويمتد ليشمل تلك العصور البعيدة الآتية. ها هو إبراهيم يضرع إلى ربه ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] ثم لا يكتفي بهذا، بل يريد أن يكون له لسان صدق في الآخرين ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

(١) كما نجده من بعض الناس في أيامنا هذه، حيث يكون الهدف الدعاية والتهريج والتهويل.

ذلكم هو حرص إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على أن تستمر أعلام الحق خفاقة وضاءة . وأذكر وأنا أكتب هذه السطور، ما كان من حرص أشبه الناس به سيدنا رسول الله ﷺ، ما كان من حرصه على أمته، بل على الناس، وما أكثر ما كان يحذرها من أن تضل بعده عن الطريق، ومن أن تنحرف عن الجادة، ومن أن يرجعوا بعده كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، كان يحذرهم أن تتداعى عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، كان يحذرنا من الوهن . كان - ﷺ وآله وسلم - يحذرنا من أن نعظم الدرهم والدينار، فتعس عبد الدرهم، وتعس عبد الدينار، يحذرنا من أن نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحذرنا من أن نركن إلى الدنيا حينما تبسط علينا فتنافسها فتهلكنا وصدق الله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨] وما أحيلى وأميلح الحديث عن أبي الأنبياء، وخاتم الأنبياء ﷺ. ولكننا نختم هذه المواقف التي اخترناها، بذلك الموقف وإن كنا قد أشرنا إليه من قبل . ذلكم الموقف الذي يقف فيه الأب يحد شفرته، لا ليذبح عجلاً يقدمه لأضيافه ولكن ليذبح ابنه الوحيد امتثالاً لأمر ربه، وماذا يمكن للقلم أن يكتب، وماذا يمكن للكلمات أن تعبر، إي والله ما نظن ذلك ﴿يَبْنِي﴾، سبحانه الله! لقد كان من قبل يقول يا أبت حريصاً على هداية أبيه، ولكنه اليوم يقول: يا بني لا من أجل أن يرشده لأمر خفي عليه، ولا من أجل أن يمنحه منحة جاء بها إليه، وإنما ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَازِلِ آتِيَّ أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرُ مَاذَا تَرَى﴾ [الصافات: ١٠٢] بالجلال الموقف! وبلاضطراب الكون!! بل بالضجيج الملائكة! بالكل ما يمكن أن يتصوره الحس المرهف! والعاطفة الجياشة! بالتجلد الشيخ الرحيم!! الذي لم يطل مكثه مع ابنه وبالروعة الإيمان! وبالصبر الابن الذي عاش طفولته، وأيام صباه بعيداً عن أن يقبس من عاطفة أبيه ﴿يَتَأَبَّى أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٣].

إن الموقف بحق يصور لنا ضالة كل شيء أمام الإيمان، التضحية بكل غال ونفيس في سبيل العقيدة، هكذا نتعلم من أبي الأنبياء - عليه الصلاة والسلام -، ومن ابنه من بعده أن الدين لا يصلح له إلا أولئك الذين يجيدون فن التضحية قولاً وعملاً:-

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أَقْتُلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَصْرَعِي

وما أصيب الناس بهذا الشر وما انحسر عنهم هذا التأيد الرباني إلا حينما جعلوا الدين تكأة في حياتهم لا يخصصونه إلا بما فضل عندهم من وقت وجهد وعاطفة، وربما مالٍ عند بعضهم.. إننا لا بد أن نعطي هذا الدين زهرة ما منَّ الله به علينا، وما منحنا إياه سبحانه.

هذه بعض المواقف والجوانب في قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وكما قلت من قبل - يعلم الله أن مؤلفاً كبيراً لن يكون كثيراً على الخير إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، هذا فضلاً على ما سجله القرآن له من حمد وشكر للنعمة، وجزاء الشاكرين عند الله عظيم، ولا نجد أحداً من الله عليه بالمكارم، وأكرمه بالأنعم الكثيرة، فشكرها شكراً ليس قولياً فحسب؛ وإنما شكراً قولياً وعملياً معاً، فتعددت أنواع الجزاء الخير الذي أكرمه الله به من أجر في الدنيا واجتباء وهداية، وناهيك عما في الآخرة مما لا يمكن وصفه. لانجد واحداً كان له ذلك كله كما كان لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -. وإذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يعرف هذا القدر لأبيه إبراهيم ﷺ، وتلك المنزلة السامقة الرفيعة فيقول - كما مر معنا من قبل - «نحن أولى بالشك من إبراهيم» إذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يعرف ذلك كله فحري بنا أن نعكف على سيرته - عليه الصلاة والسلام - بما أخبر عنه القرآن الكريم؛ لنستخلص العبر التي لن نستغني عنها أبداً في جميع مواقفنا ومعاملاتنا ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩] ﴿وَأَيَّتُهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ

قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [البقرة: ١٣٠] ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ  
وَالْكِتَابَ ﴿ [العنكبوت: ٢٧] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ولنستمع اليه ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ  
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿  
[إبراهيم: ٤٠-٤١] ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا  
وَافْعَلْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [المتحنة: ٤-٥] ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْخِفَافِي  
يَا صَالِحِينَ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاعْفِرْ لِأَيِّئِنَّهُ كَانَ مِنْ  
الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٣-٨٩]  
ذلكم هو دعاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - فما أجمله! وما اجمعه! وما أجدره من  
دعاء يحفظ ليدعو به الداعون. ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿ [هود: ٧٥].

ونتساءل بعد ذلك كله، ما هي تلك اللبنة التي أضافها إبراهيم عليه السلام لهذا البناء  
المحكم... والحق أنها كانت لبنة عظيمة مميزة، كما امتاز الحجر الأسود الذي وضعه  
إبراهيم عليه السلام في بناء البيت، كذلك كانت اللبنة التي وضعها في بناء الإنسانية  
المحكم... لقد عرفنا اللبئات السابقة، ومع مالها من خطر ودور وشأن... إلا أن اللبنة  
التي وضعها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - في هذا البناء المحكم كانت تمتاز، لا من  
حيث مساحتها فحسب، وإنما من حيث الموضع الذي وضعت فيه كذلك. لقد كانت  
اللبنة التي وضعها الأنبياء بعد آدم عليه السلام تختص بالشؤون المادية للإنسان من حيث  
تقديسه للصلوات العرقية، أو بطشه وقوته أو ركونه إلى ما يجعله في ترف ويطر...  
ولكن اللبنة التي وضعها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - كانت غير ذلك كله؛ فهي شيء  
جديد في حياة الإنسانية؛ إنها نعمة الرشد التي لا بد أن ترقى الإنسانية إليه وتعول في  
تعاملها عليه؛ إنها النعيم العقلي ولذة الروح. ثم ماذا؟؟ إنه رقي الإنسان لينعم بالحجة  
الدامغة وأمام هذا الرشد وذلك اليقين وتلك اللذات العقلية والروحية، أمام ذلك كله



يتهاوى كل صرح من صروح المادية البغيضة. فصلة الدم - رأيناها - تتلاشى عند إبراهيم عليه السلام، وهو يتبرأ من أبيه، ويريد ذبح ابنه. أما الركون إلى القوة، والاعتزاز بالأمن والترف، فهما يتبددان كذلك. وها هو إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لا يعبأ بوعيد قومه، وهاهم يبنون له بنياناً ليلقوه في الجحيم، وتكون الصفحة لأولئك الذين يغترون بالقوة والأمن، ويريدون به كيداً فيكونون الأسفلين والأخسرين.

إن اللبنة التي وضعها إبراهيم عليه السلام في بناء الإنسانية المحكم كانت أوسع مساحة، وأعظم أثراً، وأكثر تلاؤماً مع تقدم الإنسان. والحق أنها كانت بداية لعصر جديد وطور جديد، يؤهل الإنسانية لتصل إلى ما وصلت إليه فيما بعد.

وإذا كانت سيرة إبراهيم عليه السلام متعددة الجوانب؛ فلقد كانت اللبنة التي وضعها كذلك. فالأنبياء قبله كانوا يهددون من قبل أقوامهم، ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لم تكن قضيته قضية تهديد وإبعاد؛ لكنهم نفذوا ما يستطيعونه فألقوه في النار؛ فكانت برداً وسلاماً. هذا جانب من تلك اللبنة التي وضعها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - مضافاً إلى الجوانب التي تحدثنا عنها، إنها جوانب يشرق بها الإيمان في نفوس المؤمنين من جهة، وتتسع دائرة تفكيرهم من جهة، ويكونون أصلب في مقاومة الباطل والشر من جهة ثالثة.



## الفصل السادس والسابع والثامن

### اسماعيل واسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام

حدثنا آي الكتاب الحكيم عن هذه الثلة الطيبة والكوكبة الكريمة، حديثاً فيه الشذى الطيب، فلقد مر معنا قول الله تبارك وتعالى ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْتَهُمْ بِخَالَصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِثْمَهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٨]. كما مر معنا قوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]. وقوله سبحانه: ﴿وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾، أي على إسماعيل وعلى إسحق. وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا آخَرْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُم لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٩-٥٠]. وقوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً كُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

هذه الآيات الكريمة وغيرها، تبين لنا جميل الخلال، وطيب الخصال التي يتصف بها أولئك الذين كرمهم الله، كيف لا؟ وهم ذرية أبي الأنبياء وشيخ الحنفاء أئبنا ابراهيم صلى الله عليه وعليهم وعلى نبينا وآله أفضل صلاة وسلم أزكى تسليم.

وكان هذه الصفات الطيبة تغني الكثير من غيرها عن الأنبياء، حيث لا نجد في كتاب الله سبحانه وتعالى أخباراً مفصلة.

أما إسماعيل وإسحق فهم ابنا أئبنا ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وأما يعقوب فهو ابن إسحق عليه الصلاة والسلام وهذا ما ترشد إليه الآية السابقة ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وقوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢].

## إسماعيل ﷺ

أما إسماعيل ﷺ فهو الابن الأكبر لأبينا إبراهيم عليه السلام، وأمه هاجر التي أهداها ملك مصر لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام. والتي لم تكن قد أنجبت إسحق عليه السلام. ويقولون إن بين إسماعيل وإسحق بضع عشرة عاماً، وهذا ما تعترف به التوراة كذلك. فإسماعيل عليه السلام هو الولد الوحيد الذي فداه الله بذبح عظيم، ثم كانت المعجزة بولادة إسحق عليه السلام من «ساره». ولم يأت خبر مفصل عن إسماعيل في كتاب الله. ولكن الخبر الذي نأنس به ونطمئن إليه هو ما جاء في السنة الصحيحة عن الذي لا ينطق عن الهوى من أعطي جوامع الكلم سيدنا محمد رسول الله ﷺ وآله الصلاة والسلام. وإليكم إختوتي القراء الفضلاء ما جاء في صحيح البخاري رضي الله عنه قال: حدثني عبد الله بن محمد: حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب السختياني وكثير ابن كثير بن المطلب بن أبي وداعة، يزيد أحدهما على الآخر عن سعيد بن جبير: قال ابن عباس: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بهم إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع - حتى بلغ - يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها،

وجعلت تنظر إليه يتلوى، أو قال يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه - تريد نفسها - ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه، أو قال: بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة. فإن ما هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالراية، تأتيه السيول. فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه من ماء، فأرسلوا جرياً أو جريراً فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس». فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجه امرأة منهم.

وماتت أم إسماعيل وجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا. فسألنا عنك فأخبرته. وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يؤمئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاها. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه. فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر: قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: «ربنا تقبل منا إنك أنت

السميع العليم» قال: فجعلنا بينان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»<sup>(١)</sup>.

وهذا الحديث فيه علم جم، وخير كثير، يرجع إليه في شروح الحديث، في فتح الباري للحافظ ابن حجر وغيره من شروح السنة، ولقد كان إسماعيل عليه السلام أبا العرب

(١) (المنطق) بكسر الميم وسكون النون وفتح الطاء، هو ما يشد به الوسط، وكان السبب في ذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم، فحملت منه بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء، فاتخذت هاجر منطقا فشدت به وسطها وهربت، وجرت ذيلها لتخفي أثرها على سارة.

«دوحة» الشجرة الكبيرة (أعلى المسجد) أي مكان المسجد؛ لأنه لم يكن حينئذ بناء. (سقاء فيه ماء) السقاء قربة صغيرة وجاء في رواية (ومعها شنة) وهي القربة العتيقة.

(فجعلت تنظر إليه ويتلوى أو قال يتلبط) أي يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض (ثم سعت سعي الإنسان المجهود) أي الذي أصابه الجهد وهو الأمر المشق (سبع مرات) وكان ذلك أول ما سعي بين الصفا والمروة، (فلم تقرأها نفسها) أي لم تتركها نفسها مستقرة فتشاهده في حال الموت فرجعت، وهذا في المرة الأخيرة (فقال صه) كأنها خاطبت نفسها فقالت لها اسكتي (إن كان عندك غوث) بفتح الغين المراد به المستغيث (عيننا معنا) أي ظاهرا جاريا على وجه الأرض، قال ابن الجوزي، كان زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل عامل، (قوله لا تخافوا الضيعة) بفتح الضاد وسكون الياء أي الهلاك. (قوله فكانت أي هاجر كذلك) فيه إشعار أنها كانت تغتذي بماء زمزم فيكفيها عن الطعام والشراب.

(حتى مرت بهم رفقة) بضم الراء وسكون الفاء الجماعة المختلطون سواء كان في سفر أم لا (فأروا طائرا عاثفا) هو الذي يحوم على الماء ويتردد ولا يمضي عنه (فأرسلوا جريئا) بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد الباء أي رسولا، ويطلق على الوكيل والأجير، سمي بذلك لأنه يجري مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجري مسرعا في حوائجه (فألفى ذلك) وجد أم إسماعيل، وهي تحب الأنس بضم الهمزة ضد الوحشة، وبكسرها أي تحب جنسها (وتعلم العربية منهم) فيه إشعار أن لسان أمه وأبيه لم يكن عربيا. (قوله وأنفسهم) بفتح الفاء بلفظ أفعل التفضيل من النفاسة، أي كثرت رغبتهم فيه (يطالع تركته) بكسر الراء أي يتفقد حال ما تركه هناك (فقال خرج بيتغي لنا) أي يطلب لنا الرزق (قوله عتبة بابك) كناية عن المرأة، وسماها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لما هو حفظ الباب. ووصون ما هو داخله وكونها محل الوطء.

[فتح الباري (٧/٢٠٨-٢١٥)].

المستعربه، وقد تعلم العرييه من جرهم. وهي من العرب العاربة. كما كان عليه الصلاة والسلام صادق الوعد. ويكفي منه استجابته لأبيه حين قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. كما كان حريصاً على تربية أهله تربية صالحة وتنشئتهم تنشئة صالحة، فكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ومع هذه الصفات الحميدة، كان يحسن الرمي، فكانت الفروسية من شيمته.

فقد جاء في صحيح البخاري رحمه الله عن سلمة بن الأكوع<sup>(١)</sup> رضي الله عنه قال: مرّ النبي ﷺ على نفر من أسلم يتتصلون، فقال النبي ﷺ: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان» قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله: «مالكُم لا ترمون» قالوا: وكيف نرمي وأنت معهم، قال النبي ﷺ: «ارموا فأنا معكم كلكم».

---

(١) سلمة بن الأكوع، كان من الذين يحسنون الرمي والجري، وحديثه مشهور «خذها وانا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع». والحديث في البخاري ١٠٦٢/٣ حديث رقم ٢٧٤٣/ موسوعة الحاسوب.



## الفصل السابع

### «إسحق» ﷺ.

الولد سر أبيه، ولقد حمد إبراهيم عليه السلام ربه، أن وهب له على الكبر إسماعيل وإسحق عليهما السلام ودعا الله - وهو سبحانه سميع الدعاء - أن يجعله مقيم الصلاة ومن ذريته، واستجاب الله دعوة خليله ونبيه ﷺ، فقد كان إسحق عليه السلام إماماً يدعو إلى الله على بصيرة، يحب الخير، كان الخير سجيةً من سجايه عابداً، مقيماً للصلاة، مؤدياً للزكاة، كما نطقت الآيات الكريمة، ولم يحدثنا القرآن الكريم حديثاً مفصلاً عن إسحق ﷺ سوى ذكر الصفات الطيبة. فقد بارك الله عليه وعلى أخيه إسماعيل عليهما السلام. ولكن سيدنا رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. حدثنا وهو الصادق المصدوق: أن إسحق عليه السلام بلغ الذروة، وارتقى القمة في الكرم والجود والسخاء. كيف لا؟! وهو ابن خليل الله، اختصهم الله بالبركة. فقال سبحانه مبيناً لنا ما قالته الملائكة لأمه ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِمْ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَيِّدٌ مُجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. ففي صحيح البخاري رضي الله عنه. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ من أكرم الناس؟ قال: «أكرمهم وأتقاهم» قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «فعن معادن العرب تسألونني» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»<sup>(١)</sup>. مفارقات عجيبة. ما أتعس الأبناء الذين يخرجون عن سنن الآباء الخيرين. انظروا أرشدكم الله وإياي إلى هذه المفارقات العجيبة، هذه سلسلة الكرم. كما يبين من أعطي جوامع الكلم ﷺ أكرم الناس إبراهيم وذريته ابنه إسحق وابن إسحق يعقوب ويوسف بن يعقوب عليهم الصلاة والسلام. وهذا الشرف العظيم، الذي ليس بعده شرف.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء حديث رقم ٣٣٧٤ الطبعة السلفية مع الفتح ج٦/ ٤١٤.

## اليهود ليسوا كأنبيائهم

ما كان أجدر اليهود أن يشرفوا به ويفيدوا منه، ولكن الأمر كان على العكس من هذا كله، فلم توجد أمة أشد بُخلاً وأشد حرساً على الحياة وملذاتها من اليهود، وصدق الله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] وصدق الله: ﴿وَلَنَجْذِثَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: ٩٦] ولهذا قطع اليهود صلاتهم كلها من الصفوة المختارة من إبراهيم وذريته عليهم السلام لا من حيث الكرم وحده، ولكن من جميع الحثيات الطيبة، إخلاص الدين لله، والوفاء بالوعد، وصدق العهد والرحمة والبركة، وحب الخير، وإعانة البائس وإغاثة اللهفان، كل أولئك وغيره من الصفات الطيبة، التي كانت سجايا أبينا إبراهيم، وأبنائه المصطفين عليهم السلام، قطع اليهود كل صلة لهم بها، ولقد حاولت فئة من أمتنا اليوم أن تقطع صلاتها بماضينا العظيم، لكننا نعوذ بالله أن يترسخ ذلك في هذه الأمة، كما ترسخ في يهود.

## لم وصف إسماعيل بالحلم وإسحاق بالعلم؟

ولا بد أن أعرض هنا إلى قضية يسأل عنها كثير من الناس، تتصل بقوله سبحانه في سورة الصافات حديثاً عن إسماعيل عليه السلام: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، وفي سورة الحجر حديثاً عن إسحاق عليه السلام: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وفي سورة الذاريات: ﴿فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ فلم وصف إسماعيل عليه السلام بأنه حلیم في سورة الصافات، ووصف إسحاق عليه السلام بأنه عليم في سورتي الحجر والذاريات؟ وهو تساؤل جدير بالاهتمام، وسأحاول الإجابة لك عليه أخي القاريء مستمداً من الله العون، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فأقول:

إن العلم من منن الله تبارك وتعالى على أنبياء الله جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم. يقول تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿[النساء: ١١٣]﴾ ويقول في شأن آدم ﷺ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. ويقول في شأن داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ١٥]. والآيات الكريمات في هذا كثيرة. فالوصف بالعلم من مقتضيات النبوة، فالنبوة في أصل معناها إنباء وتعليم، وزفعة؛ ولذا وصف الله إسحاق ﷺ بقوله: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

وصف إسحاق بالعلم -إذن- إيدان بنبوته، والعلم صفة يشترك فيها الأنبياء جميعاً عليهم الصلاة والسلام، لكن هناك أوصافاً أخرى غير العلم، خص الله بها بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمنها وصف الرأفة والرحمة، خص الله بهما سيدنا محمد ﷺ في قوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومنها الوصف بالحلم، خص الله به نبين من أنبيائه، إبراهيم وإسماعيل صلى الله عليهما وسلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ﴾ وقال في شأن إسماعيل: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أما حلم إبراهيم فظاهر يدركه من فقه خبره، وحذق قصته في كتاب الله، وما جرى بينه وبين أبيه كافٍ لبيان هذا الحلم، وأما حلم إسماعيل ﷺ فأوضح من الشمس في رابعة النهار، فها هو -ولم يبلغ مبلغ الرجال بعد- يقول له أبوه ﴿يَبْنَىٰ إِيَّايَ أَرَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ آتَىٰ أَبْجَحَكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فيجيب غير متعنت ولا متردد على الفور، ﴿يَتَأَبَّىٰ أَعْمَلُ مَا تَوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فأبى حلم هذا من غلام لم يبلغ الحلم بعد؟

إن وصف إسحاق بالعلم -إذن- بشارة بنبوته، وإن وصف إسماعيل بالحلم -إذن- بينه السياق الذي وردت فيه الآيات. ذلكم هو ما أفهمه من الآيات الكريمات، والسياق من الأسس التي لا بد منها في فهم القرآن الكريم.

ولا تلتفت إلى ما يقال من أن وصف إسحاق بالعلم يفهم منه ما يتمتع به اليهود من علم، فهذا الفهم يرده التاريخ والواقع، أما التاريخ فإن هذه الأمة هي التي تربعت على كراسي الأستاذية للدنيا كلها حقبا طويلة من الزمن؛ كانوا يحملون العلم للناس حتى في رؤوس حرابهم، العلم النافع، الممتزج بالخلق والرحمة.

وأما الواقع فهاهم العلماء المسلمون في الفلك والذرة والطب، وفي شتى المجالات المتعددة يملأون رحاب الأرض، تشهد بذلك المؤسسات العلمية في القارتين الأوروبية والأمريكية، وهما أكثر القارات علما. لكن من سوء الحظ أن الأمة لا زالت في سبات، ولما تستيقظ.

ذلكم هو شأن الأنبياء في إجلالهم وشأن القرآن الكريم في بيانه. وصلى الله على سيدنا إسماعيل وإسحاق وأبيهما وأبنائهما. اللهم صلي على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وآل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

## الفصل الثامن

### سيدنا يعقوب ﷺ

قلت إن القرآن الكريم لم يفصل خبر هذه الصفوة المختارة إسماعيل وإسحاق ويعقوب - عليهم الصلاة والسلام - وفضلا على ما ذكرته مما ورد في شأنهم في آيات كريمة وأحاديث شريفة، فإني أذكر هنا بعض ما ورد في حقه:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ۱۳۰-۱۳۲].

ونفهم من هذه الآيات الكريمة أن إبراهيم عليه السلام وصى بنيه بالثبات على هذا الدين، وأن يعقوب عليه السلام وصى بنيه كذلك، ثم تحدثنا الآية عن شأن من شؤون يعقوب عليه السلام ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِلهَ ءَابَاءُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ۱۳۳] وهذه الآية الكريمة تحدثنا عما كان يعتصر في نفسه ﷺ، ويملك عليه تفكيره، ويتفاعل في كيانه عن مصير ذريته من بعده، وها هو وهو في الرمق الأخير، وفي اللحظات التي تفصل بين الدنيا والآخرة، وقد حضره الموت يحب أن يطمئن على بنيه، ولكن لا كما يطمئن كثير من الناس من حيث حطام الدنيا، فلم يكن ذلك يدور في خلده ولا يخطر له على بال، ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ۷۳] لكن الذي كان يعنيه ويهيمن عليه، أي شيء ستحدثه ذريته من بعده، ما تعبدون من بعدي؟ وتطمئن نفسه إلى أنهم لن يخرجوا عن منارة التوحيد، العقيدة الحق، ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِلهَ ءَابَاءُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا﴾ ذلكم موقف تشغل

النفوس الخيرة به وله . . إنه درس تعليمي وتربوي يبين للآباء ما الذي ينبغي أن يحرصوا عليه لذرياتهم من بعدهم . ذلكم موقف من المواقف العظيمة التي سجلها القرآن الكريم ليعقوب عليه الصلاة والسلام .

### موقف آخر :

وفي سورة آل عمران نقرأ قول الله تعالى ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ۚ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٣] ويقول المفسرون إنه كان مريضاً، فندر إن شفاه الله أن يحرم أحب الأطعمة إليه وكان ألبان الإبل ولحومها، وأياً كان المرض، وأياً كان الذي حرّمه، فإن في الآية معلماً عظيماً ينبئنا عن عزمه ﷺ، فهو يحرم أحب الأشياء إليه، غير مبال بلذاث هذه الدنيا، فإذا جمعنا هذا الموقف إلى الموقف الأول الذي تحدثنا عنه، فإننا نستطيع أن نستكشف الجوانب العظيمة في حياته عليه الصلاة والسلام .

وهناك جوانب كثيرة تستحق أن يدرسها الدارسون ليتعلموا منها دروس الحياة الفاضلة، فتمر بنا ونمر بها في قصة ولده يوسف عليه الصلاة والسلام، لكنني قبل أن أغادر الحديث عن هذا النبي الكريم، عَنِّي لي أمر لا بد أن أنبه عليه؛ لأن له صلة بكثير من جوانب حياتنا .

### الحكمة في تسميته يعقوب وإسرائيل :

فيعقوب هو ابن إسحاق، والقرآن الكريم عرفنا اسمه هذا، ولكن القرآن الكريم علمنا أن له اسماً آخر «إسرائيل» وقالوا معناه عبدالله وصفوة الله، ولقد وقفت عند هذه الآيات الكريمة التي تسميه تارة يعقوب وتارة إسرائيل، والذي أكرمني الله به - وهو أعلم بما ينزل - أن القرآن حينما يذكر إبراهيم وذريته عليهم السلام، فإنه يسميه يعقوب عليه السلام، والذي يتدبر الآيات الكريمة يجد مصداق ما أقول . ولكن عندما يكون الحديث يخص ذريته، يسميه إسرائيل، أي إذا كان الحديث عن ولدوه يسمى يعقوب وعندما

يكون الحديث عمن ولدهم يسمى إسرائيل، ولا أرى ذلك والله أعلم إلا لتذكير بني إسرائيل القاسية قلوبهم بهذا العنوان الطيب (إسرائيل) وذلك ليلهب مشاعرهم وعواطفهم، ويصلهم بماضيهم، وهو يحدثهم عن أبيهم إسرائيل عبد الله وصفوته، فكأن في هذا الاسم ما يحفزهم إلى أن يرتفعوا من وهنتهم، فيخلصوا في عبادتهم، ويتخلقوا بأخلاق الآباء الطيبة، ذلكم ما يبدو لي في هذين الاسمين الجليلين، فإن كان ذلك حقاً فإن المنّة والحمد والفضل لله وحده. وسيمر معنا كما قلت بعض نبئه ﷺ في قصة يوسف ﷺ.





## الفصل التاسع

### قصة لوط عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر في قصة لوط من آيات .

١- في سورة النجم .

٢- في سورة ق .

٣- في سورة القمر .

٤- في سورة الأعراف .

٥- في سورة الفرقان .

٦- في سورة الشعراء .

٧- في سورة النمل .

الفرق في القصة بين سورة النمل وسورة الأعراف .

٨- سورة هود .

٩- سورة الحجر .

١٠- سورة الصافات .

١١- سورة الذاريات .

١٢- سورة الأنبياء .

١٣- سورة الحاقة .

١٤- سورة العنكبوت .

ثانياً: تعقيب على قصة لوط .



## الفصل التاسع

### قصة لوط عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر في القصة من آيات:

لوط عليه السلام هو ذو القرابة القريبة لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، فهو ابن أخيه أو ابن عمه كما قيل، وهو من المقربين إليه كذلك، بل لعله الوحيد من أقربائه الذي آمن به وهاجر معه. ومساكن قوم لوط لم تكن بعيدة عن العرب الذين نزل فيهم القرآن الكريم أول ما نزل، فهم يمرون عليها في طريقهم إلى الشام في تجارتهم وأعمالهم.

ولذلك نجد اشارات مبكرة في كتاب الله تعالى من حيث النزول تحدث عما حل بهم، ولعل في ذلك تشويقاً لكي يعرف المخاطبون ماذا كان بين نبيهم وبينهم، وهذه - لا شك - قضية تربوية مهمة فيها من التشويق ما تشوف له النفوس، وتتهياً لمعرفته وتستعد لتلقيه؛ لذلك كنا نجد هذه الاشارات كثيرة في كتاب الله تعالى عن الامم السالفة قبل أن يحدثنا القرآن عن أحوالهم مفصلة، فهذه اشارات مبكرة في سورتي النجم وق.

١- ففي سورة النجم: ﴿وَالْمُؤْنِفَكَ أَهْوَىٰ فَفَشَنَهَا مَا غَشَىٰ فَإِيَّاءَ رَبِّكَ نَتَمَارَىٰ﴾

[٥٥-٥٣] وهذه الإشارات - بالطبع - تحدث عن قوم لوط عليه السلام دون أن تذكرهم باسمهم، فهم يعرفون بهذا الاسم، وهذه الإشارة متفقة مع سورة النجم، وما أشد التلاؤم بين قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿وَالْمُؤْنِفَكَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣] وبين قوله ﴿إِذْ يَغْشَىٰ السَّيْدَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦] وقوله ﴿فَفَشَنَهَا مَا غَشَىٰ﴾ [النجم: ٥٤] وان كان هناك فرق كبير بين هُوَيٍّ وهَوِيٍّ، بين هُوَيٍّ النجم ليسطع نوره وبين إهواء قراهم وقلبها رأساً على عقب لتكون موعظة، وما أعظم الفرق بين التغشيتين! ما غشى السدرة مما لا يعلمه إلا الله مخافةً وعظمةً، وما غشى قراهم من عذاب.

٢- أما سورة (ق) فلقد جاءت فيها هذه الإشارة تسليية للنبي - عليه وآله الصلاة والسلام -، وتثبيتاً للمؤمنين ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَشُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُجِّ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: ١٢-١٤].

ذهب البهائي الهالك محمد رشاد خليفة، إلى أن السر في ذكر «إخوان لوط» في هذه السورة، حتى يستقيم نظام التسعة عشر الذي ابتدعه، فإن القافات في السورة الكريمة تنقسم على تسعة عشرة فلو أنه قيل في هذه السورة وقوم لوط لاختل هذا النظام. وقد افتن كثير من الناس بمقولاته هذه، قبل أن تظهر حقيقته.

والحق أن كل كلمة في كتاب الله تعالى مختارة متقاة لها سرها وبيانها، يطلع الله من شاء عليه متى شاء، وقد يحاول بعض الناس، وقد يوفق، وقد تكون الثانية الى أن يشاء الله أن يظهر السر المكنون.

والذي يبدو لي أن التعبير القرآني، له أسبابه ومسوغاته، فالأنبياء الذين أرسلهم الله- عليهم الصلاة والسلام جميعاً نشأ كل منهم في قومه، فهم أهلهم وعشيرته، وأهل بيئته الذين نشأ منهم، إلا لوطاً عليه السلام، فمن المعلوم أنه جاء مع إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فالذين أرسل فيهم ليسوا من عشيرته، ولما كانت هذه السورة أول سورة يذكر فيها أولئك الناس حل محل كلمة القوم كلمة (إخوان) إشارة الى تلك الاخوة الإنسانية، ولم نجد في كتاب الله تبارك وتعالى هذا الوصف (إخوان) إلا في هذه السورة، ثم رأينا السور الكريمة بعد ذلك يذكر فيها القوم مثل ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ﴾ [الشعراء: ١٦١] خلاصة القول أن كلمة الإخوان هنا ذكرت لحكمة كان لابد منها، لا من أجل نظام التسعة عشر. والله أعلم بما ينزل.

٣- ثم تأتي سورة القمر، ولعلها السورة الأولى التي تحدثنا عن قوم لوط وتكذيبهم لنبيهم وبالنذر التي جاءتهم، والسورة تحدثنا عما حل بهم من عذاب، وعما انعم الله به على آل لوط عليه السلام، وعن الوقت الذي نجوا فيه، وتجميل لنا الأسباب التي

استحقوا من أجلها هذا العذاب، وتبين لنا سببين اثنين:

١ - المماراة والجدال .

٢ - مراودتهم له عن ضيفه وهذه اشارة مجملة كذلك ستفصل فيما بعد . قال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا <sup>(١)</sup> إِلَّا إِلَٰهَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ نِعْمَةً مِنَّا عِندَنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ وَلَقَدْ أُنذِرْتَهُمْ بِطُغْيَانِهِمُ اقْتَمَارُوا <sup>(٢)</sup> بِالَّذُرِّ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيفِيهِ فَكَمَسَتْهُ أَغْيَتُهُمْ فَوَدُوْا عَذَابِي وَنُذْرِي وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴾ [القمر: ٣٣-٤٠] .

٤ - ثم تأتي سورة الأعراف، وفيها بعض البيان لما قاله نبيهم لهم وما قالوه، تبين السورة الكريمة أخبار الأنبياء: نوح وهود وصالح عليه السلام متتابعة، ثم يأتي الحديث عن لوط - عليه الصلاة والسلام -، وهنا قضية نلاحظها من خلال دراستنا للسور القرآنية، وهي أن قصة لوط - عليه الصلاة والسلام - ذكرت مع قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، بل عقبها مباشرة، وذكرت تارة في بعض السور دون ذكر قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وثالثة: ذكرتاً معاً في سورة واحدة، ولكن مفصلاً بينهما بقصص بعض الانبياء - عليهم الصلاة والسلام -، والطريقة الأولى: هي التي تذكر مجيء الرسل لإبراهيم من الملائكة بالبشرى، ثم ذهابهم للوط - عليه الصلاة والسلام -، وهي التي تذكر لنا هذه المحاورات بين لوط وبين الرسل . وأما الطريقة الثانية والثالثة: فتقتصران على ذكر المحاورات بينه وبين قومه - عليه الصلاة والسلام - وسننبه على هذه الطرق الثلاث في كل سورة نعرض للحديث عنها ان شاء الله تعالى .

(١) حاصباً: ريحاً تحصبهم بالحجارة أي ترميهم .

(٢) قتماروا: فكذبوا .

وسورة الأعراف التي نتحدث عنها ذكرت فيها قصة لوط عليه السلام دون أن تذكر قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، ينكر لوط عليه السلام على قومه اتیان الفاحشة مبيناً شناعة هذه الفاحشة؛ وبأنهم هم المبتدئون والمبتدعون لها فلم يأتها أحد قبلهم من الناس، ويبين هذه الفاحشة بأنها اتیان الرجال شهوة من دون النساء، وهم بذلك متجاوزون لحدود العقل والذوق والشرع والعرف، وهو الإسراف الذي يذم صاحبه؛ ولكن القوم كانوا غير مبالين بأي قيمة من تلك القيم التي يمتاز بها الإنسان؛ فيستحق التشريف والتكريم، فلا يزدون على أن يقولوا مستهزئين أن أخرجوهم من قريبتكم إنهم اناس يتطهرون.

ومثل هذا التسيب والسقوط والتمرغ في أحوال الرذيلة والتهكم بكل فضيلة هو شر ما يمكن أن تصل إليه الانسانية حينما يكثر فيها أمثال أولئك، ولكن لوطاً عليه السلام لا يجيبهم بشيء، وإنما تبين السورة الكريمة أن الله تبارك وتعالى قد أنجاه ومن آمن من أهله وأمطر على قومه مطراً بسبب إجرامهم، وأي إجرام أعظم مما قصه القرآن عنهم!

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤].

٥- ثم تأتي سورة الفرقان، وهي سورة الحجج التي تمحو كل الشبهات التي يتمسك بها الكفر وأهله، والتي تدور حول القرآن، وحول شخص الرسول الكريم -عليه وآله الصلاة والسلام-، كقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤] وقولهم ﴿أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ أَمِ اتَّبَعَهَا﴾ [الفرقان: ٥] إلى غير ذلك من شبهاتهم.

من هنا ما كنا لنستمع في سورة الفرقان لما قاله الانبياء، وما قيل لهم؛ ولكن ما ورد فيها يتناسب مع موضوع السورة نفسها، وهو إقامة الحجج على أولئك المكذبين،

والذي يعيننا ماورد في خبر قوم لوط - عليه الصلاة والسلام - ، واننا لواجدون هذه الإشارة ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا <sup>(١)</sup> أَفَلَمْ يَكُونُوا يَكُونُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٠]. كل هذا في معرض التذكير، ولا شك أن القرية التي أمطرت مطر السوء، وكان العرب يرونها في مسيراتهم انما هي قرى قوم لوط.

٦- ثم تأتي سورة الشعراء، فيكون الحديث عن لوط - عليه الصلاة والسلام - وقومه متناسباً مع مزاياها التي تحدثنا عنها من قبل، أسلوب جذاب له طابعه الخاص به، وسورة الشعراء من السور التي ذكر فيها نبأ ابراهيم ولوط عليه السلام معاً، ولكن ليسا متعاقبين، - وقد حدثناك عن ترتيب قصص الأنبياء في السور ذلك الترتيب البديع فارجع إليه - فبعد ذكر قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ذكرت قصة نوح وهود وصالح، ثم ذكرت قصة لوط عليهم الصلاة والسلام جميعاً، ولذا وجدنا فيها المحاورات بينه وبين قومه - كما قلنا من قبل - والمحاورات في سورة الشعراء تبدأ كما بدأت أكثر القصص بإشارة موجزة لتكذيب الأقوام، كما رأينا في الحديث عن القصص السابق، حينما تحدثنا عن نوح وهود وصالح عليهم الصلاة والسلام هكذا بدأت قصة لوط ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

ولأول مرة تحدثنا الآيات عما قاله لوط عليه السلام لقومه غير نهيمهم عن الفاحشة؛ فالذي رأيناه في سورة الأعراف كان إنكاره عليهم إتيان الفاحشة فحسب، أما هنا فهو يحدثهم عن رسالته وأمانته ويأمرهم بتقوى الله وطاعته، ولا يريد على ذلك أجراً منهم؛ فخراج ربه وأجره خير، ثم يوبخهم صراحة على فعلتهم القبيحة بإتيان الذكور وترك الأزواج أنه من شر انواع الاعتداء، اعتداء على الحرمات، اعتداء على الذكور، وهو مع ذلك اعتداء على النساء بحرمانهن حقوقهن.

---

(١) القرية: قرية سدوم من قرى قوم لوط، ﴿ مَطَرًا سَوِيًّا ﴾: أي الحجارة، والمعنى أن قريشاً مروا مراراً كثيرة في تجاراتهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء. والنشور: البعث.

وتحدثنا السورة هنا حديثاً جديداً، وهو انهم توعده بالرجم إن لم يكف عن ذلك، وهنا؛ - وبعد ذلك كله - يعلن - عليه الصلاة والسلام - بأنه لما يعملون من المبغضين المستنكرين، ويطلب من الله أن ينجيهم ومن آمن معه من عملهم، ويستجيب الله تبارك وتعالى دعاءه، فينجيهم واهله الا من يستحق العذاب منهم، ثم تذكر الآيات بأحوالهم، كما هي السنة في سورة الشعراء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٤] وهذه هي آيات سورة الشعراء:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِيَّاهُ فَلَا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ بِلُوطٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ<sup>(١)</sup> رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ<sup>(٢)</sup> إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ<sup>(٣)</sup> ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥].

٧- ثم تأتي سورة النمل، ويبين فيها لوط عليه السلام لقومه أنهم يأتون هذه الفاحشة، وهم يبصرون آثارها السيئة وما يمكن أن تلحقه بهم، ويبصر بعضهم بعضاً دون أن ينكر أحد على الآخر وهم يبصرون كذلك ماحل بالأمم المخالفة لهدي الله تبارك وتعالى، ويبين هذه الفاحشة بأسلوب المنكر المستقبح المستهجن! وهي إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء! ثم ينتقل من هذا الإنكار الى وصفهم بالجهل، وهذا لا ينافي ما وصفوا به من الإبصار في قوله ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]؛ لأن علم الإنسان وبصيرته اذا لم يوجهها توجيهاً عملياً في الحياة فوجودهما وعدمهما سواء، ولذلك وصف الله المعرضين عن الحق من المنافقين والكافرين بأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون،

(١) القلى: البغض الشديد، كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد والمراد القلى من حيث الدين والتقوى.

(٢) عجوزاً في الغابرين: صفة لها في الغابرين، في العذاب والهلاك، أي غير الناجين.



وهم لا يعقلون، فلا يكون جواب قومه إلا هذا الاستهزاء والتهكم وعدم المبالاة والتنكر لكل حق ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦] لأنهم يتزهون ويترفعون عما يعملون، ويكرم الله لوطاً عليه السلام ومن آمن من أهله إلا امرأته حيث كانت في قدر الله من الهالكين.

وأود أن أنبه القارئ هنا قبل أن يتساءل هو عن هذا التشابه الذي نجده بين سورتي الأعراف والنمل، وكأنني به يقول: أليس هذا التكرار بعينه؟! ولكني أقول: مهلاً، فنحن مع معرفتنا بمقاصد التكرار وفوائده، ومع يقيننا بأنه من الأساليب التي يمكن أن تؤدي غرضاً ما لم يكن ممجوجاً متكلفاً، إلا أننا مع ذلك لانحكم على ما جاء في كتاب الله تبارك وتعالى بأنه من التكرار، وقد سبقت هذه المسألة في أول الكتاب، فراجعها هناك إن شئت، ولكن لنبقَ مع الآيات التي تحدثنا عن سيدنا لوط -عليه الصلاة والسلام- في سورتي الأعراف والنمل وقد عرفنا من قبل أن القضايا الرئيسة التي جاء بها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- سواء أكانت عقدية كعبادة الله وحده أم اجتماعية، وهذه تختلف باختلاف الأقسام كتطيف المكيال عند مدين وإتيان الفاحشة عند قوم لوط عليه السلام، مثل هذه القضايا لا بد أن يكون كل رسول أمر قومه بتركها وحذرهم مغبتها وعاقبتها أكثر من مرة في أكثر من مكان وزمان، وحينما نقلها القرآن إلينا صاغها بأسلوبه فأضفى عليها مع روعة الإعجاز جمال الإيجاز، فيظن القارئ لأول وهلة أن ذلك هو التكرار، ولكنه بتكرار التلاوة المتدبرة سيبدد هذا الوهم ويغير ذلك الفهم، ولتقف مع ما بين القصة في السورتين من فروق:

ما بين سورتي الأعراف والنمل من فروق.

١- سورة الأعراف: ١- أنكر لوط الفاحشة على قومه مبيناً أنهم لم يسبقوا بها من

قبل ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف : ٨٠] بهذا التعبير الرائع «من أحد»، كأنما يريد أن يبين لهم أنها لم يسبق لأي فرد من أفراد الناس صغيراً كان أو كبيراً أن زاول مثل هذه الفاحشة «من أحد». ٢- ثم يبين لهم هذه الفاحشة على جهة الإخبار «إنكم»، ٣- ثم يصفهم بالإسراف، والوصف بالإسراف متلائم متناسب مع فعلتهم للفاحشة دون غيرهم من البشر ودون ما سَبَقَهُم من الناس مع كثرة الذين سبقوهم من حيث الزمان والمكان ٤- ثم يأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بهذا الحرف من حروف العطف وهو (الواو) ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ والواو: لاتدل على ترتيب ولا تعقيب، ٥- ثم يذكر ربنا قول قومه ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ بهذا الضمير الدال على الغيبة. ٦- وأخيراً يبين الله تبارك وتعالى أنه أنجى لوطاً وأهله الا امرأته كانت من الغابرين، يعبر بهذا الفعل فعل الكون «كانت».

٢- سورة النمل أما ما جاء في سورة النمل فنجدته مغايراً لهذا النظم الذي وجدناه هناك :

١- ينكر لوط عليه السلام على قومه إتيان الفاحشة دون أن يعرض لكونهم أول من فعلها في هذه الدنيا، وإنما ينكر عليهم هنا إتيان هذه الفاحشة، وهم يبصرون أي: وهم يعلمون عواقبها، أو ما حل بالأمم أو يبصر بعضهم بعضاً كما مر من قبل.

٢- ثم نجده ينكر عليهم مرة أخرى «أئنكم لتأتون» بهذه الهمزة الدالة على تشنيع الفاعل وتقبيح العمل وكأن لوطاً بدأ يضيق ذرعاً؛ لأن إصرارهم على قبائحهم لا يزيده الا إنكاراً ولأن انكاره عليهم لا يزيدهم إلا إصراراً.

٣- ثم يصفهم بالجهل. وما أجمل الطباق والمقابلة بين الجهل وبين البصر في الآية السابقة.

٤- ثم يأتي قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بالفاء، ولا شك أن هذا مقام يختلف عن قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ في السورة السابقة،

بينما جاءت الواو هناك بعد الجملة الاسمية ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وهذا يختلف عن غيره<sup>(١)</sup>.

٥- أما قولهم الذي يذكره الله هنا فهو: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾، فلم يستعمل الضمير الذي استعمل من قبل (أخرجوهم) لقد خلع القوم رداء الحياء وانتهوا من كل كناية ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾.

٦- وأخيراً يذكر الله تعالى عن امرأة لوط عليه السلام: ﴿إِلَّا أَمْرًا تَقْدَرْنَهَا﴾ وفي سورة الأعراف (كانت) وما أعظم الفرق بين العبارتين «كانت» - وهو فعل ناقص يحتاج إلى اسم وخبر - (وقدرناها) حيث تدل العبارة الثانية على أن ذلك تقدير الله تبارك وتعالى الذي لا يمكن أن يرد. ومن لطيف التعبير أن هذا التقدير جاء بعد قوله (كانت) وفي ذلك من العدل الإلهي ما فيه.

مما سبق نجد أن ماذكر في سورة النمل فيه زيادة على ما كان في سورة الأعراف من الوجوه الستة التي رأيناها، وهو يدل دون أدنى شك على أن القصة في سورة النمل نزلت عقب القصة في سورة الأعراف لما فيها من اختلاف الأسلوب الذي رأيناه، والعجب من صاحب درة التنزيل - رحمه الله تعالى - الذي ذهب إلى عكس ذلك وهو أن سورة النمل نزلت أولاً؛ لكن ما ذكره مدفوع بما بيناه، وما عليك إلا أن تراجع قوله في درته التي نسأل الله أن يجزيه عنها خيراً. «درة التنزيل»<sup>(٢)</sup> التي لا ننكر أننا أفدنا منها في هذا الكتاب: وإخالك بعد أن تقرأه لا أظنك إلا أن تذهب إلى أن القصة في سورة النمل نزلت متأخرة.

وهذه هي الآيات التي جاءت في كل من السورتين ليتدبرها القارئ.

---

(١) ذكر صاحب المنار مع هذا الرأي رأياً آخر فليراجعه من شاء.

(٢) ص: ٦٠.

في سورة الأعراف :

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ  
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا  
أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ  
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠-٨٤] .

أما آيات النمل فهي :

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ أَيْنَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً  
مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ ﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُ أَلْ لُوطُ مِنْ  
قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا مِنْ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ  
مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [النمل : ٥٤-٥٨] .

٨- ثم جاءت سورة هود وهي أول سورة تذكر فيها قصة لوط عقب قصة إبراهيم -  
عليهما الصلاة و السلام - ، ففي السور السابقة ذكرت وحدها دون قصة إبراهيم عليه  
السلام ، اللهم إلا في سورة الشعراء حيث ذكرتا معاً إلا أنه فصل بينهما بعدة قصص .

عرفنا من قبل عند الحديث عن قصة إبراهيم عليه السلام في سورة هود أنّ الرسل  
جاءوا بالبشرى وهم في طريقهم إلى قوم لوط ، كما حدثتنا السورة هناك أن إبراهيم - عليه  
الصلاة والسلام - لحلمه الذي طبع عليه وأكرمه الله به ، بدأ يجادل في شأن قوم لوط  
حتى قيل له : ﴿ يٰإِبْرَاهِيمُ اعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ عَنِ مَرَدُّورِ ﴾  
[هود : ٧٦] .

وتحدثنا الآيات بعد ذلك أن الرسل لما جاءوا لوطاً أصابته المساءة ، ولحق به  
الضيق من كل جانب حتى إنه لم يجد أي حيلة ، وأي منفذ للخروج من هذا المأزق ،  
وما أصعبه بل ما أعصبه من يوم ! وهنا وقد رأى قومه أضيافه في صورهم البهية جاءوا

مسرعين من كل جانب، ومن طبعهم عمل السيئات، فهو أمر مستقر فيهم، ويبدو لهم لوط - عليه الصلاة والسلام - بأن أولئك أضيافه بعيدون عن هذه البلاد، وقد جعل الله لهم من النساء ما يسد عوزهم ويزيل عجزهم، وهؤلاء بناته ليزوج كل واحد من وجهاء القوم بواحدة منهن فليتقوا الله، اراد أن يحرك هذا الجانب في نفوسهم، أن يوقظ هذه المشاعر، وان يوقظ هذه الجذوة كي لا يخزوه في ضيفه، ثم يهيب بهم علَّهم يرتدعون عن غيهم، الا يوجد فيهم رجل رشيد عاقل يمنعهم من الغواية، ولكنهم وقد جردوا من كل عرق يمت بصلة للإنسانية الكريمة يعلنون ويعلمون لوطاً بأنه يعلم كل العلم أن ليس لهم حق في بناته، وهو يعلم كل العلم كذلك ما يريدون.

وهنا وقد أعيت - عليه الصلاة والسلام - الحيل كلها، وسدت دونه الطرق والمنافذ يقول ما يقوله كل واحد مثله ولعل كل واحد منا يدرك هذا الضيق الذي أصابه - عليه الصلاة والسلام - فيتمنى أن يكون له قوة ليجابه أولئك الذين تجردوا من إنسانيتهم، أو أنه يأوي إلى ركن شديد يستعين به على صلافة أولئك، وسلام الله على لوط فلم يكن هناك ركن أشد من الركن الذي يأوي إليه ولهذا يقول رسول الله - عليه وآله الصلاة والسلام - : «يرحم الله لوطاً فلقد كان يأوي إلى ركن شديد»<sup>(١)</sup> وهنا يكون الفرج ويرى الأضياف ماحل بصاحبهم فيكشفون له هويتهم ويعرفونه بأشخاصهم ما أعظم الفرج بعد الشدة! اللهم إنا نسألك الفرج بعد الشدة فيخبرونه بالحقيقة وبأنهم رسل ربه الذي لا يتخلى عنه فلا يهولنه الأمر، وليسر بأهله بقطع من الليل، وهذا القطع كما بينته سورة سابقة - سورة القمر - هو وقت السحر ولا يلتفت منهم أحد، أما آله الذين ينبغي أن يسري بهم فهم جميع أهلهم، وأمروا أن لا يلتفتوا فانجاهم الله الا امرأته من أهلهم الذين

---

(١) أخرجه الإمام مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة ج٢، ص ١٨٣.

وأخرجه البخاري كتاب الأنبياء وباب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ﴾ حديث رقم ٣٢٠٧.

أسري بهم ولكنها التفتت فأصابها ما أصابهم، هذا ما يرجحه كثيرون ودليلهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ﴾ [هود: ٨١] وذهب آخرون إلى أن امرأته ليست مع أهله الذين أسري بهم وإنما كان الاختلاف لأن في الآية قراءتين «امرأتك» بالنصب وبالرفع فعلى النصب يمكن أن يكون الاستثناء من قوله «فأسر بأهلك» وعلى الرفع يمكن أن يكون الاستثناء من (أحد)، والإعراب فرع المعنى كما يقولون والله اعلم بمراده، وعلى كلا القولين فإن المرأة كانت من المهلكين أسري بها أو لم يسر، إنه الصبح، وكثيرون أولئك الذين يعانون من القسوة والبلاء والشدة والتنكيل وإلى أولئك جميعاً يسوق الله هذه البشارة: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، بلى ما أعظمها من بشارة للمستضعفين! وما أشده من وعيد لأولئك الذين حسبوا أن القسوة والعتو هما كل شيء!.

ويجيء أمر الله بإهلاك المعذيين، وتقلب قراهم رأساً على عقب، ويمطر الله عليها حجارة من سجيل وما هي ببعيدة عن الظالمين. نعم ما هي عن الظالمين ببعيدة، لكنهم لا يراعون.

وهذه هي الآيات في سورة هود:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ وَإِلَيْهِ وَمَنْ قَبُلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَرُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا تُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رَجُلٌ شَدِيدٌ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْصُودٍ <sup>(١)</sup> مُّسَوِّمَةً <sup>(٢)</sup> عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٧٦-٨٣].

(١) منضود: نضد في السماء نضداً، معداً للعذاب وقيل يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً.

(٢) مسومة: معلمة للعذاب.

٩- ثم جاءت سورة الحجر، وتذكر فيها قصة لوط - عليه الصلاة والسلام - عقب قصة إبراهيم عليه السلام، ونجد أن السياق في سورة الحجر يختلف عما جاء في سورة هود حيث بدأت القصة في سورة الحجر تبين لنا أنه لما جاء آل لوط المرسلون من الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - خاطبهم لوط عليه السلام بأنهم قوم منكرون؛ وذلك لأنه يخشى أن يطرقوه بشرّاً أو أن تحدث له بسببهم مساءة؛ ولكنهم يجيبونه - عليه الصلاة والسلام - بأن الأمر ليس كما توقع، بل هو على العكس من ذلك، بل إنهم جاءوا بهذا العذاب الذي كان قد توعد به قومه، وأتوه بالحق الذي لا مرية فيه؛ ولكي يستلوا كل ظن يمكن أن يعتريه، وكل حزن يمكن أن يصيبه أكدوا له صدقهم بما قالوه بمثل هذا الأسلوب ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤]، المشتمل على أكثر من تأكيد.

والذي جاء في سورة هود أن الرسل جاءوا لوطاً عليه السلام أما هنا فذكر أن مجيئهم لآل لوط، وفي هذا من الإيناس والإكرام له - عليه الصلاة والسلام - مالا يخفى، ثم تذكر الآيات الكريمة بعد ذلك في سورة الحجر أن أهل المدينة جاءوا مستبشرين فرحين .

### دعوى أن في الآية تقديمًا وتأخيرًا.

ويرى بعض المفسرين أن ما في الآيات من باب التقديم والتأخير؛ فمجيء أهل المدينة كان قبل بشارة الملائكة لوطاً بأنهم جاءوه بعذاب أولئك، والواو لا تفيد ترتيباً. ونقل صاحب روح المعاني عن ابن عطية أن ما قاله لوط عليه السلام لأهل المدينة مما قصته السورة الكريمة من أن أولئك ضيفه فلا ينبغي أن يفضحوه بالاعتداء عليهم، وأمره لهم بتقوى الله ونهيه لهم عن خزيه وإذلاله؛ إنما كان على سبيل التبكيت لهم، وإخفاء العذاب الذي سيصيبهم عنهم، وعلى هذا فالكلام على ترتيبه الطبيعي ليس فيه تقديم ولا تأخير، ولكن الشهاب الألوسي - رحمه الله - الذي لم يرتض ما ذكره ابن عطية سار مع الجمهور فيما قالوه من أن باقي القصة فيه تقديم وتأخير .

## ردّ هذه الدعوى :

ولكن الذي يبدو لي بعد اجالة وإمعان - والله أعلم بما ينزل- أن تضعيف علامة الرافدين لما قاله علامة الأندلس<sup>(١)</sup> رحمهما الله، فيه نظر، ولا نستطيع أن نسلّمه له، بل قول علامة الأندلس جدير بالتأمل والنظر، والذي يظهر لي أنه أولى بالقبول، وأن ليس في الآية تقديم وتأخير، وأن ما في سورة الحجر فيه من الأحداث والمشاهد ما ليس في سورة هود، وأستدل لذلك بما يلي :

إن الذي ذكر في سورة هود ان الرسل لما جاؤوه - عليه الصلاة والسلام - سيء بهم، وضاق بهم ذرعاً، وقال : هذا يوم عصيب، وجاءه بعد ذلك قومه يهرعون إليه، وكل هذا لانجده في سورة الحجر، لذلك فالذي يبدو لي - والله أعلم - أن ما حدثنا عنه سورة هود غير الذي حدثنا عنه سورة الحجر، ففي سورة هود جاءه قومه يهرعون إليه - وكان بينه وبين قومه ما تحدثنا عنه من قبل. أما هنا في سورة الحجر، فقد جاءه أهل المدينة مستبشرين فرحين. فهناك معيَّتان :

المجيء الأول: لقومه، وهم فئة جاءت مسرعة لتظفر بالغنيمة - قاتلهم الله - فسيء بهم - عليه السلام - وضاق بهم ذرعاً، وطمأنه الملائكة، ثم جاء بعد ذلك أهل المدينة بعد أن وصل إليهم النبأ وكان لوط عليه السلام قد اطلع على أمر من الملائكة - عليهم السلام - فقال لهم ما قال على سبيل التبكيت وتعمية الخبر عنهم .

والذي يرجح ما قلناه أن آيات سورة الحجر لم تحدثنا بشيء عن ذلك الألم الذي كان يكتنف نفسه - عليه الصلاة والسلام -، وما ذهبنا إليه أولى بنظم الكتاب العزيز ونسقه .

---

(١) يراجع المحرر الوجيز لابن عطية .



**والخلاصة:** أن الحديث في سورة هود - عليه الصلاة والسلام - كان غير الحديث الذي في سورة الحجر؛ ولعل مما نستأنس به - كما قلناه - زيادة على ما تقدم من قول لوط - عليه الصلاة والسلام - هنا: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] قالها بصيغة الشك الذي تدل عليه كلمة (إن) ولم نجد ذلك التقريع الذي وجدناه في سورة هود، ثم يقسم الله تبارك وتعالى بحياة سيدنا محمد - عليه وآله الصلاة والسلام - بأنهم في غوايتهم وسكرتهم وقد عميت بصائرهم ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]<sup>(١)</sup> فجاءهم العذاب، واخذتهم الصيحة في وقت يجد الناس فيه أسهم وهدايتهم، وهو وقت شروق الشمس فقلبت قراهم رأساً على عقب، وأمطرت عليها حجارة وفي ذلك آيات كثيرة لذوي الفكر والنظر والتوسم، وإن هذه القرى قرى قوم لوط عليه السلام في طريق باق غير مندرس يمر به أهل مكة وغيرهم من العرب، وإذا كان في ذلك آيات كثيرة للمتوسمين الذين كانوا في زمن لوط عليه السلام، لأنهم رأوا هذه الفعلة تامة غير ناقصة فإن فيما بقي من هذه الآثار للمؤمنين بالله ورسوله ﷺ آية عظيمة، وفيها ما يكفيهم.

ومما انفردت به سورة الحجر كذلك طلب الرسل من لوط عليه السلام أن يقدم أهله حينما يسري بهم بقطع من الليل فيجعلهم أمامه ويكون خلفهم حتى يتأكد من خروجهم جميعاً ولكي يضمن عدم التفات أحد منهم، وهذا معنى قول الله له في السورة الكريمة ﴿وَاتَّبِعْ أَذْيَرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥] أي سر وراء أهلِكَ الذين سرّيت بهم ولا تجعل أحداً منهم وراءك.

وقضى الله له ذلك الأمر العظيم الحازم وهو أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

ومما انفردت به السورة كذلك قول قومه له وقد حدثهم في شأن ضيفه ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] فهم ينكرون عليه أن يستقبل أحداً من الناس؛

(١) هذا أحد الأقوال في الآية، وهناك قول آخر أنّ (لعمرك) خطاب للوط عليه الصلاة والسلام.

لأنهم يخشون أن يستجيبوا لدعوته . وهناك أمر آخر يقصدونه وهو أن لا ينكر عليهم حينما يريدون أن يحققوا فعلتهم الشنيعة مع من يمرون بديارهم ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يمنعهم من ذلك ، وهذه هي الآيات في سورة الحجر :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ إِلَّا آءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا أَمْرَانَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أذْبَهُمْ وَلَا يَلْفِتْ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُ حَيْثُ تُمَرُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ <sup>(١)</sup> مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ لَعَنَّا إِيَّاهُمْ لَنِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ <sup>(٢)</sup> فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّا لَنَسِيلٌ مُّقِيمٌ <sup>(٣)</sup> إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٥٧-٧٧] .

١٠- ثم تأتي سورة الصافات بعد ذلك : وسورة الصافات - كما قلنا من قبل - تحدثنا عن إكرام الله أنبياءه - عليهم الصلاة والسلام - فهم في مصاف المكرمين ، بل هم المكرمون ، وهذا ما اقتضت - عليه السورة - من الحديث عن لوط - عليه السلام - ، فهي لا تحدثنا عما جرى بينه وبين قومه ؛ ولكنها تكتفي بالحديث عما خصه الله به وما أصيب قومه به ثم تذكر العرب الذين يمرون بديارهم صباح مساء وتنعى عليهم عدم تذكرهم ، وتعنفهم لأنهم لم يستعملوا عقولهم فيما هو خير لهم ، وهذه هي الآيات الكريمة :

(١) دابر هؤلاء : أي اخرهم يعني يستأصلون عن اخرهم حتى لا يبقى منهم أحد .

(٢) مشرقين : داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس .

(٣) للمتوسمين : للمتفرسين المتأملين وحقيقة المتوسمين النظار المثبتون في نظرهم حتى لا يعرفوا حقيقة سمة الشيء . «بسيل مقيم» أي ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار وهو تنبيه لقريش .

﴿ وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ بَغَيْنَتْهُ وَآهْلُهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ وَإِنَّكَ لَمِنُ الْمُرْسَلِينَ عَلَيْهِمْ مُّصِيبَاتٌ وَيَأْتِلُ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٣-١٣٨].

١١- أما سورة الذاريات التي جاءت بعد ذلك فإن الحديث فيها عن قوم لوط عليه السلام لم يأت من خلال قصته - عليه الصلاة والسلام - معهم، وإنما جاء في ثانيا حديث إبراهيم عليه السلام حينما جاءه الرسل من الملائكة مبشرين؛ فبعد أن هدا خاطره، وذهب روعه يسأل الرسل من الملائكة ما شأنكم وما خطبكم؟ فيجيبونه بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ليعذبوهم بنوع من العذاب خاص لمن أسرف وتجاوز الحد وأن هذا العذاب لم ينج منه إلا بيت واحد أولئك الذين ثبت الإيمان في قلوبهم، وانقادوا لأوامر الله تبارك وتعالى، ولا زال في هذه الفعلة وفي تلك القرى آية لأولئك الذين يخافون أن ينزل بهم العذاب.

ما جاء في سورة الذاريات إذن كان استكمالاً للحديث عن إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حَبَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات: ٣١-٣٣].

١٢- أما سورة الأنبياء فجاءت فيها إشارة موجزة متسقة مع موضوعها وهو آيات الله، وحججه سواء أكانت هذه الحجج كونه بصرية أم انسانية سمعية. تأمل السورة الكريمة تجد ذلك واضحاً فيها ويكفي أن نذكرك بمثل قول الله: ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وما بعد ذلك من آيات ولها من اسمها نصيب، ولذلك كان الحديث فيها عما أكرم به الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

فبعد أن نجى الله إبراهيم ولوطاً عليهما السلام إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين وبينت الآية ما خصص الله به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بينت بعد ذلك ما خصص به لوط عليه السلام كذلك ولأول مرة يبين الله ما أكرم به لوطا عليه السلام من الحكم

والعلم مما من به عليه فأدخله في رحمته، وفي زمرة الصالحين من عباده ففي السورة الكريمة:

﴿وَلُوطًا إِيَّانَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

١٣- أما سورة الحاقة فكان الحديث فيها مندرجاً في ذكر بعض السالفين المكذبين، ومع ذلك الإيجاز فلقد كانت هناك جدة في تسمية قري قوم لوط بالمؤتفكات<sup>(١)</sup>، وهي بعض آية في قوله تعالى:

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً<sup>(٢)</sup>﴾ [الحاقة: ٩-١٠].

١٤- ثم جاءت سورة العنكبوت، سورة الدعاة كما سمينها من قبل، وعلى رغم إيجاز القصة في هذه السورة إلا أنه والحق يقال، ذكر فيها الكثير مما لم يذكر في غيرها من السور السابقة، وهذا يقيناً متسق مع شخصية السورة الكريمة.

تبدأ القصة في السورة الكريمة بتقريره لقومه بهذا الأسلوب الذي لم يمر بنا من قبل، وها هو - عليه الصلاة والسلام - يقرعهم، إنهم يأتون الفاحشة، ولم يسبقهم بها أحد من الناس.

ثم بين معاييهم ومثالبهم ومساوئهم بهذا الأسلوب الجامع بين التأكيد والإنكار، ولئن كانت الآيات السابقة تبين أن فعلتهم الفاحشة التي يذمون عليها إتيان الرجال؛ فإن السورة الكريمة تبين هنا عيوباً كثيرة فهم يقطعون السبيل، ويأتون في ناديهم المنكر، ما تنكره الطباع والعقول والشرائع جميعها؛ ولئن كان جوابهم فيما مضى ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٢] إلا أنهم هنا يتركون هذه المقالة ويستبدلون بها غيرها

(١) المؤتفكات: قري قوم لوط.

(٢) رابية: شديدة زائدة في الشدة كما زادت قبائحهم في القبح.

وهي أن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين في ذلك ويضرع لوط عليه السلام إلى ربه أن ينصره على القوم المفسدين .

ثم تحدثنا الآيات الكريمة عن مجيء الرسل إبراهيم عليه السلام بالبشرى ، ولكن هذه البشرى تذكر مجملة هنا تلاوفاً مع موضوع السورة ؛ ولأنه قد مر في السورة نفسها ما خص الله به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، ولكن الآيات هنا تقتصر على ما كان بين إبراهيم وبين الرسل - عليهم الصلاة والسلام - في شأن لوط عليه السلام بما لانراه في سورة أخرى ، فيبلغون إبراهيم أنهم يريدون إهلاك أهل هذه القرية ، وذلك لهذا الظلم الشائن الذي يصدر عنهم ، ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يخشى أن يصاب لوط بأذى فيبادر إلى القول : كيف تهلكونها إن فيها لوطاً؟! ويحييه الملائكة بأنهم يعلمون من فيها ، وإنهم سينجونه وأهله إلا امرأته .

ثم تبين الآيات مجيء الرسل لوطاً - عليه الصلاة والسلام - وما أصابه حين مجيئهم ويبينون له أنهم منجوه وأهله إلا امرأته ، كما بينوا لإبراهيم عليه السلام من قبل ، وأنهم منزلون على أهل هذه القرية عذاباً من السماء بسبب فسقهم ، ثم يبين الله تبارك وتعالى أنه ترك من هذه القرية ومن هذه العقوبة أثراً لمن كان ذا عقل ولب ، والحق أن أسلوب القصة في سورة العنكبوت أسلوب فريد ، لا من حيث الألفاظ وحدها ولكن من حيث الجزئيات التي ذكرت فيها كذلك ، ولعل في ذكر الآيات الكريمة خير دليل على ما ذهبنا إليه وهذه هي آيات سورة العنكبوت :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَيْتَكُمْ لَأَتُوبَ الرَّجَالُ وَقَتَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّنَّا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوْا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ

وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيكِ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ <sup>(١)</sup> رُسُلَنَا لُوطًا سَيِّئَ بِهِمْ وَصَافَكِ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَانِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَيْرِيكِ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾

[العنكبوت: ٢٨-٣٤].

### صفات قوم لوط .

ونرى أن من المفيد أن نبه هنا على ما ذكر لقوم لوط عليه السلام من صفات قد لا نجدها لغيرهم من الأقسام ومن يستعرض الآيات يجد ذلك في أجلى بيان، وأوضح صورة، فالتكذيب، والجدل، وإتيان الفواحش، والاعتداء، والإجرام، والإسراف، وعمل السيئات والخبائث وإتيان المنكر، وقطع السبيل والجهل والفسق والظلم، وتلك لعمر الحق هي أسوأ الصفات التي يمكن أن يتصف بها قوم.

فلقد كان قوم لوط عليه السلام مثل سوء جرت به الركبان، وسار على مر الزمان، يقول المعري <sup>(٢)</sup>:

وأي امرئ في الناس ألقي قاضيا      فلم يُمض أحكاما لحكم سدوم

أبت فاقدات الحسن حمل رزية      وهل راب صخرا نحتة بقدم

وسدوم إحدى مدن قوم لوط .

وكان المعري يشير بهذا البيت إلى ما حُكي عن القوم من استغراق في الباطل، كما وصفهم القرآن الكريم ولقد قالوا إن سارة زوج إبراهيم ﷺ بعثت (لعازر) كبير العبيد،

(١) جاء في سورة هود «ولما جاءت رسلنا» فلم تذكر كلمة (أن) وسامح الله الذين يرون زيادة بعض الحروف في القرآن الكريم، حيث ذهبوا إلى أن (أن) هنا زائدة، ويعلم الله أن لها من الدقائق البيانية والحكم والأسرار ما يثلج الصدر، ويضطرب الأذن، ويخشع له القلب (راجع كتابنا لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن) عند الحديث عن (أن).

(٢) اللزوميات (٢/٤٤٢).

ليطمئنها عن لوط عليه السلام، وذلك لما بينهما من صلة وقربة، فلما وصل (سدوم) عرض له بعض أهلها وضربه حجراً أدمى به رأسه، ولم يقف الأمر به عند هذا الحد، بل قال له بعد ذلك: إن هذا الدم لو بقي في جسمك لضرك ضرراً كبيراً، ولقد صنعت بك خيراً أن أنزلت هذا الدم من رأسك، وأود أن تعطيني أجراً على هذا الخير الذي أسديته اليك، ولم يتركه بل ذهب به إلى القاضي، ولما سمع ما قاله كل منهما، حكم للسدومي على (لعازر) وقال لا بد أن تعطيه أجره، فما كان من لعازر إلا أن أخذ حجراً وضرب رأس القاضي وأدماه، وقال له: أرجو أن تعطي الأجر الذي ثبت لي عليك للسدومي، بدل الأجر الذي حكمت به عليّ.

وهذه حكاية قد يجدها القارئ غريبة كل الغرابة، ولكن ليس هناك أمرٌ مستغرب. والمتبصر والمطلع على الأوضاع السياسية والاقتصادية وغيرهما في عصر العلم والتقدم، والتغني بحقوق الانسان، أقول إن المتبصر بالأمور المطلع على الأشياء ليجد أن ما تفعله الدول الكبرى وبخاصة أمريكا وبعض صويحاتها، ما يفعلونه بالدول النامية، وبخاصة الإسلامية والعربية لن يجد أي غرابة في هذه الحكاية، فإنهم والله ليفعلون ما هو أشد غرابة واستبعاداً مما فعله قاضي سدوم. وما أكثر الأحداث التي تدل على مثل هذا.

قتل امرئ في غابة	جريمة لا تغتفر
وقتل شعب آمن	مسألة فيها نظر
يا رب هبت شعوب من منيتها	واستيقظت أمم من رقدة العدم

أفلا تستيقظ أمتنا؟! .

أننا لا ألوم المستبد	إذا تجهم واستبدا
فسبيله أن يستبد	وشأننا أن نستعدا

وَصَدَقَ اللَّهُ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢] ويعجبني قول القائل في مديح سيدنا رسول الله ﷺ.

بجيش الحق أمنت البرايا      وجيش الحق تخشاه الأسودُ

تلك هي قصة لوط عليه السلام كما جاءت في كتاب الله تبارك وتعالى ، نجد لكل سورة فيها جانباً من الجوانب ، وجزئيات وأحداثاً وأسلوباً ، يضيفي عليها صبغة البيان وظاهر الإعجاز وعظيم الروعة وتأثير الموعظة ، وإلى جانب ذلك كله هذه الدروس الاجتماعية التي لا بد لأي مجتمع خير أن يدعيها ، وهو ينظر في تلك الصفات التي تعصف بكل من يتصف بها كما عصفت بقوم لوط عليه السلام .



## ثانياً: تعقيب على قصة لوط عليه الصلاة والسلام

إن أول ما يقفنا ونحن نقرأ قصة لوط - عليه الصلاة والسلام - هذا الصلف والترهل، بل هذا التدني والانحدار، بل التعري من كل رداء من أردية الإنسانية. ذلك بحق ما كان عليه أولئك القوم الذين ابتلى الله بهم لوطاً - عليه الصلاة والسلام - فأرسله إليهم. لقد كان القوم ممعنين في الغي مستغرقين في الفحش لا يبالون بما يمكن أن يقال.

بدأنا نسمع في العقدين الأخيرين من هذا القرن عن تسيّب يشبه تسيّبهم. قد نجد أناساً يفعلون الرذيلة، ولكنهم قد يستخفون أو أقل مافي الأمر لا يفتخرون مجاهرين بما يعملون ولكن أولئك القوم لم يكونوا ليعلنوا المنكر فحسب، بل يسخرون من كل من يرشدهم ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطِغُورُونَ﴾ [الاعراف: ٨٢] تلك هي قولتهم الهازئة ويبدل لوط - عليه الصلاة والسلام - طاقته وجهده دون جدوى، والأنكى من ذلك كله أنهم أرادوا الحيلولة بينه وبين الناس، وإلا فإن أراد غير ذلك فليتحمل ما يترتب عليه من نتائج.

ويحدثنا القرآن لأول مرة عن امرأة لوط عليه السلام وكونها مقدرة من الغابرين. ونحن نعلم أن لوطاً - عليه الصلاة والسلام - هاجر مع إبراهيم عليه السلام، فكان إبراهيم عليه السلام شديد الحرص عليه؛ لذلك يسهل عليهم أن يهددوه بالرجم؛ لأنه ليس منهم؛ ولكنه - عليه الصلاة والسلام - لا يزيد على أن يقول بعد ذلك إني لعملكم من القالين المبغضين الكارهين المنكرين. رب نجني وأهلي مما يعملون، ويستمر لوط عليه السلام دون أن يؤمن به أحد منهم.

وإذا كان من لبنة يضيفها لوط عليه السلام للبناء الإنساني المحكم - وقد أحكم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - اللبنة كما رأينا من قبل - وهي كائنة لا محالة، فإنها تتلخص في هذا الدرس وإن كان قاسياً كل القسوة، ولكنه درس نافع مفيد يمكن أن يكون تسليّة وعزاء لأولئك الذين شاء الله لهم أن يحاولوا الإصلاح في أرض خبت

فلا تخرج إلا نكدا ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكْدًا﴾  
[الأعراف: ٥٨] وما أشده من درس أن لا يجد المصلح قلوباً صاغية! وآذاناً واعية!  
على الرغم من مرور الزمن وتحمل المحن:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده وليس عليه أن تتم المطالبُ  
وهكذا خرج لوط عليه السلام بأمر ربه دون أن يؤمن معه أحد فلا عليه، فالله قد من  
عليه وأدخله رحمته، إنه من الصالحين.

وإذا كانت الفاحشة التي كان يأتياها قوم لوط عليه السلام لم يسبقهم إليها من العالمين  
غاية في السوء، موغلة في المنكر، ينكرها كل ذي لب، يمقتها الشرع والعقل والعرف،  
فإننا نرى اليوم أن هذه الفاحشة، أمست يزاولها ذور الخبائث بقوانين وتشريعات لحماية  
أولئك، حتى أن ما كان محرماً عليهم، وما كانوا يمنعون منه في كثير من الأعمال  
والوظائف العسكرية والمدنية، وجدنا من المسؤولين في مجالس النواب وغيرهم من  
ينادون بدفع هذا المنع، لينتشر هذا الشذوذ، كما نقلته لنا وسائل الإعلام في كثير من  
بلاد الغرب مثل أمريكا وإنجلترا وغيرهما، ونسأل الله أن يظل هذا الخبث بعيداً عن بلادنا  
وعن المجتمعات الإسلامية.

ما أسوأ حظ الإنسانية! كثير من أولي الشأن في البلاد الراقية يجعلون لهذا الشذوذ  
قوانين وأنظمة حماية لأولئك الذين خرجوا عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

### أين مكان قوم لوط: أهو البحر الميت؟

وأود أن أختتم الحديث عن قصة لوط عليه السلام، فأعرض لقضيتين اثنتين:

**القضية الأولى:** وهي تتصل بمكان قوم لوط عليه الصلاة والسلام- أهى في البحر  
الميت؟ ويكثر سؤال الناس عن هذه القضية، وقد صار البحر الميت مكاناً يكثر ذهاب  
الناس إليه.

والأصل في هذه القضية ما روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا قد عجنّا منها واستقينا فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء. وعنه: أن النبي لما مر بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم<sup>(١)</sup>.

فإذا كانت مساكن أولئك الناس مكان هذه البحيرة، فينبغي أن تحكم بحرمة الذهاب إلى ذلك المكان؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال، أبين ما يلي:

أولاً: إن القرآن الكريم أمر المسلمين أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، وقد ورد هذا في آيات كثيرة، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [العنكبوت: ٢٠]. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ [الأنعام: ١١] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [فاطر: ٤٤]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ [غافر: ٢١]. ونفهم من الآيات الكريمة أن السير إذا قصد منه الاعتبار والايقاز فهو عبادة يؤجر عليها المسلم.

ثانياً: إن السير في الأرض لا ينبغي أن يكون للهو واللعب، ولا يجوز أن ترتكب فيه المحرمات، وفي الحديث الذي أخرجه رزين: «أوصاني ربي بتسع خصال أوصيكم بها: أوصاني بالاخلاص في السر والعلن والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وإن أصل من قطعني، واعطي من حرمني، واعفو عمن ظلمني، وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً، ونظري عبدة» والشاهد في هذه الوصية الأخيرة هو أن يكون نظرك في ملكوت الله في سيرك وإقامتك من أجل الاعتبار والموعظة؛ ذلكم لأن الصمت إذا لم يكن فكر، فهو سهو، والنطق إذا لم يكن فيه ذكر فهو لغو، والنظر إذا لم يكن فيه عبدة فهو لهو، وحري بالمسلم أن يتجنب السهو واللغو واللهو.

وهذا ما تفهمه من الحديث السابق، «إلا أن تكونوا باكين»، وهذا الحديث عام يشمل جميع الأمكنة والآثار، كأثار جرش وبعلبك والبتراء، التي جعلها الناس اليوم أمكنة للهو

(١) أخرجهما البخاري في كتاب الانبياء باب قوله وإلى ثمود أخاهم صالحا رق ١٩، حديث رقم ٣٢٠١-٣١٩٨. (١٢٣٦/٣).

وأقاموا فيها المهرجانات، التي تبدد فيها الأموال، وتنهك فيها الحرمات، تستساغ فيها المعصية باسم الفن، والإسلام كما نعلم لا يحارب الفن النظيف.

بعد هذه التوطئة أقول: إن سيدنا رسول الله ﷺ - وقد أخبر الناس عندما مروا بمساكن ثمود علم ذلك من الوحي، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤]. ولا نملك الدليل القاطع على أن البحر الميت كان بالتحديد مساكن قوم لوط، وعلى هذا فنحن لا نحرم الذهاب إلى البحر الميت، إذا لم تنهك الحرمات من جهة، وإذا كان في ذلك ذكرى وموعظة من جهة ثانية، وهذا الحكم ليس للبحر الميت وحده، بل هو لجميع الآثار الدارسة التي جعل الناس منها معالم تاريخية، وما أحوجنا أن نتذكر قول الله ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذَرْنَا أَوْ لَمْ يَأْتِ أَجَلٌ قَرِيبٌ يُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفَئِسْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَبَبَّيْحَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لَازُولٌ مِّنْهُ الْجَبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٤-٤٦] فما أجدرنا ان نجعل السياحة رحلة عملية؛ نزهة للروح والعقل، لناخذ من الماضي ما نتزود به لحاضرنا ومستقبلنا، ولنجعل السياحة مما يستوجب الثناء كما جاء في كتاب الله تعالى حيث ورد هذا الوصف ثناء من الله فقال سبحانه ﴿الَّتِي تَبُورُ الْعِيدُ وَكَرَّ الْحِمْدُ وَالسَّيْحُورُ الرَّكْعُورُ السَّجْدُورُ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُورُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]. وفي قوله «مُسْلِمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ قِنْنَتٍ تَبْنِي عِيدَاتٍ سَيَحْتَرِبُنَّ وَأَبْكَارًا» [التحریم: ٥].

القضية الثانية: كثير من الناس ينسبون الذين يفعلون هذه الفاحشه الشنعة، فيقولون فلان لوطي، وقوم لوطيون. ولا أرى هذه النسبة مقبولة، فاللوطي نسبة إلى لوط، كما أن المحمدي والابراهيمي نسبة إلى محمد وإبراهيم، والهاشمي نسبة إلى هاشم، فالصحيح أن يقال في نسبة أولئك: الذين يفعلون فعلة قوم لوط، بدلاً من أن يقال لوطيون.

فلتتعلم من القصة في كتاب الله الدقة في القول، والموضوعية في الحديث، فذلك خير لو كانوا يعلمون.

## الفصل العاشر

### قصة يوسف عليه الصلاة والسلام

إذا كان صحيحاً ما يقوله المحدثون من الأدباء وهم يتحدثون عن القصة في الأدب فيقسمونها إلى أقصوصة وقصة متوسطة وقصة طويلة يسمونها الرواية فإن قصة يوسف عليه الصلاة والسلام هي من النوع الأخير فليس في قصص القرآن ما هو أوسع منها دائرة وأكثر منها أحداثاً اختصت بها سورة واحدة.

لقد ذكرت هذه القصة في سورة سميت سورة يوسف وهذا برهان ساطع على إعجاز هذا القرآن، فالله تبارك وتعالى قد يذكر القصة موزعة على سور متعددة وقد يذكرها في سورة واحدة، ولو حاول البشر أيّاً كانت قدرتهم الأدبية أن يصنعوا هذا الصنيع لوجدت أمارات الضعف وركاكة الأسلوب بادية في عملهم، ولكنه الكتاب الكريم.

وقصة يوسف، ونحن نعلم في رحابها ونفياً ظلالها سنجدها قصة مليئة بالعبر والدروس دروس الحياة في كل مجالاتها؛ سنجد فيها دروس التربية والأخلاق والاجتماع والتاريخ والسياسة والاقتصاد ومجالات أخرى، كما سنجد فيها الشخصيات والأحداث والمفاجآت، وهذه القصة لم تُذكر إلا في هذه السورة الكريمة، وقد قلتُ في مقدّمة هذا الكتاب إنّ القصص ذا الصلة بالدعوة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأقوامهم وما لاقوا من أولئك الأقوام من إعراض وعنت ذكر مرات كثيرة في كتاب الله، أمّا القصص الذي ليس كذلك فكان ذكره أقلّ فقد يُذكر مرّة أو مرتين وإضافة إلى هذا يرى بعض الكاتبين أن قصة يوسف لم تُذكر إلا مرّة واحدة لما فيها من مراودة امرأة العزيز. وأقول إنّ فيها كذلك إستعصام يوسف وإبائه وهذا من شأنه أن يذكر كثيراً. وقد ذكر الحديث عن قوم لوط على فحش صنيعهم، في أكثر من سورة، والذي يبدو لي أن ذكرها في سورة واحدة لما قلته من قبل، ولقد كانت القصة حلقات متصلاً بعضها ببعض

وسأحاول إن شاء الله أن أبرز ما استطعت مما يكرمني الله به من عبر وعظات ودروس وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه انيب.

بدأت سورة يوسف عليه السلام بالحروف المقطعة (الر)، وبذكر الكتاب المبين الذي أنزله الله قرآنًا عربيًا لعلمهم يعقلون.

وتبدأ القصة بقول الله تبارك وتعالى ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ﴾ [يوسف: ٣] إنه أحسن القصص انتقاء واختياراً، وإنه أحسن القصص نظماً وترتيباً، إنه أحسن القصص شهادة صدق وبرهان حق، وإنه أحسن القصص حكماً وأحكاماً.

ويبدأ الحديث عن قصة يوسف ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ [يوسف: ٤] وسنجعل القصة في حلقات كما يبدو لنا، تبدأ الحلقة الأولى من هذه الآية الكريمة، وتبدأ الحلقة الثانية بقوله سبحانه ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾ [يوسف: ٢١]، وتبدأ الحلقة الثالثة من قول سبحانه ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴾ [يوسف: ٣٦] أما الحلقة الرابعة فبدايتها قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَنَعُ بَقَرَاتٍ ﴾ [يوسف: ٤٣] أما الحلقة الخامسة فتبدأ من قوله سبحانه ﴿ وَجَاءَ إِخْوَهُ ﴾ [يوسف: ٥٨] وتبدأ الحلقة السادسة بقوله سبحانه ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ [يوسف: ٦٩] وتبدأ الحلقة السابعة بقوله سبحانه ﴿ يَكْبِتُ أَذْهُبُوا ﴾ [يوسف: ٨٧].

الحلقة الأولى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ . إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَأْتِ بِإِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رَأْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِنْزِهِمْ وَإِشْقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْمُتَذَكِّرِينَ . إِذْ قَالَ لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَانَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .

أَقْنُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَيَّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْنُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ بَلْنَقْطُهُ بَعْضَ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ . أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ . قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ . فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَتِّتَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ . قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ وَيَرْكَعُنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَآكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ . وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ . وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَآسْرُهُ يُضَعُّهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ . ﴿

تبدأ الحلقة الأولى برؤيا يوسف التي قصّها على أبيه عليهما الصلاة والسلام ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ . ويدرك الأب النبي وقد سمع ما سمع أنّ ابنه سيكون له شأن عظيم، ولم يخف تأويل هذه الرؤيا على يعقوب النبي عليه السلام، فهي واضحة المعنى، ليست بعيدة التأويل . أليس أبناؤه غير يوسف أحد عشر، وإذا كانوا كواكب أليس من شأنه أن يكون هو وزوجه الشمس والقمر لذا وجدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام يطلب من ابنه ألاّ يقص على إخوته هذه الرؤيا حتى لا يدبروا له أمر سوء، ويغرس في نفس ابنه كي يحذره من كل ما يؤذيه ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥] . وفيها إرشاد ليوسف عليه السلام كذلك ليحذر مكائد الشيطان ويطلع الأب الابن على ما في نفسه، وبما تستشرفه نفسه من أن الله سيحبّبه ويعلمه من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحق ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦] . والاجتباء هو النبوة التي تقتضي التعليم، وفيها اتمام النعمة، وذكره بأبويه إبراهيم وإسحق عليهما السلام،

ولم يذكر يعقوب عليه السلام نفسه، ذلك لعظم شأنهما أعني إبراهيم وإسحق عليهما السلام. وفي هذه الآيات الثلاث تلخيص لما سيكون ليوسف في البداية والنهاية. ألم تكن النهاية إتمام نعمة ربه عليه؟ ثم تبدأ الآيات بالتفصيل، فتبين أن أمر يوسف واخوته كان حديثاً لكثير من الناس، تتوق أنفسهم للعلم بأحوالهم، ويتشوقون لمعرفة أخبارهم، وما فيها من أحداث متلونة الجوانب، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: ٧] ما أبدع النظم لقد كانت هذه الآية القصيرة المدخل للتفصيل بعد الإجمال، فها هو يعقوب عليه السلام بعد أن سمع من ابنه رؤياه، بدأ يخصّه بعطفه، ويوليّه رعايته وعنايته، ولم يكن ذلك خافياً على الإخوة، كيف وهم يعيشون في بيت واحد، ولا يبقى هذا حبساً في نفس كل واحد منهم، وهاهم يجلسون يثئون الشكوى، يتشاورون في أمرهم ﴿لِيُؤْسَفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَمَا مَنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨] ولا يرضون ذلك من أبيهم، فيتجرؤون على أن يؤكدوا خطأه ﴿إِنَّا نَأْتَاكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ولكن ماذا يفعلون؟ لا بد من أن يتخلصوا من يوسف إما بالقتل، وإما بشيء آخر، فإذا فعلوا ذلك صفت حياتهم مع أبيهم، واستقر أمرهم فيما بعد، ولكن أليسوا من بيت النبوة، أليس القتل جريمة تحذر منها الديانات كلها؟ أليس فيهم رجل رشيد؟ ويبرز أحدهم لعله أكبرهم يصدّهم عما قالوه، هذه المحاورة تبرز في الآيتين ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ إِلَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾. قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةَ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ يَلْقَظُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ويجد هذا الرأي صدقاً في النفوس، وما عليهم الآن إلا أن يسعوا لينفذوا هذا الأمر، وأتى لهم ذلك، فهم يرون من أبيهم الحرص كل الحرص، على أن يجنب يوسف الاختلاط الزائد بهم. والأب من قبل يستشرف موقف أولاده من أخيههم ولكن لا بد أن ينتهي هذا الصمت. ويصارحون أباهم بما يشعرون به سائلين لم لا يأمنهم على يوسف وهو أخوهم يحبون له الخير والنصح؟ وها هم يخرجون كل يوم يرتعون ويلعبون ويرعون أغنامهم، فلم يحرم يوسف؟ وهم مصممون على حفظه من كل أذى.



ويسمع الأب كلامهم ولكنه لا يستطيع أن يخفي ما في نفسه، إنه يخاف أن يغفلوا عنه، فيحدث له سوء وربما يأكله الذئب، ويحاولون أن يطمئنوا أباهم إلى أن ذلك لن يكون. كيف وهم عصبية؟ إنهم عشرة رجال. إنهم إذاً لبعيدون عن كل خير. لن يحصل له سوء، ويجيبهم الأب على الرغم مما يتفاعل في نفسه، ويدركون أنهم قد بلغوا هدفهم، ويذهبون بيوسف عليه الصلاة والسلام. وتعود فكرة قتله من جديد، ولكن لا يطول هذا الاختلاف، ويجمعون بعد ذلك أن يجعلوه في غيابة الجب، وقلت هذا أخذاً من الآية الكريمة ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ [يوسف: ١٥] لأن الإجماع لا يكون إلا بعد اختلاف خصوصاً في مثل هذا الأمر، وفي هذا الخضم، خضم الاخوة الذين يظنون أن كل الأحداث تصب فيما يريدون، تبرز العناية الإلهية أمراً حتى توقن النفوس، التي غرّها ما هي فيه من غفلة، وما تظن بها من قدرة، فنقرأ قوله سبحانه في هذه الأثناء التي ليست في الظاهر لمصلحة يوسف ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَيْتَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥] ولعل هذا الوحي كان ليوسف لا لأبيه، ولا شك أن هذا الوحي سيكون الأساس الذي يحتفظ به يوسف فيما يمرّ به من أزمات، وما يعانيه من ضيق وما أجمل قوله سبحانه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ نعم لقد كان هذا الوحي المطمئن ليوسف عليه الصلاة والسلام، وهم سادرون في غيهم، مصممون على إنفاذ تأمرهم، ويطوي القرآن كثيراً من الأحداث في سورة يوسف: ويلقونه في الجب وتغرب الشمس، ويغيب الشفق ويدخل الليل، ويختارون هذا الوقت للمجيء عند أبيهم؛ لأنه وقت لا يمكن فيه البحث عن يوسف، لذا يحرص القرآن الكريم على إبرازه ﴿عِشَاءً﴾ يجيئون يبكون والبكاء في كثير من الأحيان لا يعبر عما في النفس، بل يكون لهدف التعمية.

وتعبير القرآن بالجملة الفعلية ﴿يَبْكُونَ﴾ له دلالة وإيحاءاته، والجملة الفعلية تدل على الحدوث، فهو بكاء ليس فيه حزن؛ لأنه ليس من القلب، بل غايته أن يخدعوا أباهم. هذا ما تعطيه الجملة الفعلية يبكون، ويبينون أنهم ذهبوا يستبقون وتركوا يوسف عند المتاع،

لأنه لا يقوى مثلهم على الاستباق من جهة وليحفظ المتاع من جهة أخرى، ولكن كان ما كان فأكله الذئب. وهذا القول الذي قالوه يشعرون أنه لن يغني عنهم شيئاً، لأنهم لن يقنعوا أباهم بهذا حتى لو كانوا صادقين. وحتى تكمل المؤامرة يجيئون على قميصه بدم ليكون برهاناً على صدقهم، ويصفه القرآن بأنه ﴿يَدْمِرُ كَذِبٌ﴾ وهنا يظهر القرآن الكريم حكمة يعقوب عليه السلام وتحمله وتصبره وشفافيته. فيعلن أن الأمر ليس كما قالوا ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ١٨] وبـل حرف إضراب كما يقول اللغويون يقصد به ابطال ما قبله. فيقول يعقوب لا ليس الأمر كما قلتم بل سولت لكم انفسكم أمراً. أما هو فسيصبر الصبر الجميل، وهو الذي لا يشكو صاحبه إلاّ الله وحده، وأنه يستعين بالله على ما دبروه، وتترك الآيات هذا المشهد وترجع للحديث عما كان ليوسف. ويبين القرآن الكريم ذلك بقوله ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩] وهم جماعة من المسافرين، وللمسافرين مواقف ومحطات يستريحون فيها، وغالباً ما تكون قريبة من الماء ليشربوا، ويسقوا دوابهم التي يسرون عليها ويرسل أولئك واردهم ليأتيهم بالماء، ويدلي الدلو ويرفعه لكن إن فيه لثقلاً ليس هو الماء، ويمسك يوسف بالدلو، ويخرج من البئر لأن الإقامة في البئر لا يقوى عليها مثله، ويصبح صاحب الدلو ﴿يَنْبُشْرِي هَذَا غُلْمٌ﴾ ويضمونه إلى بضاعتهم التي يريدون بيعها، والله وحده أعلم بما يعملون.

ويبيعونه بثمن بخس يبينه القرآن بأنه ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ وأكثر المفسرون القول في عددها، ولو كان في ذلك خيرٌ لبينه الله تعالى، وكانوا فيه من الزاهدين لأنهم يودون ان يتخلصوا منه. ويقول بعض المفسرين إن الذين باعوه هم اخوته. وفي ذلك بعد ما إخاله يتفق مع القرآن الكريم.

وبهذا تنتهي الحلقة الأولى، لتبدأ الحلقة الثانية، وقبل ان نتجاوزها نشير إلى درس له شأنه وخطره في التربية متصل بالآباء والأبناء.

## دروس هذه الحلقة:

إن إخوة يوسف فعلوا ذلك لما رأوه من معاملة أبيهم وتفضيله يوسف عليهم، وهي من القضايا التي تغرس في الأسرة البغض والكراهية وتقطع الأواصر، وما نطن إلا أن الآيات الكريمة كانت تهدف إلى تقرير هذه الحقيقة، وهي تعليم الآباء أن لا يشعروا الأبناء بتفضيل أحد على أحد، ونجد سيدنا رسول الله ﷺ يؤكد هذه القضية في أحاديثه وأحكامه فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «أن أباه وهبه بستاناً وأن أمه أعجبها أن يشهد النبي ﷺ على ذلك فأخذته أبوه وقال يا رسول الله: إني نحت ابني هذا بستاناً وإن أمه أعجبها أن تشهدك على ذلك ويقول الرسول الكريم ألك غيره؟ قال نعم. قال: أعطيتهم كلهم مثل ما أعطيته؟ قال: لا فيقول النبي الكريم: أرجعه - أي أرجع ما أعطيته له - فإني لا أشهد على جور، ثم يقول ﷺ: اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»<sup>(١)</sup>.

ولا بدّ من التنبيه هنا على أن الآباء ليسوا كلهم مثل يعقوب عليه السلام ولا الأبناء كلهم مثل يوسف عليه السلام، فيعقوب عليه السلام نبيّ قد آتاه الله من العلم ما يخص به أنبياءه، ولقد علمه الله أن يوسف عليه السلام سيكون له شأن ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] ولقد كان هذا دأب يعقوب فحتى في أحلك الظروف وأشدّها قسوة كان يدرك أن لابنه شأنًا.

ألم يقصّ علينا القرآن الكريم عن يعقوب عليه السلام وهو يعاني من الحزن والفرقة قوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣] وقوله وقد ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم: ﴿يَبْقَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وقوله وقد عاد الركب من مصر ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الهبات حديث رقم ١٦٢٤ / شرح النووي على مسلم ٦٨/١١ - ٦٩ طبع مصر.

أقول: وعلى الرغم من أنّ هذا الحبّ والتفضيل الذي كان مبنياً على أسس وراء العاطفة فكان له ما يسوّغه قد أحدث في نفوس الإخوة ما أحدث، فما بالنا إذا كان هذا التفضيل عاطفياً فحسب؟ .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَانًا يُوَسِّفُ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَرَوَدَتْهُ الْمَتَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ؕ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِينَ . وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ . ﴿ وَقَالَ يَسُوفاً فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيَسْجُنَنَّهُ فَحَىٰ حِينٍ . ﴿

هذه الحلقة في حياة الكريم ابن الكرماء. الصديق ابن الصديقين هي أكثر الحلقات خطراً وأشدّها صعوبة، وأقساها امتحاناً، وأعظمها منّة فلئن ابتلي في الحلقة الأولى بتشريده الأسري والنفسي، فلقد كان ابتلاؤه في هذه الحلقة من حياته للجانب الروحي والخلقي نتيجة الجمال الخلقي، ونفهم من الآية الكريمة أن يوسف عليه الصلاة والسلام بيع في مصر وذلك يفهم من قوله سبحانه ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾ [يوسف: ٢١] والقضية التي يجب أن نقف عندها، ما قاله هذا الرجل لامرأته ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] وهذه العبارات تذكرنا بما قالته امرأة فرعون من بعد يوسف لفرعون ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

نحن نعلم أن الخدم ليس لهم ذلك الشأن والتقدير عند السادة، فكيف إذا كانوا عبيداً أرقاء؟ فلم هذا الاحتفاء من العزيز السيّد بهذا الفتى؟ لا بدّ أنه تفرس في يوسف ﷺ، فرأى فيه من الصفات، ما حمّله على أن يحبّه ويجله، فيكون حب يوسف عليه السلام قد دخل إلى قلبه قبل أن يدخل إلى قلب زوجته، وها هو يطلب من امرأته أن تيسر له سبل الراحة الجسميّة والنفسية، فلا تكلفه ما لا يطيق، ولا تسمعه ما لا يرضى، وتترفق في معاملته. ويفصح الزوج ﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١] ويظهر أنهما كانا لا يرزقان الأولاد لعقم في أحدهما، ونترك قول العزيز لامراته لنستمع التعقيب الرباني. وفي قصة يوسف عليه السلام تعقيبات ربانية كثيرة. مرّ بعضها من قبل. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنِتْنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا﴾ [يوسف: ١٥]. وسيمر غيرها فيما بعد. هذا التعقيب قوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

مثلاً نجينا يوسف من الجب فإننا سنمكن له في الأرض أي نجعله ذا مكانة، تهيء له أسباب الرخاء والخير، وننزله المنزلة الرفيعة السامية، هذا من حيث الأمور الدنيوية، وستزيده شيئاً آخر وهو العلم «ونعلمه من تأويل الأحاديث». وهذه التي بشر بها يوسف عليه السلام أبوه من قبل.

وقوله سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ ذكرت مرتين، المرة الأولى هنا. وذلك بعد أن أراد إخوته أن يزيلوه عن ظاهر هذه الأرض فألقوه في غيابة الجب. والمرة الثانية بعد أن بدا للذوي المرأة أن يحولوا بينه وبين رحابة الحياه وسعة الأرض إلى غياهب السجن. فانظروا أرشدني الله وإياكم إلى التدبير الرباني والإحكام القرآني، حيث كان التعقيب على هاتين كلتيهما. أعني اخراج يوسف ﷺ من غيابة الجب واخراجه من غياهب السجن بهذه العبارة القرآنية ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلا أن النعمة التي ذكرت بعد الجملة الأولى ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وذلك للحاجة الماسة إليها، وكان تعقيقه بعد الجملة الثانية التي ستحدث عنها فيما بعد إن شاء الله ﴿يَتَّبِعُوا مَنَافَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦] والله غالب على أمره، وصدق الله، فكل ما في هذا الكون مغلوب له سبحانه، فكل ما قدره نافذ لا محالة «ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» وصدق رسول الله ﷺ وتختتم الآية بهذه الجملة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهي خاتمة للآية لن يصلح غيرها في مكانها. إنها خاتمة تصلح تعقياً على ما مضى، وتبصيراً لما سيأتي ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولو كان يعلم إخوة يوسف ما يخبئه الله لهم في قدره. ولو كانت تعلم امرأة العزيز شيئاً من العواقب لكان الأمر على غير ما فعلوه جميعاً. وصدق الله ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

وبعد هذا التعقيب ترجع الآيات لتتحدث عن يوسف عليه السلام. يوسف الذي لم يبلغ أشده بعد، أكرمه الله بما يتناسب مع هذه المرحلة من حياته، وما يتسق مع وضعه الجديد فاتاه الله حكماً وعلماً والحكم هو فصل القول والإصابة في العمل ليجتنب الهوى، والعلم والمعرفة ليجتنب الجهل، وذلكم جزاء الله لمن علم الله إخلاصهم في عبادته، وخشيتهم له، وحياءهم منه ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وما أجمل تعقيب الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٦٠].

﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣] لم يبين القرآن الكريم المدة التي مكثها يوسف عليه السلام في بيت العزيز قبل أن يبلغ أشده، ولن نعتمد الروايات التي ذكرت في كتب اليهود ولكن الذي نرجحه أنها كانت بضع سنين، لأنه حينما أُلقي عليه الصلاة والسلام في الحب ما كان ليزيد عمره على بضع سنين. ولقد عرفت امرأة العزيز متى تحكم الخطة التي تُمتي بها نفسها وكيف تُحكمها. أما الزمن فيحدثنا القرآن الكريم عنه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: ٢٢] وأما كيف تحكم الخطة فهذا ما حدثنا عنه الآيات الكريمة ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ الآيات.

والرؤد: التردد في فعل الشيء بمعنى معاودته مرة بعد مرة. والرائد: الذي يرسله القوم لبحث عن الكلاء. وفي المثل: «إن الرائد لا يكذب أهله». ومن هذا المعنى جاءت الإرادة، والمرادة بين اثنين إرادة أحدهما ما لا يريده الآخر: ﴿قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ [يوسف: ٦١] ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١] فهم يودون شيئاً لا يوده أبوهم، وكذلك امرأة العزيز. ولقد كان التعبير القرآني محكماً غاية الإحكام يدلنا على ذلك هذا النظم البديع. وأول ما يبادرنا هذا الاسم الموصول وصلته ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾.

وهذه المحاولة من امرأة العزيز التي عاشتها رداً من الزمن وتود الآن وقد بلغ الأمر بها مبلغه أن تُحكم الخطة إحكاماً بحيث لا تترك ثغرة إلا وتسدها وما هي المحاولة الثانية بعد قوله ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ وهي في قوله سبحانه ﴿وَعَلَّقَتْ﴾ وهذه الصيغة صيغة التضعيف تنبئنا عما يهيمن على نفسها، وليس الإعجاز النفسي إلا هذا أي تصوير ما في النفس، فلم يقل مثلاً «أغلقت» أو «سدت».

وماذا بعد هاتين المحاولتين؟ لم يبق إلا تلکم الصراحة المكشوفة التي تشبه الجنون إن لم تكنه، وهي في قوله تعالى ﴿وَقَالَتْ هَيْت لَكَ﴾ هلم، فليس هناك مجال بعد الآن. وما نشك أنها ما كانت تنتظر من يوسف عليه الصلاة والسلام إلا أن يقبل نهماً كما يقبل السبع الجائع على فريسته، ولكن الإنسان عدو لما يجهل، ولقد جهلت السيدة

العزيزة ذات الحب العام أنها مهما بلغ بها الحب فإن هناك حباً آخر وهو حب يوسف عليه السلام لربه تعالى، ولذلك نجد يوسف عليه السلام ردَّ على محاولاتها الثلاث بقواطع ثلاث: أما أولاً فبقوله ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ونلاحظ هذا الأدب العظيم من الصديق الكريم حيث قال ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً أي ألجأ إليه سبحانه. هذا الأدب والتوكل حيث لم يقل ﴿أعوذ بالله منك﴾ كما قالت العذراء البتول ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] وما أعظم الفرق بين العبارتين.

وأما ثانياً فبقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]. ويذهب بعض المفسرين إلى أنه يعني العزيز الذي قال لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وتكون كلمة الرب هنا على ما عهد في ذلك المجتمع من قول العبد لسيده (ربي)، ويرى آخرون أنه يعني بقوله «ربه» الذي خلقه وسواه، ويبدو لي أن الجمع بين القولين ممكن، حيث يكون معنى الآية ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ فهيأ لي الإقامة في هذا البيت الذي لقيت فيه كل تكريم من سيدي وسيدك، وأما ثالثاً فبقوله ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وتجاوز الحد ظلم وجحد النعمة ظلم، وتُصدِّم المرأة، ولئن كانت أنثى وهي تدل بنفسها شكلاً وغنجاً فإنها بعدما سمعت وكان من حقها بعد الذي سمعته أن ترعوي وتخدم ثورتها في نفسها ويتلاشى شبقها - ولكنها بعدما سمعت ما سمعته تحولت إلى حيوان كاسر شرس عقور، فهذا هي تهم به، ويوسف عليه الصلاة والسلام لم تكن فيه عنة ولم يكن خالياً من فحولة الرجال، فلم لا يمر مثل هذا الفكر على نفسه؟ وهنا تبين العناية الإلهية أنه أكرم ببرهان ربه ليصرف الله عنه السوء والفحشاء لأنه من عباده المخلصين.

ويحاول يوسف الهرب ليخرج من الباب، ولكنها - وقد عَزَمَت على ما أرادت وركبت متن الغواية - تحاول أن تسبقه إلى الباب فتقدِّ قميصه من دبر، والقَدُّ هو الشق طولاً والقطُّ هو الشق عرضاً، ويبدو أنها تبعته فَشَقَّتْ قميصه شقاً طويلاً. وهنا - والله الحكمة - يصل في هذه اللحظات الحرجة صاحب البيت ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، وتبادره القول ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ دون أن تبين له هذا السوء



وتستعطفه بهذه الكلمة «بأهلك». ولكن يوسف عليه الصلاة والسلام لا يجد بُدّاً من أن يقول كلمته الصريحة ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ أي لست أنا الذي أردتُ السوء، وهذا يُفهم من قوله ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ حيث ذكر الضمير العائد عليها مرتين. ويطوي القرآن بعض ما كان، وهذا كثير في سورة يوسف. ولا ندرى ماذا كان بين الثلاثة وكيف جاء الشاهد فيما بعد. إنّ القرآن الكريم يطوي ما يتم المعنى بدونه.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ويظهر أنّ هذا الشاهد كان من ذوي الحكمة والفصاحة والعقل، وليس صبيّاً في المهد كما يقول بعضهم، حيث بنى شهادته على خبرة ومعرفة ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦].

ويتبين أن القميص لم يُقدَّ من قبل إنما قُدَّ من دبر. وهنا وبكلّ مرارة وألم يقول الزوج كلماته التي تتلعثم في فمه ﴿إِنَّهُمْ مِّنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ ويطلب من يوسف أن يُغَيِّب هذا الحديث وينصحها أن تستغفر لذنبيها ﴿إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾. نعم الخاطئين ولم يقل «المخطئين» لأن المخطيء من يحدث منه الخطأ عن غير قصد. أمّا الذي يتعمد الإساءة فهو الخاطيء. قال تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٧] وقال تعالى: ﴿نَاصِيئَتِهِ كَذِبٌ خَاطِئَةٌ﴾ [العلق: ١٦]. ولقد اختلف الناس كثيراً في معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]. اختلفوا في مقامين اثنين:

أولاً: اختلفوا في معنى الهم.

ثانياً: اختلفوا في المراد من «برهان ربه».

أمّا الهم فقد ذهبوا فيه مذاهب مختلفة: قال قائل -ويا ليته لم يُقَلَّ- إنّ يوسف قد همَّ بفعل ما طُلب منه وأعدَّ العدة لهذا، لكنّه امتنع على الرغم منه، لأنه رأى ما يخيفه وهو برهان ربه.

وقال قائل إن يوسف همّ بها ليضربها، فكان همّه مختلفاً عن همّها وعجيب أن هذا القول قد ذهب إليه صاحب المنار -رحمه الله- محاولاً أن يستدل له من اللغة وغيرها ولكنه لن يتم له ما أراد.

وقال آخرون إن يوسف لم يحدث منه همٌّ لأنهم وقفوا عند قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وابتدأوا بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾. والمعنى عندهم: «لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها».

وهناك قولٌ رابعٌ وهو أن يوسف عليه الصلاة والسلام حدث منه همٌّ، ولكن هذا الهمّ ليس عزمًا، وهو ممّا لا يؤاخذ الله عليه، ويقول هؤلاء إن الفعل قبل أن يخرج يمرّ بمراحل خمسٍ في النفس: الهاجس، والخطر، وحديث النفس، والهمّ، والعزم، والذي يحاسب الله عليه هو العزم فحسب، ويقول أصحاب هذا الرأي إن هذا يدلّ على عظمة يوسف عليه السلام حيث استطاع أن يكبح جماح الشهوة في هذا الطرف العصيب، وهو درس اراد الله سبحانه وتعالى أن يتعلّمه الشباب الذين هم مثل يوسف عليه السلام ويتعرّضون لمثل ما تعرّض له. وهذا قول ذهب إليه كثير من المحقّقين وهو قولٌ يتفق مع منطق الأشياء. أمّا اختلافهم في (برهان ربه) فقد ذهبوا فيه مذاهب كثيرة جدّاً جلّها لا يتفق مع ما أكرم الله به يوسف عليه الصلاة والسلام فمن قائل إن الأبواب قد فُتّحت ومن قائل إنّه رأى جبريل يحذّره، ومن قائل إنّه رأى أباه ينذره، ومن قائل إنها نُزعتْ منه الشهوة، وكلّها أقوالٌ -كما قلتُ- لا تتفق لمن آتاه الله حكماً وعِلْماً. إنما برهان ربه ذلكم النور الذي ملأ الله به قلبه فانبثق عنه الحبّ والخوف والرجاء. وهذا الذي يتفق مع معنى البرهان الوارد في كتاب الله ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤] ذلكم هو برهان الله الذي أكرم الله به يوسف عليه السلام فصرف عنه السوء وهو الصبوة والفحشاء وهي طاعة المرأة، ﴿إِنَّكُمْ مِّنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِّينَ﴾ [يوسف: ٢٤] بفتح اللام أي ممّن استخلصهم الله تبارك وتعالى وهذه شهادة من الله

والله أكبر شهادة، حتى إن إبليس اللعين شهد لأولئك المُخلصين حيث اعترف بأنه لن يقدر على إغوائهم.

وقد أعجبني كلامٌ جيد طيّب للكاتب الإسلامي الذي وقف قلمه على الدفاع عن العربية والإسلام الأستاذ مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله وأجزل مثوبته- أنقله لك لتمتع نفسك وفكرك بقراءته<sup>(١)</sup>.

عَجِبَا للحب! هذه مِلَكَةٌ تعشق فتاها الذي ابتاعه زوجها بثمانٍ بَخْسٍ؛ ولكن أين مُلْكُهَا وسَطْوَةُ مُلْكِهَا في تصوير الآية الكريمة؟ لم تزد الآية على أن قالت: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي﴾ و«التي» هذه كلمة تدل على كل امرأة كائنةً من كانت؛ فلم يَبْقَ على الحب مُلْكٌ ولا مَنْزِلَةٌ؛ وزالتِ المِلَكَةُ من الأنثى!

وأعَجَبُ من هذا كلمة ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ وهي بصيغتها المفردة حكاية طويلة تشير إلى أن هذه المرأة جعلت تعترض يوسف بألوان من أنوثتها لَوْ نِ بعدلون؛ ذاهبةً إلى فن، راجعةً من فن؛ لأن الكلمة مأخوذة من رَوَدَا الإبل في مشيتها؛ تذهب وتجيء في رَفَقٍ. وهذا يُصَوِّرُ حَيَرَةَ المرأة العاشقة، واضطرابها في حبها؛ ومحاولتها أن تنفَذَ إلى غايتها؛ كما يصوِّرُ كبرياء الأنثى إذ تختالُ وترفُقُ في عرض ضعفها الطبيعي كأنما الكبرياء شيءٌ آخر غير طبيعتها؛ فمهما تنهالك على مَنْ تحب وجَبَ أن يكون لهذا «الشيء الآخر» مَظْهَرٌ امتناع أو مَظْهَرٌ تحيُّر أو مَظْهَرٌ اضطراب، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعَةً ماضيةً مصممةً.

ثم قال: ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ ليدل على أنها لا تطمع فيه، ولكن في طبيعته البشرية، فهي تعرض ما تعرض لهذه الطبيعة وحدها، وكأن الآية مصرحةٌ في أدبٍ سامٍ كلَّ السمو، منزّه غاية التزويه بما معناه: «إن المرأة بذلت كل ما تستطيع في إغرائه وتَصْبِيته،

---

(١) انظر وحي القلم: ١٠٤-١٠٦.

مقبلةً عليه ومتدللةً ومتبذلةً ومُنصَّبةً من كلِّ جهة، بما في جسمها وجمالها على طبيعته البشرية، وعارضة كل ذلك عرض امرأةٍ خلعت - أول ما خلعت - أمام عينيه ثوبَ المُلكِ» .

ثم قال: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ ولم يقل «أغلقت» وهذا يُشعر أنها لما يئست، ورأت منه محاولة الانصراف، أسرعَتْ في ثورةٍ نفسها مهتاجةً تتخيل القفلَ الواحدَ أقفالاً عدّةً، وتجري من باب إلى باب، وتضطربُ يدها في الأغلاق، كأنما تحاول سد الأبواب لا إغلاقها فقط .

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ ومعناها في هذا الموقف أن اليأس قد دفع بهذه المرأة إلى آخر حدوده، فانتَهت إلى حالة من الجنون بفكرتها الشهوانية، ولم تعد لا ملكةً ولا امرأةً، بل أنوثة حيوانية صِرْفَة، متكشفة مصرّحة، كما تكون أنثى الحيوان في أشدّ احتياجاتها وغليانها .

هذه ثلاثة أطوار يترقى بعضها من بعض، وفيها طبيعة الأنوثة نازلةً من أعلاها إلى أسفلها . فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ولم يَبْقَ وراء ذلك شيءٌ تستطيعه أو تعرضه بدأت من ثمَّ عظمتُ الرجولة السامية المتمكّنة في معانيها، فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ . وهذه أسمى طريقةٍ إلى تنبيه ضمير المرأة في المرأة، إذ كان أساسُ ضميرها في كل عصر هو اليقين بالله، ومعرفة الجميل، وكرهه الظلم . ولكن هذا التنبيه المترادف ثلاث مرّات لم يكسر من نزوتها، ولم يفتأ تلك الحِدة، فإن حبّها كان قد انحصر في فكرة واحدة اجتمعت بكل أسبابها في زمن، في مكان، في رجل، فهي فكرةٌ مُحْتَبَسَة كأن الأبواب مغلقةٌ عليها أيضاً؛ ولذا بقيت المرأة ثائرةً ثورةً نفسها . وهنا يعود الأدبُ الإلهي السامي إلى تعبيره المعجز فيقول: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ كأنما يُؤمىءُ بهذه العبارة إلى أنها ترامت عليه، وتعلّقت به، والتجأت إلى وسيلتها الأخيرة، وهي لمسُ الطبيعة بالطبيعة لإلقاء الجمره في الهاشم . . . ! .

جاءت العاشقة في قضيتها ببرهان الشيطان يقذف به في آخر محاولته. وهنا ينزع يوسف عليه السلام برهان ربه كما وقع لها هي برهان شيطانها. فلولا برهان ربه لكان رجلاً من البشر في ضعفه الطبيعي.

قال أبو محمد<sup>(١)</sup>: وههنا المعجزة الكبرى، لأن الآية الكريمة تريد ألا تنفي عن يوسف عليه السلام فحولة الرجولة، حتى لا يُظنَّ به، ثم هي تريد من ذلك أن يتعلم الرجال وخاصة الشبان منهم، كيف يتسامون بهذه الرجولة فوق الشهوات، حتى في الحالة التي هي نهاية قدرة الطبيعة؛ حالة ملكة مطاعة فاتنة عاشقة مُحْتَلِكَة مُتَعَرِّضَة متكشِّفة متهالكة. هنا لا ينبغي أن يئأس الرجل، فإن الوسيلة التي تجعله لا يرى شيئاً من هذا -هي أن يرى برهان ربه.

وهذا البرهان يُؤوِّله كلُّ إنسان بما شاء، فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضُّها كلها؛ فإذا مثل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما، وأن أمانى القلب التي تهجس فيه ويظنها خافية إنما هي صوت عالٍ يسمعه الله؛ وإذا تذكر أنه سيموت ويُقَبَّر، وفكَّر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا، أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما يعمل، أو فكر في أن هذا الإثم الذي يقترِفُه الآن سيكون مَرَجَعُهُ عليه في أخته أو ابنته -إذا فكَّر في هذا ونحوه رأى برهان ربه يُطالعه فجأة، كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية، ثم ينظر فجأة فيرى برهان عَيْنَه؛ أترؤنه يتردى في الهاوية حينئذ، أم يقف دونها وينجو؟ احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام، وأكثر الموعظة، وأكثر التربية، والتي هي كالدرع في المعركة بين الرجل والمرأة والشيطان، كلمة «رأى برهان ربه» اهـ. كلام الرافعي.

---

(١) يعني عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه.

ويصل الخبر إلى النسوة، ويظهر أنهن من ذوي الشأن كذلك ويتحدث بعضهن لبعض، ونحن نعلم حديث المرأة عن المرأة ﴿أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ تَرُودُ فَنَلْهَآ عَنْ نَفْسِيهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ استولى على قلبها وكيانها، إنها موغلة في الضلال، مغرقة في الخطيئة، ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، ويصل إليها خبرهن وقولهن، ولكنها تكون أكثر منهن ذكاءً، وأشد منهن مكرًا، فتدبر لهن ما حدثنا القرآن الكريم عنه فتعد العدة لاستقبالهن، وتعد لهن المجالس الفاخرة، وفاكهة مما يتخيرن وتعطي كلاً سكيناً، لتقطع بها ما يحتاج إلى التقطيع من الطعام، ويوسف داخل البيت وما نظنه غافلاً عما يكاد له، وإلا فلماذا تطلب منه إن يخرج على النسوة ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ [يوسف: ٣١]، ويخرج من ملك حسن الظاهر، ومن الله عليه بطهارة الباطن، وتكون لحظة الذهول منهن، وقد رأين ما لم يكن لهن في الحساب، وما هي عواطفهن، وخفقات قلوبهن تبلغ مبلغاً، يذهل فيه العقل وتتناسى فيه اللياقة، فيجرحن أيديهن، وهكذا حينما تغطي العاطفة ويهيمن الهوى، وتراجع ضوابط العقول والفكر.

يا للدشة! ويا لخفقات القلب! ويا للجمال الأخاذ، ويا لشراسة العاطفة، ويا لقوة الضعف، وضعف القوة! ماذا رأين؟ رأين من استولى على قلوبهن فأكبرن طلعتته، وماذا قلن؟ ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. لقد بلغت امرأة العزيز ما تريد ولقد كان نجاحها باهراً فيما فعلت ودبرت، ولقد شعرت أن اللواتي قلن ما قلن ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ شعرت أنهن الآن يتمنين كلهن ما تمتته، لقد ظننَّ وهنَّ يَلْمُنَهَا أَنَّ يَوْسُفَ بَشَرٌ كَغَيْرِهِ، أما وقد رأينه الآن، فلم يسبق أن رأين بشراً يشبهه، فلا لوم عليها إذن، وهذا الذي دفعها، أن تهتك كل حجاب وأن تزيل كل مخبوء حتى لا يبقى هناك سر مكتوم، ولم تخفي في نفسها ما دام النسوة جميعاً، تمت كل مُقَطَّعة يدها أن تُسعد نفسها؟ فلتخبرهن إذن بكل صراحة ﴿فَذَلِكَ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ ما أجمل هذه الكلمة ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] إنها برهان العظمة، ودليل القوة «استعصم»

كان أقوى من كل شيء، أقوى من الشهوة العارمة، «استعصم» ارتفع فوق كل مظاهر ما يعجب به الناس، «استعصم» فلم يعبأ بكل مظاهر الأبهة والسلطان والترف. وهذا الترفع والتمنع لا بد أن يقابل بما يبدده، إذا كان يستعصم، ويأبى، ولا تحرك لوعات القلب له ساكناً، فلا بد له من عقاب شديد يتلاءم مع تمنعه وترفعه وتصريح امامهن بهذا العقاب ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾. هكذا ﴿ءَامُرُهُ﴾ فأنا ذات السيادة، والمقام الرفيع ﴿ءَامُرُهُ﴾ فما عليه إلا أن ينفذ الأمر، فإن لم يفعل ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ما أعظم وما أبدع التصوير وما أحكم النظم، وهل الإعجاز النفسي إلا التعبير عن كوامن النفس بحيث تصور الكلمات كل ما يجول في النفس، وهذا ما صورته هذه الكلمات ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] ولقد توعدته بنوعين من العقاب، الأول هو لها ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ والثاني ﴿وَلَيَكُونَا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾، ولعلك تلحظ أخي القارئ أن كلاً من العقابين أكد بالنون، لكن العقاب الأول أكد بنون التوكيد الثقيلة ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ وأما العقاب الثاني فأكد بنون التوكيد الخفيفة ﴿وَلَيَكُونَا﴾ وإذا قرأت الآية الكريمة أدركت الفرق بين النونين، فنون التوكيد الثقيلة مفتوحة مشددة وأما النون الخفيفة فساكنة، فإذا وقفت على نون التوكيد الثقيلة سكنتها أما إذا وقفت على النون الخفيفة، فإنك تقلبها ألفاً تقول ﴿ليكونا﴾ وكذلك قوله سبحانه ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥] وإذا وقفت عندها تقول ﴿لَنَسْفَعًا﴾، ويعد أن بينت لك الفرق بين النونين يسهل علينا الآن أن نتلمس الحكم العظيمة في اختصاص كل عقاب بما ذكر، أما السجن فعقاب ترجو أن تصل منه إلى بغيتها، وهو أمر يسير عليها، كيف لا وهي امرأة العزيز، ثم إن سجنه قد يكون سبباً في الاستجابة لها، لأن الناس يضجرون من حياة السجن، لذلك أكدته بنون التوكيد الثقيلة، أما العقاب الثاني وهو الإذلال والصغار والهوان فهو شيء لا تقدر عليه، ولن تقدر عليه كذلك، سبحانه الله إنها تقدر على سجنه ولا تقدر على هوانه وصغاره. إن السجن أمر يسير، أما هوانه وصغاره وإذلاله فأمر صعب صعب دونه فرط القتاد، وشيب الغراب. لماذا؟ لأنها تحبه، وهل سمعتم أن حبيباً يستطيع أن يذل حبيبه أو يهينه بل لا يستطيع أن يسمح

لأحد أن يذله ويهينه، لذلك أكدت العقاب الثاني بنون التوكيد الخفيفة هذان نونا التوكيد «ليسجنن» و«ليكونن» وليست هناك نون ثالثة في هذه الآية، أقول هذا، لأنني قرأت في كتاب «الوحدة الموضوعية في قصة يوسف» للدكتور حسن باجودة قوله إن النون في «ذلكن» نون التوكيد وهذا عجيب حقاً أن نخلط بين نون التوكيد ونون النسوة، ونون التوكيد كما نعلم لا تدخل إلا على بعض الأفعال، أما الأسماء فلا تدخل عليها نون التوكيد وهذه النون ليست نون التوكيد يقيناً، وهنا أطلب من الإخوة وبخاصة طلاب الدراسات الشرعية، أن تكون لهم عناية بدراسة العربية نحواً وصرفاً وبياناً.

وكان يوسف عليه الصلاة والسلام كان يستمع إلى هذا الوعيد الذي أشهدت عليه، فما كان منه إلا أن أصرّ على ما كان منه من استعصام، لكنه إن لم يشبته الله فقد يضعف عن المقاومة ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] وكان يوسف ﷺ أدرك أنه إن أطاع امرأة العزيز، فإن وراء ذلك ما وراءه ولن يقف الأمر عندها وحدها ولكن قال ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ ولم يقل «ما تدعونني إليه» ويدعونني فعل مضارع لجماعة النسوة، فهو فعل مضارع مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة ونون النسوة فاعل أمّا قولنا «الرجال يدعونني» فهو فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو فاعل، فيوسف عليه الصلاة والسلام أدرك أن الدعوة ليست من امرأة العزيز نفسها بل من النساء كلهن يشهد لهذا ما ذكره القرآن الكريم فيما بعد ﴿مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٥١].

وقد يقول قائل: ألا يدل قول يوسف ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] على أن دعوتهن كانت أمراً محبباً إليه؟ لأن «أحب» أفعل تفضيل يقتضي اشتراك أمرين في صفة وزيادة أحدهما على الآخر في تلك الصفة، فإذا قلنا «زيد أعلم من عمرو» دلّ على أنهما يشتركان في صفة العلم، لكن أحدهما زاد على صاحبه.

ونقول: إن يوسف عليه الصلاة والسلام لا يفاضل بين هذين الأمرين. إنما يدعو ربه أن يصرف عنه كيدهن ولم يسأل الله أن يسجن، وكأنه يقول: إن السجن أحب إلي من



دعوتهن حينما أرغم على شيء ولا أودّه أما إذا ترك الأمر لاختياري فأنا لن ألتي لهنّ دعوة أبداً. ولذلك سأل ربّه أن يصرف عنه كيدهن حتى لا يصبو إليهنّ، والصبوة: غلبة الهوى، والذي يصبو كأنّما يفعل فعل الصبيان، ويظهر أنّ هذا هو أصل الكلمة.

ويستجيب الله دعاء يوسف. سبحانه لا حول ولا قوة إلا به، مقاليد السموات والأرض بيده، إنّ أطاعه العبد فهو فضل منه سبحانه، وإن امتنع عن معصيته فهو بفضله منه سبحانه. وما أجمل ما جاء في الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في معنى لا حول ولا قوة إلا بالله: اللهم لا حول عن معصيتك إلا بعصمتك، ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك، فنسألك اللهم أن تحول بيننا وبين معصيتك بعصمتك وأن تقوينا على طاعتك بتوفيقك. ويظهر أن الحديث فيما كان من المرأة لم يتنه، لذا وجدنا العزيز وذويه ومعهم المرأة يتشاورون فيما بينهم، فعلى الرغم من براءة يوسف عليه السلام التي اعترفوا بها هم، والتي كانت أوضح من الشمس في رابعة النهار، وعلى الرغم من الآيات الكثيرة التي رأوها تثبت براءته عليه الصلاة والسلام على الرغم من هذا كلّ هيمنت عليهم الحمية فاتخذوا قرارهم وأجمعوا أمرهم على أن يسجنوا يوسف حتى حين إلى أن تسكن العاصفة فينسى الناس هذه القضية، وقد أقسموا على ذلك وهذا يُفهم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ جُنُئُهُ حَتَّىٰ حِينَ﴾ [يوسف: ٣٥] إذ اللّام واقعة في جواب القسم والذين اتخذوا هذا القرار هم المرأة وزوجها وذووها، وليس أزواج النساء اللواتي قطعن أيديهن كما يرى صاحب كتاب «الوحدة الموضوعية في سورة يوسف».

تلكم هي الحلقة الثانية وهي كما قلت لكم من قبل كانت أكثر الحلقات إثارة وعناء في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام.

وفي ختام هذه الحلقة -ولمن يعشقون القول المفصل في معنى همّ يوسف وما يتصل به- أحب أن أنقل صفحات من تفسير الميزان للعلامة السيّد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله حيث توسع كثيراً في هذا الموضوع ونقل أقوال المفسرين أقدمين ومحدثين

ابتداءً من الكشف إلى المنار، مع أنَّ ما ذكرته من قبل كافٍ، ولكن تنميماً للفائدة، ولأنَّ الناس ليسوا سواءً في حب الاقتضاب والإطناب، فإن كنت أيها القارئ ممن يميلون إلى التفصيل فأليك ما ذكره صاحب الميزان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّءَا بُرْهٰنَ رَبِّهٖۙ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهٗ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ اِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ﴾ [يوسف: ٢٤] التدبر البالغ في أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العاملة فيها يعطي أن نجاة يوسف منها لم تكن إلا أمراً خارقاً للعادة وواقعة هي أشبه بالرؤيا منها باليقظة.

فقد كان يوسف ﷺ رجلاً، ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً بالغاً أشده وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب، والجمال والملاحة يدعو إلى الهوى والترف، وكان مستغرقاً في النعمة وهنيء العيش محبوراً بمثوى كريم وذلك من أقوى أسباب التهوس والإتراف، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء.

وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر وهي عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف عليه السلام وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان، وقد تعرضت له ودعته إلى نفسها والصبر مع التعرض أصعب، وقد راودته هذه الفتانة وأتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحت عليه فجذبه إلى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معها أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي ربه خصه بها العزيز، وكانا في قصر زاه من قصور الملوك ذي المناظر الرائقة التي تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنيء.

وكانا في خلوة وقد غلقت الأبواب وأرخت الستور، وكان لا يأمن الشر مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانتهاك السر لأنها كانت عزيزة بيدها أسباب السر

والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كان مفتاحاً لعيش هنيء طويل، وكان يمكن ليوسف عليه السلام أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانها كالملك والعزة والمال.

فهذه أسباب وأمور هائلة لو توجهت إلى جبل لهدته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعاً إلا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب يوسف عليه السلام أو قبح الخيانة للعزير.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان في أمن منه. ولو كان بدا من ذلك شيء لكان في وسع العزيرة أن تؤوله تأويلاً كما فعلت فيما ظهر من أمر مرادوتها فكادت حتى أرضت نفس العزير إرضاء فلم يؤاخذها بشيء وقلبت العقوبة ليوسف عليه السلام حتى سجن.

وأما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عليه السلام عما هو أعظم من الزنا وأشد إثماً فإنهم كانوا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام أمثال يوسف عليه السلام فلم تمنع شرافة النسب من أن يهملوا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ويبيعوه من السيارة بيع العبيد ويشكلوا فيه أباهم يعقوب النبي ﷺ فبكى حتى ابيضت عيناه.

وأما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية والقوانين الاجتماعية إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة، وذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة، وأما لو أغفلت القوة المجرية أو فسقت فأهملت أو خفي الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حيثئذ لشيء من هذه القوانين كما ستتكلم فيه عن قريب.

فلم يكن عند يوسف ﷺ ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه إلا أصل التوحيد وهو الإيمان بالله. وإن شئت فقل المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك غيرها محلاً ولا موضع إصبع. فهذا هو ما يفيد التدبر في القصة. ولنرجع إلى متن الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَهُودُ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿[يوسف: ٢٤] لا ريب أن الآية تشير إلى وجه نجاة يوسف من هذه الغائلة، والسياق يعطي أن المراد بصرف السوء والفحشاء عنه إنجاؤه مما أريد منه وسئل بالمرادة والخلو، وإن المشار إليه بقوله: «كذلك» هو ما يشتمل عليه قوله: «أن رأى برهان ربه».

فيؤول معنى قوله: «كذلك لنصرف» إلى آخر الآية إلى أنه ﷺ لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رأى من برهان ربه، فرؤية برهان ربه هي السبب الذي صرف الله سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام.

ولازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ هو ارتكاب السوء والفحشاء، ولازم ذلك أن يكون «لولا أن رأى» الخ قيداً لقوله: «وهم بها» وذلك يقتضي أن يكون المراد بهم بها نظير همها به هو القصد إلى المعصية ويكون حينئذ همها بها داخلاً تحت الشرط، والمعنى أنه لولا أن رأى برهان ربه لهم بها وأوشك أن يرتكب فإن «لولا»، وإن كانت ملحقة بأدوات الشرط وقد منع النحاة تقدم جزائها عليها قياساً على إن الشرطية إلا أن قوله: «وهم بها» ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله: «ولقد همت به» وهو في معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا: والله لأضربنه إن يضربني والمعنى: والله إن يضربني أضربه.

ومعنى الآية: والله لقد همت به والله لولا أن رأى برهان ربه لهم بها وأوشك أن يقع في المعصية، وإنما قلنا: أوشك أن يقع، ولم نقل: وقع لأن الهم - كما قيل - لا يستعمل إلا فيما كان مقروناً بالمانع كقوله تعالى: ﴿وَهَمَّوْا بِمَالِ آلِ يَنْبُلَ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وقوله صخر:

أهمّ بأمر الحزم لا أستطيعه      وقد حيل بين العير والنزوان

فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهمم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ ولم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء فتدبر فيه .

ومن هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمم بها والميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا فهو ﷺ لم يفعل ولم يكذب، ولولا ما أراه الله من البرهان لهم وكاد أن يفعل، وهذا المعنى هو الذي يؤيده ما قدمناه من الاعتبار والتأمل في الأسباب والعوامل المجتمعة في هذا الحين القاضية لها عليه .

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِهِ﴾ اللام فيه للقسم، والمعنى وأقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه ولا يكون الهمم إلا بأن تشفع الإرادة بشيء من العمل .

وقوله تعالى: ﴿وَهُمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ معطوف على مدخول لام القسم من الجملة السابقة، والمعنى أقسم لولا رؤيته برهان ربه لهمم بها وكاد أن يجيبها لما تريده منه .

والبرهان هو السلطان ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة قال تعالى: ﴿فَذَلِّكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢]، وقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿قُلْ هَآؤُنَا بُرْهَانُكُمُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] وهو الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريباً لمرتاب .

والذي رآه يوسف ﷺ من برهان ربه وإن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه -على أي حال- كان سبباً من أسباب اليقين لا يجمع الجهل والضلال بتاتاً، ويدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف ﷺ فيما يناجي ربه كما سيأتي: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، ويدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال وقبحها ومصلحتها ومفسدتها أن هذا النوع من العلم قد يجمع الضلال والمعصية وهو ظاهر . قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] .

فالبرهان الذي أراه به وهو الذي يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعة لا تميل معها الى معصية أصلاً، وسنورد فيه بعض الكلام إن شاء الله تعالى .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٥٤] اللام في ﴿لِنَصْرِفَ﴾ للغاية أو التعليل والمآل واحد و﴿كَذَلِكَ﴾ متعلق بقوله ﴿لِنَصْرِفَ﴾ والإشارة الى ما ذكر من رؤية برهان ربه، والسوء هو الذي يسوء صدوره من العبد بما هو عبد وهو مطلق المعصية أو الهمّ بها، والفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعة كالزنا، وقد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء والفحشاء على الزنا والهمّ به .

والمعنى: الغاية -أو السبب- في أن رأى برهان ربه هي أن نصرف عنه الفحشاء والهمّ بها .

ومن لطيف الإشارة في الآية ما في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ حيث أخذ السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفاً عنهما، لما في الثاني من الدلالة على أنه كان فيه ما يقتضي اقترافهما المحجوج الى صرفه عن ذلك، وهو ينافي شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين وهم الذين أخلصهم الله فلا يشاركه فيهم شيء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أي داع يدعو من دون الله سبحانه .

وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ﴾ الخ والمعنى: عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين، وهم يعاملون هذه المعاملة .

ويظهر من الآية أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، وأن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقتربون معصية ولا يهتمون بها بما يريهم الله من برهانه، وهذه هي العصمة .

ويظهر أيضاً أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفة المعهودة لنا .

وساق العلامة الطباطبائي -رحمه الله- أقوالاً للمفسرين في تفسير الآية :

١- منها: ما ذكره بعضهم ونسب إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وغيرهم: أن المعنى أنها همت بالفاحشة وأنه هم بمثله، لولا أن رأى برهان ربه لفعل .

وقد وصفوا همه ﷺ بما يجعل عنه مقام النبوة ويتنزه عنه ساحة الصديق فذكروا أنه قصدها بالفاحشة ودنا منها حتى حل السراويل وجلس منها مجلس الخائن فأدركه برهان من ربه أبطل الشهوة ونجاه من الهلكة، وذكروا في وصف هذا البرهان أموراً كثيرة مختلفة .

قال الغزالي في تفسيره لهذه السورة: اختلفوا فيه -يعني في البرهان- ما هو؟ قال بعضهم: إن طائراً وقع على كتفه فقال في أذنه: لا تفعله فإن فعلت سقطت من درجة الأنبياء . وقيل: إنه رأى يعقوب عليه السلام عاضاً على إصبعه، وهو يقول: يا يوسف عليه السلام أما تراني: وقال الحسن البصري: رآها وهي تغطي شيئاً فقال لها: ما تصنعين؟ قالت: أعطي وجهه. صمى لثلا يراني فقال يوسف عليه السلام: أنت تستحيين الجماد الذي لا يعقل ولا يرى فأنا أولى أن أستحي ممن يراني ويعلم سري وعلايتي .

قال أرباب اللسان: إنه نودي في سره يا يوسف اسمك مكتوب في ديوان الأنبياء، وتريد أن تفعل فعل السفهاء . وقيل: رأى كفا قد خرج من الحائط مكتوب عليها: ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . وقيل: انفرج سقف البيت فرأى صورة حسنة تقول: يا رسول العصمة لا تفعل فإنك معصوم . وقيل: نكس رأسه فرأى على الأرض مكتوباً: ومن يعمل سوءاً يجز به . وقيل: أتاه ملك ومسح جناحيه على ظهره فخرجت شهوته من أصابع رجله . وقيل: رأى الملك في البيت وهو يقول وقيل: وقع بينهما حجاب فلا يرى أحد صاحبه . وقيل: رأى جارية من جوارى الجنة فتحير من حسنها فقال لها: لمن أنت؟ قالت: لمن لا يزني .

وقيل: جاز عليه طائر فناداه: يا يوسف لا تعجل فإنها لك حلال ولك خلقت.  
وقيل: رأى ذلك الجب الذي كان بحذائه وعليه ملك قائم يقول يا يوسف أنسيت هذا الجب. وقيل: رأى زليخا على صورة قبيحة فهرب منها. وقيل رأى شخصاً فقال: يا يوسف انظر الى يمينك فنظر فرأى ثعباناً أعظم ما يكون فقال: الزاني في بطني غداً فهرب منه. انتهى.

ومما قيل فيه أنه تمثل له يعقوب فضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من أطراف أنامله رواه في الدر المنثور عن مجاهد وعكرمة وابن جبير الى غير ذلك من الوجوه المختلفة التي أوردوها في التفسير بالمأثور.

والجواب عنه مضافاً الى أنه ﷺ كان نبياً ذا عصمة إلهية تحفظه من المعصية، وقد تقدم إثبات ذلك، أن الذي أورده الله تعالى من كرائم صفاته وإخلاص عبوديته لا يبيح شكاً في أنه أظهر ساحة وأرفع منزلة من أن ينسب إليه أمثال هذه الألوأ فقد ذكر تعالى أنه كان عبداً متقياً صبوراً في الله غير خائن ولا ظالم ولا جاهل، وكان من المحسنين وقد ألحقه بآبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

وكيف تستقيم هذه المقامات العالية والدرجات الرفيعة إلا للإنسان طاهر في وجدانه منزله في أركانه صالح في أعماله مستقيم في أحواله.

وأما من ذهب لوجهه في معصية الله وهم بما هو أفحش الإثم في دين الله وهو زنا ذات البعل وخيانة من أحسن إليه أبلغ الإحسان في عرضه وأصر عليه حتى حل التكة وجلس منها مجلس الرجل من المرأة فأتته لصفه آية بعد آية فلم ينصرف، وازدجر بنداء بعد نداء من كل جانب فلم يستحي ولم يكف حتى ضرب في صدره ضربة خرجت بها شهوته من رؤوس أصابعه، وشاهد ثعباناً أعظم ما يكون من عن يمينه فذعر منه وهرب من هول ما رأى، فمثله أخرى به أن لا يسمى إنساناً فضلاً أن يتكئ على أريكة النبوة والرسالة، ويأتمنه الله على وحيه، ويسلم إليه مفاتيح دينه، ويؤتية حكمه وعلمه ويلحقه بمثل إبراهيم الخليل عليه السلام.



لكن هؤلاء المتعلقين بهذه الأقاويل المختلفة والإسرائيليات والآثار الموضوعة إذ يتهمون جده إبراهيم عليه السلام في زوجته سارة لا يبالون أن يتهموا نجله عليه السلام في زوجة غيره .

قال في الكشف: وقد فسرهم يوسف عليه السلام بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس المجمع ، وبأنه حلّ تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاهها وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً: إياك وإياها فلم يكثر له فسمعه ثانياً فلم يعمل به فسمع ثالثاً: أعرض عنها فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب عاضاً على أناملته ، وقيل ضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله .

وقيل: كل ولد يعقوب عليه السلام له اثنا عشر ولداً إلا يوسف عليه السلام فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم ، وقيل: صبح به يا يوسف لا تكن كالطائر كان له ريش فلما زنى قعد لا ريش له ، وقيل: بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها: «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين» فلم ينصرف ثم رأى فيها: «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً» فلم ينته ثم رأى فيها: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» فلم ينجع فيه فقال الله لجبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل وهو يقول: يا يوسف أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء؟

وقيل: رأى تمثال العزيز ، وقيل: قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت: أستحي منه أن يرانا فقال يوسف: استحييت ممن لا يسمع ولا يبصر ولا أستحيي من السميع البصير العليم بذات الصدور؟ ويردّ الطباطبائي هذا الرأي قائلاً:

ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرته وتوبته واستغفاره كما نعيت على آدم عليه السلام زلته ، وعلى داود وعلى نوح وعلى أيوب وعلى ذي النون عليهم السلام وذكرته وتوبتهم واستغفارهم كيف وقد أثني عليه وسمي مخلصاً؟

فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ناظرا في دليل التحريم ووجه القبح حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق لها، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته، وضرب سورة كاملة عليها ليجعل له لسان صدق في الآخرين كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام. وليقتدي به الصالحون الى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقع العثار.

فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي الى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي بنبي من أنبياء الله في القعود بين شعب الزانية وفي حل تكته للوقوع عليها، وفي أن ينهائهم به ثلاث مرات، ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن وبالتوبيخ العظيم وبالوعيد الشديد وبالتشبيه بالطائر الذي سقط ريشه حين سفد غير أنثاء وهو جاثم في مريضه لا يتحلحل ولا ينتهي ولا يتنبه حتى يتداركه الله بجبريل وبإجباره، ولو أن أوقع الزناة وأشطرهم وأحدهم حدقة وأجلحهم وجهاً لقي بأدنى ما لقي به مما ذكروا لما بقي له عرق ينبض ولا عضو يتحرك، فياله من مذهب ما أفحشه ومن ضلال ما أبينه. انتهى.

وما أحسن ما قال بعض أهل التفسير في ذم أصحاب هذا القول إنهم يتهمونهم عليه السلام في هذه الواقعة وقد شهد ببراءته وطهارته كل من له تعلق ما بها فالله سبحانه يشهد بذلك إذ يقول: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ والشاهد الذي شهد له من أهلها إذ قال: ﴿إِنْ كَانَتْ فَمِصَّةٌ قَدْ مِنْ قَبْلٍ﴾ الى آخر الآيتين، والعزير إذ قال لامرأته. ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ وامرأة العزيز إذ قالت: ﴿أَلَنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] والنسوة إذ قلن: ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ ويوسف ينفي ذلك عن نفسه وقد سماه الله صديقا إذ قال: ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.

وعمدة السبب في تعاطيهم هذا القول أمران :

أحدهما : إفراطهم في الركون الى الآثار وقبول الحديث كيفما كان وإن خالف صريح العقل ومحكم الكتاب فلعبت بأحلامهم الإسرائيلية وما يلحق بها من الأخبار الموضوعة المدسوسة، وأنستهم كل حق وحقيقة وصرفتهم عن المعارف الحقيقة .

الثاني : ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا ۚ اَنْ رَّءَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ ۚ ﴾ بناء على ما ذكره النحاة أن جزاء «لولا» لا يتقدم عليها قياسا على إن الشرطية، وعلى هذا يصير قوله ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ جملة تامة غير متعلقة بالشرط، وجواب لولا قولنا «لفعل» أو ما يشبه ذلك والتقدير : ولقد همت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام وهم يوسف عليه السلام بها لولا أن رأى برهان ربه لفعل، وهو المطلوب .

وقد عرفت فساد ذلك وأن الجملتين معاً أعني قوله : «ولقد همت به» وقوله : «وهم بها» قسميتان، وأن جزاء لولا في معنى الجملة الثانية حذف لدالتها عليه، والكلام على تقدير : وأقسم لقد همت به . وأقسم لولا أن رأى برهان ربه لهم بها نظير قولهم : والله لأضربنه إن ضربني .

على أن الذي قدره من المعنى كان الأنسب به أن يقال : «ولولا أن رأى برهان ربه» بالوصل، ولا وجه ظاهرا من جهة السياق يوجه به الفصل .

٢- ومن الأقوال في الآية أن المراد بهمهم ﷺ ميل الطبع وانتزاع الغريزة قال في الكشف : فإن قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه همّ بالمعصية وقصد إليها؟ قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلاً يشبه الهمّ به والقصد إليه وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر إلى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم .

ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، ولو كان همه كهمّهما عن عزيمة لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين .

ويجوز أن يريد بقوله: «وهم بها» وشارف أن يهم بها كما يقول الرجل: قتلته لو لم أخف الله، يريد مشاركة القتل ومشافهته كأنه شرع فيه .

ثم قال: فإن قلت: لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها، وهلا جعلته هو الجواب مقدماً. قلت: لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها من قبل أنه في حكم الشرط، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض، وأما حذف بعضها إذا دل الدليل عليه فجائز .

فإن قلت: فلم جعلت لولا متعلقة ب(همّ بها) وحده؟ ولم تجعلها متعلقة بجمله قوله: «ولقد همت به وهم بها» لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا باثنين معاً فكأنه قيل: ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما .

قلت: نعم ما قلت ولكن الله سبحانه قد جاء بالهمّين على سبيل التفصيل حيث قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا﴾ فكان إغفاله إلغاء له فوجب أن يكون التقدير: ولقد همت بمخالطته وهم بمخالطتها، على أن المراد بالمخالطتين توصلهما إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه، وتوصله إلى ما هو حظه من قضاء شهوته منها لولا أن رأى برهان ربه فترك التوصل إلى حظه من الشهوة فلذلك كانت «لولا» حقيقة بأن تعلق ب(همّ بها) وحده انتهى . ولخصه البيضاوي في تفسيره حيث قال: المراد بهمه ﷺ ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف بل التحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم أو مشاركة الهم كقولك: قتلته لو لم أخف الله . انتهى .

ورُدَّ هذا القول بأنه مخالف لما ثبت في اللغة من معنى الهم وهو القصد الى الفعل مع مقارنته ببعض الأعمال الكاشفة عن ذلك من حركة الى الفعل المراد أو شروع في بعض مقدماته كمن يريد ضرب رجل فيقوم إليه، وأما مجرد ميل الطبع ومنازعة القوة الشهوانية فليس يسمى همّاً ألبتة والهم بمعناه اللغوي مذموم لا ينبغي صدوره من نبي كريم، والطبع وإن كان غير مذموم لخروجه عن تحت التكليف لكنه لا يسمى همّاً.

أقول: هذا إنما يصلح جواباً لقولهم: إن المراد بهمهم ﷺ ميل الطبع ومنازعة الشهوة، وأما تجويزه أن يكون المراد بالهم الإشراف على الهم فلا، بل هو قول على حدة في معنى الآية وهو أن يفرق بين الهمّين المذكورين فالمراد بهما القصد العمدي الى المخالطة وبهمهم إشرافه ﷺ على الهم بها من دون تحقق للهم بالفعل والقرينة عليه هو وصفه تعالى إياه بما فيه مدح بالغ، ولو كان همه حقيقةً بالقصد العمدي إلى مخالطتها كان فعلاً مذموماً لا يتعلق به مدح أصلاً فمن هنا يعلم أن المراد بهمهم ﷺ إشرافه على الهم لا الهم بالفعل.

والجواب: أنه معنى مجازي لا يصار إليه إلا مع عدم إمكان الحمل على المعنى الحقيقي، وقد تقدم أنه بمكان من الإمكان.

على أن الذي ذكروه في معنى رؤيته برهان ربه وأن المراد بها الرجوع الى الحجة العقلية القاضية بوجوب الانتهاء عن النواهي الشرعية والمحارم الإلهية معنى بعيد من اللفظ إذ الرؤية لا تستعمل الا في الإبصار الحسي أو المشاهدة القلبية التي هي بمنزلتها أو أظهر منها، وأما مجرد التفكير العقلي فلا يسمى رؤية ألبتة.

٣- ومن الأقوال في الآية: أن المراد بالهمّين مختلف فهمهما هو قصدها مخالطته وهمه بها هو قصده أن يضربها للدفاع عن نفسه، والدليل على التفرقة بين الهمّين شهادته تعالى على أنه من عباده المخلصين وقيام الحجة عقلاً على عصمة الأنبياء عليهم السلام.

قال في مجمع البيان: إن الهم في ظاهر الآية قد تعلق بما لا يصح تعلق العزم به على الحقيقة لأنه قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ، وَهَمَّ بِهَا﴾ فعلق الهم بهما وذاتهما لا يجوز أن يراد ويعزم عليهما لأن الموجود الباقي لا يصح أن يراد ويعزم عليه فإذا حملنا الهم في الآية على العزم فلا بد من تقدير أمر محذوف يتعلق العزم به. وقد أمكن أن نعلق عزمه بغير القبيح، ونجعله متناولا لضربها أو دفعها عن نفسه فكأنه قال: ولقد همت بالفاحشة منه وأرادت ذلك وهم يوسف بضربها ودفعها عن نفسه كما يقال هممت بفلان أي بضربه وإيقاع مكروه به.

وعلى هذا فيكون معنى رؤية البرهان أن الله سبحانه أراه برهانا على أنه إن أقدم على ما هم به أهلكه أهلها أو قتلوه أو ادعت عليه المراودة على القبيح وقذفته بأنه دعاها إليه وضربها لامتناعها منه، فأخبر سبحانه أنه صرف عنه سوء والفحشاء اللذين هما القتل وظن اقتراف الفاحشة به، ويكون التقدير: لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك، ويكون جواب لولا محذوفاً كما حذف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] انتهى موضع الحاجة.

والجواب: أنه قول لا بأس به لكنه مبني على التفرقة بين الهمَّين وهو خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن حملهما على معنى واحد وقد عرفت إمكان ذلك.

على أن لازمه أن يكون المراد بالبرهان الذي رآه ما يدل على أنه إن ضربها استتبع ذلك هلاكه أو مصيبة أخرى تصيبه ويكون المراد بالسوء والفحشاء القتل والتهمة - كما أشار إليه في المجمع - وهذا خلاف ما يستفاد من السياق قطعاً.

وأما ما ذكره في المجمع من عدم جواز إرادة العزم على المخالطة من الهمَّين معاً، ومحصله أن الهم إنما يتعلق بمن لا ينقاد للعازم الهام فيما يريده، وإذا فرض تحقق الهم من أحد الطرفين لم يصح تحققه مع ذلك من الطرف الآخر إذ لا معنى لتعلق الإرادة بالمريد والطلب من الطالب وبعث من هو مبعوث بالفعل.

ففيه أنه لا مانع من تحقق الهم من الطرفين إذا فرض تحققهما دفعة واحدة من دون سبق ولحوق أو قارن ذلك عناية زائدة كإنسانين يريدان الاقتراب والاجتماع فربما يثبت أحدهما ويتحرك إليه الآخر، وربما يتحركان ويقتربان ويتدليان معاً، وجسمين يريدان الانجذاب والاتصال فربما يجذب أحدهما وينجذب إليه الآخر وربما يتجاذبان ويتدانيان.

٤- ومن الأقوال في الآية: أن المراد بالهم في الموردين معاً الهم بالضرب والدفاع فهي لما راودته وردّها بالامتناع والاستنكاف ثارت منها داعية الغضب والانتقام وهاج في باطنها الوجد الممزوج بالسخط والأسف فهمت به لتضربه على تمرده من امثال ما أمرته به، وهو لما شاهد ذلك استعد للدفاع عن نفسه وضربها إن مسته بسوء غير أن ضربه إيها ومقاومته لدفعها لما كان ربما يتهمه في أنه راودها عن نفسها ودعاها الى الفحشاء أراه الله سبحانه بفضله برهاناً فهم منه ذلك وألهم أن يختار للدفاع عن نفسه سبيل الفرار فقصد باب البيت ليفتحه ويخرج من عندها فعقبته فاستبقا الباب.

ولا مساع لحمل الهم على الهم بالمخالطة أما في قوله: «ولقد همت به» فلأن الهم لا يكون إلا بفعل للهام، والوقاع ليس من أفعال المرأة فتهم به، وإنما نصيبها منه قبولها لمن يطلبه منها بتمكينه منه. هذا أولاً.

على أن يوسف لم يطلب من امرأة العزيز هذا الفعل فيسمى قبولها لطلبه ورضاها بتمكينه منه همّاً لها فإن نصوص الآيات قبل هذه الآية وبعدها تبرئ من ذلك بل من وسائله ومقدماته أيضاً. وهذا ثانياً.

على أن ذلك لو وقع لكان الواجب في التعبير عنه أن يقال:

ولقد همّ بها وهمت به لأن الأول هو المقدّم في الطبع والوضع وهو الهمّ الحقيقي، والهمّ الثاني متوقف عليه لا يتحقق بدونه. وهذا ثالثاً.

على أنه قد علم من القصة أن هذه المرأة كانت عازمة على ما طلبته طلباً جازماً مصرّة عليه ليس عندها أدنى تردد فيه ولا مانع منه يعارض المقتضى له، فإذن لا يصح أن يقال: إنها همت به مطلقاً حتى لو فرض جدلاً أنه كان قبولاً لطلبه ومواتاة له إذ الهم مقاربة الفعل المتردد فيه، وأما الهم بمعنى قصدها له بالضرب تأديباً فيصح ذلك فيه بأهون تقدير. وهذا رابعاً. انتهى ملخصاً مما أورده صاحب المنار في تفسيره.

والجواب: أنه يشارك القول السابق في معنى همه بها فيرد عليه ما أوردناه على سابقه، وأما ما يختص به أن المراد بهمها به قصدها إياه بضرب ونحوه فمما لا دليل عليه أصلاً، وأما مجرد اتفاق ذلك في بعض نظائر القصة فليس يوجب حمل الكلام عليه من غير قرينة تدل على ذلك.

وأما ما ذكره من استبعاد أن يراد من قوله: «ولقد همت به» الهم على المخالطة أو عدم صحته فوجوه سخيصة جداً فإن من المعلوم أن هذه المخالطة تتألف عادة من حركات وسكنات شأن المرأة فيها الفعل دون الانفعال والعمل دون القبول فلو همت به بضم أو ما يناظره ليلتهب بذلك ما خمدت من نار غريزته الكامنة، وتلجئه إلى إجابته فيما تريده منه صح أن يقال: إنها همت به أي بمخالطته وليس من الواجب أن يفسر همها به بقصدها خصوص ما هي قابلة له حتى لا يصح به إطلاق الهم عليه.

وأما ما ذكره أخيراً أنها كانت جازمة غير مترددة فلا يصح أن يراد بهمها الهم على ما تريده من المخالطة ففيه أنها إنما كانت جازمة في إرادتها منه وعزيمتها عليه، وأما في تحقق الفعل ووقوعه على ما قدرته فلا كيف؟ وقد شاهدت من يوسف الامتناع والإباء عن مراودتها، وإنما همت به لما قابلها بالاستكاف ولا جزم لها مع ذلك بإجابته لها ومطاوعته لما أرادته منه وهو ظاهر.



٥- ومن الأقوال في الآية: حمل الكلام على التقديم والتأخير ويكون التقدير: ولقد همت به لولا أن رأى برهان ربه لهم بها، ولما رأى برهان ربه لم يهم بها، ويجري ذلك مجرى قولهم: قد كنت هلكت لولا أنني تداركتك، وقد كنت قتلت لولا أنني خلصتك، والمعنى: لولا تداركي لهلكت -ولولا تخليصي لقتلت وإن كان لا يقع هلاك وقتل، ومثله قول الشاعر:

فلا تدعني قومي ليوم كريهة      لئن لم أعجل ضربة أو أعجل  
وفي القرآن الكريم: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾  
[القصص: ١٠] نسبه في المجمع الى أبي مسلم المفسر.

والجواب: أنه إن كان المراد به ما ربما يقوله المفسرون: إن في القرآن تقديمًا وتأخيرًا فإنما ذلك فيما يكون هناك جمل متعددة بعضها متقدمة على بعضها بالطبع فأهمل النظم واكتفى بمجرد العد من غير ترتيب لعناية تعلقت به كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُفُوسُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] إنه من التقديم والتأخير، وأن التقدير: فبشرناها فضحكت وأما قوله: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ فالمعنى يختلف فيه بالتقديم والتأخير فهو إذا قدم كان هما مطلقا من غير تقييد لعدم جواز كونه جواباً للولا مقدما عليها على ما ذكره، وإذا أخر كان هما مقيدا بالشرط.

وإن كان المراد أنه جواب للولا مقدم عليها فالنحاة لا يجوزونه قياسا على إن الشرطية ويؤولون ما سمع من ذلك، اللهم إلا أن يكون ذلك خلافا منه لهم لعدم الدليل على هذا القياس، ولا موجب لتأويل ما ورد في الكلام مما ظاهره ذلك.

٦- ومن الأقوال في الآية: ماذكروا أنها أول ما همت به في منامها وهم بها لأنه رآها في منامه فعند ذلك علم أنها له فلذلك هم بها. أوردته الغزالي في تفسيره قال: وهذا وجه حسن لأن الأنبياء كانوا معصومين لا يقصدون المعاصي. انتهى.

والجواب أنه إن أُريد به أن قوله: «وهم بها» حكاية ما رآه يوسف ﷺ في المنام فهو تحكم لا دليل عليه من جهة اللفظ ألبتة، وإن أُريد به من أنه ﷺ رآها في المنام وهم بها فيه، واعتقد من هناك أنها له وخاصة بناء على أن رؤيا الأنبياء وحي، ثم هم بها في اليقظة في مجلس المراودة بالمضي على اعتقاده فيها فأدركته رؤية برهان من ربه يبين له أنه قد أخطأ في زعمه ففيه إثبات خطأ الأنبياء في تلقي الوحي، وليس ذلك بأقل محذورا من تجويز إقدامهم على المعاصي.

على أن الآية السابقة - وقد عدّ فيها المخالطة ظلما لا يفلح صاحبه واستعاذ بالله منه- تناقض ذلك. فكيف يزعم أنها له وهو يعدّه ظلما ويستعيذ منه بالله سبحانه؟

فهذه عمدة الأقوال في الآية وهي مع ما قدمناه أولاً ترتقي إلى سبعة أو ثمانية، وقد علمت أن معنى رؤية البرهان يختلف بحسب اختلاف الأقوال فمن قائل إنه سبب يقيني شاهده يوسف ﷺ، ومن قائل إنه الآيات والأمر التي ظهرت له فردعته عن اقتراف الخطيئة، ومن قائل إنه العلم بحرمة الزنا وعذابه، ومن قائل إنه ملكة العفة، ومن قائل إنه العصمة والطهارة وقد عرفت ما هو الحق منها<sup>(١)</sup>.

---

(١) تفسير الميزان: ١٢/١٢٦-١٤٠.

### الحلقة الثالثة:

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتًا بِنْتَا يَتَاوِيلَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُزْقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا يَتَاوِيلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَسْحَقُ وَيَعْقُوبُ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَلْبُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَصْحَجِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦-٤٢].

وقول الله تعالى ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ ﴾ إشارة طيبة إلى أن هناك قواسم بين الناس من أجلها يألف بعضهم بعضاً، فيوسف عليه السلام فتى وهما فتيان وهم عبيد أرقاء كذلك وهذا كافٍ لإيجاد وشائج بينهم في السجن الذي يجمع عادةً بين نزلاته على اختلاف طبائعهم.

ويوسف عليه الصلاة والسلام الذي دخل السجن حتى لا يصبوا لا رغبةً في السجن يدرك أن هذه رحمة من ربه حيث أجاب دعاءه ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ﴾ [يوسف: ٣٣]. وأقول: يوسف عليه السلام في هذا السجن ينبغي أن يكون حركة دعوية والقرآن الكريم بإيجازه وإعجازه يطوي كثيراً من الأخبار التي تفهم من السياق وقد كثر هذا في قصتي النبيين يوسف وموسى عليهما الصلاة والسلام كما سيظهر لنا في هذه السورة سورة الكريم وفي سورة القصص التي تحدثنا عن الكليم، ويظهر أن العلاقة قد توطدت بين

يوسف عليه السلام والفتيين فعرفا شيئاً من علومه ومن صفاته الطيبة وحكم الله لا تُحصى، وبعد أن أدرك الفتیان ما لصاحبهما من حصافة رأي ورجاحة فكر وكریم خلق وطيب معدن كيف لا وقد قال الله ﴿وَلِنُعَلِّمَهُمُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١]، وقد قالها له أبوه يعقوب من قبل ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]. نعم عليم حكيم، ومن حكمته سبحانه أن هياً للفتيين أن يرى كل منهما رؤيا ليستمع إليها يوسف فيؤولها له. ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]. وهذه الشهادة منهما ليوسف عليه الصلاة والسلام ما كانت لتكون وليدة لحظات من جهة ولا قولاً عن غير بصر ودليل من جهة أخرى، بل كانت نتيجة خبرة ومعرفة ومشاهدات.

### سر التعبير بالماضي ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ والمضارع ﴿أَرَانِي﴾:

وهنا لا بدّ أن نقف مع النظم المعجز، فلقد كثرت مادة الرؤيا في هذه السورة الكريمة إلا أن التعبير عنها تارة كان بالفعل المضارع ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ﴾ ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ﴾ وقال الملك ﴿إِنِّي أَرَى﴾ كل ذلك جاء التعبير عنه بالفعل المضارع، على حين قرأنا في أول السورة الكريمة قول يوسف ﷺ ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ حيث جاء التعبير بالفعل الماضي. يقول الدكتور حسن باجوده «وليس لذلك من تعليل في اعتقادي، والله أعلم، سوى أن الغلام الصغير يوسف ذا النفس البريئة المشرقة يريد أن يقصّ في براءة الرؤيا التي رأى دون أن يكون بطبعه شيء من اهتمام لما تدلّ عليه أو يترتب عليها. لهذا جاء الفعل في صيغة الماضي الذي يشعرا بأنّ كلّ شيء عن الرؤيا ينتهي بقصّها على والده. أمّا فيما يتصل بالساقى والخباز والملك فإن الأمر يختلف، فهم بحكم السن والتجربة مهيوون بطبعهم للتمثّل الدائم للرؤيا حريصون على تعبيرها، لهذا جاء الفعل «أرى» مراتٍ ثلاثاً لما ذكرنا، وليس الفعل «رأى» الذي انفرد باستعماله الغلام البريء يوسف والله أعلم»<sup>(١)</sup>.

(١) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام للدكتور حسن محمد باجوده: ص ٣٣٩.

وقد أغرب الكاتب الفاضل فيما ذهب إليه فالخبرة أو عدمها لاصلة لهما بالماضي والمضارع، بل قد يقال عكس ما ذهب إليه الكاتب من أن صاحب الخبرة ينبغي أن يعبر بالماضي لتأكده من الأمر، والنسر البياني الذي يظهر - والله أعلم بما ينزل - أبيته فيما يلي :

كثيراً ما يُعبر بالمضارع عن الماضي، وقد كثر هذا في القرآن الكريم قال تعالى ﴿ وَإِذْ يَعِذُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] وقال ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٩] وقال ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمْنَةً مِّنْهُ ﴾ [الأنفال: ١١] . وهذه الأمور التي عُبر عنها بالفعل المضارع أمور قد مضت كلها، ولكن القرآن الكريم يختار الفعل المضارع لأكثر من سبب فحيناً ليدلّ على الاستمرار وحيناً يكون التعبير بالمضارع لاستحضار صورة الماضي إذ يريد أن يصورها تصويراً أنياً لتكون أكثر تأثيراً في النفس، ألا ترى أنك حين تشاهد مسرحية تاريخية تكون أكثر تأثيراً في نفسك من أن تقرأ مضمونها خبراً من الأخبار، وهذا الذي يعيننا هنا. لقد عُبر بالفعل الماضي مرة واحدة وهي رؤيا يوسف؛ ذلك لأن يوسف عليه الصلاة والسلام كان طفلاً صغيراً، فما كان يعنيه ما رأى كثيراً فلا حاجة لأن يستحضره في نفسه ليعبر بالفعل المضارع، أما التعبير بالمضارع فنجدّه عند الفتيتين وعند الملك، أما الفتيتان فقد كان أمر الرؤيا يؤرقهما؛ لذا عبّر عنه بالمضارع استحضاراً للصورة وكذلك كان شأن الملك. ويقال إن رؤياه تكررت. ألا تتدبر أيها القارئ قول الخليل الكريم جدّ الكرماء أئبنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَبْنَؤُاْ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات: ١٠٢] حيث عبر بالفعل المضارع، ذلك لأنها رؤيا أحدثت في النفس أثراً يصعب عليها فأراد الخليل استحضار هذه الصورة التي كان لها شأن عنده فعبر بالمضارع. ذلكم هو السرّ في التعبير بالماضي والمضارع كما يبدو والله درّ التنزيل.

## دعوة يوسف الفتيين إلى الله:

ويستمع يوسف عليه الصلاة والسلام من صاحبيّه وهنا يعلمنا القرآن الكريم كيف نجلّ ذوي النفوس الكبيرة وفي مقدّماتهم أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام. قبل أن يعبر لهما الرؤيا بين أن من شأنه أنه ينبئهما بكثير من شؤونهما ممّا لا يعرفان، وهذا كله إنما هو بفضل ربه تبارك وتعالى، فربّه هو الذي علّمه وتلكم دعوة لهذين الفتيين ليُسَلِّما وجهيهما إلى الله تبارك وتعالى، ويبين لهما أنه ينبذ ويترك كلّ عقيدة وملة فيها انحراف عن الحق وعن توحيد الله تبارك وتعالى وما يستتبعه من الإيمان باليوم الآخر وهو لأول مرة يفخر بنسبه الزكيّ لا فخر ذوي الحمية الجاهلية، ولكن فخر المؤمن الذي يعتزّ بعزة الله ويشكر الله على أن جعله من ذرية هذه الصفوة المختارة التي كرّمها الله بالاصطفاء: إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام وهم الذين قال الله فيهم ﴿وَأَنبِئْهُمْ عَنَّا لِمَنِ الْمَصْطَفَيْنَ الْآخِرِينَ﴾ [ص: ٤٧] ويعترف عليه الصلاة والسلام لله وحده بالفضل ولئن كان أكثر الناس غير شاكرين فإنه يشكر الله على نعمائه، وبعد هذا البيان الذي يدور بين الصراحة والتلميح ينتقل إلى دعوة صريحة ويحب أن يشركهما في التفكير ليستنتجا بأنفسهما الحق الذي لا محيد عنه، وها هو يوجّه إليهما السؤال بهذه الصيغة المؤثرة: ﴿يَصْنَعُ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ أَرْبَابًا مِّثْلَ مَفْرُوقٍ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٢٩]. يستثمر يوسف عليه الصلاة والسلام هذا الموقف لدعوتهما إلى الله قبل أن يعبر الرؤيا، وبعد إقامة الحجة على توحيد الله سبحانه وتعالى الواحد القهار وبيان أنّ له وحده الحكم يؤول رؤيا كل منهما ويظهر أن صاحب الخبز لم يرضه ما سمع، فادعى الكذب فيما رأى، ونفهم هذا من قول يوسف ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

ولا بدّ أن نقف هنا وقفة قبل أن نواصل المسيرة الخيرة مع الكريم ابن الكرماء. إن أحد السجينين سيخرج إلى رحاب الحياة لينادم الملك، ودعوته إلى التوحيد فيها خير له ولغيره من الناس إن استجاب ولبيّ، ولكن أيّ ثمرة من دعوة صاحبه الذي سيخرج من

الحياة لا يلوي على شيء؟ ويوسف عليه الصلاة والسلام يوجّه الدعوة لهما معاً وتلكم هي نفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خيرة زكية لا تستريح إلا حينما تتغلغل دعوتهم إلى الله في نفوس الآخرين وإنّ ممّا يسعد يوسف عليه السلام ويشعره بالطمأنينة ليشكر ربّه أن ينقذ الله به رجلاً من النار وتلكم شيمة الأنبياء، وهذا يذكرنا بما كان من سيدنا رسول الله ﷺ وقد ذهب ليزور غلاماً يهودياً كان يخدمه وكان في حالة احتضار فقال له النبي: أسلم، فنظر الغلام إلى أبيه. قال له أبوه: أطع أبا القاسم، فقال الغلام: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ فرح النبي ﷺ ثم قال: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»<sup>(١)</sup>. إنها كوكبة الأنبياء الذين جعلهم الله جنة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً.

ويطلب يوسف عليه السلام إلى الذي ظنّ أنّه ناج منهما أن يذكره عند ربه الذي سيسقيه خمراً بعد خروجه من السجن، ولكن النسيان طبيعة في هذا الإنسان، ثم إنّ الوفاء لا يتصف به كثير من الناس، فينسى هذا الساقى صاحبه الذي في السجن ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] فلبث يوسف في السجن بضع سنين. ولبعض المفسرين قول آخر وهو أن هذه الجملة الكريمة تتصل بيوسف عليه الصلاة والسلام، ومعنى الآية عندهم أن يوسف عليه الصلاة والسلام طلب إلى الساقى أن يذكره عند ربه، مع أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان ينبغي أن يعتمد على الله وحده، ولكن الشيطان أنسى يوسف عليه السلام ذكر ربه سبحانه فلبث في السجن بضع سنين. وهذا قول بعيد وقد سمعنا من يوسف عليه الصلاة والسلام دعوته إلى الله واعتماده عليه وشكره له، وقوله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٤٠] أفيقال بعد كل هذا إن الشيطان أنسى يوسف ذكر ربه؟ وبهذا تنتهي الحلقة الثالثة من قصة يوسف عليه الصلاة والسلام لتبدأ حلقة أخرى.

(١) انظر مسند أحمد ٣/ ٢٢٧.

## الحلقة الرابعة:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا بِتَعْبُرُونَ قَالُوا أَضَعَتْ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعِلْمِينَ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَتَسْأَلْهُ مَا بَالُ الْيَسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَا أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاوَدْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ قُلْتُ خَشِيَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ فَحَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿وَمَا أَتَرَىٰ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالْسُوءِ إِلَّا مَا رَجِمْتُمُ بِهَا إِنِّي رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْثِرُ بِهِ أَتَسْخَلُصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٤٣-٥٧].

وقال الملك: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ يظهر أن هذه الرؤيا -أرقت نفس الملك. لما فيها من الغرابة. فالبقرات السبع السمان يأكلهن سبع عجاف وهذا على غير ما ألف الناس، وهناك سبع سنبلات خضر وأخرى يابسات ولم يحدد القرآن عددهن أهن سبع كذلك؟

ولا ريب أن الرؤيا كان لها في نفس الملك شأن وخطر، ولهذا يوجه السؤال إلى الملأ، وهم أشرف القوم من كهنة وغيرهم، وسمّوا كذلك لأنهم يملأون العيون والمجالس، وكأنهم يريدون أن يهوتوا على الملك ما رأوا من تأثره بهذه الرؤيا فيقولون



أضغاث أحلام والأضغاث جمع ضغث . وكما قال الراغب : «الضغث ريحان أو حشيش أو قضبان وجمعه أضغاث ، قال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِذِكْرِكَ ضَغْثًا ﴾ [ص : ٤٤] ، وبه شبه الأحلام المختلفة التي لا تتبين حقائقها ﴿ قَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمٌ ﴾ حزم أخلاط من الأحلام انتهى . فلا ينبغي لك أن تشغل بها ، ولكنهم أدركوا أن حديثهم هذا لم يجد صدق في نفس الملك فقالوا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ .

وهنا يعود الساقى إلى نفسه ، تعود به الذكريات : لقد تذكر صاحبه في السجن ذلكم الصديق الأمين الذي تحقق ما أخبره به ، ويقيني أنه أخبر الملك بما كان من خبره وخبر صاحبه حيث تحقق ما أخبر به يوسف عليه السلام فكان مطمئن القلب واثق النفس بأن هذه الرؤيا ليس لها إلا يوسف عليه السلام فقال قوله الواصل ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف : ٤٥] وكان لقاء يوسف عليه السلام كان أمراً غير مرغوب فيه لما يث من عقيدته بين الناس ، ونحن نرى في عصرنا هذا أنّ كثيرين قد تخرجوا في السجون دعاة مخلصين حتى إن السجّانين وذوي السلطة تنبهوا لهذا فكانت الزنانات والسجون الانفرادي .

ويتوق الملك إلى معرفة ما يقوله يوسف عليه السلام ، ويذهب الساقى مُجِلاً ليوسف عليه السلام معتذراً عما كان منه من تقصير ، وها هو يخاطبه بهذه الصفة الخيرة : ﴿ يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ . . . ﴾ وهذا يدل على تمام الثقة حيث لم يقل «عبر لنا هذه الرؤيا» إنها الفتوى التي تعتمد اليقين فهي حقيقة إذن ، ويقصّ عليه الرؤيا ويقول في آخرها ﴿ أَرْجِعْ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٤٦] . ما أبدع النظم القرآني المعجز ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ ﴾ حيث ذكرت (لعلّ) مرتين . ونعجب من الدكتور عبد الفتاح لاشين إذ يقول إنّ (لعلّ) الثانية زائدة والتقدير «لعلّي أرجع إلى الناس فيعلموا» .

فجاء بلعلّ الثانية ليرتفع الفعل المضارع (يعلمون) مراعاةً للفواصل . وكنا نودّ من الكاتب الفاضل أن يجنب القرآن الكريم هذا التمثّل ، فمراعاة الفاصلة أولاً لا يمكن أن تكون على حساب المعنى وأما ثانياً فإنّ لكلّ من حرفي الترجي (لعلّ) غرضاً رئيساً

يَحْتَمُّهُ الْمَعْنَى<sup>(١)</sup>، ويؤول يوسف عليه الصلاة والسلام الرؤيا، ونلاحظ أنَّ النفوس الكبيرة تنسى أو تتناسى كثيراً من حظوظها، لأنَّ لها عناية بما فيه خير الآخرين وصلاحهم، وها نحن لم نسمع كلمة من يوسف عليه السلام فيها شيء من التأنيب بل العتاب لذلك الساقى الذي طلب منه يوسف عليه السلام أن يذكره وتمرَّ السنون ولا يخطر له ببال ﴿تَزْعَوْنَ سَعِ سَيْنِينَ دَأْبًا﴾ أي عملاً متواصلًا فيه جهد وتعب، وهكذا النوازل الملمات لا بدَّ لها من الجد والاجتهاد ويشير إلى حقيقة قد يستغنى عنها بتعبير الرؤيا، وهذه هي الامانة ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ وهذه حقيقة علمية جيدة، أي لا يُدرَسُ القمح بل يوضع في مخازنه حبًّا غير مقشور لئلا يلحق به التلف ويصيبه التسوس وتعضُّه الآفات و «ما» يمكن أن تكون شرطية ويكون «حصدتم» فعل الشرط والأصل في فعل الشرط أن يكون مضارعاً لكنه يُجعل ماضياً لأغراض بيانية<sup>(٢)</sup> ويكون قوله سبحانه «فذرؤه» جملة جواب الشرط في محل جزم، ويمكن أن تكون «ما» موصولة مبتدأ في محل رفع متضمنة معنى الشرط، فتكون الفاء واقعة في خبرها لما فيها من إبهام وغرضها التأكيد، وهذا كثير في الكتاب الكريم. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِيلِ وَالْتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيتٌ﴾ [الحج: ٥٧].

وعلى هذا فما ذكره صاحب «الوحدة الموضوعية في سورة يوسف» غير دقيق حيث رأى أن «ما» إن كانت موصولة فلا داعي للفاء، والأولى أن تكون شرطية لأن كونها موصولة لا تبين فيه حرارة إخلاص يوسف<sup>(٣)</sup>. والحق أن لا صلة لكونها موصولة

(١) راجع كتابنا (لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن).

(٢) راجع كتابنا «البلاغة فنونها وأفنانها - علم المعاني» مبحث الإطلاق والتقييد.

(٣) ص ٣٩٨.

أو شرطية بالإخلاص أو الحرارة، وفي آيتي البقرة والحج خير دليل لما قلت، وقوله إن (ما) لو كانت موصولة فلا داعي للفاء ترده آيتا البقرة والحج حيث جاء فيهما اسم موصول (الذين) ولا يجوز أن يكون شرطاً.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا نَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] يدلنا على كثرة الخيرات في أرض مصر من جهة وعلى وجوب الاقتصاد فيما يأكلون من جهة أخرى، وبعد سنتي الخصب السبع يأتي سبع شداد يأكلن كل شيء إلا قليلاً مما يحصنون، أي ما يضعونه في أمكنة كأنما هي الحصن وهي التي تُعرف بالصوامع في أيامنا هذه، ثم يأتي بعد ذلك عام خصب فيه يُغاث الناس ويعصرون<sup>(١)</sup> وهذا دليل على كثرة الخيرات في هذا العام من زروع وثمر ولقد قلت من قبل إن سورة يوسف عليه الصلاة والسلام يجد من يتدبرها أنها تطوي كثيراً ممّا يُعلّم من السياق من أخبار، فبعد أن سمع الساقى هذا التأويل من يوسف عليه السلام ذهب إلى الملك وأخبره بما قال يوسف عليه السلام فعجب الملك وسرّ من هذا القول وطلب من خاصّته أن يأتوه بيوسف عليه السلام كلّ هذا طواه القرآن الكريم لكونه معلوماً ويذهب الرسول بالبشرى إلى يوسف ليخرجه من السجن لأنّ الملك يودّ لقاءه، وهنا يبرز ما لم يكن في الحسبان، هنا تصغر الحياة وتلاشى. كلّ هذه الزخارف والمآثر التي يطمع فيها كثير من الناس تلاشى أمام عظمة النفوس الكبيرة التي اختارها الله لتؤدي الرسالة وتقوم بالعبء

وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين الكبير العظائم

فمن ذا الذي يتصور أو يدور في خلدّه أنّ سجيناً قضى في السجن سنين طويلة ظلماً وعدواناً يأبى الخروج من السجن والخروج إلى أين؟ إلى حيث اللقاء بالملك سيّد البلاد كلّها، ولكنه يوسف الكريم ابن الكرماء عليه السلام ولنستمع إليه ماذا يقول لرسول الملك: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠] يعني الملك فسّله عن خبر كان له في الناس

(١) يغاثون بالنبث والكلأ ويعصرون أي يستخرجون الماء مما يعصر كالعنب والقصب والسمسم.

شأن وهو خبر النسوة اللاتي قطعن أيديهن قبل سنين طويلة والذي كان سبباً في زجه في هذا السجن ما بال أولئك النسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكِدِّهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠]. ويلتقيهن الملك ويسألهن ويحجن مجمعات «حاشا لله» تلك الكلمة التي قلنها يوم أن التقين بيوسف عليه السلام لأول مرة في بيت امرأة العزيز ﴿ حَسَّ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١] كانت الكلمة تنم عن إعجابهن بجماله وحسنه وبهاء طلعته، ولكنهن يقلنها الآن إعجاباً بالجانب الخلقي ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ [يوسف: ٥١]، وهكذا أكرم الله يوسف فجعله خلقاً وحسنه خلقاً ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أي لم نعلم عليه أي سوء قليلاً أو كثيراً. فمن هذه استغراقية كما يقول علماء اللغة ويؤتى بها لتأكيد النفي وتأكيد عمومته أي ليس عليه ذرة سوء. ومثل هذه قوله سبحانه ﴿ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: ٣٨] فمن هذه للاستغراق أي لا نشرك بالله أي شيء وهي لتأكيد النفي وعمومه.

وقد ذهب الأخ الفاضل صاحب «الوحدة الموضوعية في تفسير سورة يوسف» مذهباً عجباً حيث قال إن (من) في الآيتين تبعيضية وإن نفي الأخص أبلغ من نفي الأعم، ولكن المعنى لا يستقيم على هذا القول، ثم إن من المعلوم بداهة أن نفي الأعم أبلغ من نفي الأخص.

وهنا نتحدث امرأة العزيز ﴿ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ ولم تقل هذه العبارة لأول مرة بل قالتها أول مرة في حضرة النسوة ﴿ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف: ٣٢]، وها هي تقولها الآن مرة أخرى ﴿ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾. والفرق بين القولين أن القولة الأولى جاءت مؤكدة بمؤكدات كثيرة وهي القسم وقد، لأن اللام واقعة في جواب القسم، وأما هنا فليس فيها إلا تأكيد واحد وهو ذكر الضمير مرتين (أنا والتاء) ولم تقل ﴿ روادته عن نفسه ﴾ بل قالت ﴿ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾. ويبدو أن الفرق بين الموضعين والله أعلم بما ينزل أنها قالتها في المرة الأولى وهي تتبع من عواطفها ورغبتها وإحساساتها.

قالتُها متوعدةً مهددةً تريد أن تظهر قوتها وبطشها وترفعها ليستجيب لها، ولذا قالت ﴿وَكَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ﴾ الآية. وليس الأمر هنا كذلك، فهي الآن في معرض الاعتراف والإقرار بالحقيقة، ولذلك شفعت هذا الاعتراف بقولها ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. فهي تؤكد صدقه هنا بمؤكدات كثيرة.

من هو قائل: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٢-٥٣].

اختلف المفسرون في القائل، فبعضهم قال إنه يوسف عليه السلام: أي ليعلم زوج المرأة أنني لم أخنه بالغيب، ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾. ومن قائل إن هذا قول امرأة العزيز وهو ما أرجحه بل أؤكد له لما يلي:

أولاً: إن الحديث متصل بكلام امرأة العزيز، ولم يكن يوسف عليه السلام موجوداً بينهم ليقول هذا القول، وهل كان يوسف عليه السلام يعلم الغيب ليقول قوله هذه؟

ثانياً: إن المرأة اعترفت بأنها روادته عن نفسه في حضوره وحضور النسوة وأنكرت هذا أمام زوجها حين قالت ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أما الآن فيوسف غائب عن المجلس، لذا تريد أن تعترف في غيبته علها تكفر عن خطيئتها ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] أي ليعرف يوسف عليه السلام أنني اعترفت بالحقيقة في غيبته.

ثالثاً: إذا كان هذا قول يوسف عليه السلام فمؤداه أنه يريد أن يعلم عزيز مصر أن يوسف عليه السلام ما اعتدى على عرضه وما خاناه في غيبته، وهذا مردود لأمرين:

١- أن الزوج كان يعلم الحقيقة كما حدثتنا الآيات الكريمة من قبل ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ [يوسف: ٢٩].

٢- قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُذُنُهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥]  
ومعنى هذه الآية الكريمة أنهم رأوا الآيات التي تثبت براءته عليه الصلاة والسلام فما  
معنى قوله الآن ﴿ لِيَعْلَمَ أَفَىٰ لَمْ أَخُنْهُ ﴾ فقد علمه من قبل . ثم لا ندري أكان الزوج على قيد  
الحياة أم لم يكن .

رابعاً: قوله سبحانه ﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]  
هذا القول أولى بامرأة العزيز من يوسف عليه السلام ، لأن نفسها هي التي أمرتها بالسوء  
أما هو فلا .

وقد يسأل سائل: ألا يرجحُ قوله ﴿ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي ﴾ وقوله ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ  
الْمُفَاسِقِينَ ﴾ إسناد هذا القول إلى يوسف لفساد عقيدة المرأة؟ وأقول: ليس هذا مرجحاً لأن  
المعروف أن قدماء المصريين كانوا يؤمنون بالله . صحيح أنه كان في عقيدتهم شيء من  
الزيغ حيث لم تكن صافية، لكن ليس معنى هذا أنهم لا يعترفون بإله يعبدونه فقولها  
منسجم كل الانسجام مع معتقداتهم في ذلك الزمن .

وبعد هذه الشهادات الصريحة المؤكدة من النسوة جميعاً ومعهن امرأة العزيز لم يسع  
الملك إلا أن يزداد إعجاباً بيوسف عليه الصلاة والسلام وشوقاً إلى لقائه لقد فرض  
يوسف عليه السلام إجلاله وتقديره على ملك مصر، وما هو في هذه المرة لا يقول  
﴿ أَتُؤْنِسُ يَدِي ﴾ فحسب كما قال في المرة الأولى بل يقولها بكل جدية وصراحة واعتراف  
﴿ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ . ما أجمل النظم القرآني في تعبيره وإيحاءاته وأسراره النفسية والبيانية  
﴿ أَسْتَخْلِصُهُ ﴾ فما أبدع هذه الكلمة في موضعها .

قال الزمخشري رحمه الله: أستخلصه، ويقال استخلصه إذا جعله خالصاً لنفسه خاصاً  
بها . ولقد كان الملك جيد الإدراك حسن الاستنتاج فما سمعه عن يوسف عليه السلام  
وما عرفه عنه جعله يصمم على أن يجعله من خاصته .

ويذهب الرسول مرةً ثانية وفي هذه المرة يأتي يوسف عليه السلام متسربلاً بثوب العزة مرفوع الرأس مطمئن النفس نقي الصفحات وصدق الله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، قد تكون ثياب يوسف ثياباً لا تليق كثيراً بلقاء الملك فهي ثياب من قضى في السجن سنين عدداً، ولكن ماذا يضيره ونفسه تتألق طهراً وذكره ينتشر أريجاً وعبيراً، يجد فيه الملك عَرَفاً فَوَاحاً وما الثيابُ إذا تسربت النفوس سربال العلوِّ والسمو؟ ورضي الله عن الشافعي:

عليّ ثيابٌ لو تُباعُ وتُشترى بفلسٍ      لكان الفلسُ منهنّ أكثرا  
وفيهنّ نفسٌ لو تُقاسَ بمثلها      نفوسُ الوري كانت أعزَّ وأكبرا

ويصارعُ الملكُ يوسف عليه الصلاة والسلام بما يضمّر له في نفسه من رفعة مكانةٍ وخالصِ مودةٍ وحسنِ اصطفاءٍ ﴿إِنَّكَ أَلْيَمٌ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، أمّا الأمين فمعلوم وهو ذو الأمانة الذي يأتّمته الناس على أموالهم وأعراضهم، وأمّا المكين فهو ذو القدر والمنزلة المتمكن في قلوب الناس.

### سر تقديم التمكين على الأمانة:

وهنا دقيقة قرآنية من لطائف البيان وبدائع النظم. قد يُظنّ أنه كان ينبغي أن يقال أمين مكين فتقدم الامانة أولاً ولكنّ النظم القرآني جاء على غير هذا، ويظهر أنّ السبب -والله أعلم بما ينزل- أنّ أمانة يوسف عليه الصلاة والسلام كانت أمراً بدهياً يعرفه هو وغيره، وأيّ أمانة أعظم مما حدث منه عليه الصلاة والسلام في بيت العزيز ومع النسوة اللواتي يرفلن بالعزّ ونؤومات الضحى. أمانته إذن أمرٌ بدهيٌّ، لكنّ الأمر الذي أراد الملك أن يبادره به هو أنه مكين عنده، له منزلته ومكانته في قلبه. ويدرك يوسف عليه الصلاة والسلام صدق الملك وأنّ الملك يريد أن يستخلصه حقاً وهو يعلم ما سيحلّ بالبلاد وهو يعلم كذلك أنه أحرى الناس ليقوم بما تحتاجه البلاد وهو يدرك كذلك أنّ الله أعده ليصل به إلى غاية يريد بها سبحانه ويقيناً لم ينس يوسف عليه السلام ولا يُعقل أن ينسى ما فعله

إخوته ولن ينسى أباه الشيخ الكبير النبي الصالح عليه السلام وكان من السهل أن يغادر مصر إلى فلسطين، ولكنها النبوة أو إرهاباتها، وإنها الحكمة العظيمة، ويستثمر يوسف عليه السلام ما عرفه من صدق الملك وما عرفه من حسن قيامه وإدارته فيقول قولته قوله العزيز بالعزة الإلهية قبل أن يكون عزيزاً من حيث المنصب والوظيفة: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. ما أجمل هذه المقابلة بين ما قاله الملك عنه ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ وما قاله هو عن نفسه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

### سر تقدم الحفظ على العلم:

وقد يقال هنا: لم لم يقدم العلم؟ ونقول ما قلناه من قبل إن قضية العلم معروفة عند القوم: ألم يؤول لهم الرؤى بما استقر في نفوسهم؟ لكن الأمر الذي يريد أن يبادرهم به هو أنه حفيظ، وقد أثار صاحب التفسير الموضوعي لسورة يوسف قضية كان ينبغي أن لا تثار حيث قال: كيف يطلب يوسف عليه السلام هذا من الملك؟ أكان العزيز على قيد الحياة أم كان ميتاً؟ ويرجح الكاتب حسن باجودة أن يوسف عليه السلام لم يطلب هذا المنصب من العزيز إلا لأن المنصب شاغرٌ كما يقول سواء أكان عزيز مصر حياً أم ميتاً ويرجح الكاتب أنه كان حياً لقوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ وقد عرفتم أن هذا القول ليس ليوسف عليه السلام بل هو لامرأة العزيز وكان ينبغي ألا يشير الكاتب الفاضل هذا التساؤل، لأن منصب العزيز ليس كما يظن منصباً واحداً لا يشغله إلا شخص واحد، ويظهر أن كلمة (عزيز) في ذلك العصر كانت تشبه كلمة وزير في أيامنا، فهناك وزير الأمن ووزير الصحة ووزير التموين... الخ. وقد قالوا إن العزيز الذي تحدثت عنه الآيات وهو زوج المرأة كان مسؤولاً عن الشرطة، ولم يحدثنا القرآن الكريم عما أجاب به الملك يوسف عليه الصلاة والسلام لكنه معروف من السياق فلقد استجاب الملك، ولهذا كان التعقيب القرآني بديعاً فيه الطمأنينة للذين يتقون ربهم ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] وهذه المرة الثانية التي يكرم الله بها يوسف عليه السلام.



لقد قرأنا هذه الجملة الكريمة من قبل حينما كان يوسف عليه السلام في بيت العزيز وقد أراد أخوته أن يجعلوه في غيابة الجب وها هي تقال الآن بعد أن أخرج من غياهب السجن وما أشبه غيابة الجب بغياهب السجن ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]. وها هي النعمة تُذكر مرة أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦] ولكن التعقيب على كلٍّ من النعمتين كان مختلفاً عن الآخر. كان لكلٍّ منهما سياقه الذي جاء فيه والحاجة الداعية إليه، أما التعقيب الأول ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وأما هنا فقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]. أليست هذه نقلة جديدة في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام؟ أليس ذلك جزاء الصابرين؟

ثم يعقب القرآن على هاتين النعمتين ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]، هذا كله في الدنيا أما في الآخرة فالأجر أكبر وأعظم ﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ اللهم اجعلنا من أولئك.

وقبل أن نتحدث عن الحلقة التالية حريّ بنا أن نفق لتدبر هذه الصفات التي أكرم الله بها يوسف عليه الصلاة والسلام: مكين أمين، وحفيظ عليم، فإذا ضمّمنا إلى هذه الصفات الأربع أربعاً أخرى: الإحسان ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، والإخلاص ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، والإيمان والتقوى ﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أدركنا سرّ العظمة ومصدر السموّ في شخصية الكريم ابن الكرماء تلكم الصفات التي جمعت فأوعت فلم تفتّها فضيلة من فضائل الأخلاق ولا مكّمة من مكارم الاجتماع. هذه الصفات الثماني التي كرم بها الله فازداد رفعةً وعظم منزلةً وشرف مكانةً ومكاناً. وشاء الله كما منّ عليه بهذه الصفات التي تتظم جمال الخلق - أن يكرّمه بجمال الصورة والخلق وشتان بين ما لاقاه نتيجةً لجمال الخلق والخلق فجمال الخلق كان سبب بلائه، وكانت عاقبة جمال الخلق رفعةً وحسن مآلٍ.

وبهذا تنتهي هذه الحلقة من قصة يوسف عليه السلام لتبدأ حلقة جديدة، ما أجملها من حلقات متسلسلة يأخذ بعضها برقاب بعض .

### الحلقة الخامسة:

قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْأَتْرُونَ أَوِىَ الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ قَالُوا سَمُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ أَجْعَلُوا يَصْنَعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَحَافِظُونَ قَالَ هَلْ أَمَنَّكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنَّاكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ قَالَهُ خَيْرٌ حَفِظْتُهُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا يَصْنَعَتَهُمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفِظُ أَخَنَانَا وَنَزِدُادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ قَالَ لَن أُرْسِلُهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتُوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

[يوسف: ٥٨-٦٩].

وتمر الأيام وتبدأ السنون صعوبة وقحطاً وشدة، وتكون مصر مقصد البلاد المجاورة ويجيء إخوة يوسف عليه السلام، ما أعظم حكم الله!! سبحانه ربنا!! نختار ما اخترت لنا لا نستبدل به غيره يجيء إخوة يوسف عليه السلام وتلك في ظننا لحظة من اللحظات الفريدة في حياة يوسف عليه الصلاة والسلام، إنها البداية التي كان يترقبها، يعرفهم ولكنه يتمالك نفسه، ويستطيع على رغم كل ما يتفاعل فيها أن يخفي الأمر، وهو موقف لا يستطيعه كثير من الناس، يا للحصافة والحكمة!! يا لأصحاب النهى وأولي الأبواب!!

أما هم فلا يمكن أن يدور بخلد هم أو أن يمر في نفوسهم أنه هو يوسف عليه السلام فلقد مضى على فراقهم أكثر من عشرين سنة منذ أن ألقوه في الجب، منها سنون في بيت العزيز ومنها بضع سنين في السجن ويضع سنين أخرى منذ خروجه من السجن، ثم كيف يعرفونه وقد ألقوه في غيابة الجب؟ ومن يدري أزال على قيد الحياة؟ وإن كان ففي أي بيت يخدم أو أي عمل شاق يقوم به؟ وما درى أولئك أن الحكمة العليا تتصرف في هذا الكون وتصرفه بما يغفل عنه كثير من الناس؟!.

وقد طوى القرآن بعض الأحداث التي لا تتعلق فيها العبرة، ولكن الذي يفهم من السياق أنه سألهم وقد رآهم كثيراً فعرفوه أنهم إخوة، ولعله أبدى استغرابه لذلك أنتم عشرة إخوة؟ فقالوا له: إن لنا أخاً آخر ولكن من أبنائنا<sup>(١)</sup>، فأبدى استغراباً لذلك وهذه من حصافته وحكمته وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة لا دليل عليها لذا أعرضنا عن ذكرها، وقد عرفوه أنهم من بيت النبوة وإن جدهم إبراهيم عليه السلام ولم يكن خبر إبراهيم بعيداً عن مصر وأهل مصر فرحب بهم وأكرمهم، ولكنه طلب منهم وألح عليهم أن يأتوه بالأخ الذي لهم من أبيهم ورغبهم في ذلك، ﴿الْأَمْوَاتُ أَفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩-٦٠]، والقوم يشعرون بما فعلوه بيوسف عليه السلام لذلك لم يعزموا على الأمر وقالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون وتقدم معنى (الرَّوْدُ)، وهم يدركون أنه ليس من اليسير والسهل أن يستجيب لهم أبوهم، فلا زالت تملأ نفسه حسرةً وألماً غيبه يوسف عليه السلام، لذا عبروا بكلمة «سنراود» ثم قالوا سنراود عنه أباه، ولم يقولوا أبانا. وهي التي قالوها من قبل ﴿يَتَابَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١]. وهذا كله من أجل أن يبينوا ليوسف أن الأمر ليس يسيراً، لكنهم سيبدلون جهدهم. وأكدوا هذا بقولهم ﴿وإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾.

(١) ذكر ياقوت رحمه الله في معجم البلدان عن حديثه عن العريش وأنها أول بلاد مصر من ناحية الشام أن إخوة يوسف حينما جاءوا مصر ارتاب فيهم الحرس وأرسلوا إلى يوسف ينبئونه خبرهم وبني لهم عريش يمكنون فيه حتى يأتي الأذن لهم وسميت البلد بهذا الاسم من ذاك اليوم. وهذه الحادثة وإن لم نستطع أن نثبتها تاريخياً لكنها تلقي ضوءاً نفهم منه قول يوسف عليه السلام ﴿اتوني بأخ لكم من أبيكم﴾.

أمر يوسف عليه السلام فتياه أن يجعلوا في رحالهم بضاعتهم التي جاؤوا ليشتروا بها مؤونتهم، جعلها في رحالهم ليكون ذلك أدعى لرجوعهم ومجيئهم مرة أخرى وإحضارهم أخاهم معهم.

ويرجع الإخوة إلى أبيهم ليحدثوه عما لقوا من إكرام، ويجدون بضاعتهم قد ردت إليهم حينما يفتحون أمتعتهم، ويكون ذلك أدعى لهم ليقنعوا أباهم بإرسال أخيه معهم، إنهم مصممون على أن يصدقوا مع عزيز مصر الذي أحسن وفادتهم وأكرم نزلهم. ثم إنهم سيؤمنون الكيل إن لم يلَبُوا رغبته. وها هم يخبرون أباهم بذلك. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعْ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، وهنا تمرّ الذكريات في نفس يعقوب عليه السلام لوعة وألماً. ألم يقولوا هذا الكلام من قبل؟ لقد سمعه يعقوب عليه الصلاة والسلام منذ أيام يوسف عليه السلام. ألم يقولوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢]؟ ولم يكن من ذلك شيء، فلا نصح ولا حفظ بل كان بكاءً مزيفاً ودماً كذبا.

ويفتحون متاعهم. ويفجأ القوم، إذ يجدون مالم يكن في الحسبان. فهذه بضاعتهم الأموال التي أخذوها ليشتروا بها ردت إليهم. ومن الذي يملك ردّها إلا العزيز إنّه حرّى إذن أن يصدقوه القول. ويأخذوا أخاهم. ولكن الأمر كما يعلمون دونه عقبات كأداء. لا بدّ إذن من بذل الجهد عليهم يقنعون أباهم.

### معنى (ما نبغي):

وها هم يقولون وقد وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ [يوسف: ٦٥] وللمفسرين في قوله ﴿مَا نَبْغِي﴾ أكثر من قولٍ واحد. ذهب جمهورهم إلى أنّ ما استفهامية أي، أي شيء نبغي ونطلبه. وها هو عزيز مصر أكرمنا فردّ إلينا بضاعتنا التي أخذناها ثمناً للطعام. ثم نحن بعد ذلك ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ والميرة جلب الطعام وإحضاره ﴿وَنَحْفَظُ آخَانَا﴾ ولعل تعبيرهم هنا بالجملة الفعلية ﴿وَنَحْفَظُ﴾

إشارة إلى أن حفظهم يتجدد لحظة بعد لحظة بحيث لن يغفلوا عنه، وهناك فائدة جلية الحاجة إليها ماسة. سيزدادون كيل بعير إذا كان أخوهم معهم ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ميسر وترجع الذكريات ليعقوب عليه السلام. كيف سيظمن لهم والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين كيف وقد أمنهم على أخيهام من قبل. ولكن الشيخ الوقور الصبور يبين لهم أنهم إن لم يرحموا هم بما فعلوا بيوسف عليه السلام وإن لم يحفظوه ويحفظوا يوسف عليه السلام من قبل فإن الله يحفظه ويرحمه ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] هو خير من كل أحد حفظاً وأكثر من كل أحد رحمة. ويلح الأبناء. وبعد هذه المحاورة القاسية. يعلن الأب: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]، بهذا التصميم والتأكيد الذي تدل عليه كلمة «لن» ﴿حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ فتوثقوا أقوالكم بشهادة الله سبحانه وتعالى على أن تأتوني به إلا إذا كان هناك أمر فوق إرادتكم لا تستطيعون رده.

وهذه نصفة من يعقوب عليه الصلاة والسلام. فقد يصيب ابنه شيء لا قبل لهم به ويشهد الأبناء الله على أنفسهم ويعطون الموثق أباهم. وهنا تظهر قوة إيمان الشيخ الصبور الوقور بل النبي الرسول؛ فها هو بعد أخذه الأسباب جميعها يبين أن هذه الأسباب لا تغني شيئاً إن لم تكن مبنية على التوكل على الله، ونرى هذا بارزاً من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي على ما أقول أنا وأنتم. ونقرأ في الآية التي تليها ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ويظهر حرص الشيخ على أبنائه وعاطفة الأبوة تتأجج في نفسه. وهو يعظهم. ﴿يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ ويظهر أن هناك حكماً كانت بخلد الشيخ النبي. فهم أحد عشر رجلاً. قد تصيبهم عين عائن أو حسد حاسد أو قد تُظن بهم الظنون والوقاية خير من العلاج. ولكن يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو الذي لم ينقطع قلبه عن ربه أيقن أن أمر الله نافذ، سواء أدخلوا من باب أم من أبواب ولكنه الأخذ بالأسباب، وهذا ما يرشد إليه قوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا أَعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

ويحقق الأبناء رغبة أبيهم فيدخلون من أبواب متفرقة ولكن هذا لم يغن عنهم من الله من شيء حيث حدث لهم ما حدث فأخذ أخوهم الذي أعطوا موثقاً من أجله، وبقي كبيرهم في مصر فذهبوا أحد عشر ورجعوا تسعة . ولكنها حاجة في نفس يعقوب عليه السلام قضاها .

وما أجمل التعقيب القرآني يحدثنا عن فضل يعقوب عليه السلام وكرامته عند ربه وإكرام الله له ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ وهنيئاً لمن أكرمه الله فعلمه، ولكن العلم الذي أساسه التقوى وليس العلم العام الذي يعلمه الناس جميعاً ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] .

وبهذا تنتهي الحلقة الخامسة من هذه السيرة العطرة من حياة الصديق ابن الصديقين، الكريم ابن الكرماء ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] .

### الحلقة السادسة:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخِيهِ قَالَ إِلَىٰ أَخِيكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا آلُيُسُفَ إِتَكُمْ لَسْرِفُونَ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتَنَا لِنُغِثَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ شَاءَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ قَالُوا يَا أَبَتِ ابْنُكَ الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَاسِيخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ فَلَمَّا أَسْتَنْسَوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ

عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ أَرْجِعُوا إِلَى آبَيْكُمْ فَقُولُوا يَبْنَائَانَا إِنَّكَ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ وَشَلَّى الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفَى عَلَى يُونُسَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا نَالَهُ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثْنَى وَحُزْنِىَ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَبْنَى أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفُؤْمُ الْكَافِرُونَ ﴿[يوسف: ٦٩-٨٧].

ويدخلون على يوسف عليه الصلاة والسلام، وهنا يطوي القرآن ما كان عند دخولهم، وكيف انفراد يوسف عليه السلام بأخيه وأعلمه الحقيقة، وقد قيل إنه أكرمهم فوضع كل اثنين على خوان، وهو ما يوضع عليه الطعام وبقي أخوه وحيداً فبكى وقال: لو كان أخي يوسف عليه السلام حياً لجلست معه، فقال لهم: أنا أجلس مع أخيكم هذا، لأنه ليس له من يجالسه، فقال له: لا تحزن ألا ترضاني أخاً لك فقال أخوه: ومن لا يرضاك أخاً، ولكن لم يلدك يعقوب عليه السلام.

فبين له الأمر وسواء صحت هذه أم لم تصح إلا أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- انتهز الفرصة ليخبره بأنه أخوه دون علمهم.

﴿إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] ومن لطائف الإعجاز ما أتيته لكم. جاء في سورة هود قول الله لنوح -عليه الصلاة والسلام-. ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]. وفي هذه السورة ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وبين العمل والفعل فروق. أحدها: أن العمل هو الفعل الذي يكون نتيجة اصرار وتصميم، لكن الفعل قد يكون كذلك وقد يكون غير هذا. أي ليس مسبوقاً بتصميم وقرصد.

وإخوة يوسف عليه السلام قرروا وعزموا على إلقائه في الجُبِّ. وليس قوم نوح جميعاً كذلك فانظروا أرشدكم الله إلى هذه الدقائق القرآنية التي تأخذ باللبِّ وتأسر القلب، ﴿قُرْءَانًا غَرِيْبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَنْقُوْنَ﴾ [الزمر: ٢٨].

ولما جهّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه، وقد يسأل سائل: كيف يتأتى ليوسف عليه السلام أن يفعل مثل هذا؟ وأقول: إنّ يوسف عليه السلام نبى وما فعله إلا لحكمة وليس في فعله ظلم لأحد ولا انتقاص من أحد. وبعد أن سارت قافلتهم تبعهم هو وبعض فتياه ﴿ثُمَّ أَدْنَىٰ مُّوَدَّنٌ﴾ أي نادى منادٍ فيهم ﴿أَيُّهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَرْقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] فوقفوا مشدوهين وعجبوا من ذلك كلّ العجب وأقبلوا على ذلكم المنادي ومن معه ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ نحن لم نأخذ شيئاً ويقال لهم ﴿نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ وإحكاماً لما قصده يوسف قيل لهم ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جِمْلَ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢] أي من يجيء به منكم معترفاً بما كان منه فإن له حمل بعير من الطعام ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي كفيل كلّ ذلك من أجل أن تكون الحلقات محكمة، ويقول إخوة يوسف ﴿تَاللَّهِ قَسَمٌ فِيهِ تُعْجَبُ مَا جِئْنَا لِنُرْتَكِبَ الْإِثْمَ وَنَتَجَاوَزَ الْهَدْيَ وَمَا جِئْنَا لِنَفْسُدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ فَإِنَّ السَّرْقَةَ مِنْ شَرِّ أَنْوَاعِ الْفُسَادِ وَالَّذِي يَسْرِقُ الصُّوعَ يُمْكِنُ أَنْ يَسْرِقَ شَيْئاً آخَرَ، وتظهر حصافة يوسف عليه السلام مرة أخرى، وكل ذلك تقدير العزيز العليم. يقول لهم ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤] أي فما جزاء الصُّوع المسروق أو ما جزاء السارق؟ فيقولون: ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: ٧٥] وتلكم هي شريعة يعقوب عليه الصلاة والسلام أن يسترق السارق بسرقة أي أن يؤخذ رقيقاً (عبداً) أما شريعة المصريين فكانت شيئاً آخر وهو أن يغرم السارق ضعف سرقة لكنه تقدير الله عز وجل، وهذا ما أرشدت إليه الآية الكريمة ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ونفهم من الآية الكريمة أن كل ما حدث تدبير من الله تبارك وتعالى:

يا حاكمي وحكمي أفعالك الكلُّ حكمه



وتظهر حكمة يوسف مرّة أخرى فيها هو يبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم يستخرجها من وعاء أخيه. وأنبّه هنا على أنّ السقاية التي وضعت في رحل أخيه هي نفسها الصواع إلا أن السقاية ما يسقى به والصواع ما يكال به ويظهر أنها كانت تستعمل لهما معاً لذا ذكرت تارة وأثنت تارة، ويكشف القوم عن طباعهم وخلجات نفوسهم ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، وللمفسرين أقوال كثيرة فيما نسبته إخوة يوسف عليه السلام له ويظهر أنها كلها لا تستند إلى حق ﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي تجاهل قولهم ولم يناقشهم، وهو من حكمته. وهذا يدلّ على أنهم لا زالت نفوسهم تمتلئ حسداً من يوسف عليه السلام وأخيه.

يذهب أكثر المفسرين إلى أن قوله ﴿أَنْتُمْ سَرَّكُمْ مَكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧] إلى آخر الآية. هذه هي التي أسرها يوسف عليه السلام في نفسه، فلم يبدها لهم، أي قوله أنتم سرّ مكاناً بقي حبيس نفسه دون أن يسمعون إياه، ولكن الذي رجحته لك غير هذا. فالذي أسره يوسف في نفسه كما يبدو والله أعلم ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ فلم يشأ أن يرد قولهم عليهم. ثم ما المانع أن يكون قوله ﴿أَنْتُمْ سَرَّكُمْ مَكَانًا﴾ أن يقوله لهم مشافهة قاصداً إسماعهم هذا القول والآية تحتل المعنيين، لكنني أرجح ما سمعت والله أعلم بما ينزل. ويحاولون جاهدين أن يتشفعوا عند يوسف علّه يعفو عن أخيه لأن له أباً شيخاً كبيراً وإلا فليأخذ أحدهم مكانه ويتوسلون إليه بقولهم ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨] ويقول: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩].

ولقد كان يوسف منصفاً كلّ الإنصاف دقيقاً كلّ الدقة مهذباً كلّ التهذيب وهو ينطق بهذه الكلمات ﴿وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل «لن نأخذ إلا من سرق» لأنه يعلم أنّ أخاه ليس سارقاً ﴿إِنَّا إِذَا أَظْلَمُوتُ﴾.

ويستئش الإخوة وينفردون ليتناجوا فيما بينهم ويذكرهم كبيرهم، ونظنه هو الذي قال لهم من قبل: ﴿لَا تَقْتُلُوا يَوْسُفَ وَالْقَوَّةَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] يذكر بأمرين اثنين:

بالميثاق الذي أخذه أبوهم عليهم، وبتفريطهم من قبل في يوسف عليه السلام، وبين لهم أنه لن يغادر أرض مصر إلا بعد أن يأذن له أبوه أو يحكم الله له بما يشاء وهو سبحانه خير الحاكمين، فليرجعوا إلى أبيهم فينبئوه بأن ابنه سرق وأنهم إنما يشهدون بما علموه وما هم بحافظين للغيب، ويحاولون تبرئة أنفسهم فليسأل القرية التي كانوا فيها ولم يقولوا «سل أهلها» لأنهم يريدون «سل القرية» كلها: أرضها وسماءها، أحياءها ونباتها وجمادها، وليسأل العير التي أقبلوا فيها، ويؤكدون ما أمكنهم التأكيد ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ويصلون إلى أبيهم ونسمع منه عليه الصلاة والسلام ما سمعنا منه من قبل: مقالته التي قالها يوم أن ألقوا يوسف في غيابة الجب ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ ولكننا نسمع منه شيئاً آخر يدلنا على ثقته بربه ورباطة جأشه وصادق توكّله. ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. وقوله بهم يعني يوسف عليه السلام وأخاه وكبير أولاده. وهذا يدلنا على رجائه الكبير في الله سبحانه. ولكنه مع ذلك أب امتلأت حياته بالمفاجآت الحزينة؛ لذا فهذه غمائم الأسى تحيط به فيتولى عنهم وتعود به الذكريات، ويستبد به الحنين والشوق ليوسف عليه السلام، وتبيض عيناه من الحزن في هم وكرب، وكأنهم يعجبون منه. كيف لا يذكر إلا يوسف عليه السلام ولا زالت لوعته بابنه الآخر قريبة العهد ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ والحرص هو المشرف على الموت، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. ويهرع إلى ربه يتضرع إليه، فهو لا يشكو بثّه وحزنه إلا إلى الله، والبتّ ما انطوت عليه النفس من الغم، ولكنه نبي فهو يعلم من الله ما لا يعلمون.

والمأمل في شخصية يعقوب عليه السلام كما هي في السورة الكريمة يدرك أنه عليه الصلاة والسلام كان على بيّنة من أمره ومن أن الله لا بد أن يجمعه بيوسف عليه السلام. كيف لا؟ وهو لا تزال تملأ نفسه ذكرى يوسف عليه السلام وذكرى رؤيا يوسف: ﴿يَا بَنِي إِدْرِيسَ أَتَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

أمّا الابن الآخر فهو غير قلق عليه، لأنه ليس مجهول مكان الإقامة وبهذا تنتهي الحلقة السادسة، ولنشرف النفس بما يختلب الآذان ويختلب الأذهان. فنكمل قصته ﷺ.

## الحلقة السابعة في قصة الكريم ابن الكرماء:

قال تعالى: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِشُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلُنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِضَلْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَاؤْفَ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوا أَيْ نَتْلُكَ لَا نَتُيُوسُفَ قَالَ أَنَا يُّوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا نَالَهُ لَقَدْ عَازَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيطِينَ قَالَ لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَيْ يَأْتِ بِصِيرًا وَأَتَوْبَ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَنُهِ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿﴾ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْتَأْهِمُ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ

الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿يوسف: ٨٧-١١١﴾.

استمعنا إلى الحق تبارك وتعالى يحدثنا عن يعقوب عليه السلام حديث الواثق بربه، وهو يشكو به وحزنه إلى الله ويعلم من الله ما لا يعلمون. وها هو يؤكد هذا المعنى، وهو يطلب من أبنائه أن يتحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه.

يمعنون في البحث، والتحسس مثل التجسس إلا أن الأول بالخير والثاني قد يكون بالشر، وأصله: استعمال الحواس بدقة وذكاء وكما أمرهم بالتحسس فإنه حذرهم اليأس من رُوح الله فإن اليأس من شأن الكافرين، وأن لا يقنطوا من رحمته، وليطمئنوا إلى ما عنده سبحانه وقول يعقوب يذكرنا بقول جده إبراهيم - صلى الله وسلم عليهم جميعاً- ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] ويستمع الأبناء قول أبيهم دون أن يراجعوه في شأن يوسف عليه السلام، مدعين أنه أكله الذئب، وعدم مراجعتهم أباهم في هذا الشأن اعتراف منهم بتزوير ما قالوه من قبل، حينما جاءوا على قميصه بدم كذب. ويستعد الإخوة للرحيل. ولم يحدثنا القرآن الكريم عن رحيلهم إلى (مصر) أذهبوا جميعاً؟ أم بقي بعضهم عند يعقوب عليه السلام؟

ويدخلون على يوسف عليه السلام ولكنهم يدخلون هذه المرة بنفوس منكسرة تختلف عن سابقها، يدلنا على ذلك هذا الحديث الذي نستمع إليه من كتاب الله ﴿يَتَأَيَّهَا الْعَزِيزُ﴾ بإظهار حرف النداء، ويبادرونه هذا القول ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ﴾ وعلامة ضررهم أنهم جاءوا ببضاعة مزجاة قليلة غير معتد بها. ويودون أمرين اثنين، أولاً: أن يوفي لهم الكيل مع كون بضاعتهم مزجاة.

ثانياً: وأن يتصدق عليهم. وفي هذا تلميح ليطلق أخاهم ليرجعوا معاً إلى أبيهم، ويختمون قولهم بهذا الدعاء ليشيروا في نفسه عوامل وكوامن حتى يستجيب لهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَصَدِّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨] ألسنت معي بأنها تفجر الحجارة القاسية، ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ وَحَسْنَا بِضْعَةً مُرَجَّةً﴾ جاءوا ببضاعة مزجاة لماذا؟

لضيق ذات اليد، إنها الحاجة الملحة، ثم استمع إلى هذه الكلمة: ﴿وَنَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾، وهم سلالة بيت كريم يعطي ولا يأخذ، لا بد أن يكون الأمر وصل بهم إلى ضنك شديد. نعم إنها تتفجر لها الحجارة القاسية أنا لا أرتاب وأظنك لا ترتاب معي بأنه ارتجف قلبه واهتزت نفسه وملاهما الحزن فلم يتمالك وقد هزته هذه الكلمات وبلغت منه مبلغها وأثارت فيه شجوناً تجمع بين الماضي والحاضر، وكأن نفسه الشريفة تدرك وتعاين ما يعيشه أبوه، وبخاصة بعد فقدته ابنه الآخر، وما أظهر أنه -عليه الصلاة والسلام- يستطيع في هذه اللحظات التي اهتزت لها جوانب النفس إلا أن يكشف عن حقيقة الأمر، ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩].

وهنا تكون المفاجأة التي تذرف لها العيون، وترتجف الأفئدة ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وما ألطف هذا الأسلوب وأعذبه<sup>(١)</sup>. إنه كلام الأنبياء، وقد عرف القوم أن هذا كلام لا يصدر إلا عن الحنفاء ذوي الدين ولا يعلم أحد من أهل مصر بما فعلوه فقالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُونُسَ﴾ [يوسف: ٩٠] فيقول يوسف -عليه السلام- ﴿أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ثم يبين السبب في ذلك، وهي قاعدة ينبغي أن نعصر عليها بالنواجد، تلك هي قول يوسف -عليه السلام- ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ نعم إن التقوى والصبر أساس لكل خير، ويعتذر القوم ويقول يوسف: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ﴾ ما أجملها من كلمة! صار عقبها في أعماق التاريخ، وذهب أريجاً يعطر الأيام والسنين، كيف لا؟ وما هو خاتم الأنبياء سيدنا -رسول الله- ﷺ - يتمثل بها ويرددها في يوم مرحلة يوم فتح مكة، وما أشبه هذا الموقف بذاك: «ما تظنون أنني فاعل بكم؟» وينطق الأهل والعشيرة: «أخ كريم وابن أخ كريم». فيقول -عليه الصلاة وأتم التسليم-: «لا أقول إلا كما قال يوسف، لا تثريب عليكم اليوم»<sup>(٢)</sup> إنها النفوس الكبيرة الكبيرة التي يصغر فيها كل ما

(١) كأنما هو يعتذر لهم عن أنفسهم بأن الذي فعلوه كان صادراً عن جهل، فهو يخفف عنهم ما يحسونه من حرج وضيق.

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة في خبر الفتح ٢/ ٢٧٤.

يعظمه الناس ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ اَلْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ اَرْحَمُ الرَّحِمِيْنَ﴾ ويعرف يوسف عليه السلام ما حلّ بأبيه، إنه ما زال يعاني منذ أن رأى القميص الذي عليه دم كذب. ولكن لا بد أن ينتهي هذا العناء. فيرسل إليه يوسف عليه السلام قميصاً آخر يشم منه ريح الروح الطاهر، ونسمات الروح العليل روح يوسف عليه السلام وريحه وريحانه. إنها كرامة الله لأنبيائه. ﴿اَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوْهُ عَلَى وَجْهِ اَبِيْ يَأْتِ بِصِيْرًا﴾ [يوسف: ٩٣] نعم يأتي بصيراً. ﴿وَأَتُوْنِيْ بِاَهْلِكُمْ اَجْمَعِيْنَ﴾ ولما فصلت العير ورجع الإخوة يحملون قميص يوسف، قال الشيخ الوقور النبي الرسول ﴿إِنِّيْ لَأَجِدُ رِيْحَ يُوسُفَٓ لَوْلَا اَنْ تُفْنِدُوْنَ﴾ لقد ذهبت مرارة اللوعة. وتلاشت أسباب الحزن، هباءً منثوراً، فلتبصر العين، ولن تجمد بعد اليوم، ألا زلت تذكر يوسف عليه السلام، ولقد مضى عليه ما يزيد على عشرين سنة ﴿إِنَّكَ لَفِيْ ضَلٰلٍكَ اَلْقَدِيْمِ﴾.

وما أشبه هذه الكلمة بما قالوه من قبل، ﴿إِنَّا بَانَا لِفِيْ ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ﴾ وأظنك تدرك أيها القارئ الكريم أن المقصود ليس الضلال في العقيدة، فهذا محال على الأنبياء.

ولكن أي الفريقين في ضلال؟ أهو أم هم؟ وها هي الحقيقة تنادي على نفسها وضوحاً وإشراقاً وتصل العير، ويجيء البشير. وتكون لحظة تتصل فيها أنوار السماء بالأرض. ويلقى القميص على وجه يعقوب فيرتد بصيراً، ويعلن يعقوب ما أعلنه من قبل ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّيْٓ أَعْلَمُ مِمَّنِ اللّٰهُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ ويعتذر الأبناء إلى أبيهم. ﴿يٰٓأَبَانَا اَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خٰطِئِيْنَ﴾ [يوسف: ٩٧] وقد قلت من قبل إن الخاطيء هو الذي تعمد الخطأ، ويعد الأب الأبناء بالاستغفار ﴿سَوْفَ اَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيْٓ إِنَّهُ هُوَ اَلْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ﴾ [يوسف: ٩٨].

و(سوف) تدلّ على الاستقبال، وقد يكون استقبالاً بعيداً، لأن الاستقبال القريب يكون بحرف السين كما يقول اللغويون. ويختلف المفسرون في سبب هذا التسويف أخره إلى السّحر؟ أم حتّى يُشاهد يوسف عليه السلام؟ أم كان ذلك لشيء آخره يضمّره في نفسه؟! على كل حال. لقد وعدهم. ووعد الأنبياء حقّ ويزعمون على الرّحيل.

وحيثما يشرفون على أرض مصر يخرج يوسف عليه السلام مع الملك والأعيان لاستقبال الشيخ الجليل ومن معه. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ إِنِّي شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ما أجمل هذه الكلمة ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وهذا يذكرنا بالآية الكريمة ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] ويصل الركب إلى مقر يوسف عليه السلام، ويرفع أبويه على العرش يجلسهما إلى جانبه ويخرون له سجداً تحية إكبار وإجلال، لا سجود عبادة، فهم الرسل المكرمون ويذكر ما قصه على أبيه في طفولته ﴿يَتَأْتِيَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ والفضل كله لله فقد أحسن به إذ أخرجه من السجن وجاء بأهله من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته وما أجمل هذا الذوق! وما أعظم تلك اللياقة! إنهم المصطفون الأخيار.

ما أحوج الناس أن يتعلموا من الأنبياء، دروس الذوق ودروس الصّفح، ومبادئ اللياقة. إنه ذكر الخروج من السجن، وليس لإخوته أي علاقة في سجنه ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يذكر -عليه الصلاة والسلام- الخروج من الجب الذي رموه فيه. إنه لا يريد أن يحرّجهم في هذه اللحظة الطيبة التي تسير فيها نسمات الصبا، والتي يشعر فيها جميعهم بفرحة الروح، وطيب اللقاء. إن ذكر الجب سيذكرهم بجريمتهم. وسيثير في نفس أبيه كذلك أشجاناً، حري بها أن تطوى أرايتم إلى عظمة الانبياء! أليست معي بأنه كما قال -الرسول- ﷺ. الكريم ابن الكريم ابن الكريم<sup>(١)</sup> ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ نعم إنه اللطيف سبحانه، وأي لطف خصّ به يوسف -عليه الصلاة والسلام- وهو يتفضل عليه في أوقات الشدة والكر. إنه اللطف الخفي ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ «أليست هذه هي التي سمعها يوسف عليه السلام وقد أخبر أباه بما رأى فقال له أبوه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِيكَ رَبُّكَ﴾ إلى آخر الآية التي جاء فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦]. وماذا كانت النهاية؟ ماذا يريد يوسف عليه السلام بعد ذلك من الدنيا؟ هنا لا بد أن يعمل كل إنسان فكره، هنا تتلاشى الحياة بكل مفاتها وزخارفها، وزيتها.

(١) سبق تخريجه بمعناه.

ها هو يوسف عليه السلام وقد بلغ منزلة لم تكن إلا للقليل من الناس . ولكن ماذا يريد بعد ذلك كله؟ كل ذلك إلى زوال . إنه والله لدرس عظيم حريّ أن لا يغفل عنه أحد . وبخاصّة اولئك الذين منحهم الله نعمة في هذه الحياة . كلمات ستبقى مترددة الصدى في أثير هذا الكون . إي والله . ستظل نوراً كاشفاً لأولئك الذين يودون أن تُستلّ أحقادُ صدورهم . ما أعذبهما نعمات روحية ملائكية! كلمات تهزّ النفوس ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١] .

تلك هي الغاية التي يبحث عنها الأنبياء الصديقون . إنها هي الأساس . إنها هي السعادة التي لا تفنى إنها غاية الأنبياء أولاً ثم من بعدهم من عباد الله الحنفاء ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ لقد سألها من قبل جدّ يوسف الأعلى أبو الأنبياء وشيخ الحنفاء أبونا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام - ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣] . و﴿ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠] .

ولا تحدّثنا الآيات عمّا كان من يعقوب عليه السلام بعد أن رفعه ابنه على العرش ولكنّ الدرس الذي لا ينبغي أن يُنسى ما أشرنا إليه من قبل في الحديث عنه -عليه الصلاة والسلام- حينما حضره الموت . وللموت كربات وغمرات وسكرات ولكنّ القرآن الكريم يحدثنا أن يعقوب -عليه الصلاة والسلام- وقد حضره الموت يتناسى سكراته وصعوباته . ولكنّه وكأنّه يشعر ماذا ستحدث ذريته من بعده نجله وهو في آخر لحظات الحياة يهيمن عليه شيء واحد وهو أن لا تنصرف ذريته عن التوحيد بعده . قل لي بربك أيها القارئ أيّ عظمة لهذه النفس ؟ يعاني سكرات الموت ، ولكنّه يهيمن عليه شيء واحد ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ﴾ ويطمئنه بنوه ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] وكأنني به تقرّ بهذا عينه وتطمئن نفسه ، فهو لا يريد بعد ذلك شيئاً من الدنيا ، وتلكم هي غاية الأنبياء . وهذا سيدنا رسول الله -عليه الصلاة والسلام-



كما تحدثنا السنّة الصحيحة وسيرته العطرة، وهو في آخر عهده بالدنيا يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم ! لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا.

ولا يحدثنا القرآن الكريم شيئاً عن موت يوسف عليه السلام . ويعقب القرآن الكريم بقوله للرسول -عليه الصلاة والسلام-: ﴿ ذَلِكُمْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٢].

نعم: إنه الوحي. أليس في قصّة يوسف عليه السلام آيات كثيرة حري بالناس أن يتدبروها غير معرضين ؟ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

إن رسل الله هم الصفوة المختارة. أرسلهم الله لينقذوا الناس من ظلمات الشر إلى النور المشرق وإلى الخير العميم في الدنيا والآخرة. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف: ١٠٩] وإنّ نهاية هؤلاء الأنبياء على الرغم من كل ما لاقوه. نهاية حميدة. ولا أدل على ذلك ممّا حدث ليوسف عليه السلام ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وما أجمل ما ختمت به سورة يوسف عليه السلام وما أجمل ما بدئت به! وأجمل من هذا وذاك أن نجمع البداية إلى النهاية.

أما البداية ففي قوله سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ وأما النهاية في قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

## تعقيب على قصة يوسف عليه السلام

في أول السورة الكريمة قرأنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ تَحْنُ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾، وفي آخرها قرأنا قوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، وما أجمل أن نقف عند أحسن القصص نتلمس فيه العبرة! والمتدبر للسورة الكريمة يجدها ثرية بما تعطيه من قيم، وبما تفرزه من نتائج، وما تبرزه من مبادئ، وبما تشتمل عليه من ألوان المعرفة المتعددة الاجتماعية ونفسية وخلقية وعقدية واقتصادية.

ابتدأت القصة من الأسرة ذات البيت الواحد والأب الواحد، والأسرة آية صلاح المجتمع أو فساده، بدأت القصة بالرؤيا، رؤيا يوسف -عليه السلام- وإذا كانت السورة الكريمة لا تحدثنا بادي بدء عن حب يعقوب ليوسف عليه السلام، إلا أن قول الأب لابنه: ﴿ لَا نَقْصُ رُبَّكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾، إشارة إلى هذا الحب، ولا عجب أن يستشف يعقوب النبي عليه السلام بعض حجب الغيب، وتلك مئة من الله يمن بها على من يشاء من عباده، ولقد دفع يعقوب عليه السلام ثمن هذا الحب الذي لم يستطع أن يخفيه عن الآخرين، دفعه لوعة ألم وسُقم جسد، ومرارة فراق، وتلك قضية لا زالت أَسْرَ كثيرة تجني من آثارها البغضاء والحقد والغل، ولقد أشرنا إلى هذا من قبل.

وقد تحدثنا عن العبر الكثيرة التي يمكن أن نستتجها من السورة الكريمة وعن القضايا العلمية والقيم الأخلاقية، والإشارات النفسية النفسية، ونحب أن نقف بعد كل ذلك عند قضية واحدة، وهي اللبنة التي أضافها يوسف -عليه السلام- لقد مرّ يوسف عليه السلام بأطوار مختلفة، فما أحبه إلى أبيه! ولكن ما أبغضه إلى إخوته! وبين عاطفتي الحب والبغض كان هذا التاريخ المليء بالمتناقضات فمن غيابة الجبّ إلى غيابة السجن، ومن بضاعة بيعت بثمن بخس مع زهد من بائعيه إلى غير ذلك من أطوار الضيق، من ذلك كله إلى حفيظ عليهم مؤتمن على خزائن الأرض يقول فيستمع له، ويأمر فيطاع، هذه الأحوال المختلفة التي مرّ بها -عليه السلام- لم تغير من جوهره شيئاً فلم يضعفه الابتلاء، ولم تُطْغِه النعماء ابتلي فصبر، وأعطى فشكر، ولَعَمْرُ الحق لن يطيق ذلك إلا أصحاب النفوس الكبيرة وهم الذين رسخت العقيدة في قلوبهم، وهذا يذكرنا بقول

النبي ﷺ: «عجبت من قضاء الله للمؤمن إن أمر المؤمن كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيراً له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»<sup>(١)</sup>.

وها هو القرآن يحدثنا عن محنته، ولكننا لم نسمع كلمة واحدة منه تحدثنا عن ضيق نفس أو تسرب يأس، وإنما الكلمات التي استمعنا إليها منه كانت صرخات يتضرع بها إلى ربه أن يعصمه فلا يفتنه لنستمع إليه وهو يقول لامرأة العزيز ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، ولنستمع إليه وهو يناجي ربه ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، حتى إنه كان يطوي كثيراً من المواقف والمشاهد التي تذكر الآخرين بجرائمهم ولنستمع إليه وهو يشكر ربه ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾، مع أن إخراجهم من الحب كان أولى أن يذكر، ولكنه طوى ذكره حتى لا يذكر أباه بما فعل إخوته ولا يذكرهم بما أقدموا عليه ومن قبل هذا لم يزد على أن قال لإخوته ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَٰيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ولنستمع إليه وهو يشكر ربه وقد آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث ﴿فَاطْرَأَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

تلکم لبنة عظيمة أضافها يوسف إلى اللبنيات التي وضعها الأنبياء -عليهم السلام- من قبله وهي جديرة أن تحفظ لمن أراد أن يحفظ الله عليه دينه، وما أجمل الصبر في موضعه، والشكر في موضعه، وما أجمل هذا القول من يوسف حتى وهو في السجن ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

وأرى تنميماً للفائدة والنفع أن أطلعك أيها القارئ على مدى الحقد والتزوير الذي يرمي به أعداء الإسلام ظلماً وعدواناً هذا القرآن العظيم، وأولئك ليسوا من المستشرقين والمبشرين فحسب، بل ممن تسربلوا سربال العلم، وأعني بهم كتاب الموسوعة البريطانية التي يفاخرون بأنها حصن من حصون العلم دقة وموضوعية وأمانة. وسأقل لك ما جاء في كتابنا «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن وردّ شبهات».

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٦، ص ١٥ عن صهيب رضي الله عنه.

## قصة يوسف عليه السلام:

جاء في دائرة المعارف (إن أطول هذه السور التي تتحدث عن موضوع واحد هي سورة (١٢) والتي تسرد قصة يوسف، وهي تضيف إلى المعلومات التي وردت في الكتب الدينية تفصيلات خرافية معظمها جاءت من مصادر يهودية).

أحبُّ أن أؤكد هنا أمرين اثنين أشرت إليهما من قبل :

الأمر الأول: أننا نسير في بحثنا هذا على منهج علمي نزيه مجرد بعيد عن كل المؤثرات، اللهم إلا ما يحتمه حماس لفطرة سليمة، أو انتصار لحق ظاهر، أو ردّ فرية ظاهرة البطلان، وأننا ندع القرآن نفسه -يحتاج عن حقائقه، ويدافع عن موضوعاته وسوره.

الأمر الثاني: أن القصص القرآني بعضه يشترك القرآن فيه مع الكتب السابقة، وبعضه ليس كذلك، وأن القسم الأول ليس متحداً اتحاداً تاماً بين القرآن وتلك الكتب. ومن هذا القسم قصة يوسف عليه السلام، التي تدعي دائرة المعارف فيها دَعَوِيَّتَيْنِ اثنتين: إحداهما: أن ما جاء في القرآن من سورة يوسف هو نفسه ما جاء في التوراة.

ثانيهما: أن في القرآن زيادات خرافية أخذت من أخبار يهودية. ولعلمهم يعنون بها القصص والحكايات التي يتناقلها الأفراد بعضهم عن بعض. ولذا فسيكون الحديث في مقامين اثنتين:

أحدهما: المقارنة بين التوراة والقرآن في هذه القصة.

الثاني: الأمور التي تفرد بها القرآن الكريم وحده.

أولاً: المقارنة بين القرآن والتوراة في قصة يوسف:

سنفيد في هذه المقارنة بما ذكره المفكر الكبير، والكاتب المسلم الأستاذ مالك بن نبي -رحمه الله- في كتابه الظاهرة القرآنية<sup>(١)</sup>.

فلقد ذكر النصوص التي جاءت في التوراة، والآيات في سورة يوسف، وما تفرد كل منهما به على حدة ثم سجل بعض النتائج لهذه المقارنة وسنلم بخلاصة ما ذكره عن تلك المقارنة، وذلك الاستنتاج.

### أولاً: المقارنة بين القرآن والتوراة في قصة يوسف:

الرقم	الرواية القرآنية	الرواية الكتابية	ملاحظات
3-1	مدخل يضع القصة في إطار الظاهرة القرآنية.	مدخل يضع القصة في الإطار العائلي.	اختلاف.
6-4	رؤيا واحدة ليوسف.	رؤيتان ليوسف.	اختلاف.
15-7	ذهاب يوسف بموافقة يعقوب عقب التآمر عليه.	ذهاب يوسف بأمر يعقوب.	اختلاف.
18-10	ارتياح يعقوب في أولاده وأهله عقب المؤامرة.	سرعة تصديق يعقوب ويأسه عقب المؤامرة.	اختلاف.
20-19	بيع يوسف ووصوله إلى مصر.	نفس الرواية.	القرآن يؤكد أكثر تدخل إرادة الله.
24	هم يوسف بالمعصية وبرهان الله له.	لم يرد.	
257	القميص تقده المرأة.	القميص تأخذه المرأة.	
29-27	إدانة خلقية من الزوج لزوجته.	غضب الزوج على يوسف.	اختلاف.
31-30	فضيحة في المدينة واجتماع النسوة.	لم يرد.	
34	دعاء يوسف أمام إلحاح المرأة.	لم يرد.	النبي يتحدث أكثر في القرآن.
40-36	وعظ يوسف لأصحابه.	لم يرد.	
41	تعبير الرؤيين يطلب من يوسف.	تعبير الرؤيين يتقدم به يوسف.	اختلاف.

(١) الظاهرة القرآنية ص ٢٩٠-٢٩٤.

48-42	حل نفسي لعقدة السجن باعتراف المرأة.	حل سياسي مترتب على رؤيا فرعون.	الروح تتكلم أكثر في القرآن.
49	تكهن بعام الرخاء والنجاة.	لم يرد.	
53	وعظ في حضرة الملك.	لم يرد.	شخصية النبي أكثر ظهوراً في القرآن.
54	رد اعتبار يوسف.	مهمة معهود بها إلى يوسف.	عدالة في القرآن. وسياسة في التوراة.
55	يوسف يطلب مسؤولية الخازن.	مسؤولية الخازن تعرض عليه.	اختلاف.
57	اهتمام بالآخرة.	لم يرد.	الدين يتكلم أكثر في القرآن.
67-63	بواعث العودة إلى مصر: مسعى أبناء يعقوب لديه.	بواعث العودة إلى مصر: أمر يعقوب الذي يبدو كأنما ترك شمعون لمصيره.	الاتهام بالجاسوسية، اعتقال شمعون غير وارد في القرآن.
69-68	وصولهم إلى مصر وتأمر يوسف.	نفس الصورة.	
79-70	رحيل إخوة يوسف واعتقال بنيامين.	مع بعض التصرف.	
80	تشارور الأخوة.	لم يرد.	
87-81	عودة الأبناء إلى يعقوب الذي يستعين بالأمل والمصابرة.	لم يرد.	
88	عودة إلى مصر لدى يوسف.	لم يرد.	
92-89	مشهد الحل بعفو يوسف عن إخوته.	حل الموقف بانفعال يوسف.	اختلاف.
93	إرسال قميص يوسف إلى أبيه.	لم يرد.	
95-94	وجدان يعقوب.	لم يرد.	
99-96	شفاء يعقوب ودعاؤه وعفوه عن بني.	لم يرد.	
101	ختام يوسف للقصة بحمد الله والثناء عليه.	لم يرد.	المعالم الروحية في القرآن.

والذي ذكره الأستاذ الكاتب - رحمه الله - قد فاته فيه بعض الحقائق سهواً، وستنبهك عليها :

١ - منها ما ذكرته التوراة من كراهية إخوة يوسف عليه السلام له، لأنه أخبر أباهم عنهم بريئة شنيعة، أما القرآن فبين أن سبب هذه الكراهية هو حسدهم له .

٢ - ومنها كذلك أمر الشاهد الذي كان من أهل المرأة، والذي كانت شهادته تبرئة ليوسف عليه السلام، وهو ما أشار إليه القرآن بقوله ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَذِبِكُنَّ إِنَّ كَذِبَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [الآيات: ٢٦-٢٨] .

أما الاستنتاجات التي استنتجها الكاتب فهي ما نقله لك . قال رحمه الله :

في هاتين الروایتين اللتين فرغنا من عرضهما يمكننا أن نقارن بعض العناصر المتشابهة، بطريقة تبرز لنا الطابع الخاص بالقرآن، ثم إنه يلزمنا أن نبحث قضية هذا التشابه بين الكتابين، وهو أمر جد مفيد لموضوعنا .

إن مدى التاريخ واحد تماماً في كلتا الروایتين، ومع ذلك فإن مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتيهما على حدة، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني . فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن، فهو نبي أكثر منه أباً، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن يأسه عندما يعلم باختفاء يوسف عليه السلام كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه . وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم، وأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها، وتقر بخطيئتها . وفي السجن يتحدث يوسف عليه السلام بلغة روحية محلقة، سواء مع صاحبيه، أم مع السجان، فهو يتحدث كنبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها .

وفي مقابل ذلك نجد الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات لمصرية -الوثنية بالطبع- بأوصاف عبرانية، فالسجان يتحدث كموحد، وفي القسم لخاص بتعبير الرؤيا في القصة يرتسم رمز المجاعة في صورة أقل إجادة فعبارة التوراة مي: (فابتلعت السنابل الجياد) أما في الرواية القرآنية فإنها تعقبها فحسب.

والرواية الكتابية تكشف أيضاً عن أخطاء تاريخية تثبت صفة «الوضع التاريخي» للفقرة لتي نناقشها، فمثلاً فقرة (لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين) يمكننا التأكيد بأنها من وضع النساخ المياليين إلى أن يذكروا فترة المحن، لتي أصابت بني إسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف عليه السلام.

وفي رواية التوراة استخدم إخوة يوسف عليه السلام في سفرهم «حميراً» بدلاً من «الغير» في رواية القرآن، على حين أن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعد ما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، فضلاً على ذلك فإن ذرية إبراهيم عليه السلام ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة لرحل رعاة الأغنام والمواشي.

وأخيراً فإن «حل» عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية، حيث يشتمل في الفصول الأخيرة -التي آثرنا حذفها كيما نتجنب الإطالة المملة- على تفاصيل مادية عن استقرار العبرانيين في مصر.

أما في القرآن فإن هذا الحل يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية: يوسف عليه السلام الذي يختم هذا الختام المنتصر: ﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [آية: ١٠٠] (١).

---

(١) الظاهرة القرآنية / مالك بن نبي ص ٢٩٢-٢٩٤.



ويقيني أن ما ذكره الكاتب: كافٍ لإعطاء قناعات عما يتمتع به القرآن من منطق العلم، وسمو الخلق، ودقة تتفق مع واقع التاريخ.

ثانياً: الأمور التي تفرد بها القرآن:

ولقد آن لنا أن نتحدث عن المقام الثاني، ونعني بها هذه الأمور التي تفرد بها القرآن عن التوراة، لنرى أين هي من الأشياء الخرافية التي نقلت عن اليهود - كما ذكرت دائرة المعارف-، مع أن كثيراً منها بعيد عن أسلوب الحكاية وعناصرها، وهي بحق قضايا ذات أثر تربوي في حياة الإنسان.

١- وأول ما يقابلنا في سورة يوسف عليه السلام درس تربوي للأجيال جميعاً، وهو ما ينتج عن تفضيل الآباء بعض أبنائهم على بعض، وهي قضية عالجتها السنة المطهرة، وقد بينت سورة يوسف ما لذلك من أثر يمكن أن تعاني منه الأسرة، فماذا في ذلك من خرافة يا ترى؟!

٢- كذلك تفرد القرآن بخوف يعقوب على يوسف عليه السلام أن يذهب مع إخوته، ولذا لم يرسله معهم حينما طلبوه أول مرة.

٣- ولقد تفرد القرآن كذلك بارتياح يعقوب عليه السلام بما ذكره أبنائه حينما جاؤوا على قميص يوسف عليه السلام بدم كذب ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [آية: ١٨] فماذا في هذا أو ذاك من خرافة يا ترى؟!

٤- كما تفرد القرآن بهم يوسف عليه السلام وهو ما كان يجول في خاطره كشاب سوي، إذ من الطبيعي أن يفكر من هو مثل يوسف عليه السلام في أمر الشهوة، ما دامت بنيته صحيحة، وحياة الرغد مهياة له، ولكنه مع ذلك استطاع أن يكبح جماح هذه الشهوة، وقد رأى برهان ربه وهو ما أودعه الله في نفسه من خشية لله، وبغض للخيانة؟ لأن الله أراد أن يصرف عنه السوء والفحشاء ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [آية: ٢٤]، وهو بحق درس سجله القرآن الكريم ليفيد منه كل أولئك الذين سنحت لهم الفرص فتسنى لهم فعل الشهوة، فيذكروا ما كان من يوسف عليه السلام، فماذا في ذلك من خرافة يا ترى؟!

٥- ولقد تفرد القرآن كذلك بقدر قميص يوسف عليه السلام، والذي ذكرته التوراة هو أخذ القميص، ولا شك أن قضية ورواية القدر هي التي تتفق مع منطق الأحداث، وما كان من ذلكم الرجل الحصيف العقل، النافذ البصيرة، السليم المنطق، المستقيم الفكر، وهو من ذوي المرأة وقرباتها، حينما شهد شهادته التي تدل على تلك الصفات التي ذكرناها. وهو درس يمكن أن يفيد منه رجال الأمن وجماعات القضاء في استنتاج الأحكام لما يعرض لهم من قضايا، فهل تلك خرافة يا ترى؟!

٦- ومما تفرد به القرآن خبر النسوة وقد تسرب الخبر ورشحت بعض أحداثه إليهن، وهذه قضية اجتماعية، فأخبار مثل هؤلاء في كل زمان ومكان سريعة التسرب، سريعة الرشح، يفتح الناس آذانهم لها، فكان من خبرهن بعدما رأى يوسف عليه السلام أن اصابتهن الدهشة فجرحن أيديهن، أفينكر علم الاجتماع وعلم النفس مثل هذه القضية؟! ٧- ومما تفرد به القرآن الكريم تضرع يوسف عليه السلام لربه أن يصرف عنه كيد النسوة حتى لا يصبوا إليهن، ويكون من الجاهلين، وما ذلك إلا لأنه بشر، فيستجيب له ربه، فيصرف عنه كيدهن، فماذا في ذلك من خرافة؟!

٨- ومما انفرد به القرآن هذه الدعوة التي كان يحمل يوسف عليه السلام لواءها، وهي رسالة التوحيد، وها هو قبل أن يجيب صاحبي السجن يعظهما ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ويعترف بأن ما عنده إنما هو من تعليم ربه له ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [الآيات: ٣٧-٣٨] أليس هو الذي يتلاءم مع شرف النبوة ومنزلة الرسالة؟!

٩- ومما انفرد به القرآن عدم تلبية يوسف عليه السلام نداء الملك حينما طلبه أول مرة، فأبى يوسف حتى تُسأل النسوة عن شأنه. وتُسأل النسوة ويبرثن يوسف عليه السلام ﴿قُلْتُ خَشِيَ اللَّهُ مَا عُلِّمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ وتعترف امرأة العزيز بالحقيقة ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١] أيمن أن يكون ذلك خبر خرافة ونسج حكايات

يتناقلها جهلة القصاص؟ أم أنه سرّ كشف لثامه القرآن وحده؟! أليست تلك حصافة من يوسف عليه السلام تدل على رفعة نفس، واعتزاز بالكرامة؟ ثم ماذا كانت نتيجة هذه الحكمة التي ألهمها عليه السلام؟ لقد كبر في عين الملك؛ ولذا نجد القرآن يصرح بهذا ويشير إليه، فبعد اعتراف النسوة ببراءة يوسف عليه السلام، يقول الملك ﴿أَتُؤْتِي بِهٖءَ اسْتَخْلَصْنَاهُ لِنَفْسِي﴾ [آية: ٥٤] وهذه الجملة ﴿أَسْتَخْلَصْنَاهُ لِنَفْسِي﴾ لم يقلها الملك أول مرة في الآية، وإنما قالها في هذه المرة الثانية فحسب، حينما رأى من يوسف عليه السلام هذا الاعتزاز بكرامته وهذا الصدق مع نفسه. ولقد سجل الرسول الكريم ﷺ كما جاء في السنة المطهرة: «رحم الله أخي يوسف، لو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي»<sup>(١)</sup>: وهذا تقدير من النبي سيدنا محمد ﷺ لما كان من يوسف عليه السلام.

١٠- ومما انفرد به القرآن رجوع إخوة يوسف عليه السلام في المرة الثانية لأبيهم، وقول أبيهم لهم تحسسوا من يوسف عليه السلام وأخيه، ولا غرو من ذلك ولا عجب فلقد كان الرجل نبياً، يُلهمُ الكلمة التي يقولها.

١١- ومما انفرد به القرآن هذا الدرس الذي أعطاه يوسف عليه السلام لإخوته ولغيرهم، وسيظل درساً يفيد منه كل أولئك الذين يعرضون للأخطار، وتحيط بهم المصاعب، وتظللهم الكروب، هذا الدرس الذي هو بحق خير علاج لأمراض الحياة الاجتماعية، ونعني به قول يوسف عليه السلام ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٩٠].

وهكذا يعلم إخوته وغيرهم أن الذي يكون مع الله لا يخذله الله، ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] وقوله: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ﴾ وهذه الكلمة نفسها قالها النبي ﷺ. قال: ما تظنون أني فاعل بكم، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: لا أقول اليوم إلا كما قال أخي يوسف ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ أَيُّومٌ﴾.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، وأخرجه البخاري كتاب الأنبياء باب قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلنَّاسِ لَئِنْ هَدُوا لَنُحْيِيَنَّهُمْ﴾ حديث رقم ٣٢٠٧.

١٢- ومما انفرد به القرآن ما كان من يعقوب عليه السلام حينما ألقوا القميص على وجهه فارتد بصيراً وهي قضية أترك لعلماء النفس وعلماء الطب على السواء، أن يقولوا فيها قولتهم. ولا تنسَ أنها من نبي لنبي، من الأب لابنه. إنَّ الطب النفسي في أيامنا يذكر مثل هذه، وما يزيد عليها كذلك.

١٣- ومما انفرد به القرآن هذا الفضل الذي اعترف به يوسف عليه السلام لخالقه وربه، وهذا الأدب الذي أظهره يوسف عليه السلام، وهذا السمو في الصفح وهو يقول ﴿يَتَابَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ - فهو ينسب الإحسان إلى ربه - ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ - هذا الأدب الجرم فقد نسب ما كان من إخوته إلى نزغ الشيطان، حتى يذهب عنهم الضيق النفسي - ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠٠-١٠١].

أين الخرافة في هذا كله؟! إن قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم لخير دليل على حقيقة هذا القرآن، وعلى صدق النبي الأُمي، ولهذا أقول: ما أروع مجيء الآية التالية بعد انتهاء قصة يوسف عليه السلام تؤكد تلك الحقيقة ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

إننا نود من كل المنصفين أن يقفوا مع أحداث قصة يوسف عليه السلام وحقائقها ليوازنوا بين هذه الأحداث والحقائق، وبين ما ذكرته دائرة المعارف، وإننا على يقين من أن طلاب الحق لن يخفى عنهم نوره.

## الفصل الحادي عشر

### قصة شعيب عليه الصلاة والسلام

أولاً: ما ذكر فيها من آيات:

١- سورة الأعراف.

٢- سورة الشعراء.

٣- سورة هود.

٤- سورة العنكبوت.

ثانياً: تعقيب على قصة شعيب.



## قصة شعيب عليه السلام

قيل إن شعيبا -عليه الصلاة والسلام- هو أحد الأنبياء من العرب، كهود وصالح -عليهم الصلاة والسلام- وذلك لحديث عند ابن حبان: أن الانبياء العرب أربعة: هود وصالح وشعيب ومحمد ﷺ <sup>(١)</sup>. ويقال انه كان خطيب الانبياء، لحسن مراجعته.

ولقد ذكرت قصة شعيب عليه السلام في أكثر من موضع، وإن كانت أقل ذكرا من قصص الأنبياء «وكل شيء بقدر» ولكن الأمر المستغرب ما ذكره الأستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه، من أن أهل مدين كانوا اسرائيليين، ومعلوم أن الاسرائيليين كانوا من نسل يعقوب عليه السلام، ومع أن مدين كما يقال الذي نسبت إليه القبيلة، وأطلق على البلدة كذلك، كان أحد أبناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعلى كل حال فالذي أكدته الكتب الدينية والتاريخية أن أهل مدين ليسوا اسرائيليين.

### من هو مدين؟

ولقد اختلف العلماء، فذهب كثير منهم إلى أن مدين هو ابن ابراهيم ﷺ، واستند هؤلاء إلى ما جاء في سفر التكوين من أن ابراهيم ﷺ تزوج امرأة تسمى قطورة ولدت له ستة أبناء منهم مدين، وذهب آخرون إلى أن مدين كان من الذين آمنوا بإبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذهبت فئة ثالثة إلى أن مدين عَلمٌ على البلد التي كان فيها شعيب عليه السلام. وقد رجح صاحب المنار <sup>(٢)</sup> القول الأول، وهو أنه من أبناء إبراهيم ﷺ.

وفي النفس شيءٌ بل أشياء من هذا القول؛ فنحن نعلم أن أبا الأنبياء وشيخ الحنفاء ﷺ، بشره الله بإسماعيل عليه السلام ثم بشره بإسحاق عليه السلام على الكبر، وحمد الله على ذلك ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٧٦/٢ رقم ٣٦١ كتاب البر والاحسان.

(٢) (٥٢٤/٨).

﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ [الحجر: ٥٤]، فمتى تزوج هذه المرأة، وولدت له هذا العدد من الأولاد، إن القضية تحتاج إلى تحقيق تاريخي؛ لذا فإني لا أستريح إلى ما رجحه صاحب المنار - رحمه الله - لكنني لا أجزم برأي لأن الجزم يحتاج إلى تحقيق.

ألا يمكن أن يكون اليهود قد وضعوا مثل هذا، ونحن نعلم أن التوراة كتبت بعد موسى عليه الصلاة والسلام بزمان، وضعوه من أجل أن تكون هناك صلة بينهم وبين القبائل. . على كل حال القضية ليست من الجوهريات التي تعنينا دائما في هذا الكتاب، مع أنني أود التحقيق دائما فيما أكتب، ولعل الله ييسر لنا ما نطمئن إليه.

ولم تكن مساكن قوم شعيب عليه السلام بعيدة، كما لم يكن خبرهم غريبا عن الذين بعث الرسول عليه وآله الصلاة والسلام فيهم.

واننا لنجد بعض الإشارات المبكرة تحدثنا عنهم، وهي تنظمهم في سلك المكذبين المعاقبين، نجد ذلك مثلا في سورة (ق) وسورة (ص) وقد مرت الآيات من قبل، وهناك إشارة ذكرت في سورة متأخرة بعض الشيء، وهي سورة الحجر، وقد جاءت عقب قصة لوط - عليه الصلاة والسلام -، وهي قوله سبحانه:

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَعِامِرٌ مُبِينٌ ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩].

والإشارة - والله أعلم - لهم ولقوم لوط؛ فهم في طريق ظاهر يسلكه المارة ويؤمنونه في مسيراتهم.

١ - وأول سورة حدثنا بالتفصيل عن سيدنا شعيب - عليه الصلاة والسلام - سورة الأعراف، وسورة الأعراف إحدى السبع الطوال، ولقد ذكرت فيها أخبار الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - مرتبة ترتيباً زمنياً، حيث ذكر فيها خبر آدم، كما مر من قبل منفصلاً عن غيره من أخبار الأنبياء، ثم ذكر خبر نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى صلى الله على نبينا وعليهم، وعلى جميع الأنبياء وسلم.



فذكرت قصة شعيب عليه السلام معطوفة على ما قبلها من القصص وفيها يبين الله تبارك وتعالى لنا خبره، وتبدأ القصة كما بدىء غيرها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُنَالِكَ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، ثم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا هُنَالِكَ لَاقُوا رَبَّهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥] ويبين شعيب عليه السلام ما بينته إخوته الأنبياء لأقوامهم، فيأمر قومه أن يعبدوا الله وحده فليس لهم من إله غيره، فهو سبحانه الجدير بالعبادة والتوحيد، ويحثهم على هذا الإيمان، فقد جاءتهم المعجزة الدالة على صدقه -عليه الصلاة والسلام-. والقرآن الكريم لم يبين لنا نوع هذه الآية التي جاءتهم، فنسكت عما سكت الله عنه، وبعد أمرهم بالتوحيد الذي هو الأصل لسعادة الدارين نجده -عليه الصلاة والسلام- يخطو خطوة أخرى تتصل بالجوانب الحياتية: اجتماعية واقتصادية، تلك التي كانت تنتشر فيهم، وهي من السيئات التي لا تنتج إلا البوار والدمار. وهكذا نجد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا لا يغفلون شؤون الحياة التي تتصل بواقع أقوامهم ذلك لأن الدين في حقيقته ليس كما يفهم بعضهم، أو يريده بعضهم على أنه علاقة فردية بين الإنسان وخالقه، ولا صلة له بعد ذلك بدنيا الناس؛ لذا كان أول ما أمرهم به بعد التوحيد هو إيفاء الكيل، وإيفاء الوزن بكل قسط وعدل، ويظهر أن البخس والتطفيف كان الديدن لأهل مدين، ثم ينهاهم بعد ذلك عن أن يبخسوا الناس حقوقهم، وهي خصلة لا تقل عن سابقتها سوءاً، ثم ينهاهم بعد ذلك أن يظهرُوا في الأرض الفساد، وبعد هذه الخصال الأربع أعني الشرك، والتطفيف، وبخس الحق، والإفساد في الأرض، ينهاهم عن خصلة خامسة لا تقل خطراً عن سابقتها، فإذا كانت الخصال السابقة تتعلق بالقضايا المادية فإن هذه تتصل بجانب آخر من جوانب الحياة، وهو الجانب الفكري والروحي. فلقد كانوا لا يدعون أي ثغرة، أو أي طريق إلا ويقعدون به لإغواء الناس، يوعدونهم، ويخوفونهم، ويصدونهم عن الحق، وهم يشككون فيه، وما أشبه هذه المهمة -لعمرك الحق- بما جرد إبليس نفسه له! والذي ذكر في أول هذه السورة، حينما قال: ﴿لَاقَعَدَنَّا لَكُم صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا تَنهَيْهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وقد تحدثت عن هذا من قبل.

وبعد هذا النهي والتحذير والإرشاد من شعيب- عليه الصلاة والسلام- أهاب بهم أن يتذكروا نعم الله عليهم، فيذكروها ويشكروها، وقد كانوا قلة فكثروهم الله، أذلة فأعزّهم، ثم نبههم إلى أن يعتبروا بغيرهم من الأمم الذين أفسدوا فأهلكوا، ولقد لانت قلوب فأذعنت وأجابت داعي الله، وبقيت قلوب غلف في أكِنَّة، أثبت الانصياع إلى الحق؛ لذلك وجدناه- عليه الصلاة والسلام- يتلطف في خطابهم بهذا الأسلوب الذي يمتليء رقة وإشفاقاً، فإن كان منكم قوم آمنوا بما أرسلت به، وآخرون اختاروا الكفر والبقاء على ما هم فيه من باطل، فليصبر هؤلاء وأولئك، ليصبر الكافرون على ما يسوءهم من إيمان المؤمنين، وليصبر المؤمنون على ما يلحقهم من أذى الكافرين، فلن يدوم الأمر إلى مالا نهاية، ولا بد له من غاية، حينما يحكم الله تبارك وتعالى بين الفريقين، وهو سبحانه خير الحاكمين، وأحكم الحاكمين، أعدلهم حكماً، وأعظمهم حكمة. وهنا تثور نعة الباطل، وتظهر حمية الكفر ويبرز أولئك ما مُنحوه من قوة مادية؛ ليحاربوا بها الحق ويسكتوه، ويخرسوا صوته، فيتوعدون شعباً عليه السلام، ومن آمن معه، فهم بين أمرين: إما أن يرجعوا عن دينهم الجديد ليسيروا في ملة الكفر، وإلا فإنهم سيخرجونهم من بلدهم بالقوة يجردونهم من جنسيتهم، فيسلبونهم كل ما يترتب عليها من حقوق، ولكن خاب ظنهم وما أشبه الليلة بالبارحة، وهم وقد لوّحوا بهذا التهديد، وأرعدوا، وأزبدوا بهذا الوعيد، وقد حسبوه مجدياً؛ فكثير أولئك الذين جردوا من جنسياتهم في القرن العشرين، وصودر كل ما يمكنهم من التنقل؛ إلا أن شعباً- عليه الصلاة والسلام- يردُّ عليهم مقاتلتهم بثبات الداعية الصادق، الرسول الواثق: أعود في ملتكم، ولو كنا كارهين لها، نافرين منها؛ لأنها نحلة سوء، وملة شر، والله إننا لمفترون كاذبون على الله إن عدنا فيها، وكيف نعود، وقد أكرمنا الله- تبارك وتعالى- فنجاناً من حمائها، وأوحالها، وفتنتها، وقد من علينا بالهداية؟! لن نعود أبداً إلا أن يشاء الله ربُّنا ذلك.

وهذا أمر غيبي لا نعلمه -ومعاذ الله أن يضلّ من فتق ذهنه بالحق، وشرح صدره للهداية- والله يعلم حالنا وحالكم، وسع ربنا كل شيء علماً، عليه وحده نتوكل ونعتمد، ثم يدعو عليه السلام ربّه أن يحكم بينه وبين قومه بالحق، وإن يفصل بينهم، فهو سبحانه خير الفاتحين، وحينما يجد أئمة الكفر أن لا مطمع لهم في شعيب عليه السلام يتوجهون إلى الذين آمنوا معه رجاء إغوائهم، فلعلهم أقل من شعيب عليه السلام تمسكاً بهذا الدين، يتوجهون إليهم منذرين محذرين بأنهم إن اتبعوا شعيباً عليه السلام فسيكونون من الأخسرين، سيخسرون المال والجاه وغيرهما من الحقوق، وهنا تحقق عليهم الكلمة، ويأخذهم العذاب، ويبين الله تبارك وتعالى أن أولئك الذين كذبوا شعيباً عليه السلام، وحكموا على الذين اتبعوه بالأخسرين، هم الذين حل بهم ماتوقعوه لغيرهم، كأن لم يكن لهم وجود ولا حياة، وهم الذين وقعوا في الخسران، أما شعيب- عليه الصلاة والسلام- فيعرض عنهم، وقد بلغهم رسالات ربه، وعمل كل ما في وسعه ناصحاً لهم. أما وقد اختاروا طريق الضلال والغواية، فلماذا يأسى، ويحزن عليهم؟. تلك هي قصة شعيب عليه السلام، كما صورتها سورة الأعراف، وهي بحق صفحة مليئة بالعظات، ولوحة ذات مناظر خلابة، وحقائق مجسمة مؤثرة:

﴿وَالْإِنَّمَانِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَعْلَمُ بَيْنَهُ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْلْتَهُمْ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِدْجَانَا اللَّهُ

مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّكُمْ فَاسْمِعُوا أَوْ لَا تَسْمِعُوا وَلَا تُخِشُوا غُيُوتَ ظُهُورِهِمْ فَاسْتَضَاءُوا قُلُوبَهُمْ وَأَنكَرُوا وَكَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣].

٢- ثم تأتي سورة الشعراء ذات النبرة المثيرة، والآيات القصيرة، تبدأ قصة شعيب عليه السلام بما بدأت به أخواتها، ولكنها هنا تذكر لنا أصحاب الأيكة بدل أصحاب مدين ويظهر أنهم قوم كانوا على مقربة من مدين، وأن شعيباً أرسل لهم كذلك، وإن كان من مدين- عليه الصلاة والسلام-، وليس من الأيكة.

يدلنا على ذلك هذا التغير في الأسلوب، ففي سورة الأعراف ﴿وَالِإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، وفي سورة الشعراء عند الحديث عن أقوام الرسل نجد هذه الآية ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤٢] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [الشعراء: ١٦١] أما عند الحديث عن أصحاب الأيكة فنجد هذه الآية: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوَنَّ﴾ [الشعراء: ١٧٧] وهذا يرجع ما قلناه: من أن شعيباً- عليه الصلاة والسلام- كان أخاً لمدين وقد أرسل إلى أصحاب الأيكة كذلك.

يأمر شعيب عليه السلام قومه بتقوى الله فهو الرسول الأمين الذي أرسل إليهم، ولا يسألهم على ما يريد أجراً، إنما أجره من رب العالمين.

وبما تمتاز به سورة الشعراء من أسلوب يفوق ما للشعر من خصائص كما قلنا من قبل، يوجه لهم هذه الأوامر التي اشتهرت فيهم بكل إيجاز: إيفاء الكيل، والوزن بالقسطاس،

(١) الأسى: شدة الحزن، اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال كيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل.

وعدم غمط الناس حقوقهم، وعدم الفساد في الأرض، فالأسلوب مغاير تماماً لما جاء في سورة الأعراف، بل ليس الأسلوب وحده، وإنما كثير من الجزئيات كذلك، هذا من حيث قوله- عليه السلام-، أما من حيث قولهم له فالأمر فيه أظهر، فلقد أجابوه بهذا الأسلوب الذي فيه أداة القصر كما يقول علماء البلاغة، وبهذه الأداة التي تدل على البدئية، كأنما الأمر مفروغ منه وهي ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥] إنما أنت من أولئك الذين أصابتهم لوثة في عقولهم بسبب السحر، هذا أولاً.

وأما ثانياً فبالأسلوب آخر من أساليب القصر، اختلفت فيه الأداة عن الأول حيث جاءت الأداة هنا أداة النفي وأداة الحصر موسطاً بين الأسلوبين بحرف العطف ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤]، وإنهم ليظنون من الكاذبين أما إن كان صادقاً فليسقط عليهم قطعاً من العذاب من السماء، ولا يجيبهم- عليه الصلاة والسلام- إلا بهذه الكلمة ﴿رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨] فهو سبحانه يعلم عملهم، وهو الذي يعلم ما يناسبهم من العذاب كذلك، ويصرون على تكذيبه؛ فيرسل الله عليهم سحابة ظنوا أنها ستظلهم من شدة الحر، ولكنها كان فيها العذاب، وهو بحق عذاب يوم عظيم، وفي ذلك آية تدعو إلى الإيمان، وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربنا تبارك وتعالى عزيز لا يهمل ظالماً، ورحيم يمهلهم لعلهم يرجعون.

تلك قصة شعيب عليه السلام في سورة الشعراء. فقل لي هل ترى فيها شائبة تكرار؟؟ أم أنك تجد لكل واحدة لونها في لوحها البديعة، كما تجد أن لكل واحدة منها على أذنك، وعلى قلبك قرعاً في صنعتها الرفيعة مع جزئيات، ومواقف، ومشاهد يتلاءم موضوعها مع موضوع السورة، ويعلم الله أن الذي يتوهم التكرار ليس الا كمن يتوهم الماء في سراب ببيعة.

وهذه آيات سورة الشعراء :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلَةِ إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُ إِنَّكُمْ رُسُلٌ آمِنٌ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا  
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٦﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا  
بِالْقِسْطِ أَسْطِيسَ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَ  
الْأَوَّلِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا  
كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ  
إِنَّهُمْ كَانُوا يُوعَظُونَ عَظِيمًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٦-١٩٠﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٩٠].

٣- أما سورة هود التي يقول في شأنها الرسول ﷺ: «شيبني هود»<sup>(١)</sup>، فلن نتعجل فيها الحكم إلا بعد أن نشنف الآذان ونشرف اللسان بما جاء في قصة شعيب عليه السلام من أحداث، وما يمكن أن يستنتج منها من أهداف.

بدأت السورة الكريمة الحديث عن شعيب عليه السلام بعد الحديث عن نوح، وهود وصالح، وإبراهيم، ولوط عليهم الصلاة والسلام، وعلى نبينا وأنبياء الله جميعاً صلوات الله وسلامه. ومن نافلة القول أن نذكر أن القصة تبدأ بأمر شعيب عليه السلام قومه بالتوحيد، ثم ينهاهم بأسلوب موجز عما اشتهروا به من خصال سيئة، وهو نقص المكيال والميزان، فلا حاجة لهم في ذلك كله، وقد من الله عليهم بهذا الخير، وهو يخاف عليهم عذاباً محيطاً، يحيط بهم من كل جانب، ويطوقون به من كل جهة، فحري بهم إذن أن يوفوا المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس ما عندهم، وأن لا يعثوا إفساداً في الأرض، ثم يلفتهم إلى قضية مهمة، وهي أن ما أبقاء الله لهم من حلال، وما أكرمهم به من رزق طيب هو خير لهم، ويقسم هذا الخير حينما يجمعون بين هذه البقية وبين الإيمان،

(١) أخرجه الترمذي / سنن الترمذي أبواب تفسير القرآن، من سورة الواقعة، حديث رقم ٣٢٩٣ ج٩ ص٣٦، الحديث: «شيبني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت» قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس الا من هذا الوجه.

إنه خير الدنيا وخير الآخرة، ولكننا نجد أقوالهم في سورة هود فيها من الشدة والعنف والتهكم، مالا نجده في سورة أخرى، فما الذي قالوه يا ترى؟ لقد اقتصر قولهم في سورة الأعراف على أن خيرّوه بين أن يخرجوه من بلده؛ فيجردوه من الجنسية ويحرموه من جواز السفر!!، أو أن يصير في ملتهم هو وقومه.

أما في سورة الشعراء فلقد اقتصر قولهم على أنه من المسحurin، وأنه بشر مثلهم، وليأتهم بالعذاب إن كان من الصادقين، لكننا نرى هنا نمطاً آخر، فهم أولاً وقد عرفوه- عليه الصلاة والسلام- كثير العبادة فهم يخاطبونه منكرين مستهزئين:- عجباً لك أصولاتك وعبادتك هي التي سوّلت لك، وخوّلتك أن تأمرنا بهذه الأوامر التي من شأنها أن تأتي على كل ما نعتز به، وإن أعز شيء لدينا أن نستمر على عقائد آبائنا أولاً، وأن نتمسك بما نشأنا عليه من عادات وتكون لنا حرية التصرف في أموالنا ثانياً. أفهذه نتيجة صلواتك التي حملتك على أن تأمرنا أن نترك عبادة الآباء، ونترك التصرف في أموالنا كما نشاء؟ ثم يزيدونه تهكماً بوصفهم له بالحلم والرشد، ألحلم الذي جعلك تأمرنا بالعبادة، والرشد الذي دعاك أن تطلب منا أن نحسن التصرف بالأموال؟ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]؟ وهذا الأسلوب ليس غريباً على الرسل أن يستمعوه، ومن ثم فليس غريباً على ورثتهم من الدعاة كذلك، ولقد مر معنا من قبل ما قاله قوم لوط عليه السلام لنبيهم، وسيمر معنا- إن شاء الله- ما سيقال من أقوام آخرين؛ بل إن واقعنا مليء بهذه الأساليب. ويجيبهم- عليه الصلاة والسلام- بما يدل على حلمه ورشده: يا قوم، أخبروني إن كان الله قد أكرمني بالبينّة والنّبوة، فوجب علي شكره وعبادته، ورزقني من لدنه رزقاً حلالاً حسناً طيباً، أفاضرب عن تذكيركم صفحاً؟ أترككم في غوايتكم تعمهون؟ وأنا حينما أنهاكم عن الاعتداء على حقوق الناس فلن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، أي لا أنهاكم عن شيء، لأكون له من الفاعلين، بل أنا أكثر تجنباً لما أنهاكم عنه، فما أريد إلا الإصلاح قدر طاقتي واستطاعتي مستمداً التوفيق من الله، فعليه وحده أتوكل،

وإليه وحده أنيب وأرجع، ويا قوم لا يحملنكم بغضي ومخالفتي على أن يصيبكم ما أصاب الأمم قوم نوح وهود وصالح وما قوم لوط منكم ببعيد لا من حيث المكان ولا من حيث الزمان، ورغم تهكمكم فإنني آمركم أن تستغفروا ربكم من ذنوبكم، ثم تتوبوا إليه؛ فربي رحيم ودود كثير الرحمة، عظيم الودّ لعباده إن أحسنوا التوبة . . .

على الرغم من هذا التلطف، وعلى الرغم من هذه المراجعة الحسنة الطيبة، إلا أنهم يمعنون في الغي ويزدادون عتوّاً. فماذا يقولون: لقد كانوا أولاً متحكمين ساخرين فماذا يقولون ثانياً: إنهم الآن متهددون متوعدون. قالوا له: يا شعيب لسنا نفقه كثيراً مما تقول وأنت ضعيف لا يخفى ضعفك علينا وكان حرياً بنا أن نرحمك وما جزاؤك إلا أن نرجمك، ولكننا امتنعنا عن رجلك من أجل قرابتك، وهم قلة في العدد لا يتجاوزون عشرة رجال، لكنهم على ملتأ؛ من أجل ذلك يعززون علينا، أما أنت فلن نعزك، ولن نجلك كما تعلم. ولم يكن- عليه الصلاة والسلام- أقل حلماً ورشداً بعد الوعيد والتهديد منه بعد التهكم والاستهزاء، ولكنه هذه المرة وقد أدرك أن لا سبيل لهدايتهم، يقول منكراً عليهم قولهم، مستنكراً فظاظتهم: أرهطي الذين امتنعتم عن رجمي من أجلهم أعز عليكم من الله الذي أكرمني بالنبوة وقد نبذتم أوامره، وتركتم شرعه وراء ظهوركم؟! إنه ربي محيط بكل أعمالكم، وإذا كان نصحي لا ينفعكم فلتعملوا على مكائتكم، وإني عامل، وسوف تعلمون من سيصيبه العذاب ومن هو كاذب، وانتظروا فإنني معكم من المنتظرين!!

ويجيء أمر الله، وينجي شعباً عليه السلام والذين آمنوا معه، وتأخذ الذين ظلموا الصيحة؛ فيصبحوا جائمين على ركبهم خامدين، كأن لم يقيموا فيها بالأمس فهلاكاً لمدين، كما هلك ثمود من قبل، فكل من الأمتين أخذ بالصيحة.

هذه قصة شعيب في سورة هود- عليهما الصلاة والسلام-، وإخالي لست بحاجة لأذكر ما اختصت به كل سورة من السور الثلاث: الأعراف، والشعراء، وهود، من حيث الأسلوب، ومن حيث الموضوعات. ما قاله شعيب عليه السلام، وما قيل له،



ومن حيث نوع العذاب الذي أصيب به كل من أصحاب الأيكة وأصحاب مدين، ومن حيث النهاية التي ختمت بها كل قصة:

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ يُخَيَّرُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ تُحِيطُونَ وَيَنْقُورِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْنَا كَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَكَمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ وَيَنْقُورِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ قَالَ يَنْقُورِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَنْقُورِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمٍ كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴿ [هود: ٨٤-٩٥].

٤- ثم تأتي سورة العنكبوت بعد ذلك، وهي آخر سورة تذكر فيها قصة شعيب عليه السلام، ولا أود أن أكرر هنا ما قلته عن سورة العنكبوت من قبل، وما قلته عن كل قصة في سورتها الأخيرة التي تذكر فيها. وقصة شعيب عليه السلام في سورة العنكبوت منسجمة تماماً مع القصص الأخرى، فلقد جاءت القصة فيها مجملة موجزة.

يأمر شعيب عليه السلام قومه فيها أن يعبدوا الله، ويرجو اليوم الآخر، وهو بهذا النص يُذكر هنا لأول مرة، ولكنهم يكذبونه فتأخذهم الرجفة:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٧].

وبهذا تنتهي قصة شعيب عليه السلام، وهي كما رأينا في سورها المتعددة ثرية بما تعرضه من جوانب، وبما يستنتج منها من أهداف، إلى جانب الروعة في التعبير والخصائص البيانية في أسلوب كل قصة، كل ذلك بعيداً عن شبهة التكرار، وشائبة الإطناب والله در التنزيل، وهو حسبنا، ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه وسلم.

### ثانياً: تعقيب على قصة شعيب - عليه الصلاة والسلام

هذه قصة شعيب عليه السلام. ونلمح من الآيات الكريمة ما كان عليه شعيب - عليه الصلاة والسلام - من مهارة في القول، وحكمة في الدعوة، وحسن مراجعة لما يريد تقريره من أمور، والقضية التي كان يعالجها في قومه مع قضية التوحيد من أكثر القضايا عسراً وصعوبة؛ إنها قضية المال الذي طبعت النفوس على حبه. لذلك نجد أن هذه القضية قد أخذت مساحة غير قليلة من دعوته؛ ومن هنا اشتد إنكارهم عليه، ونيلهم منه فهم لا يفقهون ما يقول، كيف وقد أراد أن يقيدهم في التصرف بهذه الأموال حسب قواعد رشيدة، ومبادئ سديدة؛ لذلك لم يحل بينهم وبين رجمه - في زعمهم - إلا رهطه وجماعته.

والحق أن قضية المال من أشق وأشد القضايا التي تحتاج معالجتها إلى حكمة ولطف؛ لذا إن لم تكن النفوس قد أضاءت جوانبها العقيدة الحققة، فمن الصعب بل من المحال أن تكون هناك استجابة لأصوات المصلحين مهما ارتفعت. وقد تحدثنا من قبل عن مساوئ أهل مدين والأيكة، ونود أن نزيد هنا أن أصحاب الباطل يعز عليهم أن

يجدوا من يجادلهم في باطلهم . وكذلك كان قوم شعيب عليه السلام ؛ لذلك عملوا جاهدین على أن يردوا شعيباً عليه السلام ، ومن آمن معه إلى ملتهم تارة بالوعيد ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنًا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مَلَكُوتٍ﴾ [الأعراف: ٨٨] ، وتارة بالإغراء : ﴿لَئِنْ أَتَبَعْتُمْ شُعَيْبًا لَنُكَفِّرَنَّ إِذَا لَخَّيْرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] ، ستخسرون الكثير من مال ، وجاه ، ومنصب ، وعز وفخر . ولكن شعيباً - عليه الصلاة والسلام - ، وأمام هذه الوسائل المختلفة بحث من آمن معه على الصبر حتى يحكم الله بين الفريقين ، ويحكم الله بينهم ، وينجي شعيباً عليه السلام والذين آمنوا معه .

وإذا كان من لبنة يضيفها شعيب عليه السلام للبناء المحكم فإنها تتمثل في هذا الصبر والثبات ، كما تتمثل في قضية أخرى ، وهي قضية مهمة ، تلکم هي محاربة هذا الجشع الذي يسيطر على النفوس لتستولي على الأموال بأي طريقة من غير تفريق بين الحق والباطل ، وما يحل وما يحرم ، وقضية ثالثة ، وهي عدم الاكتراث بهذه النظرة الاجتماعية التي ينظرها أهل الباطل لأهل الحق ، وقوم شعيب عليه السلام كانوا يرونه فيهم ضعيفاً لا يستحق أن يعزوه ويجلوه ، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - صبر وصابر ، وثبت على أمر ربه إلى أن أخذتهم الصيحة ، وذلك جزاء المعرضين المكذبين .



## الفصل الثاني عشر

### قصة موسى عليه الصلاة والسلام

#### موسى عليه الصلاة والسلام واقتراءات (فرويد):

إن مما يشتد منه العجب أن أهل الباطل يظنون أن بإمكانهم تغيير الحقائق، وإن كانت مثل الشمس سطوعاً وضياءً، وما ذلك إلا ليلفتوا أنظار الناس إليهم، ولا زلنا بين الحين والحين نسمع أولئك يطلعون علينا مستغرقين في زيفهم - بكل غريب وعجيب، بعيد كل البعد عن الحقائق التاريخية والدينية والكونية من أولئك: فرويد الذي أراد أن يجرد الإنسانية من كل ما أكرمها الله به من شرف رفعة، وعلو منزلة، وروحانية مضيئة، ونفحات إلهية، ولم يُبقِ لها من هذه الاستعدادات التي منّ الله عليها بها وقد تحدثت عنها من قبل في قصة آدم - لم يبق لها إلا غريزة الجنس، وباليته الجنس البريء.

فلقد ذهب فرويد مذهباً لم يسبق إليه، فلقد ذكر الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار - رحمه الله في كتابه قصص الأنبياء:

«نشرت جريدة الأهرام بعددها الخاص في ١٠ مايو سنة ١٩٣٩ خبراً لمراسلها في لندن جاء فيه: موسى عليه السلام هل كان مصرياً؟ لندن في ٩ مايو لمراسل الأهرام الخاص - أشارت جريدة «نيوز كرينكل» إلى الطبعة الألمانية التي نشرت في أمستردام لكتاب: «موسى والتوحيد» من تأليف الأستاذ سجموند فرويد من علماء تحليل النفس المشهورين ومما قالته الجريدة أن من أهم آراء الأستاذ فرويد في هذا الصدد، قوله إن النبي موسى لم يكن يهودياً بل كان مصرياً من أتباع أخناتون، وهو يعتقد أن اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة أخناتون للشمس. وستنشر الترجمة الانجليزية لهذا الكتاب يوم ٢٦ مايو الحالي ونشرت الأهرام بعددها الصادر في ١٣ مايو سنة ١٩٣٩ تعليقاً عن

الخبر السابق للأستاذ منصور وهبة جاء فيه:

### موسى عليه السلام هل كان مصرياً؟

نشرت «الأهرام» أخيراً برقية لمراسلها في لندن عن كتاب «للعالم النفساني «فرويد» يقول فيه إن سيدنا موسى عليه السلام كان مصرياً وليس عبرانياً من بني اسرائيل، وإني -أي فرويد- يرى أن موسى كان من أتباع أخناتون، وأن الدين اليهودي والدين المسيحي اشتق كل منهما من كلمة أخناتون للشمس.

وفضلاً عما في هذا الرأي من تناقض تاريخي وديني وفلسفي أيضاً، فإن المرء لا يسعه إلا الاستغراب من صدور هذه النظرية من علامة مثل فرويد، ذلك أن أساس الدين الاسرائيلي وهو التوحيد بالرب الواحد الأحد، قائم من أيام سيدنا إبراهيم الخليل قبل المجيء إلى مصر بزمان بعيد، وقبل أن تقوم لأخناتون قائمة. ثم إن أخناتون قد عبد الشمس ولم يعبد الرب الواحد القهار. يضاف إلى هذا أن موسى عليه السلام لم يأت بجديد على أصول الدين الاسرائيلي سوى الوصايا العشر.

ومما يدعو إلى الدهش أن يقال إن سيدنا موسى ليس من سلالة إبراهيم، مع أن إبراهيم جده -ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى ﴿وَأَنبَأَهُمُ عِندَنَا لَمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِرِ﴾ [ص: ٤] وقوله جل شأنه ﴿وَقَالَ مُوسَى يَفْقَهُمْ إِن كُنْتُمْ ءَامَنُكُمْ بِاللّهِ فَاعْلَمُوا أَنِّي مَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ﴾ [يونس: ٨٤] وفي آية أخرى ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَأَصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [البقرة: ١٢٩] فهذه الآيات تدل دلالة صريحة على أن الكتاب والنبوّة لم يتزلا على رجل من آل يعقوب، وأن موسى عليه السلام كان من بني اسرائيل، وأظنني لست في حاجة إلى أن استشهد بآيات التوراة والإنجيل فكلها ناطقة بأن النبوّة لم تخرج من بيت إبراهيم عليه السلام.

أما من ناحية التاريخ فلعله قد فات «فرويد» ان الاسرائيليين كانوا يعبدون الله قبل مجيئهم إلى مصر أيام الهكسوس وقبل أخناتون بزمان، وكانوا في مصر يكرهون عبادات

المصريين الوثنية، ولم يختلطوا بهم قط، وظلوا محافظين على طقوسهم ودينهم ووحدتهم، بل لعل أخناتون هو الذي تأثر فأخذ فكرة مشوشة عن أمه «تاي» فتجسّمت في ذهنه بعبادة قرص الشمس على أنه في أثناء ذلك العهد، ومن قبله بأزمة بعيدة، أي من عهد ابراهيم واسحق ويوسف كان الاسرائيليون لا يعرفون إلا عبادة الرب الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠] ولم يذكر إنسان عاقل أن بني اسرائيل قد عبدوا قرص الشمس في اي عصر من العصور.

ونشرت الأهرام أيضاً بتاريخ ٢٠ مايو سنة ١٩٣٩م تعليقاً على الخبر أيضاً للدكتور جلال فارحي جاء فيه:

### «موسى عليه السلام هل كان مصرياً؟»

نشرت الأهرام لمراسلها في لندن منذ أيام أن جريدة «نيوزكرينكل» أشارت إلى طبعة كتاب «موسى والتوحيد» الألمانية، وما جاء في هذا الكتاب من أن مؤلفه الأستاذ سيجموند فرويد من علماء تحليل النفس يعتقد أن النبي موسى عليه السلام لم يكن يهودياً بل كان مصرياً من أتباع أخناتون وأن اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة أخناتون للشمس.

هذا ما يقوله الأستاذ فرويد وما من شك في أنه انفرد بين سائر العلماء والمؤرخين في العالم، بهذا الاعتقاد الغريب الشاذ. ذلك أن كتب التاريخ والكتب المنزلة تؤيد الاعتقاد السائد منذ آلاف السنين بأن موسى كان يهودياً أباً عن جد ومع أنه تربى وتثقف في بلاط مصر، فقد قام مع أخيه هارون يناصر إخوانه اليهود ضد رعمسيس. ثم تولّى زعامة اليهود إلى أن أخرجهم من مصر. فقد جاء في صفحة ٦٣ من تاريخ يوسفوس المؤرخ الشهير الذي عاش في ٣٧-١٠٠م: «وكان رجل اسمه عمرام من أشرف العبرانيين وولد له ابن آخر بعد هارون ومريم، وبعد صدور أمر فرعون بإعدام كل مولود ذكر للعبرانيين بإلقائه في النيل. والتقطته ثرموسيس ابنة فرعون وتبنته وسمته «موريس»

وهذه العبارات تقارب ما ورد في التوراة (خرد): وذهب رجل من بيت لاوى وتزوج من بيت لاوى وولدت له ابناً... ودعته ابنة فرعون «موشه» من الفعل ماشه انتشله أي منتشلاً» فلو كان موسى مصرياً لما طبق عليه فرعون بقتل المواليد الذكور ولا اضطرت والدته ان تحبته.

ثم إننا لو بحثنا عن اسم أبيه عمرام (اي شعب سام) وأجداده: فتاهت من لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبي اليهود واسم أمه «يوكابد» من «كابود» أي الكرامة والاحترام وجدناها عبرية محضاً. وأما ما زعم فرويد من أن موسى كان من أتباع أخناتون فهو أيضاً مناقض للحقيقة لأن موسى ثبت عقيدة جده إبراهيم بتوحيد الله، ثم جاء بالتوراة أساس الشريعة الموسوية ووصاياها من أوامر ونواه من بينها الوصايا العشر التي نهت عن عبادة آلهة أخرى من أي نوع كانت وكذلك ما زعمه فرويد أن الديانة اليهودية والمسيحية اشتقتا من عبادة أخناتون، مناقض للحقيقة وقد سبق أن دحض الأستاذ منصور وهبة فيما نشرته له «الأهرام» هذا الزعم بالأدلة والنصوص القيمة من الكتب المنزلة.

يضاف إلى هذا أن أول من آمن بوحداية الله إبراهيم وذريته. وأنه هاجر من بلاد الكلدان. فرارا من الوثنية وزار مصر في عهد امنحت ٢ من الأسرة ١٢ نحو ٢٢٠٠ ق.م وذلك قبل أخناتون بزمان طويل وهو أمينوفيس ٤ ١٣٧٥-١٣٨٥ ق.م والأسرة ١٨ حموتوت عنخ آمون.

على أن كثيرين يعتقدون أن أخناتون قد أخذ توحيد الآلهة عن العبريين. فإن لفظة «آتون» أي قرص الشمس الذي اختاره معبوداً له لكونه إلهاً منظوراً مأخوذة من «أدون وأدوناي» بالعبرية اي سيد والسيد والله. الإله غير المنظور. وقد سمى نفسه أخناتون أي انعكاس قرص الشمس تيمناً به -وترك طيبة وعبادة آمون وبني معبداً لآتون في تل العمارنة ووضع أنا شيد للشمس.



وقد يبدو للمطالع أن بعض آيات من فرمور ١٩ و ١٠٤ و ٢٤ وغيرها من مزامير داود، لكثرة مشابهتها لإحدى أناشيد أختاتون مثل «ما أعظم أعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت» وقد أخذت عهد أختاتون. وهذا أيضاً بعيد عن الصواب وما هو إلا توارد الخواطر لا أقل ولا أكثر.

الإشارات المبكرة التي ذكرت في قصة موسى عليه الصلاة والسلام

### السر في ذكره أكثر من غيره من الأنبياء:

ليس غريباً أن يكون الحديث عن سيدنا موسى- عليه الصلاة والسلام - في كتاب الله تعالى أكثر من غيره من الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام -، فهو من أولي العزم، ذو شريعة مستقلة.

ومع أن عيسى- عليه الصلاة والسلام - من أولي العزم إلا أن شريعته ليست كذلك؛ ولذلك نقرأ في القرآن عن القرآن ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [الأحقاف: ١٢]، مع أن الذي كان قبله مباشرة كتاب عيسى عليه السلام؛ ولكن لما كانت رسالة عيسى- عليه الصلاة والسلام - مكملة للرسالة الموسوية، فهي فرع عنها، كان الذي يُذكر قبل القرآن الكريم كتاب موسى- عليه الصلاة والسلام - لأنه هو الذي يشبهه من حيث الأصل والاستقلال وليس غريباً أن يكون موسى عليه الصلاة والسلام أكثر ذكراً من غيره كذلك؛ لأنه أرسل إلى فئتين كانت كل منهما إلى جانب من العناد والقسوة والكفر: فئة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه)، وأخرى استمرأت الذلة والتبعية والاستضعاف (بنو إسرائيل).

وليس غريباً أن يكون أكثر من غيره ذكراً كذلك؛ ذلك لأن الذين أرسل إليهم كان لبعضهم آثاره الباقية الدالة على قوتهم، وبطشهم، وهم الفراعنة. أما بعضهم الآخر، وهم بنو إسرائيل فإن لهم شؤوننا مع المسلمين أصحاب القرآن منذ فجر الرسالة المحمدية على صاحبها صلاة الله وسلامه إلى يومنا هذا. والله وحده يعلم إلى أي مدى سيستمر

هذا الصراع، وتدوم تلك الشؤون، ونرجو أن يكون ذلك الأمد قريباً الذي تكتشف هذه الأمة فيه عناصر قوتها الكامنة في هذه الرسالة: كتاباً، وسنة، وتاريخاً، وتراثاً.

وليس غريباً أن يكون موسى عليه السلام أكثر ذكراً من غيره في كتاب الله كذلك، ذلك لأن الحديث عنه لم يكن من زاوية واحدة، كما هو شأن أكثر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وإنما تعددت الزوايا، وكثرت الجوانب التي عرضت للحديث عنه -عليه الصلاة والسلام-؛ وذلك لما في كل منها من عظات ودروس حري بها أن تتناول وتدرس، فبعض الجوانب حدثتنا عن رسالته -عليه الصلاة والسلام- إلى فرعون، وبعضها حدثتنا عن رسالته إلى فرعون، وبني إسرائيل.

وفي جانب ثالث اكتُفي بالحديث عن شأنه مع بني إسرائيل. وجانب رابع رأينا الحديث فيه عن ميلاده، وطفولته، وشيئته، وما حدث له في هذه الأثناء، وعن مبدأ رسالته ونبوته، وجانب خامس حدثنا عن هذا الأخير فحسب أعني مبدأ الرسالة. وأخيراً كانت هناك أحداث خاصة في حياته -عليه الصلاة والسلام-.

هذه جوانب ستة في حياة موسى عليه السلام حدثنا عنها كتاب الله تعالى. ومن هنا رأينا أن الحديث عنه لا يقتصر على السور المكية كما هو شأن الحديث عن كثير من الأنبياء، وإنما وجدناه في السور المدنية بل ربما في آخر هذه السور نزولاً، كما ستبين ذلك فيما بعد -إن شاء الله-.

ومهما يكن من أمر فلقد كانت هناك اشارات مبكرة كما مر معنا لكثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلم يكن خبر اليهود غريباً عن العرب، وبينهم جوار ومعاملات، وهذه الإشارات كان بعضها يذكره باسمه -عليه الصلاة والسلام-، وبعضها الآخر يعرض لفرعون وقومه.

وأول هذه الإشارات تأتي في سورة المزمل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٥-١٦] وهي تهديد لأهل مكة وإيناس للنبي -عليه وعلى آله الصلاة والسلام-، والقلة المؤمنة معه.

أما سورة الأعلى فذكر فيها قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

ثم جاءت سورة الفجر تؤنس المسلمين وتتوعد قريشاً بالألم المهلكة، وتذكر أمماً ثلاثاً: عاد وثمود وقد تبين لنا من قبل ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ [الفجر: ١٠]. وهذا الوصف متفق مع وصف عاد وثمود في السورة الكريمة، فقد وصفت إرم بأنها ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، ووصفت ثمود بأنهم الذين جابوا الصخر بالواد، أما فرعون فهو ذو الأوتاد وسواء أكانت الأوتاد قد أريد بها الجنود والأعوان، وركائز القوة، أم أريد بها الأهرامات كما يرى بعضهم، فإن الغاية بيان قوتهم، وما كانوا عليه من تمكين في الأرض.

وكذلك سورة (ق) حينما ذكرت المكذبين قبل قريش، بينت أن من جملتهم قوم فرعون ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ [ق: ١٢، ١٣].

أما سورة القمر فربما كانت الإشارة فيها زائدة على ما تقدم حيث بينت أن آل فرعون جاءتهم النذر، وأعطوا الآيات الكثيرة، ولكنهم كذبوا بها جميعاً؛ فاستحقوا أخذة قوية. قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ كَذِبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤١-٤٢] وهذا متسق مع موضوع السورة كما قلنا من قبل، فقد ذكر في أولها عن أهل مكة قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ [القمر: ٢-٤].

أما سورة (ص) فقد ذكرت فيها اشارة كما ذكرت في سورة (ق)، ولا يظن ظان أن هاتين الإشارتين شيء واحد، ففي سورة (ق) ذكرت كلمة فرعون فحسب، أما سورة (ص) فقد ذكر فيها قوله سبحانه: ﴿وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾.

ومهما يكن من أمر فإن سورة الأعراف إحدى السبع الطوال كانت أول السور الكريمة تفصيلاً لخبر موسى عليه السلام مع فرعون، ومع بني إسرائيل كذلك، ولعلها أكثر السور تفصيلاً كذلك، ونعجب من بعض الكتاب قدامى ومحدثين الذين ذهبوا إلى أن سورة الأعراف مبنية على الاختصار، وسورة الشعراء مثلاً مبنية على البسط، والذي أوقعهم في هذا فيما يظهر لي - تفسيرهم لبعض الكلمات، وبعض المواقف التي خصت بها سورة دون أخرى، وهذا يرجع إلى ما قررته من قبل، وهو عدم النظر إلى ما نزل أولاً، وما نزل أخيراً؛ لذلك كان للطريقة الموضوعية التي نسلوها الفضل في عدم الوقوع في مثل هذه الأوهام .

### الجوانب المتعددة في قصة موسى عليه الصلاة والسلام

ونرى قبل أن نفصل الحديث تميماً للفائدة أن نجمل هنا السور التي تحدثت عن موسى- عليه الصلاة والسلام -، والجوانب التي اختصت بها كل سورة حتى يسهل علينا، وعلى القراء الإفادة من هذه القصة المتعددة الجوانب، ومن الله التيسير والتسهيل:

١- الأعراف: عرضت لجانبين: موسى عليه السلام مع فرعون، وموسى عليه السلام مع بني إسرائيل .

٢- طه: ذكرت فيها جوانب ثلاثة: مبدأ الرسالة، وفرعون، وبنو إسرائيل .

٣- الشعراء: ذكر فيها جانب واحد وهو خبر فرعون .

٤- النمل: ذكر فيها جانب واحد وهو الرسالة .

٥- القصص: ذكر فيها ثلاثة جوانب: الميلاد، والرسالة، وفرعون .

٦- يونس : خبر فرعون .

٧- الصافات : تكريم وامتنان .

٨- غافر : نبأ فرعون .

٩- الزخرف : نبأ فرعون .

١٠- الدخان : نبأ فرعون .

١١- الكهف : جانب خاص مع العبد الصالح .

١٢- إبراهيم : بنو إسرائيل .

١٣- النازعات : نبأ فرعون .

١٤- البقرة : أنباء مع بني إسرائيل .

١٥- المائدة : مع بني إسرائيل .

وقد نجد في هذه الجوانب إشارات عن جانب آخر؛ لكنها ليست مفصلة، وهذا ما جعلنا نخصصها في جانب دون آخر، وسيظهر ذلك جلياً- إن شاء الله-.

من هذا الإجمال ندرك أن قصة موسى- عليه الصلاة والسلام - مع فرعون ذكرت في السور التالية: الأعراف، وطه، الشعراء، القصص، ويونس، وغافر، والزخرف، والدخان، والنازعات.

أما خبر موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ففي السور: الأعراف، وطه، وإبراهيم، والبقرة، والمائدة.

أما الميلاد وما يتصل به فذكر في سورة واحدة وهي القصص. أما مبدأ الرسالة فذكر في: طه، والنمل، والقصص.

أما سورة الكهف فقد انفردت بقصة خاصة، وهي نبأه مع العبد الصالح. وسيكون كلامنا عن هذه الجوانب كالتالي:

١- مولده ﷺ.

٢- مبدأ الرسالة.

٣- خبره مع فرعون.

٤- خبره مع بني إسرائيل.

٥- جانب المنن الإلهية.

٦- مع العبد الصالح.

### الجانب الأول: مولده ونشأته:

أما الجانب الأول من قصة موسى عليه السلام، فهو الجانب الذي يتحدث عن مولده ونشأته عليه الصلاة والسلام، وهذا الجانب ذكر في سورتي طه والقصص.

١- جانب مولده ﷺ.

ذكر مولد موسى ﷺ مفصلاً تفصيلاً تاماً في سورة القصص، ولكنه ذكر مجملًا في سورة طه. وسورة طه حدثنا عن أكثر من جانب في حياة الكليم ﷺ، حيث حدثنا عن جانب الرسالة، ورسالته إلى فرعون، وما كان منه مع بني إسرائيل، لكن حديثها عن ولادته جاء في معرض ذكر نعم الله عليه، فبعد أن سأل الله أن يشرح له صدره ويسر له أمره، إلى غير ذلك من الكرامات التي أكرمها الله بها، استجاب الله له بقوله ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ ثم بين له منته عليه وبدأ بهذه المنّة العظيمة التي كانت عند ولادته ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه: ٣٧]، أي قبل هذه المنن التي أكرمناك بها، حيث نجوت من الظالمين ويسرنا لك المأوى، وأكرمناك بالرسالة، وجعلنا لك وزيراً من أهلك هارون أخاك، أنعمنا عليك قبل هذا كله، ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَى﴾ [طه: ٣٨]

وفي هذا من الفخامة والتنويه والتعظيم الكثير الكثير. ولكن ما الذي أوحاه الله إلى أمه؟  
الوحي هنا الإلهام الذي يجد فيه الشخص الصدق كل الصدق، والشعور بالراحة  
والطمأنينة وليس هو وحي الأنبياء ﴿أَنْ أَقْدِرَ فِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِرَ فِيهِ فِي آيَةٍ فَلْيَلْقِهِ آيَمٌ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ  
عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَمْ﴾ [طه: ٣٩] وهو فرعون. أما عداوته لله فكفره به وتجبره وتكبره، وأما  
عداوته لموسى عليه السلام فلا أنه من بني إسرائيل، وفي هذا وغيره رد بليغ على فرويد.

يقول الرمخشري: ﴿فَلْيَلْقِهِ آيَمٌ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] روي أنها جعلت في التابوت قطناً  
محلوجاً، فوضعت فيه، وجصصته وقيرته، ثم ألقت في اليم. وكان يشرع منه إلى بستان  
فرعون نهر كبير، فبينما هو جالس على رأس بركة مع آسية إذا بالتابوت فأمر به، فأخرج  
لفتح، فإذا صبي أصبح الناس وجهاً، فأحبّه عدوّ الله حباً شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه،  
وظاهر اللفظ أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه، لأنّ الماء يسحله أي يقشره، وقذف به  
ثمة فالتقط من الساحل، إلا أن يكون قد ألقاه اليم بموضع من الساحل فيه فوهة نهر  
فرعون، ثم أداه النهر إلى حيث البركة (مَنِي) لا يخلو إما أن يتعلق بالقيت فيكون المعنى  
على: إني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب. وإما أن يتعلق بمحذوف هو صفة  
لمحبة، أي محبة حاصلة أو واقعة مَنِي قد ركزتها أنا في القلوب وزرعتها فيها، فلذلك  
أحبك فرعون وكل من أبصرك. روي أنه كانت على وجهه مسحة جمال وفي عينيه  
ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه ﴿وَلْيُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] لترتبي ويحسن إليك وأنا  
مراعيك ومراقبك كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به<sup>(١)</sup>. ثم يتبين الله نعمه  
العظيمة على الكليم فيذكر نعمتين اثنتين: الأولى ﴿وَالْقِيَتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وما أعظمها  
من نعمة، وأي نعمة أعظم من أن تلقى محبة الله على أحد من خلقه؟

والنعمة الثانية «ولتصنع على عيني».

(١) الكشف ٥٣٦/٢ طبعة دار الفكر سنة ١٩٨٣.

قال الزمخشري: لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك ومراقبك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به، وتقول للصانع: اصنع على عيني أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادي وبغيتي<sup>(١)</sup>.

ثم تستمر الآيات بتذكير موسى عليه السلام بنعم الله عليه. ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَلَّتِ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفُتِنَكَ فُتُونًا ۖ فَلَمَّا سَنَّ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِ ۖ﴾ [طه: ٤٠-٤١] وذلك لما أنعم به عليه من تقرب وتكريم وتكليم، أي أستخلصك لنفسي ماناً عليك بالكرامة، حيث أثرتك على كثير من غيرك من الناس<sup>(٢)</sup>.

هذا ما جاء في سورة طه مجملًا عن ولادته ﷺ. والسورة التي فصلت هذا تفصيلاً هي سورة القصص وقبل أن نتحدث عن مولده في سورة القصص، نقف عند دقائق التعبير القرآني.

جاء في سورة (طه) ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ۖ أَنْ أَقْبِضِي فِي الثَّابُوتِ ۖ فَأَقْبِضِي فِي الْيَمِّ ۖ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ۖ﴾ [طه: ٣٨-٣٩] وجاء في سورة القصص ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ إِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلِفِيهِ فِي الْيَمِّ ۖ﴾ [القصص: ٧]. وقد يطلق القذف على الإلقاء والوضع والرمي، ولكن يبقى لكل كلمة معناها الألفق بها. ويظهر أن في القذف من الشدة والقوة ما لا يوجد في الإلقاء وقد تحدثت في كتابي إعجاز القرآن الكريم عما بينهما من فروق، مستشهداً بقوله تعالى في سياق الحديث عن غزوة بدر. ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۖ﴾ [الأنفال: ١٢] وفي بني النضير ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۖ﴾ [الأحزاب: ٢٦] وحاولت تلمس الفروق وبيان سر الإعجاز بالتعبير بكل من الكلمتين في سياقها الذي جاءت فيه، فليرجع إليه من شاء.

(١) الكشاف ٥٣٦/٢ طبعة دار الفكر سنة ١٩٨٣.

(٢) الكشاف ٥٣٧/٢ بتصرف.



وفي هاتين الآيتين الكريمتين يُعبر في سورة طه بالقذف والإلقاء، ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي آيَمٍ فَلْيُلْقِهِ آيِمٌ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] أما في سورة القصص ﴿فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَكَلِّمِيهِ فِي آيَمٍ﴾ [القصص: ٧]. والحادثة واحدة، وإذا أردنا ان نتلمس الفرق، ونبحث عن السبب فلا بد أن نقف مع سياق كل من الآيتين.

إن آية القصص كانت حديثاً مع أم موسى فقد أمرها الله أن ترضعه، فإذا خافت عليه -والتعبير إذا هنا يدل على تحقق خوفها، كيف لا وهو فلذة كبدها؟ ﴿فَكَلِّمِيهِ فِي آيَمٍ﴾. إن الخطاب لأم موسى جدير أن يكون فيه لطف ومؤانسة، لذلك كان من الحكمة التعبير بالإلقاء، لأن الإلقاء ليس فيه من الشدة والقوة ما في القذف كما قلت من قبل.

أما ما جاء في سورة (طه) فانما كان حديثاً مع موسى ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة وبين له النعم العظيمة التي أنعم بها عليه، ومن هذه النعم أنه نجاه من كربات كثيرة، ولقد اقتضى السياق ان تذكر هذه النعم في معرض التهويل. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي آيَمٍ﴾ [طه: ٣٩] إنها إشارة إلى ما أكرم الله به موسى عليه السلام حيث نجاه من الغم وفتنه فتوناً كثيراً،... وهكذا نجد الحدث الواحد يُعبر عنه في القرآن بأكثر من لفظ وهذا يرجع إلى السياق الذي ورد فيه الحدث. وانظروا كيف ذكرت كلمة القذف وقد كان الحديث مع موسى ﷺ، وهو في طريقه إلى فرعون، ليوطن نفسه على ما يلقيه من صعاب، ولقد نجاه الله من كروب عظيمة حيث قذف في التابوت وقذف في اليم، فليعتمد على الله فيما أمره به، وليخش الله وحده!!

٢- وجاءت سورة القصص لتحدث في أولها بعد قوله تعالى. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ تَتْلُوا عَلَيْهِ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فمهدت لذلك بالحديث عن استعلاء فرعون في الأرض، وجعله أهلها شيعاً ﴿يَسْتَخِفُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذِيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

كما يَبْتَئُ أن الله يريد أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض، ويجعلهم أئمة، ويجعلهم الوارثين، ويمكن لهم في الأرض، ويُرِي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

### العلو في الأرض يؤدي إلى الفساد:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أَمْثَهُمْ وَيَسْتَخِيءُ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤].

ولا بد من وقفة عند الآية الكريمة، وما أعظم القرآن الكريم في إرشاداته وتوجيهاته، وما أحوج أمتنا اليوم، بل العالم كله إلى هذا القرآن، الذي يهدي للتي هي أقوم. تبين الآية الكريمة أن العلو في الأرض يمقتة الله تبارك وتعالى؛ لأنه يؤدي إلى الفساد، وتبين الآية الكريمة أن الناس جميعاً أبناء هذه الأرض، خلقوا منها، فيها يستقرون ويتمتعون إلى حين، وفيها يعودون فليس أحد أولى من أحد بهذه الأرض، بل الناس فيها سواء، وإن كل الفوارق على اختلافها لا ينبغي أن تجعل لفئة امتيازات دون فئة أخرى، فالقبلية والقومية واللغة ليس من شأنها أن تعمق الفوارق على هذه الأرض، ولقد كان يعيش في أرض مصر القبط، والإسرائيليون، ولكن فرعون عمق الفوارق بين هاتين الفئتين، فعلاً وتكبر، وجعل أهل الأرض وسكانها شيعة، كان لفئة العلو، ولأخرى الاستضعاف، تحيا فئة بمظاهر الترف، وأخرى تعيش على فتات العيش.

ونحن نرى اليوم كثيراً من أولي الأمر في بلدان العالم الثالث، ومنه الدول العربية الإسلامية وإلى الله وحده الشكوى - نرى أولي الأمر في هذه الدول هم الذين يفرقون بين الناس، ولقد نقلت لنا وسائل الإعلام أخباراً مؤلمة مزعجة، وعلى سبيل المثال، هذه الملايين التي ذهبت في بعض الدول الإفريقية بين قبائل الهوتو والتوتسي، وغيرها كثير... ونحن نقرأ ونسمع ما يحدث في باكستان بين المهاجرين وغيرهم، ولا ننسى ما كان بين باكستان الغربية والشرقية قبل انفصالهما، والدول العربية بالطبع لا تخلو من كثير من هذا!! فما أجمل ما في الآية الكريمة من توجيه لذوي السلطة والسلطان،

ومن يليهم من أولي الأمر، ليحسنوا التصرف فيغرسوا الأمن والطمأنينة، بين من يحيون على الأرض، حتى لا تكون فتنة.

إن الشعوب لا تميل إلى ما يعكر صفوها، وهي أقل ميلا لسفك الدماء لولا ما تجده من تحريش وتحريض وتفاضل، حيث يكون لفئة من النحل عسله، ولفئات أخرى من النحل لسعه. ألم تحدثنا هذه السورة الكريمة أنه جاء من أقصى المدينة رجل من آل فرعون ينبيء موسى عليه السلام بما أزمع عليه الملأ من آل فرعون... الله الله في هذا الكتاب العظيم!! إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً.. ما أحوج المسلمين وغيرهم إلى أن تتلاشى فيهم هذه الفوارق على اختلاف أسبابها، وتاريخنا يفاخر الدنيا كلها بهذه المآثر الطيبة. وما أجمل كلمة رسول الله ﷺ «اليوم يوم المرحمة»<sup>(١)</sup> وقوله «أتعيره بأمة إنك امرؤ فيك جاهلية»<sup>(٢)</sup>. وما روي عن عمر رضي الله عنه للقبطي «اضرب ابن الأكرمين، إنه ما ضربك إلا بسلطان أبيه»!!

إن في الآية الكريمة دروساً وعظات. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ ليتها تجد أذاناً صاغية لتكون تذكرة، ﴿وَقَعَهَا أَذُنٌ وَّعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

وهذا يذكرني بقول رسول الله ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه»<sup>(٣)</sup> وهذا ما يفعله أولو الأمر.

### الاعجاز في نظم الآية القرآنية:

وبعد هذا الإجمال المحكم المركز بدأت تتحدث السورة عن مولد موسى -عليه الصلاة والسلام-، وذلك لما فيه من العبرة والعظة والحكمة والقدرة، بدأت بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ كَأَنَّهَا فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، وما أعظم هذه الآية في إيحاءاتها

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية حديث رقم ٣٠ الطبعة السلفية مع الفتح ٨٤/١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز حديث رقم ١٣٨٥ الطبعة السلفية مع الفتح ٢٤٥/٣.

والفاظها وإعجازها!، ونعجب من الذين تحدثوا عن الإعجاز والبلاغة القرآنية، لِمَ يقتصرون على التمثيل لهذا الإعجاز بقول الله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَكَسَمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [هود: ٤٤]، لِمَ يقتصرون على هذا التمثيل بهذه الآية وحدها فحسب يتبع لاحقهم سابقهم، وخلفهم سلفهم، ولعمر الحق إن آيات القرآن كلها تصلح للتمثيل، لتقف شامخة دليلاً على الإعجاز والبلاغة وآيتنا هذه فيها من الألفاظ والمعاني، والنظم الكثير الكثير مما لا يسعنا الحديث عنه الآن، ولكنها كما قالوا اشتملت على أمرين ونهيين وبشارتين في آن واحد.

وتحدثنا الآيات أنه التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، هكذا كانت العاقبة التي لم يكونوا يعرفونها، ولقد عقب القرآن على ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَلَ وَهَمَزًا مِمَّا يَخْتَارُ﴾ [القصاص: ٨]، ثم يتحدث القرآن عما دار بين امرأة فرعون وفرعون ﴿قَرَّتْ عَيْنِي إِلَى وَلَدٍ لَا نَقْصُودُهُ عَيْنًا أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصاص: ٩]، ويعقب القرآن بعد ذلك بهذا التعقيب الرائع الموجز المعبر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

ثم يحدثنا القرآن عن مشهد آخر يتعلق بإرضاع موسى عليه السلام، وما كان من شأن أمه وقد أصبح فؤادها فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين، وقولها لأخته قصّيه، وكيف أنها بصرت به عن جنب دون أن يشعر القوم بشيء، وكيف أن الله أراد أن يتم أمره ويصدق وعده ويكرم التي امتثلت أمره فقد حرم عليه المراضع من قبل وقالت أخته: ﴿هَلْ أَذْكَرَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَكَ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيبٌ﴾ [القصص: ١٢]، كل هذا دون أن يشعر القوم بما يدبره الله تبارك وتعالى ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]. نعم لا يعلمون، ويسدل الستار على حلقات كثيرة لم يذكرها الله تبارك وتعالى؛ لأن الله لا يذكر من القصص إلا ما تتعلق به الحكمة والعظة والعبرة فمن زمن الرضاع إلى أن يبلغ أشده، ويستوي ناضجاً، ويشب قوياً يؤتيه الله الحكم والعلم، وذلك هو الجزء الذي يجزي الله به المحسنين دائماً في كل زمان ومكان،

وفي كل عصر ومصر فيدخل المدينة على حين غفلة من أهلها فيجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته، وهذا من عدوه، إسرائيلي وقبطي، ويستغيثه الإسرائيلي على القبطي. فيهب موسى عليه السلام لنجدة المظلوم، وتلك إشارة إلى ما كان يعتمل في نفسه فيضربه ضربة خفيفة، يعبر القرآن عنها «بالوكر» ليس من شأنها أن تقتل، ولكن شاء الله أن تكون هي النهاية<sup>(١)</sup> ففضى عليه، فلما رأى ذلك قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين.

وهنا تسطع في نفسه أنوار العلم والحكم ليعبر عن ندمه وأسفه، ولكن هذا الندم إنما هو من أجل الله ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّكَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ٣٦]. ويدرك أن النعمة ينبغي أن تسمو بصاحبها لتدخله في زمرة الأبرار والمؤمنين لا أن تصيبه بالبطر فيكون عوناً للفجار والمجرمين.

هذا ما أدركه موسى -عليه الصلاة والسلام- ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]، وتصور الآيات الكريمة نفس موسى -عليه الصلاة والسلام-، وقد حدث ما حدث بهذه الكلمات البديعة الرائعة ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] ما أجمل الجمع بين الصباح والخوف ان لهما مغزى عظيماً، ودلالة تخترق كل الحجب، والصبح يبعث في النفس الأنس والأمن، ولكنه أصبح خائفاً ثم ماذا؟ يترقب!! ما أعظم وقعها في صيغتها وهي التفعّل ومادتها الترقب. يفاجأ بأن الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستصرخه اليوم مرة أخرى، ولكن موسى عليه السلام الذي ما كانت النعم لتبطره وتجعله ظهيراً للمجرمين، يقول لصاحبه الذي استنصره ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] إن الإغواء طبيعة فيك ولكن ماذا كان بعد ذلك؟ تقول آيات ربي ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ [القصص: ١٩]<sup>(٢)</sup>.

(١) وهذا لا ينافي عصمة الأنبياء، لأن موسى لم يقصد القتل ولم يضره ضربة تقتل في العادة.

(٢) إن شئت أن تدرك جمال موقع كلمة ﴿أَنْ﴾ ودقتها في النظم الكريم فراجع كتابنا لطائف المنان =

(ولقد اختلف المفسرون من هذا الذي أراد أن يبطش به موسى -عليه الصلاة والسلام-.  
يذهب بعضهم إلى أنه أراد أن يبطش بالقبطي؛ لأنه هو العدو لموسى عليه السلام  
وللإسرائيلي.

ويرى بعضهم أنه الإسرائيلي، أما عداوته للقبطي فظاهرة، وأما عداوته لموسى عليه  
السلام؛ فلأنه أغواه بالأمس ومع أن القرآن الكريم ترك الباب مفتوحاً كي يشحذ الهمم  
لأعمال الفكر. فإن الذي يبدو أننا يمكن أن نعدّ الإسرائيلي هو الذي أراد أن يبطش به  
موسى وذلك لما يلي:

١- أنه دخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان كان ذلك  
على حين غفلة من الناس.

٢- قوله -عليه الصلاة والسلام- لن أكون ظهيراً للمجرمين.

٣- قوله للإسرائيلي ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨] فكيف يريد أن يناصره  
بعد ذلك.

٤- قوله ﴿يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩]، ونحن على  
يقين أن القبطي لم يكن يعلم بما كان من موسى -عليه الصلاة والسلام-، بل كان الأمر  
مجهولاً، ولقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار -رحمه الله- أنهم لما وجدوا القبطي  
مقتولاً ذهبوا إلى فرعون، فقال لا بد أن تتحسسوا لتعرفوا القاتل، ولكنهم لم يعرفوه،  
إلا عندما قال الإسرائيلي ﴿يَمْوَسَّىٰ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ فسمعها القبطي  
وذهب بها إلى قومه فلما علموا أن القاتل موسى عليه السلام ائتمروا به ليقتلوه،  
وهذا الذي يتمشى تماماً مع ما ورد في كتاب الله.

٥- نحن ذلك منسجماً تماماً مع طبيعة اليهود الذين لا ينطلقون فيما يعملون ويذرون إلا من مصالحهم الخاصة، فكأن هذا الإسرائيلي حينما رأى ما يريد موسى -عليه السلام- أحب أن يشي به، وقد كان. وهكذا جعل الإسرائيلي نفسه داعية إصلاح فهو يكره التجبر في الأرض والبغي والاعتداء. يكره ذلك كله ويحب الصلاح والإصلاح والخير ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ عجباً لك يا موسى.

ليت شعري أليست تلك نفسيتهم؟! أليس هذا هو الواقع الذي يصدرون عنه؟! أليسوا هم الذين يريدون أن يشعروا الدنيا بأنهم دعاة حق وأمن فجيشتهم يسمونه جيش الدفاع، ولهذه التسمية الحاضرة ما يربطها برباط نفسي، ورباط تاريخي؛ أليسوا يطلقون على غيرهم المخربين؟ إن الذي يثور من أجل حقّه مخرب، وإن الذي لا يخضع لكل ما يريدون محبٌ للحرب.

إيه على واقع مظلم تعيشه أمتنا المقطعة مقطعة الأوصال!! أكتب هذه السطور وعيناي -يعلم الله- مغرورتان بالدمع. لماذا ابتعدنا عن هدي القرآن وإرشاداته النفسية والاجتماعية والتاريخية؟ ولو أنا التزمنا بذلك لكان خيراً لنا وأشدّ ثباتاً. يا للضياع والمهانة!! ولكن وكما تبدد الشمس الغيوم لا بد أن تبدد شمس الحق في نفوسنا كل عفارات اليأس، وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وماذا كان بعد ذلك؟ كلُّ سر جاوزَ الاثنين شاع، وهكذا انتشر الخبر، ويحدثنا القرآن الكريم أن موسى -عليه الصلاة والسلام-، وهو الحسنُ سيرةً، الطاهرُ سريرةً لم يعدم من يسدي له النصيح من قوم فرعون، شتان بين الموقفين. بين موقف الذي وشى به وهو من أهله وجماعته، وبين موقف ذلكم الرجل من آل فرعون يأتي ليخبره بما يبيّنت له ويُدبّر.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠]، وتذوقاً لحلاوة البيان تعود بنا الذاكرة لنقرأ قول الله في سورة «يس» ﴿وَجَاءَ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: ٢٠] لنجد هذا التباين بين الاثنين. فمع أن للبعد أثراً لا يُكرّر، فهو من أقصى المدينة ولكن الذي يستحق التقدير حقاً أن يكون رجل من آل فرعون هو الذي جاء موسى -عليه الصلاة والسلام-، ولهذا جاءت الآية الكريمة على هذا النظم ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ نعم إن التقديم والتأخير في الآيات القرآنية له مدلوله وإرشاداته ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦] وما أجمل هذه الكلمة ﴿يَسْعَى﴾ فالسعي يدل على أمرين، أمر نفسي وهو أنه يقصد هذه الحركة، وأمر مادي، إذن هو ليس مشياً فحسب، بل مشي له غاية، وفيه سرعة حركة. وإذا أردنا أن نذوق جمالها فلنقارن بينها وبين كلمة «تمشي» في الآية التي ستأتي قريباً ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي﴾ [القصص: ٢٥]. يقول الناصح لموسى عليه السلام إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك، إنهم الملائكة أشرف القوم، وإنهم يأتونهم. والله إن هذا التعبير لترقص له القلوب والعواطف نظماً ومعنى ﴿إِنَّكَ أَلَمَلًا يَأْتِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرِجْ إِلَىٰ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] ويخرج موسى -عليه الصلاة والسلام- خائفاً يترقب.

ماذا يمكن أن تلقي هذه الكلمة من ظلال؟؟ وبماذا يمكن أن تمتد السمع والقلب؟؟ بالكثير الكثير ﴿يترقب﴾ إنها تصور ما كان يجول في نفسه -عليه الصلاة والسلام-، ولكن هذا الترقب مهما كان تملكه للنفوس إلا أن المؤمن يستطيع أن يملك كل أسبابه حينما يتوجه إلى الله، وهكذا كان موسى عليه السلام ولهذا توجه إلى ربه ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١] ويخرج من مصر قاصداً أرض الشام، هي مسافة ليست بالقصيرة في زمننا نحن، فكيف إذا كانت في زمنه هو، ولم تكن هناك وسائل المواصلات؟! فما بالنا بمن خرج وحيداً يترقب، وللإيمان جذوة تمتد صاحبها دائماً، ولكنها تكون أكثر مدداً في أوقات الشدة.



وهكذا نجد موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما يتوجه لتقاء مدين تمتلىء نفسه بالرجاء، رجاء الخير من ربه ﴿قَالَ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. وتطوى المسافات بكل ما لقي فيها موسى وبكل ما كان يجول في خاطره من أفكار وخواطر، كل ذلك يطويه القرآن الكريم. ويرد موسى ماء مدين ويجد عليه أمة من الناس يسقون ويكون ذلك بدءاً لحلقة جديدة في حياة موسى -عليه الصلاة والسلام-. إيه ما أعظم الحِكم! وما أعظم الحكيم! يا حاكمي وحكيمي جميع فعلك حكمة!!

فماذا وجد موسى؟ وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان، تمنعان غنمهما عن الماء، وهنا تبدو في موسى عليه السلام نوازع الخير. موسى عليه السلام الذي أكرمه الله بالحكم والعلم وجعله من المحسنين، موسى عليه السلام الذي لن يكون ظهيراً للمجرمين، موسى عليه السلام الذي توجه لربه بقوله ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، موسى عليه السلام الذي يعترف بنعم الله، ولن يكون ظهيراً للمجرمين، موسى عليه السلام الذي يكره الغواية والظلم، موسى عليه السلام الذي يعده ويهيئه الله لحمل عبء لا يستطيعه أكثر الناس، ولا يصلح له إلا الصفوة المختارة، يدرك أن هاتين المرأتين، والتعبير القرآني له قصده ودلالته، فلم يقل فتاتين أو صبيتين، وإنما امرأتين<sup>(١)</sup> يدرك موسى الذي أنهكه السفر أن هناك خيراً ينتظر من ربه حينما يعين ضعيفاً، ويعمل لأخرق ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ أَلْرَعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣] وتظهران ما يحمل النفس على إعانتها ومساعدتها، وهو أسلوب حكيم جيد فيه من الإثارة ما فيه. الإثارة لعمل الخير والإشفاق ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] فسقى لهما، ولكن أين ذهب بعد ذلك؟

(١) فإن لفظ امرأة إنما يطلق على الانثى التي بلغت مبلغ النساء، وليس على المتزوجة وحدها كما يظن كثير من الناس.

## سر استعمال كلمة ثم:

كأنما وقف موسى -عليه الصلاة والسلام- ينتظر لعل هناك من هو بحاجة إلى معونة مثل هاتين المرأتين لعل هناك من يستطيع موسى عليه السلام أن يقدم له خيراً. لعل هناك ضعيفاً محتاجاً إلى ما من الله به على موسى عليه السلام من قوة، كل هذه يصورها حرف واحد من كتاب الله ﴿ثُمَّ﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤] ولم يقل «فسقى لهما فتولى إلى الظل» أو «تولى»، وإنما قال ﴿ثُمَّ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ كما يقول علماء العربية تدل على التراخي إنه يريد أن يشكر الله بما أنعم به عليه، ولكنه بعد ذلك كله وبعد أن اقتنع وتأكد أنه ليس هناك حاجة لبقائه عند الماء يتولى إلى الظل يناجي ربه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] ما أعظم هذا التضرع! وما أوصله إلى الله! إنه محتاج أيما حاجة، وفقير أيما فقر، لأي خير ينزله الله إليه، ويسوقه له سبحانه كيف وقد أحاطت به مرارة الاغتراب وكآبة الفرقة والوحدة وشدة الجوع، كل هذا إنما يشف لنا شفافية صادقة عما يتمتع به موسى عليه السلام من نفس صادقة الإيمان محبة للخير.

وقد رأيت كلاماً للزمخشري بعد كتابة هذه السطور يدل على طول باع الرجل وتدوقه لكتاب الله تعالى، أحببت أن أنقله حتى يهنأ به القارئ، قال جار الله الزمخشري -رحمه الله- عند تفسيره هذه الآيات:

«والمعنى أنه وصل إلى ذلك الماء، وقد ازدحمت عليه أمة من أناس مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبَتَيْن لفراغهم، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما. وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوة قلبه وقوة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة وحصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوة وما لم يغفل عنه على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب،

ترغيب في الخير، وانتهاز فرصه، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم<sup>(١)</sup>.

ومن روعة الأسلوب في الآيات الكريمة، وإن كنا ندرك أن هذا ليس محله، لكن معانيه تتدافع في النفس تأبى أن تظل حبيسة النفس، وهو ما أشار إليه علامة البيان الإمام عبد القاهر الجرجاني -رحمه الله- من حذف المفعول في هذه الآيات الكريمة، وهو قوله تعالى ﴿يَسْقُونَ﴾ ﴿تَذُودَانِ﴾ ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ ﴿لَا سَقَى﴾ حيث لم يقع «لا نسقي غنما» أو «يسقون أنعامهم» أو «تذودان شياههما»؛ لأن ذكر المفعول لا تتعلق به الفائدة ولو ذكر فربما يغير ذكره المعنى. فلهذا در التزليل!!

فماذا كان بعد ذلك؟ يقول القرآن الكريم: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْثِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥] إن الحياء زينة المرأة، وللقراء طريقتان في الوقف على الكلمة:

فبعضهم يقف على كلمة ﴿تَمْثِي﴾ ثم يكون بدء الكلام ﴿عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ ابْنِي يَدْعُوكَ﴾ فيكون الاستحياء من القول وبعضهم يقف على كلمة ﴿أَسْتَحْيَاءٍ﴾ فيكون المعنى جاءت تمشي مستحيية.

وأقول: إن وضع كلمة ﴿عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ بين الجملتين بين جملة المشي، وجملة القول، تلمح إلى أن الاستحياء ينبغي أن يكون طبيعة في المرأة الخيرة قولاً وعملاً.

ويذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- ويقص على الشيخ الكبير<sup>(٢)</sup> القصص فيقول

---

(١) الكشاف: ١٠٤/٣ طبعة مصر.

(٢) ذهب الكثيرون إلى أن الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام ولعل الذي دفعهم لهذا أن شعيباً عليه السلام كان من مدين، وذهب بعضهم إلى غير ذلك وهو ما نرجحه وذلك لأن موسى عليه السلام لبث سنين في مدين فلو كان الشيخ شعيباً لكان لموسى عليه السلام بعض شأن معه ولرأيناه يذكر شيئاً من هذا ولأشار لذلك القرآن الكريم، ولا نحب أن نطيل في مثل هذه القضايا فليست ذات فائدة تذكر. ولكن نبه على أن كثيراً مما اشتهر عند الناس مما ليس له سند وليس عليه دليل لا ينبغي أن يعول عليه، وأكد أجزم بأن الشيخ الكبير ليس شعيباً عليه الصلاة والسلام، فإن المعركة بين شعيب =

﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]، وتقول إحداهما لأبيها ﴿يَتَأَبَّيْ  
أَسْتَفْجِرُكَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ما أجمع هذه الكلمة وما  
أدعاها لكل مقومات الحياة وركائز الأمم: القوة والأمانة، فهما الأساس للراعي والرعية،  
وحينما تعدم إحداهما ينفرط نظام الأمم وتداول الدول، وتدور الدوائر على الأفراد  
والجماعات. فما بالنا إذا عدمتا معاً؟

وما أخرجنا ونحن نعاني ضعفاً ونضعف معاناةً ما أخرجنا للقوة والأمانة!! ويكون بين  
الشيخ الكبير وبين موسى عليه السلام ما حدثنا عنه القرآن:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِن شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً  
فَطَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَلَائِفٌ وَمَا يَأْنِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ تُحَدِّثُ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَنِيهِمْ  
أَنْبَتُوا مَا كَانُوا يَكُونُونَ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ  
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا  
يَنْظُرُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَى

= وقومه كانت على أشدها والرجل هنا شيخ أقعدته الشيخوخة، ولو انه كان شعبياً لأشارت إنبته إلى  
شيء من هذا، ولا يعقل أن تخفيا كونه رسولاً لتختاراً له هذين الوصفين «شيخ كبير» والاستدلال  
على كونه نبياً بأنه استأجر موسى عليه السلام غير مقبول، فموسى عليه السلام لم يكن نبياً في ذلك  
الوقت. على كل حال فإن كثيراً من المفسرين من العلماء قديماً وحديثاً لا يرون أن الشيخ الكبير هو  
شعيب والله أعلم وأتساءل هنا: إن كان الشيخ الكبير شعبياً، أكان مجيء موسى عنده قبل رسالته أم  
بعدها؟ لا يعقل أن يكون قبل الرسالة، لقول إنبته «وأبونا شيخ كبير». ونحن نعلم أن للرسالة أعباء  
لا يقوم بها الشيخ الكبير. لا بد أن يكون بعد النبوة -إذن- وتساءل أكان ذلك إبان الدعوة إلى قومه  
أم بعد أن نجاه الله. لا يعقل أن يكون بعد أن نجاه الله، لأن المؤمنين الذين نجاههم الله معه لا  
يرضون لأنفسهم أن ترعى إنبته نبينهم الغنم أو أن تؤجلا السقي حتى يسقي الجميع. لهذا ليس من  
خلق المؤمنين يقينا، وكذلك لا يعقل أن يكون إبان دعوته إلى قومه؛ لأن تلك الحقبة التي قضاه  
موسى عليه السلام وهي عشر سنين، أو ثمان، لا يذكر منها شيء في كتاب الله، ولا يذكر موسى  
عليه السلام منها شيئاً، عند دعوته فرعون.

ذُبُّ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِأَيَّتِنَا، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأَيَّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ [الشعراء: ١-٢٨].

وبهذه الحلقة ينتهي هذا الجانب من جوانب قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- وتستمر السورة تحدثنا عن الجانبين الآخرين، جانب الرسالة، وقصته مع فرعون، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً إن شاء الله.

### الجانب الثاني: جانب بدء الوحي:

إن رسل الله عليهم الصلاة والسلام -الذين اصطفاهم الله لاقوا كثيراً من الشدة والعنت من أقوامهم، وكان أكثرهم عناء أولو العزم، وهم الذين ذكروا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]. وموسى ﷺ من أولي العزم، وقد يكون أكثر الرسل معاناة بعد النبي عليه وآله الصلاة والسلام؛ ذلكم أن الله أرسله لأهل مصر، وكانوا فئتين: الفئة المستعالية الحاكمة المتغترسة، والفئة المضطهدة المحكومة المستضعفة. ولا ريب أنها مهمة ليست باليسيرة.

ولكن قد يقال: إن القرآن الكريم ركز كثيراً على إرساله إلى فرعون، أكثر من إرساله إلى بني إسرائيل؟ ونقول: إن هذا أمر بدهي، لأن آل فرعون كانوا هم الحاكمين من جهة، ولأن بني إسرائيل كان التوحيد أساس عقيدتهم من جهة أخرى، والمتدبر آي القرآن الحكيم، يجده ﷺ أرسل لكل من الفئتين، أما إرساله إلى فرعون وقومه،

فقد بينته سور كثيرة من سور القرآن، وأما إرساله لبني إسرائيل، فقد جاء في بعض السور المكية والمدنية، ففي سورة الإسراء المكية ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١] وفي سورة الصف المدنية نقرأ قوله سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ<sup>(١)</sup> يَنْقُورِ لِمَ تُوذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥] و(قد) في الآية الكريمة كما يجمع عليه علماء البيان للتحقيق والتأكيد، وليست كما يستعملها بعض الناس للتشكيك وفي سورة البقرة: ﴿سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١] وفي هذا الجانب من حياة موسى ﷺ سوف أتحدث عن بدء الوحي، مبيناً السور التي تحدثت عن هذا الجانب، وسأخص كلاً من الفئتين اللتين أرسل إليهما ﷺ بجانب خاص، فأحدث عن إرساله إلى فرعون، ثم عن إرساله إلى بني إسرائيل. ومن الله وحده العون.

أمّا جانب بدء الوحي فإننا نجد الحديث عنه في سور ثلاث: طه، والنمل، والقصص.

١- سورة طه كانت أكثر السور تفصيلاً لهذا الجانب؛ إذ بدأت الآيات بقول الله تبارك وتعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ٩-١٠]، هكذا تبدأ القصة في هذه السورة ﴿آنَسْتُ نَارًا﴾ إذ ليس الإيناس الإبصار وحده، فيكون حسياً فحسب، وإنما هو أمر حسي ونفسي معاً، فطلب من أهله المكث، -وهو غير اللبث لأن ذلك محدد الزمن مابين المدة وغالباً ما يكون ذا أمد بعيد مثل: ﴿لَيْسْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، ﴿قَالَ كَمْ لَيْسَتْ قَالَ لَيْسَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْسَتْ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وليس كذلك المكث الذي ذكر هنا -لعله يأتيهم منها بقبس أو يجد على النار هدى<sup>(٢)</sup>،

(١) قومه هم بنو إسرائيل.

(٢) (بقبس) شعلة من النار (أو أجد على النار هدى) أي أجد أحداً أسأله فيهديني إلى الطريق الأمثل.

إنه يرجو ألا يرجع بغير فائدة ﴿ فَلَمَّا أَنْهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴾ [طه: ١١] هكذا بلا مقدمات ولا وسائل ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢]<sup>(١)</sup> ويفاجئه الخبر السار باختيار الله له، وإذا كان الأمر كذلك، فهي الرسالة فليُلْقِ لها بالاً وليفتح لها قلبه وأذنيه، ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ [طه: ١٣]، ويبدأ الوحي بكلمات التوحيد والأمر بالعبادة وبيان الساعة والبعث، تلك هي أمهات العقائد التي يشترك فيها الأنبياء جميعاً ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيَجْزِيَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى ﴾ [طه: ١٤-١٥]، ولما كان أمر الساعة أمراً يحتاج فيه المرتابون حذر الله منهم موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه: ١٦]، فالحائل بين الناس وبين الإيمان بالساعة، إنما هو اتباع الأهواء. وهذا الذي يوقعهم في الردى والهلاك. ولقد كان موسى عليه الصلاة والسلام صادق الحدس حينما قال ﴿ أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه: ١٠] فأى هدى أعظم من هذا الذي وجدته، حيث أكرمته الله بأنوار الوحي، ونعم الهداية له ولغيره، إنها إرهابات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وبعد أن تمت الرسالة، وشرقت أنوار الحق في جنبات نفس موسى -عليه الصلاة والسلام-، وملأت قلبه، وذاق لذائذ الأنس، يلقي عليه هذا السؤال ﴿ وَمَا تَلَكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَى ﴾ [طه: ١٧] فتحمله لذة الأنس على أن يسهب في قوله، ويطنب في حديثه، وهي قضية نفسية ما إخالها يغفل عنها أحد، فكم من موطن يجد أحدنا فيه نفسه تواقفة لأن يطيل الوقفة، فكيف إذا كانت بين موسى عليه السلام وخالقه الذي أنعم عليه! فيقول ﴿ هِيَ عَصَايَ ﴾ [طه: ١٨] ولم يقل عصاي فحسب - بل تطوع للتحدث عما يجنيه من هذه العصا من فوائد، وكل ذلك إنما هو تمهيد للمعجزة، ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَى ﴾ [طه: ١٩]

(١) طوى: اسم للواد.

وتكون المفاجأة ﴿فَالْقَنَہَا فَاِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰی﴾ [طه: ٢٠] ويشعر موسى بالخوف عند ذلك، فيولي مدبراً فيقال له: ﴿حُذَّهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيْدُهَا سِيْرَتَهَا اَلْاُولٰٓى﴾ [طه: ٢١]، ثم تكون الآية الثانية آية اليد يضمها إلى جناحه؛ فتخرج بيضاء من غير سوء. كل هذا ليريه الله من آياته الكبرى لتكون حجة له عند فرعون. ﴿اَذْهَبْ اِلٰى فِرْعَوْنَ اِنَّهُ طَغٰی﴾ [طه: ٢٤]. ويكلف بالأمر والإنذار.

وهكذا نجد أن مرحلة الإنذار إنما هي المرحلة الثانية بعد مرحلة الإرسال. وهنا يعود موسى عليه السلام وقد ملأ قلبه الأنس ليسأل ربه أن يعينه على ذلك ﴿رَبِّ اَسْرِجْ لِيْ صَدْرِيْ وَيَسِّرْ لِيْ اَمْرِيْ وَاَطْلُ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِيْ يَفْقَهُوْا قَوْلِيْ وَاجْعَلْ لِّيْ زَيْرًا مِّنْ اَهْلِيْ هٰذِهِ اَخِيْ اَشَدُّ بِهٖ اَزْرٰی وَاَشْرِكُ فِيْ اَمْرِيْ﴾ [طه: ٢٥-٣٢] وسنفصل خبره مع فرعون فيما بعد إن شاء الله.

﴿وَهَلْ اَتٰكَ حَدِيْثُ مُوسٰى اِذْ رَا نَارًا فَقَالَ لِاَهْلِيْهِ اَمْكُثُوْا اِنِّيْٓ اَنْتُسْتُ نَارًا اَلْعَلٰیٓ اَنِىْكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ اَوْ اَجِدُ عَلٰى النَّارِ هُدٰى﴾ فَلَمَّا اَنَّهَا تُودٰى بِمُوسٰى اِنِّيْ اَنَا رَبُّكَ فَاطْلَعْ نَعْلَيْكَ اِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَاَنَا اَخْتَرْتُكَ فَاَسْتَمِعْ لِمَا يُوحٰى اِنِّيْ اَنَا اللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدْنِيْ وَاَقِمِ الصَّلٰوةَ لِذِكْرِيْ اِنَّ السَّاعَةَ اَنِىْٓٓٓ اَكَادُ اُخْفِيْهَا لِتُجْزٰى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعٰى فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاَتَّبَعَ هَوٰىهٗ فَتَرَدٰى وَمَا تَلٰكُ سِيْمٰىكَ بِمُوسٰى قَالَ هِيَ عَصٰى اَتَوَكَّؤُا عَلَيَّهَا وَاَهْشُ بِهَا عَلٰى غَنَمِيْ وَلِيْ فِيْهَا مَنَازِبُ اُخْرٰى قَالَ اَلْقَهَا بِمُوسٰى فَاَلْقٰہَا فَاِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰى قَالَ حُذَّهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيْدُهَا سِيْرَتَهَا اَلْاُولٰٓى وَاَضْمُمْ يَدَكَ اِلٰى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوْءٍ اٰیَةٌ اُخْرٰى لِّرَبِّكَ مِّنْ اٰیٰتِنَا اَلْكُبْرٰى﴾ [طه: ٩-٢٣].

٢- أما السورة الثانية التي تحدثت عن بدء الوحي لموسى عليه السلام فهي سورة النمل: فبعد قول الله تعالى: ﴿وَلِيْكَ لِنٰلَقٰى الْقُرْاٰتِ مِّنْ لَّدُنْ حَكِيْمٍ عَلِيْمٍ﴾ [النمل: ٦] تبدأ القصة ﴿اِذْ قَالَ مُوسٰى لِاَهْلِيْهِٓٓٓ اِنِّيْٓٓٓ اَنْتُسْتُ نَارًا سَتَاتِيْكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ اَوْ اٰتِيْكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُوْنَ﴾ [النمل: ٧]، والذي نجده هنا أن موسى يقول لأهله ﴿سَتَاتِيْكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾،



فقد عبر هنا «بالسين» الدالة على الاستقبال، بينما عبر في سورة طه، بحرف «لعل» الدالة على الترجي، ولنا عودة لهذا إن شاء الله.

ثم يبين هنا الغرض من الشهاب بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنَ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَمْوِسْ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٨-٩]، ولا نريد أن نشق الحديث هنا فيما ذكره المفسرون وأطالوا الحديث فيه، عمن هو في النار ومن حولها، فليرجع إليه من شاء<sup>(١)</sup> في كتب التفسير. المهم اننا لا نجد التفصيل الذي فسره سورة طه. ولكن الذي ذكر هنا هو تنزيه الله تبارك وتعالى لأن التسييح هو التنزيه كما ذكر وصف الله هنا بالعزة والحكمة.

وبدون المقدمات التي ذكرت في سورة طه يؤمر بإلقاء العصا، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا هَتَّتْ كَأَنَّمَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَرَّ يُعْقَبُ يَمْوِسْ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] ثم يطمئن بعفو الله عنه عما صدر منه ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ١١].

ثم يأتي دور الآية الثانية، وهي آية اليد، ولكنها هنا جاءت بصيغة غير الصيغة التي جاءت بها سورة طه ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ يَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢] ويبين له بأن هناك آيات أخر ﴿فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾. وسنذكر فيما بعد أن قوم فرعون الفاسقين جحدوا بالآيات وقد استيقنتها أنفسهم، ولكن جحدهم كان ظلماً وعلواً. والظلم والعلو: أصل لكل انحراف، وسبب في كل مفسدة؛ فالظلم: سلب لحق الآخرين وإنكار له وحرمان لهم ممّا منحهم الله في الحياة. والعلو: اختيال ينشأ عن شعور سيء ممقوت بجانب الحق والصواب فهو إعطاء للنفس أكثر مما هو لها، ونذكر هنا قول الله لنبيه ﷺ في سورة الأنعام ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ﴾ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ يَتَابِعُونَ اللَّهَ يَحْجِدُونَ ﴿[الأنعام: ٣٣] حقاً إنهم لا يكذبون الرسول ﷺ،

(١) الذي يظهر لنا والله أعلم أن هذه البركة لمكان النار وكل ما هو حولها فهو حديث عن بركة أرض فلسطين، وقيل غير ذلك.

ولكنه الظلم دفعهم إلى جحد الآيات. الظلم إذن هو منع الآخرين حقهم، والعلو: إعطاء النفس ما ليس لها به حق.

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِيهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَانِيكُم مِّنْهَا يَخَبِّرُ أَوْ أَنِيكُم بِشَاهِدٍ قَبَسَ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَمْوِسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي ثِيَابٍ رَّاِيَةٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [النمل: ٧-١٢].

٣- ثم تأتي سورة القصص، وهي السورة الوحيدة التي تحدثت عن مولد موسى عليه السلام وما كان بعده من حلقات كما بينا من قبل. صحيح أن سورة طه قد أشارت إلى ذلك، ولكنها كانت إشارة موجزة أولاً، وكانت في معرض الحديث عن النعم التي أنعم الله بها على موسى عليه السلام ثانياً، ونتحدث عن جانب الرسالة في سورة القصص، حيث جاء فيها قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَن أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَى أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّا نَاكَ مِنَ الْآمِنِينَ أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمْنَا إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِن رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [القصص: ٢٩-٣٢].

ويهمنا الآن أن نبين أن سورة القصص قد حددت المكان الذي نودي منه موسى عليه السلام، وهذا ما لم نجده في سورة أخرى وهو قوله سبحانه: ﴿ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْوِسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

## من دقائق التنزيل:

ولكن لا بد من وقفة عند بعض القضايا، ففي سورة طه ﴿لَعَلَّيْـآءٍ لَّيْكُمْ مِّنْهَا يَقْبَـسُ أَوْ أَعْـدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] وفي سورة النمل ﴿سَنُيَسِّرُهُمْ مِّنْهَا مَخْرَجٌ أَوْ لَعَلَّيْكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وفي سورة القصص ﴿لَعَلَّيْـآءٍ لَّيْكُمْ مِّنْهَا مَخْرَجٌ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]. هذا أولاً.

وأما ثانياً: ففي سورة طه ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠] أما في سورتي النمل والقصص فقد ذكر قوله سبحانه: ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾.

أما ثالثاً: ففي سورة طه ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ﴾ [طه: ٢٢]، وفي سورة القصص ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ يَدَاكَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص: ٣٢] هذه قضايا ثلاث لا بد من الوقوف عندها.

أما أولاً: فقد ذكر علامة الرافدين الألو سي - رحمه الله - أن «السين» و«العل» يؤديان معنى واحداً، ولسنا معه في هذا، وما نظن الفرق بين الكلمتين يحتاج إلى دليل وبرهان، والذي نظنه - والله أعلم - أن موسى - عليه الصلاة والسلام - كانت تتعاوره حالات نفسية مع أهله، فهو تارة يعبر بحرف الترجي والتوقع، وتارة يود أن يطمئن أهله بأنه آتيهم لا محالة بما هو خير لهم حتى لا يكونوا في انشغال وقلق، كيف لا وهو سيدعهم وحدهم؟! فلا بد إذن من أمر يشعروهم بالراحة والطمأنينة ولا شك أن «السين» يكمن فيها كل ذلك، فكأنه لا يريد أن يقطع بالأمر ويجزمه ولا يريد أن يؤكد النتيجة حتى لا يصاب بخيبة أمل، فتارة يذكر الترجي وتارة يؤكد القضية، فهو يُعِدُّ أهله إعداداً نفسياً لتقبل ما يحدث من النتائج، ونظن أن أي واحد منا حينما يجابه بموقف مثل هذا - إن وفقه الله - فسيملك هذا المسلك.

أما تعدد العبارات، فلقد ذهب الاستاذ عبد الكريم الخطيب في كتابه «القصص القرآني» إلى أن الذي قاله موسى عليه السلام، إنما هو عبارة واحدة فقط، أما العبارتان الأخريان فكأنتا مما يدور في خلدته ويجول في خاطره - عليه الصلاة والسلام -.

ونحنُ بالطبع لسنا معه فيما ذهب إليه، لأن الله لا يمكن أن يسجل خواطر دارت في خلد موسى عليه السلام يثبتها حديثاً بينه وبين أهله، وما نظن ذلك يتفق مع موضوعية القرآن الكريم وواقعيته!، ولكنها عبارات قالها موسى -عليه الصلاة والسلام- ليوطن نفسية أهله -كما قلنا من قبل- وهو الذي ستركهم دون أحد معهم يؤنسهم في غيبته.

ولقد اطلعت على ما كتبه جار الله الزمخشري -رحمه الله- بعد أن سطرت ما سطرت فوجدته -رحمه الله- قد أدرك بحسه المرفه، وقريحته الوقادة، وطبيعته المسترسلة المنقادة، وفهمه النفاذ، أدرك هذه اللمحة الدقيقة فيها هو يقول عند تفسيره لآية النمل ﴿سَأَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَشِيرٍ قَبْلُ لَكُمْ تَصْطَلُوتُ﴾ [النمل: ٧].

فإن قلت: سأتيكم منها بخبر، ولعلي آتيكم منها بخبر كالمندافعين؛ لأن أحدهما ترجح والآخر تيقن.

قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة.

فإن قلت: كيف جاء بسين التسويف؟ قلت: عدة لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة. فإن قلت: فلم جاء «بأو» دون «الواو»؟ قلت: بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يعدم واحدة منهما: إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ثقة بعادة الله، أنه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده. وما أدراه حين قال ذلك أنه ظافر على النار بحاجتيه الكلّيتين جميعاً وهما العزّان: عزّ الدنيا وعزّ الآخرة<sup>(١)</sup>.

أما قوله تعالى ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] في سورة طه، وقوله في سورة القصص ﴿أَسْلَقَ يَدَكَ فِي جَيْمِكَ تَخَرَّجَ يَصْصَاءً مِنْ غَيْرِ سُوَرٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] فيقول فيها جار الله عليه الرحمة: «فإن قلت: ما معنى قوله ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢] قلت: فيه معنيان:

(١) الكشف ج ٣، ص ٣٤٩.

أحدهما: أن موسى -عليه الصلاة والسلام- لما قلب الله العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشيء، فقبل له: إن اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الأعداء، فإذا ألقيتها فكما تنقلب حية، فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقاءك بها، ثم أخرجها بيضاء ليحصل الأمان: اجتناب ما هو غضاضة عليك، وإظهار معجزة أخرى. . والمراد بالجنح: اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر، وإذا أدخل يده اليمنى تحت عضد يده اليسرى فقد ضم جناحه إليه.

والثاني: أن يراد بضم جناحه إليه: تجلده وضبطه نفسه، وتشدّده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب. استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف نشر جناحيه وارخاهما وإلا فجناحاه مضمومان إليه مشمران. . .

ومعنى قوله ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ من أجل الرهب، أي: إذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم إليك جناحك، جعل الرهب الذي يصيبه سبباً وعلّة فيما أمر به من ضم جناحه إليه. ومعنى ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ وقوله ﴿أَسْلُكُ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] على أحد التفسيرين: واحد، ولكن خولف بين العبارتين، وإنما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين، وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني: إخفاء الرهب.

فإن قلت: قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموماً وفي الآخر مضموماً إليه، وذلك قوله ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢] وقوله ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] فما التوفيق بينهما؟

قلت: المراد بالجناح المضموم ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ [القصص: ٣٢] هو اليد اليمنى، وبالمضموم إليه ﴿وَأَضْمَمْتُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما: جناح<sup>(١)</sup>.

(١) الكشف ج ٣، ص ٤٠٨-٤٠٩.

أما القضية الثالثة: وهي قضية العصا، فنرى المفسرين قد أكثروا فيها القول وخلصا ما قالوه:

أن العصا وصفت بأوصاف ثلاثة: تارة بأنها حية تسعى، وأخرى كأنها جان، وثالثة هي ثعبان مبین.

وقالوا إن هذه الأوصاف الثلاثة شيء واحد، فهي ثعبان مبین في ضخامتها، وهي حية تسعى كذلك، ولكنها جان في خفة حركتها؛ والجان صغار الحيات - كما يقولون -.

والذي يبدو لي - والله أعلم - أن الأمر ليس كما قالوا ولكل وجهة - والله أعلم بما ينزل - فوصف العصا بأنها ثعبان مبین إنما ذكره القرآن الكريم في سياق الحديث عن فرعون ﴿ قَالَ أُولُو حِجْثِكَ بُعْثُوا مِیْیَرًا قَالَتْ بِهٖ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ اَلْقِ عَصَاكَ اِذَا هِیَ ثُعْبَانٌ مُّیْبٍ ﴾ [الشعراء: ٣٠-٣٢]. ولا شك أن هذا الوصف ﴿ ثُعْبَانٌ مُّیْبٍ ﴾ يتسق منسجماً مع السياق؛ لأن ما تعطيه هذه الكلمة تجد فيه النفس من الرهبة ما ليس في الوصفين السابقين، والمقام مقام تخويف ورهبة.

أما في سياق الرسالة فلم يأت ذكر الثعبان وإنما الحية والجان، ولا شك أن الحية تشمل الصغيرة والكبيرة فهم يعرفون الجان بأنها صغار الحيات، إذن هي حية صغيرة، والقرآن الكريم حينما قال حية تسعى لم يشير إلى صغرها أو كبرها؛ لذا فإن الذي نميل إليه أن قوله سبحانه ﴿ هِیَ حِیَّةٌ سَعِیْ ﴾ [طه: ٢٠] غير قوله ﴿ كَانَهَا جَانٌّ ﴾ [النمل: ١٠] ونرجح تفسير الجان هنا لا بصغار الحيات - كما يقول المفسرون أو جلهم - وإنما نفسره بالجان الذي هو مقابل للإنسان، وهو من الجن. وقد قال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥] ونستأنس لهذا التفسير بما يلي:

١ - أن كلمة ﴿الجان﴾ ذكرت في القرآن أكثر من مرة، ولا تعني إلا هذا النوع الذي خلق من النار، ولم يرد تفسير الجان بصغار الحيات إلا في هذا الموضع الذي هو وصف

للعصا على ما ذهب إليه أصحاب هذا الرأي، فلم يرد تفسير الجان بصغار الحيات في موضع آخر، -ولا يظن ظان هنا أننا ننكر أو نستبعد أن تأتي الكلمات القرآنية في أكثر من موضع، وأن يكون لها في كل موضع، تفسير غير الذي تفسر به في الموضع الآخر، كما لا يظن ظان أننا ننكر أن يفسر الجان لغةً بصغار الحيات-، ولكن الذي يتبادر لنا أن الجان هنا إنما هو المخلوق المعروف، وربما يقول قائل: إن المشبه به يجب أن يكون أمراً حسياً معلوماً للمخاطبين، ونقول: إن هذا هو الكثير الغالب أن يكون أمراً محسوساً، ولكنه قد يكون غير ذلك كذلك. نعم لا بد أن يكون معلوماً للمخاطبين، وما نظن أحداً يجهل خفة الجان وقدرته على الحركة.

٢- ذكر بعد هذا الوصف قول الله تعالى عن موسى -عليه الصلاة والسلام- ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠] ولكن هاتين الجملتين -أعني ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾- لم تذكر في سورة طه بعد قوله ﴿حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]. كل الذي ذكر ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١] وقد ذكر ما هو قريب من هذا في السورتين الأخريين.

٣- وهذا الذي نركز عليه أنه جاء في سورة طه ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]، فالعصا إذن قد خرجت عن طبيعتها فصارت حية تسعى، ودليل هذا قوله سبحانه ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١] وهذا معناه أن طبيعة العصا قد تغيرت، وسيعيدها الله كما كانت عصاً. لكن الذي في سورتي النمل والقصاص إنما جاءت بأداة التشبيه كأن ولا شك أن التشبيه لا يخرج الشيء عن حقيقته ونظن ذلك أمراً بدهياً، ومن نافلة القول. وإذا كان هذا الذي أراه في هذه الآيات الكريمة -والله أعلم بمراده- فلست أقصد مخالفة المفسرين -معاذ الله-، ولست أريد حمل أحد على ما أرتيه إن لم يجد فيه مقنعاً.

ذلك هو جانب بدء الوحي في قصة موسى -عليه الصلاة والسلام-، والذي يهمنا أن كل سورة كان لها حديثها الخاص بها، هذا إلى جانب تعدد الأساليب البليغة.

### الجانب الثالث : إرساله إلى فرعون :

١- سورة الأعراف - كما قلنا- هي السورة الأولى التي فسرت ذلك النبأ في نيف وثلاثين آية، ابتداء من قوله تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣] إلى قوله سبحانه : ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦] وهي آيات متوسطة من حيث الطول .

فبعد قصة نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب -عليهم الصلاة والسلام-، يبين الله تبارك وتعالى أنه بعث من بعد أولئك الرسل موسى عليه السلام<sup>(١)</sup> مؤيداً بالآيات البينات إلى فرعون وملئه، ولكن إفسادهم في الأرض حال بينهم والإيمان ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣] وما لحق بهم من دمار وإهلاك، وبعد هذا الإجمال يحلو التفصيل ويجمال . ويأتي التفصيل مبتدئاً بالواو ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ﴾، وهذا يختلف عن الأسلوب في القصص السابقة، لأن هذه الآية الكريمة وحدها، أجملت قصة موسى مع فرعون، فالقارئ يمكنه أن يستخلص النتائج من هذه الآية الكريمة .

ويبدأ موسى عليه السلام تبليغ الرسالة تبليغاً مباشراً لفرعون، فينبئه أنه رسول الله رب العالمين ويعتز موسى عليه السلام بهذا الحق فحقيق عليه أن لا يقول غيره .

---

(١) تلحظ أن الأسلوب الذي جاءت به قصة موسى يختلف عن القصص السابق فأولاً جاءت القصص السابقة «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه»، و«إلى عاد أخاهم هوداً»، و«إلى ثمود أخاهم صالحاً»، «ولوطاً إذ قال لقومه»، و«إلى مدين أخاهم شعيباً»، أما هنا «ثم بعثنا» . فالفرق من جهتين : أولاً ثم الدالة على التراخي وقد يكون تراخياً زمنياً لأن موسى عليه السلام متأخر عنهم وقد يكون تراخياً في الرتبة فهو ترتيب تصاعدي، لأن رسالة موسى عليه السلام كانت لفتتين . ثانياً: ذكر كلمة البعث دون الرسالة فهي تدل على أكثر مما تدل عليه كلمة ارسال؛ لأنه (أي البعث) انما يكون في الأمور المهمة . والمتأمل لورود هذه الكلمة في القرآن يدرك ذلك، ويكفي إطلاقها على بعثة النبي عليه وآله الصلاة والسلام .



وان لم يقل موسى عليه السلام الحق فمن للحق أن يقوله ﴿حَقِيقٌ﴾<sup>(١)</sup> عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴿[الأعراف: ١٠٥] وهي من النظم البديع الذي لا يكون إلا في هذا الكتاب المعجز، ثم يبين له أنه قد جاء بمعجزة من ربه بينة ظاهرة، فليخل فرعون بينه وبين قومه من بني إسرائيل، وهذا رد على فرويد كذلك.

ولكن فرعون يقول بلهجة الشك المرتاب في مجيء البينة، والمتشكك المرتاب في صدق موسى، كذلك يدلنا على هذا الشك كلمة (إِنْ) التي ذكرت مرتين في آية واحدة ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَبَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، وجاء موسى بالآيات من غير بطاء، ولا تهيب، وكانت هذه الآية تتمثل بالعصا ألقاها، وإذ بها تتحول إلى ثعبان مبین، كما كانت تتمثل باليد كذلك نزعها فإذا هي بيضاء، ذات شعاع لا يراها فرعون وحده، وإنما كل من شاهد معه هذه الآية، فماذا كان بعد أن أظهر موسى عليه السلام الآيات؟ يحدثنا القرآن الكريم عما كان بعد ذلك، قال الملائكة من قوم فرعون: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يريد أن يخرجكم من أرضكم، فماذا تأمرون؟ وما الذي تشيرون به؟ هذا ما يقوله بعضهم لبعض، وهذا يدلنا على ما كان بين قوم فرعون من القبط، وبين بني إسرائيل من حساسية، وكيف كان ينظر أهل مصر إلى بني إسرائيل. ويجمعون على رأي واحد، وهو أن يطلبوا من فرعون أن يؤخره وأخاه، ويرسل في البلاد جامعين كي يأتوا له بذوي الخبرة والمهرة من السحرة ويجيء السحرة. والقرآن المبني على الإيجاز يطوي كثيراً من الجمل للعلم بها. يجيء السحرة فرعون وأول ما يبدو أنه به من القول هو ما يريدونه من أجر مجزٍ إن كانت لهم الغلبة ويعددهم فرعون بالأجر، وبشيء آخر، وهو أنهم سيكونون من المقربين عنده، وهذا يدلنا دلالة واضحة صريحة على أن فرعون كان يسخر الناس فيما يقومون به من أعمال، حيث لا يأخذون أجراً على أعمالهم، ومن قرأ التاريخ وكيفية بناء الأهرامات لا يرتاب في هذا الأمر فتأكيد السحرة هذه القضية

---

(١) حقيق: أي حريص على أن لا أقول على الله غير الحق.

وهي أن لهم أجراً إن غلبوا نبيء عما في نفوسهم، فقد رأوا أن فرعون في أمس الحاجة إليهم من أجل غلبة موسى عليه السلام، فاستغلوا هذا الموقف ليأخذوا من فرعون إقراراً بما يريدون. ولو أن فرعون لم يكن بأمس الحاجة إليهم ما كان ليعدهم ويقرّ لهم.

وبعد هذا الوعد يُخاطب السحرة موسى عليه السلام ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ [الأعراف: ١١٥]. والقرآن الكريم يبين لنا ثقتهم بأنفسهم واعتزازهم، وتأكدهم بأنهم هم الأعلون. هذا الذي يجول في خواطرهم ينطق به النظم القرآني حيث لم يقولوا: إما أن تلقى، وإما أن نلقى، ولكنهم قالوا: ﴿وإِمَّا أَنْ تُكُونَ تَحْتَ الْمُلُوكِ﴾. وهذا ليس من أجل الفاصلة كما يُظنّ، وإنما يدلنا على أن القوم كانوا يرون أنفسهم أحقاء بالإلقاء قبل موسى عليه السلام فهم كثرة، وهو واحد، وهم أشد منه مراساً وأعلم بهذه الحرفة.

ويقول موسى عليه السلام: ألقوا، فما كان منهم حين ألقوا إلا أن سحروا أعين الناس، واسترهبوهم رهبة مروعة، وجاءوا بسحر عظيم في نوعه وكثرته، وأوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧] فإذا هي تلقف كل هذا الإفك الذي جاءوا به -تلقف حبالهم وعصيتهم تبتلعها لتتلاشى كلها دون استثناء، فوقع الحق، وبطل هذا الذي عملوه من السحر، إذ جاء موسى عليه السلام وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر، فغلب القوم، ورجعوا أذلاء صاغرين. وهنا يكون الانقلاب وإذ بالسحرة الذين ألقوا ما ألقوا يُلقون جباههم ساجدين، معلنين إيمانهم لرب العالمين؛ لأنهم أدركوا. أن ما كان من موسى ﷺ ليس من قبيل السحر، وهم أخبر من فرعون؛ لأنهم هم السحرة فهم أقدر على التمييز بين السحر وغيره.

ويشتط فرعون غضباً ﴿أَمْ أَنْتُمْ بِهٖ قَبْلَ أَنْ نَأْذَنَ لَكُمْ<sup>ط</sup>﴾ [الأعراف: ١٢٣]<sup>(١)</sup>، إن هذه خديعة منكم إنه مكر دبرتموه في هذه المدينة من أجل أن تخرجوا منها أهلها،

---

(١) قوله (قبل ان أذن لكم) فيه مكر وخداع، وكبر وبطر، فهو يوهمهم أنه يمكن أن يأذن لهم لو طلبوه ذلك، وهو كذب وافتراء.

ولكن ذلك لن يتم لكم، ولسوف تعلمون ما سيحل بكم، لأقطعن أيديكم، وأرجلكم من خلاف، ولأدعنكم تعذبون بعد هذا القطع قبل أن تأتي نهايتكم، ثم تأتي هذه النهاية: ولأصلبنكم أجمعين؛ ولكن السحرة يعلنون لفرعون أنهم إلى ربهم وحده راجعون منقلبون، وحينما تشتد عاطفة الإيمان في النفس لا يقف في طريقها أي تيار مهما كان عاتياً<sup>(١)</sup>، ثم يقنطون فرعون قائلين إنه لن يستطيع أن ينال منهم فهو ما ينقم منهم إلا أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم ويضرعون إلى الله تبارك وتعالى أن يفرغ عليهم صبراً، وأن يثبتهم على الحق، فيتوفاهم مسلمين، ويعود الحديث عن الملائكة من قوم فرعون الذين قالوا من قبل: إن هذا لساحر عليم.

ونلاحظ أن سورة الأعراف ركزت كثيراً - كما قلنا من قبل - على قضية الأتباع. فالملائكة هم الذين أوغروا صدر فرعون أكثر مما فيه حينما قالوا: ﴿إِنَّكَ هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠] وها هم بعد أن بطل ما دبّروه، وانقلب الأمر وبالاً عليهم يعودون مرة ثانية لإيغار صدر فرعون، فماذا بعد ما حدث؟ ﴿أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ<sup>(٢)</sup> وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]<sup>(٣)</sup>، أتمكنه من أن يفسد في الأرض هو وقومه ويخرجوا عن طاعتك، فيتركوك، ويتركوا آلهتك؟ ولكن فرعون لا يخيب أولئك، بل يجيبهم وقد فهم ما أرادوه، فيقول لهم: لا. لن نمكنهم من ذلك كله، ولا من بعضه سنعاقبهم بكل شدة نقتل أبناءهم، ونستحيي نساءهم،

(١) ولقد صدق الشاعر المسلم:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً      على أي جنب كان في الله مصرعي

(٢) يذر: يترك الشيء بدون اهتمام.

(٣) من شبهات المستشرقين وأمثالهم التي سنعرض لها فيما بعد إن شاء الله، ما قالوه في هذه الآية الكريمة، إنكم تقولون إن فرعون كان إلهاً معبوداً، وهذه الآية تبين أنه كان عابداً له آلهة؟ وليس في هذا إشكال يستحق هذه الشنينة، ففرعون كانت له آلهة يعبدها، كان يعبد الكواكب من جهة وكان يأمر الشعب بعبادته من جهة أخرى.

وستكون لنا الغلبة، والقهر عليهم، فماذا كان من شأن موسى -عليه الصلاة والسلام-؟  
كان من شأنه ما حدثنا عنه القرآن بعد أن سمع قومه ما سمعوه. قال لهم موسى:  
استعينوا بالله واصبروا فلاستعانة بالله تمت الإنسان بطاقات من الصبر. إن الأرض لله  
يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، ولكن قومه لا يجيبونه بما طلب، وانما  
يكررون الشكوى، فلقد أودوا من قبل أن يرسله الله إلى فرعون، لقد استعبدهم فرعون  
استعباداً تاماً، وأودوا كذلك من بعد رسالته، ويكرر موسى إرشاده لقومه، ويطمئنهم  
﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ كُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾  
[الأعراف: ١٢٩]، أتشكرون فتدوم لكم النعم، أم تكفرون فتعاقبون وتهلكون؟!

وبعد هذه المحاورة بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين قومه، يعود الحديث إلى  
آل فرعون، فيقص الله تبارك وتعالى علينا نبأهم، وهو أنه قد أخذهم بالشدة والقحط،  
ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون هذه الآيات، فيرتدعون عن الغي، ويرجعون عن  
الكفر، ولكنهم لا يزالون مصرين على وصف موسى عليه السلام بالسحر يقولون له: أي  
شيء، وأي آية تأتيها بها لتسحرنا فلن نؤمن بك أبداً، ويرسل الله عليهم أنواعاً من  
العذاب: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات كل لها مهمتها  
وعملها، ولكن القوم يستكبرون مصرين على جرائمهم وحينما يلم بهم العذاب ويحيط  
بهم، يهرعون إلى موسى -عليه الصلاة والسلام- طالبين منه أن يدعو لهم ربه بما له من  
عهد عنده لئن كشف عنهم العذاب ليؤمنن أولاً، وليرسلن بني إسرائيل<sup>(١)</sup> ثانياً. فلما  
كشف عنهم العذاب فاجأوا بالنكث والكذب، فانتقم الله منهم، فأغرقهم في اليم،  
وهي نتيجة حتمية لمن كذب بآيات الله.

(١) أي سيمنحونهم شيئاً من الحرية ليؤمنوا بموسى ويخرجوا معه إن شاؤوا ذلك.

هذه قصة موسى عليه السلام في سورة الأعراف، أو هذا هو الجانب الذي يتحدث عن إرساله إلى فرعون، وبقي الجانب الآخر نأتي له فيما بعد -إن شاء الله- وكي تصدر حكماً على ما نحن بصدد من قضية التكرار، فلا بد أن نلم بالآيات التي حدثتنا عن فرعون في سورها المتعددة قال تعالى :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ يَا ثُوَّكُ بَكْلِ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقْرِبِينَ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَا لَكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَيِّلَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا لِنَقِمَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنا مُسْلِمِينَ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقِيلُ أَيْدِيَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ قَالِ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ

سَيِّئَةٌ<sup>(١)</sup> يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ<sup>٢</sup> أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا تَحْنُ لَكَ يَمْؤُمِينَكَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنْزِلَ عَلَيْنَا الْخَبْثَ لَنَأَكَلَهُمْ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿[الأعراف: ١٠٣-١٣٦].

٢- وبعد سورة الأعراف جاءت سورة الفرقان، ولكن ما ذكر فيها عن قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون جاء في معرض رد شبهات الكافرين! فكان إشارة موجزة وهي قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٦].

والحق: أن سورة الفرقان -ولها من اسمها نصيب- جاءت لعلاج الشبهات التي أثارها المشركون على القرآن، والنبي الذي جاء به، لذلك كان ما ذكر فيها من قصص الأنبياء إشارات تتلاءم مع هذا الموضوع<sup>(٢)</sup>.

٣- ثم تجيء سورة طه بعد ذلك، والذي يهمنا من سورة طه جانب الإرسال إلى فرعون؛ لأننا آثرنا أن نتحدث عن كل جانب من جوانب حياة سيدنا موسى -عليه السلام- على حده، وهذه هي الطريقة المثلى كما نظنها، والله أعلم.

(١) أي إذا أصابهم رخاء ويسر، وعاشوا في رخاء وسعة قالوا هذا شيء نستحقه، وإن تصبهم سيئة من قحط وسنة وضيق وكرب يطيروا بموسى ومن معه، أي يقولون إنما أصابنا ما أصابنا بسبب موسى ومن آمن معه، ألا إنما طائرتهم عند الله. أي إن الله تبارك وتعالى هو الذي يأخذهم بأنواع العذاب ليذكروا ويعتبروا ولكن أكثرهم لا يعلمون. وفي الآية بيان بديع يتمثل في ذكر (إذا) في جانب الحسنة (وإن) في جانب السيئة وغير ذلك من أنواع البيان ليراجعه من شاء في التفاسير البيانية مثل الكشاف وغيره.

(٢) انظر كتابنا في الإعجاز.

تبدأ هذه الآيات الكريمة بعد الحديث عن الرسالة بقوله سبحانه: ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: ٢٤]<sup>(١)</sup>، والحق أن اللون الذي سنجده في سورة طه مغايرٌ لذلك الذي مر معنا في سورة الأعراف، وإليك بيان ذلك:

يسأل موسى ربّه أموراً يتقوى بها على الذهاب إلى فرعون، فهو يسأله أن يشرح له صدره، وييسر أمره، ويحلّ عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وبعد هذه الثلاث الخاصة به -عليه الصلاة والسلام- يسأله أن يجعل له وزيراً من أهله، وعلى الخصوص هارون عليه السلام أخاه؛ ليشد به أزره، ويشركه في أمره كي يتقوى كل بالآخر على ذكر الله: تسبيحاً، وذكراً، والله بصير بهم، مطلع على ما في قلوبهم. ويمن الله على موسى -عليه الصلاة والسلام- بأنه قد استجاب له، وأعطاه سؤله، ثم يمتن الله عليه مرة أخرى، فليست هذه المرة الأولى التي أجيب سؤلك فيها، وأمنّ عليك فلقد مننت عليك مرة أخرى قبل هذه المرة، وذلك فيما مضى من الزمن حينما أوحيت لأمك ما أوحيت من هذا الأمر العظيم العجيب، أن اقدفيه في التابوت، فاقدفيه في اليم، فليلقه اليم بالساحل؛ ليأخذه عدو لي وعدو له، ويمتنّ عليه بعد ذلك بأنه ألقى عليه سبحانه محبة منه، ومعنى ذلك أنه أحبه سبحانه حباً عظيماً، وجعله محبوباً لكل من يراه من ذوي القلوب السليمة، ثم أخبره عن عنايته، ورعايته به، وحفظه له في قوله: ﴿ وَلِئَصْنَعَ عَلَى عَيْنَيَّ ﴾ [طه: ٣٩]، وامتن عليه بعد ذلك بما كان من خبره يوم كان عند فرعون،

(١) من آية ٢٤-٧٩: ذكر في هذه السورة إرسال موسى إلى فرعون، بينما ذكر في السورتين الآتيتين النمل والقصص إرساله إلى فرعون وقومه (النمل) وإلى فرعون وملئه (القصص)، وقد اقتصر على فرعون في هذه السورة؛ ذلك والله أعلم - بسبب تركيز السورة هنا على التبعية، تبعية قوم فرعون له، ففي آيات هذه السورة حوار بين موسى وفرعون، حيث تبرز شخصية فرعون، نقرأ مثلاً ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [طه: ٧٩]، ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه: ٥٧]، ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه: ٦٠] ثم جاء الحديث عن قومه بعد أن جمعهم؛ ولهذا غير الخطاب، فبعد أن كان مع فرعون وحده، صار الخطاب له ولقومه، ﴿ قَالَ لَهُمُ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ [طه: ٦١].

ولم يقبل أن يرضع من أي امرأة فمشت أخته تدلهم على من يكفله ويرضعه، ورجعه سبحانه إلى أمه، ثم امتن عليه بأنه حينما قتل نفساً نجاه من الغم وفتنه فتوناً، وابتلاه بأنواع كثيرة من الابتلاء، ولبت سنين في أهل مدين، ثم جاء على قدر، واصطنعه لنفسه فأكرمه بالرسالة.

وبعد هذه المنن يأتي دور التكليف، فيأمره أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون من غير ما إبطاء ولا تأخر ولا غفلة عن ذكره أو توانٍ في إبلاغ رسالته، ولئن أمره أولاً أن يذهب إلى فرعون وحده، فإنه الآن يأمره أن يذهب هو وأخوه، ويعلمهما كيف يأتيانه بجانب اللين فلعل في هذا اللين ما يدعوه إلى التذكر، ويدفعه إلى الخشية، ويقول موسى عليه السلام بلسانه ولسان هارون عليه السلام: بأنهما يخافان أن يفرط عليهما، أي أن يسبق إلى عقوبتهما، أو أن يطغى، ولكن الله يطمئنهما فلا ينبغي أن يخافا، وهو سبحانه معهما يسمع ويرى، ويعلمهما ماذا يقولان له حينما يأتيانه: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم فيكفي ماذاقوه منك في هذه الدنيا فلا تعذبهم بالصدّ عن الإيمان؛ فتكون سبباً في عذابهم الدنيوي والأخروي وقد جئناك بأية من ربك والسلام على من اتبع الهدى.

وبعد هذا التلطف يلمحان له بالقول بأنه قد أوحى إليهما: أن العذاب إنما يقع على المكذبين المتولين عن الحق، وبعد هذا العرض يقول فرعون: فمن ربكما يا موسى؟ ويجيبان ممجدين الله بآثار قدرته وحكمته: ربنا الذي أعطى كل شيء فطرته التي تلائمه ثم هدى، فهو سبحانه الذي خلق فسوى، وقدر فهدى؛ ثم يسأل فرعون سؤالاً آخر عن الأمم الغابرة: ما شأنها وما حالها؟ فيجيب -عليه الصلاة والسلام-: بأن ذلك من أمور الغيب وعلمها عند ربه في كتاب لا يضيع صغيرة ولا كبيرة، لا يضل ربي ولا ينسى.

ثم يبين له نعم الله تبارك وتعالى في هذه الحياة، فهو الذي مهد الأرض لتصلح للحياة، وسلك لكم فيها طرقاً متعددة كثيرة، ثم أنزل من السماء ماء بعد ذلك؛



فأخرج به أصنافاً من الثمرات، ومن هذا النبات لكم ولأنعامكم، وفي ذلك آيات وعبر لأولى النهى أي العقول الحصيفة التي تنتهي بأصحابها إلى الخير، وتنهاهم عن السوء ثم يذكرهم باليوم الآخر بعد هذه النعم، فالله الذي خلقكم من الأرض وسيعيدكم فيها تارة أخرى.

والى هنا نجد أن ما في سورة طه جديد من حيث الأسلوب، ومن حيث الموضوع، ومن حيث الجزئيات والأحداث، وهو لعمر الحق علم مرتفع من أعلام الإعجاز لهذا الكتاب، ثم يقول الله بعد ذلك، وبعد الذي سمعه فرعون من هذا الإرشاد، ومن تلك البراهين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦] لذلك فهو يخاطب موسى ﴿أَحِثَّنَا لِنُخْرِجَنَّهُ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٥٧] ونلاحظ هنا أن الذي كان يهيمن على فرعون، ويخيفه ويزعجه، ويقلقه ويرعبه هو ذهاب ملكه، فلقد أكد القرآن هذا المعنى في أكثر من سورة هذا الذي يزعج ذوي السلطة والسلطان من إعلاء كلمة الله ولعل في ذلك درساً لا بد أن يعيه المصلحون الذين يريدون وجه الله والدعوة إليه، ويعد فرعون موسى عليه السلام بسحر مثل الذي جاء به، ويطلب إليه أن يضرب موعداً بينهم وبينه، موعداً لا يخلفه أحد منهم، ويحدد موسى عليه السلام الموعد يوم الزينة<sup>(١)</sup>، يوم أن يجتمع الناس، وفي ضحوة ذلك اليوم يمكن أن يتم كل شيء، ويتولى فرعون، ويجمع كيده ثم يأتي. وهنا يعاود موسى عليه السلام التذكير والإرشاد: ويلكم لا تفترؤا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، وقد خاب من افترى، ويتنازعون أمرهم بينهم، ويتسارون متناجين: فما هذان إلا ساحران، كل ما يريدانه أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويذهبا بطريقتكم المثلى فما لكم إلا أن تجمعوا كيدكم، ثم تأتوا صفاءً، فهذا هو يومكم، يوم فلاح المستعلين، ولا شك أنكم أنتم الأعلون.

---

(١) في هذا حسن تصرف ورجاحة عقل؛ لأنه اختار الوقت الذي يتجمع فيه الناس ليميزوا بين الحق والباطل.

ويسأل السحرة موسى عليه السلام: إما أن تلقي وإما أن نكون نحن أول من ألقى . ولعل هذا موقف متشابه مع ما في سورة الأعراف إلا أن هنا تصريحاً بهذه الأولية التي تحدثنا عنها هناك أخذاً من النظم، ويقول موسى: ﴿بَلْ أَقْوَأُ﴾ [طه: ٦٦]، وهذه الكلمة «بل» لم توجد في سورة الأعراف؛ فإذا حبالهم وهذه مادة سحرهم وتذكر هنا لأول مرة، وهذه الحبال والعصي حينما ألقيت فإذا هو يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، فيضمر في نفسه موسى عليه الصلاة والسلام شيئاً من الخوف، وهذا جديد كذلك في سورة طه، فيقول الله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]، بكل هذه المؤكدات، ويأمره أن يلقي ما في يمينه وهي العصا، كما عبر عنها في سورة الأعراف، تلقف ما صنعوا، فالذي صنعوه كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى، ولعلّ الموقف المتشابه هو موقف إلقاء السحرة وجوههم سجداً لله بعد إلقاء عصيهم وحبالهم، وشتان بين الإلقاءين، ولكن مع ذلك التشابه فإن هناك ملامح وفروقات تخص كل سورة ما يناسبها: هناك ﴿سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٠] وهنا ﴿سُجَّدًا﴾، وشتان بين الوصفين، ثم هنا ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]<sup>(١)</sup> ويقول فرعون بعد ذلك: ﴿ءَامَنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١]، وفي سورة الأعراف ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، ويقول هنا ﴿إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]، وفي سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: ١٢٣] وكان في سورة الأعراف قد هددهم بأمرين اثنين، أما هنا فقد هددهم بأمر ثلاثة: الأمرين المتقدمين إلا أنه هناك عطف الثاني على الأول بـ «ثم» وهنا بالواو.

والذي يظهر لي أن سبب ذلك -والله أعلم- إنما هو مجيء الأمر الثالث هنا، فبعد مجيئه ليس هناك حاجة لـ «ثم» الدالة على التراخي، وهو قوله ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١] وقد قال المؤمنون بعد تركهم السحر قالوا هناك ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] أما هنا فيخاطبون فرعون بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه: ٧٢] أي لن نفضلك على هذه البيئات التي جاءتنا وعلى الذي فطرنا

(١) انظر كتابنا في الإعجاز في الفرق بين ساجدين وسجداً وفي بيان تقديم هارون على موسى .

وخلقنا؛ لذا جعلنا الواو عاطفة، ويمكن أن تكون الواو للقسم، أي: وفاطرينا لن نؤثرِكَ على ما جاءنا من البينات، فهو قسم بالله تبارك وتعالى.

ثم يقولون افعل ما تريد فعله، واقض ما تريد قضاءه فإن قضاءك وفعلك لا يتجاوز الحياة الدنيا التي لا يخلد فيها أحد، ونحن سنموت سواء أكنت أنت السبب أم لم تكن، إنا آمنّا بربنا ليغفر لنا هذه الخطيئات، وهذا السحر الذي أكرهتنا عليه والله خير وأبقى، ثم يرشدون فرعون عليه يرعوي بأن الذي يأتي ربه مجرماً له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وأما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، كل ذلك جزاء للمتطهرين الذين زكوا نفوسهم.

وتختتم قصة موسى عليه السلام بهذا المشهد، وهو أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن يسري بعباده فيضرب لهم طريقاً في البحر يبساً، لا يخاف أن يدركه فرعون ولا يخشى غرقاً، ولكن فرعون تبعهم بجنوده فغشيهم من اليمّ وغطاهم ما غشيهم. ما أعظمه من هول! وهكذا أضل فرعون قومه وما هدى.

تلكم هي قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون في سورة طه. وما أظن أحداً يزعم أن هناك تكراراً؛ اللهم إلا تشابهاً في بعض الأجزاء الرئيسة، ومع ذلك فلكل جزء خاصيته، جذّة في العرض بعيدة عن التعارض، وعرض فيه تشابه بعيد عن أي شبهة.

﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ قَالَ رَبِّ أَخْرِجْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرًى وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي كَيْ تَسْحَكَ كَثِيرًا وَنَذِّرُكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ إِنْ أَقْدِفْهِ فِي النَّارِ فَاقْدِفْهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُمْ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَعَيْنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَنَّكَ نُثُورًا فَلَيْتَ سَيْنٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ

يَمُوسَىٰ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِتَابِعِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ فَأَنبِئَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمَا يَمُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النَّهْيِ ﴿٢٤﴾ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَنُوحًا وَآلَهُ إِذَا جَاءَهُمْ مِّنْهُم مَّكَانًا سَوَىٰ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُخَشِرَ الْإِنسَ صُحْيَ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَيْكُم لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ فَنَنْزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ قَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سَحَرٌ لِّنَا لِيُزِيلَنَّا عَنْ الْأَرْضِ عَصَائِبَ هَٰؤُلَاءِ لَوْ أَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِثْلَ مَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ قَالُوا أَأَتَيْنَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَن تَلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنِ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعِصِيَّتُهُمْ تُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَا تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ وَآلَتِي مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِيرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُبُحًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰؤُلَاءِ وَمُوسَىٰ قَالَ ءَامَنَّا لَهُمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعْ عُنْ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّمَا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَىٰ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ جَنَّاتٌ عِدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ وَلَقَدْ أُوحِيَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَىٰ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَصْلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٢٦﴾ [طه : ٢٤ - ٧٩].

٤- ثم جاءت سورة الشعراء تحدثنا عن نبأ موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون؛ وإذا كانت سورة الأعراف قد ذكرت فيها قصة موسى عليه السلام بعد ذكر قصص كثير من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-. وإذا كانت سورة طه التي بدىء الحديث فيها عن ذكر الرسالة، وكيف تلقاها موسى -عليه الصلاة والسلام-، ثم جاء بعد ذلك خبر فرعون. إذا كان لكل من السورتين طراز جديد، فإن سورة الشعراء التي ذكر فيها قصص كثير من الأنبياء نجد قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- كانت أولى هذه القصص، والجانب الذي ذكر فيها هو ما يختص بفرعون.

بدأت القصة مباشرة بعد ذكر الكتاب المبين، وبعد الإشفاق على النبي ﷺ، مما يلاقيه من صعوبات نفسية؛ لعدم إيمان قومه ﴿لَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] وبعد إيناسه -عليه وآله الصلاة والسلام-. ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤] بعد بيان طبيعة الذين أرسل إليهم، وتكذيبهم بالحق، وتهديدهم بالعذاب، وتذكيرهم بنعم الله، وفي ذلك كله آية ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٨-٩]، ولعل هذا معنى تكذيبهم بالحق، وتهديدهم بالعذاب، وتذكيرهم بنعم الله هو السبب الذي كانت فيه قصة موسى هي أول القصص في هذه السورة.

تبدأ الآيات بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] فإذا قارنا هذه البداية بما سبقها وجدنا ذلك النظام المحكم، والأسلوب البديع.

ففي سورة الأعراف كان بعث موسى عليه الصلاة والسلام بالآيات إلى فرعون وملئه، وفي سورة الفرقان إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا، أما سورة طه فكان الإرسال فيها إلى فرعون وحده، وأما في هذه السورة التي معنا فكان الإتيان إلى القوم الظالمين قوم فرعون.

أرأيت هذا التنوع الحاذق الذي يدركه كل ذي ذوق وبصيرة، كيف اختصت كل سورة بل كل قصة بعنوان ومقدمة تكون منهجاً متعدد العبر، متنوع العظات؟ هؤلاء القوم الظالمون هم قوم فرعون ألا يتقون.

ولأول مرة يحدثنا القرآن الكريم عما كان يجول في خاطر موسى -عليه الصلاة والسلام- وما تتوقعه نفسه أن هناك أموراً أربعة يتوجس منها خيفة:

أولها: أنه يخاف أن يكذّبه، وثانيها: ما يعرض له من ضيق الصدر، وثالثها: ألا ينطلق لسانه، ولهذه الثلاثة رجا من ربه أن يرسل إلى هارون عليه السلام؛ ليكون نبياً مثله، فإن هارون عليه السلام يمكن أن يهون عليه هذه الأمور جميعاً. ولكن هناك قضية رابعة ربما لا يهون من شأنها إرسال هارون عليه السلام؛ ولهذا أفردا على حدة وغاير بينها وبين سابقتها في الأسلوب، وهي أن لهم عليه ذنباً فيخاف أن يقتلوه، ويطمئنه الله تبارك وتعالى بقوله: كلا لن يكون شيء من ذلك وكأنه يعلمه بإجابة دعوته بإرساله إلى هارون؛ لذلك يقول له: ﴿فَاذْهَبَا يَٰأَيُّهَا﴾ [الشعراء: ١٥] فنحن معكما -عندها تأتي أنت وأخوك إلى فرعون- مستمعون غير غائبين وما عليكم إلا أن تأتيَا فرعون فتخبره بأنكما رسول رب العالمين من أجل أن يؤمن، وأن يرسل معكما بني إسرائيل.

وهنا جزئيات وأحداث جديدة تحدثنا عنها سورة الشعراء لأول مرة ندرك منها بعض الملامح لشخصية موسى -عليه الصلاة والسلام-: شجاعة، وفكراً مقابلاً كل حالة بما يناسبها، هذا ما تعرض إليه الآيات الكريمة. يقول فرعون منكراً على موسى عليه السلام قوله مستعلياً ممتناً كأنما يريد أن يقرر موسى عليه السلام بهذه الأحداث: ألم نربك فينا وليداً؟ أما نشأت وترعرعت في أنعمنا، وظلّ رعايتنا ولم يكن ذلك مدة يسيرة بل لبثت فينا من عمرك سنين كثيرة، ثم فعلت فعلتك<sup>(١)</sup> التي فعلت، وأنت من الكافرين بأنعمنا، ولم تكن صاحب رسالة كما تدّعي الآن.

(١) يعني قتل القبطي.

وهنا تظهر هذه الملامح من شخصية موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما يرد على فرعون بهذه القوة والمنطق: فعلتها إذ فعلتها ولكنني لم أكن كافراً كما زعمت، وإنما كنت من الضالين التائهين عن غير قصد ودون إصرار، وبعد ذلك قررت منكم لما خفتكم فأكرمني الله حينما وهبني حكماً ومنَّ علي بالرسالة، ثم عجباً لك يا فرعون كيف لك أن تمنَّ عليّ وتعد بقائي فيكم، وتربيتك لي نعمة من النعم! وهذه لم تكن لولا أنك استعبدت بني إسرائيل وظلمتهم، فكنت تقتل كل مولود منهم، من أجل ذلك كان ما كان، فتريتك لي، وبقائي فيكم لم يكن أمراً برغبتني، ولكن سببه المباشر استعبادك لبني إسرائيل وظلمك لهم، وماذا يقول فرعون بعد ذلك؟ ما وراء ذلك إلا التعتت، ويدلنا على هذا التعتت سؤاله، ما رب العالمين؟ وكأنه يظنه شيئاً من الأشياء التي يمكن لموسى عليه السلام أن يشرح حقائقها، فيبين -عليه الصلاة والسلام- أنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان من شأنكم أن يهديكم الله وتكونوا من الموقنين فستعرفون ذلك.

ويشير فرعون إلى ملئه، وأشرف قومه الذين كانوا حوله مستغرباً: ألا تسمعون! كأنما الذي يقوله موسى عليه السلام أمر يدعو إلى العجب والاستنكار والغرابة، فيجيبهم موسى إجابة عليه السلام فيها شيء من التخصيص؛ لعل ذلك يكون ألصق بهم، فبعد أن قال: رب السماوات والأرض يقول هنا: ربكم ورب آبائكم الأولين. فماذا قال فرعون يا ترى؟ يقول مستهزئاً ساخراً: إن رسولكم الذي ارسل إليكم لمجنون، يؤكد هذا لملئه بهذا الأسلوب الذي بينه القرآن حيث الحقد والاستهزاء والغرور، هذه الثلاثة هي أكثر عناصر الشر خطراً وأشدّها ضرراً. ولكنه استهزاء بقومه قبل أن يكون بموسى عليه السلام، حيث سلبهم شخصيتهم، واستخفهم فأطاعوه يا لضياح الشعوب حينما تفقد أعظم ما منح الله الإنسان ألا وهو الحرية -حيث الناس سواء- لله وحده الكبرياء. فماذا قال موسى عليه السلام يا ترى؟ هل رد هذه التهمة عن نفسه؟ هل كان لنفسه حظ فيما قال فرعون؟ اللهم لا. ولكنه ردّ على فرعون وملئه ردّاً فيه الحمية لدينه من جهة،

وردّ التهمة إليهم من جهة ثانية، قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، إن الذي يدعو إلى الله وعبادته وتوحيده ليس هو المجنون، ولكن الذي لا يدرك آثار هذه الربوبية هو الذي لا يعقل! وهذا درس ما أحوج الدعاة إلى الله إليه، العزة، لكنها ليست العزة بالإثم بل هي العزة المستمدة من الله. وصفه فرعون بالجنون، فرد عليه وعلى من معه، أولئك الذين ذابت شخصيتهم بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] يا لعظمة الإيمان! حيث تصل صاحبها رب العالمين، فتتزع منه الخوف، وتملأ قلبه جرأة ولكن مع حكمة.

وهنا يشتط فرعون بعد هذه الأجوبة المسكتة فيقول: ﴿لِنْ أَخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، أي من أولئك الذين استغرق السجن حياتهم، فيقول موسى -عليه الصلاة والسلام-: أتجعلني من المسجونين ولو جئت بك بشيء مبین؟ فيقول فرعون: فأت به إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبین، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين؛ فقال للملأ من قومه: إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟ ويقول الملأ أرجه وأخاه، وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليم، ويجمع السحرة لميقات يوم معلوم، وينادي الناس ويطلب منهم أن يبادروا إلى الاجتماع ليشهدوا ما سيكون من أحداث ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩]؟ أي اجتمعوا لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين.

ولما جاء السحرة يسألون فرعون: أئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ<sup>(١)</sup>، فيجيبهم نعم وإنكم إذن لمن المقربين. ويقول لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ويلقون حبالهم وعصيهم ويقسمون بعزة فرعون إنهم هم الغالبون، ويلقي موسى عصاه فتلقف ما يافكون.

(١) ذكرتُ سببَ ما طلبه السحرة في سورة الأعراف.



وهنا يلقي السحرة جباههم على الأرض ساجدين معلنين الإيمان لله رب العالمين رب موسى وهارون، ويقول ﴿ءَامَنَّا بِكَ لَمْ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرٌ كُ الَّذِينَ عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَاقِطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ [الشعراء: ٤٩] أي اليد اليمنى، والرجل اليسرى وبالعكس ﴿وَلَا ضَلَّيْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ويجيبونه ﴿لَا ضَيْرٌ﴾ [الشعراء: ٥٠] أي لا ضرر علينا من ذلك كله إنا إلى ربنا منقلبون، إنا نطمع من ربنا أن يغفر لنا خطايانا أن كنا أول من آمن بموسى ورسالته.

### الفروق بين السور الثلاث طه والشعراء والأعراف:

ذلك المشهد الذي يتحدث عن السحرة، والذي آثرت أن لا أطيل الحديث فيه. وهذا المشهد أكثر ما يظهر فيه التشابه في قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع فرعون، مع أن هناك فروقاً من حيث الأسلوب في السور الثلاث:

من ذلك: ما جاء في سورتي طه والشعراء. حيث جاء في سورة (طه) ﴿فَأَنبَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] بالثنية. وجاء في سورة الشعراء، ﴿فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] بالإنفراد على إرادة الجنس، والذي يظهر لي -والله أعلم بما ينزل- أن هذا التباين البديع المعجز الذي جاء متلائماً مع موضوع كل من السورتين، سببه ما يلي:

المتأمل في سورة الشعراء يجدها السورة التي كانت أكثر السور تحاوراً بين موسى ﷺ وفرعون ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ أَتَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠] ثم يبدأ الحوار بعد ذلك: ﴿أَن أَرْسِلَ مَعًا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ أَلَمْ تُرْيِكْ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٧-١٨] قال فعلتها إذاً . . . الخ ما جاء في الآيات الكريمات.

أما سورة طه، فلقد كان عنصر الثنية واضحاً فيها كل الوضوح، ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِمَا أَتَيْتَنِي﴾ [طه: ٤٢]، ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، ﴿فَالَا رَبَّنَا﴾ [طه: ٤٥]، ﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾ [طه: ٤٦]، ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ [طه: ٤٩]، ﴿قَالُوا إِن هَذَا لَسِحْرَانِ﴾ [طه: ٦٣]،

إلى آخر ما هنالك من آيات كريمات؛ لذا جاء في سورة طه ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، تثنية، وفي سورة الشعراء ﴿إِنَّا رَسُولٌ﴾ على إرادة الجنس، فانظروا إلى هذا الاعجاز البديع.

ومن ذلك: استعمال البعث في سورة الشعراء ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، واستعمال الإرسال في الأعراف. ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، وقد تحدثت عن الفرق بين البعث والإرسال من قبل، ولكنني أزيد هنا شيئاً آخر، وهو أن ما جاء في الشعراء كان خطاباً من فرعون لقومه ﴿قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]، أما ما جاء في سورة الأعراف فقد كان حديثاً عن الملائكة، ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٠٩]؛ لذا استعملت كلمة البعث أولاً لأنها خطاب لفرعون، والبعث فيه إثارة أكثر من غيره كما قلت من قبل، ولصاحب درة التنزيل -رحمه الله- قول آخر، وهو أن الإرسال يكون ممن هو أعلى إلى غيره، ولذا خاطب به العامة فرعون؛ لأن في الإرسال دليلاً على الرفعة، ولعلي أرجح ما ذكرته على ما ذكره الشيخ -رحمه الله- وأقول كما قال العلامة ابن مالك رحمه الله:

وهو بسبق حائز تفضيلاً مستوجب ثنائي الجميلاً<sup>(١)</sup>  
ولتختار أيها الفاضل ما يرجح لك.

(١) رحم الله أئمتنا وعلماءنا لقد كانوا بحق مثلاً يحتذى، وأسوة يقتدى بهم، فما أجدرهم بالإجلال والدعاء، هذا البيت قاله ابن مالك في مقدمة ألفيته التي يسميها العلماء الخلاصة، ويقصد بهذا البيت ابن معطي، وكان قد نظم ألفية في النحو قبل ابن مالك، فأشار إليه ابن مالك وهو يثني على ألفيته بقوله:

فائقة ألفية ابن معطي	وتقتضي رضئ بغير سخط
مستوجب ثنائي الجميلاً	وهو بسبق حائز تفضيلاً
لي وله في درجات الآخرة	والله يقضي بهبات وافرة

ومنها أنه ذكر في الشعراء «سحار» وفي الأعراف: «ساحر»، وسحار صيغة مبالغة، وهو المناسب في خطاب القوم لفرعون.

ومنها أن هذا المشهد كان أكثر تفصيلاً في سورة الشعراء منه في الأعراف، ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨]، وهذا يتلاءم مع ما قلته لك من قبل، من أن سورة الشعراء كانت أكثر السور محاورة بين موسى -ﷺ- وفرعون اللعين.

ومنها أن كلام السحرة جاء بهمزة الاستفهام في سورة الشعراء، وليس كذلك في سورة الأعراف، والأعراف هي أول السور حديثاً، وقد جاء فيها ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]، وقد ذكرت أنهم إنما قالوا هذا، لأنهم كانوا لا يأخذون أجراً على أعمالهم، وكأن السحرة أرادوا أن يوثقوا هذا الأجر لأنفسهم، فلم يكتفوا بهذه القولة، فأعادوها مرة أخرى بصيغة الاستفهام: ﴿أَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الشعراء: ٤١]، ونحن نعلم أن أسلوب الاستفهام له من الخصائص ما لا يوجد لغيره، لذلك رأينا القرآن الكريم يؤثر في كثير من الأحيان، أسلوب الاستفهام على أسلوب الخبر الصريح<sup>(١)</sup> ولذلك زاد في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢]، فلقد أراد أن يزيد كلامه توثيقاً بعد أن عبروا عنه بأسلوب الاستفهام. وفي سورة الأعراف ﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَن تُلْقَىٰ﴾، أما في سورة الشعراء فلقد كانت المبادرة منه ﷺ، ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّقْلُونَ﴾ وقد جاءت سورة الشعراء بعد سورة الأعراف، وفي سورة الشعراء بيان لاعتزاز القوم بفرعون، حيث ألقوا حبالهم وعصيهم وقالو بعزة فرعون، ولا نجد هذا الافي هذه السورة الكريمة، فناسب هذا أن يكون موسى أكثر اعتزازاً بربه، لذلك طلب منهم أن يبدأوا بأن يلقوا أولاً.

---

(١) راجع كتابنا البلاغة فونها وأفنانها -علم المعاني- (سلسلة بلاغتنا ولغتنا) ولصاحب الدرة -رحمه الله- رأي غير هذا.

وفي سورة الأعراف ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ ، وفي السورتين الاخيرين ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ ، لأن الضمير في سورة الاعراف يرجع لله تبارك وتعالى، أما في السورتين الاخيرين فالى موسى ﷺ .

وفي سورة الاعراف، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ذلكم أن سورة الشعراء كما بينت تصوّر القوم وهم أكثر اعتزازا بفرعون. ﴿يَعِزُّهُ فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَنحْنُ الْعَاقِلُونَ﴾ فناسب أن يؤكد لهم هذا الوعيد .

وفي سورة الأعراف ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ وفي سورة الشعراء ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾ ، وهذا يتسق مع ما قلته من قبل ، فإذا كانوا قد اعتزوا بفرعون من قبل ، فهاهم الآن ينقلبون عليه ويكفرون به ، وهم يعلنون أن ﴿لَا ضَيْرَ﴾ لن يضيرنا كل ما تقوم به .

وفي سورتي الأعراف والشعراء قالوا ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ . وفي سورة طه ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ وللعلماء أقوال كثيرة في تقديم هارون عليه السلام: يرى بعضهم أنها الفاصلة، ويرى آخرون أنهم قالوها مرتين قَدَّمُوا حيناً ، وأخروا آخر ، والذي يظهر لي والله أعلم بما ينزل -أنها لما كانت سورة طه ، السورة التي بُين فيها أن القوم لما ألقوا حبالهم وعصيهم ويُوخِّل إليه أنها تسعى ، أوجس في نفسه خيفة موسى ، وهو الذي حينما أكرمه الله بالرسالة ، ومعه العصا وقيل له ألقها يا موسى ، وولى مدبرا ولم يعقب قيل له : لا تخف ، فما كان ينبغي أن يفكر بالخوف من فعل السحرة ، ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ، وكان هارون أخرى منه بهذا الخوف ، لأنه لم يشاهد ما شاهده أخوه من قبل ، عندما أوحى الله اليه ولم يذكر في النظم الكريم أن هارون عليه السلام أصابه ما أصاب موسى عليه السلام من الایجاس بالخوف ، من أجل هذا يبدو لي أن النظم جاء هكذا ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ .

ثم نجد في كل سورة من الحديث ما يكمل ما في السورة الأخرى، ففي سورة الأعراف مثلاً، قالوا: ﴿وَمَا نَقِمْ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ أَمَنَّا بِإِثْنَيْتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وفي سورة الشعراء قالوا ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وفي سورة طه ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَاسِ الَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّمَا أَمْنَا رَبَّنَا لِیَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَبَقِي﴾.

فهذه الأقوال كلها صدرت عن السحرة المؤمنين -رحمهم الله تعالى- فذكرت كل سورة شيئاً من أقوالهم، أرايتم إلى مواطن الإعجاز في هذا النظم، حيث جاء في كل سورة ما يتلاءم مع موضوعها وشخصيتها. ومع ذلك وجدنا من يرى في هذه الصنعة البديعة تناقضاً، كما ذهب إلى هذا صاحب الفن القصصي محمد أحمد خلف الله، في أطروحته التي أشرف عليها الشيخ أمين الخولي، وقد حدثناك عن شيء مما في الرسالة من قبل.

أما سورة طه فهي تنسب كل شيء لفرعون، ففرعون هو الذي قال: ﴿أَجِئْنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ وفرعون هو الذي وعد بأن يأتيه بسحر مثل سحره، ولكنه طلب من موسى عليه السلام أن يجعل موعداً بينهم وبينه. وتحدد سورة طه الزمان بأنه يوم الزينة، والوقت الذي يجمع فيه الناس وهو الضحى، كما تبين سورة طه أن فرعون هو الذي تولى، وجمع كيده، ثم أتى، وتبين لنا تحذير موسى عليه السلام له ولقومه من عذاب الله، كما تختص ببيان تنازعهم وإصرارهم وتناجيهم، في سورة طه كذلك يصرحون بأولية الإلقاء ﴿أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾، كما تختص سورة طه ببيان حرف الإضراب «بل» وتبين ما حدث لموسى عليه السلام نتيجة إلقاءهم الحبال والعصي، بينما الذي تبينه سورة الأعراف أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم.

و سورة الشعراء لم تعرض لشيء من هذا.

كما تختص سورة طه من بين السور جميعاً ببيان ما حدث لموسى - عليه الصلاة والسلام - من الإيجاس في نفسه خيفة، حتى قال الله له: لا تخف إنك أنت الأعلى. ونظن من أجل ذلك - والله أعلم - قدم هارون على موسى في هذه السورة دون غيرها، كذلك ما كان من حديث السحرة حينما ألقوا سجداً كان فيه عنصر زائد على ما رأيناه في سورتي الشعراء، والأعراف. وقد مر معنا ذلك من قبل، وإنما أطلت لأن هذا المشهد - كما قلت - هو أكثر المشاهد في القصة تشابهاً، أما انه ذكر أكثر من مرة؛ فلأنه الغاية، وهو كذلك الأساس الذي أراد القرآن تثبيته في النفوس، ومع ذلك رأينا في هذا المشهد نفسه «مشهد السحر» جديداً في كل سورة من سور القرآن الكريم.

### عودة إلى سورة الشعراء:

ولنكمل الآن ما بقي من القصة في سورة الشعراء، وسنجد جديداً كذلك فبعد إيمان السحرة يوحى الله إلى موسى أن أسر بعبادي، فإن فرعون سيتبعهم ويلحق بهم، ويرسل فرعون في المداخن شرطه، وجنوده؛ ليجمعوا الناس. وإرسال فرعون هذه المرة لم يكن بمشورة الملأ الذين أشاروا عليه من قبل، فالقضية هنا قضية حياة أو موت بالنسبة له، والوسائل التي اتبعها هي الوسائل التي يتبعها كل من غرته قوته من ذوي البطش الذين لا يعتزون إلا بقوتهم، ولا ترهبهم إلا القوة كذلك كما نرى من قوى البغي في أيامنا هذه. فكانت وسائل إعلامه التي يحاول بها أن يجمع الناس، وأن يرغبهم ليخرجوا معه تقوم على دعامتين اثنتين:

التقليل من شأن موسى عليه السلام ومن معه، فهم شرذمة قليلون، يغيظون السادة بوجودهم وتصرفهم وعدم خضوعهم.

والدعامة الثانية: هي عرض عضلات فرعون، والإهابة بقوة كل الذين يخرجون معه، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايُطُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦] وكان ما كان حيث أخرجهم الله من جنات وعيون، وكنوز، ومقام كريم،

وخرج قوم موسى عليه السلام وقد سرى بهم، كما أمره ربه، ولحق بهم فرعون وجنوده مشرقين، ورأى كل من الجمعين صاحبه، وصاح أصحاب موسى وقد رأوا قوة فرعون عدداً وعدة صاحوا ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فيردعهم موسى - عليه السلام - بهذه القوة التي تبين الثقة والطمأنينة، ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وتكون المعجزة التي يؤيد الله بها أنبياءه وأوليائه، ويوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر، والعصا التي التفتت كل الإفك يجعل الله لها معجزة أخرى، فينفلق البحر، ويسير موسى عليه السلام ومن معه، ويرى فرعون وجنده فيتبعونهم، وكذلك العقلية الجماعية المستسلمة دائماً تخلو من التفكير في كثير من الأحيان، وتكون النهاية: ينجي الله موسى ومن معه ويغرق فرعون ومن معه.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ قَالَ لَا يَنْفَعُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِمَا إِلَيْنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكُنَا فِيمَا وَلدَا وَلَيْسَتْ فِيمَنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعَلْنَاكَ آلِي وَنَحْنُ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدَتْ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنْ رَأَوْكُمْ كُنْتُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ قَالَ لِمَنْ أَتَّخَذَتِ الْإِلَهَ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ قَالَ أُولُو حِشَّتِكَ بَشَىٰ مُبِينَ قَالَ فَأَبِءُ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الدَّائِنِ حَاشِرِينَ بِأَنُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتٍ يَوْمَ مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّآ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُفْرِقِينَ

قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُتْلِقُونَ قَالُوا جَاهِلَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةَ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ قَالَتْ فَيَ مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ قَالَتْ فَيَ السَّحَرَةُ سَلِّحُوا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ آمَنْتُمْ لِمُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُمْ لَكَايِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحَرَ فَلَسَوْفَ نَعْلَمُونَ لَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْتَكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَنْطَمِعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَايِطُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ فَلَتَبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ وَأَبْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾ [الشعراء: ١٠-٦٨].

وهذه السور الثلاث كانت أكثر السور حديثاً عما كان بين موسى - عليه الصلاة والسلام - وبين فرعون، وما جرى من شأن السحرة. وليس معنى هذا أن الحديث عن فرعون لم يكن في غير هذه السور، إنه في سور كثيرة ولكنه كان موجزا في غير هذه السور الثلاث، أو كان فيها تفصيل لجوانب أخرى غير التي ذكرت في السور الثلاث.

٥- سورة النمل وقد جاءت بعد سورة الشعراء وقد بدأت الحديث عن الرسالة، لكن فيها إشارة لفرعون، وتبين السورة أن الله أرسل موسى عليه السلام لفرعون وقومه في تسع آيات، وهذا العدد يذكر لأول مرة. ولكنها بُيِّنَتْ في سورة الأعراف، لكن لم يذكر كونها تسعاً، ومع اختلافهم في هذه الآيات إلا أن الكثيرين يرجحون أنها العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، بهذا الترتيب ومن قبل هذه أخذ آل فرعون بالسنين، ونقص من الثمرات. ولكنهم كانوا قوماً فاسقين، قالوا عن الآيات حينما جاءتهم: إنها سحر. وتبين السورة قضية مهمة جداً لم نجدها في غيرها، وهذا ما نقوله دائماً من أن الإجمال في بعض السور القرآنية، والإيجاز يُخصَّص بما لم يوجد في



غيره. الذي تبينه سورة النمل أن فرعون وقومه جحدوا بالآيات، ولكن لم يجحدوا بها لأنها غير وافية ولا كافية، فقد استيقنتها أنفسهم، ولكن مادامت أنفسهم قد استيقنتها فلماذا جحدوا بها يا ترى؟ يبين القرآن سبب ذلك بأنهم إنما فعلوا ذلك ظلماً وعلواً. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣-١٤].

فقوله سبحانه ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ حالان أي جحدوا بها ظالمين مستعلين، أو نُصبا على التعليل، أي كلاهما مفعول لأجله، ولما كان الإعراب فرع المعنى، ترجح عندي هذا الوجه؛ لأن الحال فيه تقييد، فاذا قلت جاء زيد راكبا فركوبه كان وقت المجيء، وعلى هذا فالظلم والعلو أمر متأصل فيهم حتى قبل أن تأتيهم الآيات؛ لذا رجحت الإعراب الثاني. وقوله سبحانه: ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ جملة جاءت بين الفعل جحدوا وعلته الظلم والعلو وإنما وسطت بينهما تنبيهاً للسامع ولفتاً للأذهان على أن الأمر بينهما وبين أنفسهم كان مختلفاً عما أظهره، وهذا يشبه قول الله، ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، والظلم سلب الناس ما هو لهم ومنعهم حقوقهم، والعلو إعطاء النفس ما ليس لها، وهما شر ما يتصف به الإنسان.

٦- ثم جاءت سورة القصص وهي أكثر السور حديثاً عن طفولة موسى وشبابه - عليه الصلاة والسلام -، ولكن الحديث عن فرعون كان حديثاً موجزاً، فبعد ذكر الرسالة أكرمه الله ببرهانين: العصا واليد، يذهب بهما إلى فرعون وملئه، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - يخشى أموراً، رأيناه يضرع بها إلى ربه، وربه أعلم به، منها أنه قتل منهم نفساً؛ فيخاف أن يقتلوه ويصرح هنا لأول مرة بأن أخاه هارون عليه السلام هو أفصح منه لساناً فليرسله معه معيناً مصدقاً له، ويجيبه الله تبارك وتعالى بأنه سيشد عضده بأخيه ويجعل لهما سلطاناً فلن يستطيعوا الوصول إليهما والنيل منهما، ثم يطمئنه سبحانه ﴿ بِأَيِّنِّا أَنْتُمْ ءَاوَمْنَ اتَّبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص: ٣٥] كما تخبرنا الآيات الكريمة أن موسى

عليه السلام لما جاءهم بالآيات قالوا: إنه سحر مختلق مفترى؛ وبأنهم لم يسمعوا بمثل هذا في آبائهم الأولين وهذا ما يصرحون به هنا لأول مرة فماذا قال موسى - عليه الصلاة والسلام -؟ قال لهم إن ربه هو أعلم بمن جاء بالهدى من عنده سبحانه ومن تكون له عاقبة الدار ويعني نفسه عليه الصلاة والسلام، ثم يبين ظلم فرعون وقومه وظلمهم لبني إسرائيل ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧] أما فرعون فقد ازداد طغياناً، ولأول مرة يعلن إلهيته لملئه ويطلب من وزيره هامان أن يوقد له على الطين لعله يطلع إلى إله موسى وما يظنه إلا من الكاذبين، وهذا ما أشار إليه الكتاب الكريم ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْنَمُنْ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطْلِعُ إِلَٰهَ إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وها هنا إشارة ذكية لا بد أن نفظن لها في الآية الكريمة، وهي أن الجابرة حينما يهيا لهم رعية تلغي عقولها، وتعطي من أنفسها الدنية فإن هؤلاء الجابرة يلبسون عليهم كيفما يريدون، وفرعون يؤكد لملئه أنه ليس هناك إله غيره، ومع ذلك يريد بناء صرح فخم ضخم ليطلع إلى إله موسى عليه السلام مع يقينه بأن موسى عليه السلام من الكاذبين، فلو كانت هناك مسحة عقل عند رعيته وذرة شجاعة وجرأة لقالوا له لِمَ نجهد أنفسنا بالبناء مادمت على يقين أن ليس هناك إله؟ ولكنه الإخلاق إلى الأرض يجرد كل الذين رضوا بالاستضعاف والذل بدلاً من مقومات الإنسانية الكريمة، نعوذ بالله من ذلك.

ويستكبر فرعون وجنوده كما تحدثنا سورة القصص، يستكبرون في الأرض بغير الحق ظانين أن الله لن يحيط بهم فيأخذهم الله تبارك وتعالى: يأخذه هو وجنوده فينبذهم في اليم، وتلك عاقبة الظالمين، ويجعلهم أئمة يدعون إلى النار، ولن يجدوا يوم القيامة ناصراً لهم، ويتبعهم في هذه الدنيا لعنة، أما في يوم القيامة فهم من المقبوحين أي المطرودين المبعدين، تلك هي الإشارة في سورة القصص عما كان من أمر فرعون.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ  
إِذَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَانَهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ  
يَمْوَسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ  
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا  
فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا  
فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا  
سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيْنَتِنَا إِنَّمَا وَمِنَ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ  
قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا جَاءَ  
بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ بِأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا  
عَلِمْتُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرَ فَأَوْفِدْ لِي بِهَمَلْنِ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلِعُ إِلَهُ إِلَهِي  
مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ  
إِلَٰهَانَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ  
الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠-٤٠].

٧- ثم تأتي سورة الإسراء بإشارة موجزة، ولكن العجيب فيها أنها جاءت مناسبة  
متسقة مع ما قبلها في سورة القصص، فهي مرتبة عليها ترتيباً منطقياً غاية في الإبداع.  
وهاكم بيان ذلك: ادعى فرعون في سورة القصص أنه ما عَلِمَ لقومه من إله غيره، وأنه  
على يقين من كذب موسى عليه السلام، فجاءت الإشارة في سورة الإسراء:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بَيْنَ إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ  
يَمْوَسَىٰ مَسْحُورًا ☆ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُ مَا أُنْزِلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ  
يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ☆ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ☆ ﴾ [١٠١-١٠٣].

فما أعجب هذا الترتيب وما أحكمه وما أبعد عن التكرار!! حيث بين الكليم ﷺ  
أن هذه الآيات ما أنزلها الا رب السماوات والأرض بصائر لذوي العقول، فهو الله  
الذي لا إله غيره ولكنك يا فرعون هالك هلاكاً لا مثيل له: إغراق في الدنيا وإحراق  
في الآخرة.

٨- ثم جاءت سورة يونس بأحداثها الجديدة وكلماتها المعبرة وأسلوبها المؤثر،  
تجمل أحداثاً مضت؛ لتفصل غيرها مما يتفق مع سياق السورة نفسها ومع شخصيتها،  
والسورة - كما نعلم وكما قدمنا من قبل - بدأت بهذه الآيات:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّءْيَايَةُ الْكَتَبِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ  
الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾  
[يونس: ١-٢].

تبدأ القصة بعد قصص بعض الأنبياء، ولكنه قصص موجز في هذه السورة الكريمة  
يبحث موسى وهارون عليه السلام إلى فرعون وملئه بالآيات، ولكنهم استكبروا وكان هذا  
الاستكبار ناشئاً عن تماديهم في الإجرام؛ لذلك لما جاءهم الحق لم يجدوا ما يقولونه إلا  
أنه سحر، لكن موسى - عليه الصلاة والسلام - ينكر عليهم هذه المقالة أتقولون للحق  
لما جاءكم هذه المقالة المستهجنة؟! أسحر هذا الذي جئتكم به؟.

ثم تبين الآية الكريمة نتيجة فعلهم من قبل أن يحدث منهم أي فعل، وهو أن  
الساحرين لن يفلحوا أبداً.

كما تبين السورة هنا ما أنكروه من موسى وهارون - عليهما الصلاة والسلام - وهو  
غير ما بينته السور السابقة فإنهم أنكروا أن يلفتهم موسى ويفتلهم عما وجدوا عليه آبائهم  
هذه واحدة.

وأما الثانية: فهي أن يكون لموسى وهارون الكبرياء والملك في الأرض، ولهذا  
صمموا على عدم الإيمان بأسلوب قاطع مؤكد ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]  
ويطلب فرعون أن يأتيه بكل ساحر عليم. ونجد السورة الكريمة هنا لم تفصل في شأن  
السحرة كما فصل في السور من قبل ويجيء السحرة، ويقول لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ  
مُلْقُونَ﴾ ويلقون ما أرادوا إلقاءه.

## ما بينه موسى عليه السلام للسحرة:

ولكن موسى - عليه الصلاة والسلام - يبين لهم هذه القضايا الأربع في هذا الترتيب البديع : القضية الأولى : أن هذا الذي جئتم به إنما هو السحر بأسلوب القصر الذي يتحدث عنه علماء البلاغة ، وذلك بتعريف جزئي الجملة مبتدؤها الذي هو «ما» الاسم موصول وخبرها الذي هو السحر . وإذن فما جاء به موسى مغاير لذلك .

أما القضية الثانية : فهي مرتبة على القضية الأولى وهي قوله ان الله سيظله ، ثم تأتي القضية الثالثة : إن الله لا يصلح عمل المفسدين .

ونتيجة لهذه القضايا الثلاث فإذا كان الذي جاءوا به السحر وسيظله الله تبارك وتعالى ؛ لأنه نوع فساد والله لا يصلح عمل المفسدين فإن النتيجة الحتمية لذلك كله ؛ أن يحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ، وتلك رابعة القضايا .

أما ما كان من السحرة ومن فرعون فكل ذلك قد طوي في هذه السورة انه ما آمن لموسى عليه السلام إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم .

## درسان عظيمان يؤخذان من الآية:

وفي الآية درسان على قدر كبير من الأهمية لم يذكر في غير هذه السورة فهما بحق قضيتان حريتان بالوقوف والتأمل :

أما أولاً : فإنه لم يؤمن لموسى عليه السلام إلا ذرية من قومه ، والذرية - بالطبع - تشير إلى أن الذين آمنوا كانوا من عنصر الشباب وهي إشارة ذات مغزى ، فالشباب هم العنصر الفعال في حياة الدعوات وتاريخها .

وأما ثانياً : فإن عدم الإيمان لم يكن خوفاً من فرعون وحده ، وإنما كان خوفاً من ملئهم أي من ملأ هذه الذرية من بني إسرائيل . إن كثيراً من المستضعفين الذين استمروا الذل يقفون مع العتاة الطغاة في وجه الحق مع أنهم يعلمون أن في هذا الحق دفعاً لكابوس الظلم عنهم ، ولكنهم يدهنون مع ذلك ، بل يكونون أشد من الطغاة أنفسهم ،

وهكذا كان الملأ من بني إسرائيل يحولون بين ذريّاتهم وبين الإيمان لموسى عليه السلام مع أن فرعون هو الذي علا في الأرض وكان من المفسرين وكان يسومهم سوء العذاب، فما يجني هؤلاء المستضعفون من وقوفهم معه؟! ولكنها التبعية الذليلة التي لن تحلّهم إلا دار البوار. ويلتفت موسى - عليه الصلاة والسلام - إلى هؤلاء الذين آمنوا معه وهم بين نارين وخوفين: فرعون من جهة، وملئهم من جهة أخرى، ليقول لهم إن كنتم آمنتم بالله فعليه وحده ينبغي أن يكون توكلكم إن كنتم منقادين إلى الحق، ويجيبونه معلنين إيمانهم وإسلامهم: على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين، فهم يدعون ربهم ربنا لا تفتنا بما نلاقي من عذاب منهم أولا تجعلنا فتنة لهم يُفْتَنُونَ بسببنا وهم يرون ما نلاقيه من عذاب ويوحى الله إلى موسى وأخيه عليهما السلام أن يهيئا لقومهما بمصر بيوتا وأن يجعلوا هذه البيوت قبلة ليعبدوا الله فيها بإقامة الصلاة<sup>(١)</sup>، ثم يأمر الله موسى عليه السلام أن يبشر المؤمنين.

ثم تبين الآيات الكريمة ما كان من دعاء موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو يناجي ربه ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُنَّ سَبِيلَكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، بهذه الكلمات التي يسطع فيها الإيمان المؤثر يدعو موسى عليه السلام ربه لا حسداً لفرعون على ما أوتيته، فمعاذ الله، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - يدرك أن الزينة والمال وما ينتج عنهما من تعالٍ وغرور سببٌ في محاربة الحق. من أجل ذلك كان ذلك الدعاء ابتغاء للحق وحرصاً عليه، ويجيب الرب دعاء العبد ﴿أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

(١) يذهب بعض المفسرين إلى أن هذه البيوت اتخذت قبلة لأنهم كانوا يخشون أن يصلوا في معابدهم، فأمرُوا أن يخفوا صلاتهم حتى لا يطلع عليهم فرعون ومن معه، وهذا إذا كانت البيوت للمساكن، أما إذا كان المقصود بالبيوت المساجد فلا يكون للسرية معنى، وذهب بعضهم إلى أن معنى قبلة أي متقابلة حتى لا يكون بينهم بعد. ولا تنافي بين هذه الأقوال ولكل وجهة.

ثم تتحدث السورة الكريمة عن المشهد الأخير وقد جاوز ببني إسرائيل البحر، واتبعهم فرعون وجنوده باغين معتدين، وتأتي النهاية الحاسمة، فحينما يدرك فرعون الغرق يرجع عن كفره ويعلن إيمانه ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فلقد صدق موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

بهذه العبارات التي كان يمكن أن يغني عنها كلمة واحدة ينطق بها فرعون، ولكن لات حين مناص إنه لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، الآن وقد فوّت كل فرصة وما أكثر الفرص التي سنحت لك! وتكون المعجزة فاليوم ننجيك بيدك هيكلاً لا حراك فيه لتكون للقرون من بعدك آية فما أكثر الآيات وما أعظمها!! ولكن كثيراً من الناس عنها غافلون، وصدق الله وكان لمن خلفه آية حتى يومنا هذا.

تلك هي القصة في سورة يونس وقد رأينا عناصرها جديدة كل الجدة، أسلوباً وأحداثاً وكلماتٍ معبرة - كما قلت من قبل - وفي ذلك خير دليل على ما أردنا تقريره من الجدة في كل ما يعرض له القرآن الكريم من أحداث يُظنّ تشابهها.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّقْتُلُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ فَمَّا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ يَقُومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَاعْلَمِي تَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَلِجِئِهِ أَنْ تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ بِمِصْرَ يُونَا وَاجْعَلُوا يُونَاكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ءَالْفَنِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٧٦﴾ [يونس : ٧٥-٩٢].

٩- أما سورة هود فلم يكن فيها سوى إشارة موجزة على الرغم من أنه قد فصل فيها بعض القصص - كما رأينا - قصة نوح عليه السلام، ومع إيجاز هذه الإشارة فإنها لا تخلو من جدة.

تبين السورة الكريمة، أنه سبحانه أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه بآياته وسلطان مبين، وقد اختلف المفسرون في معنى السلطان المبين، فمنهم من يرى أنه الآيات نفسها، ومنهم من رأى أنها العصا؛ لأنها كبرى هذه الآيات. والذي يلوح لي - والله أعلم - أن السلطان المبين الذي اقترن بالآيات إنما هي الحجة الواضحة الدالة على صدق موسى عليه السلام المستفادة من قرائن الحال، إنه سلطان الحجة الذي كان كافياً لمن أراد الهداية، ولهذا ذكر عقب الآيات دليلاً على التغاير بينهما فالآيات مادية والسلطان عقلي معنوي، والله أعلم بما ينزل. أرسله إلى فرعون وملئه ولكنهم اتبعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد إنه ممعن في الغواية والإضلال، وإذا كان قدوة لأصحابه في الدنيا، أو رضي أن يكونوا أتباعاً له فهو سيقدمهم يوم القيامة كذلك، ويكونون له تبعاً ليوردهم النار وبئس الورد المورود هذه النار وقد حلت عليهم اللعنة في هذه الدنيا ويوم القيامة بئس الرفد المرفود.



﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْفَسُ أَلْوَرْدُ الْمَوْرُودُ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْفَسُ أَلْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾<sup>(١)</sup> [هود: ٩٦-٩٩].

١٠- ثم تأتي سورة غافر، وهي سورة المؤمن؛ مؤمن آل فرعون، وهي السورة الوحيدة التي فصلت قول هذا المؤمن وبيّنت لنا شأنه، لذلك كان أكثر ما اشتملت عليه السورة. ومن الطبيعي أن تحدثنا السورة الكريمة عن موسى - عليه السلام - وفرعون. وأول ما نجده من هذا النبأ أن الله أرسل موسى عليه السلام بآياته وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون، وقد مر ذكر هامان وقارون في سورة القصص، أما هامان فقد مرّ فيما حكى الله تعالى عن فرعون في قوله ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]، وأما قارون فلقد كانت له قصة في آخر سورة القصص لم نعرض لها هناك؛ لأنها ليس لها تعلق بحديثنا، فحديثنا عن فرعون، وستحدث عنها فيما بعد إن شاء الله. ولكن هؤلاء الثلاثة وصفوا موسى عليه السلام بالسحر والكذب، فلما جاءهم بالحق من عند الله تبارك وتعالى اشتطوا غيظاً، وركبوا متن الغواية، وقالوا: اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم، أي استبقوهن للخدمة والمهانة، وهذا القتل والاستحياء غير الذي كان يفعله فرعون ببني إسرائيل قبل رسالة موسى عليه السلام، ويمكن أن يكون هذا القتل هو المشار إليه في سورة الأعراف، وهو الذي مرّ معنا من قبل ﴿قَالَ سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ فَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]<sup>(٢)</sup>.

(١) بشس الرفد المرفود: أي بشس العون المعان وذلك أن اللعنة في الدنيا رُفِدَ للعذاب ومدد له، وقد رُفِدَتْ باللعنة في الآخرة، وقيل: بشس العطاء المعطى.

(٢) وهذا الأسلوب هو الذي نجده من الظالمين العتاة الباغين حتى اليوم فما أشنع الظلم وأسوأ الظالمين!! ولا عجب أن يكون هذا من فرعون وهامان، ولكن العجب أن يكون من قارون الذي هو من بني إسرائيل، ولذا رجحت ما قلت من أن هذا التقتيل كان بعد رسالة موسى، وهكذا يعمي الباطل ذويه، فلا يرفع أحدهم ذمة ولا قرابة.

ويُطمئن الله موسى عليه السلام وقومه بأنه ناصرُهُ، وبأن كيد الكافرين ليس إلا في ضلال وضياح وخسران، أما فرعون فيحدثنا عنه القرآن حديثاً عجيباً؛ إذ يحكي لنا قوله ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذا لعمر الحق منتهى المكر والكذب والتلاعب بالعقول ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ أي خلوا بيني وبينه، وكأنهم هم الذين يمنعونه عن ذلك مع أنه يوقن وهم يوقنون كذلك أن ليس بأيديهم شيء، وأن الأمر أولاً وأخيراً إنما هو لفرعون، ولكنه الخبث الذي يتبعه كثير من الساسة وهم يوهمون رعيتهم بأنهم هم - أي الرعية - أصحاب الحكم يحكمون أنفسهم بأنفسهم وأصحاب القرار، وهذا أكثر ما يكون في الأنظمة الدكتاتورية وما يشبهها، ولأمتنا من هذا النصيب الأوفر والحظ الأوفى!! والأعجب من هذا ما علل به هذا القتل، وهو خوفه من أن يبدل موسى عليه السلام الدين، وخوفه من أن يظهر موسى عليه السلام الفساد في الأرض، من أجل ذلك يريد قتله حتى تبقى الحياة صالحة نظيفة. ما أعظمها من عبر! وما أروعها من عظات لقوم يتذكرون!.

أما موسى - عليه الصلاة والسلام - فإنه لا يزيد بعد أن سمع ما سمع على أن يقول لائذا بربه، مستجيراً به سبحانه وهو ربهم كذلك: ﴿إِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

ثم تفصل الآيات بعد ذلك قول هذا الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتُم إيمانه، وهو ينصح قومه يتلطف معهم بما ينم عن صدقه، وعمق إيمانه ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) لقد كان هذا الرجل المؤمن حاذقاً في أسلوبه حيث بدأ بافتراض الكذب قبل الصدق ثم قال ﴿يُصِيبْكُمْ﴾ ولم يقل «يُصِيبُنَا»، ثم عقب على هذا بأن الله لا يهدي المفسرين المكذبين فإن كان موسى منهم فلن يهدي إلى الخير، ثم قال «يا قوم» بهذا التلطف ثم قال ﴿لكم﴾ ولم يقل «لنا» ولكنه قال بعد ذلك ﴿فمن ينصرون من بأس الله﴾، ولم يقل «ينصركم» وهكذا نجده حاذقاً في أسلوبه =

لم يسبق لهم أن لهم الملك وأنهم هم الظاهرون في الأرض، ويذكرهم بالعاقبة ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾، ولكن فرعون يزداد عتواً ويظهر حقيقة ما في نفسه، فهو يقول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. إن الرأي هو ما أحملكم عليه فليس لأحد أن يعارضني في شيء، فأين هذا القول مما قاله من قبل ﴿ذُرُوفٍ أَقْتُلُ مُوسَى﴾ وكذلك المتجبرون يكشرون عن أنيابهم حينما يجد الجد. ويعود المؤمن لنصائحه؛ فهو يخاف على قومه مثل يوم الأحزاب ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾. وهذا كله في الدنيا، ثم يحذرهم من يوم القيامة يوم التناد ﴿يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾.

ثم يذكرهم بما كان من يوسف - عليه الصلاة والسلام - حينما جاءهم بالبينات، ولكنهم كانوا في شك مما جاءهم به، فلما انتقل إلى الدار الآخرة قالوا: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾، ولكن فرعون مع ذلك لا يدعن للحق - وهكذا يضل الله كل من هو مسرف مرتاب من أولئك الذي يجادلون في آيات الله من غير حجة عندهم. وكبر هذا مقتا عند الله وعند المؤمنين، وهكذا يطبع الله على قلوب المتكبرين الجبابة -.

أقول: لكن فرعون لم يأبه لكلام ذلك الرجل المؤمن، فهو يأمر هامان أن يبني له صرحاً لعله يبلغ طرق السماوات فيصل إليها ليطلع إلى إله موسى عليه السلام مع أنه على يقين من كذب موسى عليه الصلاة والسلام، وهكذا زين لفرعون سوء عمله وصدَّ عن سبيل الحق وطريق الهداية وما كيد فرعون إلا في تباب وخسران وضياع. ويعاود الذي آمن وصاياه ﴿يَقَوْمِ أَتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]، ثم يبين لهم حقارة شأن الدنيا، ويفصل لهم القول إلى أن يقول لهم ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقْنَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهٌ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ ثُمَّ يبين لهم أن سوء العذاب<sup>(١)</sup>.

= حيث لا يستطيع أحد أن يشتم منه رائحة الإيمان وهو درس جيد تدعو إليه الضرورة في كثير من الأوقات.

(١) تراجع آيات المؤمن: ٢٣-٥٥.

ثم تبين الآيات الكريمة أنها النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، أما يوم قيام الساعة فسيُدخلون أشد العذاب، ثم تصور لنا هذا المشهد وهم يتحاجون في النار، فيقول الضعفاء للمستكبرين: لقد كنا لكم تبعاً وخدماءً نأتمر بأمركم، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار؟! فيقول المستكبرون: لا، إنا كلٌّ فيها، إن الله قد حكم بين العباد. ويطلبون من خزنة جهنم أن يدعوا ربهم ليخفف عنهم شيئاً من العذاب، ويقال لهم: ألم تكن الرسل تأتيكم بالبينات؟ فيقولون: بلى، فيقال لهم: ادعوا ما استطعتم فلن يُقبل منكم، فما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

ثم يعقب على هذا كله بهذه الآية الجامعة ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، ويمن الله على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من فرعون ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣-٥٤].

ثم يعقب على ذلك بطمأنة النبي ﷺ، فكما أهلك فرعون وكما نصر الله موسى، فلا بد أن يهلك المكذبين كذلك ﴿فَاصْبِرْ إِنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَلَيْلَهُ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يَقُولُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا

أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ  
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ وَيَتَقَوَّمُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ  
تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ  
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا  
كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ  
كَبْرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ وَقَالَ  
فِرْعَوْنُ يَهْمُنْ آتِيَنِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَبَ أَتَسْبَبُ السَّمَوَاتِ فَاطْلُعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي  
لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا  
فِي تَبَابٍ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ أَتَتَّبِعُونَ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَتَقَوَّمُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ  
الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
مِنْ ذِكْرِ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَرْزُقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ \* وَيَتَقَوَّمُ  
مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ  
عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَرِ لَا جَرَمَ أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لِي دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي  
الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَبِى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ  
وَأَفُوضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ فَوَقَّعَهُ اللَّهُ سَعِيَابَ مَا مَكُرُوا وَخَافَ يَقَالَ فِرْعَوْنُ  
سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ  
الْعَذَابِ وَإِذِ يَنْتَحِجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا  
فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ  
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ  
قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ  
إِلَّا فِي ضَلَالٍ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ  
الظَّالِمِينَ مَعْدِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي  
إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ  
لِذَلِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿ غافر: ٢٣-٥٥ ﴾ .

هذه سورة غافر، ونحسب أنه من نافلة القول عدم وجود أي تكرار فيما أشارت إليه السورة الكريمة.

١١- ثم تأتي سورة الزخرف لنقرأ فيها طرفاً من هذه القصة كذلك، والواقع أن ما ذكر في هذه السورة متلائم كذلك مع اسمها، كما سنرى ذلك بيّناً إن شاء الله تعالى.

تبدأ السورة بإرسال موسى عليه السلام إلى فرعون وقوله ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وحينما يجيئهم بالآيات فإنهم يفاجئونه بضحكهم وسخريتهم منها وهزئهم بها، مع أن الآيات التي جاء بها موسى - عليه الصلاة والسلام - كانت كل واحدة منها كافية لإيمانهم، فليس هناك آية إلا وهي أكبر من أختها؛ لأن في كل آية ميزة لا توجد في غيرها، وقد أخذوا بالعذاب عليهم يرجعون عن غيهم الذي هم فيه سادرون، ولما رأوا العذاب قد أحاط بهم هرعوا لموسى - عليه الصلاة والسلام - قائلين له ﴿يَأْتِيَهُ السَّاحِرُ﴾ ومناداتهم له بهذا الوصف قد يكون وصفاً له بالعلم والمهارة فلم يكن السحر صفة نقص عندهم هذا ما قاله بعض المفسرين. ولكن الذي نرجحه أنهم إنما نادوه بذلك؛ لأنهم كانوا عازمين على عدم الإيمان في قلوبهم، ونستأنس لهذا بقولهم ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ولو كان إيمانهم صادقاً لقالوا «ربنا». سألوه أن يدعو لهم ربه بما عهد عنده من إجابة الدعوة أن يكشف عنهم الرجس حتى يهتدوا، ولكنهم - وقد كشف عنهم الرجس - نكثوا ولم يؤمنوا.

وتحدثنا الآيات بعد ذلك عن غرور فرعون واعتداده بنفسه، وهو حديث لا نجده إلا في سورة الزخرف، فهاهو ينادي في قومه: أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ذلك أم تبصرونه؟! ثم يبين اعتداده بنفسه وسخريته بموسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ أي ضعيف محتقر - ﴿وَلَا يَكَاذُ يُبِينُ﴾ فهو لا يملك شيئاً من أسباب القوة، وعلامات الملك فضلاً على أنه لا يحسن الإبانة في قوله، ولو كان موسى عليه السلام صادقاً فهلا ألقيت عليه أسورة من ذهب، أو جاءت معه الملائكة مصدقة له؟؟ ولكن شيئاً من ذلك لم يكن فلم نجد شيئاً من

أسباب النعمة ظاهراً عليه، ولم يجيء أحد من الملائكة يصدقه فيما يقول... وهكذا استخفّ فرعون قومه، استخفّ عقولهم؛ فلعب بها، وهذا شأن كل رعية ضعيفة. ومن هنا كان من أهل النار كما أخبر الرسول ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم «الضعيف الذي لا زبر له - أي لا عقل - الذين هم فيكم تبعاً لا يبتغون أهلاً ولا مالاً»<sup>(١)</sup> هكذا كان قوم فرعون وهذا ما يجعل الشعوب تنحدر فتستمرىء الذل، ومرجع ذلك كله: الفسق والخروج عن منهج الله، فلما أغضبوا الله تبارك وتعالى انتقم منهم، وجعلهم قدوة لمن بعدهم من أهل الضلال، كما جعلهم مثلاً يمكن أن يتعظ به الآخرون، هذا ما جاء في سورة الزخرف وهو إن تدبرناه نجده يتسم بالجدّة في جُلّ جزئياته.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَقَالُوا يَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعَىٰ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَرُمُ اللَّيْلُ لِي مَلِكٌ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلِي وَلَا يُكَادُ يُبِينُ فُلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّرِينَ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٦].

١٢- أما في سورة الدخان، فقد جاء الحديث عن فرعون وقومه في سياق الحديث عن قريش وما أصابهم حينما دعا عليهم النبي ﷺ يوم كذبوه ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقد دعا عليهم النبي ﷺ بسنين كسني يوسف؛ فأصابهم القحط والجوع والشدة؛ فكان الواحد منهم حينما ينظر إلى السماء يتوهم انها ممتلئة دخاناً، وهو ما أصابهم من الظلمة في أبصارهم من شدة الجوع حتى كأنهم يرون دخاناً؛ فإن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه ورأى الدنيا مملوءة دخاناً. فدعوا ربهم أن يكشف عنهم العذاب فهم مؤمنون.

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة باب ٦٣ حديث رقم ٢٨٦٥.

ثم بين لهم سبحانه أنه سيكشف عنهم العذاب قليلاً؛ فإنهم عائدون إلى الكفر ولكن هددهم بالبطشة الكبرى وهي ما سيصيبهم يوم بدر، ثم ذكر حديث قوم فرعون بقوله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وبماذا جاءهم هذا الرسول؟ تحدثنا السورة عن الأمور التالية:

١- أن يؤدوا إليه عباد الله؛ ويقصد بهم بني إسرائيل، وكأنه يشير إلى أن أولئك ليسوا عبيداً لهم ليعذبوهم، بل هم عبادُ الله وبأنه رسول أمين يؤتمن على ذلك كله.

وهناك قول آخر للمفسرين: أي أن أدوا إليّ الحقوق التي أمر الله بها يا عباد الله، فعباد الله على القول الأول مفعول به، وعلى هذا القول منادى، وهم على القول الأول بنو إسرائيل، وعلى القول الثاني المخاطبون فرعون وملؤه، وقد يرجح الأول والله أعلم.

٢- أن لا يعلوا على الله؛ لأن الذي يتكبر على الرسول والرسالة يتكبر على المرسل كيف وقد جاءهم بسلطان مبين!.

٣- فهو يعوذ بربه وربهم أن يرحموه ويقتلوه.

٤- فإن لم يريدوا الإيمان به فليعتزلوه وليبعدوا عنه وليخلوه وشأنه.

ولكنهم خالفوه في ذلك كله، فدعا ربه ﴿أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، فهم متبعون من فرعون، وليترك البحر رهواً، أي ساكناً. بعد أن ينجيه الله ويخرج منه من أجل أن يدخله فرعون وجنده فإنهم مغرقون.

ثم يبين الله تبارك وتعالى فخامة ما تركوه من الخير الذي كانوا فيه من بساتين وعيون وقصور وتنعم وقد أورثه غيرهم فذهبوا غير مأسوف عليهم، فلم تبكهم السماء ولا الأرض، فهم منبذون لسوء طباعهم، مقتهم كل شيء في هذا الكون لأن خالق الكون مقتهم من قبل.

ونلاحظ أن ما جاء في سورة الدخان جاء منسجماً تماماً مع الحديث عن أهل مكة؛ فهو يحمل في ثناياه التهديد والوعيد كما يطمئن في ثناياه الرسول ﷺ والمؤمنين.



﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَذْأُ إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكَ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَرَأْسُكُمْ عَلَيْنِي لَآتِيَنَّكُمْ فَتَنَةٌ أَوْ تَكُونُنَّ أَجْزَاءً مِمَّا تُكْرَهُونَ فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ هَتُولَاءَ قَوْمٌ تُجْرَمُونَ فَاسْرِعْ بِبِعَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَ كَانُوا فِيهَا فَتَكِيهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلِيًّا مِنَ الْمُتْسِرِّفِينَ ﴾ [الدخان: ١٧-٣١].

١٣- ثم تأتي سورة الذاريات بلمحة موجزة تتناسب مع ما ذكر فيها من قصص بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَتَوَلَّىٰ وَرَكِبَهُ وَقَالَ سِدْرٌ أَوْ جَحْنُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٣٨-٤٠].

وهكذا تبين السورة الكريمة أن فرعون تولى بركته وقومه، ثم تبين لنا تخبطه وعدم استقراره فيما يقول في موسى عليه السلام، بهذا التردد الذي تدل عليه كلمة (أو) ﴿سِدْرٌ أَوْ جَحْنُونَ﴾ فهو لا يستقر على رأي، ثم تبين لنا أنه أخذ وهو ملِيم، وتلك إشارة في السورة الكريمة لها مغزاها ومدلولها.

١٤- أما سورة المؤمنون، ففيها إشارة ولكن من نوع آخر، فالسورة تبين أن الله أرسل موسى وهارون عليهما السلام بالآيات الواضحات والسلطان المبين إلى فرعون وملئه، ولكنهم استكبروا وكانوا قوماً عالين، ثم تبين السورة الدافع لهذا الاستكبار والعلو فكيف يؤمنون لبشرين مثلهم وقومهما - يعنون بني إسرائيل - لهم عابدون فكيف يؤمنون إذن لمن يعبدهم قومهما فما كان موسى وأخوه عليهما السلام حريئين بهذه الرسالة فكذبوهما فكانوا من المهلكين.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَأَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٨].

١٥ - أما سورة الحاقة، فقد جاء فيها قول الله :

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤَيَّسَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً﴾

[الحاقة: ٩-١٠].

١٦ - ثم تأتي سورة النازعات، وهي آخر سورة يذكر فيه خبر فرعون، وقد قلنا من قبل أن السورة الأخيرة دائماً يأتي الحديث فيها موجزاً مجملأً كل ما تقدمه من حديث مع بعض الإشارات، كما رأينا ذلك في قصص بعض الأنبياء في سورة العنكبوت وقصة موسى - عليه الصلاة والسلام - مع فرعون، تمثل هذه الظاهرة فتفرد بها سورة النازعات دون سورة العنكبوت، فتذكر القصة في سورة النازعات في سياق الحديث عن الذين أنكروا البعث.

﴿هَلْ أَتَاكَ<sup>(١)</sup> حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طَوًى أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخَسِّي فَأَرْبُهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخَشْيُ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

إنَّ كلَّ كلمة في هذه القصة: إنما هي موضوع مستقل بذاته ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى﴾ ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخَسِّي﴾ ثم تأتي الفاءات الدالة على التعقيب تتوسطها (ثم) الدالة على التراخي ﴿فَتَخَسِّي﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾. كأنما القصة سرد سريع ولمحات خاطفة كل كلماتها ذات دلالات إيحائية ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخَشْيُ﴾ ولكل من هذين الحرفين أعني «الفاء» و«ثم» سره البياني، فالتكذيب والعصيان شأن خاص بفرعون وحده. أما قوله ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾ فالمقصود به الذهاب في الأرض للتأليب على موسى عليه السلام، وهذا أمر يحتاج إلى تدبير وتروؤ؛ لذا جاء العطف بـ «ثم».

---

(١) نلاحظ أنَّ السورة بدأت هكذا ﴿هل أتاك﴾ دون حرف عطف كما جاء في سورة طه، وهذا يذكرنا بما جاء في قصة نوح في سورة الأعراف، وهو أنه لا داعي هنا للعطف، لأنه لم يسبق بما ينبغي أن يعطف عليه، فكان الآية بعد الحديث عن منكري البعث جاءت إجابة عن سؤال مقدر، هل لاقى أحد من الأنبياء مثل ما لاقيت؟ فقل: هل أتاك حديث موسى؟

١٧ - أما سورة العنكبوت، فقد ذكرت فيها هذه الآية ﴿وَقَتْرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ  
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَافِقِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

ذلكم هو: الجانب الثالث من الحديث عن موسى في القرآن الكريم، وهو قصته مع  
فرعون، وهو أكثر الجوانب مساحة وحوادث وجزئيات؛ لذلك نجد القرآن الكريم قد بدأ  
به دون غيره، وهكذا كانت النهاية أن أخذ الله فرعون نكال الآخرة والأولى<sup>(٢)</sup>، وهكذا  
بينت الهدف من ذكر ذلك كله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾.

وقد وجدنا كل سورة ذكر فيها هذا الجانب من حياة موسى - عليه الصلاة والسلام -  
كان ذا هدف يتلاءم مع موضوع السورة من جهة، ومع الغرض الذي سبق له من جهة،  
كما كان في كل قصة إبداع فني، ونسق بياني. هذا إلى جانب الصفات الخلقية والنفسية،  
والقضايا الاجتماعية التي تبرز في كل سورة من السور الكريمة بحيث إذا جمعت كلها  
تشكل لنا سلسلة من الحلقات المتصلة بعضها ببعض تكون زاداً ورصيلاً، وثروة لعلماء  
النفس والأخلاق والاجتماع فضلاً على ما يجد فيها الأدباء من تنوع الأساليب وروعيتها،  
ويبقى النصيب الأعظم والأوفر؛ نصيب الدعاة ليجمعوا ذلك كله حتى يكون الهادي لهم  
في مسيرتهم، والنور الساطع لبصيرتهم.

---

(١) تلك هي النهاية في سورة العنكبوت (سورة الدعاة إلى الله)، نهاية أعداء الله، الاستكبار في  
الأرض، ولكن لن يكون منهم سبق أبداً مهما طال الأمد وعلا الزبد. وتلكم نهاية المستكبرين  
جميعاً.

(٢) للمفسرين في معنى (الآخرة والأولى) رأيان: الأول وهو ما أرجحه أن المقصود بهما الداران أي  
سعيه في الآخرة كما أغرقه في الدنيا، والمعنى الآخر عاقبه الله بهاتين الكلمتين. هذه الكلمة  
﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ والكلمة التي قبلها ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمُ مِن إِلَهِ غَيْرِي﴾.

## الجانب الرابع : خبره مع بني إسرائيل :

أما الجانب الرابع من قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - فهو خبره مع بني إسرائيل .

والحديث عن بني إسرائيل في كتاب الله تعالى حديث له جوانب متعددة كذلك ، فقد يكون الحديث عنهم تمهيداً لما سيكلف الله به المسلمين ، فهو يبين ما أنعم به عليهم ، ثم ما قابلوا به النعم من جحود ثم ما استحقوه من عقاب . كل ذلك من أجل أن يكون درساً للمسلمين فيما يكلفون به حتى لا يقعوا فيما وقع فيه بنو إسرائيل .

وقد يكون الحديث عنهم من جانب آخر ؛ وهو ما يضمرون للمسلمين من بغضاء وكان يمكنهم أن يتعايشوا معهم بسلام وأمن وصدق ، ولكنهم أبوا .

وقد يكون الحديث عنهم من جانب ثالث وهو ، ما كان منهم مع موسى - عليه الصلاة والسلام - .

وقصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل جاءت في السور التالية : الأعراف ، طه ، إبراهيم ، البقرة ، الصف ، المائدة . مع إشارات في بعض السور نعرض لها في حينها إن شاء الله ، وسنجد ونحن نعيش مع الآيات الكريمة أن ملاقاته موسى - عليه الصلاة والسلام - من بني إسرائيل من المشقة والعنت والعناد لا يقل بل قد يزيد عما لاقاه من فرعون ؛ لذلك كانت عناية القرآن به ، ولذلك نجد القرآن جعله في المرتبة الثانية بعد الحديث عن فرعون ، ولئن اقتصر الحديث عن فرعون على السور المكية ؛ فإن الحديث عن بني إسرائيل تجاوز ذلك إلى السور المدنية . وهذا بالطبع ما تقتضيه ظروف العبرة من القصة حيث اليهود يعايشون المسلمين هناك ، ونظن أن في قصة موسى عليه الصلاة والسلام ، وفيما تعدد فيها من جوانب ، وفي ترتيب هذه الجوانب بعضها على بعض أمراً جديراً بأن يبحث ويفاد منه ، وموسى - عليه الصلاة والسلام - من أولي العزم ، والحديث عنه فيما لاقاه من عنت وصعوبة لا يكمن في إجماع فرعون وبني إسرائيل على الباطل ومعارضتهم للحق فحسب ، وإنما فيما هو وراء ذلك ، ومن أجل هذا كانت قصة موسى

عليه السلام جديرة بأن تستخلص منها الحكم والعبر للدعاة إلى الله، ففرعون كان يمثل الطاغية البطاش، المغتر بقوته المعزز بجبروته، المستعلي، ولكن بني إسرائيل كانوا على العكس من ذلك يمثلون الجانب الآخر، فهم الذين رضوا بالذل والاستضعاف واستمروا بها وأعطوا الذلة والدنية من أنفسهم، وقبلوا أن يسلبوا كل مقومات الشخصية، وربما مرت معنا إشارات تؤكد هذا الذي قلناه من قبل، كما سنجد ذلك فيما سنقوله من بعد. وهذا ما أدركه موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو يصارعهم ويقارعهم محذراً حيناً، ومذكراً حيناً؛ ولكنه بعد ذلك كله، وبعد هذا الشوط الطويل ذي المراحل القاسية، وفي خاتمة المطاف في آخر عهده بهم، لم يملك إلا أن يقول ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: ٢٥]، يتبرأ منهم وهو يعتذر لربه، فلئن ضاع جهده معهم فعند الله الجزاء الأوفى، وما أحوج المسلمين أن يقفوا مع هذه الدروس ليعرفوا عدوهم على حقيقته.

## ١- سورة الأعراف:

بعد الحديث عن غرق فرعون انتقلت الآيات إلى الحديث عن بني إسرائيل وما من الله عليهم به، وهنا قضية لا بد أن نتنبه إليها؛ لأنها تلقي ضوءاً على ما نحن بصدده، وعلى ما قررناه من قبل، فالآيات التي تحدثت عن فرعون في سورة الأعراف تبتدىء من آية (١٠٣) وتنتهي بآية (١٣٦)، بينما الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل كانت أكثر من ذلك حيث بدأت من آية (١٣٧) واستمرت إلى (١٧١).

بدأت الآيات بقول الله تعالى: ﴿وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَدِّقَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا أَتَىٰ بَلْرُكْنَا فِيهَا﴾ فذكرت أول صفة من صفاتهم، وهي الاستضعاف، ولكن الله تبارك وتعالى خلصهم من نير العبودية فمنعهم ظلم العدو ومنحهم نسمات الحرية ليشكروه، وتمت كلمة ربك الحسنی عليهم؛ بما كانوا يتحلون به من الصبر. ولكن هذا الصبر في حياة كثير من الأمم لا يستقر على مفهومه، بل يخرج عن معناه،

فبدلاً من أن يكون فضيلة تقوى بها النفوس على مقاومة الباطل، فإنه يفهم على غير حقيقته ليصير رذيلة تقبل بها النفوس كل ظلم وباطل، وأصبح هذا المفهوم للصبر في حياة كثير من المسلمين الأساس الذي ينطلقون منه.

ويفاجأ كل ذي لب، فبعد أن يغرق الله فرعون ومن معه ويدمر ما كانوا يصنعون ويعرشون ويجتاز بني إسرائيل البحر إلى البر الآسيوي، يمرون على أقوام - لعلهم من العرب - يعكفون على أصنام لهم، وكان المتوقع - بل المتيقن - من بني إسرائيل أن يطلبوا من موسى - عليه الصلاة والسلام - أن يأذن لهم بمحاربة هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، أو على الأقل أن يرشدوهم ويعظوهم، ولكن لم يكن هذا ولا ذاك، وربما يظن أن القوم تركوهم وشأنهم فلا قتال ولا إرشاد، حتى هذه مع صعوبتها يمكن أن توجد لها الأعذار والمسوغات. ولكن القوم لم يكن منهم شيء من هذا، بل الذي كان منهم لا تتصوره العقول ولا يخطر ببال، هؤلاء الذين رأوا آيتين عظيمتين كانت واحدة منهما كافية لإيمان أبعد الناس عن التوحيد، وهم السحرة من المصريين، كانت الأولى منهما يوم أن ألقى موسى عصاه فألقِيَ السحرة ساجدين ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] وثبتوا على إيمانهم على الرغم من تهديد فرعون بالعذاب وبالقتل والتصليب، مع أنه كان يمكن أن يكون لهم شأن لو لم يؤمنوا إذ لم يكونوا مستضعفين؛ ومن هنا كانت الرسائل دائماً لا يحملها إلا ذوو النفوس القوية.

وأما الآية الثانية، فلقد كانت قرية العهد بهم إذ لم تجف أرجلهم من الماء حينما منّ الله عليهم بالسير في البحر<sup>(١)</sup>، ومع هاتين الآيتين العظيمتين، فإنهم لما رأوا عباد الأصنام قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

---

(١) يروى أن يهودياً قال لسيدنا علي اختلقتم بعد موت نبيكم قبل أن يجف ماؤه فقال له سيدنا علي: خالفتكم نبيكم وتركتم دينه قبل أن تجف أقدامكم.

لا أود أن أقارن بين هذه النفوس التي يشهد واقعها بأن التوحيد لم يكن متغلغلاً فيها، ولم يكن مستقراً كذلك على الرغم من طول الأمد، وبين أولئك الذين استقر التوحيد في قلوبهم لمجرد إيمانهم به، فكانوا حرباً على الباطل والوثنية أينما كانت، وما أعظم الفرق بين هؤلاء الذين قالوا ما قالوا ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وبين أولئك الذين قالوا لفرعون وقد هددهم وتوعدهم ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِنَّ مِنَ السَّحَرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعراف: ٧٣].

وماذا عساه أن يقول لهم بعد الذي رأوا من الآيات؟ لقد بكتهم وأنكر عليهم، ولكن ذلك كله لم يكن ليردعهم، لقد سمعوا موسى عليه السلام يدعو إلى توحيد الله ومع ذلك يريدون منه أن يعينهم على الشرك مع أنه كان يتوقع منهم أن يطالبوه ويستأذنه بتحطيم هذه الأصنام، ما أعظمه من جهل! لهذا يقول موسى عليه الصلاة والسلام ﴿إِنكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾، ثم إذا كانوا يريدون أن يكونوا مثل هؤلاء فكان من الممكن أن يستمروا مع فرعون، وكما أغرق فرعون وتبر ما هو فيه ودُمّر، وبطل عمله فإن أولئك كذلك. هكذا يقول موسى لبني إسرائيل ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ثم ينكر عليهم ويستهجن مقالاتهم وفي هذا الأسلوب كذلك إنكار أن يكون غير الله إلهاً، ﴿قَالَ أَعِيزَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ الذين تعايشونهم في زمانكم بما خصكم به من النبوة، ثم يذكرهم بالنعمة الكبرى، وهي إنجاء الله لهم من آل فرعون، وكانوا يريدون لهم أشد العذاب وأنكاه تذيبحاً للأبناء، وإذلالاً للنساء، وفي ذلك بلاء ما مثله بلاء! ولكن ترى هل ارعوى بنو إسرائيل وأتابوا؟ هل استسلموا وتابوا؟؟ اللهم: لا!!.

وهذه صنعة أخرى لا تقل عن سابقتها سوءاً يحدثنا القرآن الكريم: أن الله قد وعد موسى عليه السلام أن يعطيه التوراة فيها التشريع لبني إسرائيل بعد إغراق فرعون، ووعد الله موسى عليه السلام ثلاثين ليلة ولكنه زادها عشراً فتم ميقات ربه أربعين ليلة

وترك موسى عليه السلام أخاه هارون عليه السلام في بني إسرائيل، وهو يدرك ما سيحدث منهم من إفساد وتخريب، وتعكير صفو، وإفساد جو، مع أنه قد ذهب ليأتيهم بما فيه عزهم ومجدهم، وأين هؤلاء من الذين كانوا إذا عرفوا الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ سكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، فرحين مؤملين.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا ياجرير المجامع  
وما أشد حاجتنا إلى أن يقتدي الأبناء بالآباء! يخرج موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو يحدث نفسه بما يمكن أن يُحدثه قومه من بعده، يدلنا على ذلك تلك الكلمات التي قالها لأخيه هارون ﴿أَخْلَقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ إنها كلمات تحمل ما تحمل من هموم موسى مما لا حاجة لأن نعلق عليه.

تحدثنا الآيات بعد ذلك أن موسى جاء للميقات وكلمه ربه، وقال رب أرني أنظر إليك، وكان ما كان حينما تجلى ربه للجبل فجعله دكاً، وخر موسى صعقاً، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين. ويصطفيه الله تبارك وتعالى برسالاته وكلامه فليأخذ ما آتاه الله بقوة وليشكر الله على نعمه، ويكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لما يحتاجون إليه، فليأخذها بقوة وليأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها. وهنا يحدثنا الله في كتابه عما سيكون من بني إسرائيل مقابل هذه النعم وهذا الفضل الإلهي ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ - وهو تهديد يتوعدهم به إن لم تعملوا بما في الألواح وتنفذوه - فسأجازيكم منتقماً وأريكم دار الفاسقين<sup>(١)</sup> فالإراءة ليس المقصود بها التفرج والنظر، وإنما المقصود بها العذاب والنكال!

ثم تذكر الآيات الكريمة بعض صفات أولئك، فأولاً: أن آيات الله تبارك وتعالى ليس جديراً بها الذين يتكبرون بها في الأرض بغير الحق، بل إن الله سيصرف عنهم هذه الآيات ويمنعهم من نورها وبركتها، هؤلاء الذين يتكبرون على الحق وقد كانوا مستضعفين للباطل، هذا أولاً.

---

(١) وهذا كما يقول الأب لابنه مثلاً سأريك مكان الكسالى وكما يقول الناصح لقومه سأريك نتيجة المتفرقين وبيوت المتخاذلين.



وأما ثانياً: فعلى الرغم من عظم الآيات إلا أنها لا تؤثر فيهم ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، وماذا يريدون أكثر من أن أصبح البحر ييساً بعد أن رأوا من إيمان السحرة حينما ألقى موسى عصاه؟ إنه فساد في الطبع، إذن هو الذي حملهم على أن يكون الانحراف ديدنهم، وعلى أن تكون طبائعهم غير منسجمة مع الحق.

إن الدافع لذلك كله تأرجح العقيدة وعدم ثباتها، كل ذلك تبينه الآية الكريمة، وهي تشرح لنا طبيعتهم التي ينبيء الله بها موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ؟﴾ [الأعراف: ١٤٦-١٤٧].

ومن هذه القاعدة، ومن هذا الوصف تبدأ الآيات الكريمة تفصل لنا ما كان من أولئك، وكل فعلة تفوق ما قبلها شناعة وتعظمها انحرافاً وعتوّاً! فماذا كان منهم بعد ذلك كله؟ كان منهم ما حدثنا عنه القرآن، وهو أنه بعد أن ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه، والمدة التي تركهم فيها لم يطل عليها الأمد، ولكنهم مع ذلك اتخذوا من بعده من الحلبي التي كانت معهم والتي هي للمصريين في الأصل جمعوها واتخذوا منها عَجَلًا جسدًا له خوار: أي صوت يشبه صوت البقر، وهل ذلك الخوار كان على سبيل الحقيقة أم كان بسبب حذق في الصنعة؟ ذلك ما ستحدث عنه في موضعه من سورة طه إن شاء الله.

هاهم القوم الذين عاينوا آيات الله وشاهدوها يتخذون لهم إلهًا ونبههم بين أظهرهم وخليفته وأخوه وهو نبي كذلك ينههم، ولكن النفوس حينما تنحرف فإنها يسهل عليها أن تتلاعب بالحقائق. لقد أخبرهم موسى عليه السلام أنه سيغيب عنهم أربعين ليلة فماذا فعلوا؟؟ قسموا اليوم قسمين: جعلوا نهاره قسماً، وليله قسماً آخر، وبهذه الطريقة استطاعوا أن يتلاعبوا بالعدد، فلما مضى عشرون يوماً قالوا: هذه عشرون ليلة خلت ومثلها عشرون نهاراً فتلك أربعون! إذن لم يأت موسى عليه السلام<sup>(١)</sup>.

(١) وهناك رأي آخر سيمرّ قريباً في سورة طه.

إن هذا الأسلوب الذي بدأه بنو إسرائيل في عهد موسى - عليه الصلاة والسلام - نجده اليوم يظهر في أشكال متعددة. إن التلاعب بالحقائق الدينية هو شر من إنكارها، ولا يقل خطراً عن هذا الإنكار. اتخذ قوم موسى عليه السلام هذا العجل محاولين أن يقنعوا أنفسهم بهذا الخوار الذي يسمعون، ولكن أي شيء في الخوار حتى لو كان حقيقياً؟! ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً؟! إذن كيف يمكن أن يتخذوه إلهاً وقد امتن الله عليهم فخصّ موسى بالتكليم؟! وهذا العجل ليس من شأنه أن يُكلم. ومن باب أولى لا يستطيع الهداية، ومع ذلك عبده فأَيّ ظلم أعظم من فعلتهم؟! وصدق الله: ﴿أَتَّخِذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

وهنا يجب أن نتعلم من القرآن فلقد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل حينما قالوا اجعل لنا إلهاً، وحينما عبدوا العجل وصفهم الله بالظلم.

وكل من الجهل والظلم من شرّ الصفات في الأفراد والجماعات. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ وهو تعبير قرآني رائع جديد، لما اشتد ندمهم وحسرتهم عضوا أيديهم نداماً على ما فرط منهم فأسقطوا أفواههم في هذه الأيدي، ورأوا ما هم فيه وتيقنوا من ضلالهم وقالوا - لا رجوعاً إلى الحق بل خوفاً من العذاب - ﴿لَئِنْ لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

أما موسى - عليه الصلاة والسلام - فلما رجع إليهم غضبان أسفاً، شديد الغضب على ما كان منهم وعلى ما فعلوه بعده، أنكر عليهم أشد الإنكار.

لقد وجد موسى عليه السلام من قوم فرعون من آمن به ودعا قومه للإيمان به كذلك - كما عرفنا ذلك من قبل - فما بال أولئك؟! أنكر عليهم موسى عليه السلام بقوله ﴿يَسْمَا خَلَقْتُنِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتَنِي﴾ جاء ومعه الألواح التي فيها خيرهم وهداهم.

وتصور لنا الآيات هذا الغضب والتأثر والغيظ والألم الذي لحق بموسى - عليه الصلاة والسلام -، ألقي الألواح على الأرض! ولعلنا نتصور كيف كان هذا الإلقاء بعنف من

الحديث الذي حدثنا القرآن، حيث أخذ موسى عليه السلام رأس أخيه يجره إليه، وهو النبي، وهو الذي طلب من ربه أن يرسل معه أخاه إلى فرعون، ولكنه هنا يأخذ برأسه بعنف وقوة وشدة يلومه ويعنفه على هذا الذي كان، وهارون عليه السلام هذا الذي شهد له موسى عليه السلام من قبل بما شهد، بما يؤهله لأن يكون وزيراً ونبياً مثله. يقول هارون عليه السلام لأخيه -وقد رأى منه ما رأى- يتودد إليه ويتحجب ويتلطف ويتقرب بكونه أخاه ابن أمه المؤمنة الصادقة التي تحملت ما تحملت، وهو يحدثه عن صفات أولئك القوم الذين جبلوا على الاستعباد، ولكنهم اليوم وقد آنسوا من أنفسهم حرية ما لا بد أن يستضعفوا غيرهم، وتلك علة الضعفاء المستعبدين دائماً لا يعتدل مزاجهم؛ فهم لا يستمرئون إلا الظلم، فإن لم يجدوا أحداً يظلمهم فليظلموا هم من يجدون، بهذا أوحى كلمات هارون عليه السلام، وهو ما حدثنا عنه القرآن الكريم ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ فحري بك يا موسى أن لا تشمتهم بي؛ لأنهم يحبون أن يستعينوا بكل منا على الآخر حتى يخلو لهم الميدان، ويتم لهم الأمر، وهكذا الباطل دائماً وأهله يجدون بغيتهم وضالتهم في تمزيق أهل الحق، وتصديق بنيانه وهدم أركانه. يقول هارون لموسى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِكَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأنا لست منهم، وهنا يرق موسى عليه السلام ويلين قلبه، وكذلك شأن المؤمنين فضلاً على أن يكونوا رسلاً؛ فيسأل ربه أن يغفر له ولأخيه ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾. وهو لا يذكر أحداً بعد ذلك، وهذا يدلنا على أبعاد نفسية منه - عليه الصلاة والسلام - تتمثل في يأسه من بني إسرائيل، ويدلنا على ما تحمله ولاقاه منهم، ﴿وَأَدْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

أما الذين اتخذوا العجل فسينالهم الغضب والذلة في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وتلك سنة الله لأولئك المفترين على الحق، أما من عملوا السيئات ثم تابوا وآمنوا، فإن ربك من بعدها لغفور رحيم. ويسكت عن موسى عليه السلام الغضب - وهو تعبير قرآني

فيه روعة التصوير وعظمة الإبداع - ويأخذ الألواح التي ألقاها بشدة وعنف من قبل ﴿وَفِي نُصْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] ولكن لمن؟ هنا سر قرآني رائع لم يقل القرآن هدى ورحمة لقومك يا موسى - كما وجدنا ذلك التعبير من قبل لبني إسرائيل - قبل أن يكون منهم ما كان - ولكن ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

ثم يختار موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلاً ليستغفروا الله عما فرط من قومهم<sup>(١)</sup> وتأخذهم الرحمة ويحزن موسى عليه السلام على ذلك ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ وهو حزن القائد على من يمكن أن يكون معه من خيرة قومه ممن يعول عليهم ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْأَسْفَهَاءُ مِنَّا﴾ فما هو إلا ابتلاؤك واختبارك يارب تفضل به من تشاء وتهدي من تشاء، ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾، واكتب لنا حسنة في الدنيا والآخرة فإننا تبنا إليك، ويقول الله: ﴿عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ﴾ وهذا مع تحقق أن الله لا يظلم أحداً، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة، وهذا تعريض ببني إسرائيل؛ لأن ما فرط منهم من أعمال كان بعيداً كل البعد عن مفهوم التقوى، وفيه كذلك إشارة إلى ما جبلوا عليه من البخل، وهذا ما أشارت إليه الآيات في غير هذا الموضع.

ثم بينت الآيات بعد ذلك أن هذه الرحمة ستكتب لأولئك الذين اجتمعت فيهم هذه الصفات ولمن يجيء بعدهم ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي الْوَرْدَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) هذا ما يراه بعض المفسرين، ويرى بعضهم أن هذا كان قبل اتخاذ العجل حينما جعل الله الجبل دكاً وخر موسى صعقاً.

(٢) يفترى الخوري حداد مدعياً أن هذه الآية مزيدة وليس محلها هنا وقد رددنا عليه في كتابنا «قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية».

ثم - وفي هذا السياق بالذات - يتوجه الخطاب إلى سيدنا رسول الله ﷺ ليعلن رسالته للناس جميعاً، وهذا له مغزاه في سياق الحديث عن بني إسرائيل وعمالقه موسى عليهم السلام منهم، له دلالاته ذات الجوانب المتعددة، فمع ما فيه من عموم رسالة النبي ﷺ فهو يبين للمسلمين عظم المسؤولية، وثقل الأمانة وضخامة الأمر الذي حملوه وهو مع هذا وذاك نعي على بني إسرائيل، وتسجيل عليهم عدم إيمانهم بالرسالتين: الرسالة الخاصة بهم، والرسالة العامة؛ رسالة موسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام -، وهورابعاً: تسلية للنبي ﷺ لما سيراه من أولئك الذين لم يؤمنوا بنبيهم، فلا يعجب مما يلاقه منهم.

وبعد هذا الإعلان العام ﴿قُلْ يَتَّابِعْهَا النَّاسُ إِيَّايَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بعد هذا يعود السياق لبني إسرائيل لينصفهم القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ولكن هؤلاء الذين يهدون بالحق قلة إذا قيسوا بغيرهم كثرة وجمعاً.

ثم تبين الآيات الكريمة ما جبلوا عليه من الحسد والنصرة العرقية الضيقة الممقوته، هذه النعمة العرقية الضيقة الممقوته هي الأساس للنظرة المعوجة والسلوك السيء الذي يظهر من تصرفاتهم، فلقد قطعهم الله اثنتي عشرة فرقة أسباطاً أمماً، وهذا هو عدد أولاد يعقوب - عليه الصلاة والسلام -، ولما كانوا في الصحراء القاحلة الحارة حيث لا ماء ولا ظل ولا شجر بعد أن نجاهم الله من فرعون، استسقى القوم موسى عليه الصلاة والسلام، فأوحى الله إليه حين ذلك أن يضرب بعصاه الحجر فتنبجس منه اثنتا عشرة عينا يعرف كل أناس عندهم الخاصة بهم، ولا نطن أن هناك سبيلا للمقارنة بين هؤلاء وبين أولئك الصفوة المختارة الذين وضعوا كل ما من الله عليهم به في سبيل الله، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إِذَا قِيلَ هَذَا السَّيْفُ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا  
يعرف كل أناس مشربهم، وكان يمكن أن تكفيهم عين واحدة، ولكنه القرآن يلقي لنا  
الظلال، ويبين من الإشارات ما هو حري بالوقوف عنده والإمعان فيه، وستزيد هذا  
إيضاحاً فيما بعد إن شاء الله. وبعد أن تحل مشكلة الماء تحل المشكلات الأخر فمن  
أجل أن لا يؤذيه الحر يظل الله عليهم الغمام، وكذلك ينزل عليهم المن<sup>(١)</sup> والسلوى  
ليكونا عنصراً غذائياً تاماً لهم، تلك الطيبات التي رزقهم الله، ولكن مع ذلك يبين القرآن  
أنهم لم يشكروا هذه النعم الكثيرة مما كان سبباً في ضياعها ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا  
أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ثم تنتقل بنا الآيات إلى مشهد آخر وهو أنهم طبعوا على المخالفة، لا من حيث  
الأعمال فحسب، بل من حيث القول كذلك، فقد أمروا أن يدخلوا القرية ليأكلوا منها  
ويدخلوا الباب سُجَّداً، وأن يقولوا كلمات أمروا بقولها ﴿حِطَّةٌ﴾ ولكنهم بدّلوا القول  
والفعل معاً؛ فاستحقوا العذاب بسبب الفسق والظلم.

ثم تتحدث الآيات عن تلاعبهم في دين الله، فلقد كانوا في قرية قريبة من البحر تأتيهم  
الحياتان يوم السبت شرعاً؛ لأنه كان محرماً عليهم الاصطياد يوم السبت والله الذي خلق  
فسوى، وقدر فهدى جعل السمك يلهم هذه الحقيقة وهي عدم اصطياده يوم السبت فكان  
يأتي السواحل القريبة منهم، وفي بقية أيام الأسبوع ما كان السمك ليقدّم على هذه  
الخطوة كل ذلك كان ابتلاء من الله ليختبر دينهم، ولكنهم عدوا في السبت وبدؤوا  
يصطادون فيه، ولم يؤثر فيهم وعظ الواعظين، فأخذ الله الذين ظلموا بعذاب بئس،  
وأنجى الناهين عن السوء ﴿فَلَمَّا عَتَا عَمَّا نَهَوْا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ لما  
تمادوا في غيهم قال الله لهم كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، ومن أجل هذا تأذن ربهم سبحانه أن  
يبعث عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب.

(١) المن: نوع من الحلوى ينزل على الشجر.

السلوى: الطائر يشبه السُّمَن.

أما ما لهم اليوم من دولة، فإن ذلك إنما هو ابتلاء للمسلمين ليدركوا سنة الله في عقابهم حينما يعرضون عن الحق ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقطعهم في الأرض أمماً كل هذا لأنهم أخلدوا إلى الأرض، وأخذوا العرض الأدنى مدعين أنه سيُغفر لهم، زاعمين أنهم شعبُ الله المختار، أما الذين يمسكون بالكتاب وقيمون الصلاة فأولئك هم المصلحون الذين لن يضيع الله أجرهم.

وأخيراً تذكر السورة الكريمة ما تختتم به الحديث عنهم، وهو أن تدينهم لم يكن مبدأ تفاعل معه قلوبهم، وإنما كان خوفاً، وحينما يكون الالتزام بالمبدأ خوفاً من العقاب فقط فإنه سرعان ما يتحول إلى مخالفات، وهذا ما نراه من نظرة الكثيرين إلى القوانين الوضعية، فلقد نتق الله الجبل فوقهم - أي رفعه - كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم، وقيل لهم إن خرجتم عن الحق فسيقع هذا الجبل عليكم، فكان تمسكهم بالحق نتيجة لهذا الخوف، ومثل هذا التدين لا يغني عن صاحبه شيئاً.

هذا ما ذكرته سورة الأعراف عن بني إسرائيل، وهو - كما رأينا - متعدد الجوانب، له أبعاده الكثيرة المختلفة، وثمراته التي يمكن أن يجنيها المسلمون إن كانوا جادين.

﴿وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ بِشَرْكِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَكْرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالِ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ مَلَأِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَبِّلُونَ أَبْنَاءَكَ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكَ عَظِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّقَتْ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالِ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ

اسْتَفَرَّ مَكَانَهُ فَسَوَّفَ رَيْنِيَّ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَوْعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ  
 سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي  
 وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً  
 وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ  
 آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلاًَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَيْلًا  
 أَرْتَدُّوا لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَيْلًا أَلْفَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا  
 عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا  
 يَعْمَلُونَ وَأَخْذَ قَوْمٍ مُّوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا  
 يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا  
 لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَنَ  
 أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ  
 ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا  
 الْعِجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا  
 السَّيِّئَاتِ ثُمَّ نَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَنْفُورٌ رَّحِيمٌ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى  
 الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ وَأَخْبَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ  
 رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُوْكَ بِمَا فَعَلَ  
 السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ  
 الْغَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هَذَاكَ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن  
 أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ  
 بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ  
 وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ  
 الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ



وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ  
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ فَآمِنُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ ۚ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَمِن  
قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ  
مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ ۚ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۚ قَدْ  
عَلِمَ كُلُّ أَنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ ۚ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوىٰ كُلُوا مِن  
طَلَبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ  
اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ  
لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ ۖ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ  
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ۖ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ وَسَأَلْتَهُم عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي  
كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا  
وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۖ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۚ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ  
قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعِدَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ۚ وَلَعَلَّكُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا  
بِهِ أَجْبَأَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا  
عَنْ مَا أَنُوهَا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُكْبُكَ لِبَعَثَنَّا عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن  
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا  
مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَخَلَفَ مِنْ  
بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَذَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي  
يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِّثْلُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللِّدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّ الَّذِينَ  
يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ۖ وَإِذْ  
نَنفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

[الأعراف: ١٣٧-١٧١].

## ٢- ثم تأتي سورة طه :

ف نجد الآيات فيها وبعد الحديث عن فرعون وإغراقه تتجه الآيات لخطاب بني إسرائيل، ومن روعة التنزيل التي تأخذ بالألباب دقة وموضوعية، أن الآيات في سورة «طه» بدأت من مرحلة بعد التي تحدثت عنها سورة الأعراف، فقد مر معنا أن سورة الأعراف بعد الحديث عن فرعون ذكرت لنا ما كان من بني إسرائيل بعد أن جاوز الله بهم البحر، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، لكن الحديث في سورة طه يتجاوز هذه المرحلة؛ إذ يبدأ مذكراً بني إسرائيل بهذه النعم الثلاث الكبرى: نعمة الإنجاء من العدو، ثم نعمة الهداية، وهي من أهم النعم المعنوية، ثم النعمة المادية التي تصح بها الأبدان.

بهذه النعم الثلاث بدأ الحديث في سورة طه ﴿يَنْبِئُ إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلَّوْا مِنْ طَبَئِ مَارِزَقْنَاكُمْ﴾، ولكن الله العليم بأسرار النفوس يعلم ما سيكون منهم من طغيان؛ فيحذرهم، وكان حرياً بهم أن يشكروا النعمة ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ونلمح من الآية الكريمة فظاعة ما سيقترفه بنو إسرائيل، نلمح ذلك من الكلمة الأولى ﴿غفار﴾ فهي صيغة نلمح منها - كما قلت - فظاعة الذنوب وكثرتها، لأن صيغة غفار تدلنا على كثرة المغفرة، وذلك إنما يكون لكثير من الذنوب، وما أجمل كلمة ﴿ثم﴾ في الآية الكريمة! ﴿ثم اهتدى﴾ فهي تدل على إمهال الله لهم ليراجعوا عقولهم وتاريخهم ومنن الله عليهم.

ثم تنتقل الآيات إلى ما كان بين موسى عليه السلام وبين ربه تبارك وتعالى، ونلاحظ هنا أنها تطوي ما ذكر في سورة الأعراف؛ لأنه قد عرف من قبل، وفي ذلك أعظم دليل على ما نقصد إليه من عدم وجود التكرار في القرآن، وهو دليل على عظمة هذا القرآن وإعجازه ودليل تنزيله من لدن حكيم خبير، فلقد ذكرت سورة الأعراف مواعدة الله لموسى عليه السلام، وتحديد زمن هذه المواعدة، وما يتصل به من وصية

موسى عليه السلام لأخيه هارون عليه السلام أن يخلفه في قومه، وما كان بعد ذلك من حديث مر معنا من قبل. كثير من ذلك قد طوي من هذه السورة - سورة طه - وجاءت بشيء جديد، وهو قول الله تعالى ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾. كان قد سبق قومه شوقاً لمناجاة ربه - وكان حرياً بالكليم أن لا يعجل - ويوجب موسى - عليه الصلاة والسلام - معذراً معللاً عجلته بأنهم أولاء على أثره ليس بينه وبينهم مسافة شاسعة ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.

وهنا لا نجد الفصول التي ذكرت في سورة الأعراف كذلك، وإنما نقرأ قول الله ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ ولم يذكر السامري - كما رأينا - في سورة الأعراف. ويرجع موسى عليه السلام إلى قومه غضبان أسفاً، منكراً على قومه ما كان منهم ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفاً قَالَ يَقْوِمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَبًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾. وإذا قارنا هذا القول بما ذكر في سورة الأعراف نجده شيئاً آخر، فلقد قال لهم في سورة الأعراف ﴿يَسَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾. ولكنه هنا فصل في إنكاره عليهم راداً كل ما يمكن أن يتعللوا به، ويجيبونه بقولهم: - وهذا ما لم نجده في سورة الأعراف كذلك ولكنه ذكر هنا لأول مرة - ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أي ما أخلفناه بإرادتنا واختيارنا، يقال إن نساء بني إسرائيل كن قد استعرن من المصريات حليهن وخرجن به بعد أن أنجاهن الله، وبقي معهن، فما كان من السامري إلا أن طلبه متعللاً بأنه سيصنع العجل الذي قال عنه هذا إلهكم وإله موسى.

وتتحدث الآيات مفصلة في شأن العجل الذي كان الحديث عنه مجملًا في سورة الأعراف ﴿فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْفَى السَّامِرِيُّ﴾ فصنع لهم من هذه الزينة عجلاً جسداً له خوار فقالوا حينما رأوه كذلك ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾. وفي هذا أعظم دلالة على ضعف العقيدة بل زوالها من نفوسهم، وانعدام نورها، فكيف يصح في عقل عاقل أن

يجعلوا العجل إلها لهم ولموسى عليه السلام كذلك، وأن يبادروا فيصفوا موسى عليه السلام بالنسيان؟! والقرآن يصور ذلك بلمحات سريعة خاطفة معبرة، فذكر منها هذه الواو - واو الجماعة - ﴿فَقَالُوا﴾ فلم يصدر هذا القول إذن عن السامري وحده، وإنما اشتركوا فيه جميعاً. ثم هذه «الفاء» ﴿فَنَسِيَ﴾، كأنهم أرادوا أن يثبتوا ذلك دون تمهل وتريث. ولا بأس أن نذكر هنا أن خوار العجل يذهب فيه العلماء مذهبين:

منهم: من يفسره على الحقيقة، فيرى أنه خوار حقيقي اكتسبه السامري بالقبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل - عليه الصلاة والسلام -، وكان من خاصيتها أنها لا تمس شيئاً إلا ويوجد الله فيه الحياة.

ويذهب فريق آخر إلى أن ذلك لم يكن على الحقيقة، وإنما كان ذلك بسبب مهارة السامري، فلقد وضع أنابيب في داخل هذا العجل الذي صاغه من حلي بحيث يدخلها الهواء فيحدث صوتاً كأنه الخوار.

وعلى الرغم من أن القول الأول: ذهب إليه كثير من المفسرين إلا أننا لا نجد دليلاً قاطعاً مُطْمَئِنِّناً يلزمنا أن نأخذ به ونصدق، وسأزيد هذا إيضاحاً بعد قليل إن شاء الله.

ثم يقول القرآن بعد ذلك مبكّثاً لهم وناعياً عليهم ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ كذلك، أي إن هذا العجل سيظل عجلاً، فلن يرقى إلى رتبة الإنسان، ويظهر أن عبادة العجل قد اقتبسوها عن المصريين.

ثم تحدثنا الآيات عما قاله لهم هارون عليه السلام من قبل، وهذا القول لم يذكر في سورة الأعراف. فلقد حذرهم هارون - عليه السلام - قائلاً: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ - أي بهذا العجل<sup>(١)</sup> ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ وما أجمل موقع هذه الكلمة: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الذي شملكم بأنواع من الرحمة، رحمكم من استضعاف فرعون، وتوالت عليكم رحماته،

---

(١) أو بالسامري.

فما أجدركم أن تتبعوني وتطيعوا أمري، ولكنهم أجابوه مصرّين على عنادهم غير متراجعين عن غيهم. ويصور القرآن الكريم لنا هذه النفسية المستغرقة في الباطل بما تحمله الكلمات القرآنية ﴿لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَدِيْفَيْنَ﴾ فانظر إلى موقع هذه الكلمة ﴿لَنْ﴾ وما بعدها. هكذا سيظلون في غيهم سادرين حتى يرجع إليهم موسى عليه السلام - كما يقولون - وما أبدع النمط القرآني في تصوير الأحداث، لقد حدثنا عن رجوع موسى عليه السلام من قبل، ولكنه انتقل للحديث عن بني إسرائيل وما كان بينهم وبين هارون عليه السلام، ولهذا يطوي القرآن قضية رجوع موسى هنا ليحدثنا عما كان بينه وبين هارون عليه السلام. ولقد كان الحديث مرتباً في سورة الأعراف على غير هذا النسق؛ لأن سورة الأعراف لم تذكر لنا تلك المحاورة بين هارون عليه السلام وبين بني إسرائيل ولا التي كانت بينهم وبين موسى عليه السلام كقولهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾. ولكن سورة الأعراف صورت ما كان من موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام حين أخذ برأسه يجره إليه، أما هنا فلقد حدثنا عما قاله موسى لهارون عليه السلام.

وهكذا تذكر كل سورة جانباً فجلاً الله الذي نزل هذا القرآن ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦] ﴿وَقَدْ آتَيْنَا فِرْعَانَ الْقُرْآنَ عَلَى الْتَاسِ عَلَى مَكْرٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وهكذا ذكرت سورة الأعراف عنف موسى عليه السلام مع أخيه، ذكرت لنا الجانب العملي. أما سورة «طه» فلقد ذكرت الجانب القولي ﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا إِلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ويوجب هارون عليه السلام معتذراً معللاً عدم اتباعه لأخيه ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾. وهذا الأخذ: ذكرت سورة الأعراف جانباً منه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾. وذكر هناك بأن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه، وقد مر معنا ذلك من قبل فلا حاجة لإعادته. أما هنا فيعجل هارون ما كان منه يقول ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ هذا الذي منعه من أن يلحق بأخيه؛ لأنه حينما يلحق به سيكون معه قوم من بني إسرائيل ويتركه آخرون فخشي ما يمكن أن يقوله

له موسى - عليه الصلاة والسلام -، وتكتفي السورة بهذا الجانب؛ لأن سورة الأعراف تكفلت بما كان من موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، وقد قبل عذره، وسأل الله أن يغفر له ولأخيه.

ثم تنتقل الآيات إلى مشهد آخر لم يذكر كذلك في سورة الأعراف ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرُ﴾، ويجيب السامري بأنه بصر بما لم يبصر به القوم، فقبض قبضة من أثر الرسول فنبذها، وكذلك سولت له نفسه وأملت له.

ونذكر هنا أن العلماء اختلفوا في تأويل هذه الكلمة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾.

فذهب الأكثرون: إلى أن الرسول هنا جبريل - عليه السلام -، والقبضة التي قبضها، إنما قبضها من أثر حافر فرسه، وقد رآه. وهذه القبضة كانت لا تمس شيئاً إلا ويحدث الله فيه الحياة - كما قلت من قبل -.

وذهبت طائفة إلى أن الرسول هنا هو موسى - عليه الصلاة والسلام - وقوله ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أي: أخذت شيئاً من تعاليم موسى عليه السلام وهديه، ولكنني نبذته بعد ذلك مرتداً، وكذلك سولت له نفسه. والنفس أمارة بالسوء ويقول موسى - عليه الصلاة والسلام - للسامري إذا كنت كذلك فاذهب ولا بد أن تلاقي عقابك، وجزائك العاجل والآجل.

أما العاجل في هذه الدنيا فهي أنك ستكون وحدك لا يقربك أحد من الناس، ولا تحتمل أن يمسك أحد؛ لأن ذلك سيؤذيك. وأما الآجل في الآخرة فلك موعد لن تخلفه. أما هذا العجل الذي فتنت به بني إسرائيل الذي عكفت عليه وعكف عليه بنو إسرائيل معك فلنحطمته ولنسفته في اليم.

وكما أن سورة الأعراف عقت على قصة بني إسرائيل بإثبات الوجدانية والربوبية لله وحده إذ جاء عقبها ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ فإن هذه السورة كذلك عقت على قصة بني إسرائيل بهذا المعنى،

ولكن بأسلوب آخر وذلك تعقيب بديع، بل هو آية من آيات النظم والموضوعية كذلك ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.

تلكم هي قصة بني إسرائيل في سورة طه، ومع تشابه الموضوع بينها وبين سورة الأعراف فهل تجدون تكراراً؟! إن لكل زاويتها الخاصة التي تناولت منها هذا الموضوع، وفي كل من الأسرار النفسية والبيانية واللفات الاجتماعية، ما يطمئن له القلب، وتستريح إليه النفس.

﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أٰمٰنٰكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدَنٰكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْاٰمِنَ وَنَزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلٰوٰى كُلَّوْا مِنْ طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيْهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيْ وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِيْ فَقَدْ هَوٰى وَاِىَّ لَفَقَارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صٰلِحًا ثُمَّ اٰهْتَدٰى﴾ وَمَا اَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يٰمُوسٰى قَالَ هُمْ اَوْلَآءٌ عَلٰى اٰثَرِى وَعَجِلْتُ اِلَيْكَ رَبِّ لِرِضٰى قَالَ فَاِنَا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَاَضَلَّهُمُ السَّمٰرِىُّ فَرَجَعَ مُوسٰى اِلٰى قَوْمِهِ غَضَبًا اَسْفًا قَالَ يَقُوْمُ اَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا اَفَطَالَ عَلَيْكُمْ اَلْعَهْدُ اَمْ اَرَدْتُمْ اَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَاَخْلَقْتُمْ مَّوْعِدِىْ قَالُوْا مَا اَخْلَقْنَا مَّوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلٰكِنَّا حُمِلْنَا اَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقُومِ فَقَدْ فْتَنَّا فَكَذٰلِكَ اَلْقٰى السَّمٰرِىُّ فَاَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ فَقَالُوْا هٰذَا اِلٰهُكُمُ وَاِلٰهُ مُوسٰى فَنَسٰى اَفَلَا يَرْوٰى اَلَّا يَرْجِعَ اِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هٰرُونُ مِنْ قَبْلِ يٰقُومِ اِنَّمَا فَتِنَتْكُمْ بِهِؕ وَاِنْ رَبُّكُمْ الرَّحْمٰنُ فَالْبُعُوْنِىْ وَاَطِيعُوْا اَمْرِىْ قَالُوْا لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عٰكِفِيْنَ حَتّٰى يَرْجِعَ اِلَيْنَا مُوسٰى قَالَ يَهْدُرُوْنَ مَا مَنَّكَ اِذْ رَاَيْتَهُمْ صَلُّوْٓا اَلَّا تَتَّبِعَنِ اَفْعَصَيْتْ اَمْرِىْ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَاْخُذْ بِلِحٰجَتِىْ وَلَا بِرَأْسِىْ اِنِّىْ خَشِيْتُ اَنْ تَقُوْلَ فَرَقْتُ بَيْنَ بَنِيْٓ اِسْرَءِيْلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِىْ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يٰسَمِرِىُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوْا بِهِؕ فَقَبَضْتُ قَبْضَكَ فَمِنْ اَثَرِ الرَّسُوْلِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِىْ نَفْسِىْ فَاذْهَبْ فَاِنَّ لَكَ فِى الْحَيٰوةِ اَنْ تَقُوْلَ لَا مَسَاسَ وَاِنَّ لَكَ مَّوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُؕ وَاَنْظُرْ اِلَآ اِلٰهَكَ الَّذِى ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفًا اِنَّمَا اِلٰهُكُمُ اللّٰهُ الَّذِى لَا إِلَهَ اِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ اَنْبَاٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آٰتَيْنَاكَ مِنْ لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه : ٨٠-٩٩].

٣- أما سورة إبراهيم عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاة الله وسلامه : فقد جاءت فيها إشارة للحديث عن موسى عليه السلام وبني إسرائيل ، ومن بديع الحسن ، وجمال الموضوع ، وروعة البراعة ، أن تكون في سورة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إشارة لبني إسرائيل الذين يتسبون إليه .

ففي السورة الكريمة نقرأ قول الله تبارك تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ويذكر موسى عليه السلام قومه امثالاً لأمر ربه يذكرهم بقوله ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ وهذه العبارة يبدأ موسى عليه السلام بها بني إسرائيل في أكثر من موضع - كما سنعرف ذلك إن شاء الله - وما نظن ذلك إلا لأنه رأى منهم جحودهم للنعم وتفريطهم في جنب الله ومجانبتهم للحق في شكرها ، فهو يذكرهم دائماً بهذه النعم ، ومن أعظمها نعمة الحرية ورفع نير الاستعباد ؛ ذلك لأن الأمم المستعبدة تحرم كثيراً من النعم نتيجة رضاها بهذا الاستعباد ، وهذا الاستعمار . ولهذا وجدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - يذكر أول ما يذكر هذه النعم بقوله : ﴿ إِذْ أَجَعْنَاكَ مِنَ الْإِنسَانِ أَنْتَ فَاعِلٌ فِيهِ مَا يَشَاءُ رَبُّكَ ﴾ ويذكرهم بسوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ لمن رزقكم عظيمٌ ﴾ ولكن موسى - عليه الصلاة والسلام - يحس جحود قومه وكفرهم بآلاء الله ونعمه ، فيقول كما حدثنا القرآن ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ حَكِيمٌ ﴾ وقد بين لهم عاقبة الشكر والكفران ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رُجُوكُمْ وَلَيْنَ شُكْرُكُمْ لَا يَزِيدُكُمْ وَلَيْنَ كُفْرُكُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ . بهذه العبارات الهادفة الهادرة ، وبتحذير موسى قومه عاقبة ما حل بالأقوام السابقة تنتهي هذه الإشارة في السورة الكريمة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَجَعْنَاكُمْ مِنَ الْإِنسَانِ أَنْتُمْ فَاعِلٌ فِيهِ مَا يَشَاءُ رَبُّكُمْ وَلَيْنَ شُكْرُكُمْ لَا يَزِيدُكُمْ وَلَيْنَ كُفْرُكُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾



لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيْرٌ حَمِيدٌ [إبراهيم: ٥-٨].

وبهذا ينتهي الحديث عن موسى عليه السلام مع بني إسرائيل في السور المكية. والذي ينبغي أن نسجله هنا أن الحديث عن موسى عليه السلام مع بني إسرائيل لم تقتصر عليه السور المكية - كما رأينا في نبأ فرعون - وإنما كان في السور المدنية كذلك، والذي نلمحه في سبب ذلك - والله أعلم بكل شيء - أن الحديث عن بني إسرائيل كان له ضروراته وأسبابه في السور المكية والمدنية على السواء، فالمسلمون في المدينة يجاورهم اليهود، وكان من الممكن أن يتعايشوا معهم لولا ما جُبلوا عليه من طباع الأفاعي، فكان الحديث عنهم في الآيات المدنية فيه من البصر للمسلمين ما فيه كي يحدّدوا مواقفهم، ويأخذوا حذرهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فالحديث عنهم في السور المدنية كذلك يذكر المسلمين بما يجب عليهم تجاه دينهم ونبیهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم من شقشقات جدلية، وتنازع وفشل، يؤدي إلى ذهاب الريح والقوة. وهذا هو اللون الذي تحدثنا عنه السور المدنية مما كان من بني إسرائيل مع نبیهم - عليه السلام -.

وقبل أن نتقل إلى سورة أخرى من السور التي تحدثنا عن بني إسرائيل، فإنني أرى تمييزاً للفائدة، أن أذكر قضيتين إحداهما تتصل بالعجل، والأخرى تتصل بالسامري. وللأستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار - رحمه الله - كلام أثرت أن أنقل بعضه. قال رحمه الله:

قلنا فيما مضى إن بني إسرائيل لم تكن أنفسهم أكثرهم مرتاضة بالإيمان، وانهم كانوا ذوي جهالة لم يحصلوا على الثقافة الكافية لصون عقائدهم من الزيغ. والقوم عاشوا في مصر وألفوا أن يروا عبادة المصريين للعجل أبيس. وكان للمصريين عناية فائقة بعبادة هذا العجل، وكانت العجول المؤلهة إذا ماتت حنطوها - كما يُحنط الآدمي - بما يحفظ جسمها من التلف ودفنوها في مقبرة خاصة في جهة سقارة تسمى «سرابيوم».

كانت بساطتهم وإلفهم للوثنية مسهلة لرجل ماهر كان فيهم سماه القرآن «السامري» فجاءهم بعجل له خوار. وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى نسيه موسى عليه السلام هنا وذهب لملاقاته في الغيبة الطويلة.

وذلك أن موسى عليه السلام أخبرهم -قبل ذهابه لميقات ربه- أن غيبته عنهم لا تطول أكثر من ثلاثين يوماً مع مسافة الطريق إلى جبل حوريب، وهو جبل الطور، فلما أمر الله موسى عليه السلام أن يستأنف صوم عشرة أيام طالت غيبته عن قومه، واستبطأ القوم.

ما حقيقة العجل الذي عبده بنو إسرائيل -ومن هو السامري؟

يقول المفسرون والتوراة: إنه كان عجلاً من ذهب صاغه لهم صائغه من حلي المصريين -كما قدّمنا- ويقول المفسرون: إن السامري اسمه موسى وكان مولوداً من سفاح، وأن الله أمر جبريل أن يربيه ويقوم بمصالحه، فكان جبريل يأتيه على فرس. وكان يلاحظ -بعد أن كبر- أن فرس جبريل لا يضع حافره على شيء إلا صار حيّاً فأخذ من تراب أثر الحافر بعضاً، فلما صاغ العجل من الذهب ألقى ذلك التراب في فم العجل فصار له خوار.

ويقول البيضاوي: إن الذهب صار عجلاً جسداً ذا لحم ودم له خوار -صوت البقر- وقال بعضهم: إنه كان صائغاً وقد دبره بطريقة خاصّة تجعل للريح إذا مرت من دبره وخرجت من فمه صوت البقرة.

والذي أراه أن حكاية السامري وجبريل ليست صحيحة، فلا جبريل جاء إلى السامري ولا السامري أخذ تراباً من أثر حافر فرسه. وأن القول بأنه صاغه بحيث إذا استدبر الريح خرجت الريح من فمه ولها صوت البقر -وهو الخوار- أقرب من ذلك بل لا غرابة في هذا أصلاً.

ولو قال قائل: إن السامريّ خدع بني إسرائيل وأخذ منهم الحلي، وَبَصُرَ بعجل على هيئة العجول التي تعبد في مصر -ولم يبصروا به- فاشتراه وجاءهم به وقال لهم ما قال، وانهم قبلوا ذلك منه واعتقدوا أن ذلك العجل إلههم وإله موسى عليه السلام، وعكفوا على عبادته مع أنه عجل جسد لحم ودم له خوار لا يفترق من أبناء جلدته من البقر في شيء! ومع ذلك كله فإنهم لبلادة أذهانهم وسخافة عقولهم قد جعلوه إلهًا وعبدوه، وظلوا عاكفين على عبادته مع نهي هارون لهم وقوله ﴿إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ [طه: ٩٠] فلم يلتفتوا إليه لما أشربوه في قلوبهم من حب العجل لما هم عليه من الكفر لم يكن بعيدا من الصواب ولم يكن مخلاً بنظم القرآن. هذا هو الذي أميل إليه. ويكون السامري قد خدعهم بأخذ الحلي وإلقائه في النار ليوهمهم أن حليهم صار عجلًا وأخذ المال لنفسه، فشأنه شأن الدجالين الذين يخدعون الناس بإيهامهم الكنوز المطلسمة وافتتاحها لهم ثم يجردونهم من كل شيء. فيأتون إليهم بالفقر حيث يرجون الثروة والغنى -وهنا يعرض سؤال لأكه بعض المسيحيين في الجرائد وهو: كيف يكون السامري هو الذي أضل بني إسرائيل بالعجل مع أن السامري نسبه إلى سامرة والسامرة بلد من فلسطين لم توجد في زمن موسى عليه السلام! وإنما اشتراها «عمرى» وهو الرابع من ملوك إسرائيل بعد أن انشقت مملكة اليهود إلى قسمين: قسم هو سبط يهوذا ومقره أورشليم وملوكه من ذرية داود وسليمان. وكان أول ملوك إسرائيل «يربعام بن ناباط» ورابعهم «عمرى» اشترى جبل السامرة وبنى تلك المدينة وجعلها مقر مملكة إسرائيل. وذلك بعد موسى عليه السلام بنحو ثلاث وعشرين وخمسمائة سنة؟

والجواب على ذلك أن السامري ليس منسوباً إلى «سامرة» بل إلى «شامر» بالشين في اللغة العبرية.

ويغلب أن تكون «الشين» في العبرية «سينا» في العربية فهو سامر، كما ينطقها أيضاً سبط افرايم بن يوسف، وقد كان رجال سبط يهوذا في بعض الحروب يمتحنون الرجل

ليعرف هل هو من سبط يهوذا أو افرايمي بأن يأمره بأن ينطق «شبولت» -سنبلة- فإذا قال «سبولت» علم أنه افرايمي. ومعنى شامر أو سامر كما هو النطق العربي والافرايمي «حارس» فالسامري نسبة إلى سامر ونطقها في العبرية «شومير» من مادة: شمر؛ أي حرس<sup>(١)</sup>.

ومثل هذه الشبهات التي يلقيها الشيطان ليلوكها المستشرقون والمبشرون وغيرهم، مهّدت لصاحب الفن القصصي في القرآن، وهو الذي كان في أصله رسالة جامعية -للكاتب محمد أحمد خلف الله- وبإشراف أمين الخولي- في آخر النصف الثاني من هذا القرن، وقد ناقشنا هذا الكتاب من قبل.

### حديث السور المدنية:

ثم تأتي السور المدنية لتسجل لنا قضايا ذات خطر كانت مع موسى عليه الصلاة والسلام وقومه، وهناك سور ثلاث ذكرت زوايا من هذا الجانب وهو خبر موسى عليه وعلى نبينا وأنبياء الله صلاة الله وسلامه - مع بني إسرائيل.

فالسورة الأولى سورة البقرة كانت حافلة بالحديث عن بني إسرائيل وإن الذي يهمنا منه ما كان بينهم وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- لأن الحديث الذي كان عنهم في سورة البقرة كان تذكيراً لهم بنعم الله، ثم بياناً لموقفهم من هذه النعم كيف جحدوها، ثم بيان ما حل بهم، وقد استغرق الحديث عنهم ما يقرب الجزء من سورة البقرة.

فليست هناك سورة من سور القرآن الكريم، تحدثت عن بني إسرائيل -كما نجده في سورة البقرة-، ولقد كان الحديث فيها موجهاً إلى الذين كانوا في عهد النبي ﷺ؛ لذا نجدها تذكرهم بما أنعم الله على أجدادهم، كما تذكر جنایات أولئك الأجداد، تحذر أحفادهم مما صنعوا، والمتدبر لآيات السورة يدرك ذلك بسهولة ويسر،

---

(١) من كتاب قصص الأنبياء. عبد الوهاب النجار -ص ٣٠٠-٣٠٥.

تذكرهم مثلاً بإنجائهم من آل فرعون ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾، كما تذكرهم باتخاذ العجل ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ثم تذكرهم بنعم الله عليهم بعد أن نجاهم وخرجوا إلى البرّ حيث الحرارة والجوع والظمأ ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ ليقبهم شر الحرارة ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾، ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾.

وهذه الأحداث كلها تحدثنا عنها من قبل، على أن سورة البقرة عرضت أموراً لم تعرض من قبل ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وكان الذي ذكر في سورة الأعراف هو طلب موسى رؤية ربه ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيْطُوا بِضُرٍّ فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَصُرِيتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ بِمَعْصِرٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كما انفردت سورة البقرة بتلك الحادثة التي سميت بها هذه السورة الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ التي سنفصلها فيما بعد إن شاء الله.

لقد كان الحديث في سورة البقرة عن بني إسرائيل متعدد الجوانب، متنوع المجالات، وكان جلّه خطاباً لذريتهم الذين كانوا في عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من أجل ذلك يظهر لي أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يحث المسلمين على أن يقرؤوا سورة البقرة، «اقرأوا الزهراوين: البقرة، وآل عمران فانهما تأتيان كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما»<sup>(١)</sup> «اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وإن تركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»<sup>(٢)</sup> والبطلة السحرة الذين يموهون على الناس ليغيروا الحقائق، واليهود هم الذين بلغوا في ذلك مبلغاً، بل هم الذين نقلوا ذلك إلى الناس، وحث النبي ﷺ للمسلمين

(١) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين حديث رقم ٨٠٤ باب ٢٥٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المسافرين حديث رقم ٨٠٤ باب ٢٥٢.

على قراءة سورة معينة ليس الهدف منه هدفاً أخروبياً فحسب، فنحن نعلم أن قارئ القرآن الكريم له بكل حرف عشر حسنات، أياً كانت السورة التي يقرأها، إذن لا بد أن نبحث عن سبب آخر ونحن نجد النبي عليه وآله الصلاة والسلام يأمر بقراءة سورة معينة .

وسبب الحث على قراءة سورة البقرة - كما يظهر لي - أنها أطول سورة في القرآن ذكر فيها الحديث عن اليهود، والله وحده يعلم ما سيكون بينهم وبين المسلمين، ولقد وجهت السورة الكريمة العقول، ووضعت الأيدي على كثير من الدقائق والحقائق التي تتصل ببني إسرائيل، حقاً على المسلمين أن يتدبروها، ليفوتوا على اليهود كل فرصة، وحتى لا يُصاب المسلمون منهم بأي غصة . ويقيني أن المسلمين لو أخلصوا وصدقوا وهم يتدبرون هذه السورة الكريمة لفوتوا على اليهود كثيراً من أنواع المكر ولضيّعوا عليهم كثيراً من خبيث الفكر، أليس في انفجار اثنتي عشرة عينا من الحجر درس عظيم يوجه الله المسلمين به، ليدركوا ما بين اليهود من حزازات، ولولا ذلك لاكتفوا بعين واحدة، وسأكتفي هنا بما جاء في هذه السورة سورة البقرة من قصة البقرة التي تظهر لنا بكل جلاء ليس فيه خفاء ما في هذه السورة من توجيهات ثرية؛ ليتبين للمسلمين كي يكونوا على حذر من أولئك الذين قست قلوبهم، ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ .

جاء في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَنَنْجِتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ مُسَلَّمَةً إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ

الْأَنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ٦٧-٧٤﴾.

ولقد شغل المفسرون والعلماء قديما وحديثا بأمور، ولكن الذي كان يجب أن توجه إليه العناية، وفيه العناية الربانية والهداية، ما في هذه الآيات الكريمة، مما كان من اليهود، شغل بعض المفسرين قديما ببعض أوصاف البقرة، ممالا طائل تحته، وأما حديثا فلقد شغلهم أمران اثنان:

أما أولا: فلقد ذهب جمهورهم إلى حمل الآيات على ظاهرها، بينما ذهب الإمام الشيخ محمد عبده إلى تأويل هذه الآيات تأويلاً يتفق مع منهجه الذي يقوم على توضيق نطاق الخوارق، ولا أدعي أن الإمام كان ينكرها -معاذ الله- فأنا لا أرتاب في عقيدة الشيخ. يقول رحمه الله:

والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل، كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قرب بلد، ولم يعرف قاتله، ليعرف الجاني من غيره. فمن غسل يده وفعل مارسم لذلك في الشريعة برىء من الدم، ومن لم يفعل يثبت عليه الجناية، ومعنى إحياء الموتى على هذا، حفظ الدماء التي كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس، أي يحييها بمثل هذه الأحكام، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] وقوله ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] فالإحياء هنا بمعنى الاستبقاء كما هو المعنى في الآيتين<sup>(١)</sup>.

وهناك قضية أخرى أحب أن أذكرها ليطلع عليها القارئ المسلم، ليعرف من خلالها عناية علمائنا قديماً وحديثاً بهذا القرآن العظيم من حيث التفسير والتلاوة واستنباط القيم والأحكام، فأقول -وبالله التوفيق- ومنه وحده العون:

جمهور العلماء مفسرين وغيرهم على أن هذه الآيات الكريمة إبتداءً من الآية ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا...﴾ [البقرة: ٦٧] إلى قوله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣].

هذه الآيات السبع قصة واحدة تتلخص في أن بني إسرائيل وجد فيهم قتيل فاختلفوا في القاتل. فسألوا موسى ﷺ. فقال لهم إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً إِلَى آخِر مَا قَصَّ القرآن علينا، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، أي بجزء من هذه البقرة فضربوه فأحياء الله وأخبر عن قاتله، وعلى ما ذهب إليه الجمهور يكون في الآيات تقديم وتأخير حيث بُدِئَ الحديث عن هذه القصة بأمر بني إسرائيل أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً وكان الظاهر أَنْ يُبْدَأَ بالقصة من أولها ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾، فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها. لذا نجد علماء التفسير يجهدون أنفسهم ببيان هذا الأمر، وهو لَمْ يَبْدَأْ القصة من الحدث الأول وهو قتل النفس والاختلاف في القاتل. وبُذِئَتْ بما هو متأخر عن هذا وهو أمرهم بذبح البقرة. ولنستمع إلى ما قاله العلامة جاز الله الزمخشري:

«فإن قلت: فما للقصة لم تقص على ترتيبها. وكان حقها أَنْ يقدم ذكر القاتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها، وأن يقال: وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها؟ قلت: كل ما قص من قصص بني إسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات وتقريعاً لهم عليها، ولما جدد فيهم من الآيات العظام. وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع وإن كانتا متصلتين متحدتين فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك.

والثانية للتقريع على قتل النفس المحرمة. وما يتبعه من الآية العظيمة. وإنما قدّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القاتل لأنه لو عُمِلَ على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تشية التقريع. ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أَنْ وصلت الأولى، دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح في



قوله: ﴿أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حتى تبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها أو أنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة<sup>(١)</sup>.

هذا هو رأي الجمهور. وهناك رأي آخر ذهب إليه بعض العلماء في هذا العصر ومن هؤلاء الشيخ عبد الوهاب النجار، وأستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز رحمهما الله تعالى وخلاصة هذا القول أن هاتين قصتان متغايرتان تبدأ إحداهما من قوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾ [البقرة: ٦٧] وتنتهي عند قوله سبحانه وتعالى ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١].

وتبدأ الثانية بقوله سبحانه ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْ ثُمَّ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] والآية التي بعدها ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ أَلْمَوْتِ...﴾ [البقرة: ٧٣].

ويستدل أولئك لما ذهبوا إليه بما يلي أولاً: لو كانت هذه الآيات السبع قصة واحدة لكان حرياً أن ترتب ترتيباً طبيعياً. بحيث تذكر القصة من أولها وهو اختلافهم في القتل ولكن ما جاء في كتاب الله لا يفهم منه أنهما قصة واحدة.

ثانياً: إن المتدبر للسورة الكريمة يدرك بكل وضوح أن الحديث عن بني إسرائيل اشتمل حوادث متعددة وقضايا متنوعة كان يبدأ كل حدث بقوله تعالى «إِذْ» وإذ كما يقول اللغويون ظرف لما مضى من الزمان، أما «إِذَا» فهي ظرف لما يستقبل من الزمان.

فإذا تدبرنا الآيات الكريمة التي تتحدث عن بني إسرائيل في هذه السورة وجدنا قضايا متعددة تبدأ بقوله سبحانه «وَإِذَا».

كانت القضية الأولى ﴿وَإِذْ بَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٤٩] والثانية ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠] والثالثة ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَى...﴾ [البقرة: ٥١] والرابعة ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٥٣] والخامسة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] والسادسة ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَكُومُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ...﴾ [البقرة: ٥٥] والسابعة ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْفَرِيقَ﴾ [البقرة: ٥٨] والثامنة ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى﴾

(١) الكشف للإمام الزمخشري [١/١٥٤].

مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴿ [البقرة: ٦٠] والتاسعة ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ لَنْ نُّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ ﴿ [البقرة: ٦١] والعاشره ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴿ [البقرة: ٦٣] ثم الحادية عشرة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ . . . ﴿ [البقرة: ٦٧] والثانية عشرة ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْ ثُمَّ فِيهَا . . . ﴿ [البقرة: ٧٢] .

قالوا فهما قضيتان مختلفتان إذن، حدثت كل منهما على حدة وعلى هذا الرأي لا يكون معنى قوله سبحانه ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا ﴾ راجعاً إلى البقرة كما هو رأي الجمهور، بل المعنى عند هؤلاء اضربوا المتهم ببعض أجزاء النفس الميتة، ولقد أطلال القول في هذا الشيخ عبد الوهاب النجار رحمه الله، وأنقل هنا بعض الذي قاله لأن نقله كله يطول بنا كثيراً، فلقد زاد ما ذكره في هذه القضية على ٦٠ صفحة:

«ولي في هذه الحادثة نظر آخر سوى ما ذهب إليه المفسرون، وهو أننا إذا نظرنا الى القصص التي قصها الله في هذه السورة قبل هذه القصة . . . وكلها متعلقة ببني إسرائيل - وجدنا كلّ قصة مستقلة عما قبلها وما بعدها مبدوءة بقوله تعالى ﴿وَإِذْ . . . فهذا النسق المطرد الذي لم يتخلف يجعل مسألة قتل النفس والتدارؤ فيها مسألة مستقلة بنفسها غير مرتبطة بما قبلها ولا مدمجة فيها وقد حاك في نفسي أن هاتين القصتين تفهمان على ضرب آخر من الفهم وقد قوي عندي ذلك كل القوة.

أنا أعرضه على حضرات القراء؛ راجياً أن يعيره حضرات العلماء اهتماماً وأن يوافوني بما يرونه الصواب بعد قتل المسألة بحثاً، حتى إذا ظهر لي الحق عدت إلى ما رسموا ضارباً بقولي عرض الحائط فلست بالمتعنت ولا بالمفتون بقولي ورأيي، ولا ممن تنزهوا عن الخطأ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ذلك أن القصة التي أمر فيها موسى عليه السلام قومه بذبح البقرة لم يكن الغرض منها الإتيان بكل ما اشتملت عليه واندرج فيها من الحالات والأحكام؛ بل الغرض أن يقص الله

تعالى على رسوله محمد ﷺ، نموذجاً مما بلغ إليه تعنت بني إسرائيل في إبطائهم عن امتثال أمر الله ومطاولتهم ومماطلتهم في تنفيذ ما يأمرهم به، دون استيفاء القصة استيفاءً كاملاً يشتمل على بيان الحكمة الباعثة على أمرهم بذبح البقرة، بل هو يقص علينا نمطاً من تعنتهم وصلابة أعناقهم وأما القصة الأخرى المبينة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢] فإنه تعالى يقص علينا فيها لونا من أفضاله على بني إسرائيل وحل مشكلاتهم بطريقة لم تخطر لهم ولا لبشر ببال وظلت هذه الحكمة العالية المشتملة عليها تلك الطريقة غامضة على بني إسرائيل وعلى جميع البشر الأجيال الطوال.

والذي فهمته من القصة الأولى أن بني إسرائيل قد وقعت عندهم واقعه قد حاروا فيها وهي أن شخصا قد قتل في الحقل. وهم لا يدرون من الذي قتله، والحقل واقع بين بلدان كثيرة فأَي البلاد تلتصق بأهله تهمة القتل؟ رفعوا أمرهم إلى موسى عليه السلام فما كان جوابه إلا أن قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] ولما كان الجواب بعيداً في رأيهم عن الغرض الذي جاءوا لأجله وقع ذلك عندهم موقع الغرابة وقالوا لموسى عليه السلام ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا﴾ ولما كان موسى عليه السلام إنساناً صادقاً بعيداً عن الهزء والسخرية بعباد الله قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يهزؤون بعباد الله.

ثم كانت المراجعة بينهم وبين موسى عليه السلام وربه حتى يبين لهم شأن البقرة ولونها وأحوالها أتم بيان ومع ذلك لم يمثلوا بل ذبحوها بعد إذ كادوا لا يفعلون أي أنهم ذبحوها بعد جهد شديد.

أتى موسى عليه السلام برجال أقرب محلة من مكان القتل وأحلفهم عليها بعد ذبحها، أي وهي أمامهم أنهم ما قتلوا القتل ولا علموا به وأنهم برآء من دمه وكانوا يغسلون أيديهم على البقرة كما فصل ذلك في التوراة.

... وأما القصة الثانية وهي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ فهي في شأن قتل وجد قتيلاً في بيته أو محلة قومه أو سقط في معركة فيها جماعة، وقد دفع كل واحد القتل عن

نفسه، ولم يتعين قاتله تماماً. وكل واحد يتهم سواه بالقتل. وحينئذ يكون المتهمون محصورين. والقاتل لا يخرج عنهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَذَرَتْهُمُ فِيهَا﴾ ولما كان الله تعالى مخرجاً ما يكتمون من القتل علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء أو هي على الأقل تضيق دائرة الاتهام وتوجه نظر القاضي إلى استنباط الأدلة على المتهم أو من له إتصال بالقاتل.

ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربوه بجزء من تلك النفس أي من القتل وهو متصل ببقية الجسم بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القاتل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث له شيء، وإذا كان قاتلاً ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه، أو هو على اتصال به.

وهذا الانفعال قد يكون فرحاً وجذلاً، وقد يكون خوفاً ورعدة تبعاً لسبب القتل وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية وإلى العقل الباطن في الإنسان ذلك أن القاتل حين يباشر الجريمة -وبخاصة القتل- يكون واقعا تحت تأثير انفعال خاص يغلي منه دمه، يدفعه ذلك الانفعال إلى ارتكاب جريمة القتل، فإذا سكن ثائرته وهذأت أعصابه، وزال ذلك الدافع الذي أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة عاوده الندم، وتبكيك الضمير، وصار شبح الجريمة مخيفاً في نظره، ويتمثل له شبحها في كل شيء يتعلق بها، فهو يكره رؤية مكان الجريمة والأشياء التي رآها رؤية مقارنة لارتكابها، وتضطرب نفسه ويرتفع نبضه ويسرع إذا ذكر بشيء من الجريمة... (١).

وسواء أكنت أنا وأنت أيها القارئ الكريم مع الجمهور فيما ذهبوا إليه، أم مع الفضلاء أصحاب الرأي الآخر. فليس في الأمر حرج. وكتاب الله تبارك وتعالى يتسع للفكر البشري إذا تهياً للنظر حسن النية، والعلمُ وصفاء القريحة، ويقيني أن هذه الثلاثة أعني حسن النية والعلم وصفاء القريحة، هي مما أكرم الله به أئمتنا قديماً وحديثاً فجزي الله الجميع عن كتابه ودينه ونبيه خير الجزاء.

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ص ٣٥٤-٣٥٧.

ولكن الذي أود أن أقف عنده في الآية الكريمة -وتقف معي أيها القارئ كذلك- ويقف عنده العلماء من ذوي الفضل. هو ما أرشدت إليه الآيات الكريمات. ما أرشدت إليه من توجيهات للمسلمين وبخاصة أولي الأمر. وذوي الثقافة ممن أنيطت بهم المسؤوليات الجسام، توجيهات تبين لنا كيف نتعامل مع أولئك العدو الماكر، تحدثنا عن طبيعتهم، ولقد قلتُ من قبل إن أمر النبي عليه وآله الصلاة والسلام للأمة بقراءة سورة البقرة. لم يكن بهدف أخروي فحسب ولم يكن لزيادة الحسنات وحدها. فالقرآن كله كذلك، وإذا أنعمنا النظر فيما صح من أحاديث عن رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام، تحت المسلمين على قراءة سور من كتاب الله فسنجد أن هناك دروساً تتصل بمصلحة هذه الأمة، وقد يمر معنا شيء من هذا إن شاء الله، فهذه الآيات الكريمة تبين لنا هذه المواقف التي وقفها بنو إسرائيل.

فها هو كريم الله يكلمهم، أقول يكلمهم ولا أقول يأمرهم فإن الأمر الموجه إليهم من الله تبارك وتعالى. هكذا تقول الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴾.

لقد عرفوا موسى عليه السلام في أحلك الظروف وأكثر المواقف شدة عرفوه وهم عند البحر فقالوا إنا لمذكرون، وعرفوه حينما قالوا له ﴿أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ عرفوه وهم في حرارة الصحراء حيث ظللوا بالغمام، وهم في شدة الجوع والظما، عرفوه رسولا كريما وصدق الله ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ ثم استمعوا إليه ووعوا مقالته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ حتى لو كان هو الأمر -ﷺ- لكان من المستهجن والمستنكر والمستقبح أن تصدر عنهم هذه المقالة ﴿أَلَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لكن ما نفهمه من الآية الكريمة أن أولئك ليس لله مكانة في قلوبهم فضلا على أن تكون لنبية الكليم الكريم.

كيف يتأتى لهم أن يقولوا ذلك لمن عرفوا صدقه، ولمن كان له الفضل عليهم بعد الله وهو يوجه إليهم امر ربهم بهذه الصراحة؟!

كيف يتأتى أن يقولوا هذه المقالة المنكرة ﴿أَتَلَحَّذُنَا هُرُوءًا﴾ يا لفظاعة الأمر! حينما تكون القلوب خاوية، خالية من العقيدة الحق.

ولكنه ﷺ يكون أكثر رفقا، وكذلك الأنبياء ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ثم يبدأ هذا الحوار بل الجدل الوقح، الذي يكشف عن هذه الطبيعة العجيبة ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ الذي طلب منهم أن يذبحوا بقرة. أي بقرة لكنهم وقد طُبعوا على ما طبعوا عليه من مكر وخداع وتلاعب بالألفاظ والأعراف والعقول، حتى مع من كان له أعظم الفضل عليهم. ثم علام يدل هذا القول ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾؟؟ ويستمر الجدل إلى أن قال الله سبحانه ﴿فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ وهنا نساء بل نساء أولئك الذين يحسنون الظن باليهود أو يحسنون الظن بمن يظن باليهود ظناً حسناً. نساء هؤلاء وأولئك إذا كان هذا موقفهم من الله ومن رسول الله موسى الكليم الكريم عليه السلام فكيف يمكن أن يكونوا مع من بلغ الضعف منهم مبلغاً؟

إن قصة البقرة التي سميت أطول سورة في القرآن بها، جديرة بأن توجه إليها الجهود، جهود مجتمع، من ذوي التخصصات المتعددة علماء الشريعة، والنفوس والاجتماع وغيرهم؛ لتمد هذه الأمة بكثير من القواعد التي ما أمس حاجتنا إليها ونحن نتعامل مع أولئك.

ولقد أثبت الواقع بعد بضع سنين من مؤتمر أوصلو بمدريد، وبعد أن وقع الموقعون اتفاقيات بينهم وبين اليهود، أثبت الواقع أن القوم لا يلتزمون بعهد ولا يوفون بميثاق، ولعل ما سمعناه، قبل أيام -من رئيس وزرائهم من أنه لا يستطيع أن يعطي للأردن كمية المياه التي حددتها الاتفاقيات بين البلدين يصدق ما قلنا، وهذا ديدنهم دائماً، ما أكثر العبر في قصة البقرة بل ما أكثر ما يجب أن نتعلمه من سورة البقرة، وهي تبين لنا الركائز الرئيسة في كيفية التعامل مع أولئك القوم.

والذي يهمننا ما كان بينهم وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- وأول ما تسجله لنا السورة الكريمة هذا الذي يدل على تعنتهم وذبول الحسّ الديني وضآلة عقيدة التوحيد عندهم، حينما قالوا لموسى -عليه الصلاة والسلام- لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، مع أن الله تعالى أتى موسى عليه السلام الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون، ولقد سجل القرآن ناعياً عليهم في موضع آخر وهو ما جاء في سورة النساء تبياناً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام وتسليّة وتقريعاً للخلف منهم بعد السلف حيث قال الله:

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْنَتْ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ سَمِعُوا وَأَطَاعُوا لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا عَظِيمًا فِيمَا نَقُضُهُمْ مِّيثَقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَالِهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَغَيِّرُ حَقِّي وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٣-١٥٦].

كذلك حدثتنا سورة البقرة عن قول موسى عليه السلام لهم ﴿يَقَوْمِ إِنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]. ثم تحدثنا السورة عن قضية أخرى تنبئ عن انحدار في الفكر، وجحد للنعمة ومجانبة للعلو ورغبة في التدني، وتخير لما هو أقل شأنًا ونفعاً، وذلك هو قولهم كما حدثنا القرآن لموسى -عليه الصلاة والسلام- وقد أكرمهم الله بما هو أزكى طعاماً قولهم ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا ثَلِثُ الْأَرْضِ مِن بَقَلٍهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنةُ وَبَاءُوا بِعَصْيِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾. ورحم الله ابن الجوزي إذ يقول: «يستدل على عقل العاقل، بسكونه وسكوته، ومراقبته للحوادث فلا تستغزه شهوة عقباها ضرر عاجلة وتراه ينظر في الآفاق فيتخير الأعلى والأحمد عاقبة من مطعم ومشرب وملبس وقول وفعل ويتجنب ما يخاف ضرره ويستعد لما يجوز وقوعه».

فأين ما ذكره ابن الجوزي رحمه الله من أولئك !! .

﴿ وَأَتَقُوا يَوْمَ لَا تَجْرَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ  
وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي  
ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ  
وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّا كُنَّا  
ظَالِمِينَ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ  
عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّوَفَةُ  
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ  
الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلَّوَا مِن طَيْبَتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا  
هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ  
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا  
رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِمَصَّالِكَ الْحَجَرِ  
فَإِنَّفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا  
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ  
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي  
هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابِ  
اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا  
يَعْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ٤٨-٦١].

وأخيراً تحدثنا سورة البقرة عما كان بينهم وبين موسى -عليه الصلاة والسلام- في أمر  
القتيل الذي خفي قاتله حيث قال لهم موسى -عليه الصلاة والسلام- إن الله يأمركم أن  
تذبحوا بقرة. وتصور لنا الآيات الكريمة اللجاج والتعنت وقلة الاستبصار. ﴿ قَالُوا اتَّخَذْنَا



هُرُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ وبدأ تمحلهم وتعتهم حيث أمروا أن يذبحوا بقرة أي بقرة يمكن أن تغنيهم، ولكنهم بدأوا يسألونه عن سننها ووصفها ولونها، وكان لا بد أن يعاملوا بما يستحقون، فالبقرة لا فارض ولا بكر هي عوان بين ذلك وسط في سننها، ولكنهم لا يكتفون بذلك فيسألون عن لونها ويقال إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، ومع هذا كله فلم يكتفوا بذلك وفي كل مرة يقولون ادع لنا ربك يبين لنا، فقد تشابه البقر علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون، ويجيبهم موسى -عليه الصلاة والسلام- إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقي الحرث فليست من نوع البقر الذي أعد للعمل، ثم هي بعد ذلك مسلمة لاشية فيها، ومع ذلك يقول القرآن عنهم بعد أن قالوا الآن جئت بالحق، يصور نفسيتهم وشدة عنادهم فذبحوها وما كادوا يفعلون.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَلْخُذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةٍ فِيهَا قَالُوا لَئِنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحْنَاهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

وهذه الآيات الكريمة -آيات قصة البقرة التي سميت السورة باسمها- لأعظم دليل على إعجاز القرآن الكريم لا من حيث النظم فحسب، ولكن من حيث التسجيل على بني إسرائيل وتعليمهم ما لم يعلموا ونحن لا نذهب في تفسير الآيات الكريمة مذهبا يخالف اللغة والسياق فلا نحملها على التمثيل كما ذهب إليه الاستاذ الإمام محمد عبده -رحمه الله-<sup>(١)</sup>.

هذا ما جاء في سورة البقرة عما كان بين موسى عليه السلام وبين بني إسرائيل.

(١) راجع تفسير المنار: جزء (١). في تفسير الآيات.

٢- ثم تأتي سورة الصف وهي تحت المسلمين على أن يؤخذوا صفاً وهدفاً ورسالة .  
تأتي لتلهب مشاعرهم وتشجذ هممهم على أن يكون قولهم وعملهم سواء ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الَّذِينَ يُفْعَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوعٍ ﴾ [٢-٣] .

ثم تعرض السورة الكريمة ما كان بين موسى -عليه الصلاة والسلام- وبين قومه  
تحذيراً للمسلمين وحاشاهم أن يسلكوا مع نبيهم ما سلكه اليهود مع نبيهم موسى عليه  
الصلاة والسلام ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ يَنْقُورُونَ بِأَنَّهُمْ يَلْعَنُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتُ اللَّهِ  
الَّتِي كَانَتْ تَزُكِّيهِمْ وَلَئِنْ كَانَتْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ إِلَّا يَلْعَنُونَ ﴾ [٥: ٥] ، والآية صريحة  
وهي تصور لنا إنكار موسى عليه السلام على قومه ومساءته منهم، ينكر عليهم إيذاءه  
وهم مستيقنون من أنه رسول الله إليهم، وقد رأوا المعجزات والآيات، وفي كلمة ﴿قَدْ﴾  
التي هي للتأكيد خير دليل على ذلك .

إنهم متأكدون من رسالته كل التأكد، ولكن مع ذلك لم يُجِدْهم أسلوب التلطف  
والتودد ولم تخترق الحجة قلوبهم بل زاغوا عن الحق وعن كل حجة وركبوا متن الغواية  
ولزموا جانب اللجج فلما كان منهم ذلك ولما زاغوا أزاع الله قلوبهم، فليس من حكمة  
الله وليس من العدل كذلك أن يهدي القوم الذين استمروا الفسق، وهذا الإيذاء حُدِّرَ منه  
المؤمنون في قول الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا  
وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ وهو إيذاء يشمل أكثر من جانب، يشمل الجانب الخلقي والشخصي  
كما يشمل الجانب المعنوي وجل المؤمنون عن هذا وهم الذين قال قائلهم -والسيف  
فوق عنقه- والله لا أحب أن أكون في أهلي ومالي وأن تشوك محمداً شوكة» .

اسرت قريش مسلماً في غزوة	فمضى بلا وجل إلى السيف
سألوه هل يرضيك أنك سالم	ولك النبي فدى من الإتلاف
فأجاب كلا لا سلمت من الردى	ويصاب أنف محمد برعاف

٣- ثم تأتي سورة المائدة وهي آخر الحلقات التي تحدثت عن قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- مع بني إسرائيل، بل عنه ﷺ بل هي كذلك كانت تتحدث عن آخر عهده -عليه الصلاة والسلام- في هذه الدنيا.

بدأت الآيات بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ذكرهم بهذه النعم الثلاث أن كان منهم أنبياء -والأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام يتعبدون بشريعته- وجعلكم ملوكاً وهذه هي النعمة الثانية، وفي هذا إشارة إلى ما من الله به عليهم من حرية بعد أن كانوا مستعبدين أرقاء، وكانت النعمة الثالثة أن آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين الذين كانوا في زمانهم حيث منّ عليهم بالحرية -كما قلنا من قبل- وظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المنّ والسلوى ومن لطائف الإعجاز في هذه الآية أنها قد ذكرت كلمة قوم مرتين، وهذا على عكس ما رأيناه في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسورة البقرة ففي سورة إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾. وفي سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾.

أما هنا ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ﴾ فجملة النداء لم تذكر إلا في سورة المائدة. وما أحسب ذلك -والله أعلم بما ينزل- إلا لخطر ما ذكر في هذه السورة وعظم شأنه. وهي قضية تتصل ببني إسرائيل إتصلاً يُحدد -مصيرهم. وهي القضية التي استغلها اليهود زوراً وبهتاناً عندما ضعفت هذه الأمة، ونبتت هويتها، وفقدت حميتها، وستحدث عنها إن شاء الله تعالى.

ثم يقول موسى لقومه ﴿يَنْقُورِ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُّوا عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾. ولا بد من وقفة هنا لنبين أن قوله ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لا يعني أنه ملكهم إياها لتصبح حقاً لهم لا يشاركهم فيها أحد، وإنما كل ما تدل عليه الآية الكريمة أنه كتب لهم دخولها ومكنتهم من سكنها شريطة أن يقيموا شرع الله ولا يمكن أن

يكون ذلك على سبيل التأييد بل التوراة التي في أيديهم لا تثبت ذلك كذلك، والآية الكريمة تثبت ذلك وتؤيده ﴿وَلَا تَزِدُّوا عَلَيَّ آذَانَكُمْ فَتَنفَكُّوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

قال صاحب المنار محمد رشيد رضا -رحمه الله- «فقوله تعالى: كتب الله لكم» يريد به موسى عليه السلام ما وعد الله به إبراهيم عليه السلام، يعني كتب لهم الحق في سكنى تلك البلاد المقدسة بحسب ذلك الوعد، أو في علمه، وليس معناه أنها تكون ملكاً لهم دائماً إلى الأبد، أو لا يزاحمهم فيها أحد لأن هذا مخالف للواقع ولن يخلف الله وعده. فاستنباط اليهود من ذلك الوعد أنه لا بد أن يعود لهم الملك في البلاد المقدسة غير صحيح. ويحسن هنا أن نذكر نص التوراة العربية الموجودة الآن في هذا الوعد: جاء في سفر التكوين أنه لما مر إبراهيم عليه السلام بأرض الكنعانيين ظهر له الرب «١٢: ٧» وقال لنسلك أعطي هذه الأرض» وجاء فيه أيضاً ما نصه «١٥: ١٨» في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» وهذا الوعد ذكر في سفر التكوين قبل ذكر ولادة إسماعيل عليه السلام. وجاء فيه بعد ذكر ولادة إسماعيل له ووعد الله بتكثير نسله وبكونهم يسكنون أمام جميع إخوانهم (١٧: ٨): (وأعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً أبدياً وأكون إلههم) فهذا وذاك يدلان على أن العرب أولى أولاد إبراهيم عليه السلام بأن يكونوا أول من تناولهم العهد والميثاق والوفاء الأبدي لا يتحقق إلا به. والأمر كذلك فقد أصبحت تلك البلاد كلها عربية محضة، وليس فيه بعد ذكر ولادة إسحق عليه السلام وعد لإبراهيم عليه السلام مثل هذا ببلاد ولا بأرض ولكن فيه أنه يقيم معه عهداً أبدياً لنسله. وأن هذا العهد لإسحق دون إسماعيل عليه السلام فما هذا العهد؟ إن كان عهد النبوة فالواقع أنها ليست أبدية في نسل إسحق عليه السلام لأنها انقطعت بالفعل منهم من زهاء ألف سنة وكان خاتم النبيين من ولد إسماعيل عليه السلام. وإن كان عهد امتلاك الأرض المقدسة فهو لم يكن أبدياً فيهم لأنها نزع من قبل العرب ثم أخذها العرب وصارت لهم بالامتلاك السياسي، ثم بالامتلاك الطبيعي، إذ غلبوا على سائر العناصر التي

كانت فيها ، وأدغموها في عنصرهم المبارك الذي وعد الله إبراهيم عليه السلام بأن يباركه ويثمره، ويكثره جداً جداً ويجعله أمة كبيرة (راجع ١٧: ١٨ من سفر التكوين)<sup>(١)</sup> ولكن بني إسرائيل الذين عاشوا في أصفاد الذل وقيود العبودية فأثر ذلك كله في نفسياتهم يقولون لنبيهم ﴿يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، هم أشد منا خلقاً وبأساً وشكيمة ﴿وَأَنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، نحن لا نماري في دخولها لكن كل الذي نريد أن يخرجوا أولاً فإن يخرجوا منها فإننا داخلون، يا ويل الضعفاء من الأقوياء. في هذه الإرشادات القرآنية دروس لو وعيها المسلمون استعصوا على كل مُخْبِل.

إن الآيات الكريمة ترشد إلى أن الأمم التي تستمرىء الذل لا تصلح لتسوس نفسها فضلاً على أن ترد بأس عدوها إن الشعوب التي يراد لها أن تعيش كمكمة الأفواه مطأطأة الجباه مسلوقة القدرة على الاتجاه مبلدة الإحساسات عديمة الانتباه، إن مثل هذه الأمم لن يكون لها دور إيجابي في الحياة. والحوادث كثيرة يشهد بها التاريخ البعيد وغير البعيد وما لنا نبتعد كثيراً وها هو الواقع خير شاهد والله أكبر شهادة.

إن العصر الذي نعيشه فيه أمثلة متعددة على ما يرشد إليه القرآن الكريم وإلا فكيف اندحرت الجموع الأرجنتينية القرية من جزر «فوكلاند» بهذه السرعة؟ وفي مقابل هذا كيف استطاعت بعض الشعوب في جنوب آسيا أن تتصدى للقوة الأمريكية العاتية؟ وأخيراً لا آخرأ كيف يصمد الشعب الأفغاني المسلم أمام القمع الشيوعي الكافر والتحدي الروسي البغيض؟<sup>(٢)</sup>.

إن هناك فروقاً بين نفسيات الشعوب التي أريد لها أن لا تمتلك حتى قلم رصاص لتسطر به أحلامها وآمالها ومستقبلها وتسجل به ماضيها وحاضرها، وبين الشعوب التي

---

(١) تفسير المنار، ج ٦ ص ٣٢٦.

(٢) ما أشد الألم الذي يملأ النفوس ا كتبت هذا عن الشعب الأفغاني في الكتاب الأول سنة ٨٧ قبل اثنتي عشرة سنة.

ولكن المسؤولين في هذا الشعب خيخوا آمال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولقد أزهق من النفوس وأريق من دماء الشعب الأفغاني أضعاف ما ارتفع من الشهداء في حرب التحرير . =

يعد ذلك حقاً طبعياً لها. وما أصدق كلمة ذلك الأسير في حوار بينه وبين العدو وقد قال إجابة عن سؤال لقد ربّانا حكّامنا على أن نخاف ونجبن أمامهم فلم لا نخاف ونجبن أمامكم أنتم؟

كل هذا ترشد إليه الآية القرآنية وهي تحدثنا عن بني إسرائيل بأوجز العبارات وأخصرها ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ .

هكذا قالوا ﴿قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ وهم يعنون من كانوا في فلسطين، ولم يكونوا من المسلمين، وفي معركتنا مع اليهود التي مضى عليها خمسون سنة، تلاقي الأمة من الهوان والضياع ما أرغمت عليه، وكلما تسنى لهذا الشعب المسلم أن يتخلص من قيوده وأغلاله، وجدنا منه ما يشبه المعجزات -ولا أقول المعجزات لان المعجزات إنما هي للرسول عليهم الصلاة والسلام- وجدنا ذلك في نيلهم من عدوهم، وكيف يمكن أن ننسى أعوام الانتفاضة المشرقة في فلسطين؟ والواقع خير شاهد، وها نحن نرى اليوم ما يلاقيه اليهود من المقاومة الإسلامية بعامّة في لبنان، وحزب الله بخاصة، ولو أن الشعب المسلم تسنى له ما يحبه من التضحية لوجدنا الأمر على غير ما هو عليه الآن.

إن عدونا الذي بيّن لنا القرآن الكريم كيف يجب أن نتعامل معه، لا يودّ أن تكون له الغلبة في المعركة العسكرية وحدها، وفي فلسطين فحسب، بل إن مراميه أبعد من هذا، إنه يعمل جاهداً ذأباً ليل نهار من أجل أن يقضي على كل جذوة للإسلام، ولا أقول للمسلمين فحسب، في كل شبر من أرض الله، وها هو يتحسّس في العالم كله من أجل أن لا يترك موطئ قدم، لمن يؤمنون بعزة الله ورسوله والمؤمنين... لقد كانوا أول من وصل إلى الدول المسلمة في الاتحاد السوفييتي... أكتب هذه السطور والمسلمون في (كوسوفو) تهدم بيوتهم، وتبقر بطونهم على مرأى ومسمع من الدنيا، والمسلمون يتظاهرون بأن ذلك يعنيهم فيرسلون الأغطية والأدوية.

أما اليهود فهم كما حذرنا القرآن الكريم يتظاهرون بما يكسبهم ثناء في العالم، وها هي الوكالة اليهودية تسعى لجمع التبرعات، وها هي تبعث الطائرات الكثيرة المملوءة بالمساعدات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فلقد نقلت وكالات الأنباء تصريحاً لوزير خارجية اليهود (شارون) الذي لطخت يدها بدماء المسلمين في صبرا وشاتيلا وغيرهما، ولكن كثيراً من ذوي المسؤولية في هذه الأمة يضغطون وهم يصافحون هاتين اليدين النجستين، أقول: يصرح هذا وهو في الولايات المتحدة الأمريكية التي تمد إسرائيل بكل المعنويات والماديات. يقول: ينبغي أن نحذر تماماً وأن نعمل جاهدين حتى لا ينال المسلمون في كوسوفو استقلالهم عن الصرب، كي لا ينضموا إلى ألبانيا؛ لأن ذلك قد يوقظ فيهم جذوة الإسلام... هكذا يخطط عدونا، مع أنهم يعلمون أن ألبانيا كانت أبعد شعوب الاتحاد السوفيتي عن الإسلام، لكنهم كما قلت لا يودون أن تقوم لهذا الإسلام قائمة على أي شبر من أرض الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، وصدق الله ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

فإلى متى سيظل المسلمون في رقدهم وفي غفلتهم؟ ورحم الله شوقي:

يا رب هبت شعوب من منيتها واستيقظت أمم من رقدة العدم

فمتى يستيقظ المسلمون من رقدة العدم؟! إلى متى يعضون أيديهم حسرة وندماً؟ مع أنهم أكرمهم الله بما لم يكرم به أحداً من الأمم، أكرمهم بدين فيه أشرف المبادئ والقيم، وبخير مادي لم تملك أي أمة مثله أو قريباً منه ومع ذلك فهم في ذيل الأمم سائرون ورحم الله شوقي.

بأيديهم نوران ذكرٌ وسنةٌ فما بالهم في أحلك الظلمات

ونصل الحديث على هذه المائدة الطاهرة الشهية التي حرّمها المسلمون ليعيشوا على فتات موائد الآخرين . . . الله، الله!! وصدق الله ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيلَمَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَابِتُنَا فَتَنَسِبْنَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّي ﴾ ، لقد بين لنا القرآن الكريم كيد أولئك، وها هو يحدثنا في سورة آل عمران، كيف أنهم يدبرون ما يظنون به أنهم يستطيعون زعزعة العقيدة في نفوس المسلمين، وهم يقولون ﴿ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ ، يقول بعضهم لبعض إذا أردتم أن ترزّلوا العقيدة في نفوس المسلمين، فظاهروا أنكم آمتم بدينهم، وبيّنوا إعجابكم بهذا الدين، ثم اكفروا به بعد حين، وقولوا لهم بعد أن اطلعنا على دينكم لم نجده دين حق . . . هكذا ويرد الله عليهم ﴿ قُلْ إِنْ أَلْهَدْتُمُ هَذَى اللَّهِ ﴾ .

ولنواصل الحديث عن الآيات الكريمة:

﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ ، يحتمل أنهما ممن يخافون الله كما يقول كثير من المفسرين، ويمكن أن يكونا من الذين يخافون الجبارين، ولعل المفسرين رجحوا الأول لقوله تعالى: ﴿ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ مع أن هذا القول الكريم ﴿ أُنْعِمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ لا يتنافى مع كونهما من الذين يخافون الجبارين .

والذي يهمنا أن نقف عند مقالة هذين الرجلين لأن لنا فيها غرضاً، ولنا فيها هدفاً فألق لها السمع . قال هذان الرجلان ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ والذي نلمحه من كلام الرجلين للذين أنعم الله عليهما، ويمكن أن يكون هذا الإنعام بما فتح الله به لهما من قضايا الحرب ومعاملة العدو . ودليلنا على ذلك مقالاتهم التي سجلها القرآن ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ إنها تشير إلى عامل المباغته، المباغته التي رأينا العدو لا يدعها في حروبه جميعاً وما أجدر المسلمين أن يأخذوا من كتاب الله وآياته ما يرشدهم في أحوالهم جميعاً حرباً وسلاماً ومع ذلك كله



فلقد أبى بنو إسرائيل أن يستجيبوا لهذين الرجلين الناصحين وقالوا مقاتلهم الشنيعة المنكرة التي سجلها القرآن ﴿قَالُوا يَتَّبِعُونَ إِنْ شَاءَ مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وإنا لنفخر من جهة ونتضاءل ونتوقع من جهة أخرى حينما نذكرُ مقالة الآباء الأول رضي الله عنهم وجزاهم الله عنا خيراً لسيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام: لا نقول لك كما قال أصحاب موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . يالمجد الآباء وبالصياح الأبناء!! .

بعد هذا لم يبق لموسى - عليه الصلاة والسلام - شيء يقوله بعد هذا التطواف، وبعد هذه المعاناة، وبعد هذا الحنو، بعد ذلك كله وكأنه تمر بمخيلته وبمذكرته تلك الأحداث جميعها منذ أن استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه إلى أن أكرمه الله بالرسالة فطلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، إلى غير ذلك من الأحداث المتوالية التي بذل فيها جُهداً ولقي فيها جُهداً لا يسعه إلا أن يقول، وتلك آخر مقالة له يسجلها القرآن، بل لعلها آخر مقالاته في حياته كذلك؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - انتقل إلى ربه بعدها ولهذا لم يحدثنا القرآن عن موسى - عليه الصلاة والسلام - بعد هذه المقالة أي حديث ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ إنه اعتذار إلى الله وإنكار على أولئك جميعاً، هكذا بكل حسرة ومرارة وبكل رقة واستعطاف ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فَأَفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْفَاسِقِينَ<sup>(١)</sup> بعد هذا التطواف لا يسع موسى عليه السلام إلا أن يجار لربه بهذه الكلمات طالباً منه أن يفصل بينه وبين أولئك الذين كان الفسق طبيعة لهم وسجية فيهم، وكان حقهم بعد ما رأوا من الآيات أن يكونوا ربانيين قديسين ولا بد أن نشير هنا إلى أن موسى - عليه الصلاة والسلام - يصرح بأنه لا يملك إلا نفسه وأخاه، لا يملك أحداً وكان من المتبادر أن يذكر الرجلين الناصحين ولكنه لم يذكرهما كذلك؛ كأنه لا يثق بأحد أبداً وما أجمل ما أشار إليه الزمخشري: «فإن قلت: أما كان معه

(١) وهذا يذكرنا بما قاله من قبل حينما اتخذ قومه العجل ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ .

الرجلان المذكوران؟ قلت: كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان واتصال الصحبة من أحوال قومه وتلونهم وقسوة قلوبهم فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في امره»<sup>(١)</sup>.

ويقول الله لموسى عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَيَهُوتُ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ محرمة عليهم ولقد صدق الله وعده فلم يدخلها أولئك الذين قالوا لموسى عليه السلام ما قالوا، وكان جزاؤهم هذا التيه الذي حدثنا عنه القرآن فلا يصيبتك الأسى على القوم الفاسقين.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ يَنْقُورُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَغُلِبُوا وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَيَهُوتُ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

الحكمة من كون الأرض المقدسة هي آخر الحلقات التي ذكرت في القصة:

ولأمر ما أراد الله أن تكون آخر الحلقات في قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - قصة الأرض المقدسة لا لأنها آخر أيام حياته ﷺ فحسب، ولكن لأن ذلك التوجيه القرآني يدل أول ما يدل على أن ذلك هو أول ما يعني المسلمين من هذه القضية، قضية الأرض المقدسة التي أبى اليهود دخولها؛ لأن فيها قوماً جبارين ثم دخلوها ولكن بعد ذهاب نبيهم وانتقاله إلى ربه فعاثوا فسلط عليهم، وبقيت الأرض المقدسة تتعاقب عليها

(١) الكشف: جزء ١، ص ٦٢٢.

الأمم، ولكن أعظم فتح وأعلى مهر هو ذلك المهر الذي مهرها إياه المسلمون الذي استمر هذه القرون الطويلة حتى استطاع اليهود بمعونة دول البغي وبإضعاف كلمة المسلمين أن يدخلوها مرة أخرى ليسلبوا خيراتها ويشردوا أهلها، ورحم الله صاحب المنار السيد رشيد رضا الذي كان يحسن الظن فكان يرى أن الأمم النصرانية لا يمكن أن تساعد اليهود على أن يأخذوا فلسطين<sup>(١)</sup>، وأحب هنا أن أقرر الحقائق التالية:

حقائق لا بد من بيانها:

أولاً: إن فلسطين التي جبلت تربتها بدماء الشهداء والتي ربطت برباطين عظيمين كان أحدهما بأشرف بقعة من بقاع السموات، وكان الآخر بأشرف بقعة من بقاع الأرض في المسجد الحرام حيث أُسْرِيَ بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا لا يمكن أن تبقى بيد أولئك اليهود، أنى كان تصرف حكام هذه الأمة في شتى دولها إذ لم ينفعهم تقريبهم من اليهود شيئاً ولكن حينما يوجد الجيل الذي يستحق وسام النصر وشرف النصر سيكرمه الله بذلك وصدق الله ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

ثانياً: لقد أثبت الواقع الذي لا ينازع فيه أحد بالأرقام الدقيقة أن كل الذي استطاع أن يحصل عليه اليهود من أرض فلسطين حتى دخول الجيوش العربية سنة ١٩٤٨ كان ٦٥٪ فقط، وهذه النسبة الضئيلة منها ما أخذوه بوساطة الإنجليز أصحاب وعد بلفور الذين كانوا يحكمون فلسطين، أو اشتروه من أصحاب الأملاك الكبيرة من غير الفلسطينيين<sup>(٢)</sup> ومنه ما اشتري بوساطة بعض العملاء والسماسرة، هذا كله على رغم الضيق والصعوبة التي كانت تقصدها حكومة الإنجليز حتى يزهدوا الناس في أرضهم فيتخلوا عنها لليهود، ولكن القوم قاوموا ذلك كله ومع ذلك فالمكر الصهيوني دائماً

---

(١) راجع تفسير المنار: الجزء ٦.

(٢) تراجع حقائق عن قضية فلسطين للحاج أمين الحسيني رحمه الله.

يحاول أن يوجد الهوة بينهم وبين إخوانهم ليشوه سمعتهم، ومن الحق أن نسجل هنا ما كان من جهد طيب للحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله تعالى مفتي فلسطين الأسبق الذي ظلمه الناس كثيراً لا شيء إلا لأنه لم يستكن كما استكان كثير من حكام هذه الأمة رحمه الله تعالى.

ثالثاً: إن أي تنازل عن شبر واحد من أرض فلسطين لا يجوز في شرع الله والله يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وكل من يجيز ذلك فهو مخادع خارج عن الحق مؤادٌ لمن حادَّ الله ورسوله.

رابعاً: إن محاولة التفريق بين الصهيونية واليهودية لا تقوم على أساس تاريخي أو ديني أو واقعي كذلك؛ ولئن كان بعض الناس يريدون أن يفرقوا بينهما عن حسن ظن أو جهل في الأمور أو ضرب من النفاق السياسي فإنه لن يغني عنهم شيئاً، وقد سقط في أيديهم بعد أن برهن الواقع على غير ما يقولون.

وينتهي هذا الجانب أعني قصة موسى وهارون عليهما السلام مع بني إسرائيل.

### كلمة بعد المعاهدات والاتفاقيات:

ولا بد من كلمة هنا بعد هذه المؤتمرات الكثيرة، والمؤامرات التي هي أكثر منها والمعاهدات والاتفاقيات، التي لم تثبت واحدة منها ثمرتها حتى الآن لقد اختلفت آراء الناس ومواقفهم، فأولو الأمر ومن في ركبهم هو سائر وفئة ثالثة من الذين يعدون الحياة سهرة ليلة، ومن على شاكلة هؤلاء واولئك يصفقون بالأكف ويضربون على الدف، مبتهجين بما يسمونه سلاماً، والله يعلم أنه لا يمتُّ إلى السلام بصلة إن سينه سُم، ولامه لوثة وألفه إهانته، وميمه محنة وهناك موقف آخر لاولئك الذين لا يستهويهم البريق الكاذب وغرور اللمعان، والتهويش الفاقع، وإيحاءات وسائل الإعلام، يرون أنها أمني لن تبلغ بالناس إلى ما يريدون. ونحن ننظر إلى هذا الواقع نظرة غير هوجاء، ذلكم لأن حكماً عليها مستمدٌ من حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إن الحق المزعوم

اليهود في فلسطين، والذي أيدتهم فيه دول الغرب، وفي مقدمتها أمريكا، وإنجلترا تعويلاً على ما جاء في أسفار التوراة ليس له دليل يسنده أو برهان يؤيده، وما كان اليهود ليؤسسوا دولة، لو أن في المسلمين شيئاً من قوة، ولا أعني بالقوة قوة السلاح، فما نظن أن هناك من كدس السلاح بعضه فوق بعض مثل دولنا، ولكنني أعني بالقوة قوة الإيمان بالحق، ولن يكون هذا إلا بعد أن نعرف عدونا، ولقد رأينا مع كل أسف أن الدول العربية في أقصى المشرق والمغرب بدأت تتسابق مترهلة مهرولة من أجل أن تنشئ علاقات بينها وبين اليهود، فأين هذا الموقف موقف الضعيف المريض، الذي يتنفخ ورمأ من موقف العدو الذي لم يعبأ بأكبر المتنفذين في فرنسا وإنجلترا حينما ذهبوا إلى القدس فلم يلقوا من اليهود أيّ تكريم بل لقوا شيئاً آخر غير هذا.

إن الموقف الذي نستند إليه موقف صلب ثابت. إن وضع اليهود في قلب بلاد المسلمين فلسطين. خراج في جسم كبير، فإما أن يقاوم الجسم هذا الخراج، ولن يقاومه إلا إذا كان ذا مناعة قوية وإما أن يقوى هذا الخراج ويستفحل ليسلب الجسم كل قوته.

والناس في حيرة من أمرهم، إن اليهود أنفسهم يدركون تمام الإدراك أنه لا بقاء لهم إلا بما يغرسون في الأمة من فيروسات خبيثة مادية ومعنوية لأنهم يدركون أن قوتهم تكمن في ضعف الأمة وتفرقها. وصدق الله العظيم ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُثْقَوْنَ إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِعَصْبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾.

وما أكثر الدروس في الآية الكريمة، إنها تشير إلى حقيقتين، الأولى ضرب الذلة والآخرى ضرب المسكنة ومعنى ضرب الذلة والمسكنة عليهم إحاطتهما بهم ولزومها لهم، وهي طبيعتهم دائماً، والذلة هي ديدنهم في التاريخ قديمه وحديثه، ولكن هذه الذلة التي تلازمهم أينما وجدوا وأينما كانوا قد تتلاشى بما ذكره الله تبارك وتعالى ﴿إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢]، هكذا حبل من الله وحبل من الناس، أي عون من الله ومن الناس.

وهناك قضايا أشارت إليها الآية الكريمة :

الأولى : أنها ذكرت حبلين ، حبلاً من الله وحبلاً من الناس .

ثانياً : أنها قدمت حبل الله على حبل الناس .

ثالثاً : لا بد من هذين الحبلين ، ولذا قال وحبل من الناس ، ولم يقل أو بحبل من الناس .

ويمكن أن نتساءل هنا ، أما حبل الناس فأمره ظاهر ، ولا غرابة فيه فلقد قال الله تعالى لليهود في إفسادهم الثاني ، وهو هذا الذي نعيشه نحن ﴿ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ فحبل الناس ينعم به اليهود قبل أن تكون لهم دولة . وليست هناك دولة من الدول الكبرى أو غيرها إلا وقدمت لليهود أنواعاً من العون والمساعدة ، ألمانيا دفعت لهم كثيراً من الأموال تعويضاً عما يدعون أنه أصابهم في الحرب الثانية ، بريطانيا على الرغم من إيدائهم لها في فلسطين عملت كل ما وسعها فمكّنتهم من إقامة دولتهم ولا ننسى دور فرنسا والاتحاد السوفيتي سابقاً وأمريكا بكل صفاقة ووقاحة وقلة ذوق ، تقف ولا تزال لا تبخل عليهم بشيء وأيُّ وقاحة وأيُّ خزي للعالم كله حينما تقف دول العالم كلها في جهة ، وتقف أمريكا وحدها ومعها إسرائيل في جهة أخرى؟! وهذا حدث مراتٍ كثيرة في هيئة الأمم .

هذا هو حبل الناس لا عجب أن يتمسك به اليهود ويستعينوا به فما بال حبل الله؟ وكيف يمكن أو يجوز أن يؤيد الله أولئك الذين جحدوا كل نعمة عليهم وقتلوا أنبياء الله ، وكذبوا رسله ، وفعلوا ما لا يُفعل ، كيف يمكن أن ينعموا بحبل من الله؟

والإجابة عن هذا التساؤل سهلة يسيرة ، إن الله تبارك وتعالى ما أمدهم بحبل منه لأنهم مستحقون له ، وإنما كان ذلك جزاءً للأمة التي أرادها الله خيرَ أمة ، ولكنها انحرفت عن الجادة ، وخرجت عن المنهج الرباني ، ولو أنها استقامت لذهب عن اليهود هذا الحبل الإلهي ، ولو ذهب عنهم لذهب حبل الناس كذلك ، ولما أفادوا منه شيئاً إن قوة اليهود

تكمن في ضعف المسلمين، وضعف المسلمين السبب في قوة اليهود وهذا المعنى الذي فهمته من الآية الكريمة وجدته في كتبهم هم، فلقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الانبياء:

«ان الناظر إلى أحوال بني إسرائيل والقاريء للقرآن ولكتب أنبيائهم يجد الله تعالى قد دللهم وأعطاهم حكم الصبي على أهله. فأتاهم بالعجائب وفعل بالأمم الظالمة لهم الأفاعيل، واحتمل صلفهم وطغيانهم، ولم يترك وسيلة من وسائل استرضائهم إلا فعلها، وهم لا يزيدون إلا عناداً ومخالفة عن أمره.

والظاهر أن الأمم -التي طردها الله أمام بني إسرائيل وأورثهم أرضهم وديارهم- كانوا غاية في الرداءة والعصيان والكفر، حتى إن بني إسرائيل الذين نعرف حالهم كانوا مختارين من الله عليهم. وقد رأيت في الكتاب المقدس أن موسى عليه السلام -على ما أذكر- قال لبني إسرائيل: لا تظنوا أن الله تعالى سيأتي بكم إلى الأرض المقدسة بسبب قداستكم وطهارتكم وأنكم أفضل الناس في طاعته! كلا فإنه إنما يطرد الأمم أمامكم لرداءتهم ورجسهم العظيمين»<sup>(١)</sup>.

ولكن الذي نرجوه ونأمله أن ترجع هذه الأمة إلى رشدها، ليرجع الحق، ويزهق الباطل وما ذلك على الله بعزيز ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

ولا أقول استطردت فان ذلك ليس من الاستطراد، ولا زلت في صلب هذا الجانب من قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- وإن الموضوع هو الذي يحتم علينا أن نقول هذا وأكثر منه قال: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وبهذا ينتهي هذا الجانب -أعني قصة موسى مع بني إسرائيل- النبي الذي كان له في كتاب الله مالا يوجد لغيره من الأنبياء، وما ذلك إلا لحكم وأسباب، ولبعض الصلات والروابط والتشابه، ولما يعلمه الله مما سيكون بين المسلمين الذين أكرمهم الله بالقرآن، وبين أولئك الذين كان الحديث عنهم في قصة موسى عليه الصلاة والسلام.

---

(١) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار ص ٤٠٣.

## الجانب الخامس : جانب المنن الإلهية :

أما الجانب الخامس في قصة -موسى عليه الصلاة والسلام- فهو جانب المنن الإلهية، والمنح الربانية، التي أكرم الله بها موسى وهارون عليهما السلام، ونجده في السور التي كان موضوعها تعداد النعم على الأنبياء، نجد هذا أولاً في سورة الصافات .

وسورة الصافات -كما علمنا من قبل- كان حديثها عن الأنبياء من حيث ما أكرمهم الله به، ولا حاجة إلى إعادة ما قلناه من قبل، ولا أدل على ذلك من أن نقرأ ما جاء في سورة الصافات حديثاً عن موسى وهارون -عليهما السلام- .

﴿ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكُنُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ . وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْيَرِينَ . سَلَمًا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . ﴾

وهناك سورة أخرى يمكن أن تشبه سورة الصافات من بعض الوجوه، وهي سورة الأنبياء -عليهم السلام-، حيث جاء الحديث فيها موجزاً عما أكرم الله به أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام-، ولقد أشرنا إلى ذلك من قبل ولا أدل على ذلك من هذا الإيجاز المحكم المركز المعبر الهادف الجامع الذي تتحدث عنه هاتان الآيتان في سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨-٤٩]، ونحن لا نجد تكراراً في هذا كله .

## الجانب السادس : قصّة موسى مع العبد الصّالح عليهما الصلاة والسلام :

اعلموا -علمني الله وإياكم- أنّ هذا الجانب من حياة الكليم -عليه الصلاة والسلام- لم يذكر إلا في سورة الكهف ، وكان حريّاً أن أتحدث عنه مع القيصص المذكور في تلك السورة الذي سيأتيك بعد حين -إن شاء الله- لكنني آثرت أن أذكرها لتكون قصته عليه



السلام متصلاً بعضها ببعض وفضلاً على ما في القصة من عظات وكثير من أبواب الخير. فإن فيها البيان المتألق الذي يسفر عن جمال الأسلوب، وقد جاءت هذه القصة في سورة الكهف عقب آيات كانت تعقياً على قصة أهل الكهف، تبدأ الآيات الكريمة بقوله سبحانه ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتِلْغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ وقد جاء في صحيح البخاري - رضي الله عنه - عن سيدنا رسول الله - ﷺ - «أن موسى وقف خطيباً في بني إسرائيل. فستل: أي الناس أعلم، فقال: أنا. فعتب الله عليه لأنه لم يرجع العلم إليه سبحانه»<sup>(١)</sup> ونجد القصة تتحدث عن شخصيات وأحداث والشخصية الرئيسة في القصة. موسى وفتاه، والعبد الصالح، ولكن ذكر الفتى يتلاشى عند لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح، والأحداث الجوهرية في القصة ثلاثة أيضاً: خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار.

والقصة تدور مع ما فيها من مشوقات مع هذه الشخصيات والأحداث. وفي القصة مفاجآت يقف أمامها القارئ والمستمع، ولكنها مفاجآت يترقب القارئ لها حلاً، يقول موسى عليه السلام لفتاه: وأول ما نلحظه في هذه القصة هذا الأدب الجم، حيث لم يذكر القرآن الكريم اسم العبد أو الخادم أو صفة العبد أو الخادم. وهذا ما نجده في الأدب النبوي حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاتي وفتاتي»<sup>(٢)</sup> يقول موسى عليه السلام لفتاه إنه مهما تجشم من المشاق ومهما لقي من التعب أو مهما بلغ به العناء فإنه سيواصل السير إلى أن يبلغ مجمع البحرين ولهم في تحديده أقوال كثيرة لعل أرجحها أنه ملتقى خليج العقبة بخليج السويس - والله أعلم. وليس من عادة القرآن أن يحدّد تلك الجزئيات التي ليست ذات عبرة وهدف. وهذا شأنه في قصصه كله كما عرفتم من قبل.

فموسى عليه السلام مصمم أن يبلغ مجمع البحرين. حتى لو كلفه ذلك الأزمنة الطويلة، والحُقب مدة من الزمن، تعددت أقوالهم فيها، لكنّها مدّة طويلة ويسير الرجلان،

(١) أخرجه البخاري في التفسير حديث رقم ٤٧٢٥ الطبعة السلفية مع الفتح ٤٠٩/٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب ألفاظ من الأدب حديث رقم ٢٢٤٩.

وعندما يبلغان المكان الذي يريدان. وقد كان معهما حوت أُعِدَّ لطعامهما، وينساه الفتى، والقرآن الكريم يسند النسيان إليهما معاً لأنهما في أَمَسِّ الحاجة إليه، ويشاء الله أن ينفذ أمره، ولا تخالها إلا معجزة. من الأمور التي خصَّ الله بها أنبياءه: فيخرج الحوت ويسقط في البحر ويتخذ في البحر سبيله سرباً والسرب أصله النفق، ويجاوز موسى عليه السلام وفتاه هذا المكان بحثاً عن العبد الصالح الذي أمره الله أن يذهب ليتعلّم منه، كما جاء في حديث البخاري -رحمه الله- ويبلغ منهما السير مبلغاً، ويبلغ الجوع منهما كذلك، والسفر قطعة من العذاب، ولا بدّ من الطعام حتى يقوى الإنسان على مشاق هذا السفر. ويطلب موسى عليه السلام من فتاه أن يأتي بالغداء. والغداء هو ما يؤكل غدوة أي في الصباح ﴿إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ (أنا وأنت) وهذه الآداب التي علّمتها من الرسول عليه الصلاة والسلام «إخوانكم خولكم أطمعوهم مما تأكلون»<sup>(١)</sup> ويعني الخدم وأمثالهم.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وذلكم هو شأن السفر كما قلت.

وهنا يعتذر الفتى بأدب جم: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ تلك الصخرة التي كانت عند مجمع البحرين ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾: أنا الذي نسيت، وكأنما يعتذر الفتى عما فرط منه. لكنّه يقول ﴿وَمَا أَنْسِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

ويخبره عن الحوت بأنه اتخذ سبيله في البحر عجباً، وهنا يشعر موسى عليه السلام بالراحة والطمأنينة وكأن النصب الذي لاقاه يتبدد، وكأن الجوع يتلاشى، فلقد بلغ بغيته. يحدثنا القرآن عن كل هذا الذي يتفاعل في نفس موسى -عليه الصلاة والسلام- بكلمة موجزة ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ حتى إن الياء حذفت من الفعل اختصاراً لتصور لنا ما يريده موسى عليه السلام من العجلة في السير ثم تأتي هذه الفاء لتكتمل هذه الصورة ﴿فَارْقَدَا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي عاددا من حيث أتيا وهذا ما تدل عليه كلمة قصص، ومنه قص الأثر ويجد موسى عليه السلام هناك بغيته. وما أجمل هذه الفاء في موقعها ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم كثر، وليس هذا إلا واحداً منهم، أكرمناه كرامتين: الرحمة أولاً، والعلم ثانياً.

(١) أخرجه البخاري بمعناه في كتاب الإيمان حديث رقم ٣٠ المطبعة السلفية مع الفتح ٨٤/١.

وهنا نجد التصوير القرآني الرائع والبيان الأخاذ، حيث عبّر بظرفين اثنين لكنّه غاير بينهما، ومن هنا قلت: إن القصص القرآني ليس سرد حوادث ولا دراسة وتاريخ. بل هو عظات نظمت نظماً بيانياً، يزيدّها جمالاً، أمّا الظرفان فهما: عندنا، لدنّا.

والأمر الذي يأخذ باللبّ وبمجامع القلب أن الظرف الذي هو أكثر استعمالاً (عند) اقترنت به الرحمة ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ لكن الظرف الآخر الذي هو أخصّ من الأول (لدن) قد اقترن به العلم، وتلكم إشارة غاية في السمو والموضوعية والدقة، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ وهذا يجعلني أرجح بل أؤكد لأسباب كثيرة غير الذي أذكره الآن أن الرجل كان نبياً.

قال تعالى يحدثنا عن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- يقول نوح -عليه الصلاة والسلام- لقومه: ﴿قَالَ يَقْوِمُ زَرْعَكُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقَرُّ مِّن رِّقِي وَعَائِنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: ٢٨] ويقول ﷺ ﴿قَالَ يَقْوِمُ زَرْعَكُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ يَتَقَرُّ مِّن رِّقِي وَعَائِنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]، وهكذا يقول الله عن العبد الصالح ﴿عَائِنْتُهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ وهذه الرحمة كانت للكليم كذلك ولكن هناك أمراً خاصاً آخر أخصّ من العندية ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ وإذا كانت الرحمة مشتركة بين الكليم والعبد الصالح إذا قلنا إنها النبوة، فإنّ هذا العلم اللدني خاص بهذا العبد. وهنا يبادر موسى عليه السلام ليستأذن العبد الصالح ليعلمه ممّا علّمه الله رشداً، والرشد ضد الغي، وهو من النعم التي يختص الله بها من يشاء من عباده، ألم يقل سبحانه ﴿وَلَقَدْ عَائِنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ ولكن العبد الصالح وهو يعلم البعد أو الفروق البعيدة بين ما عند موسى عليه السلام وعنده هو يقول: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ويعلق موسى صبره على المشيئة بأدب جم. ما أحوج المتعلمين الذين هم دون الأنبياء بل العلماء ما أحوجهم إليه ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وهنا قضية تستحق التسجيل وهو أنّ المعلم ينبغي أن يبين المنهج الذي يتبعه أن يبينه للمتعلم. وهذا ما كان من العبد الصالح «وهو الخضر -عليه الصلاة والسلام-»

هذا المنهج. هو أن يتحلى موسى عليه السلام بالصبر. وأن يلتزم الصمت وأن لا يستعجل الأمور قبل أن يأتي أوان بيانها ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وكما قلت من قبل تنتهي مهمة الفتى عند لقاء الرجلين. وما نظن أنه كان مصاحباً لهما كما يقول بعض الناس، وآية ذلك ما جاء في الآية الكريمة ﴿فَانْطَلَقَا﴾ وتبدأ الأحداث بهذه الكلمة المعبرة «انطلقا» لم يقل (مشيا أو سعيًا). انطلقا. وهذه الكلمة لها مذاق خاص أو دلالة خاصة بها، ومن أراد أن يتذوق معنى هذه الكلمة التي عبّر بها فلينظر إلى نظيراتها في كتاب الله. لقد ذكرت حديثاً عن الملائكة من قريش ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصِيرُوا عَلَى الْهَيْكَلِ﴾ بعد أن قالوا ﴿أَجْعَلِ آلَهُةً إِلَهُاً وَحِداً﴾ ولقد كانت حديث أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمتها مصبحين ولا يستثنون أي لا يتركون شيئاً للفقراء، يقول القرآن الكريم ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ﴾ والذي يتدبر الكلمة الطيبة في الآية الكريمة يجدها تدلّ على نوع من العناية والاهتمام، والهدف في السير وهكذا كان شأنهما فإنّ كلاّ منهما يترقّب ما سيكون من الآخر موسى عليه السلام يترقّب ما الذي يتعلّمه من العبد الصالح والعبد الصالح يترقّب ما الذي سيكون من موسى عليه السلام أيستطيع أن يصبر؟ وبينما هما يسيران على الشطّ تأتي سفينة، فيعرف أصحابها الخضر، فيحملانها وكما جاء في الحديث (بلا نول) بلا أجرة.

والقرآن الكريم يصوّر لنا هذه الحركة السريعة عند ركوبهما في السفينة كيف بادر العبد الصالح بفعلته، كما يصوّر لنا أيضاً هذه الحركة السريعة من موسى عليه السلام وهو ينكر على العبد الصالح فعلته. ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقَهَا لِنُجُورِ أَهْلِهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْراً﴾ أي أمرٌ مستنكر فيه داهية ما كان لك أن تفعله ويذكر العبد الصالح موسى بما جرى بينهما عند اللقاء ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ويعتذر موسى عليه السلام بأنه نسي كأن الحدث الذي رآه أنساه كل شيء. والله لا يؤاخذ عبده بالنسيان، فحريّ بالعبد الصالح أن يسمح وأن يصفح، ويظهر موسى عليه السلام هذا الأدب الجَمّ

﴿ قَالَ لَا تَأْخُذْ بِمَا تَصَيَّبَ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِ عُسْرًا ﴾ لا تزد المشقة على نفسي واعفُ عن هذه الزلة، وإلا فإنك ستحملني ما يؤرق نفسي ويزيدني ألماً على ألم. ويقبل العبد الصالح هذا العذر ويسيران مرة أخرى، ولكن ليس مجرد السير بل إنه السير المغيّا إنه الانطلاق الذي تحدثتُ عنه من قبل، ويسيران ولكنهما هذه المرة يسيران في البر لا في البحر. وبينما هما كذلك في انطلاقهما، يلقيان غلاماً فيقتله العبد الصالح وما أقطع قتل النفس! والكليمُ وقد قتل قطياً من قبل ما كان يقصد قتله لكنّه وكزه وكزة ما كان لها أن تقتل فحمل منها الكثير وخرج خائفاً يقطع الفيافي والقفار، وهو ينكر على فرعون قتله أبناء الإسرائيليين وقد جاء بشريعة تحرم القتل، وهو يرى غلاماً يُقتل، بلا ذنب اقترفه ولا خطيئة فعلها.

إن كثيراً من الأحداث تصيب من يشاهدها بالذهول، حتى تقطع الصلة بينه وبين ماضيه كلّ، وهذا ما كان من موسى -عليه الصلاة والسلام- لقد كان إنكاره في هذه المرة أشدّ من سابقتها، وها هو ينكر على صاحبه ﴿ أَقَلَّتْ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ ولئن قال من قبل (إمراً) فإنه يقول هنا (نكراً) والكلمات القرآنية موحية معبرة وإذا كانت كلمات موسى عليه السلام يظهر فيها الإنكار أكثر من قبل، فإن كلمات العبد الصالح يظهر منها أكثر ممّا كان منه من قبل، ولنستمع إليه هذه المرة يقول ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ ﴾ وهذه (لك) لم نجدّها من قبل. ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ وهنا يظهر من موسى عليه الصلاة والسلام -الحكمة والسموّ كيف لا؟ وهو الكليم؟ لا بدّ أن يجعل حدّاً لهذا الذي يدور بينه وبين صاحبه، كيف وقد وعده من قبل أنه سيجده صابراً ولا يعصي له أمراً. إذن لتكن هذه المرة الأخيرة، وأي شيء يكون منه فيما بعد فلتكن النهاية ﴿ إِنْ سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْجِبْهُ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ أي قد وصلت إلى أقصى غاية كي لا تقبل اعتذاري إليك. ولا ندري أكان الكليم مصمماً على أن يتمالك نفسه في هذه المرة الأخيرة، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية طلبا من أهلها أن يضيفوهما فأبوا وبينما هما يسيران في شوارع القرية رأيا جداراً يريد أن ينقض فأصلحه العبد الصالح، وأقامه حتّى

لا يسقط. وكنا نودّ من موسى -عليه الصلاة والسلام- أن يتمالك نفسه عند هذه، حيث لم يكن فيها إيذاء. فليس هناك أناس معرضون للغرق، وليس هناك نفس قُتلت بغير نفس، وهذا ما جاء في حديث رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.

ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ وكان موسى -عليه الصلاة والسلام- يُنهي بنفسه هذه الصّحبة، حيث قال من قبل ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـجِّبْنِي﴾ وهذا الذي كان، وهذا ما أعلنه العبد الصالح ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ولكنه لن يتركه إلا بعد أن يؤوّل له ما استنكره أو اعترض عليه، ممّا لم يستطع عليه صبراً. وبدأ يفسّر له هذه الأحداث التي وقعت ليدرك أنّها كلّها لم تكن إلا لمصالح عليا أما السفينة، فأصحابها مساكين جعل الله رزقهم في هذه الدنيا بعملهم بهذه السفينة.

والقصة القرآنية وإن كانت تبرز حدثاً معيناً وإن كانت ذات غاية لكنّ فيها جزئيات كثيرة لكلّ منها ثمرة ومغزى. ففي هذه بيان أن المسكين لا ينبغي أن يظّل متطفلاً على موائد الناس، بل يجب أن يعمل حتى وإن كان العمل شاقاً خطيراً، فهو خير من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه، وهذا ما أرشد إليه النبي -عليه الصلاة والسلام-. ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وبين له حكمة ذلك لأن هناك ملكاً ظالماً كان يستولي على السفن الصالحة، فكيف إذا كان أصحابها من المساكين الذين لا سند لهم، ويظهر أن هذا الملك لا يأخذ إلا السفن الصالحة، وهذا يفهم من الآية الكريمة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين، وكان حبه قد استولى على قلوبهما، ولكنه طبع على الكفر وقد يرهق أبويه بسبب حبهما له طغياناً وكفراً، فأراد ربك الذي وسعت رحمته كلّ شيء أن يبدلهما ولدًا آخر هو أكثر طهارة وأكثر رحمة بهما، وبقي أمر الجدار. فهو لغلامين يتيمين في المدينة، كان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً، ولئن وقع الجدار فسيبدد الكنز، لكن صلاح الآباء فيه خير للأبناء، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ثم يعلن العبد الصالح أن كل ما فعله ليس له فيه اجتهاد، ولم يكن بهواه. ! إنما كان وحياً من الله، وهذا يجعلني أؤكد

ما قلته من قبل أن هذا الرجل كان نبياً ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ وبعد، فتلكم قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، فيها الكثير من دقائق الفقه، ودقائق البيان، ذكرت لك بعضها في أثناء الحديث عن هذه القصّة والذي ذكرته لك غيض من فيض.

انظر مثلاً إلى قوله سبحانه ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ حديثاً عن السفينة وقوله ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ حديثاً عن الغلام وقوله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ حديثاً عن صاحبي الكنز والجدار، كيف أسند الإرادة إلى نفسه أولاً لأن فيها عيباً ولا يريد أن تسند الإرادة إلى الله وكيف أسند الضمير فيما بعد ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ لأن العبد الصالح له دور في هذا الأمر وهو القتل، وكيف أسند الإرادة إلى الله وحده لأن بلوغ الأشدّ أمر بيد الله وحده.

ولقد تاه كثيرون وهم يفسرون أحداث هذه القصّة. وظنّ بعضهم أن كثيراً ممّا يفعله المشعوذون من ذوي النوايا الخبيثة يمكن أن يجدوا له أساساً في هذه القصّة، ونسوا قول العبد الصالح ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئٍ﴾ فهل يوحى إلى أولئك؟ اللهم لا.

أيها القارئ الكريم. إنّ في القصّة دقائق كثيرة، في البيان والعقيدة والفقه والأخلاق، فإذا اردت المزيد فإني أرشدك إلى ما كتبه الشهاب الألوسي رحمه الله تعالى في تفسيره البديع الذي أسأل الله أن يجزيه عنه خيراً -روح المعاني- فارجع إليه تجد خيراً كثيراً. والله يتولاني وإياك برعايته، ونسأله سبحانه أن يعصمنا من الزلل وأن يكرمنا بالرحمة والعلم فهو الأجود والأكرم.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّى أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّي نَادَيْتُ نَارًا فَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا رَكْبَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنَا أَيْهَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا أُوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿

[الكهف: ٦٠-٨٢].

وبهذا ينتهي حديثنا في قصة موسى عليه الصلاة والسلام ويعلم الله أنه لا زال في القصة كثير مما يُحتاج إليه، ولكن لم يتسع المقام لما هو أكثر من هذا في هذا الكتاب الذي آثرنا أن لا نطنب فيه وأي قصة من قصص أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام



وبخاصة أولي العزم وقصة آدم عليه الصلاة والسلام أي قصة منها قد تستوعب كتابا وليس ذلك عليها بكثير .

وبعد :

فهذه جوانب متعددة في قصة الكليم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - . قل لي بربك هل وجدت فيها تكراراً؟؟ ولنستعرض معاً بإيجاز هذه الجوانب :

كان أهم جانبين في قصته عليه السلام إرساله إلى فرعون وإرساله إلى بني إسرائيل ، فالجانب الأول كان متعلقاً بفرعون ، وهذا الجانب كان أكثر الجوانب ذكراً من حيث تعدد السور التي عرضت له ، فلقد ذكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون فيما يقرب من عشرين سورة بين إشارة وإيجاز وتفصيل . ومع ذلك كان كل مرة بأسلوب له مغزاه ودلالاته فقضية السحرة مثلاً ، وما كان شأنهم هي من القضايا الكبرى ، ولهذا كانت عناية القرآن بها حافلة ومع ذلك لم تذكر بأسلوب واحد لأمر مضى من قبل . والحديث عن موسى عليه السلام تارة كان ينسب لفرعون وتارة ينسب للملأ ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرْمُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَيَهْلِكَ قَالَ سَتَقْبِلُونَ آيَاتَهُمْ . . الخ الايات وكل ذلك له مسوغاته ودلائله ، وله هدفه الأعلى الذي يقصد إليه القرآن ، فالقرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا تخلق جدته ولا تنقضي عجائبه ، وهكذا يشترك الملأ مع فرعون لأنه أذلهم وها هو بعد أن كان من السحرة ما كان وبعد أن خذلوه وآمنوا بالله يقول : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ كأنما يريد أن يشعر قومه بشيء من الحرية ، وبشيء من الاعتبار ولكنه بعد ذلك يقول : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ . ومثل ذلك بالطبع لن يسمى تكراراً أبداً - كما قلنا من قبل - وإذا كان هذا الجانب الذي كان أكثر الجوانب ذكراً وأشملها سوراً كان كذلك فمن البدهي أن تكون الجوانب الأخرى . وهكذا كان الجانب الثاني وهو الذي يتعلق ببني إسرائيل - وكما رأينا كان بعيداً عن التكرار كل البعد نعم كانت هناك قضية مهمة خطيرة ذكرت مرتين ولكن كان لها من أسلوبها وهدفها في كل

مرة ما يجعلها تختلف عن أختها، ونعني بها قضية اتخاذ العجل، وهي قضية حري بأن ينبه عليها لما فيها من الغرابة الكثير الكثير وبخاصة من قوم من الله عليهم بمنته.

أما الجانب الثالث: وهو قضية الرسالة فمع أهميته وخطورته إلا أننا نجد السور التي ذكرت فيه كانت أقل من غيرها، وقد تحدثنا هناك عن قضية العصا التي توهم التكرار، ولا نود أن نعيد ما قررناه هناك، وهنا أمر آخر لابد أن ننبه عليه وهو أن القرآن الكريم كان حديثه عن موسى - عليه السلام - مرتباً بهذا الترتيب البديع فهو يبدأ بالجوانب التي هي أكثر صلة بواقع المسلمين وأشد ارتباطاً. ولهذا كان الحديث أولاً عن فرعون، ثم عن بني إسرائيل كما رأينا، إلى آخر ما هنالك من جوانب.

## تعقيب على قصة موسى - عليه السلام -

من خلال ما أكرمنا به من تشنيف آذان، وتشريف جنان ولسان، رأينا في الآيات الكريمة في قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - أهدافاً وأبعاداً نفسية واجتماعية بل سياسية وعسكرية... كل ذلك صيغ بعبارات معبرة في قوالب من البيان الساحر، ومن أجل أن تسعد الإنسانية وتصدق، يقص الله القصص على الناس. فالقصص يمد النفوس بروافد حتى لا تذبل ولا تذوي. ولقد كانت قصة موسى - عليه الصلاة والسلام -، تمثل هذا القصص بصدق وموضوعية؛ حيث تعددت جوانبها - كما رأينا من قبل -، وسنحاول أن نجتزئ إن شاء الله بإيجاز مما يكرمنا الله به. وكأن موسى هياه الله تبارك وتعالى ليعيش وليحيا هذه الظروف المتعددة حيناً، والمتناقضة حيناً آخر، وأول ما ينبغي أن نقره هنا، أن القوم الذين تعامل معهم موسى - عليه الصلاة والسلام -، محاولاً إصلاحهم، كانت تتناقض نفسياتهم تناقضاً تاماً؛ فمنهم المستعلون المستكبرون؛ الذين تسيطر عليهم مشاعر القوة والبطش، وهم فرعون وملؤه، ومنهم المستضعفون المستعبدون الأذلاء المضطهدون المعذبون وهم بنو إسرائيل. وليس أمراً سهلاً يستطيعه كل أحد أن يوفق بين هاتين النفسيتين ليصهرا في دعوة واحدة... ولكن قدر موسى عليه السلام كان كذلك ولكي نلم إمامة موجزة نقف مع كل قضية من قضايا القصة الكريمة، ولنبدأ أولاً بشخصية موسى عليه الصلاة والسلام :-

من تطوافنا في القصة مع الآيات الكريمة في سورها الكثيرة المتعددة، نتصور ملامح شخصيته - عليه الصلاة والسلام -، وأول هذه الملامح ما نلمحه من حدة في الطبع، وشدة في المزاج. وكأن شدة أمواج اليم الذي ألقى فيه، شاء الله أن يكون لها فيه أثر. نلاحظ هذا أول ما نلاحظه مبكراً؛ فعلى الرغم من حاجته إلى الرضاعة، يأبى أن يلتقم

ويلتقف أي ثدي، ويأبى أن يهش أو يقبل على أي امرأة... صحيح كل ذلك من الله تبارك وتعالى؛ ولكن الله تبارك وتعالى هو الذي أودع فيه ذلك ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾. ويكبر الطفل وتكبر معه هذه الحدة والشدة، ويدخل المدينة ويكسر القبطي وكزة تقضي عليه. ثم يحاول في اليوم الثاني أن يبطش بآخر وتلك لاشك، مظاهر لهذه الحدة والشدة... ويجد امرأتين تذودان ويسقي لهما، وتسير الأحداث ويشرف برسالة الله، ويكون ما بينه وبين فرعون، وما بينه وبين بني إسرائيل. ويعجل إلى ربه، وهو يترك قومه الذين معه، ثم يرجع وقد وجد بني إسرائيل انحرفوا عن الجادة، ويلقي الألواح بعنف ثم يأخذ برأس أخيه بعنف. وها هو وقد أخذ القوم الرجفة يناجي ربه بقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ أَتْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾.

ويكون بينه وبين العبد الصالح ما قص علينا القرآن الكريم... إلى غير ذلك مما تظهر فيه ملامح هذه الحدة ظاهرة جليلة، وإلى جانب هذه الشدة كانت القوة... القوة على التغلب على الأحداث والقوة في التحمل، وإلى جانب هذه القوة: الأمانة، وهذا ما أدركته المرأة وقد نصحت أباهما أن يستأجره ﴿إِنَّكَ خَيْرٌ مِنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾... وهاهو يرد على فرعون وقد من عليه بترتيبه وليدأ، يرد على أسئلة فرعون ردوداً تظهر القوة من خلالها ظهوراً غير خفي، ولكن نجد صفة أخرى تبرز إلى جانب هذه الصفات كأنما هي متناقضة مع ما مر من صفات ولكنها ليست كذلك في شخصية موسى ونعني بها الرحمة؛ تظهر هذه الرحمة في مواقف كثيرة كذلك فهي هو يعلن تضارعه لربه بأنه ظلم نفسه، ولا أدل على ذلك من رحمته بهاتين المرأتين، ثم صفحه عن كثير من أعمال بني إسرائيل، وتلك صفة لا بد منها للأنبياء وورثتهم.

وهناك صفات أخرى تظهر من خلال الآيات: كالصبر، والعناية بشؤون قومه، والعلم والمعرفة والرغبة في الإزدياد منهما، يظهر ذلك في مثل قول الله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ ارِنِي﴾ أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴿﴾ قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على اثارهما قصصا... كل ذلك وغيره من الصفات الخيرة يظهر للمتأمل في الآيات الكريمة.

ثانياً: كما نلمح من خلال الآيات ظاهرة التبعية والاستضعاف، وهي ظاهرة لاريب بحاجة إلى دراسة متأنية ليس محلها هذه السطور لكننا نكتفي هنا بالقول:

إن هذه التبعية ينشأ عليها الأبناء وهم يرتضعون لبنها الآسن؛ كما يرتضعون حليب أمهاتهم... وهكذا يورثها الآباء للأبناء، ولا يسلم منها إلا من عصم ربك، وكان ذا شخصية قوية، مع هذا فنجد أن آثار هذه التبعية تظهر حتى على ذوي الشخصيات القوية، ألم تر إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - وعلى الرغم مما تمتع به حين أرسله الله فطلب العون ولما أمده الله به ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْطُرَ عَلَينا أَوْ أَنْ يَطْغى﴾. إن صورة فرعون الجبار مرتسمة في نفسيهما، وهذا بالطبع؛ لأنهما لن يجدا من قومهما النصر؛ لأن نفوس أولئك الإسرائيليين أرضعت هذا الضعف والاستضعاف. ومن هنا نجد موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو يطلب من ربه وزيراً من أهله لم يعتمد في ذلك على غير أخيه هارون عليه السلام، ولقد صدق حسه، وصح حدسه؛ فلم يجد غيره حتى بعد المسيرة الطويلة، وعلى رغم كل ما كان وعلى رغم ما بذل من محاولات لإصلاح القوم نجده يقول ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾.

نجد قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - وهي تتحدث عن هذه الظاهرة تبين آثارها السيئة وما ينتج عنها من أضرار، كما ترشد إلى طرق التخلص منها... وهذه التبعية من أخطر مشكلاتها وأبرز عقدها أنها ليست صراعاً بين فئتين اثنتين: فئة المستكبرين وفئة المستضعفين، ولكن الأخطر من ذلك والأنكى منه؛ أن هذه التبعية تصبح صراعاً بين أبناء الفئة الواحدة، لا أعني الفئة المستكبرة، وإنما الفئة المستضعفة نفسها.

إن هذه الفئة المستضعفة، هي التي سيكون منها الشرط والعسس والحرس والعيون، وأكثر من ذلك سيكون أولئك جميعاً في خدمة الفئة القوية، حرباً على قومهم يتحسسون أخبارهم، ويتجسسون عليهم، وتلك لعمر الحق أخطر من سابقتها ياويل المستضعفين!! لا أقول ياويل المستضعفين من الأقوياء فقط، بل أقول ياويل المستضعفين من الأقوياء، ثم ياويل المستضعفين من المستضعفين، أي والله من المستضعفين!! وقبل ذاك ياويل المستضعفين من الله، ألم يحدثنا القرآن الكريم أن كثيرين من بني إسرائيل لم يؤمنوا لموسى عليه السلام؛ لا خوفاً من فرعون فحسب، وإنما خوفاً من بني إسرائيل أنفسهم، ذلك هو خبر القرآن في مثل هذه القضية الخطيرة. ثم يأتي الواقع الذي نحياه ونعيشه؛ يأتي هذا الواقع ليصدق القرآن في كل شيء ولا ريب؛ فهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثالثاً: ومما هو قريب الصلة بقضيتنا - قضية التبعية - قضية الإستعلاء: والحق أن القرآن الكريم أرشد - وهو كتاب الإنسانية كلها - إلى أمر جدير أن يتنبه له ويفاد منه؛ هذا الأمر - ليت قومي يعلمونه!! ولكن علما يكون له ثمرته، وما ثمرة العلم إلا العمل - هذا الأمر الذي أرشد إليه القرآن يتخلص فيما يلي:-

خلق الله البشر جميعاً من آدم من طينة واحدة؛ والعنصر الذي أودعه فيهم عنصر واحد فلم يجعلهم فئتين اثنتين: فئة أعطيت من العناصر ما يجعلها قوية، وما يجعل لها مناعة ضد الاستضعاف، وفئة لم تُعط شيئاً من هذا، إن الله لم يخلق الناس كذلك؛ وإنما هذا الاستضعاف ينشأ من شيء آخر ليس ذاتياً ولا جوهرياً في حياة الإنسان، بل هو أمر كسبي، يختاره بعض الناس لأنفسهم، وعلى رغم مرارته وقسوته إلا أنهم يستمرئون فيما بعد كما يستمرىء المريض مرارة الدواء مع ما بينهما من فرق بعيد، لذلك نجد القرآن الكريم يحدثنا أن فرعون وقد نادى في قومه: ﴿الَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ وَهَٰذِهِ آلَٰئُهُنَّ جَرَىٰ مِنْ تَحْتِيَّ أَفَلَا بُصِّرُونَ﴾ يحدثنا القرآن الكريم أن فرعون استخف قومه فأطاعوه إنهم

كانوا قوما فاسقين هكذا وبهذه الكلمة المعبرة، بهذا التعبير الهادف الهاديء من جانب، والهادر من جانب آخر: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]. إن هذا الاستخفاف وتلك التبعية ينشآن أكثر ما ينشآن في البيئة غير المحصنة والتي لا تقوى على المقاومة كما ينشأ المرض في الجسم الضعيف، لذا كان التدين الحق غير المتصنع الوسيلة الوحيدة، أو هو أقوى الوسائل للتغلب على هذا الاستخفاف الذي يصل بأصحابه إلى تأليه الأفراد، إن الدين قوة بل أعظم قوة لذلك لا غرابة إن رأينا أنه يُشْرُ عليه حرب شعواء. وهنا نجد القرآن الكريم ينبه على حقيقة مهمة؛ وهي أن هؤلاء المستخفين لأقوامهم يلبسون لكل حالة لبوسها الملائم لها، لذلك نجدهم يشعرون أقوامهم حيناً من الدهر، أن الكلمة كلمتهم، والرأي رأيهم، فهم أصحاب الحل والعقد وهم الشعب، هم أولو الشأن وذوو الأمر، وهذا هو فرعون يطلب من قومه وملئه أن يخلوا بينه وبين موسى عليه السلام ليقتله، حفاظاً على دين الأمة ومبدئها.

سبحان الله!! أذكر وأنا أكتب هذه السطور ما قاله توفيق الحكيم يوم أن أثيرت قضية رسالة الفن القصصي في القرآن لمحمد خلف الله، وحينما وقف المسلمون في الجامعة والأزهر وبعض أولي الشأن، حينما وقفوا في وجه كاتب الرسالة والمشرف عليها، قال توفيق الحكيم:

«إن وقوفهم في طريق هذه الرسالة ومحاربتهم لما جاء فيها من أفكار إنما هو تمهيد وتوطئة لرجوع الإنجليز إلى مصر؛ لأن الذي يمكن أن يصد الإنجليز ويمنعهم عن مصر ويمنعهم من الرجوع إليها - كما يرى توفيق الحكيم - هو أن نسمح لما في هذه الرسالة من أفكار وغيرها مما يشبهها مما هي حرب على الإسلام أن نسمح لها بالانتشار؛ لأن انتشارها هو الوقاية من رجوع الإنجليز». ومثل هذا كثير يقول أحد الساسة: «إن إعطاء الحرية للمسلمين للعمل في بلادنا سيكون من نتيجته أن ترجع فرنسا لتستعمرنا مرة أخرى». مقالة فرعون إذن وجدت من يكررها ويردها وما أعظم هذا القرآن لو تعلمون!.

ولكن فرعون حينما يجد الجد يرجع عن كل ذلك، فها هو وقد رأى رجلاً من قومه وآله، ينصح بكلام رقيق مؤثر، تثور الحمية في نفسه فيبين لقومه أن لا رأي إلا رأيه وأن ليس هناك إلا قول واحد ورأي واحد، ومبدأ واحد، وبالتالي حزب واحد، ليس هناك إلا ما يقوله فرعون ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا آَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

رابعاً: ومن الدروس التي ينبغي أن نقف عندها، درس على قدر من الخطر؛ ذلك أن كثيراً من المصلحين يدب في نفوسهم اليأس، حينما يرون ابتعاد الناس عنهم، ولكن ليعلم أولئك جميعاً أن هذه الكلمة حينما يمن الله على قائلها بالإخلاص والحكمة لا بد أن يكون لها أثرها، وها نحن نجد موسى - عليه الصلاة والسلام - لا يعدم من يتأثر بكلمته. ولقد حدثنا القرآن الكريم عن مؤمن آل فرعون في سورة خاصة به سميت باسمه كان ينصح قومه وكانت كلمات مؤثرة معبرة.

ويجمل أن ننبه أيضاً على أمر مهم وهو أمر السرية فهو على قدر كبير من الخطر وهو ما تدعو إليه الحكمة في بعض الأوقات. إن مؤمن آل فرعون الذي كان يكتنم إيمانه لو أنه جهر بهذا الإيمان وأعلنه ما كانوا ليتمكنوه من أن يقدم لهم هذه النصائح الغالية بهذا الأسلوب الرائع والذي سجله القرآن الكريم لأهميته وبراعته.

خامساً: كان لعنصر المرأة في قصة موسى عليه السلام أثر غير قليل حيث ظهرت في هذه القصة أكثر من غيرها في القصص السابقة ومجموع ما في هذه القصة يعطينا أنموذجاً للمرأة من حيث نفسياتها وقدراتها العقلية وعملها الاجتماعي وحكمها على الأشياء، وأول ما يقابلنا في هذا أم موسى عليه السلام التي امتثلت أمر الله تبارك وتعالى، ولكن مع هذا الامتثال كانت عاطفة الحنان تهيمن عليها، ومع هذا فشخصيتها شخصية المرأة التي ربما لا تقوى على كثير من مقارعة الأحداث ومجابهتها وبخاصة إذا طال أمدها، وهاهي يصبح فؤاها فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من



المؤمنين، وهاهي تقول لأخته قصيه ويشير القرآن إلى هذا الملحظ بقوله ﴿كَانَ نَفَرًا مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ لَاحَةً﴾ ولا تحزن ﴿وَعَدَمَ الْإِشَارَةِ إِلَى أَبِي مُوسَى فِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّأْنَ إِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَرْأَةِ نَفْسَهَا لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي قَدْ تَقَوَّى عَلَى مَا طَلَبَ مِنْهَا أَوْ تَضَعَفَ .

والمرأة الثانية في قصة موسى عليه السلام هي أخته التي يدلنا القرآن على ما كان لها من دور يدل على بصر في الأمور وحسن مخرج في التغلب على ما يخرج، وهاهي كما يقول القرآن الكريم ﴿بَصُرَتْ بِهِ عَنْ جَنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقالت كلاماً لا يشير حولها شبهة بل يبعد بها كل البعد عن أن يشار إليها بأصابع الاتهام والموقف حرج حقاً ﴿هَلْ أَذْكَرُ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُوتٌ﴾ هكذا: ﴿أَذْكَرُ﴾، ﴿أَهْلِ بَيْتٍ﴾، ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾، ﴿وَهُمْ لَهُ نَصْحُوتٌ﴾ كل كلمة تشير إلى معنى .

وإذا تركنا أمه وأخته - عليه الصلاة والسلام - وقد رأينا أن كلا منهما تكمل ما للأخرى، وجدنا امرأة ثالثة تفيض رحمة وحناناً مع عقل راجح واستعطاف مؤثر، كل ذلك يتفاعل مع تدين صادق غير مفتعل وكأن فرعون أحس بأن هناك أمراً، وهنا ندرك ما للمرأة من تأثير في حياة الرجل حتى لو كان جباراً، نعم لقد استطاعت المرأة أن تؤثر واستطاع الجبار أن يستجيب فماذا قالت امرأة فرعون: لا تقتلوه، ولكن لماذا؟ ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾، تبدأ بهذه العبارة قبل أن تنهى عن قتله ﴿لي﴾ انها تستعطفه أولاً كأنها تقول له عندك من الأجناد والملك والعمل والمشاكل ما تشغل به وقتك، أما أنا فكما تعلم ليس لي من ذلك شيء أشغل به وقتي وأبهج به نفسي، فمن أجلي أنا أولاً ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ ثم قالت ﴿لك﴾ هكذا يعبر القرآن الكريم، ومن يدري فلعلها لو قالت «قرة عين لك» لو قالت ذلك أولاً لقال «أنا أجد ما تقر عيني به فلا أريد» ولكن المرأة المؤمنة الحصيصة عرفت من أي مدخل تدخل، يالروعة الإيمان! ويا لروعة التعبير فمن يهد الله فهو المهتد، اللهم اهدنا إلى صراط مستقيم ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .

وبقي في قصة موسى ابنتا الشيخ الكبير ، ولقد رأينا من قبل كثيراً مما تتمتعان به من صفات خيرة فهما لا تزاحمان الرجال أولاً فتدودان حتى يصدر الرعاء ، ثم تبنان بحصافة ولباقة السبب الذي دعاهما لامتهان هذه المهنة مع أنها للرجال توضحان هذا السبب حتى لا يظن بهما شيء آخر ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ثم لا نجد منهما ثرثرة فلم يحدثنا القرآن الكريم عن شيء بعد أن سقى لهما موسى - عليه الصلاة والسلام - إنه الوقار بل إن حديثهما لأبيهما أولاً قد طواه القرآن الكريم كذلك كأنما هو حديث موجز تحدثنا به لأبيهما خجلتين . ثم يبين القرآن هذا الحياء حينما جاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴿قَالَتْ إِنَّكَ ابْنُ يَدْعُوكَ﴾ ولكن يدعوك لماذا؟؟ تكمل ابنة الشيخ الكبير ، تكمل قولها لتبين سبب هذه الدعوة ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ليس لها ولاختها فقط بل للبيت كله ، ثم تظهر منها تلك الحصافة ورجاحة العقل لقد رأت من موسى - عليه السلام - كل خير ﴿أَسْتَعِجِرُهُ إِنَّكَ خَيْرَ مَنْ أَسْتَعِجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ وأخيراً نجد في قصة موسى عليه السلام هذه الصفة من صفات المرأة؛ الطاعة للزوج تظهر هذه الصفة جليلة ، وهاهو موسى - عليه الصلاة والسلام - لما قضى الأجل وسار بأهله وآنس من جانب الطور ناراً ، وقال لهم ما قال يذهب ويتركها وحيدة وكان يمكنها أن تطلب أن تكون معه ، ولكنها الطاعة النابعة من الإيمان ، والمزينة بالعقل والحصافة .

سادساً: ومن القضايا المهمة في قصة موسى قضية السحرة وكيف أحدثوا هذا الانقلاب الهائل ولا عجب فنحن نرى كثيرين ممن يحملون ألوية العدا للدين يكرمهم الله بالهداية فتكون هدايتهم أقوى وأثبت من كثير من الهدايات المهزوزة كهداية بني إسرائيل الذين طلبوا صنماً يعبدونه بعد أن نجاهم الله ، هكذا كان السحرة وهكذا من يكرمه الله بالهداية ، ألم تروا إلى «روجيه جارودي» وكان منظر الشيوعية في أوروبا كيف أكرمه الله بالهداية وغيره كثير . . .

وهكذا نجد الحكم الكثيرة في قصته - عليه السلام - ولكنه مع جهاده ومع ما تحمله من مصابرة وعناء مع ذلك كله وعلى رغم أن الله أكرمه ونصره على فرعون، والله ينصر رسله في الدنيا والآخرة إلا أننا نجد مع بني إسرائيل على الرغم من شدته وغضبه تارة وعلى الرغم من استغفاره وصفحه عنهم تارة أخرى نجده وقد طفح الكيل وبلغ السيل لا يزيد على قوله ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

ولقد كانت اللبنة التي وضعها موسى - عليه الصلاة والسلام - في بناء الإنسانية ذات مكان ومكانة، لقد جاء ليخرج الناس من ظلمة التبعية وبؤرة الاستضعاف وأتون العبودية... جاء ليخلصهم من هذا المنحدر الذي لا يتنسم المرء فيه عليلاً وإن وجد فهو هواء فاسد... جاء موسى - عليه السلام - ليضع في بناء الإنسانية المحكم هذه اللبنة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

كما أنه جاء يضع للناس لبنة يفرقون بها بين الحق والباطل، وكثير ما تسحر الناس أعمال وأقوال ذات مظاهر خلافة وأشكال جذابة ولكنها ليست في حقيقتها إلا خداعة كذابة وما نبأ السحر ببعيد...

ومن مظاهر اللبنة التي وضعها موسى - عليه الصلاة والسلام - مظهر العلم الذي تجشم المشاق في طلبه وهو الرسول الكريم والنبى الكريم... هكذا إذن كانت اللبنة التي وضعها موسى عليه السلام في بناء الإنسانية المحكم تجمع بين العلم والعمل ومحاربة الضعف وإخلاص العقيدة، ولئن كان حديداً في مزاجه شديداً في طبعه فذلك ما خصه الله به، فالمواقف التي سيجابها - عليه الصلاة والسلام - بحاجة إلى هذه الشخصية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وقد شبه الرسول ﷺ صاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، شبه أبا بكر رضي الله عنه بإبراهيم وعيسى عليه السلام

وذلك لما كان يعرف من رفته ولبنه رضي الله عنه، أما إبراهيم عليه السلام فقد قال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ يَعْصِي فَإِنَّهُ مِنْي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وأما عيسى - عليه الصلاة والسلام - فقد قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وشبه عمر رضي الله عنه بنوح وموسى - عليهما الصلاة والسلام - وذلك لشدة رضي الله عنه وحدته أما نوح عليه السلام فقد قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وأما موسى فقد قال ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

وتبقى في قصة موسى عليه السلام جوانب كثيرة تاريخية وجغرافية ونفسية واجتماعية لا يتسع لها المجال في هذا الكتاب، وخير ما نختم به الحديث عنه - عليه السلام - قول الله تعالى له ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]. ولا يفوتني هنا أن أذكر ان الحديث عن موسى عليه الصلاة والسلام لا ينبغي أن ينسبنا الحديث عن هارون عليه الصلاة والسلام فهما أخوان شريكان في دعوة واحدة يجري على أحدهما ما يجري على الآخر، ولقد كان هارون عليه السلام معروفاً بصلاحه وتقواه معروفاً بحكمته وإخلاصه وحرصه على اجتماع الناس على الحق وبجبه لأخيه، وهذا كله يظهر فيما حدثنا القرآن الكريم عنه مثل قوله سبحانه ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ وقوله سبحانه ﴿يَبْنُوهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَاقِي وَلَا يَأْسِ﴾ وقوله ﴿فَلَا تَشْتُمْ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

لقد كان وزيراً مخلصاً يملأ المنصب الذي هياه الله له. ﴿سَلَّمْنَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

## الفصل الثالث عشر

### قصة يونس عليه السلام.

١- سورة القلم .

٢- سورة يونس .

٣- سورة الصافات .

٤- سورة الأنبياء .

تعقيب على قصة يونس عليه السلام .

رَفَعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

## قصة يونس عليه السلام:

وبقصة موسى عليه السلام ينتهي القصص الذي يصور لنا المعارك العنيفة بين الأنبياء وبين أقوامهم، اللهم إلا ما كان من إشارات لامحة خاطفة لما كان من خبر يونس عليه السلام مع قومه، ومع ذلك فلن نجد ما وجدناه في أخبار الأنبياء من قبل. وهناك أنبياء ذكروا في كتاب الله تعالى أكثر من مرة لا من حيث ما دار بينهم وبين أقوامهم وإنما من حيثيات أخرى. وسنحاول أن نتبع ذلك إن شاء الله حتى يكون موضوعنا متكاملًا والله ولي التوفيق.

إذا كنا نتحدث عما كان بين الأنبياء وبين أقوامهم فنرى أن نتحدث الآن عن يونس عليه الصلاة والسلام. وهو يونس بن متى، كما يقول النبي ﷺ في حديثه لعداس في الطائف وهو من نينوى من أعمال العراق. (١)

١ - وجرياً على سنة القرآن - كما تكلمنا من قبل - فإن أول إشارة تحدثت عن يونس - عليه الصلاة والسلام -، وقد ذكرت مبكرة في سورة القلم، وهي السورة التي جاءت تسلياً للنبي ﷺ، وهي التي جاءت ترد التهم التي ألصقها به المشركون، وتبين ما أعد الله تبارك وتعالى له من أجر غير ممنون، وما أكرمه به من خلق عظيم، ثم ترد عليهم وتبكتهم وتضرب لهم الأمثال، ثم تحاجهم لتثبت لهم أنهم ليسوا على شيء، وبعد إقامة الحجة عليهم، يقول الله تبارك وتعالى لنبهه ذي الخلق العظيم ﷺ.

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ هَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ (٢) إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ أَمْ سَأَلْتَهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٣) أَمْ عَنْدهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ

(١) يراجع الحديث في السيرة النبوية. انظر مثلاً البداية والنهاية لابن كثير ١٣٦/٣.

(٢) أُمْلِي لَهُمْ: أي أمهلهم.

(٣) المغرم: الغرامة، أي لم تطلب منهم على الهداية والتعليم اجرا فيثقل عليهم حمل الغرامات في =

الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۚ لَوْلَا أَن تَدَارَكُوهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿الْقلم: ٤٤-٥٠﴾.

وجميل أن يشار إلى قصة يونس ذي النون عليه السلام في سورة (ن)، والنون هو الحوت. هذه الآيات الكريمة - كما نرى - لم تذكر يونس عليه السلام باسمه، وإنما ذكرته بأنه صاحب الحوت. ويؤمر النبي ﷺ بأن يصبر لحكم ربه ولا يستعجل ما ينبغي أن يحل بهم، كما كان من صاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم أي ممتلىء غيظاً وهماً ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكُوهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ لولا أن الله تبارك وتعالى تداركه بنعمه، ومنّ عليه بلطفه ووقفه لما ينجيه، لنبد بالعراء وهو مذموم وممقوت يصيبه اللوم، ولكن نعم الله التي أكرمه بها فوفقه للتوبة والتسبيح كانت عاقبتها أنه نبذ بالعراء غير مذموم، فليس معنى الآية أن يونس عليه السلام لم ينبذ بالعراء، وإنما المعنى - والله أعلم - أنه نبذ بالعراء غير مذموم، فنبذه بالعراء نعمة من نعم الله عليه؛ لأنه خرج سليماً من بطن الحوت، وتتميماً لهذه النعمة بُدّ مرضياً عليه من ربه غير ممقوت ولا مذموم، وهذه إشارة تتوق النفوس وتتشوق إلى ما سيأتي بعدها من تفصيل، لكن قبل هذا التفصيل لابد أن نشير هنا إلى أمر له شأن يتصل بصلة الأنبياء وتعظيم بعضهم لبعض من جهة وبعظمة سيدنا رسول الله ﷺ وآله وسلم من جهة أخرى.

إِنَّ الآية الكريمة السابقة ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ قد يتبادر لذهن بعض الناس منها ما يخذش شخصية يونس عليه الصلاة والسلام، فأراد سيدنا رسول الله ﷺ أن ينفي هذا الوهم وأن يرشد المسلمين إلى حسن الظن برسول الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام. ففي صحيح البخاري عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: إني خير من يونس»<sup>(١)</sup>. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ:

= أموالهم فيئطهم ذلك عن الإيمان.

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: حديث رقم ٣٤١٢.



«ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خيرٌ من يونس بن متى»<sup>(١)</sup>. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه، فقال: لا، والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الانصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي ﷺ بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذمّةً وعهداً، فما بال فلانٍ لطم وجهي؟ فقال: «لم لطمت وجهه؟ فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رُمي في وجهه، ثم قال: «لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكونُ أولَ من بُعث، فإذا موسى آخذٌ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بُعث قبلي»<sup>(٢)</sup>. وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»<sup>(٣)</sup>.

والرسول ﷺ إنما يقصد نفسه بهذه الأحاديث إذ لا يعقل أن أحداً من المسلمين يرى نفسه أفضل من يونس عليه السلام، فالرسول ﷺ كما قلت يعني نفسه، وتلكم هي شمائله عليه الصلاة والسلام. وصدق الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. ولنكمل الان قصة يونس عليه السلام كما جاءت في كتاب الله.

٢- ثم تأتي السورة التي خصه الله بها وهي سورة يونس، فنقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] والذي تدلنا عليه الآية الكريمة أنه ليس هناك من القرى المهلكة قرية امنت فنفعها إيمانها، لأنهم كانوا يؤمنون حينما ينزل العذاب بهم كما كان من فرعون وبعضهم كان ينزل به العذاب قبل أن يؤمن فلم يتمكن من الإيمان،

(١) حديث رقم ٣٤١٣.

(٢) حديث رقم ٣٤١٤.

(٣) حديث رقم ٣٤١٦.

وهؤلاء وأولئك لا ينفعهم الإيمان، ولكن قوم يونس عليه السلام حينما بدت لهم أسباب العذاب وظنوا أنه واقع بهم، وقبل أن يحيط بهم ويحقيق رجوعوا إلى أنفسهم وتضرعوا إلى ربهم فلما علم الله منهم صدق إيمانهم كشف عنهم عذاب الخزي، ومتعمهم إلى حين، وهو الأجل الذي مُدَّ لهم في علم الله تبارك وتعالى.

هذا الإجمال في الآية الكريمة نجد له تفصيلاً في سورة أخرى.

### ٣- سورة الصافات، قال تعالى:

﴿وَلَإِنْ يَوُسَّ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنْتُ كَانَتْ مِنَ الْمُدْحَضِينَ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٨﴾ فَبَدَّدَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَبْلَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

والذي تبينه الآيات الكريمة أن يونس - عليه الصلاة والسلام - وهو من المرسلين الذين أكرمهم الله وقد ذكر بعضهم في السورة الكريمة - لم يصبر على مغالبة قومه فتركهم وقد سمى القرآن الكريم هذا الترك إباقاً، والإباق هربُ العبد من سيده، فإطلاقه على يونس عليه الصلاة والسلام إطلاق مجازي؛ لأن يونس عليه السلام لم يهرب من ربه حاشاه عليه الصلاة والسلام.

هذا ما كان من يونس - عليه الصلاة والسلام - وكان حرياً به أن يصبر وهو ما أشارت إليه الآية التي تحدثنا عنها في سورة «ن» وقد جاء يونس عليه السلام إلى الفلك المشحون إشارة إلى امتلائه وثقل من فيه فساهم أي ضرب بالسهام وهي القرعة فكان من المدحضين، أي كانت القرعة عليه لينزل من الفلك إلى البحر فألهم الله الحوت أن يلتقمه دون أن يؤذيه، ألم يجعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام؟ وتلكم عناية الله بعباده بعامة وبأنبيائه بخاصة، كما مر معنا من قبل وسيمر معنا فيما بعد إن شاء الله.

التقمة الحوت وهو مليم، أي: حري بأن يُلام على تركِ قومه دون إذن من الله تبارك وتعالى. وهذا سيدنا رسول الله عليه وآله الصلاة والسلام وقد لاقى كثيراً من عنت قومه وإيذائهم فلم يتركوا وسيلة ولا عملاً فيه إيذاء له ﷺ وللمن آمن معه إلا فعلوه، ولم يلق يونس عليه الصلاة والسلام شيئاً من هذا أو قريباً منه؟، ومع ذلك فلم يهاجر الرسول ﷺ إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة، فكان حرياً بيونس عليه الصلاة والسلام ألا يترك قومه، ولكنها حكمة الله التي لا يدركها كثير من الناس.

والقرآن الكريم يبين لنا كرم الله تبارك وتعالى على عباده، ونفع العمل الصالح الذي يعملون، فيونس عليه الصلاة والسلام وقد حل به ما حل يلجأ الى الله مسبحاً ذاكراً وهو في بطن الحوت، وقد كان من قبل كذلك، فيكرمه الله تبارك وتعالى، وصدق الله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلِئْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا فترسه الحوت وأماته، ولا يفهم من الآية كما فهم كثير من المفسرين أنه سيظل حياً في بطنه إلى قيام الساعة.

ولا تعيننا المدة التي مكثها عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت التي اختلف فيها المفسرون، ولا دليل على شيء من ذلك كله، ولعلي أرجح القول بأن ابتلاعه لم يزد على يوم أو بعض يوم. يقول الله سبحانه: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ومن التعبير القرآني ندرك أن الله المهيمن على كل شيء له الحكمة البالغة حيث قال «فنبذناه» ولم يقل «فنبذه الحوت» سبحانه هو الملهم لكل فاعل فعله ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

«وهو سقيم» وهذا أمرٌ بدهي، لأن من يحدث له ما حدث ليونس عليه السلام لا بد أن يكون كذلك. وأكرمه الله فأثبت عليه شجرة من يقطين لترد عنه كثيراً من الغوائل ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ زَيْدٍ مُّكْتَفٍ﴾ وفي الآية إشارة إلى كثرة قومه ﴿فَتَأْمَنُوا فَمَعَّغْنَهُمْ إِلَى جُنَّحٍ﴾ [الصافات: ١٤٨].

ذلكم تفصيل لما جاء في السورتين الأوليين سورة القلم وسورة يونس، وقد رأينا أنه تفصيل جديد لم يذكر من قبل.

٤- ثم تأتي سورة الأنبياء - عليهم السلام -.

عجيب أمر هذا القرآن في نسقه ونظمه. إن النفوس لا زالت متشوفة لما تعرفه عن خبر يونس - عليه السلام -، فالذي ذكر في السورة السابقة سورة الصافات هو أنه أبق إلى الفلك المشحون أما ماذا وراء ذلك وما سببه؟ فتذكره سورة الأنبياء - عليهم السلام - في قوله تعالى ﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَوِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].<sup>(١)</sup>

وذو النون هو يونس - عليه السلام -، والنون هو الحوت - كما قلنا من قبل - وذهابه مغاضباً: تركه لقومه وقد جاءهم بالنذر وأنذرهم وخوفهم من أجل أن يؤمنوا، ولكنهم لم يستجيبوا فتركهم ضجراً وسأمه دون إذن من الله تبارك وتعالى ومن أجل هذا - والله أعلم - نهى الله النبي ﷺ أن يكون كصاحب الحوت، ولهذا نجده ﷺ كما ذكر في السيرة لم يهاجر إلا بعد أن أذن الله له بالهجرة، يونس - عليه السلام - ترك قومه سأمه وضجراً لعدم إيمانهم مغاضباً وقد أغضب قومه تركه لهم وغضب منهم كذلك ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

ولا يظن أحد أن يونس - عليه الصلاة والسلام - ظن أن لا يقدر الله عليه، فهذا لا يمكن أن يدور بخلد أحد فضلاً على أن يكون نبياً أو مؤمناً، وإنما معنى الآية أنه يظن أن لن يضيق الله عليه، ولن يؤاخذه بتركه لقومه والتقدير معناه. التضيق،

---

(١) من روعة التعبير في القرآن الكريم انه ذكر في سورة (ن) صاحب الحوت في سياق أمر النبي ﷺ بالصبر ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُكِنْ كَصَاحِبِ الْاُخُوتِ﴾، أما هنا فقد ذكر قوله ﴿وَإِذَا النُّونُ﴾ ذكرت كلمة «ذو» بدل صاحب وكلمة «النون» بدل الحوت والسياق هنا يختلف عن السياق هناك؛ فكان لكل من الكلمتين هنا ميزة على صاحبها/ راجع البرهان ج٤ / وتفسير روح المعاني ج٢٩. في تفسير السورة.

وذلك كما في قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] وقد قال بعضهم في معنى ليلة القدر إنها سميت كذلك لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة لكثرتهم . الذي يهمنا هنا أن يونس - عليه الصلاة والسلام - ظن أن الله تبارك وتعالى لا يضيق عليه ولا يؤاخذه وقد ترك قومه دون إذن سأمه وضجرأ، وهنا يطوى في الآية اخباره - عليه الصلاة والسلام - التي ذكرت من قبل ، كل الذي يذكر . ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولعل هذا ما يرجح ويقوي أن تسبيحه في قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ الذي مر معناه في سورة الصافات أن هذا التسبيح كان في بطن الحوت فعلا، ويمن الله تبارك وتعالى عليه ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ وهذا الذي ذكرته لك متسق مع ما كنت قد رجحته في الطبقات السابقة وهو رأي جمهور العلماء من أن قصة ابتلاع الحوت كانت بعد الرسالة . أما على القول الآخر الذي رجحته لك في هذه الطبعة الجديدة فلا بد من نظرة جديدة في هذه الآية .

والذي يترجح لدي أن يونس عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً من أجل أمر طلبه منه بعض أولي الأمر ، ولكنه تردد في إنفاذه، وقد ذكرت بعض الروايات أن نبياً في زمانه كان اسمه (حزقيل) طلب من الملك في ذلك الوقت أن يرسل بعض الأخيار لهداية بعض الناس فكلف يونس ولكنه ثاقل فعزم عليه الملك أن يذهب فذهب ، على غير رضا منه ، فكان ما كان من أمره عليه الصلاة والسلام .

ونحن نعلم أن القرآن الكريم يطوي كثيراً من الجزئيات التي لا تمس موطن العبرة ، وخلاصة الأمر أنه بعد ما كان من أمر الحوت أرسله الله تبارك وتعالى ، ويؤيد هذا الرأي آيتان من كتاب الله إحداهما ما جاء في سورة الصافات ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ بعد قوله ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّطِينٍ﴾ والأخرى في سورة القلم ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بعد قوله ﴿لَنُدَّيِّرَهُ بِالْعُرَىٰ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ، والله أعلم .

﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ما أجمل هذا التعقيب على قصة يونس عليه السلام! وما أحوج المؤمنين إليه في كرباتهم وهمومهم! وقد ورد في الحديث الذي أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء إلا استجاب الله له»<sup>(١)</sup>.

هذه قصة يونس - عليه الصلاة والسلام - وفضلا على أنه لا يوجد أي شبهة تكرار فيها، فإنها جاءت متسقة الحلقات، مرتبة الحوادث، ثم ختمت بهذا التعقيب الهادف: ﴿وَكَذَلِكَ نُشِجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ والحق أن ختم القصة قضية حرية بالدرس، لأننا لو استعرضنا هذا القصص، لوجدنا كل قصة تختتم بخاتمة معبرة هادفة حكمة وحكماً، ولعل أقرب مثل على ذلك ما ختمت به قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - وهو قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ إلى غير ذلك مما يمكن أن يدرس فتلمح منه الفوائد والعبر.

هل ما حدث من يونس عليه الصلاة والسلام ينافي العصمة؟

الذي حدثناك عنه أخي القارئ تبعا فيه جمهور المفسرين وهو أن ابتلاع الحوت كان بعد نبوته عليه الصلاة والسلام، وهنا لا بد أن نتساءل: إذا كان ذلك بعد النبوة أفيتفق مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟ وأحب أن أوجز لك هذه القضية فأبين لك أن العلماء اتفقوا على أن العصمة واجبة للأنبياء بعد النبوة ونعني بالعصمة الامتناع عن كل محرّم. أما قبل النبوة فأجمعوا على أنهم عليهم الصلاة والسلام معصومون عن الشرك أولاً وعن الكبائر ثانياً، وقد حدثتك من قبل أن موسى عليه السلام لم يقصد قتل القبطي: أما الصغائر فقد اختلفوا في شأنها، والراجح عندهم أنهم معصومون عن الصغائر التي تخل بالشرف والمروءة. قالوا: والذي فعله يونس عليه الصلاة والسلام لا يخلّ بالعصمة، لأنه لم يكن كبيرة بل كان اجتهداً منه، وسيأتي لذلك تفصيل فيما بعد إن شاء الله.

(١) انظر الترمذي في الدعوات حديث رقم ٣٥٧٢/تحفة الأجوذي ٤٧٩/٩.

أما القضية الثانية وهي : أكان ابتلاع الحوت قبل النبوة أم بعدها؟ وقد عرفتم أنّ الذي ذكرته لكم تبعث فيه جمهور المفسرين، وقد روي عن قلة من الأئمة أنّ ذلك كان قبل النبوة، ولعلّ هذا ما يترجّح لديّ الآن وأنا أقدم هذا الكتاب بقلب جديد في طبعته الرابعة. وهذا القول أشار إليه كثير من المفسرين بقطع النظر عن كونهم موافقين أو مخالفين له، وقد نقله القاضي عياض في الشفاء عن ابن عباس رضي الله عنهما<sup>(١)</sup>.

وأياً كان القائلون فإنه يبدو لي ترجيح هذا القول لما يلي : أولاً : أن من أكرمه الله بالنبوة لن يتردد في تحقّق وعد الله له، ويونس عليه الصلاة والسلام توعّد قومه إن لم يؤمنوا بالعذاب، فبعدد أن يكون قد تركهم ارتياباً منه في وقوع العذاب، وما ذكره القاضي عياض رحمه الله من أنه ضعف عن حمل أعباء النبوة، وما ذكره الشيخ عبد الوهاب النجار قريباً من هذا وحدث جدلٌ ساخنٌ بينه وبين لجنة العلماء التي شكلت لدراسة كتابه، أقول : ما ذكره العالمان الفاضلان بعيدٌ تصوّره، وصدق الله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

ثانياً : إنّ المتدبّر الآيات الكريمة يجد أنّ هذا القول أقرب إلى معناها من غيره، ولنقرأ الآيات الكريمة في سورة (ن) :

﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكُمُ نِعْمَةٌ مِن رَّبِّي لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَنِبْهُ رَبُّهُ فَعَمَلُهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٩-٥٠] ونحن نعلم أن قومه الاجتباء هي النبوة والرسالة، وكذلك السِّلْكُ في جماعة الصالحين فلقد وصف الله كثيراً من أنبيائه هذا الوصف، والعطف بالفاء يرجّح هذا القول كثيراً، والقول إنّه أرسله مرّة أخرى غير الأولى قول بعيد جداً، ولعلّ المتدبّر الآية في سورة يونس يقبل ما قلت.

---

(١) الشفاء للقاضي عياض بشرحي ملا علي القاري والشهاب الخفاجي: ج٤/ص ٢٥ المطبعة الأزهرية المصرية، ١٣٢٧هـ، وبشرح ملا علي القاري وتحقيق الشيخ حسين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق: ج٤/ص ٤٥ مطبعة المدني.

## اعتراض وجوابه :

ولكن يعكّر على هذا القول الآية الكريمة ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ كنتُ أقرأ هذه الآيات مرجحاً هذا الرأي وكان أحد أبنائي فسألني - وهو من أهل الطب - كيف ترجّح هذا الرأي والله يقول: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ﴾ أليست إذ ظرفاً، ومعنى الآية أنه عند إبقائه كان رسولا؟ وهو سؤال وجيه تحتاج الإجابة عنه إلى شيء من الروية والتدبر. إذ ظرفٌ لما مضى من الزمان وقد يكون مقترناً بالحدث الذي ذكر معه وقد يكون غير ذلك، وإليكم هذه الآية الكريمة: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّيْلِ الْمُنْتَهَى﴾ ذكرتُ إذ هنا وذكر معها الفعل الماضي ﴿أُنَبِّئُكَ﴾ ولا يمكن أبداً أن تكون إذ ظرفاً لهذا الفعل ﴿أُنَبِّئُكَ﴾ لماذا؟ لأنّ الخطاب هنا للنبي عليه وآله الصلاة والسلام وهو في مكة بعد البعثة، ونداء الله لموسى عليه الصلاة والسلام كان قبل ذلك بمئات السنين، ولذلك قالوا: إذ ظرفٌ للحديث وليس للإتيان، وإليكم توضيحاً آخر: أقول: وإنّ سيدنا محمداً ﷺ لخاتم الأنبياء، إذ اختلفت قريش عند بناء البيت من الذي يضع الحجر الأسود في مكانه، فاتفقوا على أن يحكموا أول من يدخل عليهم، فكان الرسول الله ﷺ وحكم حكماً ارتضوه جميعاً وإليكم مثالا آخر: إن سيدنا محمداً رسولُ الله ﷺ إذ وعد الصحابة يوم الخندق أن يفتح الله عليهم بلاد كسرى وقيصر.

تأملوا هذين المثلين لتجدوا أنّ المثال الثاني كان الظرف فيه متصلاً بالحدث، فالرسول حينما وعد الصحابة بفتح بلاد كسرى وقيصر كان قد أكرمه الله بالرسالة، وليس كذلك المثال الأول، حيث الظرف مستأنف، فحينما ذكرتُ الجملة الأولى «إنّ محمداً رسول الله» استأنفتُ طرفاً من خبره الذي كان قبل الرسالة، وهي قصة الحجر الأسود.

إذا عرفنا هذا وأرجو أن نكون قد تدبرناه تدبراً جيداً وقرأنا الآيات مرةً أخرى ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ فمن رأى أنّ الحادثة كانت بعد الرسالة عدّ قوله ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ متصلاً بقوله ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أي: حينما أبق إلى الفلك



المشحون كان رسولاً، وأصحاب الرأي الآخر يقولون إنّ الآية الثانية كانت مستأنفة، فبعد أن أخبر الله عن يونس عليه السلام إنه من المرسلين ذكر طرفاً من أخباره قبل الرسالة وهو أنه ﴿إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾.

وبعدُ فإنّ هذه القضية لا تعكّر على شيء من العقيدة، فخذُ أيّ القولين ترجّح لديك، والله أعلمُ بحقائق الأشياء.

ثانياً: تعقيب على قصة يونس عليه السلام.

وإذا كان لا بدّ من وقفة مع قصة يونس عليه السلام في كتاب الله أولاً؛ فلا بد أن نذكر هذه الصلة المحكمة، وهذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء عليهم السلام.

أولاً: كلنا يذكر هذا الحدث المهم من أحداث السيرة النبوية يوم أن ضرب النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام أروع الأمثلة في التحمل والتضحية، وقد أعرض عنه أهل مكة، فذهب إلى الطائف مشياً على قدميه ليلبغ أهلها دعوة ربه، ولكنهم كانوا أكثر إعراضاً وأشدّ قسوة، وأبعد عن الهداية، ويلقى النبي الكريم منهم من الإيذاء الكثير ويناجي ربه بهذه الدعوات «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين». وفي هذه الأثناء يأتيه عدّاس وهو عبد لأحد كبراء الطائف، ويسأله النبي عن اسمه وبلده، فلما عرف أنه من نينوى قال «أنت من بلد الرجل الصالح يونس بن متى»<sup>(١)</sup>.

وهذه الحادثة تحمل في طياتها معاني كثيرة فهي تدلنا - كما قلت - على هذه الرابطة الموثقة بين الأنبياء - عليهم السلام - كما تدلنا كذلك على أن النبي ﷺ كان يعلم مما علمه الله كثيراً من أخبار الأول بعامة، والأنبياء - عليهم السلام - بخاصة، ومن هذا القبيل معرفته لنسب يونس عليه السلام وبلده ويشهد لما قلناه قوله - عليه السلام -

---

(١) أخرج القصة ابن إسحاق (١/٢٦٠، ٢٦٢) بسند صحيح عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا لكن قوله: «اللهم إليك أشكو...» ذكره بدون سند وكذلك رواه ابن جرير (٢/٨٠، ٨١) عن طريق ابن إسحاق، وروى هذه القصة الطبراني في «الكبير» من حديث عبد الله بن جعفر مختصراً وفيه الدعاء، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/٣٥) وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات.

«أوتيت القرآن الكريم ومثله معه»<sup>(١)</sup> وإنما ذكرنا هذا حتى لا يتوهم أن ما أعطيه النبي ﷺ مع القرآن كان ذا صلة بالأحكام التشريعية فحسب.

ثانياً: تدلنا قصة يونس عليه السلام كذلك على أن هذا الإنسان يبقى ضعيف التحمل لولا عونُ الله ومدده فسرعان ما يعيل صبره ويضعف تحمله حينما يدُلَّهُمُ به الليل، ذلك ما كان من يونس - عليه السلام - . فقد ذهب مغاضباً ظاناً أن الله لن يضيق عليه ولن يؤاخذه . . . وإذا كان مثل هذا الظن يمكن أن يقبل من غير أصحاب النفوس الكبيرة الذين لم يعدوا في هذه الحياة ليكونوا مصابيح هادية؛ فإنه لا يقبل ممن أعدهم الله تبارك وتعالى ليحملوا رسالته، لذلك كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين، والله تبارك وتعالى الحكم العدل يأخذ كل واحد ويحاسبه على قدر ما أنعم عليه وبمقدار ما مكنه في هذه الحياة . . . ألم تر إلى الآيات الكثيرة، والأحاديث الكثيرة كذلك التي جاءت تبين أن الناس لا ينبغي أن يكونوا سواء وإنما كلُّ بقدر ما أنعم الله عليه . . . وإن شئت أن تطمئن نفسك فتعرف شيئاً من هذه الآيات الكريمة فاستمع إلى قول الله تبارك وتعالى لنبه وحببه وأحب خلقه إليه خاتم أنبيائه سيدنا محمد ﷺ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَفَدَّتْ رَكْبُكَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥] ثم استمع إلى ما يوجهه لسنائه عليه وآله الصلاة والسلام أمهات المؤمنين عليهن سلام الله ورضوانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَحْشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهِنَّ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠-٣١].

يونس - عليه السلام - إذن كان من أولئك الذين أعدهم الله ليقودوا هذه القافلة البشرية في زمان من أزمنتها ومكان من أمكنتها، فكان لابد من أن يكون أكثر تحملاً وأكثر تقبلاً،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب «السنن» باب لزوم السنة/ مختصر سنن أبي داود ص ١٨، وأخرجه الترمذي وقال حسن غريب.

وأقدر على التصرف وأجدر بتبديد الضعف لذلك جعل الله منه درساً، فقال لنبيه عليه وآله الصلاة والسلام ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

ثالثاً: لكن هذا منسجم مع بشرية الأنبياء - عليهم السلام - وإذا كان الله قد أكرمهم بالعصمة فإن هذه العصمة إنما هي وقاية أولئك الأنبياء مما لا يليق بهم، وقد بين العلماء - رحمهم الله تعالى - هذا، فأولُّه الشرك قبل النبوة وبعدها، ولهذا نجد الأنبياء - عليهم السلام - قد حفظهم الله من هذا الشرك، منذ نشأتهم، ومن قبل أن يرسلهم إلى قومهم، وبعد الشرك الكبائر فالأنبياء معصومون من فعلها قبل النبوة وبعدها كذلك، كالسرقة والزنا والقتل، وقد قلنا إن ما حدث من موسى - عليه السلام - حين قتل القبطي لم يكن قاصداً له ولم يكن منه سبق إصرار، ولم يكن بما يقتل في العادة كالأدوات التي يستعملها الذين يصرون على القتل، ومما يعصم عنه الأنبياء كذلك الصغائر التي تخل بالمروءة وتتنافى مع الهيبة، ذكرنا ذلك كله لنبين أن ما حدث منه عليه السلام لم يناف العصمة؛ لانه ليس من الأنواع الثلاثة التي تقدمت وهي الشرك والكبائر والصغائر التي تتنافى مع المروءة.

على أن كثيراً من العلماء يرى أن ما كان من يونس - عليه السلام - حينما التقمه الحوت إنما كان قبل النبوة، وأظن أن الذي يقرأ الآيات الكريمة فيرى سياق الآيات يرضى هذا القول... مع أن القائلين به أقل من غيرهم لكنني أستريح له، لأنه لا يجعلنا نتكلف في فهم الآيات. والمتأمل لآيات سورة الصافات أظنه يقف معي لترجيح هذا القول ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَبْلَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٧].

وإذا كان من لبنة خص بها يونس عليه السلام في بناء الإنسانية المحكم، فإنما هو هذا الإعداد الذي ينبغي أن يكون لذوي النفوس الكبيرة حتى تقدر على التحمل وتصبر على الأذى، وهو نوع من الجهاد عظيم.



## الفصلان الثالث عشر والرابع عشر

### قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

١ - في سورة (ص).

٢ - في سورة النمل.

٣ - في سورة سبأ.

٤ - في سورة الأنبياء.

٥ - في سورة البقرة.

تعقيب على قصة داود وسليمان عليهما السلام.



## قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام:

إذا كانت كثير من كتب التفسير امتلأت بالإسرائيليات وبخاصة فيما يتصل بقصص الانبياء عليهم الصلاة والسلام، فإن هذه الإسرائيليات كانت أكبر مساحة وأشد غرابة وأكثر نكارة في ما يتصل بـداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، ويظهر أن هذا يرجع إلى ما افتراه اليهود على هذين النبيين لما كان لهما في التاريخ من شؤون كثيرة في أكثر من مجال. - وإن كان أهل الكتاب يعدونهما مَلَكَيْنِ، فإن القرآن الكريم مع هذا ذكرهما في زمرة الخيرة الطيبة من عباد الله في زمرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والذي يقرأ في الكتب الدينية القديمة عن داود وسليمان عليهما السلام يجد الغرائب والمنكرات ولقد تسرب شيء كثير من هذا إلى التراث الإسلامي بعامه وكتب التاريخ والتفسير والقصص بخاصة، والقرآن الكريم جرياً على منهجه وسنته لا يفصل كثيراً من الأحداث والجزئيات بل يذكر بعض الإشارات في موطن العبرة، ولما كانت النفوس توافقه إلى تفصيل الأحداث، متشوقة إلى معرفة الجزئيات وجدنا كثيراً من الإخباريين يتزبدون في ذكر هذه التفصيلات البعيدة عن الحق المنافية في كثير من الأحيان لعصمة الانبياء وكثير منها -ولا حول ولا قوة إلا بالله- نقله بعض المفسرين لا قديماً فحسب، بل وجدنا ذلك في كتب بعض المحدثين.

نقرأ مثلاً قوله تبارك وتعالى ﴿وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابٍ هَدَرُوا وَمَمَرُوا وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَئِنَّهُمْ شَرُّ آبَاءٍ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فما أكثر ما نسج حول هذه الآية من افتراءات منكرة، ومنكرات سخيفة.

والآية ويعلم الله بعيدة كل البعد، عن كل ما فيه شبهة شائبة وشبهة تمسُّ جانب سليمان عليه الصلاة والسلام، بل إن الآية صريحة كل الصراحة بأن هذه المنكرات هي مما افتراه الشياطين، شياطين الإنس قبل شياطين الجن، وتقوّلوه على ملك سليمان، فقالوا إن السر في ملكه كان في خاتمه، وإن هذا الخاتم قد استولى عليه بعض الشياطين، حينما تصوّر بصورة سليمان عليه السلام وأخذه من امرأته، وكان ما كان مما ينسجه الخيال المريض، وليس الخيال الخصب الطيب.

والقرآن الكريم ينزه ساحة سليمان عليه الصلاة والسلام عن كل شبهة نقص ﴿وَمَا كَفَرَا سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وإذا كان أهل الكتاب قد أكثروا القول فنقلوا ما يصح وما لا يصح عن هذين النبيين الملكين عن الأب وابنه عليهما الصلاة والسلام فإن ذلك لا يجوز أن ينقل في كتب المسلمين، وبخاصة تلك التي تتصل بالقرآن الكريم. ولقد حدثنا القرآن الكريم كما سنعلم إن شاء الله عن فتنتي الأب وابنه: كما جاء في سورة (ص) وكما سنذكر ذلك قريباً إن شاء الله، فقد حُشيت الكتب بالحديث عن فتنة كل منهما، وبما هو بعيد عن كل ما يتصف به ذوي العقل والذوق فضلاً على أن يكونوا أنبياء مختارين، وسأحاول إن شاء الله ومن الله وحده العون أن أتبع كثيراً من الشبهات مع أنني لا أحب الإطالة في مثل هذا، لكن كثرت مثل هذه الأقوال في كتب الأقدمين والمحدثين فكان لا بد من التنبيه عليها مجلياً ما استطعت الحقائق التي تتحدث عن موطن العبرة، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

وجلّ أنبياء الله ورسله عن كل شائبة تتنافى مع مقامهم السامي وذكرهم الذي يعطر هذه الدنيا كلها، صلوات الله وسلامه عليهم ونخص خاتمتهم سيدنا محمداً ﷺ تسليماً كثيراً، وأقول وبالله التوفيق.

من القصص التي ذكرت أكثر من مرة في كتاب الله تعالى قصة داود وسليمان عليهما السلام، ونذكر هنا - ما قلناه من قبل - من أن هذا القصص لا نجد فيه ما وجدناه فيما



تحدثنا عنه مما كان بين الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وبين أقوامهم، ولكن فيه عبراً أخرى لها أكثر من مغزى كما سنعلم ذلك إن شاء الله تعالى .

ونلاحظ هنا ملحظاً لابد من التنبيه عليه، وهو أن هذا القصص لم ينزل مبكراً - كما وجدنا في القصص السابق..- وذلك لأنه ليس من ذلك النوع الذي يتعلق تعلقاً مباشراً بالدعوة فيحمل التهديد ويظهر من خلال آياته تهديد المشركين المعارضين، والطمأنينة للمؤمنين، وتثبيت قلب النبي ﷺ هذا أولاً.

وأما ثانياً: فإن السور التي ذكرت فيها مثل هذا القصص لم تكن من الكثرة - كما رأينا في النوع الأول - ويتبع عن هذين أمر ثالث، وهو أننا لم نر الحديث في هذه القصص يبدأ بالإشارات الموجزة المعبرة - كما رأينا من قبل -؛ لأنه لا داعي لتلك الاشارات فالحديث عن داود وسليمان عليهما السلام ذكر في هذه السور الأربع: (ص) والنمل وسبأ والأنبياء .

وأعني ان هذه السور الأربع هي التي تحدثنا عن طرف من أخبارهما وهناك سور كثيرة ذكر فيها اسماهما عليهما الصلاة والسلام، أو شي مما قيل عنهما كما رأينا في سورة البقرة، أو مما أكرمهما الله به كقوله ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ دَرَبُورًا﴾ في سورتى النساء والإسراء .

١ - ففي سورة (ص) بعد ذكر ما لقيه النبي ﷺ من المشركين يقول الله تبارك وتعالى له ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾<sup>(١)</sup> [ص: ١٧] ويبين الله تبارك وتعالى ما خص به داود عليه السلام من قوة، ومن نعم، ومع ذلك لم تخل حياته من خصومات... فقد سخر الله تعالى الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق أي صباحاً ومساءً، وكذلك الطير وقد قوى الله ملكه وآتاه الحكمة، ومع ذلك الملك فقد آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.<sup>(٢)</sup>

(١) ذا الاید: ذا القوة في الیدین المضطلع بمشاقه وتكاليفه . أواب: تواب رجاع إلى مرضاة الله تعالى .

(٢) فصل الخطاب: الفهم في القضاء .

﴿ أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧-١٩].

ثم حدثنا القرآن عن فتنته عليه الصلاة والسلام، والعجيب أن هذه السورة الكريمة التي حدثتنا عن فتنه الأب، حدثتنا كذلك عن فتنه الابن في قوله، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴾، وقد كثرت الأباطيل حول هاتين الفتنتين.

أما فتنه الأب فهي التي ذكرت في قوله سبحانه:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نِعْمَةً وَلِي نِعْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نِعْمَتِكَ إِنِّي نِعْمَةٌ وَوَاحِدَةٌ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخَالِطَاءِ يُبْنِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢١-٢٤].

فقد نسجوا حول هذه الآيات الكريمة قصصاً كاذباً، وهذا نتيجة الثقة بالإسرائيليات - مع كل أسف - التي كثرت في تفسير قصص القرآن، ومع أنها ضرر كلها إلا أن بعضها خروج صريح عن العقيدة، ومنافاة لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قالوا: إنه عليه الصلاة والسلام رأى امرأة أحد جنوده فأعجب بها، فأرسله للمعركة ليقتل فيزوجها، وكان له تسع وتسعون من النساء، فأرسل الله له هذين الملكين ليبيّن له فظاعة ما فعله.

وهذا القول من حيث المروءة، واللباقة والدين، لا يليق بأي أحد من الناس، فكيف ينسب إلى نبي، وسامح الله الذين ذهبوا إلى أن النعجة يقصد منها المرأة، والنعجة نعجة، وقد كرم الله بني آدم.

ولقد أنكر الأئمة هذا القول وشنعوا على قائله وبينوا أنه منكر وزور حتى أولئك الذين يكثرون من ذكر الإسرائيليات مثل الخازن رحمه الله في تفسيره.

فقد رد الفرية المنكرة مبينا أنها لا تتفق مع العقيدة الحقّة، وتتعارض مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ويظهر أن هذا القول قد نشأ مبكراً في البيئه الإسلامية، فهو مما رواه كعب الأحبار: لذلك روي عن علي عليه السلام كرم الله وجهه ورضي عنه، قوله: من سمعتموه يقول في داود عليه السلام هذا القول فلا بد أن يُجلد مئة وستين جلدة وهذا العدد هو ضعف حد القذف الذي ذكره الله في كتابه ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

فكانه يرى ان حد قذف الأنبياء يجب أن يضاعف.

وهذا القول مناف للمروءة والشرف، فهو لا يقال على أحد الناس، ولا يرضاه أحد لنفسه فضلاً على أن يكون من الصفوة المختارة.

وكل ما كان من داود عليه السلام أنه حينما تسور أولئك المحراب، فلم يدخلوا من الباب الذي ينبغي أن يدخلوا منه فزع منهم ومع تطمينهما له بقولهما: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض، إلا أن أثر ذلك الفزع كان لا يزال في نفسه والدليل على ما نقول: أن الخصمين بدءا يتحدثان، قال أحدهما: وهو صاحب النعجة: إن أخاه له تسع وتسعون... إلى آخر ما قال. تكلم صاحب النعجة وكان حرياً بداود عليه السلام أن يترث ليسمع ما يقوله الآخر، وهو صاحب التسع والتسعين، ولكننا نجد أن داود عليه السلام يصدر الحكم دون أن يسمع من الآخر، من أجل ذلك عوتب واستغفر ربه وخر راکعاً وأناب، فغفر الله له ذلك وأكرمه بالقربى وحسن المنقلب، ثم أرشده بقوله ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فان الذي نهى عنه أن يتبع الهوى في الحكم، فأين هذا من الاسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير قديمها وحديثها؟!.

فذهب بعضهم إلى أن فتنه داود تكمن في أنه فرع، وما كان له أن يفرع وقال آخرون بل إنها تكمن في كونه لم يسمع من الخصمين بل اكتفى بسماع أحدهما كما هو ظاهر القرآن الكريم.

وهذا ما أرجحه، ذلك لأنهما تسورا عليه المحراب، ولم يأتيا البيوت من أبوابها، والظاهر أنه لم يكن مجلس حكم، بل كان محرابه الذي يعبد فيه ربّه، والفرع من الأمور الجبلية في الإنسان، فما أظن أن الله يحاسبه على هذا الفرع، وأياً كان الامر فإن ما نُسج حول الآيات الكريمة خيال مريض مفرط مليء بالإنحدار والإنحطاط والهراطقة والكذب والزور.

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى أمر آخر وهو أن الله سبحانه وهب لداود سليمان عليهما السلام فأكرمه به نبياً مثله، وكما وصف الله الأب فأنئى عليه وصف الابن وأنئى عليه فقال ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

ويلاحظ أن الأب والابن يذكران معاً لكن بعض السور قد تُفصل الحديث عن الأب والأخرى قد تُفصل الحديث عن الابن، وثالثة تُفصل الحديث عنهما كما رأينا في هذه السورة.

ثم ذكرت السورة خبر سليمان - عليه الصلاة والسلام وقد اختلفت فيه كلمة المفسرين مع كل أسف قديما وحديثا كذلك، وما حق لهم أن يختلفوا في مثل هذه القصة وهذه الآيات التي فيها الخبر هي قوله تعالى ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ إذ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِئَاتُ الْجِيَادُ<sup>(١)</sup> فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَفَطِفَكَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَغْصَانِ ﴿[ص: ٣١-٣٣].

ولا ندري ما ذنب الخيل حتى لو كانت قربانا، فإنها حرة أن تبقى للجهاد في سبيل الله، ويمكن أن تكون القرابين شيئا آخر كالأنعام مثلاً، هذا ما يراه كثير من المفسرين.

---

(١) الصافئات الجياد: الصفون الجمع بين اليدين في الوقوف، وصفها بالصفون والجودة ليجمع فيها وصفين محمودين وهما: واقفة وجارية، يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعا خفافا في جريها.

ذهب الكثير من المفسرين في تأويل هذه الآيات إلى أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - عرضت عليه الخيل، وهي الصافنات الجياد في وقت العشي وبدأ يتفقدوها واحدة واحدة، وكانت من الكثرة بحيث شغلته عن صلاة العصر حتى غربت الشمس وتوارت بالحجاب وهذا معنى قوله ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي آثرت حب الخيل على ذكر ربي أي على الصلاة حتى توارت الشمس بالحجاب أي غربت، ثم أراد أن يكفر عما حدث منه من ذنب فقال: ردوها علي، أي ردّوا الخيل علي فلما ردّوها بدأ يقطع سوقها وأعناقها، والسوق جمع ساق، هذا ما يراه كثير من المفسرين.

وذهب بعض الأئمة إلى تأويل الآيات على غير هذا النحو، حيث قالوا:

إن سليمان عرضت عليه الخيل التي كان يعدها من أجل الجهاد في سبيل الله ففرح وقال إني أحببت حب الخير أي الخيل عن ذكر ربي أي أحببتها وآثرت حبها من أجل الله تبارك وتعالى والجهاد في سبيله حتى بعدت الخيل وتوارت بالحجاب، فقال ردوها علي أي ردوا الخيل علي بعد أن بعدت حتى لا يكاد يراها، فلما ردوها بدأ يمسح سوقها وأعناقها، إيناساً لها ورغبة في رؤيتها كما يمسح أصحاب الخيل خيولهم حباً وإعجاباً ورعاية، وهذا القول ذكره الإمام البخاري واقتصر عليه ونسبه الحافظ في الفتح لابن عباس واختاره الإمام الرازي في تفسيره وهو القول الذي يتفق مع ظاهر القرآن الكريم ﴿قُرْءَانًا غَرِيْبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.

ثم رأينا في هذا العصر من يتبع الإمام الرازي في هذا، ولكن وجدنا من يشنع عليه، فقد ذهب الشيخ حامد محسن رحمه الله وهو من علماء الأزهر وهو في رتبة مشايخنا إلى هذا القول، ولكن الشيخ الذهبي - رحمه الله - في كتابه «التفسير والمفسرون» لم يرتضه منه، وشنع عليه، وما كان للشيخ الذهبي - رحمه الله - أن يصدر منه ذلك ونحن نقبل الرأي الاول إذا دل عليه حديث صحيح أما إذا لم يوجد ولا نخاله - قد وجد -

فلسنا ملزمين بالأخذ به إذ هو لا يعدو أن يكون من الإسرائيليات وشهرة القول لا تمنحه الصحة ولا يحق لأحد أن ينال من الآخر بسبب رأي يترجح عنده، على أننا نرجح الرأي الثاني لما يلي:

١- إنه أليق بالأنبياء.

٢- إنه ليس بحاجة إلى تقدير فاعل أجنبي كما هو في الرأي الأول؛ لأن الشمس التي قدرناها فاعلاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ليس لها ذكر، أما إن قلنا إن الخيل هي الفاعل فذلك ليس غريباً على السياق.

٣- ما نظن أن نبيا يمكن أن يحدث منه مثل هذا، فيشغل عن صلاة العصر إن كانت هناك صلاة عصر مفروضة عليهم، الذي أود أن أقوله إن القضايا غير ذات الشأن حري بنا ألا نقف عندها وقفة طويلة، فنقطع أمرنا بيننا تقطعا فنشغل عما هو الأهم والأولى الذي يجب أن توجه له العناية وتستخرج منه الكنوز وتحل فيه الرموز. ثم إن هذه الأقوال التي كادت تغدو مسلمة عند الأكثرين لاسند لها من آية محكمة أو سنة ثابتة.

### فتنة سيدنا سليمان ﷺ:

وهناك قضية أخرى ذكرت عن سليمان - عليه الصلاة والسلام - كثرت حولها الإسرائيليات كذلك وهي قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينُ كُلَّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدَنَا لَازِفِينَ وَحُسنَ مَنَاقِبٍ﴾ [ص: ٣٤-٤٠].

وتلكم الفتنة الثانية التي أشرت إليها من قبل لقد حدثتنا الآيات من قبل عن فتنة الأب، وهي تحدثنا هنا عن فتنة الابن.

وقد أكثروا من الإسرائيليات في تفسير هذه الآية ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]. فذكروا ما ينافي عصمة الأنبياء، وهذا من أثر الإسرائيليات التي أبتلينا بها فشوهت كثيراً من تراثنا، وآن لنا أن نتخلص منها.

والذي ذهب إليه كثير من العلماء في تفسير الآية ما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. عن النبي ﷺ، قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه، فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»<sup>(١)</sup> قال شعيب وابن أبي الزناد «تسعين» وهو أصح.

وهذا القول اختاره كثير من المفسرين وفي مقدمتهم الإمام الرازي رحمه الله فعند تفسيره لهذه الآية الكريمة ذكر أن للناس فيها مسلكين اثنين مسلك أصحاب الحشو، وهم الذين ذكروا روايات لا تتفق مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - إنما هي من نسج الخيال المريض - فبعضهم فسر الجسد بأنه صنم وبعضهم قال إنه شيطان، وأنا لا أحب لك أيها القارئ أن تشغل بمثل هذه الروايات، لذلك آثرت أن لا انقلها في كتابي هذا.

ثم ذكر الرازي - رحمه الله - المسلك الثاني في تفسير هذه الآية - وهو مسلك المحققين من العلماء. فذكر أكثر من قول كان القول الأول تفسير الآية بالحديث الذي جاء في صحيح البخاري، وذكر أقوالاً أخرى سيأتيك نبؤها فيما بعد إن شاء الله. ومن بعد الرازي رأينا المشاهير من المفسرين يرتضون هذا القول مثل أبي السعود في إرشاد العقل السليم. والألوسي في روح المعاني - رحمهم الله تعالى - وحجة هذا الفريق أنه في صحيح البخاري - رحمه الله -.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء: حديث رقم ٣٤٢٤.

ولكن بعض العلماء لهم رأي في مثل هذه الأحاديث، وأقول بعض العلماء لأنني لا أعد نفسي من العلماء من جهة حيث لا زلت أتعلم متطفاً على مواعيدهم وسأدلي ما استطعت بدلوي من جهة أخرى فيما بعد إن شاء الله تعالى .

قلت إن بعض العلماء لهم رأي في هذا الحديث من أولئك الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء «وقصارى القول أن هذا الحديث يشتمل على خارق للعادة ولم يرد به نص قطعي الثبوت والدلالة، وأحاديث الآحاد لا تصلح حجة عليه، وأنا لم أزل أقول باستبعاده، ولو أيقنت أنه من قول رسول الله ﷺ ما كان لي أن أمأحل فيه ولكنه رواية ظنية لا يثبت بها أمر يحتاج فيه اليقين، وهو بعيد؛ إذ قدرة الإنسان تعجز، عن الطواف بسبعمائه امرأة أو سبعين في ليلة واحدة، والليل لا تسع ذلك أصلاً مهما قدرت حظاً صغيراً لكل امرأة من الزمن.<sup>(١)</sup> هذا ما قاله الشيخ النجار .

أما أنا - ويعلم الله - فلست من الذين يسهل عليهم أن يقتحموا أسوار قدسية الإمام البخاري، وهذا الإمام الذهبي صاحب الباع الطولى والمرتبة العليا يقول في ميزان الاعتدال عند ترجمته خالد بن مخلد إن له غرائب ويذكر الحديث الذي أخرجه البخاري «من عادي لي ولياً. . .» ويقول الإمام الذهبي - رحمه الله - ولولا هبة البخاري لعدوا الحديث من مناكير خالد» وحديثنا هذا أعني حديث سليمان عليه السلام وطوافه على نسائه - هو من رواية خالد أيضاً. وإذا كنت قد سمعت قول الشيخ عبد الوهاب النجار - رحمه الله - فلتسمع مني شيئاً آخر. أنا لن أعرض الحديث من الجهة التي استمعت إليها من قبل، ولكنني أعرض له من جهة أخرى، لقد رجعت إلى صحيح البخاري - رحمه الله - في كتاب التفسير فلم أجده يذكره في تفسير سورة (ص) عند تفسير هذه الآية، مع أنه ذكر روايات وأحاديث في تفسير آيات من هذه السورة، ولكنه ذكر هذا الحديث في كتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ولو كان البخاري يراه تفسيراً للآية الكريمة لذكره في كتاب التفسير .

---

(١) قصص الأنبياء - عبد الوهاب النجار ص ٤٤٧ .



وإني أعجب كلَّ العجب من المفسرين الذين جعلوا هذا الحديث تفسيراً للآية الكريمة مع أن البخاري رحمه الله راوي هذا الحديث لم يذكره في تفسير سورة (ص) كما قلت . وهذا يجعلني أرجح أن لا يكون الحديث تفسيراً لهذه الآية الكريمة، على أن للعلماء تفسيرات أخرى لهذه الآية الكريمة .

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيرها وجوها منها: التفسير الذي نقلته لك، أعني تفسير الآية بالحديث .

(ومنها): قوله ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ﴾ منه ﴿جَسَداً﴾ وذلك لشدة المرض، والعرب تقول في الضعيف إنه لحم على وضم وجسم بلا روح (ثم أناب) أي رجع إلى حال الصحة، فاللفظ محتمل لهذه الوجوه، ولا حاجة ألَبَتَ إلى حمله على تلك الوجوه الركيكة .

(ومنها): أقول لا يبعد أيضاً أن يُقال إنه ابتلاه الله تعالى بتسليط خوف أو توقع بلاء من بعض الجهات عليه، وصار بسبب قوة ذلك الخوف كالجسد الضعيف الملقى على ذلك الكرسي، ثم إنه أزال الله عنه ذلك الخوف وأعادته إلى ما كان عليه من القوة وطيب القلب .

أما قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ فاعلم أن الذين حملوا الكلام المتقدم على صدور الزلة منه تمسكوا بهذه الآية، فإنه لولا تقدم الذنب لما طلب المغفرة، ويمكن أن يجاب عنه بأن الانسان لا ينفك ألَبَتَ عن ترك الأفضل والاولى وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ولأنهم أبدأ في مقام هضم النفس وإظهار الذلة والخضوع، كما قال ﷺ «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»<sup>(١)</sup> ولا يبعد أن يكون المراد من هذه الكلمة هذا المعنى، والله أعلم»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في الدعوات حديث رقم ٦٣٠٧ الطبعة السلفية مع الفتح ١١/١٠١ .

(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الداعي ٢٦/ص ٢٠٩ .

ونعتذر لشيخنا الرازي - رحمه الله - عن ترجيحنا هذا القول لأنه لا يتفق مع نظم القرآن البديع، فعلى هذا الرأي الجسم الملقى على الكرسي هو سليمان عليه السلام.

وألقينا على كرسيه جسداً منه مع أن الجسد يُطلق في اللغة غالباً على الجسم بلا روح.

والمفهوم من الآية الكريمة أن الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان عليه السلام هو شيء آخر وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب النجار في تفسير الآية رأياً غريباً لم يقل به أحد: «أقول: وعندي وجه لم يذكره أحد من العلماء، وهو أن كرسي داود عليه السلام إنما هو كرسي سليمان عليه السلام، لأن داود عليه السلام كان شيخ سليمان عليه السلام للملك والجلوس على كرسيه، وقد قام أبشالوم بن داود عليه السلام، وثار على والده وانتزع الملك من داود وجلس على الكرسي - الذي هو في الواقع كرسي سليمان - وهرب منه داود إلى شرق الأردن، وسرح الجيوش لمقاتلته وباشر أبشالوم الحرب بنفسه، فقتل أبشالوم إذ مر به بغلة تحت بطحة فتعلق في أغصانها من شعره، فأتى رئيس الجند يواب وقتله، وعاد سليمان عليه السلام إلى كرسيه بعد أن تززع بفعل أخيه أبشالوم، وتضرع إلى الله وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

لا شك في أن سليمان عليه السلام في تلك البرهة كان يعتقد اعتقاداً جازماً لا شك فيه أن الكرسي الملكي أقلت من يده ولا راد له سوى الله تعالى، فاستغفره تعالى لما قد أسلف من هواجس نفسية لا يخلو منها من كان مثله في سن الصبا من زهو بذلك الكرسي الذي ينتظره، والملك العريض الذي سيكون بيده صولجانه، فامتحنه الله تعالى بمن اغتصب ذلك الكرسي وتسرب إلى نفسه ديب اليأس فاستغفر سليمان عليه السلام ربه لتلك الهواجس التي تعد على المقربين ذنباً وهي غير ذنوب، وأناب إليه ضارعاً أن يهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأتاه الله ذلك الملك بعد وفاة أبيه داود الذي كان قد بلغ من الكبر عتياً، وسخر لسليمان عليه السلام ما سخر من الجن والإنس والطيور والرياح التي تجري بأمره، وكل ما يدعى خلاف ذلك فلا يخلو من أن يكون هاجس نفس أو جموح خيال وقد علمتم رأيي في الوجه الذي أتى به الفخر الرازي»<sup>(١)</sup>.

(١) قصص الانبياء - عبد الوهاب النجار ص ٤٤٦.

وهذا الرأي الذي ذكره الشيخ عبد الوهاب - رحمه الله - عول فيه على أخبار أهل الكتاب وإخال أنه لا يخلو عن بعد كذلك .

### رأينا في فتنة الأب وفتنة الابن :

على أن الذي أفهمه من الآيات الكريمة وأنا أتلو الآيتين، أعني الآية المتعلقة بفتنة الأب، ﴿وَطَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ والآية المتعلقة بفتنة الابن ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أقول الذي يبدو لي أن فتنة الاب كانت أعظم لأنها تتصل بأمر جماعي أما فتنة الابن وكانت تتصل بأمر فردي، تلمح هذا من قوله سبحانه ﴿وَطَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ .

والذي جاء في الفتنة الأخرى ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِيَ لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ . . .﴾ .

فداود عليه الصلاة والسلام خرّ راکعاً، ولولا أن الامر فيه ما فيه لما كان ذلك منه، ولم يكن ذلك من سليمان عليه السلام .

فتنة داود عليه السلام تتصل بالحكم بين الناس، وهو قضية ذات شأن وخطر لكن فتنة سليمان كانت شيئاً آخر .

وقد أرجح ما ذهب إليه بعضهم وهو أن سليمان عليه السلام كان له ابن يحبه فأخذه الله فجاء به على كرسي وحزن عليه كثيراً، وكأنما كان ينتظر له مستقبلاً مشرقاً، فكان منه ما كان بعد ذلك، ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ فحسنات الابرار سيئات المقربين، والله أعلم بما ينزل، وقد أطلت في بيان ما قالوه في هذه الآية الكريمة لتدرك تغلغل الإسرائيليات في قصة داود وسليمان عليه السلام من جهة، واختلاف علمائنا في كثير من أخبارهما من جهة أخرى، مع أن هناك عبراً وفوائد قيماً ينبغي أن نوجه إليها ما منحنا الله، وما أنزل القرآن الكريم إلا لمثل هذا.

ثم قال سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي أَنْتَ أَوْهَابٌ﴾ [ص: ٣٥]. ويتساءل بعض الناس:-

كيف جاز لسليمان أن يطلب مثل هذا؟.

والجواب أن لا محذور في مثل هذا، فهو إنما طلب ملكاً لا ينبغي لأحد من الناس، وكان نبياً، فأحب أن يكون ملكه قاهراً لقومه، وهم اليهود، الذين كانوا يقولون فيه الأقاويل، وأن يكون معجزة له كذلك، والعجيب أننا نرى بعض أهل الكتاب لا يؤمن به نبياً، فجعل الله له هذه المعجزة، وآتاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، والنبى ﷺ وهو القمة في تعليم الذوق واللياقة كما صح عنه، أنه أراد أن يقيد شيطانا في بعض السواري، ولكنه ذكر دعوة أخيه سليمان عليه السلام فتركه. . ياللعظمة في علو الخلق!! ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فأكرمه الله فسخر له الريح تجري بأمره رخاء<sup>(١)</sup> حيث أراد وقصد، والشياطين بنائين وغواصين<sup>(٢)</sup> وآخرين مقرنين مصفدين<sup>(٣)</sup> مقيدين، ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ<sup>(٤)</sup> يُغَيِّرْ حِسَابَ﴾ ومع ذلك فان له عند الله زلفى وحسن مآب.

٢- أما سورة النمل: فقد تحدثت حديثاً مفصلاً عن سليمان فبدأت بما أكرم الله به داوود وسليمان عليهما السلام ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]<sup>(٥)</sup> فبعد هذا الإجمال لما أكرم الله به الأب والابن معاً، وحمدهما لله على هذه النعم، بدأت السورة الكريمة تفصل لنا في الحديث عن سليمان عليه السلام، وكيف أنه ورث داوود أباه عليهما السلام ﴿وَقَالَ يَتَىٰهَا النَّاسُ عِلْمَنَا

(١) رخاء: سهلة ليثة.

(٢) كانوا يبنون له ما شاء من الأبنية ويغوصون فيستخرجون اللؤلؤ.

(٣) اي كان يقرن مردة الشياطين بعضهم في القيود والسلاسل للتأديب والكف عن الفساد، والصفد القيد.

(٤) اي أعط ما تشاء وأمسك كما تشاء.

(٥) فالعلم: النعمة الأولى التي أنعم الله بها على الإنسان بعد الخلق، وهذا الذي أكرم الله به آدم.

مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٠﴾، وقوله من كل شيء اجمال وحديث عن النعم الكثيرة التي لا تحصى.

وتحدثنا السورة حديثاً شائقاً ذا أهداف عالية سامية، فلقد حُشر له يوماً جنوده من الجن والإنس والطيور وسار بجنده، أولئك جميعاً على تعدد أجناسهم، ﴿حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من غير أن يشعروا بكن لصغر حجمكن، فأدرك قولها وإشارتها لجنسها، ﴿فَنَبَسَمَ ضَاحِكًا﴾، وتوجه إلى ربه يشكره على نعمه ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ آلِيَّ وَإِلَدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا دعاء جامع له ولوالديه يشتمل خير الدنيا وخير الآخرة اللهم إنا ندعوك كما وبما دعاك نبيك سليمان عليه السلام، فلا تردنا خائبين.

ثم تبين الآيات حرص سليمان عليه السلام على رعيته وتفقدته لهم - ولا عجب فهو النبي الملك - وكل راع لابد أن يكون على علم برعيته، ألم يقل الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لو عثرت بغلة في العراق لرأيتني مسؤولاً عنها لأنني لم أعبد لها الطريق، وهذا ما فهمه وما اكتسبه من سيد الأنبياء - ﷺ - من حيث سيرته وعمله، ومن حيث قوله - عليه الصلاة والسلام - «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»<sup>(١)</sup>.

يتفقد سليمان عليه السلام الطير فلا يجد الهدهد، ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ لأَعَذَّبْتُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿ولكن لم يطل الوقت، ويأتي الهدهد بنياً عظيماً﴾ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِءُ ﴿سبحان الله! الهدهد يحيط

(١) صحيح البخاري كتاب الاستقراض باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه باب رقم (١٠) حديث رقم (٢٢٧٨)، وكتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن باب رقم (١١) حديث رقم (٨٥٣).

بما لم يحط به سليمان عليه السلام، وهكذا يقولها الهدهد بكل جرأة وصراحة ﴿وَحِجَّتْكَ مِنْ سَبِيلٍ بَيِّنَةٍ﴾ فلقد آلم الهدهد وأغاظه ما وجده من خبر أولئك القوم الذين تملكهم امرأة، ولها عرش عظيم، أغاظه وساء أنه وجدهم يسجدون للشمس من دون الله ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ومالهم لا يسجدون لله الذي خلق الشمس، والذي يخرج الخبء، كل ما هو مخبوء في السماوات والأرض، والذي يعلم ما يخفون وما يعلنون، إنه الله الواحد الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم، إنه التوحيد المرتكز في كل ما خلق الله من هذه المخلوقات حتى تلك التي لا تعقل وهي الفطرة التي فطر الله الخلق كلهم عليها وهذا هو الهدهد ينكر الشرك بالله ﴿وَلَا يَنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ الخلق كلهم، إلا أن الكثيرين من الناس انحرفوا بهذه الفطرة عن طريقها السوي فما أعظمه من درس! وما أجملها من عبرة! ويقول سليمان عليه السلام للهدهد سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ويكتب له كتاباً ليذهب به إلى أولئك يلقي الكتاب إليهم، ثم يدعهم موليا عنهم ﴿ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي القى الكتاب، وتنح ناحية تسمع قولهم، وبماذا يرجع بعضهم إلى بعض القول.

وتقرأ الملكة الكتاب وهو موجز جامع لم يزد سليمان عليه السلام فيه على أن قال من سليمان بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي واثتوني مسلمين. وتسأل قومها الرأي فليست قاطعة أمرا من دونهم، ولكنهم لم يكونوا على شيء من هذا الرأي. كل الذي قالوه ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾. أرادت أن تستعين بمشورتهم، فلم يمدوها بشيء، ورجعوا الأمر إليها أولا وأخيرا. وهنا تدلي المرأة برأيها ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

لقد كان رأيا ينم عن حصافة وفكر وروي وحكمة. ما أضيع الشعوب التي لا تملك رأيا، ولا تستطيع التصرف حينما تدلهم الحوادث!! وما أضيع الشعوب التي تحرم هذا

الرأي وما أضيع الشعوب التي تسلم زمامها لفرد أو فئة، فلا تستطيع أن تصدر عن شيء، وهو قدر الأمة العربية الإسلامية فهل من مستيقظ؟! لقد قدرت ملكة سبأ أنها إن استطاعت أن تغري سليمان عليه السلام بالهدية فإنها تستطيع أن تحاربه وتقاومه وتتغلب عليه، وإلا فليس بها قدرة عليه؛ لأنه ليس بملك كبقية الملوك، وتصل الهدية، وكانت هدية عظيمة يدلنا على ذلك قول سليمان - عليه الصلاة والسلام - كما سجله القرآن الكريم، اتمدوني بمال فالذي أكرمني الله به وآتاني إياه خير مما آتكم، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأَيِّنَهُمْ بِمُحُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

### ما المقصود بقوله الذي عنده علم الكتاب:

ويدرك سليمان - عليه الصلاة والسلام - أنهم آتون لا محالة فيقول لبعض جنده من ذوي القدرة والبأس: أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين؟ ويقول عفريت من الجن: ﴿أَنَا ءَايِكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ نَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ وكان مقامه نصف النهار - حيث كان يجلس للحكم بين الناس كما يقولون - ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ ولكن الذي عنده علم من الكتاب قال: ﴿أَنَا ءَايِكَ بِهِ، قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ وقد اختلفوا في هذا الذي عنده علم من الكتاب، فقليل: إنه آصف، وهو من الإنس.

والذي نرجحه - والله أعلم - أنه سليمان عليه السلام نفسه ويكون معنى الآية حينئذ أن سليمان عليه السلام قال للعفريت من الجن إذا كنت تأتي به وكان إتيانك به يحتاج إلى هذه المدة وهي نصف النهار فانا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، ونستدل لهذا بما يلي:

١- إن سليمان عليه السلام نبي، وهو الذي من الله عليه بالعلم حيث قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ لا يعقل أن يكون أحد من الناس أكثر علماً من نبي.

٢- كان ذلك من قبيل المعجزة لسليمان - عليه الصلاة والسلام -.

٣- قوله - فيما بعد - كما قص الكتاب الكريم ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرْيَمٌ ﴾ فيشكر الله على المنة التي أكرمه بها .

ويصل عرشها قبل أن تصل ويريد أن يتبين سليمان عليه السلام من حصافتها ورأيها ﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَنْهَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾<sup>(١)</sup> وتصل الملكة وتُسأل : أهكذا عرشك فلا تجيب بالنفي أو الإيجاب ، وإنما تقول : كأنه هو ، وتلك مرة ثانية تظهر فيها حصافة المرأة ، ويقال لها : ادخلي الصرح ، فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ،<sup>(٢)</sup> فيبين لها ان لا حاجة لذلك لأنه لا ماء كما تتوهمين ، وإنما هو صرح ممرد من قوارير ،<sup>(٣)</sup> وتذكر المرأة الملكة أن ما أعطيه سليمان عليه السلام ليس مما يعطاه ملوك الدنيا ، وإنما الرجل يجمع إلى الملك النبوة ، فتذكر خطأها الذي كانت فيه من عبادة غير الله فتعلن إسلامها ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَبْنَئُهَا النَّاسُ عُلْمَنَا مَطَاقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَبْنَئُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَنَبَسَرَهُمْ ضَارِحًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْفَاعِيَةِ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَا يُقِينُ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ

(١) أي ننظر أتعرف عرشها أم لا تعرفه .

(٢) أي ظننت فيه ماء .

(٣) زجاج كله صفاء ونقاء .



شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُؤُا إِلَيَّ أُلْقَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُمْ مِنْ مُسْلِمِينَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَتَوْني مُسْلِمِينَ قَالَتْ يَأْتِيهَا الْمَلَأُؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ قَالُوا نَحْنُ أَوَّلُوا قُوْفٍ وَأَوَّلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ مُسْلِمُونَ قَالَ اتَّخَذُونِي بِمَالٍ فَمَاءَ اتْنِ ۖ اللَّهُ خَبِيرٌ فَمَاءَ اتْنِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ فَرَحُونَ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخُبْرٍ لَّا قِيلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ قَالِ يَأْتِيهَا الْمَلَأُؤُا أَتِيَنِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفِيتُ مَنِ الْيَحْي أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۖ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَفِيٌّ كَرِيمٌ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَنَهْنَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأَوْتِنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُحَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالِ إِنَّهُمْ صَرَّحُ مُمَرَّدٍ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥-٤٤﴾ .

٣- ثم تأتي سورة سبأ وتبدأ الحديث عن داود وما أكرمه الله به من تسبيح الجبال معه، وتسبيح الطير وإلانة الحديد له ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مَتَا فَضْلًا يَجْعَالُ أَوِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿سبأ: ١٠﴾ ولا عجب في ذلك فكل شيء يسبح بحمده تبارك وتعالى، ألان الله له الحديد، ومن طريف ما قالوه: «لقد ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود

الحديد» وأبو داود السجستاني - رحمه الله - صاحب السنن<sup>(١)</sup> ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنْ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١١] هكذا كان عمل داوود عليه السلام والسابغات الدروع، والتقدير في السرد هو إحكامها وإتقانها بحيث تكون سوية من حيث السعة والضيق فتكون الحلق منسجمة بعضها مع بعض ولقد ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ «أن خير الناس من يأكل من عمل يده ولقد كان داود يأكل من عمل يده»<sup>(٢)</sup>

ثم تحدثت الآيات بعد ذلك عن سليمان عليه السلام. وما أكرمه الله به، وكيف أنه سخر له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وأسأل له معدن النحاس، كما سخر له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه، أما من ينحرف منهم عن الجادة والطريق المستقيم؛ فإنه يُعَذَّب ويُذاق من السعير، وكان هؤلاء الجن يعملون المحاريب، وهي أمكنة مخصصة للعبادة، ومجالس للحكم والقضاء، كما يعملون التماثيل والجفان الكبيرة التي تشبه الجوابي<sup>(٣)</sup>. وهي جمع جابية ليوضع فيها الماء. والقدرور الكبيرة: وهي جمع قدرة. الراسيات التي توضع على الأثافي، وهي الحجارة التي يوضع عليها القدر ﴿أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ ويقول الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾، والشكور: هو الذي وجه كل طاقته لشكر الله تبارك وتعالى، بقلبه ولسانه وجوارحه وهو الذي يرى نفسه عاجزاً عن الشكر؛ لأن نعم الله كثيرة، إن أولئك قليل، ولقد سمع عمر - رضي الله عنه - رجلاً يوماً يقول: اللهم اجعلني من القليل: فقال له ما هذا الدعاء؟ قال إن الله يقول ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ فاسأل الله أن يجعلني من أولئك القليل. فقال عمر - رضي الله عنه -: كل الناس أعلم من عمر!!

(١) وهو أحد الكتب الستة وكتابه أكثرها علماً من حيث الأحكام.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده باب رقم (١٥) حديث رقم (١٩٦٦).

(٣) المحاريب: الأبنية الرفيعة. التماثيل: ما يكون فيها من نقوش. والجفان: جمع جفنة وهي ما يوضع فيه الطعام وقدور راسيات: تلك الاواني التي يطبخ فيها.

فلما قضى الله على سيدنا سليمان ﷺ الموت، والجن يعملون له، ما دلهم على موته إلا دابة الأرض، وهي الأرضة، تأكل منسأته، وهي العصا فوقعت فخر سليمان عليه السلام حين ذلك تبينت الجن موته.

ثم يأتي التعقيب القرآني ليصحح خطأ لا يزال عند كثير من الناس حتى اليوم وهو ما يتوهمه كثيرون من أن الجن تعلم الغيب، فيقول الله: **إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، ﴿١٠﴾ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١١﴾**.

وترى أن القصة القرآنية تعقب بحقائق تكون ذات هدف سام، وغاية غالية جادة يريد القرآن تحقيقها، فليس سرداً لأحداث فحسب، وإنما هي ذات مغزى ودلالات، ذات أثر إيجابي. ذلكم هو حديث سورة سبأ عن داود وسليمان - عليهما الصلاة والسلام.

**﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنَّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْلَمُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَّانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾** [سبأ: ١٢-١٤].

وقبل أن تغادر سورة سبأ أود أن أشير إلى ذلك النسق العجيب. لقد حدثنا سورة سبأ كما رأينا، عن آل داود، الذين أنعم الله عليهم، فشكروا على نعمه **﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ﴾** ثم حدثنا السورة بعد ذلك عن أنموذج آخر من الناس، أولئك الذين جحدوا أنعم الله عليهم **﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُوهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾** [النحل: ٨٣] أولئك هم أهل سبأ الذين أنعم الله عليهم، فكان لهم في مساكنهم جتان عن يمين وشمال **﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُم بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ﴾**.

ولكنهم لم يحفظوا النعمة ، ولم يشكروا الله ، فأعرضوا ، فأرسل الله عليهم سيل العرم ، وبدلهم بجنتيهم الطيبتين جنتين أخريين ، ذواتا أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ وهكذا ظلموا أنفسهم ، وجعلهم الله أحاديث ، ومزقهم شر ممزق ، حتى ضرب بهم المثل ، فقل : تفرقوا أيدي سبأ .

ألم أقل لك أيها القارئ الكريم ، إن القصة في السورة الكريمة تتلاءم مع موضوعها وسياقها ، لقد حدثنا القرآن الكريم عن داود وسليمان عليهما السلام في سورة النمل ، وحدثنا عن ملكة سبأ ، ولكن الحديث عن اهل سبأ لم يكن في السورة التي تكلمت عن ملكة سبأ ، هذا الذي كان يبدو ظاهراً ؛ ذلكم لأن النسق الفني والدراسة الموضوعية اقتضيا هذا الترتيب البديع ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] .

٤- ثم تأتي سورة الأنبياء ، نتحدث عن داود وسليمان - عليهما الصلاة والسلام حديثا لم يمر من قبل ، وذلك في قوله سبحانه :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ . وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُخَصِّنَكُمْ مِنَ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ . وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ . وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ . ﴾ [الأنبياء : ٧٨-٨٢] .

تحدثت الآيات عما أكرم الله به داود وسليمان عليهما السلام من تعليم قواعد الحكم وأصوله . والنفش : هو انتشار الغنم في الليل ، وكانت هذه الغنم قد انتشرت فأنت على حرث فرعه وأذهبته ، فجاء القوم يتحاكمون عند داود وسليمان عليهما السلام ، فكان حكم داود - عليه الصلاة والسلام - أن تعطى الغنم لأصحاب الأرض ؛

لأنه لحق به الضرر، ولكن سليمان - عليه الصلاة والسلام - رأى بتوفيق الله سبحانه أن لو كان هناك حكم آخر يكون أرفق بهما، قال الأب لابنه: ما حكمك في هذا؟! قال: أن تُعطي الأرض لأصحاب الغنم يفلحونها ويزرعونها وأن تُعطي الغنم لأصحاب الحرث حتى إذا عادت الأرض كما كانت ترجع الأرض لأصحابها ويأخذ أصحاب الغنم غنمهم، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلَّاءُ آئِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وأظن أن في ذكر مثل هذه الحوادث في سورة الانبياء ما يتلاءم مع موضوع السورة لأن هذه وظيفة الانبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أن في ذكر ما مر في سورة سبأ ما يتلاءم مع موضوعها كذلك ثم هي بعد ذلك تبصرة وتعليم لأولئك الذين يُقَلِّدُونَ مهمة الحكم بين الناس فلا يرى أحدهم بأساً أن يرجع عن خطأ كان منه أو أن يرجع إلى ما هو خير مما حكم به، وقد رأينا الأب يرجع إلى حكم ابنه وهذا ما أرشد اليه كتاب عمر رضي الله عنه في القضاء.

وبعد هذه المنة ذكر الله منة أخرى ذكرت من قبل، ولكنها جاءت هنا بأسلوب آخر، جاءت بلفظ التسخير ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾. وتقديم الجبال على الطير؛ لأنها أعظم وادل على سياق القدرة؛ لأنها جماد ولا يحس، فالتسبيح منها أعجب من التسبيح من الطير ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، وما أجمل أن تأتي كلمة الفعل هنا وهي صدور الأثر من المؤثر بقصد أو بدون قصد، وهو بالنسبة لله تعالى ظاهر الحكمة والهدف، ولكنه من الجبال والطير يختلف عن أن يكون من الإنسان المدرك الهادف.

ثم يقول الله تعالى إنه علم داود عليه السلام صنعة لبوس، وهذه الآية الكريمة تدل على أن داود عليه السلام كان أول من فعل ذلك؛ لأنه أسند التعليم اليه ﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾<sup>(١)</sup> فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿وهذه منة لا على الذين كانوا في عهد داود عليه السلام فقط، ولكن على أولئك الذي خوطبوا في عهد النبي ﷺ، وهي نعمة تستحق الشكر.

(١) أي لتقيكم عدوكم، فهي جنة أي وقاية وهي تختلف باختلاف العصور.

ثم بين القرآن ما أنعم الله به على سليمان عليه السلام فذكر نعمتين اثنتين :

أولاهما : نعمة الريح <sup>(١)</sup> ، وقد جاء في الآية هنا ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ وكونها عاصفه لا يتنافى مع ما جاء في سورة (ص) في قوله رخاءً لأنها تجري كما يريد ، وقد تكون لينة حيناً وعاصفة حيناً آخر .

أما النعمة الأخرى : فهي أن من الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك ، وذلك كله بحفظ الله تبارك وتعالى . وهذا خبر داود وسليمان عليهما السلام .

٥ - ثم جاءت سورة البقرة لتنفى عن سليمان عليهما السلام السحر كما اتهمه المنحرفون ، ولتثبت ما أكرم الله به داود عليه السلام حينما قتل جالوت ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَعَايِشًا ﴾ [الآية : ٢٥١] أين مظاهر التكرار في هذه الأخبار جميعاً؟! .

إن هناك قضية واحدة ذكرت وهي قضية الريح ، وقضية عمل الشياطين ، ولكن كان لكل مجالها وموضوعها . ففي سورة سبأ مثلاً بين أن الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وفي سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ذكر أنها عاصفه تجري إلى الأرض التي باركنا فيها .

وفي سورة (ص) بين أن الله جعلها رخاء حيث أراد ففي كل سورة طرف من خبر هذه الريح .

وهكذا ندرك أن أمر التكرار مُتَتَّبِعٌ انتفاء تاماً بل هو غير متصور .

---

(١) الريح : عاصفة .

## تعقيب على قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام

ونقف متأملين عند قصة داود وسليمان عليه السلام، النبيين الملكين، الأب والابن، وقد نقل صاحب المنار - رحمه الله - عن أن النصارى ينفون نبوة سليمان عليه السلام ويزعمونه فيلسوفاً حكيماً فحسب؛ لأنهم يتحكمون في إثبات النبوة ونفيها عن يشاؤون من أنبياء بني إسرائيل، وعلل ذلك بما نقله عن بعضهم<sup>(١)</sup>. وأما المسلمون فموقفهم من الأنبياء يستمدونه من كتابهم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن السنة الصحيحة التي نقلت عن النبي عليه وآله الصلاة والسلام.

لقد امتن الله على داود وسليمان عليه السلام في أكثر من آية بالعلم، وهو فضل الله على من يشاء من عباده، ولقد كان هذا العلم لجوانب كثيرة من الكون، ولكننا نلاحظ أن الله تبارك وتعالى وقد منّ عليهما بالعلم شرفهما بوصف آخر ذكر أكثر من مرة وهو العبودية ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ﴾، فمع هذه النبوة والملك والعلم تأتي العبودية الصادقة لتتوج ذلك كله، وقد ذكر في خبرهما ما استغله بعض القصاص، واحتل مساحات بعد ذلك من كتب التفسير، والحق الذي لا مرية فيه أن ما ذكره القرآن عن هذين النبيين - وعن غيرهما بالطبع - ينسجم مع ما يستحقه الأنبياء من الإجلال والتقدير، ومع ما أكرموا به من العصمة، ومع المنهج التربوي المتكامل الذي اختص الأنبياء به - عليهم الصلاة والسلام -، لقد استغل نباؤ الخصمين اللذين تسورا المحراب فقالوا فيهما ما ينافي عصمة الأنبياء، كما استغلت بقية الأخبار التي تحدثنا عنها في سورة (ص) وفي سورة النمل، وفي سورة سبأ.

(١) تفسير المنار ج٦، ص ٣٢٣.

إن أخبار الأنبياء في القرآن لا تشوبها شائبة شك، ولا تحوم حولها شبهة، فهم المصطفون الاخيار، ويمثل الشيخ رشيد - رحمه الله - أخبار الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في القرآن الكريم، وفي غيره فيقول: «إن مثل الأنبياء في غير القرآن الكريم كبستان فيه الشجر المثمر وغير المثمر، وفيه الشوك والعوسج، وغير ذلك مما لا فائدة فيه؛ بل فيه الضرر المؤكد.

أما أخبارهم - عليهم الصلاة والسلام - في كتاب الله فكبستان ليس فيه إلا الزهرة النضرة الندية، والثمرة الشهية». وهكذا نجد أن داود وسليمان - عليهما الصلاة والسلام -، قد أسهما بنصيب وافر في البناء الإنساني المحكم، فغاية النعمة تستلزم غاية العبودية. . . وهكذا كلما عظمت نعم الله تبارك وتعالى على العبد خلصت عبوديته لله تعالى.

ولقد رد القرآن الكريم عن هذين النبيين الملكين العبدین كل ما أثير حولهما مما لا يليق بعباد الله وأنبيائه، فالسحر الذي نسب لسليمان عليه السلام يرده القرآن ردا عنيفا ويحكم على الذين أثاروا هذه الشبهات بالكفر فلم يكن ساحراً ولم ينزل عليه ولا على أبيه سحر. . . ولقد خصه بكتاب فيه الحكمة وذكرهما مع النفر الذي أكرمه الله بالوحي والفضل، فقال سبحانه في سورة النساء ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْإِسْحَاقَ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا<sup>(١)</sup>﴾ [النساء: ١٦٣] وقال في سورة الإسراء ﴿وَرَبَّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وهكذا كلما شكر العبد ربه، وافتقر بعبوديته لله، أكرمه الله بنعمه وأحاطه بفضله ومنه. . . اللهم اجعلنا من الشاكرين. . . آمين.

---

(١) لما كان لداود ملكاً أراد الله أن يبين أن تفضيله لم يكن به وإنما فضل بما آتاه الله من حكمة ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.



## الفصل الخامس عشر

### قصة أيوب عليه السلام.

أولاً: ما ذكر فيها من إشارات .

١- سورة (ص).

٢- سورة الأنبياء .

ثانياً: تعقيب على قصة أيوب عليه السلام.



## قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

وقد ذكرت قصة أيوب عليه السلام في سورتين اثنتين: سورة (ص)، وسورة الأنبياء، وهذا يدل على ما ذكرته لك من قبل أن هذا القصص الذي ليس له صلة مباشرة بالدعوة لم يذكر في سور كثيرة على عكس القسم الآخر حيث رأيناه في سور كثيرة متعددة.

١ - ففي سورة (ص): نقرأ قول الله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ . ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لَأُولَى الْأَلْبَابِ . وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

تفصل السورة هنا تفصيلاً ما في خبر أيوب عليه السلام، وقد نادى ربه أنه قد مسه الشيطان بمرض وضرر ومعاناة، وهذا من الأدب مع الله تعالى فلم ينسب ذلك له وكيف أن الله تبارك وتعالى من عليه فليل له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ فنبع ماء ليغتسل فيه ويشرب، فيكون بذلك بُرؤه مما به من سقم، ووهب الله له أهله ومثلهم معهم<sup>(١)</sup> رحمة منه تبارك وتعالى، وذكرى لأولى الألباب الذين يصبرون ويستقبلون ما من الله بالرضا والطمأنينة.

ثم تتحدث الآيات عن رخصة جعلها الله له، وقد أقسم أن يضرب امرأته عدداً من الضربات فقال الله له ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ وهي حزمة مجمعة من عيدان متعددة خفيفة رقيقة<sup>(٢)</sup> فاضرب به ولا تحنث، كان ذلك تكفيراً ليمينه، ثم يثني الله عليه سبحانه بقوله ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فليس للصابر إلا الجزاء الأوفى.

(١) ووهبنا له أهله: أي جمعنا شمله بهم بعد أن تفرقوا عنه ومثلهم معهم: أي كان لهم من الأولاد، مثلهم، وهم أحفاده عليه السلام.

(٢) راجع في معنى الضغث ما مر في قصة يوسف عليهم الصلاة والسلام عند قوله «أضغاث أحلام».

٢- وتأتي سورة الأنبياء بعد ذلك على ما نعرف من إيجازها في الحديث عن الأنبياء، وفيها نقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ☆ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤] والضُّرُّ: بالضم هو المرض، والضر بالفتح أعم منه حيث يكون بالنفس والأهل والمال وغير ذلك، ويبين ربنا تبارك وتعالى أنه استجاب له ندائه وآتاه أهله ومثلهم معهم رحمة من عنده سبحانه وذكرى للعابدين، ألا ترى معي أننا حينما نجمع الآيتين نخرج بنتيجة رائعة وهي أن أولي الأبواب لن يكونوا كذلك، إلا إذا كانوا من العابدين الذين كانت العبادة ديدنهم وأن العابدين بحق حري بهم أن يكونوا من أولي الأبواب فلا ينبغي للعابد أن يكون إمعة، ولا يجوز للعابد أن يكون غرّاً، «لست بالخب ولا الخب يخدعني».

العابدون هم إذن أولو النهى وأولو الأبواب، وذوو العقول الحصيفة الراجحة يقودون ولا يُقادون إلا بالحق، لا يمكنون غيرهم أن يلعب بهم ألم يصف الله بعض أنبيائه بقوله ﴿أُولِيَ الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ ونحن نرى أن كثيرين يوصفون بالعقل الراجح والفكر المستنير وهم أبعد ما يكونون عن عبادة الله تعالى وهناك كثيرون ممن يوصفون بالعبادة، وهم أبعد ما يكونون عن الحنكة والحكمة. رأيت كيف أن القصص القرآني يمدنا بحقائق ويصحح لنا أخطاءً، ويخرجنا من متهات مظلمة؟ ذلكم الكتاب ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

### ثانياً: تعقيب على قصة أيوب عليه الصلاة والسلام

نقف عند قصة أيوب النبي الصابر لنشير باديء بدء أن ما قصه القرآن علينا من خبر أيوب - عليه الصلاة والسلام -، لم يكن فيه من غرابة الشأن ما يخرج عنه ألفه الناس، ومع ذلك وجدنا القصاصين عشاق الإسرائيليات ينسجون حول هذا الخبر ما يجوز ومالا يجوز، وما يصح وما لا يصح، بل ما يتنافى مع عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام

وكراماتهم كل ما أفادته قصة أيوب - عليه الصلاة والسلام -، أنه ابتلي بمرض وبيعض المصائب، ولكنه صبر وتضرع إلى ربه فمن الله عليه بالشفاء وهداة إلى ماء يمكن أن يغتسل به ويشرب منه؛ ليكون براءً لمرضه، ثم إن أهله قد تفرقوا عنه فأكرمه الله حيث ردهم عليه وكان مثلهم معهم من بنيتهم، كما قص علينا القرآن الكريم أن أيوب - عليه الصلاة والسلام - حلف أن يضرب بعض أهله، لأمر حدث منهم لم يقصه علينا القرآن؛ لانه لا عبرة فيه، حلف أن يضربهم عدداً معيناً؛ فأوحى الله إليه أن يأخذ بيده ضغناً فيضرب به... ولكنهم أثاروا حول ذلك كثيراً وكثيراً فذكروا أخباراً في سبب ما أصاب أيوب، وهي أخبار كاذبة بالطبع.

ثم ذكروا أن مرضه - عليه الصلاة والسلام - كان من تلك الأمراض المنفرة فذكروا أن جسمه كان مرتعاً للدود، إلى غير ذلك من الاخبار الكاذبة الشاذة التي لا تجوز على الأنبياء... ثم قالوا إن أهله قد ماتوا جميعاً، ولكن الله أحياهم له بعد ذلك وأعطاه مثلهم معهم... ثم ذكروا أن امرأته أخطأت خطأ حيث تصور لها الشيطان ودلها على شفاء أيوب بعمل شيء محرم فحلف أيوب أن يجلدھا مئة جلدة... كل ذلك مما لا ينبغي أن يعول عليه، بل ينبغي أن لا يركن إليه... ولعل هذا جعل عند بعض الكاتبتين ردة فعل قوية عنيفة فأول هذه الآيات وحملها على غير ما تحمل عليه فراراً مما نسج حول هذه الآيات الكريمة ففسر قوله تعالى ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِضَبٍّ وَعَذَابٍ﴾ اعراض الناس واستهزائهم بالدعوة والداعين فإن ذلك من عمل الشيطان، فشكوى الأنبياء لم تكن إلا بسبب إعراض أمهم عن الاستجابة، وحزنهم لم يكن إلا بسبب بطء في سير الدعوة، واستدل بقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أما قوله تعالى ﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ المراد ﴿اركض﴾ عقد العزيمة وتأكيدھا، واستتمام الثقة وإكمالھا؛ وذلك لأن الشكوى تشعر بالوهن وعدم القوة في السير إلى الغاية لذلك، هذا ما كان من جواب تلك الشكاية.

أما قوله تعالى ﴿ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ لما كان تردد المرء في غايته ووهن عزيمته مرضاً يضايق الصدر كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلًا للروح من صدئها، وشفاء للنفس من مرضها، فالمراد من المغتسل هو عقد العزيمة واستكمال الثقة، وهنا يكون اسم الإشارة راجعاً إلى الركض بالرجل التي هي كناية عن عقد العزيمة ﴿ وَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ أي: هدينا أهله فامنوا به واستجابوا لدعوته، وهدينا له مثلهم من غير أهله، فالهبة هنا هي الهداية والإرشاد، لا هبة الخلق لأن ما يهتم به الأنبياء هو أن يهدي الله بهم لا أن يولد لهم. وقوله تعالى ﴿ وَخُذْ بِدِكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ أي: لا ترفع في وجوه قومك رمحا ولا عصا ولا تغلظ لهم في القول، بل لوح لهم في وجوههم بالرياحين ولا تأثم بالغلظة.

وهذه التأويلات - كما نرى - بعيدة كل البعد عن مدلول اللفظ القرآني، ولا ينبغي أن نحمل الألفاظ مالا تحمل، ولقد رد العلامة الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله - شيخ الأزهر الأسبق هذه التأويلات وأطال الكلام في ذلك.

والآيات - كما قلنا من قبل - بعيدة عما أثير حولها من قصص إسرائيلي، كما ينبغي أن تبقى بعيدة عن هذا التكلف كذلك، وإذا كان داود وسليمان عليهما السلام قد وضعاً في البناء المحكم لبنة الشكر: فإن اللبنة التي وضعها أيوب - عليه الصلاة والسلام - كانت لبنة الصبر... والشكر والصبر أساسان لا بد منهما في هذا البناء الإنساني... ولهذا ذكر هؤلاء الثلاثة معا في قوله سبحانه ﴿ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ ﴾ نسأل الله أن يمن علينا بالشكر والصبر.

## الفصل السادس عشر والسابع عشر

### والثامن عشر والتاسع عشر

قصة يحيى وزكريا وعيسى ومريم عليهم الصلاة والسلام

١- في سورة مريم .

٢- في سورة الأنبياء .

٣- في سورة آل عمران .

رَفَعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com



## الفصل السادس عشر والسابع عشر

### أولاً: قصة يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام

ومن القصص التي ذكرت أكثر من مرة ما حدثنا القرآن الكريم عنه من خبر زكريا عليه السلام، فقد جاء الحديث عنه وعن زوجه وابنه يحيى عليهما السلام.

أولاً: في سورة مريم حيث بدأت السورة بهذا الحديث:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيْعَاصَ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءُ خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ١-٧].

وتبين الآيات الكريمة كيف أكرمه الله تبارك وتعالى وامراته عاقر وقد بلغ من الكبر عتياً:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنِ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩].

ويسأل ربه آية فتكون آيته ألا يكلم الناس ثلاث ليال دون أن يصيبه مرض من بكم أو غيره ثلاث ليال سوياً: أي صحيحاً غير مريض.

ثم يبين الله ما من به على يحيى عليه السلام:

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٥].

٢- أما سورة الأنبياء : فيأتي النسق فيها متلائما مع هذا الإيجاز الهادف الوافي :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

ونحن نرى أن كلا من السورتين اشتملت على قضايا جديدة يدرك ذلك من وقف أمام النص القرآني يستجلي معانيه، ويتفهم مقاصده، وهاتان السورتان مكيّتان.

٣- ثم جاءت سورة آل عمران المدنية، وكان الحديث فيها عن آل عمران حيث فصل فيها ما لم يفصل في السورتين الأوليين، فزكريا عليه السلام كفل مريم فلما رأى من عجيب قدرة الله حمله ذلك على أن يدعو ربه ليمن عليه بشيء من هذه العجائب وكفلها زكريا عليه السلام:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ أَنَّىٰ لَئِذَا هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۚ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۖ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا ۖ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٧-٣٩].

هذه الحلقة لحكمة ما اختصت بها هذه السورة؛ لأنها هي السورة التي تحدثت عن آل عمران، وما اختصوا به، بل سميت السورة باسمهم كذلك. وتبين هذه السورة أن تكليمه للناس في الأيام الثلاثة لا يكون إلا رمزا، وهذا ما لم يُشر إليه في سورة مريم، وإنما ذكرت ليالٍ ثلاث ويفهم من السورتين أنها كانت أياما لبليالها.

والذي جاء في سورة مريم أنه دخل على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا. أما هنا فليس الأمر كذلك فهو المذكور بالذكر والتسبيح ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. وما أبعد ذلك عن التكرار!

ولقد كان يحيى عليه الصلاة والسلام كما ذكر الله تبارك وتعالى نبياً من الصالحين يأخذ الكتاب بقوة يعلم الناس الخير، فلقد أخرج الترمذي رحمه الله تعالى في جامعه أن الرسول ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى ابن زكريا بخمس كلمات».

عن الحارث الاشعري أن النبي ﷺ قال: إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها، وانه كاد أن يبطئ بها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها فإذا أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى أخشى إن سبقتني بها يخسف بي أو أُعذَّب فجمع الناس في بيت المقدس فامتلاً «المسجد» وتعذوا على الشرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن اعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن.

أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وإن مثل من أشرك كمثـل رجل اشترى عبداً من خالص ماله ذهب أو ورق، فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إليّ فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكـم يرضى أن يكون عبده كذلك وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثـل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثـل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه، وأمركم أن تذكروا الله مثل ذلك الرجل خرج العدو في إثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله.

قال النبي ﷺ وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه جثي جهنم فقال رجل يا رسول الله وإن صلى وصام قال وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله<sup>(١)</sup> وهذا الحديث يدلنا على حرص أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام على تبليغ ما أمروا به فهاهو يحيى عليه السلام يخشى إن بلغ عنه عيسى عليه الصلاة والسلام أن ينزل الله به عقابه ويظهر أن إبطاء يحيى بالتبليغ لما عرفه عن بني إسرائيل من كرههم للحق وهزئهم بأصحابه وهذا ما وصفهم الله به ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ يَغْيِرُ حَتَّى ذَلِكِ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] ثم إن هذه الأوامر التي أوحاها الله إلى يحيى ابن زكريا وأراد عيسى تبليغها عليهم الصلاة والسلام كانت من الأمور التي تركها بنو إسرائيل وأول هذه الأوامر التوحيد والعبادة.

ولقد كان القوم بعيدين عن التوحيد الخالص وكانت عبادتهم خداجاً ويظهر أن صلاتهم كانت كذلك كما جاء في الحديث، وأنهم كانوا ينحرفون بالصوم عن حقيقته أما الصدقة فأمرهم فيها معلوم حيث هيمن عليهم الشح وأما ذكر الله تبارك وتعالى فكانت قلوبهم منه خالية ولذا فإن سيدنا رسول الله ﷺ لم يأمر الصحابة بهذه الأوامر.

ومن اللطائف القرآنية في قصتهما عليهما الصلاة والسلام أنه جاء في سورة مريم ثلاث ليال سوياً، وسورة مريم كما قلنا مكية. والليالي الثلاث قد تكون في يومين اثنين فإذا افترضنا مثلاً الليالي الثلاث ابتدأت من ليلة الجمعة فتكون الليالي الثلاث ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد، وهذه الليالي لها يومان: يوم الجمعة ويوم السبت.

(١) راجع شرح هذا الحديث الشريف في كتابنا «خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة» ص ٢٧٩ والحديث أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ٢٨٦٧/٣ وقال حديث حسن صحيح غريب.

## السر في ذكر الايام في آل عمران :

ثم جاءت سورة آل عمران وهي مدنية فذكرت فيها الأيام ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ ومن مجموع الآيتين ندرك أن المدة التي لا يكلم الناس فيها زكريا عليه الصلاة والسلام من غير علة أو مرض بل كان عدم قدرته على تكليمهم المعجزة التي بينها الله له هذه المدة كانت ثلاثة أيام بثلاث ليال، ولعلك أيها القارئ الكريم بدأت تدرك لماذا ذكرت الليالي قبل الأيام فلو أن الأيام ذكرت في سورة مريم ما كان لذكر الليالي معنى في سورة آل عمران لأن الليلة تطلق على ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر. أما اليوم فيطلق على النهار والليل معاً، فذكر الليالي في سورة مريم المكية لا يغني عن ذكر الأيام التي جاءت في سورة آل عمران المدنية أرايت إلى هذه اللطائف البديعة في كتاب الله؟ إن قصة يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام تملأ النفس يقيناً بآثار القدرة الربانية وتبين لنا فضل الدعاء الخفي فلقد بلغ زكريا عليه الصلاة والسلام من الكبر مبلغاً تداعت فيه قوته فلقد وهن العظم منه، والعظم هو الهيكل القوي في الإنسان واشتعل رأسه شيباً، ولكنه مع ذلك كان يرى سعادته بأن يدعو الله بعيداً عن ظواهر اليأس والقنوط، ولقد خاف الموالي من ورائه، وخاف أن يضل الناس من بني إسرائيل فهم مع وجود الأنبياء فيهم، يملأ الضلال قلوبهم ويستولي على نفوسهم فكيف إذا لم يبعث فيهم أنبياء؟! .

لذلك سأل زكريا عليه السلام ربه ولياً يرثه ويرث من آل يعقوب وأن يكون رضيعاً ولم تكن الثروة المادية هي التي تشغله عليه الصلاة والسلام إنما هو ميراث النبوة فبشّره الله تبارك وتعالى بنبي كريم لم نجعل له من قبل سمياً وهو رضيّ أكرمه الله القوة والحكم وهو بعد ذلك مصدق بكلمة من الله ثم هو عظيم الشرف آية في الطهر والعفة وهو قبل ذلك وبعده نبي من الصالحين وهو من الفئة التي كرمها الله بالنبوة .

وكثير من أنبياء الله الذين كرمهم الله وصفهم بأنهم من الصالحين ويكفي أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ولكن هذين النبيين الصالحين لقيا من اليهود العنت والشدة بل إن هذا النبي كان من جملة أنبياء كثيرين قتلهم اليهود بغير حق بغياً وعدواناً. ما أعظم شأن الدعاء وهو يصدر من القلب المؤمن ﴿وَرَكِرْنَا إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۖ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَكِّرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ الأوصاف العظيمة من شأنها أن تمنح المتصفين بها اجلالاً وهيبَةً وأن تجمع الناس حول أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ويدعون ربهم رغباً ورهباً يرجون رحمته ويخافون عذابه وكانوا لنا خاشعين وهي صفة تكاد تكون من الصفات النادرة خشعت جوارحهم وقلوبهم ولكن كل هذه الصفات التي كان من شأنها أن يهتدي بها الآخرون لم تزد بني إسرائيل إلا اعتوّاً ونفوراً ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

## الفصل الثامن عشر والتاسع عشر

ثانياً: قصة مريم رضي الله عنها

### وقصة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام

أما قصة مريم فقد ذكرت أول ما ذكرت في السورة التي سميت باسمها وهي أكثر سورة فصل فيها الحديث عنها، فبعد الحديث عن زكريا ويحيى - عليهما الصلاة والسلام -، يحدثنا القرآن عن مريم ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ يبدأ الحديث عن مريم من هذه الحلقة المتأخرة نسبياً من حياتها، وهي بداية تتسق وتتفق مع ما قبلها وما بعدها في السورة الكريمة، ففي أول السورة: ﴿يُسْمِىَ اللَّهُ الْكَافِرَ الْكَافِرَ﴾ كَهَيْعَتِ ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكُمْ زَكِرْتُمْ﴾ وفي بداية قصة مريم ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ويأتي بعد هذا ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾.

يحدثنا القرآن أن مريم - رضي الله عنها - اعتزلت أهلها فانتبذت منهم مكاناً شرقياً، واتخذت من دونهم حجاباً، ويظهر أن هذا الحجاب لم يكن مجرد حائل وساتر من أجل أن تمشط رأسها أو تغلي شعرها - كما تقول بعض الروايات -، وإنما كان ذلك الحجاب حاجزاً فيه بُعد يدلنا لذلك قوله تعالى: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فلم يكن الحجاب مجرد ساتر رقيق.

ويحدثنا القرآن عما كان لمريم بعد ذلك، ونلاحظ هذه الفاءات الكثيرة، وهي تدل على أن هذه الأمور كان بعضها عقب بعض دون مهلة أو تريث، وتلك مقدمات ممهدة نستشف منها ما يتفاعل في نفس مريم من أمور ﴿انْتَبَذَتْ﴾ ﴿فَاتَّخَذَتْ﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا﴾.

والروح التي أرسل إليها جبريل - عليه السلام - وقد منح الله الملائكة القدرة على أن يتمثلوا بغير صورهم، ولقد كان جبريل - عليه السلام - يأتي النبي ﷺ في بعض أحيانه في صورة دحية الكلبي - رضي الله عنه -. تمثل لها بشراً سوياً كأحسن ما يكون البشر، وتكون المفاجأة لمريم ذات النشأة الدينية والعاطفة الدينية، لذلك نجدها تلجأ إلى الله تبارك وتعالى وتستجير به من هذا الذي رآته على غير ميعاد؛ فهي تعوذ بالرحمن منه وتلجأ إليه سبحانه إن كان هذا الذي رآته تقياً يخشى الله تبارك وتعالى كأنما تستعطفه وتذكره بالله، فهي تستعذ بالله منه إن كان تقياً خيراً، والناس عادة يستعيزون بالله من غير الأتقياء. أما هي في هذا الموقف فهي تستعذ بالله حتى من الأتقياء. فالموقف موقف حساسية لا يحتمل صبراً، ولكنه يجيها ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ بأسلوب القصر الذي يدل على بساطة في الأمور، كأنما القضية من المسلمات وهو ما تدل عليه «إنما» كما يقول علماء البلاغة ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، وتدرك مريم أنها لابد أن تجابه الموقف بصراحة وجراءة فكيف يكون لها غلام وهي العذراء التي لم تزوج، الطاهرة التي لا تعرف الخنى ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ وَلَمْ أَكْ بِبَغِيًّا﴾، ويجيها الروح الأمين - عليه السلام - بأنه ليس له من الأمر شيء، إنما هو أمر الله الذي قضاه، وهو عليه هين، وسيكون رحمة للناس بما ييسر عليهم في التشريع وآية على القدرة الإلهية؛ لأن ميلاده سيكون صفعاً للمادة والماديين، وهذا معنى قوله سبحانه ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾.

وتنتهي مهمة الروح الأمين، وقد بلغ الرسالة التي أمر أن يبلغها، ولهذا لا يحدثنا القرآن بعد ذلك شيئاً عن هذه المحاورة، وإنما يكون الحديث عما جرى لمريم فيما بعد حديثاً معطوفاً بعضه على بعض بهذه الفاءات المتعددة ﴿فحملته﴾ ﴿فانبتذت به مكانا قصياً﴾ ويلجئها المخاض الذي يأتي النساء الحوامل عند ولادتهن إلى جذع النخلة، ولا تسل عما أصابها من ضيق! وعما أحاط بها من ألم! ﴿يَلْتَمِتْنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا



مَنْسِيًّا ﴿ وما إن تنتهي من تلك الكلمات ؛ وإذ بها مباشرة تسمع صوتاً يناديها يبين لها ما أكرمها به الله فحريٌّ بها أن لا تحزن ؛ فلقد أكرمها الله تبارك وتعالى بالماء شرباً ، وبالرطب غذاءً ، فما هي إلا أن تمسك جذع النخلة تهزه بيدها محرّكة له متحرّكة به ، وما أحسن الحركة لذوات المخاض ! فلتأكل ولتشرب ولتهنأ وليكن غذاؤها من هذا الرطب الذي يعينها على اجتياز تلك المرحلة الصعبة الحرجة ، ولتنذر للرحمن صوماً ألا تكلم أحداً من الناس .

ويجمل أن نقل شيئاً مما كتبه صاحب التصوير الفني - رحمه الله - يقول : «فهاهي ذي في خلوتها مطمئنة إلى انفرادها، يسيطر على وجدانها ما يسيطر على الفتاة في حمامها؛ ولكن ها هي ذي تفاجأ مفاجأة عنيفة تنقل تصوراتها نقلة بعيدة، ولكنها بسبب مما هي فيه أيضاً: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ إنها انتفاضة العذراء المذعورة يفجؤها رجل في خلوتها فتلجأ إلى استشارة التقوى في نفسه ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ ! .

ولئن كنا نحن نعلم انه الروح الأمين؛ فإنها هي لا تعلم إلا أنه رجل، وهنا يتمثل الخيال تلك الفتاة الطيبة البرينة ذات التقاليد العائلية الصالحة، وقد تربت تربية دينية وكفلها زكريا بعد أن نذرت لله جنيناً. هذه هي الهزة الأولى ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾، ثم ليتمثل الخيال مرة أخرى مقدار الفزع والخجل، وهذا الرجل الغريب - الذي لم تثق بعد بأنه رسول ربها، فقد تكون حيلةً فاتكٍ يستغل طيبتها - يصارحها بما يחדش سمع الفتاة الخجول وهو يريد أن يهب لها غلاماً وهما في خلوة وحدهما، وهذه هي الهزة الثانية.

ثم تدرّكها شجاعة الأنثى تدافع عن عرضها. قالت: أنى يكون لي غلام ولم يمسنني بشر ولم أكن بغياً؟ هكذا صراحة، وبالألفاظ المكشوفة، فهي والرجل في خلوة، والغرض من مباغتته لها قد صار مكشوفاً - فما تعرف هي بعد كيف يهب لها غلاماً،

وما يخفف من روع الموقف أن يقول لها ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ فقد تكون هذه خدعة فاتك - كما قلنا - فالحياء إذن ليس بمُجْدٍ والصراحة هنا أولى .

قال : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ . ثم ماذا؟ هنا نجد فجوة من فجوات القصة ، فجوة فنية كبرى تترك للخيال يتصورها كما يهوى ، ثم تمضي القصة في طريقها لنرى هذه العذراء المسكينة في موقف آخر أشد هولاً :

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا فَادْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ وهذه الهزة الثالثة .

فلئن كانت في الموقف الأول تواجه الحصانة والتربية والأخلاق بينها وبين نفسها ، فهي هنا وشيكة أن تواجه المجتمع بالفضيحة ، ثم هي تواجه آلاماً جسدية بجانب الآلام النفسية ، تواجه الألم الجسمي الحاد الذي أجاءها إجابةً إلى جذع النخلة وهي وحيدة فريدة ، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ، ولا علم لها بشيء ولا معين لها في شيء فإذا هي قالت : ﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ فإننا لنكاد نرى ملامحها ، ونحس اضطراب خواطرها ، ونلمس مواقع الألم فيها ﴿ فَادْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَزَى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ .

وهذه هي الهزة الرابعة ، والمفاجأة العظمى ، وإنا لنكاد - نحن لا مريم - نهبط على الأقدام وثباً ، روعة من هذه الهزة وعجباً : طفل وليد اللحظة يناديها من تحتها ، ويمهد لها مصاعبها ويهيء لها طعامها ، ألا إنها الهزة الكبرى .

ونحسبها قد دهشت طويلا وبهتت طويلا قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزّه ليساقط عليها رطبا جنياً - لتأكد على الأقل، ويطمئن قلبها لما تواجه بها أهلها - ولكن هنا فجوة تُترك للخيال أن يقيم عندها قنطرة، ويعبرها... ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ . فلتطمئن الآن مريم ولتنتقل الهزات النفسية إلى سواها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيحاً يَأْخُذُ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمراً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيّاً﴾ .

إن الهزة لتطلق ألسنتهم بالسخر والتهكم على أخت هارون: وفي تذكيرها بهذه الأخوة ما فيه من مفارقة، فهذه حادثة في هذا البيت لا سابقة لها ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمراً سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيّاً﴾ .

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ويبدو أنها كانت مطمئنة لتكرار المعجزة هنا؛ أما هم فما عسى أن تقول في العجب الذي يساورهم والسخرية التي تجيش بها نفوسهم، وهم يرون عذراء تواجههم بطفل، ثم تبجح فتشير إليه ليسألوه عن سرها ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيّاً؟﴾ .

ولكن هاهي ذي المعجزة المرتقبة: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ . . .

لولا أننا قد جربنا من قبل لوثبنا على أقدامنا فرعاً أو لسحرنا في مواضعنا دهشاً، أو لفغرنا أفواهنا عجباً، ولكننا جربنا فلتفضّ أعيننا بالدمع من التأثر ولترتفع أكفنا بالتصفيق من الإعجاب، وفي هذه اللحظة يسدل الستار والأعين تدمع للانتصار والأيدي تدوي بالتصفيق. وفي هذه اللحظة نسمع في لهجة التقدير وفي أنسب فرصة للاقتناع والافتناع:

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَأَتَتْهُ حُمَاتُهَا فَارْسَلْنَا  
إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ  
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ  
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَقْضِيًّا  
﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا  
وَكُنْتُ سَيِّئًا مَنَسِيًّا فَادْنَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ  
النَّخْلَةِ سَقُوْطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فِيمَا تَوَرَّيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ  
لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا بِالْمَرْيَمِ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا  
يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي  
الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي  
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ  
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ  
وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ١٦-٣٥].

ولقد برز الغرض الديني هنا وبرزت مشاهد القصة، ولكن مما لاشك فيه أن قوة إبراز  
العواطف والانفعالات هي الغالبة، وإن هذا اللون هو الذي يطبعها، ويغلب فيها على  
الألوان الأخرى<sup>(١)</sup> رحم الله صاحب الظلال.

٢- ثم تأتي سورة الأنبياء لنقرأ فيها هذه الإشارة:

﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَزَحْجَهَا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ زُجْجِنَا وَجَعَلْنَهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً  
لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

(١) كتاب «التصوير الفني في القرآن» - سيد قطب - دار الشروق - بيروت والقاهرة ص ١٥٨-١٦١.

٣- أما سورة المؤمنون فتذكر فيها هذه الزيادة ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. نعم آية؛ لأن كلا منهما إنما صار آية بالآخر فليسا آيتين؛ فما أبدع النظم القرآني وأحكمه!

٤- ثم تأتي سورة آل عمران لتحدثنا عن الحلقة الأولى وكيف أن امرأة عمران نذرت لربها ما في بطنها محرراً لتقبل منها فهو السميع العليم:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُكَ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

هذه الحلقة الأولى ذكرت في هذه السورة، وذلك - لما قلنا آنفاً - من أنها -سورة آل عمران- جاءت تتحدث عن مناقبهم وما أكرمهم الله به، وفي هذه السورة يبين الله ما أكرم به مريم حيث أعادها وذريتها من الشيطان الرجيم وتقبلها بقبول حسن، وأنبتها نباتاً حسناً ورزقها من عنده، وكيف أخبرتها الملائكة أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، فلتكن من القانتين الساجدين الراكعين، ثم أخبرتها الملائكة بأن الله يبشرها ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، ثم تتحدث عن أن ذلك ما أراده الله ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

ثم تحدثت عما أكرم الله به المسيح - عليه الصلاة والسلام - حيث علمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعله رسولا إلى بني إسرائيل ليعلن لهم بأنه قد جاءهم بآية من ربهم، ثم يبين أن هذه الآية التي أمده الله بها ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وهناك أخرى ﴿وَأُزَيِّنُ الْأَكْصَفَ وَالْأَنْبَرِ

وَأَخِي الْمَوْتَنَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ . أما الثالثة ﷻ وَأَنْتُمْ كُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﷻ .

ثم يبين - عليه الصلاة والسلام - بأنه لم يخرج عن شريعة موسى - عليه الصلاة والسلام - فهو مصدق لما بين يديه من التوراة ولكن خفف الله به عنهم فجاء ينسخ بعض أحكام التوراة ﷻ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﷻ قيل : هي آية التوحيد دلالة على ما كان يجيء به الأنبياء - عليهم السلام - ، ويمكن أن تكون الآية شيئاً آخر ﷻ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنْ اللَّهَ رَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﷻ . فلما علم عيسى عليه السلام واستشعر وأدرك أنهم كافرون لا محالة سأل من أنصاري إلى الله ﷻ قَالَ الْخَوَارِثُوتُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﷻ . ونبه هنا على هذا الملحظ الدقيق وهو أن عيسى - عليه الصلاة والسلام - سألهم من أنصاري إلى الله فلم يجيبوه «نحن أنصارك إلى الله»، وإنما قالوا: نحن أنصار الله، وها هم يعلنون ويشهرون إيمانهم ويدعون ربهم ، وقد آمنوا بما أنزل واتبعوا رسوله أن يكتبهم مع الشاهدين .

ثم تخبرنا الآيات عن مكر بني إسرائيل ومحاولتهم قتل عيسى - عليه الصلاة والسلام - ولكن الله كان أسرع وأقوى منهم مكرراً ، ثم تبين الآيات ما قاله الله لعيسى عليه السلام : إني

١ - متوفيك .

٢ - رافعك إليّ .

٣ - مطهرك من الذين كفروا، مفرق بينك وبينهم حتى لا تصيبك منهم لوثة .

٤ - جاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

## ما المقصود بالرفع والتوفي.

ولقد اختلف المفسرون كثيراً في الأولى والثانية «متوفيك»، «ورافعك» فبعضهم يحمله على التوفي الذي هو الموت، وهؤلاء بعضهم فسر الرفع بأنه رفع حقيقي كان بعد الموت، وبعضهم لم يجعله كذلك. وبعضهم ادعى أن في الآية تقدماً وتأخيراً، فقال: إن المعنى «إني رافعك إلي ومتوفيك».

وأنا لا أقبل مثل هذا أبداً فنحن لا نرضى أن نقدم ما أخره الله وأن نؤخر ما قدمه. وإن كان هذا مشتهراً عند كثيرين من الناس. وبعضهم حمل التوفي على غير الموت، وحمل الرفع على الحقيقة بأنه الجسم والروح، وإلى هذا ذهب جمهور العلماء قديماً وحديثاً، وإلى الأول ذهب بعض العلماء المحدثين الذين ينازعون في استمرار حياة عيسى عليه السلام حتى اليوم، كما ينازعون في نزوله، مع أن الأحاديث الصحيحة وردت تبين ذلك ومن الذين أنكروا هذا الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت. وليس من غرضنا أن نطيل في الخلافات إنما الذي نريد أن نبه عليه أن هذه القصة جاءت في سورة آل عمران وهي السورة التي أقامت الحجج على نصارى نجران وغيرهم من النصارى وغيرهم من أهل الكتاب. ولا يرتاب أحد في أن الذي ذكر في هذه السورة الكريمة على الرغم من إجماله إذا قورن بما ذكر في سورة مريم إلا أن فيه زيادات بل فيه الجدة كل الجدة<sup>(١)</sup>.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمُ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ

(١) وينبغي أن نلاحظ هنا أن الذي ذكر في هذه السورة كان ترتيبه مغايراً لسورة مريم حيث قدم ذكر زكريا عليه السلام هناك وفصل في أمر الميلاد، أما هنا فلقد كان الحديث عن آل عمران متبداً ابتداءً من الحلقة الأولى حيث نذرت امرأة عمران ما في بطنها محرراً.

اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّا لِلَّهِ رَبِّ وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٥﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ وَمَكْرُوهًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلٌ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿٥٦﴾ [آل عمران: ٤٢-٥٥].

٥- ثم تأتي سورة التحريم، ولها موضوعها ذو الصلة العميقة بأمور النساء، ومنهن المؤمنات وغير المؤمنات، وقد حدثتنا أولاً: عما كان من شأن أزواج النبي ﷺ ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ يُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]، وفي آخر السورة يضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأتين اثنتين: امرأة نوح، وامرأة لوط، ويضرب مثلاً للذين آمنوا امرأتين اثنتين: امرأة فرعون ومريم ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَبِخَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَرْمِ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [التحريم: ١١، ١٢] لكل سورة مذاقها ولونها وأسلوبها، بل وموضوعها الذي اختصت به واختص بها.

٦- اما سورة الصفّ التي تحدثنا عنها من قبل فقد جاء فيها آيتان تتحدثان عن عيسى - عليه السلام - عما كان بينه وبين قومه .



الأولى : هي قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الصف: ٦] ، فهذه الآية الكريمة كانت الغاية منها بيان هذه البشارة بالرسول ﷺ . وما أكثر البشارات ! ولكن الآية تبين لنا بعد ذلك أن عيسى بعد أن جاءهم بالآيات أنكروها وكذبوه ، وقالوا هذا سحر مبين .

وأما الآية الثانية : فهي في اخر السورة وهي قول الله - وقد جاءت في سياق خطاب المؤمنين أن يكونوا أنصار الله - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَبْدَنَّا لَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤] . وهذا يختلف عما جاء في سورة آل عمران ؛ لأن السياق هنا لم يكن سياق الحديث عن عيسى عليه السلام ، وإنما ذكرت في سياق الحديث عن المؤمنين ومناداتهم - كما رأينا - فما أبعد هذا عن ذاك !! .

٧- ثم تأتي سورة المائدة : وقد حدثتنا في آخرها عن عيسى - عليه الصلاة والسلام - وينبغي أن نبه قبل كل شيء على أن الحديث في سورة المائدة لم يكن عما جرى بين عيسى وبين قومه ، وإنما كان له سياق اخر وهو ما كان بين الله تبارك وتعالى وبين نبيه عيسى - عليه الصلاة والسلام - . وهذا ما تنطق به الآيات الكريمة .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ إِذْ آيَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلَهُم بِالْبَيْتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَإِذْ أُوحِيَ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِوَيْرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ قَالَ اللَّهُ إِنْ مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي آلِهَةً مِثْلِي وَتَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تَعَذَّلْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٩-١١٨﴾ .

ثم تذكر الآيات نبأ المائدة، وبعد هذا يوجه النداء إلى عيسى عليه السلام مرة أخرى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي آلِهَةً مِثْلِي وَتَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . . .﴾ الخ الآيات الكريمة . وغني عن القول أن هذا الأسلوب يختلف كلية عما قرأناه في سورة آل عمران؛ لأن هذا كان امتناناً من الله على نبيه . وما جاء في سورة آل عمران كان حديثاً بين عيسى وبين قومه - عليه السلام - .

هذه هي القصص التي ذكرت في كتاب الله أكثر من مرة، ولعلني إن شاء الله قد وُفِّت في تجليتها فإن وُفِّت فمن الله .

تعقيب على قصص زكريا ويحيى ومريم وعيسى  
عليهم الصلاة والسلام

أخبار آل عمران صفعة للماديين:

وإذا كان لابد من وقفة مع آل عمران في ما أخبر به القرآن الكريم عنهم؛ فإنها -  
والحق يقال - وقفة تمدنا بشفافية الروح وصادق الإيمان فهي آيات تبدد - كما رأينا -  
وتهدم كل ما أراده الماديون مما يتنافى مع آثار القدرة، وعظيم الحكمة الإلهية،  
فأخبارهم جميعاً ابتداءً من ولادة يحيى لذكريا عليهما الصلاة والسلام وما كان من خبر  
مريم وولادة المسيح عليه السلام، كل ذلك كان صفة قوية لأولئك الماديين الذين  
يريدون أن يقفوا عند ظواهر الأشياء دون النظر إلى ما وراءها، كما أن فيها بياناً شافياً  
لتعنت اليهود، وقسوة قلوبهم وتنكرهم للحق، وما أعظم اللبنة التي وضعها هؤلاء، إنها  
الانطلاق من مجال المادة الضيق، ومن أرجائها المظلمة، ومن آفاقها العتماء إلى ما هو  
أوسع وأرحب مما تبدعه يد القدرة. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ  
ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ  
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ  
عَلَى الْكَافِرِينَ إِنَّ هَذَا لَهُو الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ مَثَلَ  
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ  
إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا  
مُسْلِمُونَ﴾ .

اللهم لك أسلمنا وبك آمنا، وعليك توكلنا، وإليك أنبنا، وبك خاصمنا، وإليك حاكمنا، اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا، وما أسرفنا وما أنت أعلم به منا أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

تلكم هي اللبنات لهذا البناء ومع دقتها، وإحكامها؛ إلا أن هذا البناء لا زالت تنقصه لبنة تكمل بنيانه وتتم أركانه... وتلك اللبنة التي لا يتم البناء إلا بها كانت وشاء الله لها أن تكون بالنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ... وهذا هو الحديث الشريف «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثّل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»<sup>(١)</sup>.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ حديث رقم (٣٥٣٥)، وفتح الباري شرح صحيح البخاري ٥٥٨/٦.

## قضيتا التثليث والصلب: عرض ومناقشة

### تمهيد:

وأرى قبل أن أختتم الحديث عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام أن أبين أن هذا الدين قد فرّق من حيث معاملة المسلمين بين أهل الكتاب وبين غيرهم، ولقد فصلتُ هذا في كتابي (قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية نقد مطاعن وردّ شبهات) وبيّنتُ أن لأهل الكتاب مزايا خاصّة فليرجع إليه من شاء.

وأودّ أن أبين هنا كذلك منزلة المسيح عليه الصلاة والسلام في القرآن، فالمتدبر لآي القرآن يجد ثناءً طيباً على المسيح عليه السلام وأمه، فقد ردّ افتراءات اليهود الذين بُرّثوا أخيراً في هذه السنين من كل اعتداء وطعن في المسيح عليه السلام وأمه، وصدق الله تبارك وتعالى في شأن اليهود: ﴿وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، وكما بُرّئ المسيح عليه الصلاة والسلام من مطاعن اليهود وإبذائهم برّاه الله كذلك من غلوّ النصارى. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۚ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢] وهذه عقيدة التوحيد التي أرسل الله بها رسله جميعاً من لدن آدم عليه الصلاة والسلام، ولكن الإنسان فيما بعد انحرف عن الجادة فجاءت هذه العقائد الزائغة ومنها عند النصارى التثليث والصلب، ولقد حدّثنا القرآن حديثاً واضحاً عن هذه القضايا فقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَتْ لَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] والله لو لم

يكن للقرآن الكريم إلا هذه المعجزة لكنت دليلاً على أن هذا القرآن من عند الله أنزله على قلب خاتم أنبيائه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فتلكم قضية لم يكن لأحد علم بها من قبل وهي قوله ﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة في التاريخ والآثار، وسأعرض هنا توضيحاً لهاتين القضيتين: التثليث والصلب.

## قضية التثليث<sup>(١)</sup>

يرى النصارى أنّ الآلهة ثلاثة: الآب والابن والروح القدس، ويسمونها الأقانيم الثلاثة، وبيان ذلك عندهم أنّ الله ثلاثة أقانيم كلّ منها عين الآخر فكلّ منها كاملٌ ومجموعها إلهٌ واحد، وهم بهذا القول تركوا التوحيد الخالص الذي هو ملة إبراهيم وعيسى وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أنّ هذه العقيدة مبنية عندهم على الجمع بين التثليث الحقيقي والتوحيد الحقيقي، وهما أمران متناقضان لا يقبل العقل الجمع بينهما.

وعقيدة التثليث في الأصل عقيدة وثنية نقلها الوثنيون الذين تنصّروا إلى الديانة النصرانية، وفسروا بعض الألفاظ الواردة في كتبهم اليهودية ليجدوا شبهة يتكثرون عليها بشيء من التحريف والتأويل. فهدموا آيات التوحيد القويّة البنيان، وقد أكّد ذلك الأصل الوثني لعقيدة التثليث كثيرٌ من علماء التاريخ والآثار الأوروبيين حيث أثبتوا وجوده في الحضارات والعقائد القديمة، فقد وجد التثليث عند البراهمة، والبوذيين، وقدماء المصريين، والفرس وغيرهم من أهل آسيا، وكذلك عند اليونان والرومان وغيرهم من الأوروبيين، فالبراهمة قالوا بالآهوت الثنائي أو الثلاثي، فعندهم ثلاثة أقانيم متحدة في واحد لا تنفكّ، وقال البوذيون إنّ (بوذا) إلهٌ واحدٌ هو ثلاثة أقانيم، أما قسيسو هيكل (منفيس) في مصر القديمة فقد تحدّثوا عن ثلوث مقدّس انبثق عن الأوّل ثانٍ وعن مجموع الأوّل والثاني انبثق ثالث، وثلاثتهم لهم طبيعة واحدة، بل إنهم في تعبيرهم عن عقيدتهم يستخدمون تعبير (الكلمة والروح القدس) وقد أقرّ العالم (دوان) بذلك كما أقرّ بأن هذه التعبيرات النصرانية أساسها وثني مصري بناءً على الشواهد التاريخية.

---

(١) انظر تفسير المنار: ٨٤/٦ وما بعدها، وكتاب (مختصر إظهار الحق لرحمة الله الهندي) للدكتور محمد الملكاوي: ص ١٩ وما بعدها، ص ١٢٦ وما بعدها.

أما الفرس فقليل إنهم كانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم كالهنود ويسمونها (أوزمرد ومترات وأهرمن) فالأول هو الخلاق، والثاني ابن الله المخلص والوسيط والثالث الملك، والمشهور عن الفرس الثنية دون التثليث فهم يقولون بإله هو مصدر النور والخير وإله هو مصدر الظلمة والشر، ويقول دارسو الديانات الشرقية القديمة من مصرية وكلدانية وآشورية وفينيقية وغيرها إنه لا يخلو شيء من دياناتهم من أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي، وينقل الشيخ محمد رشيد رضا عن كتاب (سكان أوروبا الأولين) أنّ الوثنيين القدماء كانوا يعتقدون أن الإله واحد لكنه ذو ثلاثة أسماء وأقانيم، وقد وُجد هذا عند اليونانيين القدماء، وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم هذه الشعائر كلّها ونسخت بها شريعة المسيح، ويستنتج من دراسة تاريخ العقائد الوثنية القديمة أن نصارى أوروبا لم يتركوا وثنيّتهم إلى توحيد المسيح عليه السلام وإلى التوارة المبنية على أساس التوحيد الخالص، بل ظلّوا على وثنيّتهم القديمة وأدخلوا فيها شخص المسيح عليه السلام وجعلوه أحد آلهتهم التي كانوا يعبدونها من قبل.

لقد نقلوا عن المسيح قوله إنه ما جاء لينقض الناموس (شريعة موسى) وإنما جاء ليتممها (أي الشريعة)، ولكنّ (بولس) نقض ذلك لبنّة لبنّة إلاّ ذبيحة الأصنام والدم المسفوح والزنا الذي لا عقاب عليه عندهم فمهّد لهم السبيل لتأسيس دين جديد لا يتفق ودين المسيح.

إنّ الديانة النصرانية في الأصل ديانة توحيد خالص جعلها أتباعها ديانة وثنية بتثليث لا تقبله العقول، أخذوه عن تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة، اقتباساً شوّهوا به ديانة توحيد سماوية، نسخوا شريعتها برقتها، فلم تردّ كلمة واحدة عن أنبياء بني إسرائيل تدلّ على هذا التثليث، مع أنّ النصارى يزعمون أنها مستمدة من جميع كتب أنبياء بني إسرائيل، كما نسبوها إلى المسيح وليس في كلام المسيح نصّ على هذا، بل إنّ في كلامه نصوصاً قاطعة في حقيقة التوحيد والتنزيه وعدم



المساواة بينه وبين الله وعدم المساواة بين الآب والابن بالمعنى المجازي للابن الذي يُطلق على المسيح وعلى غيره من الأبرار، كما أنّ المسيح كثيراً ما يطلق على نفسه اسم ابن الإنسان .

وبما أنّ عقيدة التوحيد هي التي وردت في نصوص الأناجيل المعتمدة عند الغربيين فهي العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل، فإذا فرضنا وجود ما ينافيها فينبغي ردّه إليها .

أمّا إنجيل برنابا فله شأن آخر، فلو كان نصارى اليوم يقبلونه لوجدوا فيه دلائل صريحة قاطعة على توحيد الله وعلى أنّ المسيح بشر فإنّ، على أنهم لو أنعموا النظر في الأناجيل المعتمدة لديهم اليوم لوجدوا مثل ذلك أيضاً .

وعقيدة التثليث - من جهة أخرى - يردّها اضطراب النصارى في معنى (الروح القدس) فمن ذلك قول متى ١٨: ١ «أمّا ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لمّا كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس» وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيره إيّاها بولد ومحاورتها في ذلك ومنها أنّها سألته عن كيفية ذلك فقال لها: ٣٥ «الروح القدس يحلّ عليك» فروح القدس ليس هو الله، ففي هذا الفصل نفسه أنّ (اليصابات) أمّ يحيى امتلأت من الروح القدس، وبذلك حملت يحيى وكانت عاقراً وإنّ زكريا أباه امتلأ من الروح القدس (٤١، ٦٧) .

فتعبير الروح القدس جاء في شأن غير المسيح، وممّن جاء في شأنهم في الإنجيل رجل اسمه سمعان: (لوقا/ الفصل الثاني: ٢٥-٢٦)، فالصحيح إذن أنّه من الملائكة، والقدس هو الطهر، حيث تذكر الأناجيل في مقابله (الروح النجس) أي الشيطان، فجعلوه إلهاً كما فعل الوثنيون .

وجملة القول أنّ هذه الأناجيل تدلّ على أنّ عيسى عليه السلام خُلِقَ بوساطة الروح القدس، وأنّ يحيى عليه السلام خُلِقَ كذلك بوساطة الروح القدس وكان خَلَقَهُ آية من

وجه آخر إذ كان أبوه شيخاً كبيراً وكانت أمه عاقراً، ولكن الوساطة والسبب واحد وهو الملك المسمى بروح القدس، فلا يجوز حينها أن يُقال إنَّ قوله تعالى «روح منه» في شأن المسيح عليه السلام يفيد أنه جزء من الله تعالى عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقه.

والمطلع على الأناجيل يرى أن مؤلفيها يستعملون كلمة (الروح القدس) استعمالاً يدلّ على أنه ملك من خلق الله، ولكن (يوحنا) انفرد بعبارات يمكن ردّها إلى استعمالٍ غيره ويمكن تحريفها للاستدلال بها على شيء آخر كما فعلوا، فهم يقولون إنَّ الروح منبثق من الآب وهو عين الآب، ويستدلون على ذلك بقول يوحنا حكاية عن المسيح ١٥: ٢٦ «ومتى جاء المُعزّي الذي سأرسله إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الله ينبثق فهو يشهد لي». وأصل الانبثاق أن يكسر الماء ما أمامه من سدّ ويفيض على ما وراءه، وفي ترجمة أخرى للبروتستانت «يخرج» فمن هذه الكلمة استنبطوا عقيدة وثنية تنقضها نصوص كثيرة في الأناجيل.

والصحيح أن هذه العبارة التي استنتجوا منها التثليث هي في الحقيقة بشارة بمن سيأتي بعد المسيح وهو محمد ﷺ، بدليل أن كلمة (المُعزّي) هي ترجمة للكلمة اليونانية في الإنجيل وهي (البارقليط) وهذه الكلمة لها معنيان بحسب طريقة نطقها، فإذا نُطقت بالإمالة كان معناها (المعزي) أي بعد الترجمة، وإذا قُرئت بالاستقامة كان معناها محمداً أو (أحمد) أي بالترجمة وقد تُرجمت في إنجيل برنابا بمحمد واستغرب بعضهم هذه الترجمة ظناً منهم أن برنابا نقل عن المسيح أنه نطق بكلمة محمد العربية، والظاهر أنه نطق بترجمتها.

كما جاء عن المسيح في مواطن أخرى: «ذاك يمجدني لانه يأخذ ممّا لي ويخبركم» ولم يأت إلا محمد ﷺ ليزيل عن شخص المسيح وأمه المغالاة في تأليهه أو الانتقاص من شأنه وشأنها.

وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿فَأَمُّوا بِاللّٰهِ وَرُسُلَهُۥ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ [النساء: ١٧١] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

واختيار كلمة الولد هنا للردّ عليهم، فإنّ لفظ الابن الذي يعبرون به إنّ أرادوا به الابن الحقيقي فلا بدّ أن يكون ولداً أي مولوداً من تلقيح أبيه لأمّه، وهذا محال على الله تعالى، وإنّ أرادوا به المجاز كما أطلق في العهد القديم على إسرائيل (يعقوب) فهذا لا يكون له دخل في الألوهية ولا يُعدّ من باب الخصوصية للمسيح عليه الصلاة والسلام.

## قضية الصلب

عقيدة النصارى في الصلب والفداء عقيدة وثنية مثلها مثل عقيدة التثليث، بعض النصارى بعد أن يعترفوا بعدم معقولية هاتين العقيدتين يقولون إن في كل دين أموراً لا يقبلها العقل غير أنها تؤخذ بالتسليم لأنها واردة في كتب مقدّسة، ولكن الإسلام لا يوجد فيه عقائد مستحيلة في العقول وإنما قد ترد فيه أخبار تتعلق بالعالم الغيب ممّا لا يستقلّ العقل بمعرفته ولكنها كلها من الممكنات عقلاً وعلينا التصديق بها، غير أن الإسلام لا يكلّفنا الاعتقاد بالمُحال الذي لا يقبله العقل.

وينقل الشيخ محمد رشيد رضا عن (دوان)<sup>(١)</sup> وهو أحد علماء التاريخ والآثار الأوروبيين قوله «إن تصوّر الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود والوثنيين وغيرهم» وذكر العالمُ شواهد على ذلك منها اعتقاد الهنود الوثنيين بتجسّد أحد الآلهة وتقديمه نفسه فداء للناس من الخطيئة، وقد صوروا في كتبهم (كرشنا) مصلوباً مثقوب اليدين والرجلين وعلى رأسه إكليل من الذهب، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً، والهنود يعتقدون بالخطيئة الأصلية عند الإنسان والنصارى يقولون إن يسوع صُلب وعلى رأسه إكليل من الشوك.

وفي بلاد النيبال والتبت يرون أن الإله (أندرا) الذي يعبدونه سفك دمه بالصّلب وثقب المسامير ليخلص البشر من ذنوبهم، وقد صُلب على صليب أضلاعه متفاوتة الطول فالرأسي أقصرها والسفلي أطولها وهي هيئة صليب النصارى.

وما يقوله البوذيون في (بوذا) أشدّ انطباقاً على مايقوله النصارى في المسيح، فالبوذيون يسمون بوذا المسيح والمولود الوحيد ومخلص العالم، ويقولون إنه إنسان

---

(١) في كتابه (خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى).

كامل وإله كامل تجسد بالناسوت، وإنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر عن البشر ذنوبهم ويخلصهم منها فلا يعاقبوا عليها.

وفي هذا كتاب مفصل هو (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية) لمحمد طاهر التنير البيروتي.

### ومن شبهات النصارى في إثبات الصلب.

١- ادعائهم تواتر مسألة الصلب، وعلى هذا فالعلم بها قطعي، وليس صحيحاً دعوى التواتر، فالتواتر هو إخبار عدد كثير في طبقة واحدة لا يجوز عقلاً تواطؤهم على الكذب في شيء تدركه حواسهم إدراكاً صحيحاً لا شبهة فيه، ثم ينقل عنهم مثلهم طبقة عن طبقة فإن اختل شرط من شروط التواتر لم ينعقد، وأنى للنصارى مثل هذا التواتر؟ والذين كتبوا الأناجيل والرسائل المعتمدة عندهم لا يبلغون التواتر، ولم يخبر أحدهم عن مشاهدة، وقد تُنقل بعض المشاهدات عن آحاد لا يؤمن عليهم الاشتباه.

وقد بين الشيخ (رحمة الله الهندي) في كتابه (إظهار الحق) انقطاع أسانيد هذه الكتب، وساق شواهد كثيرة على ذلك.

٢- قولهم إن عقيدة الصلب لو لم تكن متواترة لوجد فيهم مخالف ومنكر لها، فعقيدة التثليث ربما وجد منهم مخالف فيها أما عقيدة الصلب فلا، والصحيح أن المطلع على تاريخهم يجد فرقا منهم أنكرت عقيدة الصلب منها فرقه (السير نثيين والثاتيا نوستيين) وينقل عن خويتوس وينقل عن فوتيوس قوله إنه قرأ كتاباً اسمه (رحلة الرسل) فيه أخبار (بطرس ويوحنا واندرواس وتوما وبولس) ومما قرأه فيه «أن المسيح لم يُصلب ولكن صلب غيره وقد ضحك بذلك من صالبيه» كما أن المجامع الكنسية الأولى حرمت قراءة الكتب التي تخالف الأناجيل الأربعة والرسائل التي اعتمدتها فصار أتباعهم يحرقون تلك الكتب ويتلفونها، وما سلم منها كإنجيل برنابا ينكر الصلب، وما يدرينا أن تلك الكتب التي أُلقت تنكر الصلب أيضاً، فلا ثقة لنا باختيار المجامع بحيث نعد اختيارها

حجة وما سواه عدماً، ثم إن عدم علم بعض النصارى بمنكري عقيدة الصلب لا يقتضي عدم وجود هؤلاء المنكرين، حتى لو ثبت اتفاق النصارى على عقيدة الصلب وعدم وجود من ينكرها بينهم فهذا أيضاً لا يقتضي صحة ما اتفقوا عليه.

٣- قولهم إن الأناجيل ورسائل العهد الجديد أثبتت عقيدة الصلب، وهي كتب مقدسة معصومة من الخطأ فوجب اعتقاد ما أثبتت، والجواب عن ذلك من وجوه:

الأول: لا دليل على عصمة هذه الكتب ولا على عصمة كاتبها فهم غير معصومين عند النصارى أنفسهم.

الثاني: لا دليل على نسبتها إلى من نسبت إليهم لأنها غير متواترة.

الثالث: هذه الكتب معارضة بأمثالها لإنجيل برنابا، وترجيحهم تلك الأناجيل عليه هو ترجيح بغير مرجح.

الرابع: أن هذه الكتب متعارضة في قصة الصلب وفي غيرها.

الخامس: أن هذه الكتب معارضة بالقرآن الكريم، وهو الكتاب الإلهي الذي ثبت نقله بالتواتر الصحيح دون غيره، فقصارى ما تفيد كتبهم الظن أما القرآن فهو متواتر يفيد العلم القطعي.

وقد ذكر العالم الألماني (أكهارن) أن (سلسوس) وهو من علماء الوثنيين في القرن الثاني للميلاد ألف كتاباً في إبطال الديانة النصرانية ذكر فيه أن النصارى بدّلوا أناجيلهم ثلاث مرات أو أربع مرات فتغيرت مضامينها.

وقد جاء في كتب النصارى أن بعض فرقهم كانت تصدّق بأحد الأناجيل وترفض ما سواه من الأناجيل كالفرقة (الأيونية) في القرن الأول للميلاد التي صدّقت بإنجيل (متى) ورفضت سواه من الأناجيل وإنجيل (متى) في عهدهم مخالف لإنجيل (متى) الذي ظهر بعد (قسطنطين)، والفرقة (المارسيونية) كانت تأخذ بإنجيل (لوقا) وحده، وكانت النسخة التي تؤمن بها مخالفة للموجودة الآن.

وفي الإنجيل نفسه إشارات إلى التحريف لو تدبرها القارىء، فمنها ما جاء في رسالة (بولس) إلى أهل غلاطية: (١: ٦) إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ٧ ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعمونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح»، هكذا في ترجمة البروتستانت الأخيرة «يحولوا»، وفي الترجمة القديمة «يحرفوا» وفي ترجمة الجزويت «يقلّبوا» والمعاني كلها متقاربة تدل على أنه كان في عهد بولس قوم يدعون الناس إلى إنجيل غير الذي يدعو هو إليه، ومعنى كونه غيره أنهم حرّفوه أو قلبوه حتى صار كأنه إنجيل آخر، وفي موضع آخر صرّح (بولس) بوجود رسل كذّابين في عصره ادّعوا أنهم رسل المسيح، وقد جاء ذلك في رسالته إلى أهل (كورنثيوس) حيث قال: «١٣: ١١» لأن مثل هؤلاء رسل كذّبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى رسل المسيح ١٤ ولا عجب لأن الشيطان يغير شكله إلى ملاك نور».

كما أن عقيدة الصلب نفسها قد تعارضت فيها الأناجيل، ومن شواهد هذا التعارض أن أصل هذه العقيدة أن المسيح بذل نفسه باختياره فداءً وكفارة عن البشر، ومن جهة أخرى تصرّح الأناجيل بأنه حزن واكتأب عندما أحسّ بقرب أجله وطلب إلى الله أن يصرف ذلك عنه، ففي متى «٢٦: ٣٧» ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب ٣٨ فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت امكثوا هنا واسهروا معي ٣٩ ثم تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس؛ ولكن ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت...».

وهذا كلام لا يمكن أن يصدر عن إله، إذ يبدو أنه يجهل الغيب ولا يعلم كيف تكون نهايته.

وهناك خلاف بين الأناجيل فيمن صُلب مع المسيح بحيث تبدو قصة الصلب مضطربة، ففي نبوءة الكتاب (أشعيا) أنه يصلب معه (أثمة) بصيغة الجمع، وفي (مرقس) أنّ اثنين مذنبين صُلبا معه وأنهما عيّراه، وفي (لوقا) أن أحدهما عيّره وأما الثاني فانتهر الأول.

وهناك خلاف في مسألة دفنه وقيامه، ففي بعض الأناجيل أنه دفن ليلة السبت وقام من القبر قبل فجر يوم الأحد، مع أن البشارة أنه يكون في بطن الأرض ثلاثة أيام بلياليها وهي مدة لبث يونان (يونس) في بطن الحوت.

٤- قولهم إن كتب العهد القديم بشرت بمسألة الصلب.

وهذا غير مسلم به، بل الصحيح أن النصارى هم الذين تأولوا عبارات كتب العهد القديم، والواقع أن النصارى ادّعوا أن الذبائح الوثنية كانت تشير إلى صلب المسيح، فكان جميع خرافات البشر وعباداتهم هي حجج لهم على عقيدة سُبِقوا إلى مثلها كما تقدّم بيانه.

٥- قولهم: إذا جاز أن يشتبه في شخص المسيح الجنود الذين قبضوا عليه والحكام ورؤساء الكهنة، فكيف يشتبه فيه تلاميذه الذين يعرفونه حق المعرفة؟.

والجواب عن هذا من وجهين:

الأول: عهد بين الناس من الأقربين والغرباء أن يشبه بعضهم بعضاً شَبْهاً تاماً بحيث لا يميز بينهم بعض المقرّبين، ومثل هذا له شواهد في الواقع.

الثاني: أن هذه الحادثة هي من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى عليه السلام وأنقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره وغيّر شكله هو فخرج من بينهم وهم لا يشعرون.

ومما يدلّ على استجابة الله دعاءه بإنقاذه وإبعاد كأس الموت عنه عبارة المزمور ١٠٩ التي يقولون إن المراد بها المسيح وهذا نصّها «٢٦ أعني يا رب إلهي خلصني حسب رحمتك ٢٧ وليعلموا أن هذه يدك أنت يا رب فعلت هذا ٢٨ أماهم فيلعنون وأما أنت فتبارك، قاموا وخزوا، أما عبدك فيفرح ٢٩ ليلبس خصمائي خجلاً وليتعطفوا بخزيهم كالرداء ٣٠ أحمد الربّ جداً بغمي وفي وسط كثيرين أسبحه ٣١ لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلصه من القاضين على نفسه»<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر تفسير المنار ٣١/٦٠ وما بعدها.



جاء في إنجيل برنابا/ الفصل الثاني عشر بعد المئتين على لسان المسيح عليه السلام :

«ثم رفع يديه إلى الرب وصلى قائلاً: «أيها الرب إلهنا إله إبراهيم وإله إسماعيل وإسحاق إله آبائنا ارحم من أعطيتني وخلصهم من العالم ٢ لا أقول خذهم من العالم لأنه من الضروري أن يشهدوا على الذين يفسدون إنجيلي ٣ ولكن أضرع إليك أن تحفظهم من الشرير ٤ حتى يحضروا معي يوم الدينونة يشهدوا على العالم وعلى بيت إسرائيل الذي أفسد عهدك ٥ أيها الرب الإله القدير الغيور الذي ينتقم في عبادة الأصنام من أبناء الآباء عبدة الأصنام حتى الجيل الرابع العن إلى الأبد كل من يفسد إنجيلي الذي أعطيتني عندما يكتبون أنني ابنك ٦ لأنني أنا الطين والتراب خادم خدامك ولم أحسب نفسي قط خادماً صالحاً لك ٧ لأنني لا أقدر أن أكافئك على ما أعطيتني لأن كل الأشياء لك أيها الرب الإله الرحيم».

وليس ثم كلام أضرح من هذا في بشرية المسيح عليه السلام مما ينقض عقيدة التثليث من أساسها.

وجاء في إنجيل برنابا/ الفصل الخامس عشر بعد المئتين: «ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع سمع يسوع دنو جم غفير ٢ فلذلك انسحب على البيت خائفاً ٣ وكان الأحد عشر نياماً ٤ فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل سفراءه أن يأخذوا يسوع من العالم ٥ فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب فحملوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله إلى الأبد» وجاءت تمة ذلك في الفصل السادس عشر بعد المئتين:

«ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع ٢ وكان التلاميذ كلهم نياماً ٣ فأتى الله العجيب بأمر عجيب ٤ فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع حتى اعتقدنا أنه يسوع ٥ أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ٦

لذلك تعجبنا وأجبنا «أنت يا سيد هو معلمنا ٧ أنسيتنا الآن؟» أما هو فقال مبتسما:  
«هل أنتم أغبياء حتى لا تعرفون يهوذا الاسخريوطي؟» ٩ وبينما هو يقول هذا دخلت  
الجنود وألقوا أيديهم على يهوذا لأنه كان شبيها بيسوع من كل وجه».

وليتأمل القارئ عبارة «فلما رأى الله الخطر على عبده» فالمسيح عليه السلام هو  
عبد الله ورسوله، ثم إن الشأن هو ما قصه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه  
ولا من خلفه، فإن المسيح عليه السلام لم يصلب وإنما شبه لهم.

## الفصل العشرون

### نماذج من القصص القصيرة

### في القرآن الكريم



## نماذج من القصص القصيرة

ستحدث عن مجموعتين تنتظمان القصة القصيرة في القرآن في كلّ منهما عذّة نماذج، أمّا المجموعة الأولى فهي نماذج لما يجب على الأمة أن تتجنبه لما فيه من عوامل الهدم، وأمّا المجموعة الثانية فهي نماذج لما يجب أن تحرص عليه الأمة لما فيه من عوامل الخير والبناء.

### المجموعة الأولى:

الأنموذج الأول يمثل أول ما عصي الله به: الحسد، ويمثل هذا الأنموذج نبأ ابني آدم، والأنموذج الثاني هو أنموذج الأمة التي أحاط بها الذلّ ورضيت المهانة، وأناخت رجالها في أزقة الظالمين، ويمثل هذا الأنموذج قصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، والأنموذج الثالث لذلكم الذي تملكه الغرور فطغى كلّ الطغيان لأنه يحسب أنّ ماله أخلده، وهو أنموذج من أطغاه المال فصده عن الحق بعد أن ذاق حلاوته، ويمثل هذا الأنموذج قصة قارون، والأنموذج الرابع هو لأولئك الذين تملكهم الأنانية فقسّت قلوبهم ونزعت منها الرحمة، ويمثله قصة أصحاب الجنة، وفي هذه النماذج ما يدعو المسلمين إلى التخلص من الواقع المظلم الدليل المعيش.

## أولاً: نبأ ابني آدم:

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِيمِي وَلِئَمَّكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتِلَقِيْ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٢].

عرفنا من قبل أن القصص القرآني مع كونه حقاً لامية فيه، لكن لم يقصد من ذكره السرد التاريخي، وقد مرَّ معنا من قبل أننا وجدنا أن قصة آدم - عليه الصلاة والسلام - ذكرت في بعض السور القرآنية فكانت أول ما ذكر من القصص وفي بعض السور كانت آخر ما ذكر والحق أن ذكر القصة في السورة القرآنية، يكتنفه أمور كثيرة وتقتضيه أسباب متعددة لذا وجدنا أن نبأ ابني آدم لم يُذكر عقب قصة آدم - عليه الصلاة والسلام - وقد عرفنا أن قصة موسى عليه السلام في سورة الشعراء ذكرت قبل قصة إبراهيم - صلى الله عليه وسلم - وعلى العكس من ذلك في سور أخرى ومن جهة أخرى، وجدنا أن ذكر القصة متنسق مع موضوع السورة ومع السياق الذي ذكرت فيه، وهذه الصنعة البديعة التي هي أعلى طبقات البلاغة، وذلكم الترتيب الفذ لن تجدوه إلا في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تنقضي عجائبه والذي لا تجد الإنسانية ضالّتها وبغيّتها وخيرها في الدنيا والآخرة، إلا فيه وصدق الله ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨]،

لذا وجدنا نبأ ابني آدم يذكر في سياق الحديث عن أهل الكتاب بعامة وعن اليهود بخاصة. فقبل هذه الآيات الكريمة التي تتحدث عن ابني آدم عليه السلام كان الحديث عن اليهود، وما أدعوه ثم عن أمر موسى عليه السلام لهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، وسنجد أن الحديث بعد هذه الآيات متصل، يتحدث عن شؤون كثيرة من شؤونهم.

﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾.

الحديث عن نبأ ابني آدم عليه السلام إذن جاء في مكانه الذي هو ألصق به وأولى ذلكم لأن حديث القرآن الكريم عن ابني آدم عليه السلام متسق تماماً مع طبيعة اليهود، فكفرهم بالإسلام وهمهم بقتل النبي - عليه الصلاة والسلام - كما أشارت إليه الآية ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

فقد ذكرت الآية الكريمة مقدمة للحديث عن بني إسرائيل، إذ الآية التي بعدها مباشرة ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ...﴾. ذا كان ذكر نبأ ابني آدم منسجماً كل الانسجام مع سياق الآيات. ويجب أن لا ننسى كذلك، التعقيب على نبأ ابني آدم وهو قوله سبحانه ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. أرايتم إلى هذا النسق القرآني العجيب إن ترتيب الآيات الكريمة في السورة الكريمة من أعظم روافد الإعجاز فهل يتنبه المسلمون وهل يعي الدعاة والمصلحون؟! إن لم يع الحكام وذوو السلطان، فهل يعي الدعاة المسلمون هذه الدروس القرآنية؟ ليغرسوها في قلوب المسلمين ونفوسهم، وليجابهوا بها أولئك الذين يحسنون الظن بقتلة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام؟! - ما أحوجننا إلى الوعي بإرشادات القرآن النفيسة الغالية.

وقد أكثر المفسرون والقصاص من الحديث في نبأ ابني آدم وكثير ممّا ذكروه، ليس له سند يعتمد عليه، فمن ذلك أنهم أدخلوا عنصر المرأة، فقالوا: كان يولد لآدم توائم: ابن وبنت، فيتزوج كلٌ أخت الآخر، وإن قابيل كان نصيبه أخت هابيل ولم تكن على شيء

من الجمال لذا غضب وحسد أخاه . وهذه فرية ليس لها أساس من كتاب أو سنة، كما قالوا: إنّ الله بعث غُرَابَيْنِ قَتَلَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ لِيَعْلَمَ الْقَاتِلُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ، وهذه تتعارض كذلك مع صريح القرآن الكريم، وقالوا الكثير الذي لا نودّ أن نشغل صفحات هذا الكتاب فيه .

والمشهور عند جمهور العلماء أنّهما ابنا آدم من صلبه ورُوي عن بعضهم ومنهم الحسن البصري - رضي الله عنه - أنّهما كانا من بني إسرائيل ولا إخال أنّ هذا يثبت عن الحسن، لأنّهما لو كانا كذلك، ما كان يصعب على القاتل أن يوارى سوءة المقتول، وخلاصة ما ذكره القرآن الكريم - وهو الحقّ - كما قال الله ﴿ وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ آتَىٰ ءَادَمَ بِالْحَقِّ ﴾ فنبؤهما حقّ . بعيد عن أن تحوم حوله شبهة . ﴿ قَرَبًا قُرْبَانًا ﴾ والقربان: هو ما كان يتقرّب به إلى الله تعالى، وقد يكون حيواناً يُذبح، وقد يكون غير ذلك من النبات، وقد يكون من علامات القبول أن تأتي نارٌ تأكله، وهذا ما جاء في الآية الكريمة في سورة آل عمران ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَاللَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ﴾ تقبل الله من أحد هذين الابنين ولم يتقبل من أخيه، فامتلات نفس الذي لم يُقبل منه غيظاً وحسداً، وقال لأخيه: لأقتلنك، وهذا أمرٌ عجيب . ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾، وقد ذكروا أنّ اسم الذي تُقبل قربانه هابيل والذي لم يُقبل قربانه قابيل، ولا نجدُ حديثاً صحيحاً عن سيدنا رسول الله - عليه الصّلاة والسّلام - نطمئن إليه في هذا، ويظهر أن الذي لم يُقبل قربانه لم يكن مخلصاً في التّقرّب به، ولم يكن من الطيّب الذي يجب أن يقدمه، وفي إشارة هذا الأخ الطيّب ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مَنَ

(١) ذكر صاحب المنار رحمه الله - أنواع القرايين عند اليهود وعند النصارى في الجزء السادس فارجع إليه إن شئت .



الْمُتَّقِينَ ﴿ رَدَعَ لِأَخِيهِ ، لِيَعَاوِدَ الْكَرَّةَ وَلِيُخَلِّصَ النِّيَّةَ ، وَلِيَتَقَدَّمَ بِقُرْبَانٍ طَيِّبٍ وَهَذِهِ عَلَامَاتُ  
التَّقْوَى ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلَ مِنْهُ .

وَرَدَّ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿لَا قَتْلَكَ﴾ بِقَوْلِهِ : ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ  
لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ما أَبَدَعَ القول ! وما أَحْكَمَ النَّظْمَ ! انظروا أكرمكم الله كيف ذكر أولاً الفعل :  
﴿بَسَطْتَ﴾ وَقَدَّمَ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ ﴿إِلَيَّ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ ﴿يَدَكَ﴾ وَهُوَ يَخَاطَبُ أَخَاهُ ،  
ثُمَّ كَيْفَ جَاءَ بِالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ حَدِيثًا عَنْ نَفْسِهِ ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ﴾ وَعَبَّرَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ،  
وَلَمْ يَقُلْ : لَنْ أَبْسُطَ لِأَنَّ التَّعْيِيرَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ أَبْلَغُ كَثِيرًا مِنَ التَّعْيِيرِ بِالْفِعْلِ ، ثُمَّ قَدَّمَ  
الْمَفْعُولَ (يَدِي) عَلَى الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ بِعَكْسِ الْأُولَى ، ثُمَّ جَاءَ بِالْبَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّأْكِيدِ  
فِي خَبَرِ بَاسِطٍ ثُمَّ خَتَمَ قَوْلَهُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الَّتِي كَانَ حَرِيًّا بِهَا أَنْ تَرُدَّ عَنْ أَخَاهُ وَتَخُوفُهُ ،  
وَتَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَوَعَّدَ أَخَاهُ بِهِ ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ هِيَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ  
الْعَالَمِينَ﴾ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَسَتِ قُلُوبُهُمْ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً ، فَلَنْ تَوْثُرَ  
فِيهِمُ الْعِظَاتُ وَلَنْ تَرُدَّعَهُمُ الْآيَاتُ . لِذَلِكَ نَجِدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَعْقِبُ عَلَى هَذَا بِقَوْلِهِ  
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾ وَفِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ ﴿طَوَّعَتْ﴾ أَقْصَى غَايَةِ الْإِعْجَازِ فِي التَّعْيِيرِ وَفِيهَا  
التَّصْوِيرُ الْأَبْلَغُ «طَوَّعَتْ» كَأَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَحْدِثُنَا عَمَّا كَانَ بَيْنَ هَذَا الْقَاتِلِ وَنَفْسِهِ مِنْ  
مَرَاجَعَاتٍ أَيْقَدُ أَمْ يَحْجِمُ ؟ وَأَخِيرًا اسْتَجَابَ إِلَى دَاعِي الشَّرِّ ، وَالنَّفْسِ أَمَّارَةَ بِالسُّوءِ ،  
فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسَهُ وَسَوَّلَتْ وَزَيَّنَتْ لَهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ، وَقَدْ حَذَرَهُ  
أَخُوهُ مِنْ قَبْلِ وَهَكَذَا النَّاسُ وَدَائِمًا يَخْتَلِفُونَ فِي اسْتِعْدَادَاتِهِمْ وَمِيُولِهِمْ ، وَيَعْجَبُنِي قَوْلُ  
الْقَاتِلِ :

عَجِبْتَ لِلنَّاسِ يَدْعَى كُلُّهُمْ بَشْرًا      هَذَا مَلَكَ وَذَا فِي ثَوْبِ شَيْطَانٍ  
هَذَا يَرِقُّ لَذِي بَوْسٍ فَيَطْعَمُهُ      وَذَاكَ يَأْكُلُ خَبِيزَ الْجَائِعِ الْعَانِي  
حَذَرَهُ أَخُوهُ بِقَوْلِهِ : ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْشُرَ بِإِنْمِي وَإِنَّمِكَ فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ

## الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾

قيل قوله تعالى «باثمي» أي قتله أخاه، وإثمك أي عدم إخلاصه في تقديم قربانه، وفي الآية وجوه أخرى ذكرت في كتب التفسير.

ولقد وقف حائراً، ماذا يفعل بجثة أخيه بعد قتله؟ فبعث الله غراباً يبحث في الأرض يحفر في الأرض ويطيل البحث، لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرار «ليريه» الفاعل قد يكون الغراب، وقد يكون الله - سبحانه وتعالى وهذا يرجع إلى الاختلاف في معنى «اللام» ﴿قَالَ يَتُولَتْنِي﴾ وهي كلمة تدل على التحسر والتوجع ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ مع أنه لا يعقل ﴿فَأَوْرَىٰ سَوْءَةً أَخِي﴾ فانظروا - أرشدكم الله - كيف أرسل الله له غراباً وهو ما يتشاءم الناس منه عادةً. ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ ولكن لات حين مندم.

ثم يأتي التعقيب على هذه الآيات الكريمة ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي من أجل هذا الذي حدث مع ابني آدم ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بلا حق ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أي كأنما الذي يعتدي على واحد من النوع، فكأنما يعتدي على النوع كله ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وقد خصّ بنو اسرائيل بالذكر هنا، مع أنه عام للناس جميعاً لأن الله تبارك وتعالى - يريد أن يبعث في هذه الأمة النذر، ويذكرها بالآيات لتحذر هذا العدو. ألم يبقروا البطون، ويثلغوا الرؤوس، ويقطعوا الأوصال والأطراف؟ في كثير من بلاد المسلمين؟

ذلكم نبأ ابني آدم عليه السلام بالحق كما بينه القرآن الكريم، وإذا كان من كلمة أخيرة، فهي أن نحذر الحسد، وأن نحذر العدو، الذي وصفه الله بالحسد في آيات كثيرة

﴿ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

اللهم جنبنا الحسد واصرف عنا كيد الحاسدين ، ونعوذ بك ربنا كما علمتنا يا رب الفلق ، من شر حاسد إذا حسد .

### ثانياً : قصة الملأ من بني إسرائيل :

نختار للأنموذج الثاني قصة الملأ من بني إسرائيل التي جاءت في سورة البقرة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ بدأت القصة هكذا « ألم تر » وهي صيغة تدل على التعجب ، كأنه يقول « ألم تعجب من شأن هؤلاء ؟ » بلى إنه حري أن يتعجب منهم ، ولكن ما قصتهم وما شأنهم ؟ إليك حديثهم .

إنهم الوجهاء من بني إسرائيل المتنفذون في قومهم رأوا ما هم فيه من ذل ، فأضاعت في نفوسهم ومضة حرية فجاءوا نبيهم الذي يقال إنه (صموئيل) وطلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ليقاتلوا في سبيل الله ، هكذا يحدثنا القرآن ﴿ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ .

والبعث إنما يكون في الأمور المهمة ذات الشأن والخطر ، وكأن القوم أرادوا أن يقتنعوا نبيهم من أول وهلة أنهم جادون في الأمر مصممون ، وليسوا هازلين ولا عابثين ، ولكن نبيهم - وقد تقدمت به السن - لم يكن ليخفى عليه قومه ، وكيف يمكن أن يُخدع ، وهو الذي أكرمه الله بالنبوة أولاً ، وعاش معهم تجاربه ثانياً ، فماذا قال لهم ؟ ، ﴿ قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ يقول لهم : إن ما أتوقعه منكم ويغلب على ظني ، بل وأظنه ثابتاً ليس فيه ريب ، بأنه إن كتب عليكم القتال فستمتنعون عنه ، وستحاولون أن تخلقوا المسوغات الكثيرة لتمتنعوا عن القتال ، ولكنهم قالوا : ولم لا نقاتل ! وأي مانع يمنعنا من القتال ، سيما وهناك البواعث والحوافز الكثيرة التي ينبغي أن تدفعنا لهذا القتال ، إنك تعلم حالنا وماذا بعد أن يخرج الإنسان من داره وأهله ؟ وماذا بعد أن يحال بينه وبين أبنائه ؟ وماذا بعد أن يفصل عن تراث الأجداد ورعاية الأبناء ؟ إن هذه

الحوافز والأسباب حريٌّ بها أن تهزّ القلوب، ولكن ماذا كان بعد ذلك؟؟؟.

يبين القرآن الكريم أن القول مهما أكد وتحذلق فيه وتصنّع، وأن الكلمات المختارة المنتقاة لم تكن في يوم من الأيام علامة صدق إذا لم يصحبها الفعل، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ولقد صدق حدس نبيهم فيهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ وهكذا الأمم حينما تستمرىء الضعف تحاول أن تتلمس الأسباب لتتقنع بها نفسها حتى لا تدخل حرباً ولا تجابه عدواً، وهكذا كان أولئك، فهم يحتجون بالضعف تارة، وبعدم المناخ المناسب تارة، وبعدم جدوى الحل العسكري تارة أخرى.

### ما أشبه الليلة بالبارحة

وها نحن وقد مرّ على اغتصاب الجزء الأكبر من فلسطين إحدى وخمسون سنة وعلى سائرها والأقصى معها اثنتان وثلاثون سنة ولا زلنا نسمع من كثير من المشبطين والمخذلين المتخاذلين فضلاً على المتواطئين المتآمرين أن الحرب قد انتهت وذهبت إلى حيث لا رجعة يقولها المتنفذون من أولي الشأن والمسؤولية - إي والله ولئن كانوا يُسرون هذا القول من قبلُ فإنهم اليوم يُعلنونه جهرةً حتى إنه غدا من المقرّرات الأساسية لبعض المؤتمرات الإسلامية، ويتعلّلون بأسباب كثيرة وعدوهم لازال يبني القلاع والحصون، ويعدّ الأسلحة الفتاكة حتى لقد غدت الأرض المغتصبة ترسانة عسكرية يحدث هذا في أمة اغتصب حقها ومقدساتها وديست منها كل كرامة أمةٌ يبين لها دينها كتاباً وسنةً أن الجهاد ذروة سنام الإسلام: - وأنه ماضٍ لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر وأن هذه الأمة إذا تركت الجهاد فسيذلها الله ذلاً لا تذوق معه طعم العزة إلا إذا رفعت راية الجهاد وأن هذه الأمة امتازت عن بني إسرائيل بأمرين اثنين فلقد طلب من بني إسرائيل أن يجاهدوا فأبوا وقالوا لموسى عليه السلام كلمتهم التي مرت معنا من قبل وطلب منهم أن ينفقوا فأبوا وقالوا كلمتهم التي سجلها القرآن ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أَغْنِيَاءَ سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأُنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١﴾ ولكن هذه الأمة قالوا لنبيهم ﷺ مالا تزال الدنيا تردده إعجابا «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» وأنفقوا أموالهم عن نفس طيبة إن التعلل لترك الحرب بأي سبب يمقت الله فاعليه .

ثم إن أولئك المظلومين كما اعترفوا ﴿وَقَدْ أَخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ سَمَاهُم القرآن الكريم ظالمين لأن الظلم في مفهوم القرآن الكريم وفي تقرير الإسلام كتاباً وسنة ليس ما يقوم به المستبدون فحسب بل هو أعم من هذا وأكثر شمولاً إن الظلم في مفهوم الإسلام عمل المستبدين ورضا المستضعفين وهذا ما تؤيده آيات كثيرة في كتاب الله وفي مقدمتها الآية التي معنا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ونقرأ قول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ فانظر أرشدك الله أيها القارئ كيف سمى الله تبارك وتعالى كلاً من المستضعفين والمستكبرين ظالمين... وقد سمى الله هؤلاء ظالمين فقد ظلموا أنفسهم أولاً وظلموا الحق الذي يدعون اعتناقه ثانياً، وثالثاً ظلموا العدو الذي يظلمهم حيث زينوا له طغيانه .

لقد أجابهم نبيهم إلى ما طلبوه، فلقد قالوا له ابعث لنا ملكاً، وها هو يقول لهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، يجمعكم فتقاتلوا معه، ولكن الأذلاء المستضعفين يأبون الانصياع للحق والانضواء تحت راية واحدة فهاهم أولئك يقولون لنبيهم .

وقد عرفوا أن الله هو الذي بعثه ولم يبعثه النبي - كما طلبوا - ولكن حتى مع علمهم بأن الله هو الذي بعثه فهاهم يتضجرون ويتبرمون به، كيف يكون له الملك علينا؟ ونحن أحق بالملك منه إنه لم يؤت أسباب الملك، لا من حيث النسب، ولا من حيث المال .

ولكن نبههم وقد قال لهم مقالته من قبل وعرف أنهم بعيدون عن القتال، بين لهم أن الصفات التي تتوفر فيه لا توجد في غيره فهو:

أولاً: ذو استعداد فطري وطبيعة كريمة.

وثانياً: ذو خبرة في فنون الحرب، وقد أعطي قسطاً من العلم ليضع الأمور في مواضعها.

وثالثاً: منح القوة الجسمية.

ورابعاً: يستحق توفيق الله للأسباب المتقدمة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولكن القوم لم يقتنعوا بذلك كله، ولم تسكن إليه نفوسهم فأراد نبههم أن يبين لهم بأن الأمر خارج عن إرادته هو، فالله هو الذي بعثه ملكاً وسيؤيده الله بآيه لتكون علامة على ملكه ليدعنوا ويسلموا تسليماً فيبين لهم أن هذه العلامة الصادقة على ملكه أن يأتيهم التابوت، وهو صندوق كان فيه بعض آثار موسى وهارون - عليهما السلام -، وكان قد غلبهم العمالقة (الفلسطينيون) عليه، وسيأتيهم هذا التابوت لتطمئن قلوبهم، وليكون علامة لهم إن كانوا مؤمنين.

ويفصل طالوت بالجنود ويتجاوز البلد الذي خرج منه، وهو يدرك أن الذين معه لا يصلحون جميعاً للحرب، بل إن منهم المشبطين عنه الذين لا يزيدون المحاربين إلا خبالاً، لا بد إذن من أن يميز الخبيث من الطيب، بين لهم أن الله مبتليهم بنهر فمن شرب منه، فليس حرياً بالقتال، ولا يصلح للجنديّة، اللهم إلا إذا اغترف غرفة بيده بيل بها شفتيه ويذهب بها بعض ظمئه، ومن لم يطعمه ولم يذقه فذلك في المنزلّة الأولى، ولكن ما الذي كان بعد ذلك؟ شربوا منه إلا قليلاً منهم، ولما جاوز طالوت النهر هو ومن آمن معه وقد تخلفت الكثرة الكثيرة الذين شربوا من النهر، حتى هذه القلة التي بقيت مع طالوت انقسموا فئتين.

كل هذا يصور لنا النتائج السلبية للضعف حينما يستولي على النفوس، حتى هذه القلة الذين جاوز بهم طالوت النهر قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده لكن فئة منهم، وهم الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم وخشوا الله تبارك وتعالى هؤلاء الذين يؤمنون بأن ما عند الله خير قالوا لأصحابهم ويحكم! متى كانت الكثرة سبباً في النصر؟ ﴿كَمْ مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذَنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وبدأت المعركة ودعا المؤمنون ربهم بهذه الكلمات الثلاث: أن فرغ عليهم صبراً أولاً: لأن الحرب لا بد لها من الصبر، وأن يثبت أقدامهم ثانياً؛ حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها، وأن ينصرهم على القوم الكافرين ثالثاً: ويستجيب الله الدعاء دعاء المؤمنين فتَهْزِمُ القوة الكافرة، ويقتل داودُ جالوتَ، ويؤتي الله داودَ المُلْكَ والحكمة «النبوة»، ويعلمه صنعة لبوس، وهي عمل الدروع ومنطق الطير وغير ذلك.

وتختتم هذه القصة بهذا التعقيب البديع ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ لولا أن الله يدفع أهل البغي والسوء والباطل بأهل الحق، لولا أن الله تبارك وتعالى يهييء أهل الحق حتى لا يتمادى أهل الباطل بغيهم وباطلهم لفسدت الأرض. . ولكن الله ذو فضل على العالمين، لأنه لم يمكن الباطل من أن يعيث في الأرض فساداً ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْتَلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَهْمُ أَرْسَلْنَاكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُومَ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ

مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آدَمُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
 لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ  
 شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا  
 مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ  
 الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهَ كَمِ مَنِ افْتَكِرَ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يُؤْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ  
 مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبِّنَا آفِرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ  
 أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ يُؤْذِنُ اللَّهُ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ  
 وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ  
 بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ يَذَرُ اللَّهُ آيَاتِهِ عَلَى  
 نَعْلِهِمَا عَلَيْهِ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ [البقرة: ٢٤٦-٢٥٢] .



## القرآن الكريم والوطن

وفي ختام هذه القصة أرى لزماً عليّ أن أتحدث عن قضية تاهت فيها مسارات كثير من الناس، وأعني موقف القرآن بخاصة، وموقف الإسلام بعامة من الوطن، فقد يدّعي بعض الناس أن العقيدة هي كل شيء، وأمام هذه العقيدة يهون كل شيء، فدافعنا وتوجهنا لا ينبغي أن يتجاوز العقيدة. وعلى العكس من هذا الفريق نرى فريقاً آخر يغاير فيزعم أن الوطن هو الوعاء الوحيد الذي يجب أن يتلاشى أمامه كل شيء، وليس الوطن عندهم إلا الشجر والحجر، والجبل والسهل، وربما جاءوا بأقوال نسبوها إلى الرسول ﷺ «حب الوطن من الإيمان». والحق أن هذا ليس حديثاً نبوياً، وإن كانت هذه العبارة في ذاتها صحيحة المعنى، كما سيتبين لنا إن شاء الله.

ولنما أثرت أن أذكر هذا الموضوع هنا مع أنه قد مرت إليه إشارات من قبل، لكونه مناسباً للآيات التي معنا. فقد مر معنا في هذه القصة، قصة الملاء من بني إسرائيل الذين قالوا لنبي لهم ﴿أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ثم قالوا بعد ذلك ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

والمتتبع لأي القرآن الكريم، يدرك القيمة الكبرى للوطن، فالجهاد في سبيل الله كما يكون من أجل الدفاع عن الدين، فهو دفاع عن الوطن كذلك. والمتدبر لأي القرآن الكريم يجد الآيات الكثيرة التي تسوي بين الخروج من الوطن وبين مفارقة الحياة. قال تعالى في سورة النساء ﴿وَلَوْ أَنَا كُنَبَاءُ عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلَافِ وَالْعُدُوانِ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥].

وقال تعالى في سورة براءة ﴿ أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَحُوا آبَاءَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ وفي سورة الممتحنة ﴿ لَا يَتَّبِعُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْنَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهم وَتُقْسِطُوا إِلَيْهم إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهم وَمَن يَتَوَلَّهم فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

وفي السورة نفسها: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

والآيات كثيرة في هذا السياق.

وفي السنة النبوية: جاء رجل إلى الرسول ﷺ، فقال يا رسول الله: أ رأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تعطه مالك، قال أ رأيت إن قاتلني قال قاتله. قال: أ رأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد، قال: أ رأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن الوطن أعم من المال.

وندرك مما تقدم أن وطن المسلم جزء من كيانه، وأنه كما يدافع عن عقيدته وعرضه، فلا بد أن يدافع عن بيته وأرضه ووطنه، أيًا كان هذا الوطن، فما بالنا إذا كان الوطن مقدساً، مباركاً ما فيه، ومباركاً ما حوله، وكان جزءاً لا ينفصل عن العقيدة. إن الواجب إذن، واجب مضاعف وإن الإثم بالتقصير مضاعف أضعافاً كثيرة.

وإذا كان الإنسان في هذه الحياة معرضاً لفتن مختلفة، وإذا كانت الابتلاءات متعددة متفاوتة، فليس هناك أكثر مرارة، وأشد صعوبة، وأعمق ذلاً من الإخراج من الوطن، ولهذا وجدنا أهل الباطل الذين أرسل الله إليهم الرسل لينالوا خير الدنيا وخير الآخرة، وجدنا أولئك الأقوام يتوعدون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بإخراجهم من أرضهم، جاء في سورة الشعراء ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ وفي سورة الأعراف

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان حديث رقم ١٤٠ انظر شرح النووي على مسلم ١٦٣/٢.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَةٍ أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّةِنَا ﴾ [الأعراف: ٨٨] وفي سورة إبراهيم يبين الله تعالى أن هذه مقولة مشتركة بين أهل الباطل . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّةِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣-١٤] فليس هناك ظلم أشد ولا أعظم على النفس ، من إخراج الناس من أوطانهم ، نعم ليس هناك ظلم أفظع من هذا . . . اللهم إلا أمراً آخر هو أكثر مرارة ، وأشد إيلاماً ، وهو أن صاحب هذا الوطن الذي أخرج منه ، إن تحدث عن وطنه قُمع وقهر واضطهد ، ووجهت إليه أنواع المهانة المادية والمعنوية ، والذي يزيد المأساة عمقا ، أن هذا القهر والقمع والاضطهاد ، ليس من عدوه الذي يتبخر في هذا الوطن فحسب ، بل من أبناء جلدته ، شركائه في هذا الوطن ، الذين هم أشد ظلماً وأكثر فتكاً من العدو الذي يتمتع بخيرات هذا الوطن .

وإذا كان الواقع البئيس الذي تعيشه أمة الإسلام ، أمام العنف والخطرسة اليهودية والهيمنة الأمريكية ، وأمام القهر والاستبداد والتحكم الذي تجده الأمة من حكامها وولاة أمورها ، وأمام هذا الضعف والاستخذاء من علمائها ومفكرها . . . أقول إذا كان ذلك كذلك فإن سبات الأمم كسبات الأفراد قد يطول ، ولكنه لا يدوم ، ولا بد أن يقول التاريخ كلمته ، ويصب لعنته التي هي من لعنة الله على أولئك الذين فرطوا بالأرض المقدسة ، وأوحوا إلى وسائل الإعلام لتجعل الهزائم نصراً تُدق له الطبول ، ومرغوا الحياة المرتفعة بأحوال الذلّ ، واتهموا ذوي الغيرة ؛ ذلكم لأن الحق لا يموت ، لأنه قدر الله ، الذي يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

ما أكثر الإيحاءات في هذه القصة ، قصة الملاء من بني إسرائيل ، فإذا كانت عاقبة القصة أن هزم الجابرة باذن الله ، فلا بد أن يهزم المتغترسون المبطلون باذن الله كذلك ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء: ٥١] ولا بد أن ترجع فلسطين كلها

مدنها وقراها، باديتها وحاضرتها، نهرها وبحرها إلى دوحة هذه الأمة، وهذا ليس حلمًا، وليس أمنية، بل هي حقيقة، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ [يوسف: ٢١].

### ثالثاً: نبأ قارون:

أما الأنموذج الثالث: فنختار له نبأ قارون، وقارون كما يحدثنا القرآن الكريم من قوم موسى عليه السلام، ولكنه بغى عليهم، ولأمر ما كان سيدنا رسول الله ﷺ يستعيد بالله من «الحورَ بعد الكور»<sup>(١)</sup> وفي رواية بعد «الكون»، والكور: هو اجتماع الأمر كالعمامة يُكَوَّر بعضها على بعض، والحور هو الانتقاض. لقد تكبر قارون بعد أن أنعم الله عليه بالثراء. وكثيرون أولئك الذين لم يشكروا النعم فتزيدهم طغياناً. يحدثنا القرآن أن الله تبارك وتعالى أعطى قارون من الكنوز ما يثقل العُصبة القوية حمل مفاتها أي إن العصبة القوية تنوء بحمل مفاتها هذه الكنوز، وبطر قارون وحاول قومه وذووه وكأنهم لا يزالون يظنون به خيراً، حاولوا إرشاده وإصلاح أمره ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وليطلب بما منحه الله من هذه النعم الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا، وليحسن إلى الناس كما أحسن الله إليه مما أنعم الله به عليه ولا ينبغي أن يتكبر ويعيث في الأرض فساداً، فالله الذي لا يحب الفرحين لا يحب المفسدين.

ولكن هذا الإنسان يطغى أن رآه استغنى، ويشمخ قارون، فيخرج عن طور الحق ويتملكه الشيطان فيعلن أن ما أوتيته إنما كان بسبب علمه وخبرته ومهارته، وكما يطغي المال صاحبه فإن العلم كذلك، مع أن العلم والمال نعمتان حريّ بهما أن تصلح بهما النفوس، وتنعم المجتمعات وكما حدثنا القرآن عن إطفاء المال لصاحبه، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَاءٌ أَن رَّاهُ اسْتَعْيَى﴾، [العلق: ٦، ٧] حدثنا كذلك عن العلم فقال سبحانه ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]، ولكن أي علم هذا الذي أعطيه قارون، إن من أوليات العلم وبدهياته أن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج حديث رقم ١٣٤٣.

يعرف ما أصاب السابقين من قبله وقد كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعا أفلم يعلم أن الله قد أهلكهم جميعا ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون؟ ماداموا في طغيانهم إلى أن يأتي العقاب الرباني فيندمون ولات ساعة مندم ويُسألون عن الصغيرة والكبيرة ثم ألم يعلم الذين جاءوا بعد قارون، ولم يبلغوا معشار ما بلغ، ألم يعلموا خبره وما حلَّ به؟.

ويطغى قارون ويخرج على قومه في زينته مختالاً فرحاً فخوراً<sup>(١)</sup>، ويراه الناس. أما ذوو النفوس الضعيفة فيسبل لعابهم يتمنون أن يكون لهم شيء مما أعطيه قارون وأُسعده!. أما الذين أوتوا العلم ولكن ليس العلم الذي ادعاه قارون، وليس العلم الذي ينحرف به صاحبه عن الجادة، إنما العلم الذي يصقل النفوس، قال أولئك العلماء الذين يرفعهم الله درجات في الدنيا والآخرة، لأولئك الذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما لقارون ويلكم إن ما عند الله من الثواب خير، وإن الذخيرة الباقية هي الإيمان والعمل الصالح ولا يُلقَى هذه المثوبة إلا الصابرون فما أعظمها شهادة للعلماء! والله أكبر شهادة تحرص الآية الكريمة على إظهار العلماء بأنهم الصفوة المختارة الذين لن تستطيع الدنيا بكل ما فيها أن تغريهم وقد تغري كثيرين من المصلين أو الصائمين ليت العلماء يكونون عند حسن ظن ربهم بهم (وقال الذين أوتوا العلم): هم الذين انبروا لإرشاد الناس وترفعوا عما اشتهاه الناس فهنيئاً للعلماء الصادقين.

وتأتي النهاية؛ نهاية كل ظالم، ويخسف الله بقارون وبداره الأرض، ولم يجد من يمنعه من الله. أما أولئك الذين تمنوا مكانه بالأمس فيعضون أيديهم ندماً، ويدركون أن الله يبسط الرزق لمن يشاء دون أن يكون لذلك دخل في تكريم الله تبارك وتعالى ويخشون أن يخسف بهم، ولكنها منة الله تبارك وتعالى أن نجاهم مما أخذ به قارون ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

---

(١) المختال: المتكبر في هيئته، والفخور: المتكبر بلسانه.

ويعقب القرآن على هذه القصة السابقة بأن الدار الآخرة في عظمتها وارتفاعها إنما يجعلها الله للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وما أبدع هذا الأسلوب! وما أدق التعبير! لم يقل القرآن نجعلها للذين لا يستعلون ولا يفسدون وإنما للذين لا يريدون العلو ولا الفساد وشتان بين التعبيرين، فالذين يريدون الآخرة إذن، ينبغي أن يكونوا بعيدين لاعتن العلو والفساد فحسب، بل عن إرادتهما والتفكير بهما كذلك، والعاقبة للمتقين.

﴿ إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوفِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ . فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ ۚ إِنَّهُمْ لَذَو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْنَاهَا إِلَّا الْآفُسُورُونَ . فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَافِّرُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۖ ﴾ [الفصص: ٧٦-٨٤].

رابعاً: خبر أصحاب الجنة: أما النموذج الرابع: فنختار له خبر أصحاب الجنة في سورة القلم، وسورة القلم جاءت تكريماً للنبي عليه وآله الصلاة والسلام، وتسلياً له وتثبيتاً لفؤاده وتذكيراً للمؤمنين، وإنذاراً للطاغين:

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَ وَالْقَلِيلِ وَمَا يَسْتَرْوْنَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١-٤].

وبعد أن حذر الله نبيه المصطفى وحببيه المجتبى عليه الصلاة والسلام من أن يُطيع من اتصفوا بصفات السوء ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، عقب على ذلك بقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، ويظهر أن القصة كانت معروفة عند القوم، يدلنا على ذلك النظم الكريم ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾، وسواء أكان أصحاب الجنة عرباً من اليمن أم غير عرب من بني إسرائيل، فذلك أمر لا تتعلق به عبرة، والقرآن الكريم يطوي مثل هذه الجزئيات - كما عرفنا من قبل -.

وأصحاب الجنة الذين حدثنا القرآن عنهم كان للمساكين نصيب في جنتهم في زمن أيهم، ولكنهم بعد موته هيمنت عليهم الأنانية وسيطر عليهم الشح، فأقسموا ليصبر من جنتهم مصبحين، ليقطعن ثمارها مبكرين قبل أن يراهم أحد من ذوي الحاجات، ولا يستنون، وأكثر المفسرين يفسرون هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا يَسْتَنُونَ﴾ أي إنهم لم يستنوا في يمينهم فلم يقولوا إن شاء الله، وهذا تفسير غريب جداً، ولكن الذي يبدو لنا في تفسير الآية - والله أعلم - أنهم عزموا على أن لا يتركوا شيئاً من ثمار جنتهم للفقراء والمساكين فقد أقسموا أن يقطعوا جنتهم ويجذوها مصبحين دون أن يستنوا من ثمرها شيئاً، إن الاستثناء في اليمين أي قول - إن شاء الله - مصطلح إسلامي متأخر عن العهد المكي، وهو أمر لا يحمد عليه هؤلاء، فما داموا قد عزموا على أن يمنعوا ذوي الحقوق حقوقهم، وأقسموا على ذلك، حتى لو فطنوا أن يقولوا إن شاء الله فإن ذلك ليس مكرمة لهم وليس لهم فيه مثوبة.

ولندع أولئك بعد أن أقسموا ليصبرُمنَّها مصبحين تداعبهم أحلامهم . فماذا عن الجنة؟  
يحدثنا القرآن أنه طاف عليها طائف من ربك بهذه العبارة المصورة الموحية، لقد أحاط  
بها هذا الطائف، هذه الجائحة السماوية فلم تترك منها سرباً واحداً، بل لم تترك شجرة  
بل فرعاً بل ثمرة واحدة، كل هذا وهم نائمون، ويأتي الصباح؛ يتنفس الصبح فماذا عن  
الجنة؟ فأصبحت كالصريم كأنها الليل، سوداء أحرقتها الإعصار فهل ترى لها من باقية،  
كل هذا وهم بعيدون لا يدرون بالأمر .

تلك هي الجنة أما هم فتتأذوا مصبحين كل منهم ينادي الآخر يستعجله قبل أن يفوت  
الأوان كأن كلاً منهم ينادي صاحبه ينادي بعضهم بعضاً أن اغدوا على حرثكم، واخرجوا  
مبكرين إن كنتم صارمين وينطلق القوم يمشون على عجل، وهم يشعرون أنهم متأخرون  
كأنما يريدون أن يستدركوا ما فاتهم، هذا ما تعطيه هذه الكلمة الكريمة ﴿فَانْطَلِقُوا﴾ أما  
قوله تعالى ﴿وَهُزِّنْخَفَتُونَ﴾ فما أكثر ما تعطيه هذه الجملة وما تلقيه من ضلال فعلى الرغم  
من أنهم وحدهم سائرون في الصباح لا يسمعهم أحد ومع ذلك فهم يتسارون فيما بينهم،  
ولا داعي لهذا الأسرار ولا حاجة له، ولكن القرآن يصور لنا هذا الجشع، وتلك الأنانية،  
وذلك الشح وصدق الله ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ  
الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ كانوا يتخافتون فيما بينهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين، وغدوا  
على حرد قادرين، صاروا في غدوتهم متوهمين أنهم قادرون على حرد: أي قادرون على  
منع الفقراء والمساكين من أن يدخلوا جنتهم، قادرون على أن يجلبوا لهم النكدة  
والمقت، ويصل القوم إلى جنتهم وهنا تكون المفاجأة لم يجدوا شيئاً، إنه الضلال إذن،  
إنهم تائهون؛ ولكن أليست هذه المعالم الكثيرة تدل على أن المكان هو المكان، بلى إذن  
ليسوا تائهيين، بل تبددت كل امالهم وطارت كل تلك الأمانى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ. بَلْ  
نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وهنا يتدخل أعقلهم كأنما يريد أن يذكرهم بما كان منه ويقررهم بما حدث،  
ألم أقل لكم لولا تسبحون، ألم أنهيكم عما عزمتم عليه من منع ذوي الحقوق حقوقهم،



ألم أحثكم على أن تذكروا الله؟ ولكن أي أثر لذلك القول؟ إنه لم يترك أثراً حتى في نفس صاحبه، كان لزاماً على صاحب هذا القول أن يستمر على قوله، أن يستمر على نصيحته وأن يدوم على معارضته، ولكنه ضعف أمامهم، وصاحب الحق حريّ به أن لا يضعف، ومن يدري لو أن صاحبهم هذا كان ذا إصرار وحزم وعزيمة لاستطاع أن يقيهم شر ما حل بهم، والقرآن الكريم يبين لنا تلك الحقائق لتكون لنا فيها العبرة فلا نضعف عن حق نوقن به، كما ضعف ذلكم الرجل الذي تحرك في نفسه وازع الخير ولكنه لم يستطع أن يقاوم الهواجس والوساوس في داخله كما ضعف عن مقاومة إصرار إخوته على باطلهم وجشعهم، ويدرك القوم فداحة ما حلّ بهم ويعترفون بظلمهم، وأي ظلم أعظم من أن يُمنع صاحب الحق حقه؟ وأي ظلم أعظم من أن تجحد نعمة الله تبارك وتعالى؟ ﴿قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ويصور القرآن الكريم هذا الذهول الذي أصابهم فإن كل واحد منهم كان في واد بعيداً عن صاحبه، كان في شروود وذهول وهلع، يصور لنا القرآن كل هذا بهذه الكلمة المعبرة ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَوْهُمْ﴾ أقبل بعضهم على بعض وكأنه كان بعيداً عن صاحبه يتلاومون، كيف لا، وقد كان أملهم أن يغدوا على حرث، ولكنهم غدوا على حرد لقد صمموا أن يكون هذا الحرد وهذا المنع لغيرهم فأبى الله إلا أن يكون لهم، وها هم يلوم بعضهم بعضاً وكأنك بهم وأصواتهم يختلط بعضها ببعض يقول بعضهم لبعض:

أحدهم: ويح فلان لقد كان هو السبب في كل شيء هو الذي اقترح فكرة الشؤم.

الثاني: لا، لست أنا الذي بدأت، أنت الذي قلت هذا.

الثالث: ويحكمما لقد اجتمعتما دون أن نعلم وقررتما هذا القرار الخييث.

الرابع: إيه لقد نصحتكم فأبَيْتُم الاستماع.

الخامس: ويحك ولكنك قلتها كلمة في فمك كأنما قلتها وأنت مُستحي من نفسك.

وقد أفرغوا ما في جعبتهم من تلاوم ولكن ماذا يجدي؟ لا يجدي شيئاً، وهامهم يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك يا ويلنا إنا كنا طاغين، وتثور في نفوسهم جذوة إشراق، ولكن بعد ماذا؟ بعد حلول الدبرة وخراب البصرة ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ إلى الله لا إلى غيره لأن غيره لن ينفعهم شيئاً.

ويعقب القرآن على هذه القصة ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَنَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، هل رأيت تعقيباً يصلح لهذه القصة أكثر من هذا التعقيب؟ اللهم لا! وعُدْ بنفسك إلى كل تعقيب عُقِبَ به على القصص السابقة، تجد الإحكام البديع، والنهاية الرائعة ارجع إلى التعقيب على قصة قارون وقصة طالوت وغيرهما من القصص واتل قوله سبحانه ﴿كَتَبْنَا أُخُوتَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فُضِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، واقرأ قوله سبحانه ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] يقول الاستاذ محمد رجب البيومي:

«أعد قراءة السطور القرآنية التي تتحدث عن أصحاب الجنة مرة ثانية واسأل نفسك عن تأثيرها النافذ بعمق بعيد إلى اطواء أطوائك، وتذكر هل قرأت في القصص البشرية القصيرة ما يبلغ مبلغها من النفاذ والتأثير؟ ثم حاذر أن تصدق كل ما يقوله بعض ما تناولها بالتحليل الأدبي في ضوء مقاييسه المنهجية، إذ ذهب إلى أنها مثال جيد للأقصوصة التي تدور على الحدث كما اختار قصة قرآنية ثانية لتكون مثلاً للأقصوصة التي تدور على الشخص واهما أنه بذلك يقيم المعالم النقدية ذات الحدود والأبعاد، ولا أدري لماذا أشفق من بعض هذه المعالم بدليل أنه لا توجد في الآداب جميعها قصة تنفرد بالحدث وأخرى تنفرد بالشخص، لأن الحدث لا يصدر إطلاقاً إلا عن شخص يقوم به وفي أقصوصة أصحاب الجنة أناس أصروا واعتزموا وحاولوا التنفيذ فباءوا بالخذلان، ثم لم يجدوا في النهاية بُدّاً من الإذعان والنكوص عن العناد فكيف تكون مثالا للقصة القائمة على الحدث وحده، كما أن قصص الأشخاص مجموعة أحداث قام بها البطل، ولو قدر له ألا يقوم بهذه الأحداث ما كان بطلا ذا وقائع!.

إن التقسيم المنهجي في مجال النقد القصصي إذا أُتيح له أن يبلغ مبلغه المنطقي من التحديد والتركيز يجب ألا يكون ذا اشتباه واختلاط تتداني فيه الفوارق إلى درجة الإقتراب كما نرى الآن وقد يكون من الجائز أن يطغى الحدث على الشخصية في بعض القصص أو تطغى الشخصية على ما يحيط بها من الأحداث، ولكنه طغيان يتساءل عن عِلَّتِهِ بحيث تتلمس له المسوغات لا أن يكون منهجا من مناهج الأسلوب؟؟؟<sup>(١)</sup>.

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَنْوُونَ . فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَنَادَوْا مُصْبِحِينَ . أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْشَفُون . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ . وَغَدَوَا عَلَى حَرٍِّ قَدِيرٍ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ . قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . عَسَى رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . ﴾

(١) البيان القرآني تأليف الدكتور محمد رجب البيومي ربيع الثاني ١٣٩١هـ، مايو سنة ١٩٧١م الكتاب الواحد والثلاثون ص ١١٣، ١١٤.

## المجموعة الثانية :

تلك نماذج أربعة تمثل الجانب السلبي في حياة الأمم أفراداً وجماعات وسأتحدث عن نماذج ثلاثة أخرى تمثل مبادئ الرقي وتكون الرحيق الطيب الذي تسمو به الأمة أفراداً وجماعات وإذا كان الحديث عن النماذج السابقة يهدف إلى الأخذ بيد الأمة لتجنب الضعف والانزلاق والانحراف فإن نماذجنا هذه ترسم المنهجية المنضبطة التي لابد أن تتوافر للبناء وأعني بهذه العناصر في السورة التي كانت بدايتها قول الله تبارك وتعالى ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الرَّخَمَ الرَّخِمَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ قال العلامة أبو السعود رحمه الله في معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أي شيئاً من العوج بنوع اختلال في النظم وتناف في المعنى أو انحراف عن الدعوة الى الحق .

وختمت بقوله سبحانه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِي رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَتِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَنَ كَانَ رِجَوا لِقَاءَ رَبِّهِ . فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا .﴾ [الكهف: ١٠٩-١١٠] .

## سورة الكهف

اشتملت سورة الكهف على قصص متعدد الأغراض، متنوع الجوانب، والذي يتدبر السورة الكريمة يجدها ذات قاعدة تربوية عريضة، جاءت لتهدي المسلمين في فجاج هذه الحياة إلى سبل الخير والذي يظهر لي أنّ سورة الكهف التي وردت الأحاديث ترشد إلى قراءتها يوم الجمعة، والتي بيّنت أن آيات منها من أولها أو آخرها تعصم من الدجال، فإذا صحّت هذه الأحاديث؛ فإنّها تجعلنا، ندرك ما لهذه السورة من أثر يجب أن يكون في حياة المسلمين، ويوم الجمعة كما نعلم هو خير الأيّام، وهو لا مرية أول أيام الأسبوع عند المسلمين، يدلنا على هذا أحاديث كثيرة صحّت عن رسول الله ﷺ فقراءة السورة في هذا اليوم، لها غاية سامية، وغرض نبيل، وهدف مقصود.

### سبب حث النبي ﷺ على قراءة سورة الكهف:

إن في سورة الكهف، لقصصاً عظيماً، منها أولاً: قصة أهل الكهف، وفيها ثانياً: قصه موسى عليه السلام مع العبد الصالح عليهما الصلاة والسلام، وفيها ثالثاً: قصة ذي القرنين، وقد حدثتكم من قبل بأنّ إرشاد النبي ﷺ لقراءة بعض سور القرآن، ليس الهدف منه أخروياً فحسب أي لكون القارئ لهذه السور يحصل له أجر أكثر من قراءته لغيرها؛ فإن القرآن كلّ خير وكل حرف منه فيه عشر حسنات في سور القرآن كلها، ولكن الذي نفقهه من الأحاديث التي تحثّ على قراءة بعض السور، هو أنّ لهذه السور هدفاً آخر يتصل بإرشاد المسلمين في هذه الحياة، كما بينت لكم من قبل عند الحديث عن سورة البقرة، وأن الحثّ على قراءتها كان له أهدافه السامية ذكرتها هناك، فإذا نحن بحثنا عن هذا في سورة الكهف، وجدناها بما فيها من قصص، تبين بل تبني منهجاً متكاملًا في حياة المسلم، وإليك بيان هذا:

قصة أهل الكهف جاءت تحدثنا عن العقيدة التي ينبغي أن تملأ النفوس والقلوب لتثبيت العزم والحزم حتى لا يكون ضعف ولا خور، والعقيدة هي اللبنة الأولى في المنهج الرباني، ولما كانت هذه العقيدة والعبادة قد تكون عرضة للخطر ولأن يتزلق صاحبها بسبب طغيان المادة أولاً، وبسبب الشيطان ثانياً، ذكر القرآن الكريم عقب قصة أهل الكهف هذين الخطيرين: أعني الطغيان المادي وكيد الشيطان، أشار إلى الأول بقوله ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ وأشار إلى الثاني بقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ وهذا كله من أجل أن تحصن العقيدة الأمة حتى لا يطمع فيها عدوها، ثم ذكر بعد ذلك قصه موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وهي تشكل لبنة أساسية في حياة المسلم وهي العلم، العلم الذي تحيا به النفوس والقلوب، والعلم الذي فضل الله به الإنسان، وجعل الناس يتفاضلون به كذلك، وبعد هذه القصة ذكر نبأ ذي القرنين وهو يبين العنصر الثالث في حياة المسلم ألا وهو الجهاد، تلكم هي المنهجية التي بيّنتها سورة الكهف، وتلكم هي العناصر التي لا بد أن تتوافر ليكون المسلمون أقوياء في هذه الدنيا، لا سلطان عليهم لعدوهم الداخلي وهو الشيطان الذي يأتيهم من داخل أنفسهم ولا لعدوهم الخارجي الذي يستولي على خيراتهم، هذه العناصر واللبنات هي العقيدة والعلم والجهاد التي بيّنتها السورة الكريمة.

وسأحاول أن أتكلم بإيجاز عن قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين أما قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، فقد مرت في قصة موسى عليه الصلاة والسلام، حيث كانت الجانب السادس والأخير من حياته عليه الصلاة والسلام.

## قصة أهل الكهف:

ابتدأت قصة أهل الكهف بقوله سبحانه ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ وختمت بقوله سبحانه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

وقد أكثر المفسرون القول في أمور لم يعرض لها القرآن الكريم تتصل بالزمان والمكان اللذين عاشهما أهل الكهف كما تتصل بأسمائهم وكنبهم، ولقد: بينت أكثر من مرة أن القرآن الكريم يطوي كثيراً مما لا تدعو إليه الحاجة ومالا تكون به العبرة، ذكرت قصة الكهف مجملة في الآيات الأربعة الأولى ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أي لا تظن والخطاب قد يكون للنبي ﷺ، ويظهر أنه عام لكل من يصلح أن يخاطب أي لا تظن أن أمر أصحاب الكهف مع ما فيه من غرابة كان من الأمور العجيبة فإن في ما قدرناه في هذا الكون ما هو أعجب من أمرهم وتحدثنا الآيات أن أولئك الفتية أوا إلى الكهف وفي هذه الكلمة (الإيواء) تصوير بياني بديع كأنهم كانوا يعيشون حالة من القلق والاضطراب النفسي وألم الروح وحينما دخلوا الكهف وجدوا فيه طمأنينتهم، كيف لا وهم يناجون ربهم أن يؤتيهم من لدنه رحمة خاصة بهم تمدهم بالثبات والحق وتزيل من نفوسهم مظاهر الاضطراب وأسباب القلق وأن يهيء لهم من أمرهم رشداً يثبت العقيدة في قلوبهم وبين القرآن ما أكرمهم به حيث ضرب على آذانهم في هذا الكهف سنين عدداً - والضرب على الآذان يقصد به أنه أوقع عليهم النوم العميق بحيث تنقطع الآذان عن كل ما يصل إليها من حركة بهذه الحياة مدة طويلة من الزمن سنين عدداً ثم بعثناهم بعد ذلك لنظهر آثار قدرتنا لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً أي بعثناهم لحكم كثيرة منها ليظهر اختلاف الحزبين في المدة التي لبثوا أولئك في كهفهم والحزبان يظهر أنهما أهل الكهف أنفسهم وقد اختلفوا في مدة لبثهم كما سيأتي وقد يكون الحزبان المؤمنين والكافرين تلكم الآيات الأربع أجملت الحديث عن أولئك

---

(١) اختلفوا كثيراً في معنى (الرقيم)، ولكن الظاهر انه اسم اللوح الذي كتبت عليه اسمائهم.

الفتية وبعد ذلك يأتي الحديث عنهم مفصلاً ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ والحق أن الإجمال والتفصيل من مزايا الأسلوب القرآني فعلى حين تستمع إلى القصة مجملة بأسلوبها الرصين تجدها وافية بالهدف الذي سيقى من أجله وبالغرض الذي جاءت لتحديث عنه إن هذه الآيات الأربع التي ليس فيها طول بل هي آيات قصيرة كما رأينا أدرك القارئ منها القضايا الرئيسة في خبر هؤلاء الفتية فلو اقتصر عليها لكان ذلك كافياً، ولكن التفصيل يثير أحداثاً وتستخرج منه فوائد في مجالات متعددة من مجالات الحياة فما أبدع هذا القرآن الكريم الذي لم يجعل الله له عوجاً وقد نقلت لك معنى هذه العبارة من تفسير العلامة أبي السعود رحمه الله ولنستمع إلى الآيات الكريمات وأول ما نستمع له في هذه الآيات ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ الحق الذي لا يتطرق إليه الباطل، الحق الذي لا شبهة فيه ولا شائبة، الحق الذي هو بعيد عن شطحات الخيال.

أبعد هذه الكلمة الطيبة يدعي الخراصون أن القصص القرآني لا يلتزم الصدق والواقعية ولا الحقائق الخارجية؟! ما أصدق ما جاء في أول هذه السورة كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ويبين القرآن للمرة الثانية أن أولئك كانوا في أعمار الورود نضارة وحسناً قرأنا من قبل قول الله ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ ﴾ وها نحن نقرأ الآن مرة أخرى ﴿ إِنْهُمْ فَتِيَةٌ ﴾ ولكنهم هذه المرة ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وزيادة الهدى منحة من الله يمنحها الله سبحانه من أخلص في الإقبال عليه واللجوء إليه، ألم يكن شأن أولئك كذلك؟؟ وصدق الله ﴿ وَالَّذِينَ آهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ نعم اتاهم تقواهم ولقد خص الله أولئك الفتية بعد هذه المنح فربط على قلوبهم وربط على القلوب في مفهوم القرآن التثبيت على الحق أيًا كانت العواصف والمحن.



## الفرق بين الربط والختم.

وما أعظم شأن القرآن ولستمع إليه وهو يفرق بين كلمتي الربط والختم فالربط على القلوب يخص الله به عباده أما الختم فهو جزاء الكافرين ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ ويفصل القرآن لنا نبأ أولئك الذين زادهم الله هدى وربط على قلوبهم اذ قاموا ثابتين على ما هم عليه قاموا بحق هذه العقيدة وهم يعلنون تبرؤهم من الشرك ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ أَشْطَطَّا ﴾ قولاً بعيداً عن الحق وفي القرآن ﴿ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ويعجبون من قومهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة لا تغني عنهم شيئاً بلا حجة ولا وسلطان ومن ذا الذي يملك سلطاناً على الشرك ومن ذا الذي يستطيع ان يقيم حجة على الباطل؟ لا أحد أظلم من أولئك الذين جحدوا وحدانيه الله وربوبيته وهو الذي خلقهم ومكن لهم . ويتحدثون فيما بينهم وهو حديث يدل على عزم المؤمن الداعية حينما يصمم على ما توجهه عليه ظروف الدعوة لقد كان هؤلاء الفتية من المنعمين في قومهم ومن أولاد أولي الشأن ومع ذلك فهم يصممون أن يعتزلوا قومهم المعرضين عن الحق وأن يعتزلوا معبوداتهم كذلك .

معنى واذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله .

وهنا لطيفة قرآنية ينبغي أن يتذكرها الدعاة إلى الله وبخاصة الفتية وهي قول الله سبحانه ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ فأكثر المفسرين على أن «ما» اسم موصول أو حرف مصدري والمعنى وإذا اعتزلتم قومكم وأصنامهم التي يعبدونها من دون الله أو وإذا اعتزلتم قومكم وعبادتهم فإن من الخير والسلامة أن تأوؤا إلى الكهف لينشر لكم ربكم من رحمته، ورحمته سبحانه وسعت كل شيء ويهيء لكم من أمركم مرفقاً أي ييسر لكم أسباب الخير وكل ما يذهب همكم وغمكم فنحن نرى أنهم بدأوا بالحديث عن اعتزال قومهم والذي رجوه من الله في هذه الآية من نشر الرحمة وتيسير الأمور هو ما تقدم من قبل في قولهم ﴿ رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ ﴾ وهذا التصميم على أن يعتزلوا قومهم

إنما يدل على الأثر العميق للإيمان في نفوسهم وهناك رأي آخر في تفسير الآية ذهب إليه بعض المفسرين وهو أن (ما) نافية والجملة من كلام الله جاءت معترضة بين كلام الفتية والمعنى على هذا إذ اعتزلتم قومكم فأووا إلى الكهف، وجاء قوله ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ بين هاتين الجملتين، أي إذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف والله يقول ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي إن الفتية اعتزلوا قومهم لا شيء إلا لأنهم يعبدون الله وحده، وعلى القول الأول وهو الذي نرجحه أن الكلام كله للفتية وعلى الثاني أن جملة ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ ليست من كلامهم وإنما من كلام الله.

وتنتقل الآيات إلى مشهد آخر تفصل فيه أحوالهم وهنا نجد أن هناك أموراً طويت، وهذا هو شأن القرآن الكريم كما قلت من قبل عند الحديث عن قصتي يوسف وموسى عليهما الصلاة والسلام يطوي كثيراً مما لا حاجة لذكره، فكأنهم بعد قولهم هذا أووا إلى الكهف، ذهبوا إليه، وبعد أن جلسوا أنامهم الله نوما عميقاً، وضرب على آذانهم، وها هو القرآن يصور لنا هيئتهم التي كانوا عليها في الكهف، ورحمة الله بهم، حيث حفظ أجسامهم، حتى لا يصبها تلف وفساد. حفظها أولاً: من حرارة الشمس، وحفظها ثانياً: من أن تؤثر الأرض في أجسامهم أما حفظهم من حرارة الشمس، فقد أشارت إليه الآية الكريمة ﴿وَقَرَى الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ تَزْوُورَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ الآية ومعنى الآية الكريمة أن الشمس حينما تطلع تزاور عن كهفهم أي تميل ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ﴾ أي إن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها وعند غروبها، ويرى بعض العلماء أن هذا يعود إلى طبيعة الكهف وموضعه، ويرى آخرون أن الأمر ليس كذلك، بل هي آية من آيات الله. وهذا ما نظمنا إليه لقوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ وما أجمل التعقيب في هذه الآية ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ فقد هدى بفضل هؤلاء الفتية مع صغر سنهم وقلة تجاربهم، وكان المجربون المستنون أخرى بهذه الهداية، وتصوّر الآية الكريمة بعض شؤونهم ﴿وَنَحْسَبُهُمْ آيَةً مُعْجَظَةً﴾

تحسبهم أيقاظاً إذا نظرت إليهم ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بهذا التعبير: «وهم رقود» تعبير مؤثر موحى «وهم رقود» هذه جملة اسمية تدل على الدوام والثبوت كما يقول البيانيون، أما الحالة الثانية التي حفظ الله فيها أجسامهم بعد حالة الشمس فهي قوله سبحانه: ﴿وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وتعرض الآية حالة كلبهم الذي تبعهم وكان معهم ﴿وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وهو فناء الكهف عند بابه أو هو الباب نفسه حالهم تلك لا يستطيع كل واحد مهما كان رابط الجأش أن يتملى منها بل سرعان ما تقع عيناه عليهم سيفر أو يمتلىء قلبه رعباً. وماذا بعد ذلك؟ والقارىء المتدبر تتوق نفسه إلى ما وراء هذا.

وها هو القرآن الكريم يفصل لنا ما أجمله من قبل ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئْسُوا أَمَدًا﴾ لنستمع إلى هذا التفصيل المبين، وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم، أي بعد أن أنمناهم هذا النوم العميق الطويل بعثناهم لحكم كثيرة ومنها أن يكون بينهم هذا التساؤل ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾؟ فيقول بعضهم ﴿لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ويقول آخرون دعوا هذا التساؤل ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ وقد أخذ بعضهم من هذه الآية الكريمة معرفة عددهم بأنهم كانوا سبعة لأن قوله سبحانه: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ يدل على أن المتكلم واحد، وقوله: ﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ بواو الجمع وأقل الجمع ثلاثة والمجموع أربعة، وقوله ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ يدل على ثلاثة أيضاً لأنه أقل الجمع فالمجموع سبعة إذن ليذكروا مقدار المدة التي لبثوها، وليبحثوا عما هم أحوج إليه ليقيم أجسامهم (الطعام) ﴿فَاَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ وهنا نتعلم درساً في اللياقة والذوق، إن كثيراً من الناس المتدينين، يظنون أن التدين امتناع عن الطيبات التي أباحها الله، فهم يحرمون أنفسهم أن تتلذذ بنعم الله سبحانه، وهو تصور بعيد عن روح الإسلام كتاباً وسنةً وتطبيقاً عملياً كذلك ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وكان هذا ما فقهه الفتيه المؤمنون الذين زادهم الله هدى، ولنستمع ما يحدثنا القرآن عنهم ﴿فَلْيَنْظُرْ آيَهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾

ويذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى ﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي الحلال الطاهر ولا أدري لِمَ ذهبوا إلى هذا القول مع أن الفتية مجتنبون ما حرم عليهم ثم إن هنالك أمراً آخر ما أحوج الدعاة إليه وبخاصة في عصرنا هذا وهو قوله سبحانه ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وهو الحكمة في التعامل وعدم التزمّت هذا هو فقه الفتية اختيار الطيبات من الرزق، والحكمة في المعاملة ثم التحذير من أسلوب العنف، والمبالغة في السرية ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾. وقد كانوا يظنون أن الحال لازال كما هو عليه، عند إيوائهم إلى الكهف، ولم يدروا أنه قد مرت سنون وتوالت قرون وذهبت أجيال، ويزيد بعضهم بعضاً تحذيراً ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي يطلعوا على أحوالكم، ويعرفوا مكانكم، فلن تكون ما تحمد عاقبته، فليس هناك إلا واحد من اثنين إما أن يقتلوكم وإما أن يعيدوكم في ملتهم وهذا هو شأن الظالمين دائماً، وقد حدثنا الله في سورة إبراهيم أبي الأنبياء، وشيخ الحنفاء ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ويقول شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ وها هم أهل الكهف يقولون: إن أعادوكم في ملتهم فلن تفلحوا إذاً أبداً فالحذرَ الحذرَ ويذهب أحدهم ليحضر الطعام ولكن النقد الذي معه يختلف عن النقد الذي كان متداولاً بين الناس في ذلك الوقت. والله الحكمة العظيمة، وهكذا يطلع الله الناس على أحوالهم ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنِّي وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فالذي أنام هؤلاء هذه المدة الطويلة، قادر على أن يحيى الموتى ليقوم الناس لرب العالمين، حتى تجزى كل نفس بما كسبت، وقوله سبحانه ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ يرى بعضهم أن الضمير يعود على أهل الكهف، ويرى آخرون أنه يعود على الناس، والذي يترجح لديّ العموم ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ ويظهر أن المتنازعين هم الذين أطلعوا على أحوالهم.

والقرآن الكريم لم يفصل لنا كثيراً من هذا الاختلاف، فلنكتف بما جاء في القرآن ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ والذي يفهم من الآية الكريمة أن القوم حينما وصلوا إلى الكهف، توفي الله أهل الكهف فذهبت أرواحهم إلى حيث الرضوان، ثم يبين القرآن الكريم شأننا آخر من شؤونهم يتصل بعددهم فمن قائل إنهم ثلاثة رابعهم كلهم، ومن قائل إنهم خمسة سادسهم كلهم ويعقب القرآن الكريم على هذين القولين ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا حجة، لا دليل عليه ثم يذكر قولاً ثالثاً ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَمَانِيَّتُهُمْ كُلُّهُمْ﴾ ونلاحظ أن هذه الواو لم تأت في القولين السابقين ﴿رَأَيْبُعُهُمْ﴾، و﴿سَادِسُهُمْ﴾، وهذه ليست واو الثمانية كما يقول بعض الناس إذ ليس في اللغة واو تسمى واو الثمانية، لذا ذهب المحققون إلى أن عددهم سبعة لمرجحات منها وجود هذه الواو حيث لم تأت في القولين الأولين وجاءت في القول الأخير ثم يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ثم لا ينبغي أن تماري في شأنهم أي تجادل إلا مرآة ظاهراً أي عندك عليه حجة من الله ولا ينبغي أن تستفتي في أهل الكهف أحداً من أهل الكتاب إذ ليس عندهم ما يُطمأن إلى صدقه وما يركن إلى صحته وفي أثناء الحديث عن أهل الكهف يقول الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ وهو توجيه رباني يجب أن نلتزم به ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ وهذا الذكر قد يكون خاصاً إذا عزمت على شيء ولم تقل إن شاء الله فقلها حينما تتذكر، وقد يكون عاماً، أي يجب أن تذكر ربك في كل حين وعلى كل الأحوال، لا في الحالة التي نسيت أن تقول فيها إن شاء الله فحسب ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي عسى أن يهديني ربي في تبليغ رسالتي وإقامة الحجة على الناس، وما يعثهم على الاستجابة لأمر تكون أقرب وأكثر تأثيراً وأقوى حجة مما جاء عن أهل الكهف.

ويختم الحديث عن أهل الكهف بهذه الآية الكريمة ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ يقول المفسرون إنها ثلاثمائة سنة شمسية وتزيد في السنين القمرية تسع سنين ، لأن كل مئة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية فالسنة ٣٦٥ يوماً وجزء والسنة القمرية ٣٥٤ وجزء ، وذهب بعض التابعين إلى أن هذا القول عن مدة بعثهم حكاية عن بعض أهل الكتاب ولكن الله سبحانه وتعالى قال : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإن صحَّ هذا القول فإننا نلاحظ منه أن الاختلاف كان في شيئين اثنين في عددهم وفي مدة لبثهم أما العدد فقد عقّب عليه القرآن بقوله ﴿قُلِ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ وأمّا المدة فقد عقّب عليها القرآن بقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فلنكل الأمر فيه إلى الله سبحانه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ وهذه صيغة تعجب أي ما أبصره وما أسمع فلا يغيب شيء في هذا الكون عنه سبحانه ، لا تخفى عليه خافية ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ يقول اللغويون في قوله سبحانه ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ أبصر : فعل ماض جاء على صورة الأمر وكذلك أسمع أي ما أسمعته وما أبصره . مالهم من دونه ولي ولا يشرك سبحانه في حكمه أحداً من خلقه ، تلكم هي قصة أهل الكهف ، رأينا فيها دروساً كثيرة في العقيدة والأخلاق والذوق واللياقة ، وحسن التصرف وما لم أذكره أكثر مما ذكرت وكلام الله لا تنقضي عجائبه .

﴿أَمَّ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرْبَنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَيْسُوا أَعْيُنًا نَفَضُوا عَنْكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ وَمَا يَنْبَغُوكَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ وَرَبَّى الشَّمْسُ إِذَا

طَلَعَتْ تَرَاوُدَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا عَرَبَتْ تَقَرُّصُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ  
 عَائِلَةِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَنَحْسِبُهُمْ أَنْقَاطًا وَهُمْ  
 رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَاهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ  
 مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَكُمْ لَيْسَتْ  
 قَالَوا لَيْسَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَتْ فَابْتَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِكِكُمْ هَذِهِ إِلَى  
 الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا  
 إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا وَكَذَلِكَ  
 أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا  
 ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ  
 ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ  
 كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرًّا ظَهَرُوا وَلَا تَسْتَفِثْ فِيهِمْ  
 مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَأْنِي إِنْ فَعِلْتُ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ  
 عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا وَلْيُثْبِتْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ  
 أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ  
 فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿ [الكهف: ٩-٢٦] .

## قصة ذي القرنين

هذه القصة الثالثة في سورة الكهف، وقد تحدثنا عن القصة الثانية حيث كانت الجانب السادس في قصة موسى الكليم ﷺ.

أكثر الناس الحديث عن ذي القرنين، فأكثروا الحديث عن اسمه ونسبه، وأعماله، ومنهجنا كما علمتم أن نكتفي بما ذكره القرآن الكريم، باذلين الجهد في استخراج ما ترشد إليه الآيات الكريمة من حكم، وما توجه إليه من قيم في مجالات الحياة الكثيرة، وأحب أن أبادر القول هنا بأن ذا القرنين ليس هو «الاسكندر المقدوني» على الرغم من أن هذا قد اشتهر بين الناس، وحاول كثيرون أن يثبتوه وأصبح ما قيل فيه، إنه أحد ملوك الحميريين الذين كانوا يُعرفون بهذا اللقب، فمنهم «ذو اليزن» و«ذو الكلاع» وعلى هذا فذو القرنين أحد أولئك الملوك، وقال آخرون إنه «قورش» الفارسي، والذي يعيننا نحن ما عناه القرآن، ويظهر أن قصة ذي القرنين كانت جواباً لسؤال وُجّه إلى رسول الله ﷺ يدلنا على هذا ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ وقوله سبحانه ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ يدلنا على أن خبر ذي القرنين متعدد الجوانب كثير الجزئيات لكن القرآن الكريم أخبرنا بما فيه الغنية والكفاية، ولما كانت هذه القصة في سورة الكهف، تمثل عنصر الجهاد، حيث جاءت بعدما تحدثت عن عنصري العقيدة والعلم أقول لما كان الأمر كذلك بين الله سبحانه وتعالى ما مكن ذا القرنين فيه من أسباب العطاء قوة وعدلاً وحكمة ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ وآتيناه من كل شيء يحتاجه أولو القوة والحكم ﴿فَأَنْعَمَ سَبَّأً﴾ ويسير ذو القرنين، ولم يذكر القرآن الجنود والأتباع الذين كانوا معه، والذي يبدو لي أنهم لم يذكروا حتى لا يُظن أن لهم دخلاً فيما أعطاه الله ومنحه، وليس عدم ذكرهم لعدم وجودهم، أي عدم ذكر القرآن لهم ليس دالاً على أنه كان يسير وحده، ويسير ذو القرنين في مغرب الأرض حتى وصل إلى آخر مكان يعمره الناس، فظن أنه مغرب



الشمس كما يبدو له، ويظهر أنه كان مكانا قريبا من البحر، وهذا ما يفهم من الآية الكريمة ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والعجيب أن بعض الناس استغل هذه الآية ليستنتج أن القرآن الكريم لا يلتزم بالصدق وهي فرية يعلم الله عظمة، والقرآن الكريم حينما قال ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ يدل على أن هذا الأمر كان في ظنه وحسابه، فليس فيها ما ذهبوا اليه ومثل ما استدلوا به على قولهم، كذلك قول الله تعالى عن اليهود وقولهم ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ إذ اليهود لا يعترفون برسالة عيسى، والحق أن كلمة رسول الله قد تكون تهكماً منهم، وهذا أسلوب معروف بين الناس، وقد تكون تعظيماً من الله لعيسى عليه السلام، وأعني بالذين ذهبوا هذا المذهب صاحب الفن القصصي في القرآن والمشرف على رسالته، وقد ناقشنا شبهاته سابقاً.

وصل ذو القرنين إلى ذلك المكان، فوجد قوماً هناك، وكأن القوم عرفوا قوته، وعرفوا شيئاً من فضله، وكان من شأن أولئك القوم، وقد دعاهم إلى الخير، أن كان منهم الصالح وغير الصالح، ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ويتبين فضل الرجل وعدله وقوته وإيمانه مما حكاه القرآن الكريم ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ ولكنه عذاب أشد وأخزى، أما المؤمنون الذين عملوا الصالحات فإن لهم عندنا جزاء عظيماً سنحسن إليهم بأن نعطيههم ما يصلح شأنهم، ونقول لهم قولاً لنا كريماً.

ويمضي ذو القرنين إلى أن وصل إلى آخر مكان يسكنه الناس في المغرب، ويرجع إلى أن يصل إلى آخر مكان يسكنه الناس في المشرق، فيجد هنالك قوماً بدائين وهم عراة ليس لهم ما يسترهم إلا الشمس ولم يحدثنا القرآن شيئاً عما جرى بينه وبينهم، وإن كان الذي أرجحه أن ذا القرنين لم يترك أولئك القوم بلا توجيه بل بذل ما يمكن بذله في اصلاحهم، والقرآن الكريم، وإن لم يذكر هذا، لكن الذي نعلمه أن أهل الخير لا يحلّون في مكان إلا ويتركون أثراً من خير الله الذي أعطاهم. ويترك ذو القرنين هذا المكان ويسير إلى أن يصل بين السدين، أي إلى مكان بين جبلين، ويجد من دون السدين،

قوما لا يكادون يفقهون قولاً، لا لصعوبة لغتهم فحسب، بل يظهر لعدم رشدهم وقلة حيلتهم، وهامهم يطلبون من ذي القرنين أن يحميهم من يأجوج ومن مآجوج وهنا دقيقة قرآنية يجب أن نقف عندها متدبرين، يظهر ان القوم لم يكونوا على مبلغ من العلم ولم يكن لهم قسط من الحصافة والحكمة لكن القوم لم يكن ينقصهم المال ولقد ذكرت، وأنا أقرأ الآية الكريمة، أمتنا التي تملك المال الكثير ولكنها لا تملك السياسة والحكمة والتدبير لكي تستثمر هذا المال فيما يعود عليها بالخير، بل قد تنفقه فيما لا يزيدها إلا عناءً وبلاءً ووباءً، وما هم يقولون لذي القرنين: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ويعرضون عليه أن يعطوه أجراً، لينني بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، ترى فإذا كانوا يملكون المال، فلمَ لم يستثمروه فيما فيه خيرهم؟ ويردُّ ذو القرنين بأن الله أعطاه خيراً مما عندهم، فهو لا يحتاج لأموالهم، لكن يريد منهم وهم عدد لا يستهان به أن يعينوه بقوتهم الجسمية ما داموا قد حرموا القوة العقلية والقدرة على التخطيط، فإن هم فعلوا ذلك جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج «ردماً» تصعب إزالته.

وبين القرآن الكريم خطته التي سار فيها ﴿أَتُوفَى زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾، أي قطعاً من الحديد كبيرة وكثيرة، حتى إذا ساوى ما بين «الصدفين» أي الجبلين قال «انفخوا» حتى إذا جعله ناراً أفرغ عليه النحاس المذاب ليزداد قوة على قوة، ولقوته لم يستطيعوا أن «يظهروه» أي يصعدوا عليه ولم يستطيعوا أن يحدثوا فيه ثغرة كذلك. وحمد ذو القرنين ربه على ما أنعم به عليه ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءُ﴾ أي سواه بالأرض، ووعد ربه مُمكنٌ أن يكون قيام الساعة كما روي في بعض الآثار، كما يمكن ان يكون الوقت الذي أراده الله لهدم هذا السد، وقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أن يأجوج ومأجوج هم المغول والتتار، ويستدلون بهذا لما جاء في صحيح البخاري رحمه الله من حديث زينب بنت جحش - رضي الله عنها - قالت: استيقظ رسول الله ﷺ - من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: لا إله إلا الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترَب، فتح اليوم من ردم يأجوج

ومأجوج مثل هذه، وحلق بين أصابعه قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»<sup>(١)</sup>.

تلكم هي قصة ذي القرنين، وهي القصة الأخيره من سورة الكهف، وهي المجموعة الثانية في القصص القصير الهادف، حيث تكونت المجموعة الأولى من نماذج أربعة كانت كلها تحذيراً من عوامل الفساد والبغي، وأعني بها قصة ابني آدم وقصة الملاء من بني إسرائيل، الذين بعث الله لهم طالوت ملكاً، حيث جنبوا وأصابهم الهلع، وقصة قارون الذي أطغاه المال فأفسد في الأرض وقصة أصحاب الجنة الذين أعمتهم الأثانية فنزعت من قلوبهم الرحمة، وأمّا المجموعة الثانية التي تحدثت عنها الآن، فقد اشتملت على نماذج ثلاثة أيضاً، ولكنها تختلف عن سابقتها بأنها نماذج بناء، وقد اشتملت على العقيدة والعلم والجهاد، وهي أمور لا تحيا أمتنا إلا بها، فالعقيدة تقينا شر الانحراف والتسبب والترهل والعلم يحفظنا من الانسياق الفكري، ويمنحنا القدرة على التخطيط، والجهاد يحول بيننا وبين أن يشرق بنا العدو، هذه العناصر الثلاثة هي السد الذي هو أقوى من سد يأجوج ومأجوج، وقد بدأت بالمجموعة الأولى لأن فيها درءاً للمفاسد والتخلية مقدمة على التحلية، وأرجو الله أن يمكن القرآن في نفوسنا، لتفاعل مع هذا القرآن ليتمكن الله لنا في الأرض، وهو سبحانه حسبنا ونعم الوكيل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن حديث رقم ٧٠٥٩ الطبعة السلفية مع الفتح ١٣/ ١١.

ذلكم هو القصص القرآني في حلاوته وطلاوته في جماله وروعته، في عظاته ونفحاته، في أهدافه وغاياته، في مشاهدته ومواقفه، نرجو أن يكون لنا فيه قبس يضيء لنا الطريق حتى لا نضل المسيرة ونظل في عماية وحيرة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والله يجزي سيدنا محمداً ﷺ خير ما يجزي نبياً عن أمته وآل سيدنا محمد وصحبه.

فهذه والله الحمد والمنة جولة في أرجاء القصة القرآنية شرفنا بها تلاوة ونعمنا بها عبقاً، واستنارت بها نفوسنا هداية وحكمة، وأثلجت صدورنا إمتاعاً وأنساً، واهتدينا بها شهاب قبس: ناقشنا دعوى التكرار، ووقفنا على كثير من الحكم والأغراض والأهداف، وعرفنا اللبنيات التي وضعها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذا البناء الإنساني المحكم إلى أن جاء خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام فآتم هذا البناء وقد رددنا الشبهات التي أثّرت زوراً على القصص القرآني ما أمكن وأرجو الله أن أكون قد وفقت وأستطيع القارئ عذراً من سبق لسان، أو زلة قلم وتبقى للقصة القرآنية جوانبها النفسية والتصويرية والبيانية، تبقى بحاجة لذوي البصائر يفجروا منها ينابيع الحكمة والنور، ومن عيونها العذبة ماء الحياة، ليبلوا صدىً، ويذهبوا ظمأً، ويخرجوا خبأها، وينشروا ضوءها، ونشكر جهود المتقدمين وإنني إذ أحمد الله أشكره أن وفقني لأشرف بالكتابة عن خيرة خلق الله رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وعلى أن تقيأت هاتيك الظلال الوارفة المنعشة أساله تبارك وتعالى وهو الأكرم والأجود أن يوفقني ويمنحني من فضله ويتم عليّ نعمته ويكمل منته فيكرمني ليتم لي الخير فأشرف وإن كنتُ لست أهلاً لهذا بالكتابة في سيرة سيدنا محمد ﷺ لأكمل الكتاب بهذا البناء الطيب وهي رغبة أسأل الله أن يحققها لي وأن يوفقني لخدمة كتابه الكريم وسنة نبيه الشريفة وسيرته ﷺ العطرة والله الحمد في الأولى والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

الأول من شهر الله الحرام ١٤٢٠هـ

السابع عشر من نيسان ١٩٩٩م

## المراجع

- ١- الالوسي: الشيخ محمود - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المطبعة المنيرية بمصر.
- ٢- باجوده: د. حسن محمد - الوحدة الموضوعية في سورة يوسف - الطبعة الثانية، جدة س١٤٠٣، س١٩٨٣.
- ٣- بحوث المؤتمر الأول: للاعجاز القرآني المعقود بمدينة السلام بغداد بين (٢١-٢٦) رمضان ١٤١٠هـ الموافق (١٦-٢١) نيسان ١٩٩٠ - أصدرته وزارة الاوقاف والشؤون الدينية في الجمهورية العراقية.
- ٤- البخاري: محمد بن اسماعيل - صحيح البخاري - دار القلم، بيروت- الطبعة الاولى س١٤٠١هـ ١٩٨١م.
- ٥- بلبول: محمد عبده - القصص القرآني - رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الأزهر - كلية أصول الدين.
- ٦- البيومي: محمد رجب- البيان القرآني - الكتاب الواحد والثلاثون من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية - ربيع الثاني ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- ٧- الترمذي: ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة - سنن الترمذي - مطابع الفجر الحديثة الطبعة الاولى ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م.
- ٨- الثعلبي: احمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري - قصص الأنبياء - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان ١٤١٤ - ١٩٩٤.
- ٩- ابن حجر: الحافظ شهاب الدين ابي الفضل العسقلاني فتح الباري شرح صحيح البخاري - شركة مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وأولاده بمصر س١٣٧٨هـ ١٩٥٩م.
- ١٠- ابن حنبل: أحمد - المسند- المكتب الاسلامي ودار صادر للطباعة والنشر/ بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.

- ١١- حسين: محمد الخضر - بلاغة القرآن، تحقيق وجمع علي الرضا التونسي ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- ١٢- حسن: محمود السيد - روائع الاعجاز في القصص القرآني - دراسة في خصائص الاسلوب القصصي - الاسكندرية المكتب الجامعي س ١٩٨٢.
- ١٣- الحسيني: الحاج أمين - حقائق عن قضية فلسطين.
- ١٤- الخطابي: سليمان بن حمد - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن الخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام - الطبعة الثالثة - دار المعارف - بمصر.
- ١٥- الخطيب: عبد الكريم القصص القرآني في منطقته ومفهومه - ملتزم الطبع دار الفكر العربي س ١٣٨٤هـ س ١٩٦٥م - طبعة أولى.
- ١٦- الخطيب: عبد الكريم القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور. الطبعة الاولى بيروت دار الأصاله ومؤسسة الرسالة س ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ - سلسلة من قضايا القرآن.
- ١٧- الرازي - الفخر التفسير الكبير - الطبعة الاولى س ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥ - المطبعة المصرية من محمد عبد اللطيف.
- ١٨- الرافعي: مصطفى صادق - وحي القلم - دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.
- ١٩- رضا: الشيخ محمد رشيد - تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الثانية.
- ٢٠- الزركشي: الامام بدر الدين محمد بن عبدالله - البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم - دار احياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه - الطبعة الأولى ١٣٧٨ ١٩٥٩م.
- ٢١- زلط: د. القصبي محمود - قضايا التكرار في القصص القرآني، القاهرة: دار الانصار ١٣٩٨-١٩٧٨م.

- ٢٢- الزمخشري: محمود بن عمر - الكشف عن حقائق غوامض التنزيل - الناشر المكتبة التجارية الكبرى مطبعة مصطفى محمد مصر الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م.
- ٢٣- السماحي: الشيخ محمد محمد مذكرات في التفسير الموضوعي تشمل (الالوهية الرسالة التأمين) - كلية أصول الدين جامعة الأزهر.
- ٢٤- شاکر: أحمد محمد - تحقيق الكتاب المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم - لابي منصور الجو يقي مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٦١هـ.
- ٢٥- شاکر: احمد محمد - كلمة الحق/ اصدع بما تؤمر/ دار الكتب السلفية الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ.
- ٢٦- الطباطبائي: السيد محمد حسين. الميزان في تفسير القرآن منشورات مؤسسة الاعلامي للمطبوعات- بيروت.
- ٢٧- عباس: د. فضل حسن قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية - دار البشير عمان.
- ٢٨- عباس: د. فضل حسن - خماسيات مختارة في تهذيب النفس الامارة - دار الفرقان.
- ٢٩- عباس: د. فضل حسن - اعجاز القرآن الكريم - دار الفرقان.
- ٣٠- عباس: د. فضل حسن - لطائف المنان وروائع البيان في دعوى الزيادة في القرآن دار النور للطباعة والنشر - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- ٣١- عباس: د. فضل حسن - مناهج المفسرين - مخطوط.
- ٣٢- عباس: د. فضل حسن - التفسير تطوره واتجاهاته - مخطوط.
- ٣٣- عوضين: إبراهيم - البيان القصصي في القرآن الطبعة الثانية الرياض دار الأصاله ١٤١٠، ١٩٩٠م.
- ٣٤- ابن قتيبة: ابو محمد عبد الله بن مسلم - تأويل مشكل القرآن - دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- ٣٥- القشيري: مسلم بن الحجاج - صحيح مسلم -.

- ٣٦- قطب : الامام الشهيد سيد - التصوير الفني في القرآن دار الشروق بيروت .
- ٣٧- قطب : الامام الشهيد سيد في ظلال القرآن - الطبعة الخامسة .
- ٣٨- مجلة : مجلة لواء الاسلام - العدد السابع - السنة الرابعة .
- ٣٩- المحامي : محمد كامل حسن - القرآن والقصة الحديثة، الطبعة الاولى - بيروت- دار البحوث العلمية ١٩٧٠م .
- ٤٠- محمود : الدكتور مصطفى- محاولة لفهم عصري للقرآن .
- ٤١- الملكاوي : محمد أحمد- مختصر اظهار الحق لرحمة الله هندي الطبعة الاول س١٤١٨-١٩٩٧م .
- ٤٢- المناوي : محمد المدعو عبد الرؤوف - فيض القدير شرح الجامع الصغير - المكتبة التجارية الكبرى مطبعة مصطفى محمد - الطبعة الاولى ١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م .
- ٤٣- المنذري : الحافظ- مختصر سنن أبي داود - تحقيق محمد حامد الفقي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م .
- ٤٤- ابن نبي : مالك-الظاهرة القرآنية-ترجمة د. عبدالصبور شاهين-مكتبة دارالعروبة .
- ٤٥- النجار : عبد الوهاب قصص الأنبياء- دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الثالثة .
- ٤٦- نقرة : التهامي سيكلوجية القصة في القرآن تونس : الشركة التونسية لفنون الرسم ١٩٧٤م رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة جامعة الجزائر س١٩٧١م .
- ٤٧- النيسابوري - الامام ابي عبدالله المستدرک على الصحيحين .
- ٤٨- الهيثمي : نور الدين علي بن ابي بكر ابن حجر - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - مكتبة القدسي ١٣٥٣ القاهرة .
- ٤٩- الوكيل : د. محمد السيد - نظرات في أحسن القصص - الطبعة الأولى- دمشق : دار القلم بيروت ، الدار الشامية س١٤١٥هـ - ١٩٩٤م .
- ٥٠- إنجيل برنابا .



## الفهرس

المقدمة .....	٥
الباب الأول .....	١٣
الفصل الأول: الكاتبون في القصص القرآني .....	١٥
عبد الوهاب النجار .....	١٦
عبد الكريم الخطيب .....	١٩
التهامي نقرة .....	٣٦
محمد السيد الوكيل .....	٤٢
الفصل الثاني: القصة القرآنية أهدافها وخصائصها .....	٤٣
أهداف القصة القرآنية .....	٤٤
الخصائص الذاتية للقصة القرآنية .....	٤٥
الخصائص الفنية للقصة القرآنية .....	٤٧
القصص في العهدين القديم والجديد .....	٤٩
القصة الأدبية .....	٥٠
الفصل الثالث: شبهات حول القصة القرآنية .....	٥٢
الفصل الرابع: القصة القرآنية وشبهة التكرار .....	٦٥
ما ذكره العلماء الأقدمون حول التكرار .....	٦٦
فوائد تكرار القصة كما يراها الزركشي .....	٦٩
ما هو التكرار الذي نعينه .....	٧١
المحدثون والتكرار .....	٧٢
رأينا في الموضوع .....	٧٣
هل في القصص القرآني تكرار .....	٧٥
ماذا نقصد بنفي التكرار عن القصص القرآني .....	٨٠

الطريقة المثلى في دراسة القصة القرآنية .....	٨٢
الفصل الخامس : ترتيب القصص القرآني في السور .....	٨٣
الباب الثاني : القصص القرآني عرض وتحليل .....	٩٧
الفصل الأول : قصة آدم عليه السلام .....	١٠١
أولاً من حيث الجزئيات والموضوعات والمواقف والمشاهدات .....	١٠٣
١ - سورة ص .....	١٠٣
٢ - سورة الأعراف .....	١٠٤
٣ - سورة طه .....	١٠٨
٤ - سورة الإسراء .....	١٠٩
مسالك الشيطان في الاغواء ووسائله .....	١١١
٥ - سورة الحجر .....	١١٢
٦ - سورة الكهف .....	١١٤
٧ - سورة البقرة .....	١١٥
الأسماء التي علمها آدم .....	١١٥
ثانياً : اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها .....	١١٧
ثالثاً : من جهة الألفاظ والتراكيب .....	١١٨
الغرض الديني والنسق الفني في قصة آدم .....	١٢١
تعليق على قصة آدم .....	١٢٢
١ - مجيء قصة آدم مع غيرها من القصص .....	١٣٢
٢ - الاستعدادات الفطرية التي منحها آدم .....	١٣٣
٣ - قضية التدين .....	١٣٤
٤ - تكريم بني آدم .....	١٣٥
٥ - الجنة التي أُسْكِنها آدم .....	١٣٥
٦ - خلق آدم عليه السلام والنظريات الحديثة .....	١٣٦
٧ - زوج آدم عليه السلام .....	١٣٧
القرآن لم يحمل المرأة مسؤولية الأكل من الشجرة .....	١٣٧

١٣٨	٨- ما المقصود بالشفاء .....
١٣٩	٩- ما هي الروح .....
١٤٠	١٠- أين جنة آدم .....
١٤٢	١١- هل هناك آدمون قبل آدم .....
١٤٤	١٢- هل البشر من أب واحد .....
١٤٦	تأويل الشيخ محمد عبده لقصة آدم .....
١٥١	١٣- نظرية دارون .....
١٥٢	رأي الشيخ النجار في النظرية .....
١٥٣	رأي عبد الكريم الخطيب في النظرية .....
١٥٥	مذهب مصطفى محمود والرد عليه .....
١٧٠	توظيف قصة آدم عليه السلام في الأمور الدعوية .....
١٧٣	الفصل الثاني: قصة نوح عليه السلام .....
١٧٥	أولاً: ما ذكر فيها من اشارات .....
١٧٧	ثانياً: من حيث الموضوعات والجزئيات .....
١٧٨	١- سورة القمر .....
١٧٩	٢- سورة الأعراف .....
١٨٠	٣- سورة الشعراء .....
١٨١	٤- سورة يونس .....
١٨٢	٥- سورة هود .....
١٨٦	الخلافاً في ابنه .....
١٩٠	٦- سورة الصافات .....
١٩١	٧- سورة نوح .....
١٩٤	٨- سورة المؤمنون .....
١٩٧	٩- سورة العنكبوت .....
١٩٧	الاطوار التي تمر بها القصة .....
١٩٨	ثالثاً: اختصاص كل سورة بما يتسق مع موضوعها .....

٢٠٢	رابعاً: تعقيب على قصة نوح عليه السلام
٢٠٢	١- قضية التوحيد
٢٠٣	٢- قضية الاستعلاء
٢٠٦	المدة التي قضاها نوح عليه السلام
٢٠٧	الفصل الثالث: قصة هود عليه السلام
٢٠٩	قصة هود عليه السلام
٢١٠	أولاً: السور التي تحدثت عن القصة
٢١٠	١- سورة الفجر
٢١١	٢- سورة القمر
٢١٢	٣- سورة الأعراف
٢١٣	٤- سورة الشعراء
٢١٦	٥- سورة هود
٢١٨	٦- سورة فصلت
٢١٩	٧- سورة الأحقاف
٢٢١	٨- سورة الذاريات
٢٢١	٩- سورة المؤمنون
٢٢٢	١٠- سورة الحاقة
٢٢٣	ثانياً: لم تفصل قصة هود كقصة نوح عليهما السلام
٢٢٤	ثالثاً: تعقيب على قصة هود عليه والسلام
٢٢٧	الفصل الرابع: قصة صالح عليه السلام
٢٢٩	أولاً: ما ذكر فيها من آيات
٢٢٩	ما ذكر فيها من اشارات
٢٣١	ما ذكر فيها تفصيلاً
٢٣١	١- سورة الشمس
٢٣٢	٢- سورة القمر

٢٣٣	٣- سورة الأعراف
٢٣٦	٤- سورة الشعراء
٢٣٨	٥- سورة النمل
٢٣٩	٦- سورة هود
٢٤١	٧- سورة الحجر
٢٤٢	٨- سورة العنكبوت
٢٤٣	ثانياً: من حيث الألفاظ والتراكيب
٢٤٣	١- ما جاء في قصة نوح عليه السلام
٢٤٥	٢- ما جاء في قصة هود
٢٤٦	٣- ما جاء في قصة صالح
٢٤٧	تعقيب على قصة صالح
٢٥١	لفصل الخامس: قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام
٢٥٣	١- اسم أبي إبراهيم
٢٧٦	٢- هل يكون آباء الأنبياء كافرين
٢٧٢	٣- ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية
٢٧٧	أولاً: ما ذكر فيها من اشارات
٢٧٨	١- سورة مريم
٢٧٩	٢- سورة الشعراء
٢٨٣	٣- سورة هود
٢٨٧	٤- سورة الحجر
٢٨٩	٥- سورة الأنعام
٢٩٥	٦- سورة الصافات
٣٠٠	٧- سورة الزخرف
٣٠٢	٨- سورة الذاريات
٣٠٣	٩- سورة النحل

٣٠٤	١٠- سورة إبراهيم
٣٠٥	١١- سورة الأنبياء
٣١١	١٢- سورة العنكبوت
٣١٥	حديث القرآن المدني عن إبراهيم عليه السلام
٣١٥	١- سورة الحج
٣١٦	٢- سورة البقرة
٣١٨	٣- سورة آل عمران
٣٢٥	تعقيب على قصة إبراهيم
٣٢٥	رقته ورأفته مع أبيه
٣٢٦	موقفه مع أبيه وابنه
٣٢٦	صفاته عليه السلام
	الفصل السادس والسابع والثامن: قصة إسماعيل واسحق ويعقوب
٣٣٧	عليهم السلام
٣٣٨	الفصل السادس: قصة اسماعيل عليه السلام
٣٤٣	الفصل السابع: قصة اسحق عليه السلام
٣٤٧	الفصل الثامن: قصة يعقوب عليه السلام
٣٥١	الفصل التاسع: قصة لوط عليه السلام
٣٥٣	أولاً: ما ذكر فيها من آيات
٣٥٣	١- سورة النجم
٣٥٤	٢- سورة ق
٣٥٤	٣- سورة القمر
٣٥٥	٤- سورة الأعراف
٣٥٦	٥- سورة الفرقان
٣٥٧	٦- سورة الشعراء
٣٥٨	٧- سورة النمل

ما بين سورتي الأعراف والنمل من فروق .....	٣٥٩
٨- سورة هود .....	٣٦٢
٩- سورة الحجر .....	٣٦٥
١٠- سورة الصافات .....	٣٦٨
١١- سورة الذاريات .....	٣٦٩
١٢- سورة الأنبياء .....	٣٦٩
١٣- سورة العنكبوت .....	٣٧٠
صفات قوم لوط .....	٣٧٢
ثانياً: تعقيب على قصة لوط عليه السلام .....	٣٧٥
اين مكان قوم لوط .....	٣٧٦
في نسبة الفاحشة .....	٣٧٨
الفصل العاشر: قصة يوسف عليه السلام .....	٣٧٩
الحلقة الأولى .....	٣٨٠
دروس الحلقة الأولى .....	٣٨٥
الحلقة الثانية .....	٣٨٦
الحلقة الثالثة .....	٤١٧
الحلقة الرابعة .....	٤٢٢
الحلقة الخامسة .....	٤٣٢
الحلقة السادسة .....	٤٣٦
الحلقة السابعة .....	٤٤١
تعقيب على قصة سيدنا يوسف .....	٤٤٨
قصة يوسف في دائرة المعارف البريطانية .....	٤٥٠
الفصل الحادي عشر: قصة شعيب عليه السلام .....	٤٥٩
من هو مدين .....	٤٦١
أولاً: ما جاء فيها من آيات	
١- سورة الأعراف .....	٤٦٢

٢-	سورة الشعراء	٤٦٦
٣-	سورة هود	٤٦٨
٤-	سورة العنكبوت	٤٧١
	ثانياً: تعقيب على قصة شعيب	٤٧٢
	الفصل الثاني عشر: قصة موسى عليه السلام	٤٧٣
	موسى عليه السلام هل كان مصرياً	٤٧٧
	الاشارات المبكرة في قصة موسى	٤٧٩
	السر في ذكره أكثر من غيره	٤٧٩
	الجوانب المتعددة في قصة موسى عليه السلام	٤٨٢
	الجانب الأول: مولده ونشأته	٤٨٤
	الجانب الثاني: بدء الوحي	٤٩٩
	الجانب الثالث: ارساله إلى فرعون	٥١٠
	الفروق بين السور: طه - الشعراء - الأعراف	٥٢٧
	الجانب الرابع: خبره مع بني إسرائيل	٥٥٤
	ما حقيقة العجل الذي عبده بنو إسرائيل	٥٧٦
	حديث السور المدنية	٥٧٨
	الحكمة في كون الأرض المقدسة هي آخر الحلقات	٦٠٠
	حقائق لا بد منها	٦٠١
	كلمة بعد المعاهدات والاتفاقيات	٦٠٢
	الجانب الخامس: جانب المنن الإلهية	٦٠٦
	الجانب السادس: قصة موسى مع العبد الصالح عليهما السلام	٦٠٦
	تعقيب على قصة موسى عليه السلام	٦١٧
	الفصل الثالث عشر: قصة يونس عليه السلام	٦٢٧
١-	سورة القلم	٦٢٩
٢-	سورة يونس	٦٣١



٦٣٢	٣- سورة الصافات
٦٣٤	٤- سورة الأنبياء
٦٣٦	هل ما حدث مع يونس عليه السلام يتنافي العصمة
٦٣٩	تعقيب على قصة يونس عليه السلام
٦٤٣	الفصلان الثالث عشر والرابع عشر: قصة داود وسليمان عليهما السلام
٦٤٧	١- سورة ص
٦٥٢	فتنة سليمان عليه السلام
٦٥٨	٢- سورة النمل
٦٦٧	٣- سورة سبأ
٦٦٦	٤- سورة الأنبياء
٦٦٨	٥- سورة البقرة
٦٦٩	تعقيب على هاتين القصتين
٦٧١	الفصل الخامس عشر: قصة أيوب عليه السلام
٦٧٣	١- سورة ص
٦٧٤	٢- سورة الأنبياء
٦٧٤	تعقيب على قصة أيوب عليه السلام
٦٧٧	الفصل السادس والسابع والثامن والتاسع عشر: قصص يحيى وزكريا وعيسى ومريم عليهم السلام
٦٧٩	الفصل السادس عشر والسابع عشر: قصة يحيى وزكريا عليهما السلام
٦٧٩	١- سورة مريم
٦٨٠	٢- سورة الأنبياء
٦٨٠	٣- سورة آل عمران
٦٨٥	الفصل الثامن عشر والتاسع عشر: قصة مريم وقصة سيدنا عيسى عليهما السلام
٦٨٥	١- سورة مريم
٦٩٠	٢- سورة الأنبياء

٦٩١	٣- سورة المؤمنون
٦٩١	٤- سورة آل عمران
٦٩٣	ما المقصود بالرفع والتوفي
٦٩٤	٥- سورة التحريم
٦٩٤	٦- سورة الصف
٦٩٥	٧- سورة المائدة
٦٩٧	تعقيب على تلك القصص
٦٩٧	أخبار آل عمران صفعة للماديين
٦٩٩	قضية الصلب والتثليث عرض ومناقشة
٧٠١	قضية التثليث
٧٠٦	قضية الصلب
٧١٣	الفصل العشرون: نماذج من القصص القصيرة
٧١٦	أولاً: نبأ ابني آدم
٧٢١	ثانياً: قصة الملاء من بني اسرائيل
٧٢٢	ما اشبه الليلة بالبارحة
٧٢٧	القرآن الكريم والوطن
٧٣٠	ثالثاً: نبأ قارون
٧٣٣	رابعاً: خبر أصحاب الجنة
٧٤١	قصة أهل الكف
٧٥٠	قصة ذي القرنين
٧٥٥	المراجع
٧٥٩	الفهرس

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

**[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)**

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)